

إِسْمَاعِيلُ
عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَضْرَةَ

الإمام
أبو حمزة الثمالی

مجلد اول
تأليف
المفتي



Bibliotheca Alexandrina



0001248

الحياة العلمية والدينية

تصنيف

الإمام ابن أبي حاتم محمد بن حجل الغبزي
المتوفى في ٥٠٥ هـ

وذيته كتاب

٥٠٦

المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار

في تجميع ما في الإخبار من الأخبار

إلى ما ذكره في الغنى إلى الفضل عبد الرحمن بن الحسن بن علي
المتوفى في ٥٠٥ هـ

وتماثل الألف في الكتاب في آخره ثلاثه كتب

الأول : تصنيف الأحياء بعض أهل الإحياء العلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله
بن شيخ بن عبد الله العبدوس باعلوك

الثاني : الإسماء عن أشكالات الإحياء الإمام الغزالي ، وذهب إلى أن الإحياء
أورد ما بعض المصنفين له على بعض المصنفين من الإحياء .

الثالث : عوارف الدارين ، لعارف بالله تعالى الإمام ابن حجر ورد

المكتبة التجارية الكبرى

المكتبة التجارية الكبرى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب التوبة

وهو الكتاب الأول من ريع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي يتحمده يستفتح كل كتاب ، ويذكره يصدر كل خطاب ، وبجمده يتنعم أهل النعم في دار الثواب ، وباسمه يسأل الأشقياء وإن أوحى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السمحاء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله المذاب . وتبوت إليه توبة من يؤمن أنه رب الآبائ ومسبب الأسباب ، وتزجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب ، وتخرج الخوف برجائنا من مزج من لا يوتاب ، أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

ونصل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تتقدنا من هول المطلع يوم العرض والحساب .
وتشهد لنا عند الله زلفى وحسن مأب .

أما بعد ؛ فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المرئيين ، ومفتاح استقامة السائرين ، ومطلع الاصطفاء والاجتناب للمقربين ، ولأينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجدر بالأولاد ، الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب الآدبى واجترأ ، فهو شفتة نرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فلا ظم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن الزوج إليه في كلا طرفي التقي والإتياء والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سن الندم ، وتندم على ما سبق منه وتندم . فمن اتفذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم ، بل التجرد لبعض الخير داب الملامكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافي بحجة الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين ؛ فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والتجرد للشر شيطان ، والمتلاق للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ؛ فقد ازدوج في طينة الإنسان شائيتان ، واضطحب فيه بهيمتان . وكل عبد مصحح نسب إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ؛ فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسب إلى آدم بملازمة سدا للإنسان ، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ؛ فإما تصحيح النسب إلى الملامكة بالتجرد

لخص الحير غاراج عن حيز الإمكان ؛ فإن الشر معجوز مع الحير في طينة آدم غشا عكبا لا يخلصه إلا إحدى النارين : نار التدم أو نار جهنم ، فالإحراق بالنار ضروري في تخلص جوهر الإنسان من خباثت الشيطان وإليكم الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطراب. إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموضع وجب تقديمها في صدر ربيع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها ، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : (الركن الأول) في نفس التوبة وبيان حذمها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة . (الركن الثاني) : فيا عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها إلى صغار وكبار وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزيع الدرجات والدرجات على الحسنات والسيئات وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغار . (الركن الثالث) : في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ماضي من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة . (الركن الرابع) : في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين . ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل .

الركن الأول : في نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينظم ويلتزم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، وحال ، وفعل . فالعلم الأول والحال الثاني ، والفعل الثالث . والأول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاء لإطراد سنة الله في الملك والملكوت . أما العلم ، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة حقيقة يقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب قوات المحبوب ، فإن القلب مهما شرب فوات محبوه تألم ، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المنفوت ، فيسمى تأله بسبب فعله المنفوت لمحبه به ، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانتهى من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال والماضي والاستقبال ، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنوب الذي كان ملابسا ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب المنفوت للمحسوب إلى آخر العمر ، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر ، فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعن هذا العلم الإيمان واليقين ، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب محرم مهلكة واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلاءه على القلب فيشمر نور هذا الإيمان بهما أشرق على القلب نار التدم فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار عجوبا عن محبوه ، كن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسقط النور عليه بانقشاع حجاب أو انحسار حجاب فرأى محبوه وقد أشرف على الهلاك فقتل نيران الحب في قلبه وتفتت تلك التيران بإرادته للاتيهاض للتدارك ، فالعلم والتدم والقصد التملق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول ، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى التدم وحده ويجعل العلم كالمسبق والمقدمة والتارك كالآخرة والتابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « التدم توبة ^(١) » ، إذ لا يتخلو التدم عن علم

(١) حديث « التدم توبة » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

أوجه وأثره ، وعن عدم يتبعه ويتلوه ؛ فيكون الندم محسوساً بطريقه أخرى ثمرة ومثمرة ؛ وهذا الاعتبار قيل في حدة التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ؛ فإن هذا يمرض لجود الألم ، ولذلك قيل : هو ناري القلب تلب ، وصعد في الكبد لا ينشعب ، وباعتبار معنى الترك قيل في حدة التوبة إنه خلغ لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل ابن عبد الله التستري : التوبة تبدل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة ، والاتقوا في حدود التوبة لا تنحصر ، وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وتربطها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها ، وطلب العلم بمحقق الأمور أم من طلب الألفاظ المجردة .

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار ^(١) والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته فشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدرت على أن يسمى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستقيماً قائلاً يقوده في كل خطوة . فالسالك إما أحمى لا يستغنى عن القائد في خطوه ، وإما يصير يهدي إلى أول الطريق ثم يبتدى بنفسه ، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام ، فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتخير ؛ فسير هذا وإن طال عمره وعظم جهده تنحصر وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتبته بأذن إشارة لساو ك طريق معصية وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان ، وهو لشدة نور باطنه يجتري بأذن بيان ، فكأنه يكاد زينه يضيء ولو لم تحسه نار ؛ فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة ، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي ، ثم إلى الوجوب مامعناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها ، وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لولا تعاقب السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى . وقول القائل : صار واجباً بالإيجاب ؛ حديث مبعض فإن ما لا غرض لنا آجلاً وما جلاً في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به ، أوجه علينا غيرنا أو لم يوجه ؟ فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى ، وأن كل محبوب عنه يشق لاجل حاله محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم . وعلم أنه لا مبدء عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالسكينة على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره وللحجة بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته ، وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لحجاب الشياطين أعداء الله المبهدين عن حضرته سبب كونه محبوباً مبعداً عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب ، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والزم ، فإنه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجه بسبب سلوكه في طريق البعد ، ومالم يتوجه فلا يرجع ، ومعنى الرجوع الترك والزم ، فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول

(١) الأخبار الواردة على وجوب التوبة : أخرجه مسلم من حديث الأغر المزني « يا أيها الناس توبوا إلى الله ... الحديث » ولابن ماجه من حديث جابر « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا ... الحديث » وسنده ضعيف .

إلى المحبوب ، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة ، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذنوبه عن حدود أكثر الخلق ، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ... ﴾ الآية ومعنى النصوح : الخالص لله تعالى غالياً عن الشوائب مأخوذاً من النصح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ وقال عليه السلام : التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ^(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحزن والعطش أوامناه الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده فموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالتفت فساءل أشد فرحاً بتوبة العبد للمؤمن من هذا يراجلته ^(٢) ، وفي بعض الألفاظ : قال من شدة فرحه إذ أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبيد ، ويروى عن الحسن قال : لما تاب آدم عليه السلام راحلته عليه السلام وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا : يا آدم قوت عينك بتوبة الله عليك ، فقال آدم عليه السلام : يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين عقابي ؟ فأوحى الله إليه : يا آدم وزمت ذنوبك التعب والنصب ووزنتهم التوبة ، فن دعائي منهم لبيته كإيتيك ، ومن سألني المغفرة لم أجعل عليه لأنى قريب محبب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعائهم مستجاب . والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى ، والإجماع منقاد من الأمة على وجوبها ؛ إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبيدات من الله تعالى ، وهذا داخل في وجوب الإيمان ، ولكن قد تدهش الغفلة عنه ، فعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ، ولا خلاف في وجوبها . ومن معانها : ترك المعاصي في الحال والورع على تركها في الاستقبال وتدارك ماسبق من التقصير في سابق الأحوال ، وذلك لا يشك في وجوبه . وأما التندم على ماسبق والتحنن عليه فواجب ، وهو روح التوبة ، وبه تمام الثلاثي ، فكيف لا يكون واجباً ، بل هو نوع ألم يحصل لا بحالة عقيب حقيقة المعرفة بمآلات من العمر وضاع في سخط الله .

فإن قلت : تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار ، فكيف يوصف بالوجوب ؟ فأعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه ، ويمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لامتضى أن العلم يخلق له العبد ويعتد به في نفسه فإن ذلك حال ، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ هذا هو الحق عند ذوى الأبصار وما سوى هذا ضلال .

• فإن قلت : أنفليس للبد اختيار في الفعل والترك ؟ قلنا : نعم وذلك لا يناقض قولنا : إن الكل من خلق الله تعالى ، بل الاختيار أيضاً من خلق الله ، والبد مضطر في الاختيار الذي له ، فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة

(١) حديث : التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له • أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بإسناد الثاني دون الأول ، وأما القطر الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب التواب من حديث أسد بن شبيب • إن الله يحب التائب • ولعل الله ينأخذ في زوائد المسند وأبو يعلى بن عبد الله بن شبيب من حديث علي • إن الله يحب العبد المؤمن المحسن التواب • (٢) حديث : « الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وأبو زرارة • زاد مسلم في حديث أسد : « ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبيد وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث الثعلبي بن يحيى ومن حديث أبي هريرة مختصراً .

وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة ، وخلق الحواطر للتمارسة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة ، وهل دون تناوله مانع يتبدد معه تناوله أم لا ، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تجزم الإرادة الباعية على التناول ؛ فانجزام الإرادة بعد تردد الحواطر للتمارسة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ، ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه ؛ فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تبحرت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة ، إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا ، فتحصل الحركة ، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة ، وهما أيضا من خلق الله ، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع ، وهما أيضا من خلق الله تعالى ، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه (ولن تجد لسنة الله تبديلا) فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ومالم يخلق فيها حياة ومالم يخلق إرادة مجزومة ، ولا يخلق الإرادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلًا في النفس ، ولا يثبت هذا الميل انبثاقًا تامًا مالم يخلق علمًا بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في السأل ، ولا يخلق العلم أيضًا إلا بأسباب آخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم ؛ فالعلم والميل الطبيعي أبدًا يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة والإرادة أبدًا تستدرف الحركة ، وهكذا الترتيب في كل فعل ، والكل من اختراع الله تعالى ، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض ، فذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض ، كما لا يخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا يخلق الحياة إلا بعد الجسم ؛ فيكون خلق الجسم شرطًا لحدوث الحياة لأن الحياة تتولد من الجسم ، ويكون خلق الحياة شرطًا لخلق العلم لأن العلم يتولد من الحياة ، ولكن لا يستتبع المحل لقول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطًا لجزم الإرادة لا أن العلم يولد الإرادة ، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم ، ولا يدخل في الوجود إلا ممكن ، والإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال ، فهما وجد شرط الوصف استتبع المحل به لقبول الوصف لحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ، ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب ، والعبد يجرى هذه الحوادث المرتبة ؛ وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كليح البصر ترتيبا كليًا لا يتغير ، وظهرهما بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وغنه العبارة بقوله تعالى (إن أكل شيء خلقناه بقدر) وعن القضاء الكلي الأزل العبارة بقوله تعالى (وما أمرنا إلا واحدة فخلقنا بالبصر) وأما العباد فلهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدرة ، ومن جلة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة ، وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة ، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم النيب والملكوت ، وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكنت ، ونودي من وراء حجاب النيب وسراقات الملكوت ؛ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وما قتلت إذ قتلت ، ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم . وعند هذا تنجير عقول القاعدة في بجموحة عالم الشهادة ؛ فن قائل إنه جبر محض ، ومن قائل إنه اختراع حرف ، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ، ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم النيب والملكوت لظهور لهم أن كل واحد صادق من وجه ، وأن التصور شامل لجمعهم . فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحيط عليه بجوانبه ، وتماثل عليه ينال بإشراق الثور من كوة نافذة إلى عالم النيب ، وأنه تعالى عالم النيب والشهادة لا يظهر على غيبة أحدا إلا من أرضى من رسول . وقد يطلع على الشهادة

من لم يدخل في حيز الارتضاء ، ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لا عائق إلا الله ولا مبدع سواه .

« فإن قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صده قاصر وهذا تناقض ، فكيف يمكن فهم ذلك ؟ وهل يمكن إيهام ذلك إلى الأفهام بمثل ؟ فاعلم أن حاجة من العميان قد سمعوا أنه حل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه ، فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللس الذي تقدر عليه ، فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسه فوقع يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه ، فقالوا قد عرفنا أنصر فوا سلم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم ، فقال الذي لمس الرجل : إن الفيل ماهر إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها ، وقال الذي لمس الناب : ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس في غلط الأسطوانة أصلا بل هو مثل عمود ، وقال الذي لمس الأذن : لعمري هو لين وفيه خشونة ، فصدق أحدهما فيه ولكن قال : ما هو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ ، فشكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ، ولكنهم بجهلهم قصرُوا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل ، فاستقص هذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر ما يختلف الناس فيه ، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويمزك أمواجها وليس ذلك من غرضنا ، فلنرجع إلى ما كنا بصده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة : العلم والتدم والتذك ، وأن التدم داخل في الرجوب لكونه واقعا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخلطة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الرجوب يشملها .

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه ، إذ معرفة كون الماعص مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور المحتضى عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه ، فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تعلق بعمل ، بل هي من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التقصص عن عهده ما لم يصير باعثا عليه ، فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا تركها ، فمن لم يتركها فهو فاقده لهذا الجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »^(١) ، وما أراد به من الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالملم بالله ووحديته وصفاته وكتبه ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي ، وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للقتل ، كما إذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله ، فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك ، فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا ، فالماص بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاما شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمالة الأذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل : ليس الإنسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاما القلب والروح وأدناها إمالة الأذى عن البشرية بأن يكون مقصود الشارب مقوم الاظافر تبقى البشرية عن

(١) حديث « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

النجس حتى يتميز عن البهائم المرسلة للموت بأروائها المستكرهة الصور بطول غائبها وأظلالها ، وهذا مثال مطابق ،
 فالإيمان كالإنسان وقد شهدته التوحيد يوجد البطلان بالسكية كفقده الروح ، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد
 والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوع العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لأصل الروح ، وكما أن
 من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايده الروح الضعيفة المتفردة التي تخفى عنها الأعضاء التي تمتدتها وتقزبها ؛
 فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح
 العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة تقدم ملك الموت ووروده ؛ فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر
 في الأعمال فروع لم يثبت على عواصف الأحوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الحاتمة لا ميسق
 بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت . وقول المصطفى للطبع إلى مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة
 القرم لشجرة السنوبر : أنا شجرة وأنت شجرة ، وما أحسن جواب شجرة السنوبر إذ قالت : ستعرفين اغترارك
 بشمول الاسم إذا عصفت رياح الحريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وتكشف غرورك بالمشاركة
 في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب هبوب الأبحار :

سوف ترى إذا انفجلى الغبار ه أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الحاتمة ، وإنما انقطع نياط المعارفين خوفاً من دواعي الموت ومقدماته الحائلة التي لا يثبت
 عليها إلا الآفون ؛ فالمعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهك في الشهوات المضرة
 إذا كان لا يخاف الموت بسبب محنته وأن الموت غالباً لا يقع فجأة ، فيقال له : الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض
 خاف الموت ، وكذلك المعاصي يخاف سوء الحاتمة ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار ؛ فالمعاصي
 للإيمان كالأكولات المضرة للأبدان ، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تنير مزاج الإخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى
 أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكذلك المعاصي ، فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا
 المتنعضة يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد
 أولى بأن يجب عليه ذلك ، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه
 عن المعدة على سيل الفور والمبادأة تلافياً لبذته المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ، فمتناول
 سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك أمكن مادام بقي التدارك مهلة وهو العمر ،
 فإن الخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها التعميم العظيم والملك العظيم ، وفي فواتها نار الجحيم والعذاب
 العظيم الذي تصرم أعمار الدنيا دون عشر عشرين مئة ، إذ ليس لمتته آخر ألبنة ؛ فالتدارك البدار إلى التوبة
 قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان علماً بما جاوز الأمر فيه الأبطال واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتياط
 فلا ينصح بعد ذلك نصيح التائبين وعظ الواعظين وبحق الكلمة عليه بأنه من المالكين ، ويدخل تحت عموم قوله
 تعالى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً
 فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون ﴾ ولا يتركك لفظ الإيمان ، فنقول :
 المراد بالآية السكاثر ، إذ بين لك أن الإيمان بضغ وسيمون بابا وأن الزاني لا يرى حين يرى وهو مؤمن ، فالجواب
 عن الإيمان الذي هو شعب وفروع يسحب في الحاتمة عن الإيمان الذي هو أصل ، كما أن الشخص الفائد لجميع
 الأطراف التي هي حروف وفروع يساق إلى الموت المدمر للروح التي هي أصل ؛ فلا بقاء للأصل دون الفرع ،

ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد : وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعي وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع ، فبقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستثنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع ، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فمدمها خير من وجودها ، فإن هي لم تعمل عليها الذي تراد له قامت مزية الحجة على صاحبها ، ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر ، كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد أئمة

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذا قال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أي للؤمنين لتعلمون ﴾ فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه ، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق للبعد عن الله المقرب إلى الشيطان ، ولا يتموز ذلك إلا من غافل ، ولا تكفل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المدمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان . إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين ، وأصله إنما يتم عند خرافة البلوغ ، ومبادئه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان ، والمقتول جنود الملائكة ، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لانهما ضدان ، فالتضاد بينهما كالضاد بين الليل والنهار والتور والظلمة ، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة ، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جسد الشيطان واستولى على المسكن ووقع القلب به أنس وإلف لاعمال مقتضيات الشهوات بالمادة وغلب ذلك عليه ويمسر عليه الزرع منه ، ثم يلوح العقل الذي هو حرب الله وجنده ومنفذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدرج ، فإن لم يفر ولم يكل سلب ملكة القلب للشيطان وأهزم المعين موعده حيث قال ﴿ لاحتسكن ذرتيه إلا قليلا ﴾ وإن كل العقل وقوى كان أول شغفه قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومعارفة المبادئ ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات ، ولا معنى للتوبة إلا هذا ، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيه الشيطان ، إلى طريق الله تعالى ، وليس في الوجود أدى إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة ، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبييا كان أو غيبيا ، فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام ، وقد قيل :

فلا تحسبن هذا لما التذمر وحدها سجية نفس ، كل غائبة عند

بل هو حكم أزل مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبدلها ، فإذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره ، فإذا بلغ مسلما بما لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفله بتفهم معنى الإسلام ، فإنه لا يثبت عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادة وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق والانفكاك والاسترسال ، وهو من أثنى أبواب التوبة ، وفيه ملك الآكرون إذ يجزوا عنه ، وكل هذا رجوع وتوبة ، فدل على أن التوبة فرض عين في حق كل شخص يتصور أن يستثنى عنها أحد من البشر كما لم يستثن آدم ، بخلة الولد لا تنسح لما لم يقس له خلة الوالد أصلا . وأما بيان وجوبها على الدوام في كل حال فهو يستثنى آدم ، بخلة الولد لا تنسح لما لم يقس له خلة الوالد أصلا . وأما بيان وجوبها على الدوام في كل حال فهو

أن كل بشر فلا يخلو عن مصيبة مجوارحه ، إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبيتهم وبصفتهم على خطاياهم ، فإن خلا في بعض الأحوال عن مصيبة الجوارح فلا يخلو عن المصيبة بالنفوس بالقلب ؟ فإن خلا في بعض الأحوال عن المصيبة فلا يخلو عن وسواس الشيطان ليراد الخواطر المنفرة للذهلة عن ذكر الله ، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص وله أسباب ، وترك أسبابه بالتفاسل بأندامها رجوع عن طريق إلى ضلته والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصور الخلو في حق الآدمي من هذا النقص ، وإنما يتفاوتون في المقادير ، فأما الأصل فلا بد منه ، ولهذا قال عليه السلام : « إنه ليمان على قلبه حتى استغفر الله في اليوم واليلة سبعين مرة »^(١) ، الحديث ، ولذلك أكرمته الله تعالى بأن قال : « لينفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟

فإن قلت : لا يخفى أن ما يطأ على القلب من الموم والخواطر نقض ، وأن الكمال في الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفة كنهه جلالة الله نقص ، وإنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال ، وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب نقصان الرجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لاغراض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال ، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة ، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع ، فما المراد بقولك : التوبة واجبة في كل حال ؟ فأعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدل خلقته من اتباع الشهوات أصلاً ، وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك ماضي ، وكل شهوة ابتهاها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة ، فإن تراكت ظلمة الشهوات صار ربنا كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكبه خشناً ، كما قال تعالى : « كلا بل على قلوبهم ما كانوا يكسبون » فإذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه ، كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الفصل بعده وصار كالملبوع من الخبث ، ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل ، بل لابد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب ، كما لا يكفي في ظهور الصور في المرأة قطع الانفاس والبخارات المسؤدة لوجهها في المستقبل مالم يشتغل بمحو ما طبع فيها من الأريان ، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات ، فتتمشى ظلمة المعصية بنور الطاعة ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : « أتبع السيئة الحسنة تمحها »^(٢) ، فإذا ناستقني العبد في حال من أحواله عن عوار آثار السيئات عن قلبه مباشرة حسنت تضاد آثارها آثار تلك السيئات ؛ هذا في قلب حصل أولاً صفائه وجلائه ثم أظلم بأسباب عارضة ؛ فأما التصحيح الأول فيه يطول المقول ؛ إذ ليس شغل الفصل في إزالة الصلابة عن المرأة كشفه عن عمل أصل المرأة ؛ فهذه أشغال طويلة لا تقطع أصلاً ، وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك : إن هذا لا يسمى واجباً بل هو فضل وطلب كال ، فأعلم أن الواجب له معنيتان : أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو التقدير الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرّب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حتى تقاهم تركوا المأياش ورفضوا الدنيا بالكلية ، ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية ، فإنه مهما فُضبت للمأياش لم يتفرغ أحد التقوى ، بل شغل الحياكة

(١) حديث « إنه ليمان على قلبه فاستغفر الله في اليوم واليلة سبعين مرة » أخرجه مسلم من حديث الأثر المزني ، إلا أنه قال « في اليوم مائة مرة » وكذا عند أبي داود ، والبخاري من حديث أبي هريرة « أتى لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة » ورواية الزهني في الصلابة سبعين ، لم يقل « أكثر » وتقدم الأذكار والبخاريات (٢) حديث « أتبع السيئة الحسنة تمحها » أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر زيادة في أوله وأكثره وقال حسن صحيح ، وقد تقدم في رياضة الناس .

والخرافة والخبث يستغرق جميع العمر من كل واحد فيحتاج إليه ، لجميع هذه الدرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار ، والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين ، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال : الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن يريد بها ، فإنه لا يتوصل إليه إلا بها . فأما من رضى بالتقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع والطهارة ليست واجبة عليه لأجلها ، كما يقال : العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان ، يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات الملا في الدنيا ، فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون كالحم على روم وكخربة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل ، فأصل الواجبات الفاحشة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة ، وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من المساعدات التي بها تنتهى الحياة يجرى مجرى الأعنفاء والآلات التي بها تبتأ الحياة وفيه سعى الأتنياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، وعليه كان حرصهم ، وحوائله كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم للملاذ الدنيا بالكلية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا في منامه ، لجأ إليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا للأخرة ؟ فقال : نعم ، وما الذي حدث فقال : توسدك لهذا الحجر تنجم في الدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض ؟ فرى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض ، وكان دمه للحجر توبة عن ذلك التمتع ، أقرى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجبا في فتاوى العامة ؟ أقرى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغلته التوب الذي كان عليه على صلته حتى نزعه ^(١) وشغلته شرك له الذي جتده حتى أعاد الشرك الخلق ^(٢) لم يعلم أن ذلك ليس واجبا في شرعه الذي شرعه لكافة عباده ، ولذا علم ذلك فلم تتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رأى مؤثرا في قلبه أثرا بمنه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به ؟ أقرى أن الصديق رضى الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجه أدخل أصبه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر ؟ وهو أن ما أكله من جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجة ؟ فلم تترك شرابه بالتدراك على حسب إمكانه بتخليه المدة عنه ؟ وهل كان ذلك إلا لسر وفر في صدره عونه ذلك السر . فتوى العامة حديث آخر ، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ، فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بطريق الله وبمكر الله وبمكرهم من الغرور بالله ، ولما مرة واحدة أن فتوك الحياة الدنيا ، ولما كنت ثم لا تك ألف مرة أن يفرك بالله الغرور ، فهذه أسرار من استشفق مبادئ روائعها علم أن لزوم التوبة التصريح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الغرور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان الباراني حيث قال لوم بك العاقل فيما بين من عمره إلا على فتوى ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقا أن يجره ذلك إلى للمات ، فكيف من يستقبل ما بين من عمره بمثل ما مضى من جهله ؟ وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهر نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا حالة ، وإن ضاعت منه وصار ضايعها سبب هلاكه كان بكائه منها أثمة ، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهر نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنفذك من شقاوة الأبد ، وأي جواهر أنفس من هذا ؟ فلذا ضيعتها في النفقة فقد خسرت خسرا نائبا ، وإن صرفتها إلى معصية

(١) حديث نزعه صلى الله عليه وسلم التوب الذي كان عليه في الصلاة : تقدم في الصلاة أيها (٢) حديث نزعه الشرك الجهد واحدة الشرك الخلق : تقدم في الصلاة أيها .

فقد هلكت هلاكا قاتسا. فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يفر من المصائب بها أنه صاحب مصيبة ، فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته . والناس نيام فإذا ماتوا انتهبوا ، فمئذ ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته ، وقد رفع الناس عن التدارك .

قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أحله أنه بقي من عرك ساعة وإنك لاستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بمذاخيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعقب فيها ويتدارك تعريضه فلا يجد إليه سبيلا ، وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) وإليه الإشارة بقوله تعالى (من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) فقيل : الأجل القريب الذي يطلبه : معناه أنه يقول عند كشف النطاء للعبد يملك الموت أخرتني يوما اعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأترؤد صالحا لنفسي ، فيقول : فمئذ الأيام فلا يوم ، فيقول : فأخر في ساعة فيقول : فمئذ الساعات فلا ساعة ، فيخلق عليه باب التوبة فينثر روحه وتردد أنفاسه في شراسفه ، ويتجوز غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تفريط العمر ، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال ، فإذا زفقت نفسه فلأن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ، ومثل هذا يقال (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) وقوله (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يقدم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها ، ولذلك قال لقمان لابنه : يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ومن ترك المباحة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطرين عظيمين (أحدهما) أن تتراكم الطاعة على قلبه من المعاصي حتى يصير دينا وطعنا فلا يقبل المحو (الثاني) أن يماجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية »^(١) ، فما هلك من هلك إلا بالتسوية ، فيكون تسويده القلب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيته إلى أن يحتطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكلما سائر أسباب الطاعة ، فن غان في الأمانة ولم يتدارك غيائته فأمره عظم .

قال بعض العارفين : إن الله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام : (أحدهما) إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نقيفا واستودعتك عرك واتممتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني . (والثاني) عند خروج روحه يقول : عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء ، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب . وإليه الإشارة بقوله تعالى (أو فوا بعهدي أوف بعهدكم) ويقول تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) .

(١) حديث « لن أكثر صياح أهل النار من التسوية » لم أجده أصلا .

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى التوبل لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة ، فالناظر ونور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علوا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلوا أن القلب خلق سليما في الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما فوته السلامة بكدورة تهرق من وجهه من غيرة الغنوب وظلمتها وعلوا أن نار الندم تحرق تلك الغيرة ، وأن نور الحسنة يحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام الماضي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة ، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويركيه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول ، فلما عليك التزكية والتطهير . وأما التوبل فيبدل قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له ، وهو المسمى فلاخا في قوله ﴿ قد أطلع من زكاه ﴾ ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجل من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالماضي والطاعات تأثرا متضادا يستمار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستمار للجهل ، ويستمار للآخر لفظ النور كما يستمار للعلم ، وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما ، فكأنه لم يتلق من الدين إلا قصوره ولم يلق به إلا أمثاله وقلبه في غطاء كشف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأخفى به قلبه ، إذ قلبه يعرف غير قلبه ، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ، فمن يتوهم أن التوبة تمسح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تقطع والظلام لا يزول ، والثوب ينسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن ينوص الوسخ لطول تراكمه في تجاوزيف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه ، فثال ذلك أن تراكم الغنوب حتى تصير طبعنا وديننا على القلب فتل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب ، نعم قد يقول باللسان نهت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به ، فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو العال على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المرعزين عن الله بالكلية ، فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة ، ولكنا نضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والفتاوى فكل استقصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به ، وقد قال تعالى ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ وقال تعالى ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « الله أفرح بتوبة أحدكم ... الحديث » ، والفرح وراء التوبل ، فهو دليل على التوبل وزمادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالنية ليمس الليل إلى النهار ويمس النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (١) ، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والعتاب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ولا طاب إلا وهو قابل . وقال صلى الله عليه وسلم « لو علمتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم نعمتم لتاب الله عليكم » (٢) ، وقال أيضا « إن العبد ليذنب

(١) حديث « إن الله يبسط يده بالنية ليمس الليل إلى النهار ... الحديث » رواه مسلم من حديث أبي موسى بن خلف « يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار » الحديث « وفي رواية للطبراني « ليمس الليل أن يتوب النهار » . الحديث » (٢) حديث « لو علمتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم نعمتم لتاب الله عليكم » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة ولما سنده حسن بإسناد « لو أخطأتم » وقال « ثم نعمتم » .

الذنب يدخل به الجنة ، فقيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يكون نكسب عنه تاباً منه فأتا حتى يدخل الجنة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : كثرة الذنب الندامة ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

ويرى ، أن حبشيا قال : يا رسول الله إنى كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة ؟ قال : نعم ، فولى ثم رجع فقال : يا رسول الله أأكل يرانى وأنا أعملها ؟ قال : نعم ، فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه ^(٣) .

ويرى أن الله عز وجل لما لمن إبليس سألته النظره فأظهره إلى يوم القيامة ، فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله تعالى : وعزى وجلالى لا حبيت عنه التوبة ما دام الروح فيه ^(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ ^(٥) ، والأخبار فى هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب أول قوله تعالى (إنه كان الآوابين غفورا) فى الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر اللذين بأنهم إن تابوا قبلت منهم ، وحذر الصديقين أنى إن وضعت عليهم عدل عذبهم .

وقال طاق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محبت عنه فى أم الكتاب .

ويرى أن نبياً من أنبياء بنى إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه : وعزى لأن عدت لأعدتك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تمصنى لأعودن فمصمه الله تعالى .

وقال بعضهم : إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة فيقول إبليس : لبتى لم أوقعه فى الذنب . وقال حبيب بن ثابت : تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول : أما إنى قد كنت مشغفاً منه ، فيغفر له .

ويرى أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفث إليه فرأى عينيه ترفاناً ، فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتلقى إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكل به لا يخلق فاعل ولا يأس .

وقال عبد الرحمن بن أبى القاسم : تذكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى (إن يتوبوا

(١) حديث « إن العبد ليذنب الذنب يدخل به الجنة ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً ، ولأبى نعم فى الحلية من حديث أبى هريرة : إن العبد يذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه ، فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له .. الحديث . وفيه صالح المرى ، وهو رجل صالح لكنه مضطرب الحديث . ولأن أبى داود فى التوبة عن ابن عمر « لئلا الله لينع العبد بالذنب يذنبه » والحديث غير محفوظ ، قاله البلب . (٢) حديث « كثرة الذنب الندامة » أخرجه أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس ، وفيه يحيى بن عمرو بن مالك البشكرى ضعيف .

(٣) حديث : أن حبشيا قال يا رسول الله إنى كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة قال : نعم . الحديث لم أجده إلا فى (٤) حديث « إن الله لما لمن إبليس سألته النظره فأظهره إلى يوم القيامة فقال : وعزى لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ... الحديث » أخرجه أحمد وأبو هبل والمالك وصححه من حديث أبى سعيد أن الشيطان قال : وعزتك لا أزال أغرى بك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال : وعزى وجلالى لا أزال أغرى لهم ما استغفرونى ، أوودد المصنف بسنية : ويرى كذلك ولم يزد إلى الله صلى الله عليه ، فذكرته احتياطاً . (٥) حديث « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » لم أجده بهذا اللفظ ، وهو صحيح المعنى ، وهو يحيى بن أبى الشيحة الحسنة بمعناه ، رواد الترمذى وتقدم قريباً .

ينفر لهم ما قد سلف (فقال إني لأرجو أن يكون للمسلم عند الله أحسن حالا ، ولقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام .

وقال عبد الله بن سلام : لا أحدركم إلا عن نبي مرسل أو كتاب ، فإن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين .

قال عمر رضي الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة .

وقال بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لي . قيل : متى ؟ قال : إذا تاب على .

وقال آخر : أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة ، أي المغفرة من لوازم التوبة وترايبها لأحالة .

ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر في المرأة فرأى الشيب في لحية فساده ذلك فقال : إلهي أطلتلك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة ، فإن رجعت إليك أقبلني ؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصاً : أحببتنا فأحببتك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلكنا ، وإن رجعت إلينا قبلناك .

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : إن لله عبداً نصّبوا أشجار الخطايا فصب رواق القلوب ، وسقوا بماء التوبة فأثمرت ندماً وحرناً ، فنجوا من غير جتن وتبلىوا من غير عى ولا بكى ، وإنهم لم يلبثوا الفصحاء المارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فودعوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولعت قلوبهم في الملوكوت وجاءت أنكارهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم وقرموا صحيفة الخطايا فألردوا أنفسهم للجرع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسم الودع فاستمدوا سرادة الترك الدنيا واستلوا خشونة المنجيع حتى ظفروا بجبل النجاة وحررة السلامة ، وسرحت أرواحهم في الملا حتى أتناخوا في رياض التبتم ومغاضوا في بحر الحياة ورددوا خنادق الجرع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا برقع النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن المز والكرامة ، فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لأحالة .

فإن قلت : أفنقول ما قالته المتوفى من أن قبول التوبة واجب على الله ؟ فأقول : لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريد القائل بقوله : إن التوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ ، وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش ، وأنه إذا منع الماء مدة وجب العطش ، وأنه إذا دام العطش وجب الموت ، وليس في شيء من ذلك ما يريد المتوفى بالإيجاب على الله تعالى ، بل أقول : خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحنسة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء مزيلاً للعطش ، والقدرة ممتصة بخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واجب على الله تعالى ، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لأحالة .

فإن قلت : فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته ، والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه ؟ فأقول : شك في القبول كشك في وجود شرائط الصحة ، فإن التوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كاسيأتي ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للإسهال فإنه هل يسهل وذلك لشك في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبيعته وجودة عقاقيره وأدوية ، فهذا أمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لأحالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى ،

الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صفاتها وكبارتها

اعلم أنَّ التوبة ترك الذنب ، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته ، وإذا كانت التوبة واجبة كان مالا يتوصل إليها إلا به واجبا ، فعرفة الذنوب إذن واجبة ، والذنوب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكاليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا ، ولكننا نشير إلى أقسامها وروابط أقسامها ، والله الموفق للصواب برحمته .

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أنَّ للإنسان أوصافا وأخلاقا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوامله ، ولكن تنحصر مآثرات الذنوب في أربع صفات : صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان مجتم من أخلاط مختلفة ، فاقضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثرا من الآثار كما يقتضى السكر والحل والزعفران في السكتجين آثارا مختلفة ، فأما ما يقتضى الزرع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والفتن وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول : أنا وبكم الأعلى ، وهذا ينشعب منه جملة من كبار الذنوب غفل عنها الخلق ولم يهتدوا ذنوبا وهي المهلكات العظيمة التي هي كآلهات لا كآثر المعاصي كما استقصيناه في ربيع المهلكات (الثانية) هي الصفة الشيطانية التي منها ينشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمكر وفيه يدخل النش والتفاق والدعوة إلى البدع والضلال . (الثالثة) الصفة البهيمية ومنها ينشعب الثرثرة والكذب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنه ينشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات . (الرابعة) الصفة السبعية ، ومنها ينشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والقتل واستهلاك الأموال ، ويتفرع عنها جل من الذنوب ، وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة ، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والبر والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق . فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والتفارق وإضرار السوء للناس ، وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على الدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح .

نسة ثانية : أعلم أنَّ الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بمقوق العباد . فـ ما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بمقوق العباد كترك الزكاة وقبلة النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير ، فلما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه ، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدع والترغيب في المعاصي وتبهيح أسباب الجرام على الله تعالى كما يفعله بعض الرعاظ بتخليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب ، وقد جاء في الخبر : الدواوين ثلاثة : ديوان ينفق ، وديوان لا ينفق ، وديوان لا يترك : فالديوان الذي ينفق : ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى : وأما الديوان الذي لا ينفق : فالشرك

الله تعالى . وأما الدوران الذي لا يترك : فظام العباد ^(١) ، أي لاية وأن يطلب بها حتى ينفى عنها .
 قسمة ثالثة : اعلم أن التوب تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وقد كثر اختلاف الناس فيها ، فقال قائلون :
 لا صغيرة ولا كبيرة ، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة ، وهذا ضعيف ، إذ قال تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون
 عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) وقال تعالى (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش
 إلا اليم) وقال صلى الله عليه وسلم : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرون ما بينهن إن اجتنب الكبائر ^(٢) ،
 وفي لفظ آخر : كفارات لما بينهن إلا الكبائر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص
 : الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين النمس ^(٣) ، واختلف الصحابة والتابعون في عدد
 الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة لما فوق ذلك ، فقال ابن مسعود : من أربع . وقال ابن عمر :
 من سبع . وقال عبد الله بن عمرو : من تسع . وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر : الكبائر سبع ، يقول : من إلى
 سبعين أقرب منها إلى سبع ، وقال مرة : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة : وقال غيره : كل ما أوصد الله عليه بالثار فهو
 من الكبائر . وقال بعض السلف : كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة ، وقيل : إنها مهمة لا يعرف عددها
 كلية التقدير وساعة يوم الجمعة : وقال ابن مسعود لما سئل عنها : اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها
 عند قوله (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب
 المكي : الكبائر سبع عشر جمعها من جملة الأخبار ^(٤) ، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر

(١) حديث « المولويين ثلاثة : ديوان ينفق ... الحديث » أخرجه أحمد والمصنف .
 الثاني ضعف ابن معين وغيره ، وله شاهد من حديث سلمان ، رواه الطبراني . (٢) حديث « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة
 تكفر ما بينهن إن اجتنب الكبائر » رواه مسلم من حديث أبي هريرة . (٣) حديث عبد الله بن عمرو : الكبائر الإشراك
 بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين النمس » رواه الطبراني .
 (٤) الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف من أبي طالب المكي أنه قال : الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة الأخبار ،
 وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم . الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، وانقراط من ربه ،
 والأمان من مكروه ، وشهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين النمس ، والسحر ، ونسب الحر والمكر ، وأكل مال اليتيم ظلما
 وأكل الربا ، والزنا ، والقواطع ، والقتل ، والفسقة ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين . انتهى . وسأذكر ما ورد منها
 مرفوعا ، وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : اجتنبوا السبع الموبقات :
 قالوا : يا رسول الله وما هي ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم
 واتصل يوم الزحف . وقذف المحصنات المؤمنات . ولها من حديث أبي بكر : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال : الشرك بالله ،
 وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور - أو قال قوله الزور - » ولها من حديث أنس : سئل عن الكبائر قال : الشرك بالله ، وقتل
 النفس ، وعقوق الوالدين ، وقال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال : قوله الزور ، أو قال شهادة الزور » ولها من حديث
 ابن مسعود : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي أقب أعظم : قال : « أن تجمل قة خادمو خلقك » قلت ثم أي قال : « أن
 تقتل وفيك خيانة أن يطمع منك » قلت ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حيلة برك » . ولطبراني من حديث سلمة بن قيس : « اعني
 أربع : لا تفركو بالله شيئا ، ولا تفركو بالنفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنا ، ولا تسرفوا ، وفي الصحيحين من حديث
 عبادة بن الصامت : « يا بني على أن لا تفركو بالله شيئا ، ولا تزنا ، ولا تسرفوا » وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس
 : « أحرأ الفواحش وأكبر الكبائر ، وفي مرفوعا على عبد الله بن عمرو : أعظم الكبائر شرب الخمر ، وكلاما ضيف . وأما
 من حديث ابن عباس بإسناد حسن : أن رجلا قال يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال : « الشرك بالله ، والإيمان من يوم الله ، والقسوط
 من رمة الله » وله من حديث بريدة : « أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ومنع فضل المساكين ، ومنع فضل
 ابن حبان ضعف ابن سبب والثالثي وغيرهما ، وله من حديث أبي هريرة : « الكبائر أولهن الإشراك بالله ، وفيه : والاختلاف إلى
 الأعراب بعد هجرته » وفي غاك بن يوسف الحسيني ضعفه الطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حنيفة في الكبائر دواالتوب
 بعد المعصية : وفيه ابن أبي حنيفة ، وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري : « الكبائر سبع » وفيه « والرجوع إلى الأعراب بعد
 المعصية » وفيه أبو بلال الأشرقي ضعفه الدارقطني ، ولها من حديث عبيد بن عمير بن أبيه : « الكبائر تسع » فذكر منها
 (٣) - لهما علوم الدين -)

وغيرهم : أربعة في القلب وهي الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمة ، والأمن من مكروه . وأربع في اللسان ، وهي : شهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين المنسوبة - وهي التي يحنق بها باطلاً أربيطل بها حقاً ، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلاً ولو سواك من أراك . وسُميت غشواً لأنها تنفس صاحبها في النار . والسحر : وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة . وثلاث في البطن : وهي شرب الخمر والسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنان في الفرج وهما : الزنا واللواط . واثنان في اليدين وهما : القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين : وهي الفرار من الزحف الواحد من الخنتين والعشرة من العشرين . وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين ، قال : وبجمل عقوقها إن يقسمها عليه في حق فلا يبر قسمها ، وإن سألها ساجدة فلا يعطيهما ، وأن يسأله فيضربهما ، وبجوعان فلا يعطيهما : هذا ما قاله وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء ، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه ، فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر ، وهي جناية على الأموال ، ولم يذكر في كِبائر النفوس إلا القتل ، فأما فيه العين وقطع اليدين وغير ذلك من تليذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له ، وضرب اليتيم وتليذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفي الخبر : من الكبائر السبтан بالسببة ومن الكبائر استعطالة الرجل في عرض أخيه للمسلم ^(١) . وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة : إنكم تملكون أعمالاً هي أدنى في أعينكم من الشعر كما نعتما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر ^(٢) . وقالت طائفة كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ، وكشف النطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة

= واستحلال البيت الحرام ، والطبراني من حديث واثقة : « لن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم أقل » وله أيضاً من حديثه : « لن من أكبر الكبائر أن يتنق الرجل من ولده » وسلم من حديث جابر : « بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة » وسلم من حديث عبد الله بن عمرو : « من الكبائر شتم الرجل والده » ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد : « من أرى الربا الاستعطالة في مرض المسلم ينير حتى » وفي الصحيحين من حديث ابن عباس : « أنه من أكل عليه مسلم من قبله فقال لهما ليذنان وما يذنان في كبير ولاه أكبر ، أما أحدهما فكان بمعنى بالضم ، وأما الآخر فكان لا يستمر في بوء » الحديث ولأحد في هذه القصة من حديث أبي بكر : « أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس » الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث أسد : « عرضت على ذنوب أمي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أو بيت رجل ثم نسبها » سكت عليه أبو داود واستنبره البخاري والترمذي . وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس : « لاصنية مع لصار » وفيه أبو شيبة الخراساني والحديث منسك يرف به . وأما الموقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب من ابن مسعود قال الكبائر الإصرار بالله ، والأمن من مكروه الله ، والقنوط من رحمة الله ، والبأس من روح الله . وروى البيهقي فيه من ابن عباس قال : « الكبائر الإصرار بالله ، والبأس من مكروه الله ، والأمن من مكروه الله ، وعقوق الوالدين ، وقذف النفس التي حرم الله ، وقذف المحصنات ، وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف ، وأكل الربا ، والسحر ، والزنا ، واليمين المنسوبة الفاجرة ، والتناول ، ومنع الزكاة ، وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة وشرب الخمر ، وترك الصلاة متعمداً وأشياء مما فرضها الله ، وتنقض العهد ، وهلمية الرسم . وروى ابن أبي الدنيا في التوبة من ابن عباس : كل ذنب أمر عليه الهد كبيرة ، وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه . وروى أبو منصور الهذلي في مسند الفردوس من أسد قوله : « لاصنية مع الإصرار ، ولستأده جيد ؟ لقد اجتمع من الموقوفات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون ، إلا أن بعضها لا يصح إسنادها كما تقدم ، ولما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف . والبيهقي في الشعب من ابن عباس أنه قيل له : الكبائر سبع ، فقال : هي إلى السبعين أقرب . وروى البيهقي أيضاً من ابن عباس قال : كل ما نهى الله عنه كبيرة والله أعلم .

(١) حديث « من الكبائر السبтан بالسببة ومن الكبائر استعطالة الرجل في عرض أخيه للمسلم » عزاه أبو منصور الهذلي في مسند الفردوس لأحد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد ، والذي عندهما من حديثه « من أرى الربا استعطالة الرجل في عرض المسلم ينير حتى » كما تقدم . (٢) حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة : إنكم تملكون أعمالاً أدنى في أعينكم من الشعر كما نعتما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر . أخرجه أحمد والبراز بسند صحيح وقال « من الموقوفات » بدل الكبائر . ورواه البخاري من حديث أسد واحد والمالك من حديث عبادة بن مرس قال : صحيح الاستاد .

أم لا : لا يصح ، ما لم يفهم معنى الكبيرة ، والمراد بها كقول القائل : السرقة حرام أم لا ؟ ولا مطع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولاً ثم البحث عن وجوده في السرقة ؛ فالكبيرة من حيث اللفظ مهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع ، وذلك لأن الكبير والصغير من الإضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه ، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه ، فالمناجاة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا ، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه ، صغيرة بالإضافة إلى قتله . نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالتار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ولنفي بوصفه بالكبيرة : أن العقوبة بالتار عظيمة ، وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيراً إلى أن ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم ، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب التي عنه فيقول : تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ، ثم يكون عظيماً وكبيرة لا محالة بالإضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها ، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها ، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ، ولا يبعد تغليبها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى (إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر ، فإن هذا إثبات حكم الكبائر . والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استظامه لإياها ، ولما لم يعلم إنها معدودة في الصغار ، ولما لم يشك فيه ، فلا يدري حكمه ، فالطعم في معرفة حد حاصر أو عدم جامع مانع طلب للمسلم يمكن فإن ذلك لا يمكن إلا بالسامع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول : إن أردت بالكبائر عشرين أو خمسين وبفصلها فإن لم يرد هذا - بل ورد في بعض الألفاظ - ثلاث من الكبائر ^(١) ، وفي بعضها : سبع من الكبائر ^(٢) ، ثم ورد : أن السبعين بالسبعة الواحدة من الكبائر ، وهو خارج عن السبع والثلاث : علم أنه لم يقصد به المبدع ، أعصر ، فكيف يطعم في عددها لم يمدد الشرع ؟ وربما قصد الشرع إيهامه ليكون البعاد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليظم جدد الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كافي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ، ونعرف أيضاً أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغار فلا سبيل إلى معرفته . ويأتينا أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصد الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادته لقائه ، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) أي ليكونوا عبيد لي ، ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه ، فهذا هو المقصود الأقصى بعبادة الأنبياء ، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام : الدنيا مزرعة الآخرة ^(٣) ، فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تأهباً للدين لأنه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيان : النفوس والأموال ، فكل ما يستد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر وإليه ما يستد باب حياة النفوس وإليه باب ما يستد المعاش التي بها حياة الناس ، فهذه ثلاث مراتب ، لحفظ

(١) حديث « ثلاث من الكبائر » أخرجه البيهقي من حديث أبي بكره ألا أتيتكم بأكبر الكبائر - ثلاث - الحديث ، وقد تقدم . (٢) حديث « سبع من الكبائر » رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد « الكبائر سبع » وقد تقدم وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر « من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر ... الحديث » ثم عدن سبها . وقد تقدم من الصحيحين حديث أبي هريرة « اجتنبوا السبع الموبقات » . (٣) حديث « الدنيا مزرعة الآخرة » لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً وروى السليل في النظم . وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشم « نمت الدار الدنيا لمن تزود منها لأخرته » الحديث ، ولستاده ضيف .

المعرفة على القلوب، والحياة على الأبدان، والأموال على الأشخاص ضرورى فى مقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن تختلف فيها الملل، فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبياً يريد بعثه إصلاح الخلق فى دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يتعصرون عن معرفته ومعرفة رسله؛ أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال، فحصل من هذا أن الكبار على ثلاث مراتب: (الاولى) ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر، إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل، والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة، وقربه بقدر معرفته، وبعده بقدر جهله، ويتلو الجهل الذى يسمى كفراً الآمن من مكر الله والقنوط من رحمة، فإن هذا أيضاً عين الجهل، فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمناً ولا أن يكون آسفاً، ويتلو هذه الرتبة: البعد كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أخذت من بعض، وتفادتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله ودرائه وأوامره ونواهي، ومراتب ذلك لا تنحصر، وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخله تحت ذكر الكبار المذكورة فى القرآن، وإلى ما يعلم أنه لا يدخل؛ وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك فى القسم المتوسط طمع فى غير مطعم. (المرتبة الثانية) النفوس إذ يقاتلها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله، فقتل النفس لا محالة من الكبار وإن كان دون الكفر، لأن ذلك يصدى عن المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود، إذ حياة الدنيا لا تتراد إلا للأخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يقضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض، ويقع فى هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور فى قضاء الشهوات انقطع النسل، ويزدفع الموجود قريب من قطع الوجود. وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الأنساب ويطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التى لا ينظم العيش إلا بها، بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينظم أمور الهائم مالم يتم الفصل منها لمناخ يختص بها عن سائر الفصول، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحاً فى أصل شرع قصد به الإصلاح، وينبئ أن يكون الزنا فى الرتبة دون القتل، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يقضى إلى التقاتل وينبئ أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرة. (المرتبة الثالثة) الأموال فلأنها مما يشاء الخلق فلا يجوز تسلط الناس على ثمارها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما، بل ينبئ أن تحفظ لتبقى بقاتها النفوس، إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تفرجها فليس يعظم الأمر فيها. نعم إذا جرى تناولها بطريق يمسر التدارك له فينبئ أن يكون ذلك من الكبار، وذلك بأربع طرق: أحدها الخفية، وهى السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالباً كيف يتدارك. الثانى: أكل مال النيم، وهذا أيضاً من الخفية وأخفى به فى حق الولي والقيم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى القيم وهو صميم لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب، بخلاف النصب فإنه ظاهر يعرف، وبخلاف الحياة فى الودعة فإن للودع خصم فيه يقتصف لنفسه. الثالث: تفويتها بشهادة الزور. الرابع: أخذ الودعة وغيرها باليمين القموس فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف للشرائع فى تحريمها أصلاً، وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس: وهذه الأربعة جذيرة بأن تكون مرادة بالكبار وإن لم يوجب الشرع الحد فى بعضها، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم من مصالح الدنيا تأميرها. وأما أكل الربا فليس إلا أكل مال الغير بالتراضى مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع

في مثله ، وإذا لم يجعل التعصب الذي هو أكل مال الغير بغيره رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل
برضا المالك ولكن دون رضا الشرع ، وإن عظم الشرع الزنا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالنصب وغيره
وعظم الخيانة ، والمصير إلى أن أكل خائف بالخيانة أو النصب من الكبائر فيه نظر ، وذلك واقع في مظنة الشك
وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه
ليكون ضروريا في الدين ، فيبقى ما ذكره أبو طالب للملك القذف والشرب والسحر والفرار من الإحلف وحقوق
الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر ، وقد دل عليه تفديدات الشرع وطريق
النظر أيضا ، لأن العقل محظوظ كما أن النفس محظوظة ، بل لا خير في النفس دون العقل ، فإزالة العقل من الكبائر
ولكن هذا لا يجرى في قطرة من الخمر ، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر ، لم يكن ذلك كبيرة وإنما
هو شرب ماء نجس ، والقطرة وحدها في محل الشك ، وإيجاب الشرع الحد به يدل على تنظيم أمره ، فيمد ذلك من
الكبائر بالشرع ، وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع ، فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب
الاتباع ، ولا يلتزم فيه مجال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال في
الزينة ، ولتأولها مراتب ، وأظلمها تناول القذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره ، وأظن
ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يمتدنون كل ما يجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس ، وهو
الذي يريد به الكبيرة الآن ، ولكن من حيث إنه يجوز أن تقتل فيه الشرائع فالتعصّب بمجوزة لا يدل على كبره
وعظمته ، بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن المدان الواحد إذا رأى إنسانا يزني فله أن يشهد وبجمله المشهود عليه
بمجرد شهادته ، فإن لم تقبل شهادته لحدّه ليس ضروريا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة والواقعة
في رتبة الحاجات ، فلذلك هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع ، فأما من ظن أن له أن يشهد
وحده ، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحر فلن كان فيه كثر
فكبرية ، ولا فظلمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره . وأما الفرار من الإحلف
وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف ، وإذا قطع بأن سب الناس بكل
شيء سوى الزنا ، وضرهم ، والظلم لهم بنصب أموالهم ، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم ، وإجلالهم من أوطانهم
ليس من الكبائر - إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه - فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ،
ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليحسب بالكبائر . فلذا رجع حاصل الأمر إلى أن ثنائيا بالكبيرة لا تكفره
الصلوات بحكم الشرع . وذلك بما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف
فيه ، والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والإثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة ،
وإذا لم قطع فيه - فطلب رفع الشك فيه محال .

هـ فإن قلت . فهذا إقامه برهان على استحالة معرفة حدها ، فكيف ردة الشرع بما يستحيل معرفة حده ؟
فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجز أن يتطرق إليه الإيهام ، لأن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة
على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة ، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا
وغيرهما ، وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإيهام أليق به حتى
يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرءون على الصفات اعتقادا على الصلوات الخمس ، وكذلك اجتناب الكبائر

يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى (إن يجتنبوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كن يتمكن من امرأة ومن مواضعها فيكفر نفسه عن الوقوع فيقتصر على نظر أو لمس ، فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقوع أشد تأميرا في توير قلبه من إقدامه على النظر في إظهاره ؛ فهذا معنى تكفيره ، فإن كان غنيا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة المعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا ، وكل من يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيع له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي مقتضاته كسباغ الملاهي والأوتار ، نعم من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السباغ فجاهدته النفس بالكف وربما تحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من مصيبة السباغ ، فكل هذه أحكام أخرى ، ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص وليرد النص بعد ولاحد جامع ، بل ورد بألفاظ مختلفة ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة إلى الصلاة كفارة ، ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث : إشراك بالله ، وترك السنة ، ونكث الصفة »^(١) ، قيل ما ترك السنة ؟ قيل الخروج عن الجماعة . ونكث الصفة : أن يبيع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله ، فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدوك ولا يدل على حد جامع فيبقى لا عمالة بهما .

• فإن قلت : الشهادة لا تقبل إلا من يحتل الكبار ، والورع عن الصغائر ليس شرطا في قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا فأعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبار ، فلا خلاف في أن من يسمع الملاهي ويلبس الديباغ ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته ، ولم يذهب أحد إلى أن هذا لا مور من الكبار . وقال الشافعي رضي الله عنه : إذا شرب الخمر التبيد حددته ولم أرد شهادته ، فقد جملة كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة ، فدل على أن الشهادة نفية وإبائا لا تدور على الصغائر والكبار ، بل كل الذنوب تندح في العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالبا بضرورة مجاري العادات . كالنية ، والتجسس ، وسوء الظن ، والكذب في بعض الأحوال ، وسماع النية ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأكل الشهات ، وسب الولد والفلان وضربهما بحكم التعذب زائدا على المصلحة ، وإكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتكاسل عن تعلم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين ، فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قلبها أو كبرها إلا بأن يتولى الناس ويتجرد لأمر الآخرة ومجاهدة نفسه مدة بحيث يبق على سمته مع المخالطة بعد ذلك ، ولو لم يقبل إلا قول مثله لزم وجوده وبطلت الأحكام والشهادات . وليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللعب بالرد وبجالة أهل الشرب في وقت الشرب والخلة بالجننيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل ، فإلى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردحها لا إلى الكبيرة والصغيرة ، ثم أحاد هذه الصغائر التي لازد الشهادة بها لو واطلب عليها لأثر في رد الشهادة كن أخذ النية وطلب الناس عادة ، وكذلك بجملة الفجار ومصادقتهم ، والصغيرة تكبر بالمراظة كأن المباح يصير صغيرة بالمراظة ، كاللعب بالشطرنج والترنم بالنساء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبار .

(١) حديث « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفة ... الحديث أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه . وقال صحيح الإسناد .

بيان كيفية توزيع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا

اعلم أنَّ الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت ، وأعلى بالدنيا حالتك قبل الموت ، وبالآخرة حالتك بعد الموت ، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك ، يسمى القريب القاني منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة ، فإننا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وخرصنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ، ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ، ولذلك قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وهذا لأنَّ عالم الملك نوم بالإحاطة إلى عالم الملكوت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ^(١) . وما سيكون في القيضة لا يتبين لك في النوم إلا الأمثال المحوكة إلى التعبير ، فكذاك ما سيكون في قيضة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال ، وأعلى بكثرة الأمثال ما نعرفه من علم التعبير ، ويكتفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة .

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن في يدي عاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال : إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر ، قال : صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأن أصب الزيت في الزيتون ، فقال : إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أملك سيبت في صفرك ، لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل ، فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سيبت في صفره . وقاله آخر رأيت كأن أفتاد الدزقي أعنان الخنازير ، فقال : إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال ، والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال ، وإنما نغني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجدده صادقا ، وإن نظر إلى صورته وجدده كاذبا ، فالؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا ، فإنه لم يختم به قط ، وإن نظر إلى معناه وجدده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراى الختم له ، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم في النوم ، والتأنيث لا يكشف له عن شيء إلا بمنزل ، فإذا ماتوا انتبهوا ، وعرفوا أن المثل صادق ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ^(٢) . وهو من المثل الذي لا يمتلئ إلا العالمون ، فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثل لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا ، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا فثبتت له تعالى يد وأصابع . تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق آدم على صورته ^(٣) ، فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فثبتت له تعالى مثل ذلك — تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . من ههنا زل من زل في صفات إلهية حتى في الكلام وجملوه صوتا وحرقا إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول ، وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثله يكذب بها الملعون بمجرد نظره على ظاهر المثل وتأنيثه عنده ، كقوله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كيش أملح فيذبح ^(٤) فيثور الملعون لاحق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول : يا سبحان الله . الموت عرض والكيش جسم فكيف ينقلب العرض جسما ؟ وهل هذا إلا

(١) حديث : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وإنما يرمى إلى كل من أبي طالب .

(٢) حديث : قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن . تقدم (٣) حديث : إن الله خلق آدم على صورته . تقدم .

(٤) حديث : يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كيش أملح فيذبح ... الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد .

حال ، ولكن الله تعالى عز وجل هؤلاء الحق عن معرفة أسرارهم فقال (وما يعقلها إلا المألوم) ولا بد من السكين أن من قال رأيت في منام أنه جىء بكبش وقيل هذا هو الربا الذي في البلد وذبح فقال للبر: صدقت والأمركا رأيت وهذا بدل على أن هذا الربا ينتفع ولا يمودق ، لأن المذبح وقع اليأس منه ، فإذا المبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته ، وترجع حقيقة ذلك إلى أن للوكل بالربا وهو الذي يطلق الأرواح عند الترم على ما في اللوح المحفوظ عزفه بما في اللوح المحفوظ بمثل ضربه له ، لأن التاتم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا ؛ فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفنا بعباده وتيسيرا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل ، فقوله « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح » مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة ومبوت المعاني فيها بواسطتها ، ولذلك عبر القرآن بقوله (كن فيكون) عن نهاية القدرة ، وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، عن سرعة التقلب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في « كتاب قواعد العقائد » من ربيع العبادات . فليرجع الآن إلى الفرض ، فالقصد أن تعريف توزيع الدرجات والدرجات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال . فلنفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورة . فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتفاوت درجاتهم ودرجاتهم في السعادة والشقاوة تفاوت لا يدخل تحت المحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلا أبنة ، فإن مدر الملك والمكسوت واحد لاشريك له . وصفته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها ، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نلجأ عن إحصاء الاجناس . فنقول : الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، وممذيين ، وناجين ، وفاترين . ومثالي الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم هالكون ، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المذبون ، ويخل بعضهم فهم الناجون ، ويطلع على بعضهم فهم الفائزون ، فإن كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له في أصل الدولة ، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ، ولا يخل إلا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخل عليه ، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ، ثم ينبغي أن تكون خلق الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة ، وإهلاك الهالكين إما تحقيقا بجز الرتبة أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاندة ، وتمذيب المذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم ، فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر ، فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون ، فمن هالك ، ومن معذب مدة ، ومن ناج يخل في دار السلامة ومن قاتر . والفائزون ينقسمون إلى من يخلون في جنات عدن وأجنات المأوى أو جنات الفردوس ، والمذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة ، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر (١) ، وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تفاوتت درجاتهم ، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي ، فلذلك كيفية توزيعها عليها .

(١) حديث « أن أكثر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة » أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأسوار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

(الرتبة الأولى) وهي رتبة المالكين ولعنهم بالمالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال ، وهذه الدرجة لا تكون إلا للباحدين والمؤمنين المتبحرين الدنيا المكذبين بالله ورسوله وكتبه ، فإن السمادة الآخوية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق ، والجاحدون هم المكشرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أيد الآياد وهم الذين يكذبون رب العالمين وبأنبيائه المرسلين ، إنهم عن رحمة يومئذ محجوبون لا محالة وكل محجوب من محبوبة فحول بينه وبين ما يشتهي لا محالة فهو لا محالة يكون عترة نار جهنم بنار الفراق ، ولذلك قال المارغون : ليس خوفاً من نار جهنم ولا رجاءاً من الجور العين وإنما مطالبنا القاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد الله بمومن فهو لثم كان يعبد لطلب جنته أو لحرف ناره ، بل العارف بعبدته لثاته فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العين والقوا كه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يشتهيها ، إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل :

وفي فؤاد المسحب نار جوى أحر نار الجسم أبردها

ولا ينبغي أن تسكر هنا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا ، فقد روى من غلب عليه الوجد فندنا على النار وعلى أصول القصب الجارحة القدم وهو لا يحس به لفرط غلبته ما في قلبه « وترى النضيان يستولى عليه الغضب في القتال فتصفيه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار » (١) ، واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطئ الإحساس بالاضئاف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيوف إلا من حيث إنه يفرق بين جزمين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف المسكن في الأجسام ، فإذنى يفرق بين القلب وبين محبوبة الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاماً من تأليف الأجسام فهو أشد إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر ، أرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم ، فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً ولم يمت ذلك أما وقال : البدو في الميدان مع الصولجان أحب إلى من أئف سرير السلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلب شهوة البطن لو خير بين الحرية والخلوة وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصداق لأثر الحرية والخلوة ، وهذا كله لفقد الممتنى الذي يوجد بصير الجاه عجباً ، ووجود الممتنى الذي يوجد بصير الطعام لذناً ، وذلك لما استرقت صفاته البهائم والسيباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلبثها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلفها إلا البعد والحجاب ، وكذا لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الأذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كن لا سمع له ولا بصير ليس له لثة الألحان وحسن الصور والألوان ، وليس لكل إنسان قلب ، ولو كان لما صح قوله تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) لجل من لم يتذكر بالقرآن مفلساً من القلب ، ولست أعنى بالقلب هنا الذي تكتشفه عظام الصدر بل أعنى به السر الذي هو من عالم الأمر ، واللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدور كرسى ، وسائر الأعضاء

(١) حديث « النضب لعلمة من النار » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد نحوه ، وقد تقدم .

عالمه وعلمته ، وله الخلق والأمر جميعا ، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه (قل الروح من أمر ربي) هو الأمير والمملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق ، وهو الطيفه التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وعند ذلك يشم البعد بمبادئ روائع المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم (إن الله خلق آدم على صورته ، ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتسمين في طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتسمين في التأويل ، لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر ، فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وحكمته يختص بها من يشاء) ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا (ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطوّلنا النفس في أمر هو أعل من علوم المعاملات التي تقصدها في هذا الكتاب ، فقد ظهر أنّ رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذّبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها .

(الرتبة الثانية) رتبة المذنبين وهذه رتبة من تجل بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه ، فإنّ رأس الإيمان هو التوحيد : وهو أن لا يعبد إلا الله ، ومن أتبع هواه فقد اتخذ لله هواه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة ، بل معنى قوله لا إلا لله معنى قوله تعالى (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) وهو أن تذر بالسكينة غير الله ، ومعنى قوله تعالى (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكلل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة ، فلا ينفك بشر من ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل ، وذلك قاذح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم ، فذلك يقتضي لامعالة نقصانا في درجات القرب ، ومع كل نقصان نارن : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن ، فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مريين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين ، أحدهما : قوة الإيمان وضعفه ، والثاني : كثرة اتباع الهوى وقلته ، وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا (ولذلك قال الحافظون من السلف : إنما خوفنا لأننا نيقنا أننا على النار واردون وشككتنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأه ينادى يا حنان يا منان ^(١) قال الحسن : باليتي كنت ذلك الرجل . واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على التاركين في غاطف ولا يكون له فيها لبث ، وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدة وأن الاختلاف بالقدرة لا نهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو ؛ وقد يضرب بالسياط ، وقد يعذب بروع آخر من العذاب ، ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع ، إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحرم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد

(١) حديث ه من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان ه أخرجه أحمد وأبو بلى من رواية أس غلال العمل من أس وأبو غلال ضعيف وبه هلال بن مسعود .

والأنف والأذن وغيره ؛ فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع ، وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها . أما شدة العذاب فيشدة فيح السيئات وكثرتها وأما كثرته فيكثرتها ، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات ؛ وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ويقول تعالى ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ ويقول تعالى ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ ويقول تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال ، وكل ذلك يبدل لا يظلم فيه ، وجانب العفو والرحمة أرجح ؛ إذ قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وحده لا شريك له • هو الغني الغفار ﴾ (١) ، وقال تعالى ﴿ وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ ، فإذا ن هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والمركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً ومسكده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستعمل في أنواع الاستبصار بعين الاعتبار ، فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض - أعني الأركان الحسة - ولم يكن منه إلا صغار متفرقة لم يصر عليها ، فينبغي أن يكون عذابه المناقصة في الحساب فقط ، فإنه إذا حوسب رجحت حسنته على سيئاته ، إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الحسة والجمعة وصوم رمضان كفارات لما يبينن ، وكذلك اجتناب الكبائر يحكم لص القرآن مكفرا للصغار ، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب ، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه ، فيلغى أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشه راضية ، نعم التحاقه بأصحاب الجحيم أو بالمقربين وزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان : تقليدي كل الإيمان العام يصدقون بما يستمعون ويستترون عليه ، وإيمان كشي يحصل بانفراج الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه ، فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم المقربون المازلون في الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من اللأ الأعلى ، وهم أيضا على أصناف : فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ؛ وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ؛ ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر ، إذ الإحاطة بكنهه جلال الله غير ممكنة وبجر المعرفة ليس له ساحل وعق وإنما ينحصر فيه التواصون بقدر قوام ويتدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأول ؛ فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمازلة ؛ فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيمانا تقليديا فمن أصحاب الجحيم ودرجته دون درجة المقربين ، وهم أيضا على درجات ؛ فالأعلى من درجات أصحاب الجحيم تخاربه رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها - أعني الأركان الحسة التي هي النطق بكلمة الشهاداة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج ؛ فأما من ارتكب كبيرة أو كبرائر أو أهمل بعض أركان الإسلام ، فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والثوب المنسول كالذي لم يتوسخ أصلا ، وإن مات قبل التوبة فهذا أمر خطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه فينجم له بسوء الحاتمة ، لا سببا إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للاختلال

بأذى شك وخيال ، والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الحاتمة وكلامها إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يغفوا الله طوباً يزيد على عذاب المناقشة في الحساب ، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار ، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات ، وعند انقضاء مدة العذاب ينزل إليه المقلدون في درجات أصحاب الجين ، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين ؛ ففي الخبر ، آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف ^(١) ، فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام ، كان يخرج من النار فرسخ بفرسخين أو عشرة بمئتين ؛ فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال ، بل هذا كقول القائل : أخذته جلا وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فاعطاه مائة دينار ؛ فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والتقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشر عشيره ، بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها دون اشتصاصها وهياكلها ؛ فإن الجمل لا يقصد له وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته ، فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحية لا بالموازنة الجسدية ، وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة ، بل لو أعطاه جومرة وزنها مثقال وفيها مائة دينار وقال : أعطيت عشرة أمثاله ، كان صادقا ، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون ؛ فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر ، فلذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول : ما هذه الجومرة إلا حجر وزنه مثقال ، ووزن الجمل ألف مثقال فقد كذب في قوله : [إن أعطيت عشرة أمثاله ، والسكران بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والسكران يحصل في قلبه الثور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال ، فمئدة ذلك ينكشف له الصدق ، والعارف عاجز عن تفهم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة ، إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « الجنة في السموات » ^(٢) ، كما ورد في الأخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا ، وهذا كما يسجد البالغ من تفهم الصبي تلك الموازنة ، وكذلك تفهم البدوي وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوي والقروي في تفهم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذ بلى بالبلد الأبله في تفهم هذه الموازنة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أرحموا ثلاثة : عالما بين الجهال ، وغنى قوم افتقر ، وعزيز قوم ذل » ^(٣) ، والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » ^(٤) فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن ؛ فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم ، إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم حنأه إلى الله إلا فرارا ، ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال « رحم الله أبا موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » ^(٥) ، فإذن لا تغفلوا الأنبياء

(١) حديث « إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف » متفق عليه من حديث ابن مسعود .
 (٢) حديث كون الجنة في السموات : أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه . « فإذا سألت الله فاسأله الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأهل الجنة وثوقه عرش الرحمن » (٣) حديث « أرحموا ثلاثة : عالما بين الجهال ... الحديث » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية يحيى بن طهمان عن أبيه ، وعيسى بن عيسى ، ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال « عالم ثلاثين في الدنيا » وفيه أبو البختري واسم وهب بن وهب أحد السكندانيين . (٤) حديث « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » أخرجه الترمذي وصححه ، والنسائي في الكبرى ، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال : قلت لأبي عبد الله الله أشر أشد بلاء ؟ فذكره دون ذكر الأولياء ، والظاهر أن من حديث فاطمة « أشر أشد بلاء الأنبياء ثم الصالحون ... الحديث » . (٥) حديث « رحم الله أبا موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود .

عن الابتلاء بالجاحدين ، ولا تخلو الأولياء والصلحاء عن الابتلاء بالجاهلين ، ولذلك قلنا ينقل الأولياء عن حروب من الإبناء وأنواع البلاء بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين ، وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجبل من الكافرين ، كما يجب أن يكون للعتاس من الجبل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين للمضيئين ، فإذا عرفت هذه التفاتت فأمن بقوله عليه الصلاة والسلام « إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات ، ولذا أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين ، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، فلذلك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم ؛ فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسبها بالإعراض عنها ، فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله ، إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس ، وكل من نسي الله أنساه الله - لا محالة - نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقى إلى الآفاق الأعلى . وعان في الأمانة التي أودعها الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعزراً لنعمته إلا أنه أسوأ حالاً من البهيمة ، فإن البهيمة تتخلص بالموت . وأما هذا فممنه أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها ، فإليه مرجع الأمانة ومقصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذه القالب الثاني وغربت فيه ، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة . والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية ، والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة ، إذ المرجع والمصير للكل إليه إلا أنها ناكسة وأسها عن جهة أعلى علين إلى جهة أسفل سافلين ، ولذلك قال تعالى (ولو ترى إذ الجمريون ناكسوا رؤسهم عند ربهم) فيبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفرتهم وانتكست رؤسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل ، وذلك حكم الله فيمن حرمه ترفيقه ولم يده طريقه ؛ فعمد بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال ؛ فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطى مثل ضرة أمثال الدنيا أو أكثر ، ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعني بالموحد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله ، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الناعين عن ماله ، ومدة الرقبة وللحال مدة الحياة ، بحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان ، وإنما ينفع الصدق في التوحيد وكال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله . وعلامته أن لا ينضب على أحد من الخلق بما يجري عليه ، إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كإسبات تحقيقه في التوكل ، وهذا التوحيد متفاوت ، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال . ومنهم من له مقدار خرقة وذرة ، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار . وفي الخبر يقال « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان »^(١) ، وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة ، والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين التقوى ، وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد ، فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك ، فأما بقية السيئات فيستأرجع العفو والتكفير إليها ، ففي الآخر « إن العبد

.. (١) حديث « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان » الحديث هدم .

ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقتضي من حسناته حتى لا تبق له حسنة ، فنقول الملائكة ياربنا هذا قد فئت حسناته وفق طالبون كثير ، فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وسكروا له صكاً إلى النار ، وكما هلك به بسبته غيره بطريق التخاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضاً عما ظلمه وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال : لأقبل ، ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أحرمها . وقال هو وغيره : ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي ، فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة ، وكل ذلك حكم بظواهر أسباب ينضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لاعالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه مدين ، فإن ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ، ولكن قد تنوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه ، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغوض الأسباب التي وآبها مسبب الأسباب بقدر معلوم ، إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، يبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالمعروف والرضا وعما يقضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام ، وواء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها ، فلذلك يجب علينا أن نجوز المعفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة ، فإن الاعتدال على التقوى والتقوى في القلب ، وهو أغض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عيب إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى ، ولولا ذلك لم يكن المغفور الغضب جزءاً على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزءاً لم يكن عدلاً ، ولو لم يكن عدلاً لم يصح قوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ولا قوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ وكل ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ماسمى ، وسعياً هو الذي يرى ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم ، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالصر ، إذ للبرر يمكن النطق فيه ، إذ قد يرى البعيد قريباً والكبير صغيراً . ومشاهدة القلب لا يمكن الناطق فيها ، وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب ، وإلا فلا يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ .

(الرتبة الثالثة) رتبة التاجين ، وأعلى بالنتيجة السلامة فقط دون السعادة والفوز ، وهم قوم لم يخذلوا فيخلق عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصيادين من الكفار والمعتومين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد ، وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تهديم ولا جناية تدمير ، فاهم من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل يزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر للشرع عنه بالأعراف ، وسلول طائفة من الخلق ^(١) فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار ومن

(١) حديث حول طائفة من الخلق الأعراف : أخرجه البزار من حديث أبي سعيد الخدري : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال : هم رجال تقوا في سبيل الله وهم عصاة لأنهم فتنهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنهم المصيبة أن يدخلوا الجنة ، وهم على سور بين الجنة والنار ... الحديث ، وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف . ورواه الطبراني من رواية =

أنوار الاعتبار ؛ فأما الحكم على الذين كالحكم ثلاثاً الصبيان منهم ؛ فهذا مقلدون وليس بمستيقن ؛ والاطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة ؛ ويبدو أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء ؛ والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة . حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصفائر الجنة ، فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : وما يدريك ؟ ^(١) فإذن الإشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام .

(الرتبة الرابعة) رتبة الفاترين وهم المارفون دون المقلدين ، وهم المقتربون السابقون ؛ فإن المقلد وإن كان له فوز على الجنة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقتربون وما يلي هؤلاء مجازو حد البيان ، والقدر الممكن ذكره مافصله القرآن ، فليس يعد بيان الله بيان ، والذي لا يمكن التمييز عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وقوله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والمارفون مطهرون تلك الحالة التي لا يتصور أن تغتر على قلب بشر في هذا العالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبان والصل والخر والخل والاساور فليهم لا يحرمون عليها ولو أعطوها لم يشعروا بها ، ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجهه تعالى الكريم فهي غاية السعادات ونهاية اللذات ولذلك قيل لأربعة العودية رحمة الله عليها : كيف زينتك في الجنة ؟ فقالت : الجار ثم النار ؛ فهؤلاء قوم شغلهم حب ربهم والنار عن النار وزينتها ، بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ، ومثلهم مثال العاشق المستهتر بمشوقه المستوفى مما بالنظر إلى وجهه والتسكرفيه ، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يصح بما يصح في بدنه ، ويعبر على هذه الحالة بأنه في جن نفسه ، ومنه أنه صار مستغرقاً بغيره وصارت همومه كلها واحداً وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لأنفسه ولا غير نفسه ، وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن

== أي مصغر من يحيى بن شبل بن عمر بن عبد الرحمن المدني عن أبيه عتصرا ، وأبو مصغر فحيح السدي ضيف ، ويحيى بن شبل لا يعرف . ولما كان من حديثه قال : « أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار ونصرتهم سيئاتهم عن الجنة ... الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين . وروى الترمذي عن ابن عباس قال : الأعراف موضع حال في الصراط عليه العباس وخرى : وعلى وجسر ... الحديث ، وهذا كذب موضوع وفيه حجة من الكذابين .

(١) حديث عائشة أنها قالت لما مات بنو الصبيان : عصفور من مصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله وقال : ما يدريك ، رواه مسلم ، قال المنذ : والأخبار في حق الصبيان متعارضة . قلت : روى البخاري من حديث سمرة بن جندب في رؤيا التي صلى الله عليه وسلم ، وفيه : وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة : فليل : يارسل الله ، وأولاد الممركين ؟ قال أولاد الممركين ، والمطرباني من حديث : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد الممركين فقال : هم خدمة أهل الجنة ، وفيه عباد من منصور التاجي فاضى العصرة ، وهو ضيف يرويه عن يحيى بن عثيب ، وقد ضفه ابن حبان . ولقد سألت من حديث الأسود بن سرح . كذا في خزانة لنا ... الحديث في قول القرية ، وفيه : ألا إن خيركم أبناء الممركين ، ثم قال : لا تفعلوا ذرئكم لست تؤول على الفطرة ... الحديث ، وإسناده صحيح ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث ، وفي رواية لأحمد : ليس مولود يولد إلا على هذه الفطرة ، ولا يولد داود في أكثر الحديث : يارسل الله أفرايت من عوت وهو منير ؟ فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس : مثل الذي صلى الله عليه وسلم عن أولاد الممركين فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، والمطرباني من حديث ثابته بن الحارث الأصبلي : كانت يهودي إذا ملكه لم يمسس يمينه قالوا . هو صديق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كذبت يهودي ما من نسة يثقلها الله في بطن أمه إلا أنه شق أو سعيد ... الحديث ، وفيه عبيدة بن ليبة ، ولأبي داود من حديث ابن مسعود الوائدة والمروضة في النار ، وله من حديث عائشة : قلت يارسل الله ذرئى المؤمنين ؟ فقال : مع آبائهم ، قلت : بلا عمل ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، قلت : فذرئى الممركين ؟ قال : مع آبائهم ، قلت : بلا عمل ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، والمطرباني من حديث خديجة : قلت يارسل الله أين أطلاليتك ؟ قال : في الجنة ، قلت : بلا عمل ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، قلت : أشقالي بلك ؟ قال : في النار ، قلت : بلا عمل ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحارث وخديجة . وفي الصحيحين من حديث الصب بن جشاعة عن أولاد الممركين « هم من آبائهم » وفي رواية « هم منهم »

تخطر في هذا العالم على قلب بشر ، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه ، إلا أن رفع الحجاب عن سمعه وبصره ، فمقد ذلك يدرك ساهه ويعلم قطعاً أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق ، وبرقه ينكشف الغطاء ، فمقد ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة (وإن الدار الآخرة لحي الحيوان لو كانوا يعلمون) فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات ، والله الموفق بلفظه .

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب .

اعلم أن الصغيرة تكبر بأصناف : منها الإصرار والمواظبة ، ولذلك قيل : لاصغرية مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار ، فكبيرة واحدة تصرم ولا يتبعها مثلاً لو تصور ذلك كان المنوعها أرجى من صغيرة يراغب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير الأعمال أدامها وإن قل ^(١) ، والأشياء تستبان بأحدها وإن كان التافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل التفع في توارب القلب وقطيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب ، إلا أن الكبيرة قلباً يتصور الهجوم عليها بنته من غير سوايق ولواحق من جملة الصغائر ، فقلبا يزدى الزانى بنته من غير مراودة ومقدمات ، وقلبا يقتل بنته من غير مشاحة سابقة ومعاودة ، فكل كبيرة تكثفها صغائر سابقة ولاحقة ، ولو قصورت كبيرة وحدها بنته ولم يتفق إليها عود ربما كان المغفر فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره . ومنها أن يستمر الذنب فلئن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صخر عند الله تعالى ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره ، واستمراره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب توريه بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤخذ بما يجرى عليه في النفقة فإن القلب لا يتأثر بما يجرى في النفقة ، وقد جاء في الخبر : المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره ^(٢) ، وقال بعضهم : الذنب الذي لا يغفر قول العبد : ليس كل ذنب علمته مثل هذا ، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعله بجلال الله ، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة ، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها ، وهذا الاعتبار قال بعض العارفين : لاصغيرة ، بل كل عاتلة فهي كبيرة ، وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم لقتابيين : وإنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كما لعدوها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموفيات ، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلاله تعالى من الكبار ، وهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن المسمى في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف ، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك لئمة والنفقة عن كونه سبب الشقاوة ، فكلما غلبت حلالة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه ، حتى إن من المذنبين من يتملص بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمغافرة إياه ،

(١) حديث « خير الأعمال أدامها وإن قل » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « أحب » وقد تقدم .

(٢) حديث « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه ... الحديث » أخرجه البخاري ، من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين : أحدهما من النبي صلى الله عليه وسلم ، والآخر من نفسه ، فذكر هذا وحديث « قد أفرح بشيء العبد » ولم يبين المرفوع من الموقوف ، وقد رواه البيهقي في الشعب من حماد .

كما يقول : أما رأيته كيف منقذ عرسته ، ويقول الماظر إلى مناظره : أما رأيته كيف فضحته وكيف ذكرت مساريه حتى أخطعته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل في التحارة : أما رأيت كيف رجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبته في ماله وكيف استحقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغار فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحبل عليها فيلغى أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة البدو عليه وبسبب يده من الله تعالى ، فالمرضى الذي يفرح بأن يتكسر إناءه الذي فيه دواءه حتى يخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحله عنه وإمهاله إياه ولا يدري أنه إنما يهمل مقتلاً يزيد بالإمهال إثمًا ، فيظن أن تمكنه من المعاصي غناية من الله تعالى به ، فيكون ذلك لآمنه من مكر الله وجهله بمكر الله ، فيظن أن ينجو من الله ، كما قال تعالى (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبه جهنم يصلونها فبئس المصير) ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جنابة منه على ستر الله الذي سده عليه وتحريكه لمرغبة الشر فيمن أسمه ذنبه أو أشبهه فعله ، فهما جنابتان الضمتا إلى جنابته فنظمت به ، فإن انضاف إلى ذلك التريغيب الغير فيه والحل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جنابة رابعة وتفاحش الأمر ، وفي الخبر : كل الناس معاني إلا الجاهلين بيت أحدم على ذنب قد ستره الله عليه فيصعب فيكتشف ستر الله ويحدث ذنبه ^(١) ، وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجليل ويسر التيسير ولا يهلك السر ؟ فالإظهار كثران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لا تذب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذب ذنبن ، ولذلك قال تعالى (المناقون والمنافات بعضهم من بعض يأمرون بالشكر ويهون عن المعروف) وقال بعض السلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعد على معصية ثم يهونها عليه . ومنها أن يكون الذنب طالما يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم ووكوبه مراكب الذهب ، وأخذ مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته أيام يترك الإنكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراس وتبذير بالسان في المناظرة وقصد الاستغفار واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كالم الجدل والمناظرة ، فهذه ذنوب يقع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا في العالم آماد متطاولة ، فطوبى لمن إذا مات مات ذنوبه معه . وفي الخبر : من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا ^(٢) ، قال تعالى (ونكتب ما قدموا وآثارهم) والآثار ما يلبقى من الأعمال بعد انتضاء العمل والمعامل . وقال ابن عباس : ويل للعالم من الاتباع يدل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق . وقال بعضهم : مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تفرق ويفرق أهلها . وفي الإسراييليات : أن عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبه فعمل الإصلاح دهرًا ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه : قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرت لك ولكن كيف ، أن أهلك من عبادي فأدخلتهم النار ، فهذا يتضح أن أمر العلماء خطير فليعلم وظيفتان : إحداهما ترك الذنب ، والأخرى إخفاؤه ، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك تتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا . فإذا ترك التجميل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيقع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم ، وإن مال إلى التجميل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ، ولا يقدرون على التحمل إلا بخدمة السلاطين

(١) حديث « كل الناس معاني إلا الجاهلين .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ « كل أمة » وقد تقدم
(٢) حديث « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله
وقد تقدم في آداب السكيب .

وجع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك ، فركات العلماء في طووي الزيادة والتقصان تتضاعف آثارها إما بالرجع وإما بالخران ، وهذا التقدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها .

الركن الثالث : في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث حرما وقصدا ، وذلك الندم أوروته العلم بكون المعاصي حائلا بينه وبين محبوبه ، ولكل واحد من العلم والندم والعزم ودوام وتتمام ، ولتمامها علامة ، ولدوامها شرط فلا بد من بيانها : أما العلم فانظر فيه فطر في سبب التوبة وسيأتي . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن والسكاب الدمع وطول البكاء والفكر ، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبتهم وبكاه ، وأى عزيز أضر عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شيء أذل على نزول العقوبة من المعاصي وأى غير أصدق من الله ورسوله ؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبا : أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه ، لظال في الحال حزته ، فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأذل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار ، فإلم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى ، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغرارة الدمع والخير . جالسوا التوازين فليهم أرق أفئدة ^(١) ، ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلواتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة . وفي الإسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه - وقد سأله يقول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يرد قبول توبته فقال - وعزى وجلال لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه .

فإن قلت : فالذنوب هي أعمال مشبهة بالطبع فكيف يبعد مراتها ؟ فأقول : من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شره وفلجعت أعضائه فإذا قدم إليه عسلا فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت : لا ، فهو جسد للشاهدة والضرورة ، بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضا لشبهه به ، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون ، وذلك لعل به بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما هو مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون ، فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها ، فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن بدوم إلى الموت وينبغي أن يبعد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يبعد تناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل عافيه ، ولم يكن ضرر التائب من سرقة وزنه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب . وأما التقصد الذي يليق منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالخال ؛ وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال . وله تعلق بالماض ؛ وهو تدارك ما فرط . والمستقبل ؛ وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت .

وشروط مجتها فيما يتعلق بالماض أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من

(١) حديث « جالسوا التوازين فليهم أرق أفئدة » لم أجده مرصوفا من قول عرن بن عبد القرواه إن أبى الدنيا في التوبة قال « جالسوا التوازين فإن رحمة الله إلى التادم أقرب » وقال أمينا « فالوعظة إلى فلوهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب » وقال أيضا « الثالث أسرع دسة وأرق قلبا » .

عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا ، وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها ؟ وإلى المعاصي ما الذى قارنه . منها ؟

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهة بشرط التوبة فيقضيا عن آخرها ، فإن شك في عدد ما فاتته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه آذاه ويقضى الباقي وله أن يأخذ فيه بنائب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد .

وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسي التوبة بالليل ولم يقض ؛ فيتعوز بمجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشغل بقضائه .

وأما الزكاة فيجب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه - لامن زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة مال العبي - فيؤدى ما علم بنائب الظن أنه في ذمته ، فإن آذاه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك ، فإن ذلك لا يجزئ أصلا ، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك بطول ومحتاج فيه إلى تأمل شاف ويؤمره أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء .

وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج ، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتب من الحلال قدر الزاد ، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به ، فإنه إن مات قبل الحج مات طاعيا قال عليه السلام : مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ^(١) ، والمجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج . فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

وأما المعاصي فيجب أن يفحص من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه ويطلبه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صانعا وكبائرا ثم ينظر فيها لسا كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد ، كمنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجناة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاء وغيره ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد ، فالتوبة عنها بالتدبر والتحصن عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم : اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ^(٢) ، بل من قوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر ، ويكفر القعود في المسجد جنبيا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ، ويكفر مس المصحف عمدا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة قبضه بأن يكتب مصحفا ويجمعه وقفا ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه ، وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض بالمالج بعده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها ، وللتضادات هي التناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها ، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحر فالرجاء فيه أصدق والفتنة

(١) حديث « من مات ولم يحج فليمت لإن شاء يهوديا ... الحديث » تقدم في الحج (٢) حديث « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أخرجه الترمذى من حديث أبي ذر وصححه وهبم أوله في آداب الكسب وبهذه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس .

به أكثر من أن يواطىء على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى ويدل على أن الشيء يكفر بعبده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السوء بها والخنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينفو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له ، إذ القلب يحتاج بالمعصية والمعصية عن دار المعصية قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا المعصية »^(١) ، وفي لفظ آخر « إلا المعصية بطلب المعيشة » وفي حديث عائشة رضي الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه المعصية فتكون كفارة لذنوبه »^(٢) ، ويقال إن الله الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلة الذنوب والله بها ، وشعور القلب بوقفة الحساب وهو المطلع .

فإن قلت : هم الإنسان غالباً بما له ولده وجماعه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة ؟ فأقول أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به تمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له : كيف تركت الشيخ الكتيب ؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ملكي قال : فإله عند الله ؟ قال : أجر مائة شهيد . فإذا المعصية أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد فيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهي عن ظلم العباد أيضا ، فإتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالنعم والتحرر ترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضعافها ، فيقابل إبداءه الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكها الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالنهي والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب . لأن تلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيد والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير وهو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة ، ثم إذا فعل ذلك كلف لم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعني به الإبداء المحض .

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فذوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول . وإن كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص ، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف بتدويل الدم ويحكمه في . ورحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا . ولا يجوز له الإغواء وليس هذا كالوزن أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتص من الوالي استيفاء حق الله تعالى ، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقبح حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب ، فالعفو في بعض حقوق الله تعالى قريب من التائبين التاديب ، فإن أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقعه وموقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى أن ما عزم مالك أن يرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزيت وإني أريد أن تطهرني ! فرده فلما كان من النداء أتاه فقال : يا رسول الله إني قد زيت ! فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به لغيره له حفرة ثم أمر به

(١) حديث « من القنوب ذنوب لا يكفرها إلا المعصية » وفي لفظ آخر « إلا المعصية بطلب المعيشة » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو يعقوب في المعلية والخليفة في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف يهضم في السكاح .

(٢) حديث « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه المعصية » وتقدم أيضا في السكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ « إجماع الله بالقرن » .

فرجم ، فكان الناس فيه فريقين : فقال يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد تاب توبة لو قسمت بين أمم لم يستمتع^(١) ، وجاءت النامية فقالت : يا رسول الله إنى قد زنت فطهرنى ، فردها فلما كان من الغد قالت : يا رسول الله لم تردنى لمالك تريد أن تردنى كما رددت ما عزا ، فوافقه إلى الخليل : فقال صلى الله عليه وسلم : أما الآن فاذهبى حتى تقضى ، فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت : هذا قد ولدت قال : اذهبي فأرضعيه حتى تطفئه ، فلما طفئته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت : يا نبي الله قد طفئته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها لحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتشقق اللحم على وجهه فسبها ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال : مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تلبس صاحب مكس لغفر له ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .^(٢)

وأما القصاص وحد القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه ، وإن كان المتناول مالا تناوله بالنصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تليس كزناح أو سر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فشكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من أول مدة وجوده ، فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجهم بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالما مطالبا به ، إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ ، وليحاسب نفسه على الحيات والدوايق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة ، وليناقش قيل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه ، فإن حصل بمعوج ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتب أسأى أصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف في نواحي العالم وليطليهم وليستجهم أو ليؤد حقوقهم ، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبق له طريق إلا أن يذكر من الحسنات حتى غفرض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسنة وتوضع في موازين أرباب المظالم ، ولكن كثرة حسنة بقدر صكثرة مظالمه فإنه إن لم تغف بها حسنة حل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره . فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظالم فكيف وذلك مما لا يعرف ؟ وربما يكون الأجل قريبا ؟ فينبغي أن يكون تقديره الحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذى كان في المعاصي في متسع الأوقات . هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته .

أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له المالك معينا وما لا يعرف له المالك فعليه أن يتصدق به ، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المتداركا سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام .

وأما الجنائز على القلوب بمشاهدة الناس بما يسوؤهم أو يميمهم في النية فيطلب كل من تعزم له بلسان أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد مات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا في القيامة ، وأما من وجده وأحله يطيب قلبه منه فذلك كفراته وعليه أن يعرف قدر جنايته

(١) حديث : اعتراف ما زنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله : لقد تاب توبة ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث برمجة بن الحصب (٢) حديث النامية واعترافها بالزنا ورجعها وقوله صلى الله عليه وسلم : لقد تاب توبة ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث برمجة وهو نفس الحديث قبله .

وتعرض له فلاستحلال المهم لا يكتفى ، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسنة أو يحمله من سيئاته ، فإن كان في جملة جنائته على الغير مالو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاؤه مهما شؤفه به فقد انسذ عليه طريق الاستحلال ، فليس له إلا أن يستحل منها ثم يبق له مظلة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلة الميت والمائب .

وأما الذكر والتعريف فهو سبقة جديدة يجب الاستحلال منها ، ومهما ذكر جنائته وعرفه المجنى عليه فلم تسمع نفسه بالاستحلال بقيت المظلة عليه فإن هذا حقه ، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال ، فإن أبي إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتدائه إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته ، وليكن قدر سعيه في فرجه وسروره قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاؤه ، حتى إذا قام أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عرضا في القيامة بحكم الله به عليه ، كن ألق في الدنيا مالا لجام مثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى ، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المتسطين . وفي المتنق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أهل الأرض فدل على رامب فأناؤه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال : لا فقتله فكل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله عروجا فاعد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فانخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تابيا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط ، فأنهم ملك في صورة آدمي فجلوه حكا بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ففاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة ^(١) » وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشير فجعل من أهلها ، وفي رواية : « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربي وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشير فغفر له » فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثل ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضى .

وأما الزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعتقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أشغالها ، كالذى يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزا جزمائه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه ، فإن هذا الزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن قلبه الشهوة في ثاني الحال ، ولكن لا يكون تابيا مالم يتأكد عزمه في الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزيمة والصمت وقلة الأكل واليوم وإحراز قوت حلال ، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه ،

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتنق عليه : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسال عن أعلم أهل الأرض .. الحديث » هو متنق عليه كما قال المتنق من حديث أبي سعيد .

فإن رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تاباً مع الإصرار عليه. ولا يكتفي بالحلال وترك الشهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المساكولات واللحوسات ؟ وقد قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه تسع سنين لم يبذل بها . وقال آخر . من تاب من ذنب واستقام سبع سنين ، لم يعد إليه أبداً . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة ، وإن لم يؤثر التوبة له ثم لم يستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلاً ، وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لاتصح ، وقال آخرون تصح ، ولغظ الصحة في هذا المقام يحمل ، بل نقول لمن قال لاتصح : إن عنت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً وجوده كمدمه فأعظم خطأك ! فإننا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقتلها سبب لقتلها . ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يرسل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضاً خطأ ! بل النجاة والفوز بترك الجميع . هذا حكم الظاهر ولستأنتكم في خفايا أسرار عفو الله فإن قال من ذهب إلى أنها لاتصح لاني أردت به أن التوبة عبارة عن التدم . وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لالكونها سرقة ؛ ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية فإن الملة شاملة لها إذ من يتوجه على قتل ولده بالسيف يتوجه على قتله بالسكين لأن توجهه بغوات محبوه سواء كان بالسيف أو بالسكين ، فكذلك توجه العبد بغوات محبوه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجه على البعض دون البعض ؟ فالتدم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفقودة للجبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدينين دون الآخر فإن استحالة ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة ، فإذا معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لا تتال إلا بالتدم ولا يتصور التدم على بعض المخاللات ، فهو كالمالك المرمب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول إن العبد لا يصح أى لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك ، وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ماله وثمرته التدم تكفير ما سبق ، فترك السرقة لا يكفر السرقة بل التدم عليها ولا يتصور التدم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي ، وهو كالمفهوم واقع يستلحق النصف بتفصيل به ينكشف الغطاء .

فقول : التوبة عن بعض الذنوب لاتغفر إلا أن تكون عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن الصغائر دون الكبائر ، أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر يمكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسلط الله ومقته ، والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتقدم عليه ، كالذي ينجى على أهل الملك وحرمه ويحجى على جانيه فيكون خائفاً من الجنابة على الأهل مستحقراً للجنابة على الدابة ، والتدم بحسب استظام الذنب واعتقاد كونه مبدءاً عن الله تعالى . وهذا يمكن وجوده في الشرع فقد كثر التأثيرون في الأعصار الحالية ولم يكن أحد منهم معصوماً فلا تستدعي التوبة العصمة . والطبيب قد يحد المريض العسل تحذيراً شديداً ، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً ، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم شدة تدم على أكل العسل دون السكر .

الثاني : أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً يمكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأعظم عند

الله ، كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لله أنه أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه ، . فهذا أيضاً ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر ، لأن الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فيحسب ترجيح شرب الخمر عنده يلبيح منه خوف يوجب ذلك تركاً في المستقبل وتندما على الماضي .

الثالث : أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة ، كالذي يتوب عن الفرية أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر ، فهو أيضاً ممكن ووجه إمكانه أنه مامن مؤمن إلا وهو غاف من معاصيه ونام على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً ، ولكن تكون لذّة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والتفلة ، وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون ملياً بتحريك العزم ولا قوياً عليه ، فلن يسلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف فهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية ، وقد تشدد حشواة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه ، وتكون له ضراوة ما بالغية وتلب الناس والنظر إلى غير المحرم ، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقطع هذه الشهوة الضعيفة دون التوبة فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك ؟ بل يقول هذا الفاسق في نفسه : إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا يبين أن أخلع المذار وأرخى العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي ، فمستأني أظنه فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوب . ولولم يتصور هذا لما تصور من التماسق أن يصلى ويصوم ، ولقيل له إن كانت صلاتك لتغير الله فلا تصح ، وإن كانت فترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد ، فلا يتصور أن تمسك بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تتقرب بترك الفسق ؛ وهذا محال بأن يقول لله تعالى على أسرارى على مخالفة فيهما عقوبتان ، وأنامل في أحدهما يقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر ، فأنأ أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما مجرت عنه بفراط شوقى فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم ؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله وممصيته ولا سبب له إلا هذا ، وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورت الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : الندم توبة ، ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال : التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولم يقل التائب من الذنوب كلها ، وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متائلة في حق الشهوة وفي حق التمسك إلى محط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون التبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ، ويتوب عن الكثير دون القليل لأن أكثر الذنوب تأثيراً في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يحجز عنه ويترك بعض شيوته لله تعالى ، كما روى الذى حذره الطيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها ، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ماناب عنه مخالفا لما بقى عليه إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة ، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم ، فيتصور اختلاف حاله في الترك فندم على ذلك الذنب ووظفه بزمه على الترك يلحظه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطلع الله في جميع الأوامر والنواهي .

فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم

يمت الزم على الترك فيما يقدر على فعله ، ومالا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه لئلا ، ولكني أقول لو طرأ عليه بعد التوبة كشف ومعرفة يتحقق به ضرر الزنا الذي قارنه وثار منه احتراق ونحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تتمع تلك الشهوة وتغلبها فإني أرجو أن يكون ذلك مكثرا لذنبه وماحيا عنه سيئته ، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تتيح فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده ، فإن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق التائب هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه ، فإن كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف ، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فمساء يقيله منه ، بل الظاهر أنه يقيله .

والحقيقة في هذا كله ترجع إلى ظلمة المصيبة تمنح عن القلب بشيئين ، أحدهما : حرقة الندم . والآخر : شدة المجاهدة بالترك في المستقبل . وقد امتنعت المجاهدة بربو بالشهوة ولكن ليس عالما أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولولا هذا لفتنا إن التوبة لا تقبل عالم يمضى التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة ، وذلك بما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا .

فإن قلت : إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن الزروع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمتصها فأيهما أفضل ؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه ، فقال أحد بن أبي الخوارى وأصحاب أبي سليمان الداراني : إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد . وقال علماء البصرة : ذلك الآخر أفضل لأنه لو عرف نوبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرصة الفتور عن المجاهدة . وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة .

والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان (إحداهما) أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتر في نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلائه به على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ؛ وأعلى بقوة الدين قوة الإرادة التي تنبئ بإشارة اليقين وتتمتع الشهوة المنبئة بإشارة الشياطين ، فهاتان قوتان تدل بالمجاهدة عليهما قطعا . وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ . وهو كقول القائل : التائب أفضل من الفاسد لأنه في أمن من خطر الشهوة ، والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم ، والفلس أفضل من الملك القاهر القابع لاعدائه لأن للفلس لاعتقوله والملك ربما يبلب ممة وإن غلب مرات ، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الإخطار وأن الملتزم شرطه اقترام الأغرار . بل كقول القائل : الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمع به فرسه فتسخر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويمتد على ، وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالما بطريق تأديبها أحمل رتبة وأحرى يدرك سعادة الصيد .

(الحالة الثانية) أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تتيح إلا بالإشارة من المبادئ وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المتأسي لهيجان الشهوة وقمها . وقول القائل : ليس لذلك فضل المجاهد قصور عن الإحاطة بمقصود

الجهاد فإن الجهاد كان مقصوداً لهينه ، بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شؤاته وإن عجز عن استجارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين ، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر . ومثاله كمثل من هزم العدو واستتره بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدرى كيف يسلم . ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراضى القرس فهما تأثمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والقرس الجناح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ، ولقد ذل في هذا فريق ففتنوا أن الجهاد هو المقصود الأفعى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عواقب الطريق . وظن آخرون أن رفع الشموات وإماطتها بالكلية مقصود حتى تجزب بعضهم أنفسهم فمجر عنه فقال : هذا محال ، فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل في اتباع الشهوات . وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات .

فإن قلت : فما قولك في تأمين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحرق ندماً عليه فأجيباً أفضل ؟ فأعلم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك . وكل واحد من اللذنين عندنا على حق ولكن بالإضافة إلى حالين .

وكلام المتصوفة أبداً يكون قاصراً ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهجم حال غيره فتختلف الأجوبة باختلاف الأحوال ، وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجديت يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهجم أمر غيره ، إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله . وقد يكون طريق السبيل إلى الله العلم بالطريق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً مع الاشتراك في أصل الهداية ؟

فأقول : تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كال في حق المبتدئ ، لأنه إذا نسي لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانجباته لسلوك الطريق ، لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالإضافة إلى الناقل كال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق . بل سالك الطريق ينبغي أن لا يبرج على غير السلوك ، فإن ظهر له مبادئ الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استترقه ذلك ولم يق فيه متسع للتألمات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال . بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال لعب المسافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل ، ولو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره يسكن متأسفاً على تخريبه الجسر كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلاً فتتبدد السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فيطبل بالليل بكاءً وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله ، فإن حصل له من التلبية ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه ، وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والمائق وطريق السلوك — وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربيع المهلكات — بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في التوب في الآخرة لتزبد رغبته ، ولكن إن كان شاباً فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالخور والتمصور فإن ذلك الفكر يجرى بمحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالأجلة . بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا.

فكذلك تذكر الذنوب قد يكون محركا للشهوة ، فالتبدي أيضا قد يستعصر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك . ولا يهتدك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داور ونياحته عليه السلام ، فإن قياسك نفسك على الانبياء قياس في غاية الاعوجاج لانهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاحقة بأهمهم ، فإنهم ما يشعرون إلا لإرشادهم فطليهم التلبس بما تنفعهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم ، فلقد كان في الشيوخ من لا يمشي على مريده شوق رياضة إلا ويغوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لغرائه عن الجمادة وآداب النفس تسهلا للأمر على المريد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : أما إني لا أنسى ولكني أنسى لأشعر^(١) ، وفي لفظه : إنما أسهر لاسن . ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكالوإس في كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستطلق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم الحسن : كن كخ^(٢) ، لما أخذ تمره من تمر الصدقة ووضعها في فيه ؟ وما كانت فصاحتها تنصر عن أن يقول أرم هذه التمرة فإنها حرام ، ولكنه لما علم أنه لا يفهم متطقه ترك النصيحة ونزل إلى لكتته . بل الذي يعلم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالهيمة والطائر لطفنا في تلميذه . فإياك أن تنفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها منزلة أقدام العارفين فضلا عن النافلين . نسأل الله حسن التوفيق بلفظه وكرمه .

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات (الطبقة الأولى) أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا يفكك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة التوبة ، فهذا هو الاستقامة على التوبة ، وصاحبه هو السابق بالخيرات المسبديل بالسبيلات حسنات واسم هذه التوبة : التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة : النفس المطمئنة ، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : سبق المفردون المستبشرون بك ذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فورودها القيامة خفافا^(٣) ، فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم . وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات . فمن تألب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة فغتر نزاعها ولم يشغلها عن السلوك صرعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه مل بمجاهدتها وردها ، ثم تنافوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلّة باختلاف المدة واختلاف الأنواع . وكذلك يختلفون من حيث طول العمر : فمن يحتفظ يموت قريبا من توبته ينط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة . ومن مهمل طال جهاده وصبره وتماذلت استقامته وكثرت حسناته . وحال هذا أعلى وأفضل إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء : إنما يتكرر الذنوب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوة خوفا من الله تعالى ، واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فجميع الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطعم في الانكفاف ، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن

(١) حديث : أما إني لا أنسى ولكني أنسى لأشعر . ذكره مالك بلفظ بنير لسان وقال ابن عبد البر لا يوجد في الموطأ إلا مرسل لسانه له وكذا قال حجة الكناي له لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأعمال : وقد طال بمن عنه وسؤال عنه لأئمة والمطاف لم أنظر به ولا سمعت عن أحد أنه نقل به قال وإدريس بن طلبة الحديث أنه وقع له مستبدا

(٢) حديث : أنه قال الحسن : كن كخ . لما أخذ تمره من الصدقة ووضعها في فيه : أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . وتقدم في كتاب الحلال والحرام . (٣) حديث : سبق المفردون المستبشرون بذكر الله ... الحديث . أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وصحته وقد تقدم .

اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته . بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه للميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ، ويسمى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء .

(الطبقة الثانية) تألب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كباير الفواحش كلها ، إلا أنه ليس بنفسه من ذنوب تعمره لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجارى أحواله من غير أن يقدم زماعل الإقدام عليها ، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يقتصر للاحتراز من أسبابها التي ترمز عنه لها . وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس الواهة ، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال اللذيذة لا عن تصميم عزم وتحمين رأى وقصد ، وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر مجنون بطيئة الآدى فلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يظل خيره شره حتى يتقل مراحه فيرجع كفة الحسنات ، فأما أن تخلو بالسكينة كفة السيئات فذلك في غاية البعد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى (الذين يمتثلون كباير الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة) فكل اللمم يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم للمغفرة عنه . قال تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتسهم ولومهم أنفسهم عليه . وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مغتن تواب »^(١) ، وفي خبر آخر « المؤمن كالسنبلة بين أحياء ويميل أحيانا »^(٢) ، وفي الخبر « لا بد للمؤمن من ذنب يأبىه الله بغيره »^(٣) ، أى الخمين بعد الخمين . فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصيرين . وعن يؤس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذى يؤس الصحيح عن دوام الصحة بما يتأوله من الفراء كدوا لاطمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار ، وكالفقيه الذى يؤس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة . وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه . بل الفقيه في الدين هو الذى لا يؤس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختلفة قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل نبي آدم خطاء وخير الخطائين التوابين المستغفرون »^(٤) ، وقال تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة)^(٥) لما وصفهم بعدم السيئة أصلا .

(الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلب الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لجزءه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات وهو يولد لأقدرة الله تعالى على قمعها وكفها شرها ، هذا أمثنته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يقتدم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى

(١) حديث على « خياركم كل مغتن تواب » أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف (٢) حديث « المؤمن كالسنبلة بين أحياء ويميل أحياء » أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث حماد بن يسار والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مسندا وكلها ضعيفة وقالوا « بخم » بدل « بين » وفى الأمثال لرامرمرضى لاجناد جيد حديث أنس . (٣) حديث « لا بد للمؤمن من ذنب يأبىه الله بغيره » أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة (٤) حديث « كل إن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون » أخرجه الترمذى وأسنده والمالك وصححه لمسانده من حديث أنس وقال « التوابين » بدل « المستغفرون » قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخارى (٥) حديث « المؤمن واه رافع ظهير من ملأ عمره » أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقال « فسيديم » بدل « وظيفم »

في قهرها ، لكنه نسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم . فهذه النفس هي التي تسمى : النفس المسؤلة ، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وأخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عموماً بينهم ﴾ فأسره من حيث مواظبته على الطاعات وكرهاته لما تاملناه مرجو نفسى الله أن يتوب عليه ، وعاقبه بخطرته من حيث تسويفه وتأخيرها ، فربما يتخطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالساجدين ، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل ، لأنه مهما تفرغ على المتفقه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلل دل تفرغه على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضغف الرءاء في حقه ، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذاك ارتباط سماعات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية ، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تنقيح النفس ، فسكاً لا يصلح لخصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعالم إلا نفس صارت فقية بطول التنقيح فلا يصلح ملك الآخرة ونعيمها ولا اقرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية والتطهير . هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب . ولذلك قال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهما وقد غاب من دساها) فهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقداً والتوبة أسيمة كان هذا من علامات الخذلان . قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقرئ الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسقى عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها »^(١) ، فإذا الخوف من الخاتمة قبل التوبة . وكل نفس فهو راعية ماقبله إذ يمكن أن يكثر تلوث متصلاً به ، فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المخدور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر .

(الطبقة الرابعة) أن يتوب ويحرم مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الدوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهك انهماك النافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصريين ، وهذه النفس هي : النفس الأمارة بالسوء ، الفرارة من الخير ؛ ويناف على هذا سوء الخاتمة وأمره في مشيئة الله ، فإن ختم له بالسوء شق شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد فينتظره الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم المغفر بسبب غنى لا تطلع عليه ، كما لا يستل أن يدخل الإنسان خراباً ليجد كزاً فيفتق أن يجده ، وأن يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم . فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالمجد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجزة الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعلم الملائكة . ولت من اجتهد تعلم ولت من أجز استغنى ولت من صام وصلى غفر له ، فالتاس كلهم محرومون إلا العالمون والمالون كلهم محرومون إلا العالمون والمالون كلهم محرومون إلا العالمون وعياله جيها يدع أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كزاً يجده تحت الأرض فيبته الحرب يمدته ذوى البصائر من الحق والمفرورين . وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله . - فكذاك من ينتظر

(١) حديث « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة .. الحديث » متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله « سبعين سنة » ولحم من حديث أبي هريرة « إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ... الحديث » ولأحد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة » وغير مختلف فيه .

المغفرة من فضل إلى تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة بعد عند أبواب القلوب من المغمومين . والمحب من عقل هذا المغموم وتروجه حماقة في صيغة حسنة إذ يقول : إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تقصره ، ثم تراه يركب الجحار ويقسم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزانته ليست تقصر على قفرك ، وكذلك يترك التجارة ليس يضرك فأجلس في بيتك ففساد رزقك من حيث لا تحسب فيستحق قائل هذا الكلام ويستعزى به ويقول : ما هذا المحوسب ! السباه لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب ، هكذا فقره مسبب الأسباب وأجرى به سفته ولا تبدل لسنة الله ، ولا يعلم المغروران رب الآخرة ورب الدنيا واحداً سنته لا تبدل لها فيها جميعاً ، وأنه قد أخبر إذ قال ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسِي ﴾ فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا ؟ وكيف يقول ليس مقتضى الكرم القصور عن كسب المال ومقتضى القصور عن العمل للطلب والتعب والنجم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة وهذا يمنه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا ؟ ونفسه قوله تعالى ﴿ وفي السباه رزقكم وما توعدون ﴾ فتمود بالله من العمى والضلال فما هذا الانتكاس على أم الرأس والنفاس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخل تحت قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمنا فأرجعنا لنعمل صالحاً ﴾ أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فأرجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه المذاب فتمود بالله من دواعي الجهل والشك والارتباب السائق بالضرورة إلى سوء المقلب والمآب .

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب

إما عن قصد وشهوة غالبية أو عن إلام بحكم الاتفاق

أعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه ، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدار بالحسنة السيئة ليحومها فيكون بمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيها يتعلق بأسبابها .

فأما بالقلب فليكثره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والمغفو ، ويتذلل تذلل المبد الآتي ، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم ، فما للبد الآتي المذنب وجه للتكبر على سائر العباد ، وكذلك يضر قلبه الخيرات للسليين والعزم على الطاعات .

وأما باللسان فلا اعتراف بالظلم والاستغفار فيقول : رب ظلمت نفسي وعلمت سوماً فاغفر لي ذنوبي ، وكذلك يكثر من ضرب الاستغفار - كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار .

وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات . وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع ببانية أعمال كان المغفو عنه مرجواً ؛ أربعة من أعمال القلوب وهي : التوبة أو العزم على التوبة ، وحسب الإفلاخ عن الذنب وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له . وأربعة من أعمال الجوارح وهي : أن تصلي عقيب الذنب وتكثر من استغفار الله تعالى بدم سبعين مرة وتقول : سبحان الله العظيم ، وحمده ، مائة مرة ثم تصدق بصدقة ثم تصوم

يوماً ، وفى بعض الآثار : تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين ^(١) وفى بعض الأخبار : تصل أربع ركعات ^(٢) وفى الخبر : إذا عملت سيئة فأقمها حسنة تكفرها ، السر بالسر والعلاية بالعلاية ^(٣) ، ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار . وفى الخبر الصحيح : أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا اليسير فأفرض على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم : أو ماصليت معنا صلاة التوبة ؟ قال : بلى ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الحسنات يذهبن السيئات ^(٤) ، وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم : الصلوات الخمس كفارات لما يبينن إلا الكبائر ، فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويحسب في دفعها بالحسنات .

فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار ، وفى الخبر : المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالسهمزى بآيات الله ^(٥) ، وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة الدوية : استغفارتنا يحتاج إلى استغفار كثير ، فأعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار عارضة عن الحصر - ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات - حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (وما كان الله ليمذهبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فكان بعض الصحابة يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا ^(٦) فنقول : الاستغفار الذى هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون القلب فيه شركة ، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس التوبة أستغفر الله ، وكما يقول إذا سمع صفعة التار لعمد بالله منها من غير أن يتأثر بقلبه ، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له ، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم : ما أصر من استغفر ولو غاب في اليوم سبعين مرة ^(٧) ،

(١) أثر : لمن من مكفرات القلب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين « أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضى الله عنه « ما من عبد بذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصل ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » لفظ أبي داود وهو في السكينة لفساني مرهوناً وموقوفاً فلعل المصنف مير بالآثار لارادة الوقوف ذكرته احتياطاً ولا لآثار ليست من شرط كتابي (٢) حديث : التكميل صلاة أربع ركعات : أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهرى امرأة ... الحديث وفيه : فلما جلس منها يجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل المدة قام نادماً فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فلذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : صل أربع ركعات « فأنزل الله عز وجل (وأقم الصلاة طرفة الزمان) الآية ولتستأنه جيد .

(٣) حديث : إذا عملت سيئة فأقمها حسنة تكفرها السر بالسر والعلاية بالعلاية « أخرجه البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ « وما حملت من سوء فأحلت الله فيه توبة السر بالسر ... الحديث » (٤) حديث : أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا اليسير ... الحديث في نزول (إن الحسنات يذهبن السيئات) متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله « أو ماصليت معنا صلاة التوبة » ورواه مسلم من حديث أسى وفيه « حل حضرت منا الصلاة » قال : نعم ، ومن حديث أبي أمامة وفيه « ثم شهدت الصلاة بناء » قال : نعم ... الحديث (٥) حديث « المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالسهمزى » بآيات الله « أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإلفظ « كالسهمزى » بربه « وسنده ضعيف .

(٦) حديث بنى الصحابة في قوله تعالى (وما كان الله ليمذهبهم وأنت فيهم) الآية « كان لنا أمانان ذهب أحدهما » أخرجه أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورواه الترمذي من حديثه « أنزل الله على أمانين ... الحديث » وسنده وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس (٧) حديث « ما أصر من استغفر ... الحديث » تقدم في الدعوات .

وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب . والثبوت والاستغفار درجات وأوامها لا تخفى عن القادة وإن لم تنته إلى أواخرها ولذلك قال سهل : لا بد للعبد في كل حال من مولاة ، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء فإن عصي قال يارب استر علي ، فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب علي ، فإذا تاب قال يارب ازرقي العصية ، وإذا عمل قال يارب تقبل مني . وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال : أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة ، فالاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاة بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده ماواه ثم التنقل إلى الأفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المنجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السرو وهو الحق ، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله إليه فيغفره إلى العرش فيكون مقامه مقام حلة العرش . وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم : التائب حبيب الله ، فقال : إنما يكون حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى (التائبون العابدون) الآية . وقال : الحبيب هو الذي لا يدخل فيها بكرمه حبيب .

والقصود أن للتوبة مرتبتين (إحداهما) تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له (والثانية) نيل الدرجات حتى يصير حبيباً . والتكفير أيضاً درجات ، فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وببعضه تضييف له ، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنة - وإن خلا عن حل عقدة الإصرار - من أوائل الدرجات . فليس يخفى عن القادة أصلاً ، فلا ينبغي أن نظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ديب فيها أن قول الله تعالى (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره) صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كالأثر في شجرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو خلت الشجرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلاً ولكن لا يرجع الميزان بأحبال الذرات وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجع بذرات الخير إلى أن ينقل قترع كفة السيئات ، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتها وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمراة الحرقاء تسكن عن النزل تملأ بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على غيظ واحد وتقول : أي غنى يحصل بخيوط وما وقع ذلك في الثياب ؟ ولا تدري الممتوثة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً وأجسام العالم مع اتساع أقطارها اجتمعت ذرة ذرة . فإذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيق عند الله أصلاً . بل أقول : الاستغفار باللسان أيضاً حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بنية مسلم أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إن لسانى في بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبي غافل . فقال : اشكر الله إذا استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعزوه الذكر ولم يستعمل في الشر ولم يهود الفضول . وما ذكره حق فإن تعود الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي . فن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذباً ؛ سبق لسانه إلى ما تودع فقال : استغفر الله . ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحقك وما أقبح كذبك ؛ ومن تعود الاستمادة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان : تعود بالله ، وإذا تعود الفضول قال : لعنه الله ، فيعصى في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى ، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) ومعاني قوله تعالى (وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه

أجرًا عظيمًا) فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان ، حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالنية واليمن والفضول ، هذا تضعيف في الدنيا لأذى الطاعات ، وتضعيف الآخرة (أكبر لو كانوا يعلمون) فأيادك وأن تلج في الطاعات مجرد الآفات فتفتقر رغبتك عن العبادات ، فإن هذه مكيده روجها الشيطان بلمت على المذنبين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفتن لأخفايا والسرائر ، فأى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب ؟ فانقسم الخلق في هذه المكيده إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فصال صدقت ياملون ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلا . فلا جرم أعد بك مرتين وأرغم نفسك من وجهين فأخيف إلى حركة اللسان حركة القلب ، فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه . وأما الظالم المذنب : فاستشعر في نفسه خيلاء الغفلة لهذه الدقيقة ثم هجر عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تمريد اللسان بالذكر فأسف الشيطان وتدل بحيل غروره فتمت بينهما المشاركة والمواقفة كاقيل : وافق شئ طيفه وافقه فاعتقه . وأما المقتصد : فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب ، ولكن اعتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير . فكان السابق كالخائكة الذى ذمت حياته قتركها وأصبح كائيا ، والظالم المتخلف كالذى ترك الحياة أصلا وأصبح كناسا ، والمقتصد كالذى هجر عن الكتابة فقال : لأنكر مقدمة الحياة ولكن الخائكة مذموم بالإضافة إلى الكاتب بالإضافة إلى الكناس فإذا هجرت عن الكتابة فلا أثر للحياة . ولذلك قالت رابعة المدوية استغفارا يحتاج إلى استغفار كثير . فلاتطن أنها تلمح حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تلمح غفلة القلب فهو يحتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه ، فإن سكنت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج إلى استغفار من اللسان واحده فكذلك ينبغي أن نفهم ذم ما بذم وحده ما يحمده وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق : حسنات الأبرار سيئات القريبين . فإن هذه أمور ثبتت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة ، بل ينبغي أن لا تستحضر ذوات الطاعات والمعاصي . ولذلك قال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبا ثلاثا في ثلاث : رضا في طاعته فلا تحمقروا منها شيئا فقل رضا فيه ، ورضبه في معاصيه فلا تحمقروا منها شيئا فقل غضبه فيه ، وخبيا ولايته في عبادته فلا تحمقروا منهم أحدا فقله ولى الله تعالى . وزاد : وخبيا إجابته في دعائه فلا تركوا الدعاء فرجا كانت الإجابة فيه .

الركن الرابع

في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الثامن قسبان : شاب لاصبوه له نساء على الخير واجتناب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعجب ربك من شاب ليست له صبوة ^(١) ، وهذا عزيز نادر . والقسم الثانى : هو الذى لا يتخلو عن مقارفة الذنوب ، ثم هم ينقسمون إلى مصريين وإلى تائبين ، وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على البناء ، إذ لا معنى للدواء إلا منافضة أسباب البناء فكل داء حصل من سبب فدواءه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله . ولا يبطل الشيء إلا بضده . ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع

(١) حديث : تعجب ربك من الشاب ليست له صبوة . أخرجه أحمد والطبراني من حديث عتبة بن عامر وفي ابن أبي عمير . (٧ - جلاء علوم الدين - ٤)

الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى (وأولئك هم الغافلون لاجرم أهم في الآخرة هم الخاسرون) فلا دواء إذن للتوبة إلا المعجون يمين من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، وكما يجمع السكجيين بين حلاوة السكر ومحوضة الحل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقعق الأسباب للمهيجة للصغراء فهكذا ينبغي أن نفهم علاج القلب بما به من مرض الإصرار . فإن لهذا الدواء أصلاً : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانهما .

فإن قلت : أنفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص ؟ فاعلم أن العلوم يحملتها أدوية لأمراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه ، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذا دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

(الأول) أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على مارتبه مسبباً للأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك . وهذا وزانه ما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أن السعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة والشقاوة سبباً هو المعصية وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع ، وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاماً من جملة الإيمان .

(الثاني) أنه لا بد أن يعتمد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب ، فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الإيمان . وزانه ما نحن فيه : العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا غلط .

(الثالث) أنه لا بد أن يرضى إلى الطبيب فيما يحدّره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى ينجب عليه الخوف في ترك الاحتياط فتكون شدة الخوف باعثاً له على الاحتياط . وزانه من الدين : الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتتة على التفرغ والتقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج

(الرابع) أن يرضى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتياط عنه ليعرفه أولاً تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه ، فليس على كل مريض الاحتياط عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص . وزانه من الدين : أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة ؟ وإنما حاجته في الحال مرحة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بأفاتها وقدر ضررها ، ثم العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها .

فهذه علوم يقتضيهها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم وروثة الأنبياء ، فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم ، وإن كان لا يدري أن ما ارتكبه ذنب قبل العالم أن يمهّده ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم بأنظم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم وعين ما يضرهم عما يفهمهم وما يقيمهم عما يسعدهم ، ولا ينبغي أن يصير إلى أن يسئل عنه ، بل ينبغي أن يتصلى لدعوة الناس إلى نفسه فإِنَّهم وروثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدعونهم على أبواب دورهم في الاستدعاء ويطلبون واحداً واحداً فيرشونهم ، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم ، كما أن الذي ظهر على وجهه برص

ولا مرآة معه لا يعرف برصه مالم يعرفه غيره ، وهنا فرض عين على العلماء كافة . وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل علة قضيا متدينا يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان . والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بدواة العالم يسلم إلى السلطان ليكلف شره كما يسلم الطبيب المريض الذى لا يمتحنى أو الذى غلب عليه الجنون إلى القيم ليقبده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس .

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل ؛ إحداها : أن المريض به لا يدري أنه مريض . والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن فإن عاقبته موت مشاهد تفر الطباع منه ، وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم فقلت التفرقة عن الذنوب وإن عليها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكلم على فضل الله في مرض القلب ويجهتد في علاج مرض البدن من غير اتكال .

والثالثة : وهو الباء المعنالى ؛ فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأصهار مرضا شديدا عجروا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم ، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يريد من مرضا ، لأن الباء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الباء على الأطباء فلم يقدرُوا على تحذير الخلق منه استكفا من أن يقال لهم : فإياكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ فهذا السبب عم على الخلق الباء وعظم الربا وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء ، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحو لم ينشوا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا ؛ وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يجمعهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألد في الأسماع وأخف على الطباع ، فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جرأة على المعاصى ومزيد ثقة بفضل الله :

ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائبا أهلك بالهواء حيث يضعه في غير موضعه . فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادى الملة . أما الذى غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكافة وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكافة ؛ فتكسر سورة إسراره في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال . وكذلك المعسر على الذنوب المشتهى التوبة المتعنت عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التى سبقت ؛ يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيرتب . فأما معالجة المخروور المسترسل في المعاصى بذكر أسباب الرجاء فيضاهى معالجة المخروور بالسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء . فإذا نزل فساد الأطباء هى المعضلة الربا التى لا تقبل الدواء أصلا .

فإن قلت : فأذكر الطريق الذى يبنى أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق ؟ فأعلم أن ذلك بطول ولا يمكن استقصاؤه . نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحل الناس على ترك الذنوب وهى أربعة أنواع .

(الأول) أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للذنوب والمعاصى ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار

مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم « مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ! ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ! فيقول الآخر : يا ليتهم إذ علموا لماذا خلقوا علموا بما علموا ^(١) » وفي بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ! ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا عما علموا » وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب البين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف : مامن عبد يمضي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا ؛ فيقول الله تعالى للأرض والسماء كما عن عبدي وأمهله فإنكما لم تخلقا ولو خلقتاه لرحمتاه ولعله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِسُوءِ الْمُسْلِمِينَ لَخَبِيرٌ ﴾ والارض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴿ وفي حديث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه « الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطع على القلوب بما فيها ^(٢) » وفي حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا اقتبضت أصبح حتى تقبض الأصابع كلها فيسقط على القلب فذلك هو الطبع ^(٣) » وقال الحسن : إن بين العبد وبين الله حدا من المصاعى معلوما إذا بلغته العبد طبع الله على قلبه فلم يرفقه بعدها خير .

والأخبار والآثار في ذم المصاعى ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الراعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ما خلف دينارا ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه ^(٤) .

(النوع الثاني) حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر التفع في قلوب الخلق ، مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعما عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه ، ونودي من فوق العرش : ابعثا من جوارى فإنه لا يجاورني من عصاني . قال : فالتفت آدم إلى حذوله بما كيا وقال : هذا أول شوم المعصية أخرجتنا من جوار الحبيب . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوما ، وقيل : لأن المرأة سألته أن يحكم لابنها فقال نعم ولم يفعل ، وقيل : بل أحب بقلبه أن

(١) حديث « مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ... الحديث » غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف « أن الله ملكا يتأذى في كل ليلة أبناء الأروبيين نزع قد دنا حساده ... الحديث » وفيه « ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذكروا ... الحديث » .

(٢) حديث عمر « الطابع معلق بقائمة من فوق العرش فإذا انتهكت الحرمات ... الحديث » أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر (٣) حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة » قلت هكذا قال المصنف توفي حديث مجاهد ، وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمجنون وقد روي في شعب الإمام البيهقي من قول حذيفة (٤) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم ما خلف دينارا ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة أخرجه البخاري من حديث عمرو بن الحارث قال : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه موه دينارا ولا درهما ولا عبدوا لأمه . ولم يزل من حديث عائشة ماترك دينارا ولا درهما ولا لامة ولا بيرا . وفي حديث أبي هريرة : إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم .. الحديث . وقد تقدم في العلم .

يكون الحكم لانيها على خصمه لمكانها منه فسلب ملكه أربعين يوما فهرب تاتها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطعموني فأني سليمان بن داود شج وطرد وضرب . وحكى أنه استعلم من بيت لامرأة فطردته وبصفت في وجهه . وفي رواية : أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبت على رأسه إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد اقتضائها لأربعين - أيام العقوبة - قال : لجأت الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال : لا ألوكم فيها فلتن من قبل ولا أحكم في عذركم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروى في الإسرائيليات : أن رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها ، فجاءها واستمع . قال : فنبأ الله بركة نفوا فسكان نيبا في بني إسرائيل . وفي قصص موسى عليه السلام أنه قال فحضرت عليه السلام : بم أملكك الله على علم الذنب؟ قال : بشرى للمعاصي لأجل الله تعالى . وروى أن الرجح كانت تسير بسليمان عليه السلام فخطر إلى قيصة نظرة وكان جديدا فكانه أجبه ! قال : فوصفته الرجح ، فقال لم فعلت هذا ولم أترك ؟ قالت : إنما نطعمك إذا أظمت الله . وروى أن الله تعالى أرحس إلى يعقوب عليه السلام : أئدرى لم فزقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا ، قال : لقولك لإخوته (أحاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون) لم خفت عليه الذئب ولم ترجى ، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال : لا ، قال : لأنك رجوتني وقلت (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) وبما قلت (أذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك (أذكرني عند ربك) قال الله تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) .

وأما هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الاسرار ، بل الفرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار ؟ نعم كانت سعادتهما في أن عرجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشقياء يهلون ليزدادوا إنما ولان عذاب الآخرة أشد وأكبر . فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصريين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة .

(النوع الثالث) أن يقر عند عدم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنائياته ، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله ، فيلغى أن يخوف به فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر ، كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستول عليه أعداؤه ، قال صلى الله عليه وسلم : إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه ^(١) ، وقال ابن مسعود : إني لأحسب أن العبد يلقى العلم بالذنوب يصيبه ؛ وهو معنى قوله عليه السلام « من قارف ذنبا فارق عقل لا يعود إليه أبدا » ^(٢) ، وقال بعض السلف : ليست الجنة سوادا في الوجه ونقصا في المال إنما الجنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقدت في مثله أو شر منه ، وهو كما قال لأن الجنة هي البطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للتغير ويسر له الشر فقد أبعد ، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان ، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة

(١) حديث « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه » أخرجه ابن ماجه والماكم وصححه إسناده والفظه إلا أنه قال « الرجل » بدل « العبد » من حديث ترمذي (٢) حديث « من قارف ذنبا فارق عقل لا يعود إليه أبدا » تقدم .

العلماء المتكرين للذنوب ومن جملة الصالحين بل يعتقد الله تعالى ليعقبة الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان يعيش في الوحل جامعا مياه عذرا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط ، فقام وهو يعيش في وسط الوحل ويصيح ويقول : هذا مثل العبد لا يزال يتوق الذنوب ويحاربها حتى يقع في ذنب وذنوب فنعدها بخوض في الذنوب خوفا . وهو إشارة إلى أن الذنب تجعل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ، ولذلك قال الفضيل : ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك وذنوبك ذلك . وقال بعضهم : إلى لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه فوقف أنظر إليه فزب ابن الجلاء الدمعني فأخذ يدي فاستحييت منه فقلت : يا أبا عبد الله سبحانه الله تعجب من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت النار ! فتمز يدي وقال : لتعذب عقوبتها بعد حين ، قال : فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان النوارى : الاحتلام عقوبة . وقال : لا يفوت أحدا صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفي الخبر : ما أنكرتم من زمانكم فيها غيرتم من أعمالكم ^(١) ، وفي الخبر : يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا أتر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي ^(٢) . . وحكى عن أبي عمرو بن علوان - في قصة يطول ذكرها - قال فيها : كنت قائما ذات يوم أصلي فطأرت قلبي هوى طاولته ففكرت حتى تولد منه شهوة الرجال ، فوقعت إلى الأرض واسود جسد كل فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام ، وكنت أطالع غسله في الحمام بالصابون فلا يرد إلا سودا حتى انكسفت بعد ثلاث ، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إلى فأخضني من الرقة ، فلما أتيته قال لي : أما استحييت من الله تعالى كنت قائما بين يديه فصاروت نفسك بشهوة حتى استولت عليك بركة وأخرجتلك من بين يدي الله تعالى فلولا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك لقيت الله بذلك اللون ، قال فمسيحت كيف علم بذلك وهو يبتدأ وأنا بالرقعة ؟ .

واعلم أنه لا يذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه فإن كان سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر ، وإن كان شقيا أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار . والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من النقر والمرص وغيره . بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما يبعده صفته ، فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويعرم جميل الرزق حتى يقضاض شقاؤه ، وإن أصابه نعمة كانت استدراجا له ويعرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفراته . وأما المطيع لمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفى لشكرها وكل بلية كفارة للذنوب وزيادة في درجاته .

(التوبة الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آساد الذنوب كالخمر والزنا والسرقه والقتل والنيسه والكبر والحسد ، وكل ذلك بما لا يمكن حصره ، وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه ، بل ينبغي أن يكون العالم بالطبيب الخادق فيستبدل أولا بالنجس والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويفتش بعلاجها ، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتمز لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد أوصني يا رسول الله ولا تكتر على قال : لا تنضب ^(٣) . وقال له آخر أوصني يا رسول الله فسال

(١) حديث : ما أنكرتم من زمانكم فيها غيرتم من أعمالكم ، أخرجه البيهقي في الزهد من حديث أبي العبداء وقال ضرب تفرد به هكذا القليل وهو عبد الله بن ماني . قلت : هو منهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث واصل .

(٢) حديث : يقول الله تعالى أدنى ما أصنع بالعبد إذا أتر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي ، غريب لم أجده .

(٣) حديث : قال رجل أوصني ولا تكتر على قاله : لا تنضب ، فنهض .

عليك السلام ، عليك بالأسى بما في أيدي الناس فإن ذلك هو النقي ، وإياك والطمع فإنه الفقر المحاضر ، وصل صلاة مودع ، وإياك وما يستدبر منه ^(١) ، وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصني ، فقال : أوصيك أن تكون ملكا في الدنيا والآخرة قال : وكيف لي بذلك ؟ قال : ألزم الزهد في الدنيا . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول غنايل الغضب فيها عنه ، وفي السائل الآخر غنايل الطمع في الناس وطول الأمل . وتجيل محمد بن واسع في السائل غنايل الحرص على الدنيا . وقال رجل لمعاذ : أوصني ، فقال : كن رجيا أكن لك بالجنة زعيا . فكأنه تفرس فيه آثار الفطاطة والفظلة . وقال رجل لإبراهيم بن أدهم ، أوصني فقال : إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي الناس وما أرام بالناس بل غسوا في ماء اليأس . فكأنه تفرس فيه آفة الخاطلة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والسكلام على قدر حال السائل أول من أن يكون بحسب حال القائل . وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها : أن اكتبي لي كتابا توصيني فيه ولا تكثرني ، فكتبت إليه : من طائفة إلى صديقة سلام عليك ما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من اتقى رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن اتقى سخط الله برضا الناس وكفه الله إلى الناس ^(٢) ، والسلام عليك . فانظر إلى فضها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاية بصدها ؟ وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى . أما بعد ، فائق الله فإنه إذا اتقيت الله كفاهك الناس وإذا اتقيت الناس لم يغفروا عنك من الله شيئا والسلام .

فإذن على كل ناصح أن تكون غايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللاحقة ليكون اشتغاله بهم فأن فأن حكاية جميع مواضع الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال برعظه بها هو مستغن عن التوغل فيه تفصيل زمان .

فإن قلت : فإن كان الواضع يتسكلم في جميع أو سأل من لا يدري باطن حاله أن يظه فكيف يفعل ؟ فأعلم أن طريقه في ذلك أن يظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإلا على الأكثر ، فإن علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل .

ومثاله ما روى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري : أوصني ، قال : عليك بقوى الله عز وجل فإنه رأس كل خير وعليك بالجهد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء ، وعليك بالصمت إلا من خير فإنه ذلك تغلب الشيطان وقال رجل للحسن : أوصني ، فقال : أعز أمر الله يترك الله . وقال لقمان لابنه : يا بني زاحم العلماء بركيبتك ولا تجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضولك كسبك لاخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا ، وصم صوما يكسر شررتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفيه ولا تغالط ذا الوجهن . وقال أيضا لابنه : يا بني لا تضل من غير عجب ولا تمش في غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تنصع مالك وتصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت ، يا بني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسم ومن يقل الخير يفتن ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم . وقال رجل لأبي حازم : أوصني ، فقال : كل ما لم يجرمك الموت عليه فرائيته غنيمة

(١) حديث قال له أكثر : أوصني قال « عليك بالأسى ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وفتح هدم .
(٢) حديث عائشة « من اتقى رضا الله بسخط الله وكفه الله إلى الناس ... الحديث » أخرجه الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسم .

قَالَه وكل ماله جارك الموت عليه فرأيت مصيبة فاجتنبه . وقال موسى للخضر عليهما السلام : أوصني ، فقال : كن بساماً ولا تكن غصناً ولا تكن نفاعاً ولا تكن ضراراً وانزع عن العجاجة ولا تنس في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تمير الخطابين بضطاييم وإليك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام : أوصني ، فقال : اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك . وقال رجل لحامد الغافق : أوصني فقال : اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدله الآفات ، قال . وما غلاف الدين ؟ قال . ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أما بعد ، تخف بما خوفك الله واحذر بما حذرك الله وخذ بما في يديك لما بين يديك ، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأل أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ؛ فإن الهول الأعظم والأمر المفظمت أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسرو من لظف في العواقب نجحاً ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غم ومن خاف أمن ومن آمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ، فإذا زلت طارج وإذا ندمت فأفزع وإذا جهلت فأسأل وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ولها مجمع من لا علة له وبها ينتر من لا علم عنده فكُن فيها يا أمير المؤمنين كالمدأوى جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عقابه الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدى بن أوطاة . أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أوليائه فغنمهم وأما أعداؤه فغرتهم . وكتب أيضاً إلى بعض عماله . أما بعد ؛ فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لاتأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زاعماً عنهم باقياً عليك ، واعلم أن الله عز وجل آخذ للظالمين من الظالمين والسلام .

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقته . فهذه المواظم مثل الأغنية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الرعايا النحس باب الاتعاط وغلبت للمعاصي واستمرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزغرفون أحماءاً وينشدون أبياتاً ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة عليهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارم ولم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب ، بل القائل متصاف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف .

فلذا كان طلب الطيب أول علاج المرضى ، وطلب الدواء أول علاج المعاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . (الأصل الثاني) الصبر : ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يتناول ذلك ؛ إما لنفسته عن مضرت ، وإما لشدة غلبة شهوته ؛ فله سبيلان فإذكرناه هو علاج النفقة . فبيد علاج الشهوة - وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس - وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لما كره مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم ينيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه ، فلا بد على كل حال من برارة الصبر فكذلك يبالغ الشهوة في المعاصي ، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى المخالقات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة للشهوة . ومهيج الشهوة من خارج . هو

فهو يذنب وينتظر العفو عنها ابتكالا على فضل الله تعالى . فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان .

نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكاً في صدق الرسل وهذا هو الكفر ، كالذي يحذر الطبيب عن تناول ما يضره المرض فإن كان المحذر عن لا يمتنع فيه أنه عالم بالعبث فيكذبه أو يشك فيه فلا يزال به فهذا هو الكفر .

فإن قلت لما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر ، وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب ، أن كل ما هو آت آت وأن غذا الناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شرك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب ، والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً . ويذكر نفسه أنه أبداً في ذنياه يتعب في الحال خوفاً من الاستقبال ، إذ يركب البحار ويقامى الأسفار لأجل الريح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في غائي الحال . بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره وهسوقه إلى الموت وكان الماء البارد أحد الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت أله لحظة إذا لم يخف ما بعده ، ومفارقة الدنيا لا بد منها ، فكيف نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلاً وأبداً ؟ فلينظر كيف يسادر إلى ترك ملاذه بقول ذي لم تهم معجزة على طبعه فيقول : كيف يليق بقولي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبعه ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا ؟ وهذا التفكير يعميه يماجل اللذة الغالبة عليه ويكف نفسه تركها ويقول : إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد ؟ وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار ؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنقصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعم الآخرة ؟ وأما تسويف التوبة فيعالبه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، لأن المستوف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو اليقضاء فلمه لا يبق . وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم ، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تغارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتقاد ؟ فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالمادة كالتى لم يؤكد بها . ومن هذا هلك المسوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتأملين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق . وما مثال المسوف إلا مثاله من احتياج إلى قلع شجرة فربما قوة لا تنقل إلا بمشقة شديدة فقال أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فلا حماة في الدنيا أعظم من حماقة إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخط ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف .

وأما المعنى الرابع : وهو انتظار عفو الله تعالى ، فعلاجه مسبق وهو كمن يفتق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كثر في أرض خربة ، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان ، وهو مثل من يتوقع التوب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في محن داره ، وقدر على دفنوا أخفاها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار فإن الموت يمكن والغفلة ممكنة وقد حكى في الأسمار أن مثل ذلك وقع فأننا أنتظر من فضل الله مثله . فنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل ، إذ قد لا يمكن ولا يصحكون .

وأما الخامس وهو شك فهذا كفر ، وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول . ولكن يمكن أن يبالغ بيلم قريب يليق بحجة عقله ، فيقال له : ما قاله الأنبياء المؤمنين بالمعجزات هل صدقه يمكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة شخص واحد في مكانين في حالة واحدة ؟ فإن قال : أعلم استحاله كذلك فهو أخرق معتره وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء . وإن قال : أنا شك فيه ، فيقال : لو أخبرك شخص واحد بجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألد الأطمعة ؟ فيقول : أتركه لا محالة لأنني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب ، وإن صدق فتفوتني الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكام بل جميع أصناف العقلاء . - ولست أثنى بهم جهال العوام بل ذوى الآليات - عن صدق رجل واحد بجهول لعل له غرضا فيما يقول ؟ فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وألقت ثوبا وغشا وإن اختلفوا في كفيته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقئ أبد الآباد ، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الغانية المكذرة . فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد ، بل لو قدرنا الدنيا عمولة بالنرة وقدرنا طائرا يلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت النرة ولم ينقض أبد الآباد شيئا ، فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ؟ ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التوشخي للمزني :

قال للنجم والطبيب كلامهما لا تبحث الأموات قلت إليك

إن صح قولكما فلسنت بخاسر أو صح قول فالحسار عليكما

لذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكاً : إن صح ما قلت فقد تخلفتما جميعاً وإلا فقد تخلفتما وعلكتما أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال .

فإن قلت : هذه الأمور جليلة ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستغفلت ؟ وما علاج القلوب لردّها إلى الفكر لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله ؟ فأعلم أن المانع من الفكر أمران (أحدهما) أن الفكر التافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأموالها وشهواتها وحسرات الناس في الحرامان عن التعميم ، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة . (والثاني) أن الفكر شغل في الحال مانع من لتأذ الدنيا وقضاء الشهوات ، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقت فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته ، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك .

أما علاج هذين المانعين : فهو أن يقول لقلبي ما أشد غياؤك في الإحراز من الفكر في الموت وما بعده تألما بذكره مع استحراق ألم مواقته ، فكيف تصبى على مفاسده إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به ؟ وأما الثاني وهو كون الفكر مغفوتا لذات الدنيا ، فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها ، ولذات الدنيا سرية المور وهي مشوبة بالمكدرات فغا فيها لذة صافية عن كدر . وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمنجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته

وطول الأثر به ؟ ولو لم يكن للطبع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأثر بمنجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا ، فكيف بما ينضاف إليه من نعم الآخرة ؟ نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مدبرة وقد صار الخير ديننا كما كان الشر ديننا ، فالتفكير قابلية - ما عودتها تتعود - والخير عادة والشكر لاجبة .

فإن هذه الأفكار هي المهيبة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ، ومهيج هذه الأفكار وعظ الرعاظ وتنبهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر ، فيصير التفكير موافقا للطبع فيميل القلب إليه . وبعبارة السبب الذي أوقع للموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق ، إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة . وقد روي في حديث طويل : أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني ؟ فقال على رضي الله عنه : بني على أربع دعام : على الجفاء والمسي والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ، ومن عسى نسي الذكر ، ومن غفل حاد عن الرشد ، ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والتدامة وبدا له من الله ما لم يكن يحسب . فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكير وهذا القدر في التوبة كاف . وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحد والثبات ، المنفرد برده الكبرياء ، المتوحد بصفات المجد والملاء ، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعاء ، والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الانتفاء صلاة محروسة بالهدوم عن الفناء : ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانتفاء .
أما بعد : فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر ^(١) كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار . وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبورا وشكورا ، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكل شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان ، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان؟ والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تعاقد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان ، فما أخرج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان . ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لا يربط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . (الشطر الأول) في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبيان حده وحقيقته ، وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف

كتاب الصبر والشكر

(١) حديث « الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الله دوس من رواية يزيد الرضائي عن أبي يزيد ضيف .

أساميه باختلاف متعلقاته ، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف ، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر ، وبيان إدواء الصبر وما يستعان به عليه . فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصد إن شاء الله تعالى .

بيان فضيلة الصبر

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) وقال تعالى (وتمت كلمة ربك الحسنى على نبي (إسرائيل بما صبروا) وقال تعالى (ولنجزي الذين صبروا أجراهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى (أولئك يؤتون أجراهم مرتين بما صبروا) وقال تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فما من قربة إلا وأجرها يتقدير وحساب إلا الصبر ، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى (الصوم لي وأنا أجزى به ، فأضاهى إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعده الصابرين بأنه معهم فقال تعالى (واصبروا إن الله مع الصابرين) وعلق الثمرة على الصبر فقال تعالى (على إن تصبروا وتتقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فاهدى والرحمة والصلوات بمجموعة الصابرين . واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان »^(١) ، على ما سأتى وجه كونه نصفا وقال صلى الله عليه وسلم « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما قاله من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أتت عليه أحب إلى من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكن أخاف أن تقص عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكامل ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ﴿ معاذكم فقد وعدنا الله بآق ولنجزين الذين صبروا أجرم ﴾^(٢) الآية ودوى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال « الصبر والسجدة »^(٣) ، وقال أيضاً « الصبر كاذ من كوز الجنة »^(٤) ، وسئل مرة « ما الإيمان ؟ فقال « الصبر »^(٥) » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة »^(٦) معناه معظم الحج عرفة وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس »^(٧) وقيل : أوحى الله تعالى لى داود عليه السلام : تخلق بأخلاق وأن من أخلاق أنى أنا الصبور وفى حديث عطاء عن ابن عباس : لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال « مؤمنون أتم ، فسكتوا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله قال « وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نشكر على الرعاء ونصبر على البلاء ورضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « الصبر نصف الإيمان » أخرجه أبو لمي والمطيب من حديث ابن مسعود وقدم في الصوم
(٢) حديث « من أفل ما أولئك الذين وعزته الصبر ... الحديث » جلوه بفتح الميم مختصراً ولم أجد هكذا جلوه
(٣) حديث جابر : مثل عن الإيمان فقال « الصبر والسباحة » أخرجه الطبراني في معجم الأئمة وابن جابر في المسئلة وفيه
يوسف بن محمد بن المنكسر شفيق ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن يزيد بن عمار عن أبيه عن جده
(٤) حديث « الصبر كرم من كنوز الجنة » غريب لم أجده . (هـ) حديث : مثل مرة عن الإيمان فقال « الصبر »
أخرجه أبو منصور الأديبي في مستند القدروس من رواية يزيد بن الرافعي عن أبي أسير عن حماد بن عمار عن الحسن بن الحسن بن أحمد
ويزيد بن شفيق (٦) حديث « الحج مرة » تقدم في الحج .
(٧) حديث « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » لأصل له مرغوطاً وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا
رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس .

« مؤمنون ورب الكعبة »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « في الصبر على ما تكره خير كثير »^(٢) ، وقال المسيح عليه السلام : إنكم لاتدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين »^(٣) ، والأخبار في هذا لا تحصى .

وأما الآلات . فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أنى موسى الأشعري عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر . الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى . واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه . بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهد والعدل . وقال أيضا . الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له . وكان عمر رضى الله عنه يقول . نعم البدلان ونعمت العلاءة الصابرين ؛ يعنى بالبدلين الضلالة والرحمة ، وبالعلاءة الهدى . وبالعلاءة ما يحمل فوق البدلين على البعير وأشابهه إلى قوله تعالى (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية (إنا وجدناه صابرا نعم البعد إنه أواب) بكى وقال . وأعجابه أعطى وائى أنى هو المعطى للصبر وهو المثنى . وقال أبو الدرداء . ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . هذا بيان فضيلة الصبر من حيث الثقل ، وأما من حيث النظر بين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه ، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين ، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور . معارف وأحوال وأعمال . فالمعارف هى الأصول وهى ثورث الأحوال والأحوال ثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار . وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى . واسم الإيمان نارة يتخص بالمعارف ونارة يطلق على الكل - كما ذكرناه فى اختلاف اسم الإيمان والإسلام فى كتاب قواعد العقائد - وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبمالة قائمة . فالصبر على التحيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم . فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك فى البهائم والملائكة . أما فى البهائم فلفقصانها . وأما فى الملائكة فليكلها .

وبيناه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باع لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة عليهم السلام فيقيمون جزوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صادرة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف . وأما الإنسان فإنه خلق فى ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الفناء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح ، على الترتيب ، وليس له قوة الصبر ألبتة ؛ إذ الصبر عبارة عن

(١) حديث مطاه من ابن عباس : دخل على الأنصار فقال « أمؤمنون أم ؟ » فكتروا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله . الحديث « أخرجه الطبراني فى الأوسط من رواية يوسف بن ميون وهو منكر الحديث عن مطاه .

(٢) حديث « فى الصبر على ما تكره خير كثير » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٣) حديث « لو كان الصبر رجلا - لكان كريما » أخرجه الطبراني من حديث عائشة وفيه مسيح بن دينار ضلع الغيل

ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما ، وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم ؛ ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين ؛ أحدهما يهديه ، والآخر يقربه ، فتتميز مجموعة الملكين عن البهائم . واختص بصفتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف . فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط ، فذلك لا تطلب إلا اللذيق . وأما الدواب التي تقع مع كونه مضرا في الحال فلا تطلب ولا تعرفه ، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغيبات مكروهة في الباقية ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر ، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا القدرة له على دفعه ؟ فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بمجنود لم تروها ، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة ، فتارة يضاف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد ، كما أن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر .

فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها : باعثا دينيا ، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها : باعث الهوى . وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما بهمال ومعرفة هذا القتال قلب العبد . ومدد باعث الدين من اللاتسكة الناصرين لحرب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة . فلما ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأفواج الشياطين .

فلما ترك الأفعال المشتبهة عمل يشهه حال يسمى : الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بمداورة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة . فلذا قوى يقينه . أعنى المعرفة التي تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى . قوى ثبات باعث الدين ، وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تنقاضه الشهوة ، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة . وقوة المعرفة والإيمان تقبض مغبة الشهوات وسوء عاقبتها . وهذا الملكان هما المستكفلان بهذين الجندين فإذا الله تعالى وتسخيرهما وإحماهما من الكرام الكائنين وهما الملكان المولكان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرف أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوى لم يخف عليك أن جانب الإيمان هو أشرف الجانبين من جنهتي الدست ، الذي ينبغي أن يكون مسلما له . فهو إذن صاحب الجبين والآخر صاحب الشمال .

وللعبد طوران في النفقة والتفكر وفي الاسترسال والمجاهدة . فهو بالنفقة معرض عن صاحب الجبين ومسمى إليه فيكتب أعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة . وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسمى إليه فيثبت عليه سيئة ، وبالمجاهدة مستند من جنوده فيثبت له به حسنة . وإنما ثبتت هذه الحسنتات والسيئات بإبائهما فذلك سببا كراما كائنين .

أما الكرام فلا تتفزع العبد بكرمهما ولأن الملائكة كلهم كرام بررة ، وأما السكاكين فلا يلبثهما الحسنات والسيئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم ، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحافتهما وجملة ما تلقى بهما من جملة عالم النيب والملكوت لامن عالم الشهادة ، وكل شيء من عالم الملكوت لا يدركه الأبصار في هذا العالم ، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين : مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى ، وأخى بالقيامة الصغرى حالة الموت ، إذ قال صلى الله عليه وسلم : « من مات فقد قامت قيامته »^(١) ، وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندما يقال (ولقد جثمتونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) وفيها يقال (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أما في القيامة الكبرى الجامعة لسكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملا من الخلق ، وفيها يساق المتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا .

والهول الأول هو هول القيامة الصغرى . وجميع أهوال القيامة الكبرى تظهر في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فإن أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا زلزلت بلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها ، بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره ، لخصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى غرق من التراب ، وحظك الخاص من التراب بذلك فقط ، فأما بدن غيرك فليس بحظك . والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تتألف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه ، وإلا فالهول أبدا متزلزل وأنت لا تتعشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك ، لحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهي أرضك وترباك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمك وبصرك وسائر خواصك نجوم سماك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وممكننا إلى جميع أجزائك ، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حلت الأرض والجبال فكدك واحدة ، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا ، فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا ، فإذا بطل سمك وبصرك وسائر حواسك فقد اندكردت النجوم انكدارا ، فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا ، فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجر البحر تفجيرا ، فإذا انتفت إحدى سافيك بالأخرى وهما مطيتك فقد عطلت المشار تخطيطا ، فإذا فارتق الروح الجسد فقد حلت الأرض فلتت حتى ألقت مافيهما وتخلت ، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك . فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتشرت حواسك التي بها تمتنع بالنظر إلى الكواكب ، والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس والنجلاء لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة ، وهو حصته منها فلا نجلاء بعد ذلك حصه غيره ، ومن انشق رأسه فقد انشقت سماءه إذ السماء عبارة عما على جهة الرأس فمن لأرأس له لسماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ؟ فهذه هي القيامة الصغرى . والحول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الحصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال .

(١) حديث « من مات فقد قامت قيامته » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أبي إسحق شيبان .

واعلم أن هذه الصغرى وإن عولنا في وصفها فإننا لم نذكر عثير أوصافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى ؛ فإن للإنسان ولادتين (إحداهما) الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام فهو في الرحم في قرار ممكن إلى قدر معلوم ، وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار ونقطة وعقطة ومعقطة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم . فنسبة عوم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ، ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم . ففس الآخرة بالأول فسا خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة . وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين . وإليه الإشارة بقوله تعالى (وننشئكم فيها لآلئدولن) فالملق بالقيامتين مؤمن بعلام النبى والشهادة وموقن بالملك والملكوت . واللق بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالدين المروء إلى أحد المألين وذلك هو الجهل والفضلال والافتقار بالأعر النجاه .

فما أعظم غفلتك يا مسكين - وكلنا ذلك المسكين - وبين يديك هذه الأحوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والفضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ؟ أو ما سمعت قول سيد الأنبياء ؑ كنى بالموت واعظا ^(١) ، أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صل الله عليه وسلم ؑ اللهم مؤن على محمد سكرات الموت ^(٢) ، أو ما تسحى من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ؟ فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولاً منه فلا يمتثلون فيأحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ، أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون ؟ (أو لم يروا كم أهلكنا قبلم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون) أم يحسبون أن الموتى سافروا من عديم فهم معدومون كلا (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) ولكن (ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) وذلك لأننا (جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) .

ولنرجع إلى الغرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة . فنقول : ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى ، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام السكاكين ولا يكتبان شيئا عن الصبيان والجانحين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنه في الإقبال على الاستفادة منها والسعي في الإعراض عنها ، وما للصبيان والجانحين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض ، وما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض . ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتعمو على التدرج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا ، فذلك يضرب على ترك الصلوات ناجرا ولا يناف على تركها في الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة ، بل على القيم البدل والولى البر الشفيق

(١) حديث ؑ كنى بالموت واعظا ؑ أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائفة وفيه الزيد بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عتبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد . (٢) حديث ؑ اللهم مؤن على محمد سكرات الموت ؑ أخرجه الترمذى واه غريب والنسائى في اليوم واليلة وابن ماجه من حديث عائفة بلفظ ؑ اللهم أعنى على سكرات الموت ؑ .

- إن كان من الأبرار وكان على سمع الكرام الكاثنين البررة الأخيار - أن يكتب على الصبي سيئته وحسنه على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالترفيف ثم يعذبه عليه بالضرب . فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي . فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع الثيبين والقرنين والصديقين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة ^(١) ، وأشار إلى أسبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم .

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلافه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليها جميعا ، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ، ولاشتال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا . واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ريع العبادات . ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين .

أحدهما : أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا . فيكون الإيمان . ركنان : (أحدهما) اليقين (والآخر) الصبر . والمراد باليقين . للمعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين . والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باحث الدين في قهر باحث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار . ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ... الحديث ، إلى آخره

الاعتبار الثاني : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيها ، وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر . فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه : الإيمان نصفان ، نصف صبر ونصف شكر . وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين ، باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ؛ فالشهوة لطلب اللذيق والغضب الهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب : قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار : الصوم نصف الصبر . لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا ، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان . فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بمجود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان : والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عناه الصبر

أعلم أن الصبر ضربان : أحدهما : ضرب بدني ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها . وهو إما بالفعل : كما طامى

(١) حديث : أنا وكافل اليتيم كهاتين ، أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد وقدم .

الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها . وإما بالاختيال : كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات المائلة . وذلك قد يكون محمداً إذا وافق الشرع .

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر : وهو الصبر النفس عن مشتريات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمي عفة ، وإن كان على احتيال مكروه اختلفت أساميها عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر . فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجرع والمهلح وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الحدود وشق الجيوب وغيرها . وإن كان في احتيال الغنى سمي ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر . وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن . وإن كان في كظم النيف والقمص سمي حلسا ويضاده التلذذ . وإن كان في تأنيب من نواب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان في إخفاء كلام مسمى كتمان السر ومسمى صاحبه كتما . وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا ويضاده الحرص . وإن كان صبرا على قدر يسير من الحطوط سمي قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر . ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال : هو الصبر ، لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قاله الحج عرفة ^(١) ، وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك ومسمى الكل صبرا فقال تعالى (والصابرين في البأس) أي المصيبة (والعراء) أي الفقر (وحين البأس) أي المحاربة (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) فإذا هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ، ومن يأخذ للمعانى من الأساس يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأساس مختلفة ، والتي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلحظ للمعاني أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأساس فلها وضعت دالة على المعاني . فالعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لا يثبت وأن يزل . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى (أفن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم) فإن الكفار لم ينطلقوا فبا غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها : أن يقهر داعي الهوى فلا يبق له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال من صبر ظفر . والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأفلون فلا جرم هم الصديقون للقرىون (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستروا على الصراط القويم والطمانت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإليه ينادى المنادى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) .

الحالة الثانية : أن تلعب دواعي الهوى وتيسقظ بالكليّة منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ، ولا يجاهد لبأسه من المجاهدة ، وهؤلاء هم النافلون وهم الأكثرون ، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شغوتهم لحسكوا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أموره . ولهم الإشارة بقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فغشرت صفقتهم ، وقيل لمن قصد إرشادهم (فأعرض عن تولى عن ذكرنا

(١) حديث الحج بركة ، أخرجه أصحاب السنن من حديث جند الرحمن بن مسر وتقدم في الحج .

ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك ميلنهم من العلم (وهذه الحالة علامتها الأس والقنوط والغرور بالأمانى وهو غاية الحق كما قال صلى الله عليه وآله وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » (١) ، وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطيع فيها ، أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال : إن الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي . وهذا المسكين قد صار عقله وقيفا لشهوته ، فلا يستعمل عقله إلا في استبطاء دقائق الخيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته ، فقد صار عقله في يد شهواته كسليم أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رطابة الخنازير وحفظ الخنوز وحملها ، وعمله عند الله تعالى عمل من يقرر مسلما ويسلحه إلى الكفار ويجعله أسيرا عذما ، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سحر ما كان حقه أن لا يستسخر ، وسلط ماحقه أن لا يسلط عليه ، وإنما استحق المسلم أن يكون مسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه . فهما سحر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلما لكافر ، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعرأ أولاده وسله إلى أبغض أعدائه ، فأنظر كيف يكون كفرانه لنعمة واستيغابها لنعمته ! لأن الهوى أبغض إليه عبد في الأرض عند الله تعالى ، والعقل أعرأ موجود خلق على وجه الأرض .

الحالة الثالثة : أن يكون الحرب بجمالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه ، وهذا من المجاهدين يمد مثله لامن الظافرين ، وأهل هذه الحالة هم الذين (خطبوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) هذا باعتبار القوة والضعف . ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه : فإنه إما أن ينجب جميع الشهوات أو لا ينجب شيئا منها ، أو ينجب بعضها دون بعض . وتزيل قوله تعالى (خطبوا عملا صالحا وآخر سيئا) على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أول . والتاركون للجهاد مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا ، إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها يجاهد مقتضى الشهوات ، وهذا قد خلق ذلك له وعطشه فهو الناقص حقا المدير قبيحا ، ولذلك قيل :

ولم أر في عيوب الناس عيبا كقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بمجهود جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تعبيرا ، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر . وإذا دامت القوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسن تيسر الصبر ولذلك قال تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسييسره لليسر) ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره ، فإن الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضيف بأدنى حيلة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعة إعياء ولا لنوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينهر . ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزهد جهيد وعرق جبين . فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين . ومهما أذعن الشهوات وانقضت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أودت ذلك مقام الرضا - كسائي في كتاب الرضا - فالرضا

(١) حديث « الكيس من دان نفسه ... الحديث » يخدم في فم الغرور .

أعلى من الصبر ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « عبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير »^(١) .

وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات (أولها) ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . (ثانيها) الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . (ثالثها) المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين . وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من الرضا ، كإن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا .

واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكره وعمر . فالصبر عن المحظورات فرض . وعلى المكروه نفل . والصبر على الأذى المحظور محذور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا . ولكن يقصد حربه بشهوة محظورة فينجح غيره فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر عمر . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يتاله بمجهة مكروهة في الشرع . فليكن الشرع يحك الصبر . فكأن الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن ينحل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال

اعلم أن جميع ما يلحق العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين (أحدهما) هو الذي يوافق هواه . (والآخر) هو الذي لا يوافقه بل يكرهه . وهو يحتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما . فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر .

(النوع الأول) ما يوافق الهوى : وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة المشيرة واتساع الأسباب وكثرة الاتباع والأمنار وجميع ملاذ الدنيا . وما أوحى العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ، فإن الإنسان يطفئ أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوائف لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال . والزوج والولد فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلتمسكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) وقال عز وجل (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) وقال صلى الله عليه وسلم : « الولد مبخلة بمحنة عزته »^(٢) . ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه يمشي في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال « صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) »^(٣) فإني لما رايت ابني يمشي لم أملك نفسي أن أخذه »^(٤) ، ففي ذلك عبرة لأول الأبرار .

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التمتع واللذة واللهو واللعب ، وأن يرضى بحقوق الله في ماله بالإنفاق وفي بدنه بئذ العورة للخلق وفي لسانه بئذ الصدق ، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه

(١) حديث « عبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس . وقد تقدم . (٢) حديث « الولد بمحنة بمحنة عزته » أخرجه أبو يعلى الموصلي من حديث أبي سعيد وتقدم (٣) حديث « لما نزل لي ابنه الحسن يمشي في قميصه نزل عن المنبر » الحديث أخرجه أصحاب السنن من حديث برمجة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذي حسن غريب .

وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر — كما سيأتي — وإنما كان الصبر على السراء أشدّ لانه مقرون بالقدرة ومن العصة أن لا تحذر ، والصبر على الحجامه والقصْد إذا تولاه غيرك أيمن من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك ؛ والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الاطعمة الطيبة الذيذة وقدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء .

(النوع الثاني) ما لا يوافق الهوى والطبع ، وذلك لا يتخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي ، أو لا يرتبط باختياره كالصائب والثواب . أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشقن من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان : (الضرب الأول) الطاعة ، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها ، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس يطعمها تنفر عن العبودية وتفسى الربوبية ، ولذلك قال بعض المارفين : ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ولكن فرعون وجد له بحالا وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه ، ومامن أحد إلا هو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان متمنا من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستعباده ذلك ليس يصدر إلا عن إضهار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء . فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقا . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة . ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة . ومنها ما يكره بسببها جميعا كالجمع والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد .

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة ، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات وعند العزم على الإخلاص والوقاء . وذلك من الصبر الشديد عندما يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايده النفس . وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال ، إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى^(١) ، وقال تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ .

الحالة الثانية : حالة العمل ، كمن لا ينفل عن الله في أثناء عمله ولا يتسكسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولله المراد بقوله تعالى ﴿نعم أجر العاملين الذين صبروا﴾ أي صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمة والرياء والصبر عن النظر إليه بيمين المحب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ وكما قال تعالى ﴿لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى﴾ فمن لا يصبر بعد الصدقة عن اللين والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو يحتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى في قوله ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل وإيتاء ذي القربى هو الرومة وصلة الرحم . وكل ذلك يحتاج إلى صبر .

(الضرب الثاني) المعاصي : فأحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى ﴿وبئس عن الفحشاء والمنكر والبئس لي خلقا﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : للمهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه^(٢) ،

(١) حديث «أعمال الأعمال بالنيات» متفق عليه من حديث عمرو وقد تقدم (٢) حديث «المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه» أخرجه ابن ماجه بإسقاط الأول والنسائي في الكبرى بإسقاط الثاني كلاما من حديث فضالة بن عبيدة بن يساف بن جبير وقد تقدم

والمعاصي مقتضى باعث الهوى.

وأشد أنواع الصبر : الصبر عن المعاصي التي صارت مألفة بالمادة فإن العادة طبيعة خامسة ، فإذا انضافت المادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أنفزل على النفس ، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والراء والشائ على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع المزع المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإضرار والاستحقار وذكر المواقى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم ، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شذوان : إحداهما نفي الخير والأخرى إثبات نفسه . وبها تتم له الربوبية التي هي في طبيعه ، وهي ضد ما أمر به من العبودية . ولاجتناح الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومضير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهي أكبر للموبقات حتى يطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها ، فعزى الإنسان بلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ماورد في الخبر من أن الغيبة أشد من الزنا (١) ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيجه غيره ، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة .

وتختلف شدة الصبر في أحوال المعاصي باختلاف دأعية تلك المصيبة في قوتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوسواس ، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا إلا بأن يثلب على القلب ثم آخر في الدين يستغرقه ، كمن أصبح وهو مهو به واحد ، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه .

(القسم الثاني) مالا يربط مجرمه باختياره وله اختيار في دفعه ، كالأذى يفعل أو قول وجنى عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى . وقال تعالى (ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال لبعض الأعراب من المسلمين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأعير رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحرق وجنتاه ثم قال « يرحم الله أخى موسى لقد أذى بأكثر من هذا فصبر » (٢) وقال تعالى (ودع أذاهم وتوكل على الله) وقال تعالى (واصبر على ما يقولون واهجرهم همرا جيلا) وقال تعالى (ولقد نعلم أنك بضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك) الآية وقال تعالى (ولتسمن من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) أى تصبروا عن المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين) وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك وأعط من حرمك وأعف عن ظلمك » (٣) ، ورأيت في الإنجيل : قال عيسى بن مريم عليه السلام ، لقد قيل لكم من قبل إن السن بالنسب والآف بالآف ، وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن لحول إليه

(١) حديث « إن الغيبة أشد من الزنا » تقدم في آفات اللسان (٢) حديث : قسمة من مالا وقول بعض الأعراب : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... الحديث « متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم (٣) حديث « صل من قطعك ... الحديث » تقدم

الحذ الأيسر ومن أخذ رداءه فأعطه إزارك ومن سخر لك سير معه ميلا فسر معه ميلا . وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى . فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه بأعماله وينبأه الشهوة والغضب جميعا .

(القسم الثالث) ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره ؛ كالمصاب : مثل موت الأجرة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعي العين وفساد الأعضاء . وبالجملة سائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضي الله عنهما . الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه ؛ صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسائة درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم .

فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فلن ذلك شديد على النفس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين ما تنوون على به مصائب الدنيا »^(١) ، فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

وقال أبو سليمان : وأما ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره ؟ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أفسب له ميزانا أو أنثر له ديوانا »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « انتظر الفرج بالصبر عبادة »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم أجرني في مصيبتى وأعقبني خيرا منها إلا فضل الله به ذلك »^(٤) ، وقال أنس : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كرميته قال سبحانه لا أعلم لنا إلا ما علمتنا قال الله تعالى جزاؤه الخلود في داري والعتق إلى وجهي »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبيدي ببلاء نصبر ولم يشكروا لي عواده أبدلتها لخيرا من طه ودما خيرا من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فليرحمني »^(٦) ، وقال داود عليه السلام : يا رب ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتداء مرضائك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أرعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته : ما ألهم الله على عبد لمة فأنزعهها منه وعوّضه منها الصبر إلا كان ما عوّضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وسئل فضيل عن الصبر فقال : هو

(١) حديث « أسألك من اليقين ما تنوون على مصائب الدنيا » أخرجه الترمذي والبيهقي والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذي وقد تقدم في الدعوات (٢) حديث « قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل ... الحديث » أخرجه ابن عدي من حديث أنس بسند ضعيف .
(٣) حديث « انتظر الفرج بالصبر عبادة » أخرجه القضاة في مسند الصواب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الغم من حديث ابن عباس في مسند الصواب في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكذا حديث الترمذي من حديث ابن مسعود « أفضل البداية انتظار الفرج » وهدم في الدعوات (٤) حديث « ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله (إنا لله وإنا إليه راجعون) ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة .
(٥) حديث أنس « إن الله قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كرميته ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية أبي نذرة التيمي واسمه حلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخاري بلفظ « إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبيدي بمصيبة نصبر وكنتم فيها أجنة » رواه ابن عدي وأبو يعلى بلفظ « إذا أخذت كرمي عبيدي لم أرض له ثوبا دون الجنة » قلت يا رسول الله وإن كانت واحدة قال « وإن كانت واحدة » وفيه سيء بن سليم قال ابن عدي ضعيف (٦) حديث « يقول الله إذا ابتليت عبيدي ببلاء نصبر ولم يشكروا لي عواده أبدلتها خيرا من طه ... الحديث » أخرجه مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يار عن أبي سعيد انتهى وعبد بن كريمة ضعيف ورواه البيهقي موطأ على أبي هريرة .

الرضا بقضاء الله ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : الراضي لا يمتنى فوق منزلته . وقيل حبس الشئلى رحمه الله في المارستان فدخل عليه جماعة فقال : من أتم ؟ قالوا . أحباك جاموك زائرين ، فأخذ يرميم بالحجارة فأخذوا يهرون فقال : لو كنتم أحبابي لصبرتم على بلائي . وكان بعض البارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطلعها وكان فيها (واسبر لحكم ربك فإنه بأعيننا) ويقال إن امرأة تسع الموصلى عثرت فاقطع ظفرها فضحكت فقيل لها : أما تجدن الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجهه . وقال داود لسليان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم يزل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نينا صلى الله عليه وسلم : من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجهك ولا تذكر مصيبتك ^(١) ، ويرى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي مكة صرة فاقطعها فلما هي قد أخذت من مكة فقال : بارك الله فيها لعله أحوج إليها مني . وروى عن بعضهم أنه قال : مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له : أسيئك ماء ؟ فقال : جزى قليلا إلى العتق واجعل الماء في الترس فإن صائم فإن عشت إلى الليل شربته . فهكذا كان صبر سالكى طريق الآخرة على بلاء الله تعالى .

فإن قلت : فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطو شاء أم أبى ، فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار ؟ فأعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجور وشق الجيوب وضرب الحدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في اللبس والمقرش والمطم . وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يمتنع جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويقي مستمرا على عادته . ويمتنع أن ذلك كان ودعية فاسترجعت . كما روى عن الريمصام أم سليم رحمها الله ، أنها قالت : توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فمقت فسيبته في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فمقت فميتات له إظهاره فجعل يأكل ، فقال : كيف الصبي ؟ قلت : بأحسن حال حمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه القلية ، ثم نصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب من حاجته ، ثم قلت : ألا تنجب من جيراننا ؟ قال : ما لهم ؟ قلت : أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ، فقال : بش ما صنعوا ! فقلت : هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه ، فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : اللهم بارك لها في ليلتها ^(٢) ، قال الراوى : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرءوا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال : رأيت دخلت الجنة فإذا أنا بالريمصام امرأة أبي طلحة ، وقد قيل : الصبر الجليل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ، ولا يخرج عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع ، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ، ولأن البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى اللوت ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له : أمانيتنا عن هذا ؟ فقال : إن هذه رحمة وإنما يرسم الله من عباده الرحا . بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا ، فللقدم على الحجابة والقصد راض به وهو متألم بسببه لا بحالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه - وسيأتي

(١) حديث « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجهك ولا تذكر مصيبتك » لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والسكرات من رواية سفيان بن عيينة عن أبيه قال : من الصبر أن لاتصدت بمصيبة ولا بوجع ولا تذك نفسك .

(٢) حديث الريمصام أم سليم : توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فمقت فسيبته في ناحية البيت . الحديث : أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصص في الصحيحين من حديث أبي نعيم مع اختلاف .

ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى - وكتب ابن أبي نجيع يعزى بعض الحقايق : إن أحق من عرف حق الله تعالى فيها أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيها أبنائه له : واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعبدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين به فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعمافون منه .

فلذا من دفع الكراهة بالتفكير في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين . نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب . وقد قيل : من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة . فقد ظهر لك بهذه التقسيات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال ، فإن الذي كنى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا ، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا . فإن اختلاج الخواطر لا يسكن . وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر ، فهو كنهها كان تنصيص زمان . وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فلذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنس بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمرقة عجة الله تعالى فهو مغبون ، هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه ، ولا يكون ذلك غالبا ، بل يتفكر في وجوه الخيل لقضاء الشهوات ، إذ لا يزال ينزع كل من تتحرك على خلاف غرضه في جميع عمره ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويغالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه ، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ، ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفتهم ، ولا يزال في شغل دائم ، فلشيطان جندان : جند يطير وجند يسير ، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار . وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالخمار ، والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين ، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة ، فلا يتصور نار مشتملة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبيعتها . وقد كلف الملمون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستصصى وعبر عن سبب استصصائه بأن قال (خلقتني من نار وخلقته من طين) .

فلذا من حيث لم يسجد للمؤمن لا يبتا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا يبنى أن يطمع في سبوره لأولاده . ومهما كمن عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولاته فقد أظهر اتقياده وإذعانه . واتقياده بالإذعان بسجود منه - فهو روح السجود - وإنما وضع الجبهة على الأرض قلبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح . ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك ، كما أن الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة ، فلا يبنى أن يدهشك حذف الجوهر عن الجوهر وقال الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب ! فتكون بمن قيدة عالم الشهادة بالكلية عن عالم النيب . وتحقق أن الشيطان من المخطرين فلا يتراجع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبغ ومهلك هم واحد ، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملمون بمخالفاتك ، فتند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين .

ولا تظن أنه مخلو عن قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء في القدح فلذلك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو ينفذه فقد طمعت في غير مطمع ، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لاحتالة ، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان ، وإلا فن غفل عن الله تعالى ولوى لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعالى

«ومن يعيش عن ذكر الرحمن يقبض له شيطاناً فهو له قرين» وقال صلى الله تعالى عليه وسلم «إن الله تعالى يقبض الشاب الفارغ»^(١) ، وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً ولم يبق قلبه فارغاً ، بل يعيش فيه الشيطان وبييض ويفرخ ، ثم تزوج أفرأخه أيضاً وتبيض مرة أخرى وتفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار ، وإذا وجد الخلفاء اليابسة كثر توالده ، فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع ألبنة بل تسرى شيئاً فشيئاً على الاتصال ، فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالخلفاء اليابسة للنار ، وكما لا يتبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة ، فإذا لم تأملت علبت أن أعدى عدوك شهوتك وهي صفة . نفسك ، ولذلك قال الحسين بن منصور الحلج - حين كان يصاب وقد سئل عن التصوف ماهو ؟ فقال : هي نفسك إن لم تستغلها شغلتك .

فلذا حقيقة الصبر وكأله : الصبر عن كل حركة مذمومة ، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك ، وهذا صبر دائم لا ينفك إلا الموت . نسأل الله حسن التوفيق به وكرمه .

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء واعد الشفاء ، فالصبر وإن كان شاقاً أو متعباً فتحصيله ممكن لجميع العلم والعمل . فالداء والعمل هما الأخطا التي منها تتركب الأدوية للأمراض القاربات كلها ، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر ، وكان أنقسام الصبر مختلفة فأقسام اللعل المألوفة منه مختلفة ، وإذا اختلفت اللعل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمها . واستيفاء ذلك مما يطول ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة .

فقول : إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الرقاق مثلاً قد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه ، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدته بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المراقبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة ، فنقول : قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى ، وكل متصارعين أردنا أن يظلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ؛ فلما هنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة .

فأما باعث الشهوة فسيقل تضعيفه ثلاثة أمور .

(أحدهما) أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة - من حيث نوعها ومن حيث كثرتها - فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الانقطاع على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنبه ، فيحتز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة .

(الثاني) قطع أسبابه المهيجة في الحال فإنه إنما يجيب بالنظر إلى مظان الشهوة ، إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة ، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتتة والفرار منها بالكيفية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظره سهم من سهام إبليس »^(٢) وهو سهم يسدده الملمون ولا ترس يمنع منه إلا تقيض الأجفان أو الحرب من صوب رمية . فإنه إنما يرى هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلب عن صوب الصور لم يصبك سهمه .

(الثالث) : تسلية النفس بالمباح من الجفلس الذي تشبهه وذلك بالكحاح ، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات

(١) حديث « إن الله يقبض الشاب الفارغ » لم أجده . (٢) حديث النظره سهم مسوم من سهام إبليس « هدم غير مرة

من جسمه ما ينفى عن المحظورات منه : وهذا هو الملاج الأنفع في حق الأكثر ، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ، ثم قد لا يقيم الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالبادة فمن لم يستطع فعله بالصوم فإن الصوم له وجاء » .^(١)

فهذه ثلاثة أسباب ، فالملاج الأول وهو قطع الطعام : يضاهى قطع القلب عن البهيمة الجورح وعن الكلب الضار ليضعف فتسقط قوته . الثاني : يضاهى تنيب اللحم عن الكلب وتثنيب الصغير عن البهيمة حتى لا تتحرك براطنها بسبب مشاهدتها . والثالث : يضاهى تسليتها بشيء قليل عما يجيل إليه طبعها حتى يبق معها من القوة ما تنصبر به على التأديب .

وأما حقوبة باعث الدين فإنما تكون بطريقتين ، أحدهما : إطاعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة (وفي الأثر) إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مضبوط بالمصيبة ، إذ فاته ما لا يبق معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبق بعد موته أبد الدهر . ومن أسلم خسيسا في نفيس فلا يغبى أن يحزن لقوات الخسيس في الحال . وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى ، فإن قوى يقوى باعث الدين وهيجه تهيبجا شديدا وإن ضعف ضعفه . وإنما قوة الإيمان يبر عنها باليقين وهو المحرك لمزمنة الصبر ، وأقل ما أوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر .

والثاني : أن يمدد هذا الباحث مصارعة باعث الهوى تدريجيا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجري عليها وتقوى منته في مصارعها ، فإن الاحتياط والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ، ولذلك تزيد قوة الحمايين والفلاحين والمقاتلين . وبالمجلة فتقوى الممارسين للأعمال الشاقة تزيد قوة الحياطين والمطارين والفقهاء والصالحين ، وذلك لأن قوام لم تتأكد بالممارسة .

فالملاج الأول : يضاهى إطاع المصارح بالخلة عند الثلبة ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون بحرته عند إغرائه ليأثم بموسى حيث قال (ولأنكم إذا لم تلتزموا) .

والثاني : يضاهى تعويد العصب الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة مباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجري عليه وتقوى فيه منته . فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعف ، ومن عقد نفسه بخالفة الهوى غلبها مهما أراد .

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفائه ، وإنما أخذنا كلف الباطن عن حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تنزع له بأن وقع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للرأفة والذكر والفكر ، فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب . وهذا لا علاج له ألبتة إلا قطع الملاقاة كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ، ثم الابتغال إلى زوايا يمد إحراز قدر يسير من القوت وبعد التنازع به ، ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهوى هما واحدا وهو الله تعالى . ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يمكن ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى ، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وإن

(١) حديث « عليكم بالبادة فمن لم يستطع فعله بالصوم ... الحديث » يخدم في التسكاح .

لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة : من القراءة والأذكار والصلوات ، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب المحضور فإن الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها ؛ إذ لا ينظر في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشتتله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإلهاء من إنسان وطغيان من غيظ ، إذ لا يستغنى عن غفلة من عينه في بعض أسباب المعيشة . فهذا أحد الأنواع الشاغلة .

وأما النوع الثاني : فهو ضروري أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضا تخرج إلى شغل إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه . ولكن بعد قطع الملاقط كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به مله أو واقعة ، وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر ، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر غيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالملاقط ، والانهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تال بالاكساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف مبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأحوال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق . فقد يقل الجهد ويقل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ ، والمعدل وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فإنها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد . نعم اختيار العبد في أن يتعمد لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جوازب الدنيا ، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا يجذب إلى أعلى عليين . وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها ، فقطع الملاقط الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ، إن ربكم في أيام دهركم نفحات إلا فتمتصوها لها ، وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب معلومة إذ قال الله تعالى (وفي السماء رزقكم وما تعدون) وهذا من أعلى أنواع الرزق . والأمور السارية غائبة عنا فلا ندري متى يسر الله تعالى أسباب الرزق . فسا علينا إلا تفرغ المحل والانتظار لذول الرحمة وبلغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض ويتقربها من الحشيش وبيت البئر فيها ، وكل ذلك لا ينفعه إلا بهطر ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخفى سنة عن مطر ، فكذلك فلما تجلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات : فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعزمه لمساب رباح الرحمة ، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور النعم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع المهم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان ، فإن المهم والآنفس أسباب . بحكم تقدير الله تعالى لاستدوار رحمته حتى تستدبرها الأمطار في أوقات الاستسقاء ، وهي لاستدوار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدوار قطرات الماء واستدوار القيوم من أنظار الجبال والبحار ، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك ، وإنما أنت مشغول عنها بملامتك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها ، فلا تحتاج إلا إلى أن تكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب . وإظهار ماء الأرض بحجر القتي أسهل وأقرب من الاسترسال إليها من مكان بعيد منخفض عنها . ولكونه حاضرا في القلب ومنسيا بالشفل عنه سمي الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكرا ، فقال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون) وقال تعالى (ولينذركم أولو الألباب) وقال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)

فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر عن اللامتنع كلها مقدم على الصبر عن الخواطر .

قال الجندبر رحمه الله : السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد ، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق .

وأشد الملائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه . فإن لذة الرياضة والغلبة والاستعلاء والاستبتياع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس الغفلاء ، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية ؟ والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية . وعنه العبارة بقوله تعالى (قل الروح من أمر ربي) وليس القلب مذموما على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تقرير الشيطان اللعين المجد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر . فأضله وأغواه ، وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ؟ فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه . وعزا لاذل فيه وأمنا لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكالا لا نقصان فيه ؟ وهذه كلها من أوصاف الربوبية . وليس مذموما على طلب ذلك ، بل حق كل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له . وطالب الملك طالب للملو والعر والكمال لا محالة . ولكن الملك ملكان : ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك محدد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه أجل ... وقد خلق الإنسان عموما واغيا في العاجلة لجام الشيطان وتوسل إليه بواسطة السجدة - التي في طبعه - فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة ، وتوسل إليه بواسطة الحق فوعده بالفرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم ، والآخر من أتبع نفسه هواها ومنجى على الله الأمانى ، فأعجز الخذلون بفروقه واشتغل بطلب عز الدنيا وملكمها على قدر إمكانه . ولم يتبدل الموقف بمجل فروقه إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة . فعبعن الخذلون بقوله تعالى (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) وقال تعالى (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) وقال تعالى (فأعرض عن قول من ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم) .

ولما استطاع مكر الشيطان في كافة الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ماتم على الخلق من إهلاك المدق وإغوائه ، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازى الذى لا أصل له إن سلم ولادوام له أصلا فنادوا فيهم (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنفروا في سبيل الله أن أنتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) .

فالتوراة والإنجيل والذبور والفرقان وحصف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المجد ، والمراد منهم أن يكونوا ملوكا في الدنيا ملوكا في الآخرة . أما ملك الدنيا : فالزهد فيها والقناعة باليسير منها . وأما ملك الآخرة : فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعز لا اذل فيه وقرة عين أخفيت في هذا العالم لاتملها نفس من النفوس .

والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعله بأن ملك الآخرة يفوته إذ الدنيا والآخرة ضرتان ، ولعله بأن الدنيا لا تسلم له أيضا ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ، ولكن ملك الدنيا لا يتخلو عن المنازعات والمكدرات وطول

الهوموم في التديبيرات وكذا سائر أسباب الجاه . ثم مهما تسلم وتمت الأسباب ينقضى العمر (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أناها أشرنا ليلاً أو نهاراً لجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) فضرب الله تعالى لما مثلاً فقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كاه أنزله من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح) والزهد في الدنيا لما أن كان ملكاً حاضراً حسده الشيطان عليه ففسده عنه .

ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فيقتادان لباعث الدين وإشارة الإيمان ، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حراً . وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً أفرجه ويطنه وسائر أغراضه ، فيكون مسخراً مثل البهيمة ملوكاً يستجروه زمام الشهوة أخذوا بمحنته إلى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير ملوكاً وينال البروبية بأن يصير عبداً ! ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا معكوساً في الآخرة ؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك ؟ فقال كيف ؟ قال : من أنت عبده فهو عبد لي ! فقال كيف ذلك ؟ قال : أنت عبد شهوتك وغضبك وفروجه ويطنك ، وقد ملكتك هؤلاء كلهم فهم عبيد لي . فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة . فالتحذرون بفرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً ، والذين وفقوا للاشتداد حل الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً .

فلذا عرفت الآن معنى الملك والبروبية ومعنى التسخير والمعبودية ومدخل الملط في ذلك وكيفية تسمية الشيطان وتعليقه يسهل عليك النزوع من الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فوائه ؛ إذ تصير بتركه ملكاً في الحال وترجع به ملكاً في الآخرة .

ومن كوشف هذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكتفيه في العلاج مجرد العلم والكشف ؛ بل لا بد وأن يضيف إليه العمل . وعمله في ثلاثة أمور (أحدها) أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعصر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) (الثاني) أن يكلف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ماعتناده ، فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة يرى التواضع ، وكذلك كل هيئة وحال وفعل ؛ في مسكن وملبس ومطعم وتيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغي أن يبدلها بنقائصها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد مارسخ فيه من قبل باعتياده ضده . فلا معنى للمعالجة إلا المضادة (الثالث) أن يراعى في ذلك التدرج والتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل ، فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدرج ، فيترك البض ويسل نفسه بالبعض ، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتداً بترك البعض من ذلك البعض ، إلى أن ينتج باليقية . وهكذا يفعل شيئاً فشيئاً إلى أن يقع تلك الصفات التي رسخت فيه . وإلى هذا التدرج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الدين متين فأرغل فيه برفق ولا تبعض إلى نفسك عبادة الله فإن التبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ^(١) » وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « لا تشادوا هذا الدين فإن من يفاده يظله ^(٢) » .

(١) حديث « إن هذا الدين متين فأرغل فيه برفق » الحديث أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر ويحمد في (٢) حديث « لا تشادوا هذا الدين فإنه من يفاده يظله » يحمد فيه .

فإن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات ، فاعتذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل ، فإن تفصيل الآحاد يطول . ومن راعى التدرج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتتمسك أموره فيصير ما كان محبوا عنده بمقوما وما كان مكروها عنده مشربا حينئذ لا يصبر عنه . وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والدق وله نظير في العادات ، فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء فها ، فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم ، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب . وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبل عن الصبر أيه أشد ؟ فقال : الصبر في الله تعالى ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، فقال : لا ، فقال : الصبر مع الله ، فقال : لا ، فقال : فأيش ؟ قال : الصبر عن الله ؛ فصرخ الشبل صرخة كادت روحه تلتف . وقد قيل في معنى قوله تعالى ﴿ اصبروا صابروا وواظبوا ﴾ اصبروا في الله وصابروا بالله وواظبوا مع الله . وقيل الصبر لله غناه والصبر بالله بقاءه والصبر مع الله وقاه والصبر عن الله جفاه . وقد قيل في معناه :

والصبر ضحك لظنوم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود
وقيل أيضا : الصبر يحمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمل
هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسواره .

الشرط الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلاثة أركان : (الأول) في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه (الثاني) في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعمامة (الثالث) في بيان الأفضل من الشكر والصبر .

الركن الأول : في نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ فقال تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ وقال تعالى ﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾ وقال عز وجل إخبارا عن إبليس اللعين ﴿ لا تدرك لهم صراطك المستقيم ﴾ قيل هو طريق الشكر ، ولعل رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال : ولا تعبدواكم شكرهم شاكرين . وقال تعالى ﴿ وقليل من عباد الشكور ﴾ وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى ﴿ لأن شكرتم لازيدنكم ﴾ واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى ﴿ فسوف ينسيم الله من فضله إن شاء ﴾ وقال ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ وقال ﴿ يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ وقال ﴿ وينفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى ﴿ والله شكور حلیم ﴾ وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ وقال ﴿ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»^(١) ، وروى عن عطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت : أخبرينا بأجرب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت : وأى شأنه لم يكن عجبا ؟ أنا في ليلة فدخل معي في فراشي - أو قالت في الحاني - حتى صمت جلدى جلده ثم قال : يا ابنة أبي بكر ذريني أفبدي لربي ، فقالت : قلت إن أحب قربة لكى أوثر هواك فأذنت له ، فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فأذنته بالصلاة ، فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ولم لأفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى على ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ الآية^(٢) ، وهذا يدل على أنّ البكاء يبنى أن لا ينقطع أبدا . وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مر بعض الأنبياء بمجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فالتفت الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ فأنا أبكى من خوفه ، فسأله أن يحبره من النار فأجاره ، ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال : لم يبكى الآن ؟ فقال : ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور . وقلب العبد كالخجارة أو أشد قسوة ولا يزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ينادي يوم القيامة ليقيم الحمدون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة» قيل : ومن الحمدون ؟ قال : الذين يشكرون الله تعالى على كل حال^(٣) . وفي لفظ آخر : الذين يشكرون الله على السراء والضراء ، وقال صلى الله عليه وسلم : الحمد رداء الرحمن^(٤) ، وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي - في كلام طويل - وأوحى الله تعالى إليه أيضا في صفة الصابرين : أن دارهم دار السلام إذا دخلوها لهمتهم الشكر وهو خير الكلام ، وعند الشكر أستزيدم ، وبالنظر إلى أزيدم . ولما نزل في التكنون ما نزل : قال عمر رضي الله عنه : أى المال تتخذ ؟ فقال عليه السلام : ليتخذ أحكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا^(٥) ، فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا من المال . وقال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان .

بيان حدّ الشكر وحقيقته

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين ، وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من النعم ، والحال هو الفرح بالحاصل بإنعامه ، والعمل هو القيام بما هو مقصود النعم ومحبو . ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حدّ الشكر قاصر عن الإحاطة بكامل معانيه .

- (١) حديث : الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر « علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث ستان بن سنة وفي لسانه اختلاف .
- (٢) حديث عطاء : دخلت على عائشة فقلت لها : أخبرينا بأجرب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : وأى أمره لم يكن عجبا ... الحديث في بكائه في صلاة الليل . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب اختلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزي في الوفا وفيه أبو جنيب وإمام يحيى بن أبي جبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صححه من رواية عبد الله بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها : وأى أمره لم يكن عجبا . وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصر على آخر الحديث (٣) حديث : ينادي يوم القيامة : ليقيم الحمدون ... الحديث « أخرجه الطبراني وأبو نعيم في المعاني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ « أول من يدعى إلى الجنة الحمدون ... الحديث » وفيه ليس في الرئيس ضعف الجمهور .
- (٤) حديث : الحمد رداء الرحمن « أول من أجده له أصلا وفي الصحيح من حديث أبي هريرة .. الحديث » وهدم في العلم
- (٥) حديث عمر : ليتخذ أحكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا .. الحديث « تقدم في الشكر رداؤه .. الحديث » وهدم في العلم (١١ - إحياء علوم الدين - ١)

(فالأصل الأول) السلم : وهو علم ثلاثة أمور ؛ بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة في حقه ، وبنيات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه . فإنه لا بد من : نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه ، فنصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة ، فهذه الأمور لا بد من معرفتها . هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن التمتع كلها من الله وهو المنعم ، والوسائط مستخرون من جهته .

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها . بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان : التقديس . ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس ؛ وهو التوحيد . ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فلكل نعمة منه ، فتتبع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة ، إذ يتطوّر فيها مع التقديس والتوحيد : كمال القدرة والافراد بالفعل . وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « من قال سبحان الله فهو عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فهو عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فهو ثلاثون حسنة »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله »^(٢) ، وقاله ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله »^(٣) ، ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب « فسبحان الله ، كلمة تدل على التقديس و « لا إله إلا الله ، كلمة تدل على التوحيد و « الحمد لله ، كلمة تدل على النعمة من الواحد الحق . فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين .

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال ، فإن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فلن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإبصاله إليه فهو لإشراك به في النعمة ، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه ، بل منه بوجه ومن غيره بوجه ، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحداً في حق الملك . نعم لا ينقض من توحيدده في حق الملك وكما شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبته بقلبه وبالكاغد الذي كتبه عليه ، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما ، لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما « وجودان بأنفسهما بل من حيث هما مستخران تحت قدرة الملك . وقد يعلم أن الوكيل الموصل والحازن أيضا مضطران من جهة الملك في الإبصال ، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عاقبت لما سلم إليه شيئا ، فلذا عرف ذلك كان نظره إلى الحازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد ، فلا يورث ذلك شركا في توحيدده من إضافة النعمة إلى الملك .

وكذلك من الكاتب وأن الحيوانات التي لما اختيار مستخرات في نفس اختيارها ، فإن الله تعالى هو الماسط للدعوى عليها لتفعل . شادت أم أبت - الحازن المضطر الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده . فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سبط الله عليه الإرادة وهيجه عليه الدعوى (وأقنى في نفسه أن خيريه في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك ، وأن غرضه المقصود عده في الحال والمآل لا يحصل إلا به . وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه ، فهو إذن إنما يعطيك

(١) حديث « من قال سبحان الله عشر حسنات . الحديث تقدم في الدعوات . (٢) حديث « أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله » أخرجه الترمذي وحسنه والبيهقي في اليوم واليلة واجبه ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله » لم أجده منوها وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الذكر عن إبراهيم النخعي . قال ابن الجوزي أكثر الكلام تضييفا .

لنرض نفسه لا لفرضك ولو لم يكن غرضه لما أعطاك ، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما أنعمك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفسك فليس منعا عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها . وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ماضيا به مضطرا إلى الإيصال إليك . فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله ، وكنت موحدا وقدرت على شكره ، بل كنت بهذه المعرفة بهجودها شاكرا .

ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته . إلهي خلقت آدم يدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرا .

فاذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه ، فإن عاجلك رب في هذا لم تكن عارفا لا بالثمة ولا بالنعم ، فلا تفرح بالنعم وحده بل وبغيره ، فبتقصان معرفتك بتقص حالك في الفرح وبتقصان فرحك بتقص عملك : فهذا بيان هذا الأصل .

(الأصل الثاني) الحال المستمدة من أصل المعرفة : وهو الفرح بالنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، وهو أيضا في نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطا ، وشرطه أن يكون فرحك بالنعم لا بالثمة . لا بالإلزام ، ولعل هذا يتأمل عليك فهمه فطرب لك مثلا فنقول : الملك الذي يريد الخروج إلى سفره فأنعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح النعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه (أحدها) أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس وأنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وأنه جواد نفيس ، وهذا فرح من لاحظ لافئ الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجدته في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح (الوجه الثاني) أن يفرح به لا من حيث أنه فرس بل من حيث تستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بهجانه ، لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائاه عن الفرس أصلا أو استحقاقه له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك (الوجه الثالث) أن يفرح به ليركبه لينخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لئلا يخدمته القرب منه ، وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث أنه ليس يقنع بأن يكون عمله في قلب الملك أن يعطيه فرسا ويعتق به هذا التقدر من العناية ، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته ، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب ، فهذه ثلاث درجات ، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى ، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذية وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستجني على الإلزام في المستقبل ، وهذا حال الصالحين الذين يهدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ووجاه لثوابه ، وإنما الشكر التام في الفرح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والتزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام ، فهذا هو الرتبة العليا ، وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مندرعة للأخرة ويعينه عليها ويحزن بكل لذة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتقصه عن سبيله ، لأنه ليس يريد الثمة لأنها لذية كما يريد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهلج بل من حيث إنه يعمل في محبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ، ولذلك قال النبي رحمه الله : الشكر وثبة للنعم

لا رؤية النعمة وقال الخواص رحمه الله : شكر العامة على الطعام والملبس والمشرّب . وشكر الخاصة على واردات القلوب ، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده الذنات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخللا عن لذة القلب ، فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بالذكر الله تعالى ومعرفته ولفاته ، وإنما يلتذ بتغيره إذا مرض بسوء المادّات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستشبع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحل الأشياء المرة ، كما قيل : ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

فإن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى ، فإن لم تكن إبل فعزى ، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية ، أما الأولى فطارحة عن كل حساب ، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس الملك ، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه .

الأصل الثالث : الغفل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المتعم . وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان والجوارح أما بالقلب فقصده الخير وإخثاره لكافة الخلق . وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات البتة عليه ، وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوق من الاستعانة بها على معصيته ، حتى إن شكر العيين : أن تستركل عيب تراه لمسلم ، وشكر الأذنين : أن تستركل عيب تسمعه فيه ، فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان : لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل : كيف أصبحت ؟ قال بخير ، فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هذا الذي أردت منك »^(١) ، وكان السلف يتساءلون ويتبهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون التذكر مطيعا والمستغنى له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق ، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت ؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين ، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك ويده كل شيء إلى عبد ملوك لا يقدر على شيء . فالأحرى بالعبد أن لا يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى ، فهو المجل والقادر على إزالة البلاء . وذلل العبد لولاه عز ، والشكوى إلى غيره ذل ؛ وإظهار الذلل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح . قال الله تعالى (إن الذين يعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له) وقال تعالى (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدما على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقام شاب ليتكلم ، فقال عمر : الكبر الكبير ؛ فقال : يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالنسب لكان في المسلمين من هو أسن منك ؛ فقال : تكلم ؛ فقال : لسنا وفدا للرياسة ولا وفد الرياسة ، أما الرغبة فقد أوصلنا إليها فذلك ، وأما الرياسة فقد آمنتنا منها عدلك ، وإنما نحن وفد الشكر جئناك بالشكر باللسان ونشكر . ففهد هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته .

فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المتعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو التناء على المحسن بذكر إحسانه فنظر إلى مجرد عمل اللسان . وقول القائل :

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل : كيف أصبحت ؟ فقال : بخير ، فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال : « هذا الذي أردت منك » أخرجه الطبراني في المعجم من رواية القسطل بن عمرو مرواها نحوه ، قال في الثالثة : أحمد الله . وهذا متصل ، ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال : أحمد الله إليك ، وفيه راشد بن سعد ضعف الجمهور لضعف حفظه ، ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر بإسناد صحيح

إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة : جامع لأكثر معاني الشكر لا ينفذ منه إلا عمل اللسان . وقول حمدون القصار شكر النعمة : أن ترى نفسك في الشكر طفيليا ، إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنييد الشكر : أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة : إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص ومثلا . أقوالهم تعرب على أحوالهم ؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ، ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراضية الثالثة عليهم اشتغالا بما بهمهم ، أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحالة السائل ، اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه ، وإعراضا عما لا يحتاج إليه ؛ فلا ينبغي أن نظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرخاها كانوا يشكرونها ، بل لا يظن ذلك بمقابل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني ؟ أم يتناول بعضها مقصودا وبقيّة المعاني تكون من ترابه ولو أزمه ؟ ولنا قصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء ، والله الموفق برحمته .

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يفعل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر ، فإنما لشكر الملوك إما بالتناء ليريد ملهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيريد به صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالثول بين أيديهم في صورة الخدم ، وذلك تكثير لسوادم وسبب لزيادة جاههم ، فلا يكونون شاكرين لهم إلا لبقاء من ذلك ، وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين : (أحدهما) أن الله تعالى منزه عن الحفظ والأغراض ، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة ، وعن نشر الجاه والخشعة بالتناء والإطراء ، وعن تكثير سوادم الخدم بالثول بين يديه ركما مجدا ؛ فشكرنا إياه بما لاحظ فيه يذاهي شكرنا للملك للمتم علينا بأن تنام في بيوتنا أو تسجد أو تركع ، إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له ، ولا حقه تعالى في أفعالنا كلها (الوجه الثاني) أن كل ما تنماطه باختيارنا فهو لعمرة أخرى من نعم الله علينا ، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف لشكر نعمة بنعمة ، ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له بركبناه ، أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثاني شكر للأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدى إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين . ولنا نفاك في الأمرين جميعا ، والشعر قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لماود عليه السلام ، وكذلك لموسى عليه السلام فقال : يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ وفي لفظ آخر : وشكرك لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتني . وفي خبر آخر : إذا عرفت أن النعمة من رحمتك منك بذلك شكرا .

فإن قلت : فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم ؛ فلأن أعلم استحالة الشكر لله تعالى ، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه ، فلأن هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا ؟ وكأن الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر ، وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكر الخلعة الأولى ، فالفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه . فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف وهي أصل

من علوم المعاملة ، ولكننا نشير منها إلى ملاحظ ونقول : وهنا نظران : نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يبرز لك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب ، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلاً وأبداً ، لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ، ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد ، إذ للوجود المحقق هو القائم بنفسه ، وليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره ؛ فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود آليته ، وإنما للوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجوداً فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ، ولا قيوم إلا واحد ، ولا يتصور أن يكون غير ذلك ؛ فإذاً ليس في الوجود غير الحق القيوم وهو الواحد الصمد ؛ فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدرة ، وإليه مرجعه ، فهو الشاكر وهو المشكور ، وهو المحب وهو المحبوب ، ومن هنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ فقال واعجباه أعطى وأتى إشارة إلى أنه إذا أتى على إعطائه فعلى نفسه أتى ، فهو المتي وهو المتي عليه ، ومن هنا نظر الشيخ أبو سعيد المني حيث قرئ بين يديه ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فقال : لعمري يحبهم ودعه يحبهم فيحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه ، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب ، وهذه رتبة عالية لا يفهمها إلا بمثال على حدّ عقلك ، فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصديقه لقد أحب نفسه ، والصانع إذا أحب صنيعه فقد أحب نفسه ، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه ، وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنيعه ؛ فإن أحبه فأحبه إلا نفسه ، وإذا لم يحب إلا نفسه فيحق أحب ما أحب ؛ وهذا كله نظر بعين التوحيد ، وتعبير الصوفية عن هذه الحالة بقاء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى ، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول : كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل في كل يوم أرطالا من الحبز ، فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعاني كلامهم ، وضرورة قول المارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ ثم بين أن ضحكة المارفين عليهم غدا أعظم ، إذ قال تعالى ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ على الآرائك ينظرون ﴾ وكذلك أمّة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال ﴿ إن تسخروا منا فلما نسخر منكم كاسخرون ﴾ فهذا أحد النظريين . النظر الثاني : نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسبان : قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعمام في كائنات العيين لأنهم أنفوا ما هو الثابت تحقيقاً وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم قائم به ، ولم يقتصر على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ، ولو عرفوا لعلوا أنهم من حيث هم لا لميات لهم ولا وجود لهم ، وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا ، ورفق بين الوجود وبين الوجد ، وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد ، فالوجود حق والموجد باطل من حيث هو هو ، والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان ، وإذا كان كل من عليها فان ، فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثاني : ليس بهم عى ولكن بهم عور ، لأنهم يبصرون بإحدى العيين وجود الوجود الحق فلا ينكروته ، والعين الأخرى إن تم عماما لم يبصر بها غير الموجود الحق ؛ فأثبت موجوداً آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقاً كما

أن الذي قبله جاحد تحقيقاً : فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين ، فأثبت عبداً ورباً ، فهذا التقدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد ، ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عشمه ويقدّر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى ؛ فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يقضي به النقصان إلى الخصر ، فيمنحى عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله ، ليكون قد بلغ كال التوحيد ، وحيث أدرك نقصاً في وجود ماسوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد ، وبينهما درجات لا تحصى ، فهذا تفاوت درجات الموحدين ، وكتب الله المنزلة على السنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار ، والأنبياء هم الكحالون ، وقد جامدا داعين إلى التوحيد المحض ، وترجمته قول « لا إله إلا الله » ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق ، والواصلون إلى كال التوحيد هم الأقلون ، والجاهدون والمشركون أيضاً قليلون ، وهم على الطرف الأنفى المقابل لطرف التوحيد ، إذ عبدة الأوثان قالوا (ما نبدىم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضئيلاً ، والمتوسطون هم الأكثرون ، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبكر الحاطف لا يثبت ، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز .

لكل إلى شأوا الملا حركات ولكن عزيرى الرجال عيات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب فقيل له (واجهد واقترب) قال في سجوده « أعوذ بفمك من عقابك وأعوذ برضائك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ^(١) » فقوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بفمك من عقابك » كلام عن مشاهدة فعل الله فقط ، فكان له لم ير إلا الله وأفعاله ، واستأذ بفعله من فعله ، ثم اقترى ففنى عن مشاهدة الأفعال ، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال « أعوذ برضائك من سخطك » وهما صفتان ، ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « وأعوذ بك منك » وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ، ولكنه رأى نفسه فأزاً منه إليه ومستعيذا ومثنيا ، ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً واقترب فقال « لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقوله صلى الله عليه وسلم « لأحصى » خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها ، وقوله « أنت كما أثنيت على نفسك » بيان أنه المثنى والمثنى عليه وأن الكل منه بل وإليه يعود وأن كل شيء هالك إلا وجهه ؛ فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستزيد بفعل من فعل : فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى يبدأ بالإضافة إلى الثانية ، فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيرا في مقامه ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « انه ليثان على قلبى حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة ^(٢) » فكان ذلك ترفيعاً إلى سبعين مقاماً بعضها فوق البعض : أولها وأن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى آخرها ، فكان استغفاره لذلك . ولما قالت عائشة رضي الله عنها : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد ؟

(١) حديث قال في سجوده « أعوذ بفمك من عقابك » وأعوذ برضائك من سخطك ... الحديث « أخرجه مسلم من حديث عائشة : أعوذ برضائك من سخطك وعما لك من عقوبتك ... الحديث (٢) حديث « انه ليثان على قلبى ... الحديث » تقدم في التوبة ، وفيه الدعوات .

قال « أفلا أكون عبداً شكوراً^(١) » ، معناه . أفلا أكون طالباً للبر في المقامات . فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم)

وإذا فلفطنا في بحر المكاشفة فلفظ الشكر ، ويرجع إلى ما يليق بعلوم الماملة : فنقول الأنياء عليهم السلام بنوا دعوة الحق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه ، ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة ، وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام إضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والثناء ، ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكاً من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوباً ومليواً وقد أجاز زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ، ثم يكون له حالتان : (إحداها) أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرة أن يقوم ببعض مهماته ويكون له رعاية في خدمته (والثانية) أن لا يكون الملك حظ في البعد ولا حاجة به إليه ، بل حضوره لا يزيد في ملكه لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تفي فيه غناه ، وغيبته لا تنقص من ماله ؛ فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب وال زاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته ليلتفع هو في نفسه لا ليلتفع الملك به ، وبالتالي ، فنزل البعد من الله تعالى في المنزل الثانية لا في المنزل الأولى فإن الأولى محال على الله تعالى ، والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكراً في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته ما لم يتم خدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً ، ومع ذلك يتصور أن يكون شاكراً وكافراً ويكون شاكراً بأن يستعمل ما أنفذه إليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه ، وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطيه أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه ، فهما ليس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينق الراد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذا استعمل نعمته في محبة : أي فيما أحبه لعبد له لنفسه ، وإن ربه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته : أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبد له لنفسه ، وإن جلس ولم يركب لاني طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضاً نعمته إذا أهملها وعطلها ، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه ، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرهم يحتاجون إلى استعمال المشروبات لتشكل بها أبدانهم فيعمدون بها عن حضرته ، وإنما سعادتهم في القرب منه فأعد لهم من التمتع ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وفرهم عبر الله تعالى إذ قال (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) ثم رددناه أسفل سافلين ه (إلا الذين آمنوا) الآية ، فإذا نعم الله تعالى آيات ربه في العبد بها عن أسفل السافلين ، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب ، والله تعالى غني عنه قرب أم بعد ، والبعد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لانتهاجه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له ؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية ، وإن عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آله للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى ؛ فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكراً لنعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة ، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى ؛ فالمعصية والطاعة تضلعهما المشيئة ولكن لا تستعمل المحبة والكراهة ، بل بر مراد

(١) حديث طائفة لما قالت له : غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء .. الحديث ، رواه أبو الفتح وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بقصة أحاديث ، وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصراً وكذلك هو في الصحيحين مختصراً من حديث المنيرة بن شعبة .

محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه ، وقد انحل هذا الإشكال الأول : وهو أنه إذا لم يكن للشكور حظ فكيف يكون الشكر ؛ وهذا أيضا ينحل الثاني ؛ فلما لم نل بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة عبدة الله فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد ، وفعلك عطاء من الله تعالى ، ومن حيث أنت محله فقد أتى عليك ، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك ؛ فهو الذي أعطى وهو الذي أتى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته ، فله الشكر على كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل للمعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له ، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ، ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك ؛ فوصفك بأنك شاكر لا شيء تحقيقيا ، وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »^(١) ، لما قيل له : كنت لا شيء تحقيقيا ، فإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »^(٢) ، لما قيل له : يا رسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟ فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى وعمل أفعاله وإن كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض . وقوله « اعملوا » وإن كان جاريا على لسان الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو فعل من أفعاله ، وهو سبب لعمل الخلق أن العمل نافع ، وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى ، والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة ، وانبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى ، وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ، ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الأول شرط للثاني . كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله ، وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أى هو شرط ، ومعنى كونه شرطا أنه لا يستتبع لقبول فعل الحياة إلا جوهرا ولا يستتبع لقبول العلم إلا ذو حياة ولا يقبل الإرادة إلا ذو علم ، فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لتبعية بل يمهّد شرط الحصول لتبعية ، وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه .

فلن قلت : فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأتيت مفايقون مذمومون على العصيان ، وما إلينا شيء فكيف نذم وإلما الكحل إلى الله تعالى ؟ فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقادنا ، والاعتقاد سبب لميجان الحوق ، وميجان الحوق سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار القرور ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله ، والله تعالى مسبب للأسباب ومرتبها ، فمن سبق له فى الآزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ، ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ، ومن لم يسبق له من الله الحسن بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء ؛ فإذا لم يسمع لم يعلم « وإذا لم يعلم لم يخف » وإذا لم يخف لم يتفكر في ترك الركون إلى الدنيا ، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى في حزب الشيطان ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين ؛ فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ؛ فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة . بسلاسل الأسباب ، وهو تسليط العلم والحرف عليه . وما من غنذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط التفكر والاعتقاد من القرور عليه ، فالتفكر يساقون إلى الجنة قهرا ، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ،

(١) حديث « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » من حديث علي ومهران بن حسين .

ولا قادر إلا للملك الجبار ، وإذا انكشف النطاء عن أعين السافلين فسادوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المتأدب (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص ، ولكن السافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للسافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف ؛ فعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك .

بيان تميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه ، إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه ، ومعنى الكفر تقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه . وتبين ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان (أحدهما) السمع ، ومستنده الآيات والأخبار (والثاني) بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار ، وهذا الأخير صير ، وهو لأجل ذلك عزيز ، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ، ومعرفة ذلك تنبئ على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد ، فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً . وأما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه ، إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة وتحتمل الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب ، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشاً والليل لباساً فتتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس لآكل الحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة ، وكذلك معرفة الحكمة في النجم ونزول الأقطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق ومرعى للأنعام ، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحتلها أفعال الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه ، إذ قال تعالى ﴿ أنا صبيتنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققاً فأنبتنا فيها حبا وعنبا ﴾ الآية . وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت خفية لا يطلع عليها كافة الخلق ، والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة السماء لتستلذ العين بالنظر إليها ، وأشار إليه قوله تعالى ﴿ إنا زينا السماء الدنيا زينة الزكوك ﴾ لجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاراه وجباله ومعادنه ونباته وحوراته وأعضاء حيواناته لانهل ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمه واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف ، وكذلك أعضاء الحيوان تنقسم إلا ما يهبط حكمها كالعلم بأن العين للإبصار لا للبش ، واليد للبش لا للبش ، والرجل للبش لا للشئ ، فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلى وآحاد العروق والأعصاب والصلوات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والنظف وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس ، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدر يسيراً بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ فإذا كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى ، فمن حرب غيره يده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يكرهه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس ، إذ الإبصار يتم بها ، وإنما خلقتا ليصير بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتق بها ما يضره فيهما ، فقد استعملها في غير ما أريدتا به ، وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والآنس به في الدنيا والتجاني عن غرور الدنيا ، ولا أنس

إلا بدوام الذكر ولا حجة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بتلقي السماء والأرض وخلق سائر الأضياء ظاهراً وباطناً ، فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، فلهذا قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ما أريد منهم من رزق ﴿ الآية ﴾ ، فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقامته على تلك المحبة . ولذا ذكر مثالا واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فتقول : من نعم الله تعالى خلق البرام والدناتير وبهما قوام الدنيا وهما حيران لا منفعة في أعيانها ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته ، وقد يحجر عما يحتاج إليه وبذلك ما يستغنى عنه . كمن يملك الزعفران مثلاً وهو محتاج إلى جبل يركبه ، ومن يملك الجبل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران ، فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبدل صاحب الجبل جملة بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزعفران والجبل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة . وكذا من يشتري داراً بثياب أو عبداً بخم أو دقيقا بجمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها ، فلا بد من أن الجبل كمسوى بالزعفران فتتعدد المعاملات جداً ، فافتقرت هذه الأعيان المتشافة المتباعدة إلى متوسط بينهما يحكم بينهما بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومثله حتى إذا تقتررت المنازل وترتبت الربح علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي ، فخلق الله تعالى الدناتير والبرام حاكين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما ، فيقال : هذا الجبل يسوي مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسري مائة ، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان ، وإنما أمكن التعديل بالنقدن إذ لا غرض في أعيانها ولو كان في أعيانها غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا يفتلظ الأمر ، فإذن خلقهما الله تعالى لتداولهما الأيدي ويكونا حاكين بين الأموال بالعدل والحكمة الأخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانها ونسبتهما إلى سائر الأحوال نسبة واحدة فمن ملكهما فكانه ملك كل شيء ، لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً فاحتجج إلى شيء وهو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء ، والشئ إنما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها ، كالمرأة لا لون لها ، وتحكي كل لون فكذلك القدر لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض ، والحرف لا معنى له نفسه وتظهر به المعاني في غيره ، فهذه هي الحكمة الثانية ، وفيها أيضاً حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيها عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيها ، فإذن من كثرهما فقد ظلمها وأبطل الحكمة فيها وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يتمتع عليه الحكم بسببه . لأنه إذا كثر فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به ، وما خلقت البرام والدناتير لأجل خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للأحاد في أعيانها فإنهما حيران ، وإنما خلقا لتداولهما الأيدي فيكونا حاكين بين الناس وعلامة معرفة المقادير مقومة للبرائب ، فأخبر الله تعالى الذين يسبحون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة في صفحات الموجودات بخط الهي لا حرف فيه ولا صوت الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة - أخبر هؤلاء العاجزين

بكلام مسموع من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل اليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجروا عن إدراكه ، فقال تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فيشربهم بذبذب أليم ﴾ وكل من اتخذ من الدراهم والمناشير آية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كثر لأن مثال هذا مثال من استخسر حاكم البلد فى الحياكة والمكس والاعمال التى يقوم بها أخواه الناس ، والحبيب أهون منه ، وذلك أن الحرف والجديد والرماس والنحاس تتوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المالكات عن أن تنقصد ، وإنما الآلات لحفظ المالكات ، ولا يكتفى الحرف والحديد فى المقصود الذى أريد به التقوى فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له : من شرب فى آية من ذهب أو فضة فكأنما يجرى فى بطنه نار جهنم ^{١١} ، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والمناشير فقد كفر النعمة وعظم لآثمها خطفا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض فى عينهما ، فإذا انجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب التقوى لغير ما وضع له ظلم . ومن معه ثوب ولا تقدم معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاما ودابة ، إذ ربما لا يبيع الطعام والدابة بالثوب ، فهو مذلور فى يمينه بقدر آخر ليحصل التقوى فيتوصل به إلى مقصوده فأنهما وسيلتان إلى التفرغ لا غرض فى أعينهما ، وموقفهما فى الأموال كوقع الحرف من الكلام ، كما قال النحويون : إن الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره ، وكوقع المرأة من الألوان ؛ فأما من معه فقد فلر جاز له أن يبيعه بالتقوى فيتخذ التعامل على التقوى غاية عمله فيبقى التقوى مقيدا عنده وينزل منزلة المكسوز ، وتقيد الحاكم والبريد للوصل إلى الغير ظلم ، كما أن حبسه ظلم ، فلا معنى لبيع التقوى بالتقوى إلا اتقاه التقوى مقصودا للدخار وهو ظلم

فإن قلت فلم جاز بيع أحد التقدين بالآخر ؛ ولما جاز بيع الدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحد التقدين يخالف الآخر فى مقصود التوصل ، إذ قد يتميز التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا ، ففى المنع منه ما يشترى المقصود الخاص به ؛ وهو ييسر التوصل به إلى غيره ؛ وأما بيع الدرهم بدرهم بماله فلا جاز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه غافل مهما تساوبا ولا يشتغل به تاجر فإنه عيب يجرى بجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، فلا يمنع مما لا تشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر ، وذلك أيضا لا يتصور جريانه ؛ إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الردى فلا ينتظم البعد ، وإن طلب زيادة الردى فذلك مما قد يقصده فلا جرم ينمعه منه ونحكم بأن جيدا ورديتها سواء ، لأن الجودة والرعاة ينبغى أن ينظر اليهما فيما يقصد فى عينه ، وما لا غرض فى عينه فلا ينبغى أن ينظر إلا مضافات دقيقة فى صفاته ، وإنما الذى ظلم هو الذى ضرب التقوى مختلفة فى الجودة والرعاة حتى صارت مقصودة فى أعينها وحقا أن لا تقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فأنما لم يجر ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مساح قاصد الإحسان فى القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المساحة فيكون له حد وأجر . والمعاوضة لأحد فيها ولا أجر ، فهو أيضا ظلم لأنه إشاعة خصوص المساحة وإخراجها فى معرض المعارضة ، وكذلك الأظمة خلقت ليتخذ بها أو يتداوى بها فلا ينبغى أن تصرف على جهتها فإن فتح باب المعاملة فيها وجب تقيددها فى الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذى أريد له ، فاخلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأظمة شديدة فينبغى أن تخرج عن يد المستحق عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأظمة إلا مستغن عنها ، إذ من معه طعام فلم

(١١) حديث « من شرب فى آية من ذهب أو فضة فكأنما يجرى فى بطنه نار جهنم » متفق عليه من حديث أم سلمة ، ولم يصح المصنف بكونه حديثا .

لا يأكله إن كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة ، وإن جعله بضاعة تجارة فليحبه من يطلبه بعمد غير الطعام يكون محتاجا إليه ، فأما من يطلبه بميت ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه ، ولهذا ورد في الشرع لمن انحصر ، وورديه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ؛ ثم بالغ البر بالقرمذور ، إذ أحدهما لا يستد مسد الآخر في الفرض وبالغ صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عايت فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمع به إلا عند التفاوت في الجوده ؛ ومقابلة الجيد بمثلته من الردى لا يرضى بها صاحب الجيد . وأما جيد برديتين فقد قصد ، ولكن لما كانت الأظعمة من الضروريات والجيد يساوى الردى في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التمتع أسقط الشرع غرض التمتع فيها هو القوام ، فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا ، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن التفهيمات فإنه أوى من جميع ما أوردناه في الخلافات ، وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعى رحمه الله في التخصيص بالأظعمة دون المكيلات ، إذ لو دخل الجص فيه لكازت الثياب والدواب أولى بالدخول ؛ ولولا للملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصصه بالأوقات ، ولكن كل معنى يرداه الشرع فلا بد أن يضبط بعد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعم ف رأى الشرع التحديد بمجنس المطعم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء ؛ وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل للمنى الباعث على الحكم ؛ ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتعير الخلق في أتباع جوهر المعنى مع اختلافه في الأحوال والأشخاص . فعين المعنى بكامل قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضروريا ، فلذلك قال الله تعالى (ومن يتعد حدود الله فقد ظن نفسه) ولأن أصول هذه الممانى لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد ، كما يحد شرع عيسى ابن مريم عليه السلام بتحريم الخمر بالسكر ، وقد حده شرعا بكونه من جنس السكر ؛ لأن قليله يذهب إلى كثير ، والمداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم المجلس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية ، فهذا مثال الواحد لحكمة خفية من حكم التقنين ، فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها ، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزايل الشهوات وملاعب الشياطين ، بل لا يتذكر إلا أولوا الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لو أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » ، وإذ عرفت هذا المثال ففس عليه حركتك وسكونك وطفلك وسكونك ، وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن يفكك عنهما ، وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذى تتألق به عوام الناس بالكرامات وبعضه بالخطر وكل ذلك عند أبواب القلوب موصوف بالخطر ، فأقول مثلا : لو استجيت بالمنى فقد كفرت نعمة الدين ، إذ خلق الله لك الدين وجعل إحداها أقوى من الأخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل ، وتفضيل الناقص عدول عن العدل ، والله لا يأمر بالعدل ، ثم أخرجك من أعطاك الدين إلى أعمال ؛ بعضها شريف كما أخذ المصحف ، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة ، فإذا أخذت المصحف بالمسار وأزلت النجاسة باليمن فقد خصصت الشرف بما هو خسيس فنقصت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل ، وكذلك إذا بصقت مثلا في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سمة العالم لأنه خلق الجهات لتكون مقسمة في حركتك وقسم الجهات إلى عالم يشرفها وإلى ما شرعها بأن وضع فيها بيتا أضافه إلى نفسه استماله

(١) حديث « لو أن الفياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » هدم في الصوم .

لعلك إليه ليتقديه فليكن يتقيد بسببه بذلك تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك ، وكذلك انقسمت أنفالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورؤى البصاق ، فإذا رميت بصفائك إلى جهة القبلة فقد ظلتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك ، وكذلك إذا لم يست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلت ؛ لأن الخف وقاية الرجل ، فلما لم يجر فيه حظ ، والبداة في الخلو يوجب أن تكون بالأشرف فهو المدل والواظ بالحكمة ، وتقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل ، وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكرها ، حتى إن بعضهم كان قد جمع لإكرار من الخطئة وكان يتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : ليست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سموا فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين ، بل بإصلاح العوام الذين يقرب درجتهم من درجة الإنعام وهم منموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها ؛ فقيح أن يقال : الذي شرب الخمر وأخذ القدر يساراه قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ، ومن باع خروافى وقت النداء يوم الجمعة فقيح أن يقال خان من وجهين (أحدهما) بيع الخمر ، والآخر البيع في وقت النداء . ومن قضى حاجته في مغراب المسجد مستدر القبلة فقيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه ، فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض ، فبمنحى بعضها في جنب البعض ، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بنير إذنه ، ولكن لو قتل بتلك السكين أعر أولاده لم يبق لاستعمال السكين بنير إذنه حكم ونكايه في نفسه ، فكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحا فيه في الفتنة مع العوام فسيبه هذه الضرورة ، وإلا فكل هذه المكروه عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب ، بعضها يؤثر في البعد بنقصان القرب وانحطاط للنزلة ببعضها يخرج بالسكينة عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين ، وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير ساجدة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد أما اليد فإنها لم تخلق للمبى بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة . وأما الشجر فإنه خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاعتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوة لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل ، فإن كان له غرض صحيح فله ذلك ، وإذا الشجر والحيوان جعلوا فداء لأغراض الإنسان ، فإنهما جميعا فانيان هالكان ، فإنما الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وسبح لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا ، لأن كل شجرة بينهما لانتى بحاجات عباد الله كلهم بل تقى بحاجة واحدة ، ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظالما ، فصاحب الاختصاص هو الذى حصل البذر ووضعه فى الأرض وساق إليه الماء وقام بالتمهيد فهو أولى به من غيره فيرجع جانب ذلك ، فإن نبت ذلك فى موات الأرض لا يسمى آدمى اختص بمفرسه أو بقرسه ، فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه ، فلسابق خاصة السبق ، فالعدل هو أن يكون أولى به وغير الفقراء عن هذا الترتيب بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا لملك الملوك الذى له مافى السموات والأرض ، وكيف يكون اللب مالكا وهو فى نفسه ليس بملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم فى الأكل من مائدته بقدر حاجتهم ، كالملك ينصب مائدة لعيده ، فمن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها بجره لجأه عبد آخر وأراد انتزاعها

من يده لم يمكن منه لا لأن اللقمة صارت ملكاً له بالأخذ باليد — فإن اليد وصاحب اليد أيضاً ملك — ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبد فالمدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيع والاختصاص ، والأخذ اختصاصاً ينفرد به العبد فتع من لا يدل بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن تفهم أمراً في عبادته ، ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكثره وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم ، وهو من الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تدفع ضروراتهم وترفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في حقائقنا في الله لأن مقادير الحاجات خفية والنفس في استعمار الفقر في الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة ، فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تسكيف الصبيان الرقار والتؤدة والسكران عن كلام غير مهم ، وهو يحكم نقصانهم لا يطبقونه ، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحته ذلك لإبهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق ، فكذلك لإباحته للعوام حفظ الأموال والاقتصاد في الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ما قبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن إليه ، إذ قال تعالى ﴿ إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِيهِمُ يُبَيِّنُوا ﴾ بل الحق الذي لا يدور فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراتب ، فكل عباد الله ركباً لحطاً بالآبدان إلى حضرة الملك الديان ، فنأخذ زيادة عليه ثم نمته عن راتب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدو وخارج عن مقصود الحكمة وكافر لقمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي يعرف أن ماسوى زاد الراتب وبالله عليه في الدنيا والآخرة فن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر ، واستتضاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تفي إلا بالقليل ، وإنما أردنا هذا التقدير ليعلم علة الصدق في قوله تعالى ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ وفرح إبليس لئنه الله بقوله ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأموراً آخر وراء ذلك تقتضي الأعمار دون استقصاء مبادئها ؛ فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة ، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير .

« فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء ، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لقسم الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحكمة ، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انسافت الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما عاقل ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران ، وهذا كله مفهوم ، ولكن الإشكال باقي : وهو أن فعل العبد لا ينقسم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرفها هو أيضاً من فعل الله تعالى ، فأين العبد في البين حتى يكون شاكراً مرة وكافراً أخرى ؟ فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستلزم من تيار بحر عظيم من علوم الكاشفات ، وقد مرزنا فيما سبق إلى تلويحات بمبادئها ، ونحن الآن نغير بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطائر ومجدها من عجز عن الإيضاح في السير فضلاً عن أن يحول في جوف المسكوت جولان الطير فنقول : إن الله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلحقها عين وأضغ اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وتخصر حقيقتها ، فلم يكن لها في العالم عبارة تلو شأنها وانعطاف رتبة واضع اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشرافها ، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس ، لانموض

في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناططين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضئيلا جداً ، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسروا بسبب استعارتهم على التطن فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ، ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة للمشيئة ، فهي توم منها أمراً محملاً عند المتناططين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها ، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كفصور لفظ القدر ثم انقسمت الأعمال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المتنهي الذي هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الناية ، وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات ، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكرامة ، وقيل : إنهما جميعاً داخلان في وصف المشيئة ، ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يروم لفظ المحبة والكرامة ، منهما أمراً مجملاً عند طالب الفهم من الألفاظ واللغات ، ثم انقسم عباده الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيفاف حكمتها دون غايتها ، ويكون ذلك قهراً في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمتها إلى غايتها في بعض الأمور ، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة ، فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها ، فاستعير له الكفران ، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة وزيادة في السكال ، وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل النفاق بسببه الحكمة إلى غايتها ، فاستعير له عبارة الشكر وأردف بمخلة التناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى ، وأعطى التكامل ثم قبح وأردى ، وكان مثاله أن ينظف المالك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه ، فإذا تم زينته قال يا جميل ما مالك وأجل ثيابك وأنظف وجهك ، فيكون بالحقيقة هو الجميل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال ، وكأنه لم يقف من حيث المثنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف التناء من حيث الظاهر والصورة ، فهكذا كانت الأمور في الأزال ، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير الأرباب ومسبب الأسباب ، ولم يكن ذلك على اتفاق وبحيث بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء ، وقيل إنه كلعج بالبصر أو هو أقرب ، ففاضت بنوار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بمسابق به التقدير ، فاستعير لترتيب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ التقدير فكان لفظ التضاميل زاماً لأمر الواحد الكلي ، ولفظ القدر يزام التفصيل المتناهي إلى غير نهاية . وقيل : إن شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء والتقدير ، فخطئ لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل ، وكيف انتظم المدل مع هذا التفاوت والتفصيل ، وكان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه ، فأجروا عما لم يطبقوا خوض غمرته بجلجام الشنع وقيل لهم استكروا فما لهذا خلقتكم (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) وامتلات مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السموات والأرض ، وكان زيتهم أولاً صافياً يكاد يضيء ولولم تمسسه نار ، فستهتار فاشتعل نوراً على نور ، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور دجها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم : تأدبوا بأداب الله تعالى واسكنوا ، وإذا

ذكر القدر فأمسكوا^(١) فإن للحيطان أذاناً وحواليكم ضعفاء الأبصار ، فيسروا بسير أضعفكم ولا تكتشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتخطوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأمن بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقاء أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقاء نور الشمس والكواكب في جنح الليل ، فيحيا به حياة يتمثلها شخصه وسأله وإن كان لا يحيا به حياة التردد بين في كال نور الشمس ، وكونوا كن قيل ففهم :

شرينا شراباً طيباً عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب

شرينا وأمرقنا على الأرض فضله وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ، ولا نفهمه إلا إذا كتبت أهلاً له ، وإذا كتبت أهلاً له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يوقدك ، والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حذاء ؛ فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستريح وراءه أعمى ، وإذا ذاق الجبال ولطف لطف المساء مثلاً ولم يكن العبور إلا بالسباحة ، فقد يقدر للساهر بضعة السباحة أن يعبر نفسه وربما لم يقدر على أن يستريح وراءه آخر ؛ فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ماهو بمجال جماهير الخلق كمنسبة المشي على المساء إلى المشي على الأرض ، والسباحة يمكن أن تتعلم ؛ فأما المشي على المساء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ؛ ولذلك قيل للبي صلى الله عليه وسلم : إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على المساء ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : لو ازداد يقيناً لمشي على الهواء^(٢) ، فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكرامة والمحبة والرضا والتضيق والفكر والكفران ، لا يليق يعلم المعاملة أكثر منها ، وقد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك تقريباً إلى أفهام الخلق إذ عوف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبده ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ، ثم أخبر أن له عبيدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين ، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين : ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو الدين للنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى ﴿ قل زله روح القدس من ربك بالحق ﴾ وقال تعالى ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى ﴿ ليعضل عن سبيله ﴾ والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة ، فانظر كيف نسب إلى العبد الذي غضب عليه ، والإرشاد سبيله لم إلى الثانية فانظر كيف نسب إلى العبد الذي أحبه ، وعندك في المادة له مثال ، فمالك إذا كان محتاجاً إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن التافورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أحبهما وأحبهما ولا يفتؤض حل الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكلمهما وأحبهما إليه ولا يفتؤض أن تقول : هذا فعل ، ولم يكون فعله دون فعل ؟ فإنك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك ، بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماماً العدل ، فإن عدله تارة يتم بأمور لا تدخل لك فيها ، وتارة يتم فيك فإنك أيضاً من أفعاله ، فداعيتك وقدرتك وعليك وعملك وسائر أسباب

(١) حديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود ، وقد تقدم في العلم ، ولم يصح المصنف بكونه حديثاً . (٢) حديث قيل له : يقال إن عيسى مسمى على المساء قال : « لو ازداد يقيناً لمشي على الهواء » وهذا حديث منكر لا يعرف هكذا ، والمرووف . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله الزبيدي قال : فقد لما وروى نعيم قيل لم توجه نحو البحر فالتفتوا بطلونه ، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أبل عيسى على المساء ، فذكر حديثاً فيه أن عيسى قال : لو أن لأين آدم من اليقين شجرة مسمى على المساء . وروى أبو منصور الهذلي في مسند القرويس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل : « لو عرفتم الله حق معرفته لعلمتم على البحور ولزالت بهائمكم الجبال » .

حركته في التعبير هو فعله الذي ربه بالعدل ترتيباً تصدر منه الأعمال المعتدلة ، إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والممكنات ، فذلك تضييقه إلى نفسك ، وإنما أنت مثل العبي الذي ينظر ليلاً إلى لعب المشعب الذي يخرج صورا من وراء حجاب رقص وترعق وتقوم وتقعده وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ودهسها في يد المشعب وهو محتجب عن أبصار الصبيان ، فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الحرق رقص وتلعب وتقوم وتقعده . وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس يتحرك ، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله ، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعب الذي الأمر إليه والجاذبة بيده ، فكذلك صبيان أهل الدنيا والحلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ، ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون ، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطاً دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء مثبته الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تترك تلك الخيوط لثباتها هذه الأبصار الظاهرة ، ثم شاهدوا رموس تلك الخيوط في مناطق لها هي معلقة بها ، وشاهدوا تلك المناطق مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسماوات ، وشاهدوا أيضاً ملائكة السماوات مصروفة إلى حلة المرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل ﴿ وفي السماء رزقكم وما تعدون ﴾ وعبر عن انتظار ملائكة السماوات لما ينزل إليهم من التدر والأمر فيقول ﴿ خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن متبذلات الأمر يبين لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وهذه أمور لا يملك تأويلها إلا الله والراسخون في العلم . وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلموا لاحتماها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى ﴿ ينزل الأمر بينهن ﴾ فقال : لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجعتموني ، وفي لفظ آخر : لقنتم إنه كافر .

ولتقتصر على هذا التدر فقد خرج عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه ، فانرجع إلى مقاصد الشكر فتقول :

إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملاً في إنعام حكمة الله تعالى ، فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضاً ترتيب ، وما منهم إلا وله مقام معلوم ، وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه إسرئيل عليه السلام ، وإنما علو درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة ، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام ، وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ، وبلي درجتهم درجة الأنبياء فإنهم في أنفسهم أخیار ، وقد هدى الله بهم سائر الخلق ونعم بهم حكته ، وأعلام رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم ، إذ أكل الله به الدين وختم به النبیین ، وعليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فإنهم في أنفسهم صالحون ، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ، ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ، ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه أكل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ، ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط ، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ، ومن عدا هؤلاء فهمج رعا .

الركن الثاني من أركان الشكر: ما عليه الشكر

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

(التقسمة الأولى) أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا : كالعلم وحسن الخلق ، وإلى ما هو ضار فيها جميعا كالجهل وسوء الخلق ، وإلى ما ينفع في الحال ويضر في الآخرة : كالتنافس في المال . كالتنافس في اتباع الشهوة ، وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في الآخرة : كتمنع الشهوات وعن غافة النفس ، فالنافع في الحال والمآل هو النعمة الحقيقية ، كالعلم وحسن الخلق ، والضار فيها هو البلاء الحقيقي وهو ضدهما والتنافع في الحال والمآل بلاء محض عند ذوي البصائر . وتوظف الجهال نعمة ومثاله الجامع إذا وجد عدلا فيقسم قوته بينه نعمة إن كان جاهلا ، وإذا علم أن ذلك بلا مسبق إليه . والنافع في الحال والتنافع في المآل نعمة عند ذوي الأبواب بلاء عند الجاهل . ومثاله الدوام بالشع في الحال مذلة لإلانه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة ، فالصبي الجامع إذا كلف شرب عذبة بلاء والماعز بينه نعمة وينقله الله عن يديه إليه ويضربه منه ويحيي له أسبابه ، فلذلك تمتع الأمم ولها من الحماة والتواب يدعو إليها ، فإن الأب ليكال عقله يلح الماعية ، والأم لنظر حيا وتصورها تلحظ الحال ، والصبي لجهله يتقصد من أمه دون أبيه

(١) حديث « سيكون عليكم أمراء يغشون ويصلحون الله بهم أكثر ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة « يستلم عليكم أمراء فتعرفون وتتكرمون » ورواه الترمذي بإفظ « سيكون عليكم أمّة » وقال حسن صحيح ، و«لزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر « السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلم من عباده » فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الفکر ، ولولن جاز أو ظلم أوظف الله عليه الوزر وعلى الرعية الصبر » وأما قوله « ويصلحون الله بهم أكثر » فهو أجند بهذا اللفظ ، لا لأنه يؤخذ من حديثين مسعود بن قزح لآله الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عتبة فقالهم الله : امبروا فإن جورا لما كن خبيث سنة خير من هرج شهر ، فإنه سميت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخول - فذكر الحديث في الإمارة الناجية خير من الحرجة » ورواه الطبراني في المعجم بإسناد لا بأس به .

وبأنس إليها وإلى شفتيها ويقدّر الالب عدوّ له ؛ ولو عقل لعلم أن الام عدوّا باطنا في سورة صديق ، لأن منتهى إياه من الحجة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجة ، ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل ، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل ، فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو .

(قصة ثانية) اعلم أن الأسباب الفيزيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها ، فقلبا يصفر خيرها كالسالم والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب ، ولكن تنقسم إلى مانعة أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب ، وإلى ماضرة أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالسالم الكثير والجاه الواسع ، وإلى ما ينافي ضرور نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص ؛ فرب إنسان صالح يلتزم بالمال الصالح وإن كثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع هذه التوفيق لنعمة في حقه ، ورب إنسان يستعصر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستعصره شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه .

(قصة ثالث) اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره ، وإلى مؤثر لغيره ، وإلى مؤثر لذاته ولغيره ، فالأول : ما يؤثر لذاته لا لغيره : كالذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقاءه ، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا انقضاء لها فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة ورامها ، بل تطلب لذاتها . الثاني : ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته : كالدرام والذنانير فإن الحاجة لو كانت لا تقضي بها لكانت هي والحصاة بمثابة واحدة ، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكثرونها ويتصرفوا عليها بالربا ويفنون أنها مقصودة ؛ ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتمهيد الرسول وسراعاته وتفقد ، وهو غاية الجهل والضلال الثالث : ما يقصد لذاته ولغيره : كالصحة والسلامة فإنها تقصد لذاته بربها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى ، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا ، وتقصد أيضا لذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء مالم يتراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة ، فإذا لم يؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو لنعمة ولكن دون الآول ، فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنفدين فلا يوصفان أنفسهما من حيث إنهما جوهرا بأنهما لنعمة ، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان لنعمة في حق من يقصد أمر ليس يمكن أن يتوصل إليه إلا بهما ، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته ، استوى عند الذهب والمدر ، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل وبما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان لنعمة .

(قصة رابعة) اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجليل ، فالذي هو الذي تدرك راحتى الحال ، والنافع هو الذي يفيد في المال ، والجليل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال ؛ والشرور أيضا تنقسم إلى حار وقبيح ومؤلم ، وكل واحد من القسمين ضربان : مطلق ومقيد ، فالطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم والحكمة فإنها نافعة وجيلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة ، وأما في الشر فكالجهل فإنه حار وقبيح ومؤلم ، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنع الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه ، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك نقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات وأبترك

الكبر وذل التمل ، ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة . الضرب الثاني : للمقيد ، وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض ، قرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكلة والسلمة الخارجة من البدن ، ورب نافع قبيح كالخق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع ، فقد قيل : استراح من لا تغل له فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يمين وقت هلاكه ، ورب نافع من وجه ضار من وجه : كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق ، فإنه منازل للمال نافع للنفس في نجاتها . والثافع قسيان : ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإقبال إلى سعادة الآخرة وأغنى بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما ، وإلى ما لا يكون ضروريا كالسكجيين مثلا في تسكين الصغراء ؛ فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه .

(قصة خامسة) اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ ، والذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركتها لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات . أما العقلية فكذلك العلم والحكمة ، إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج ، وإنما يستلذها القلب لا اختصاصه بصفة يعبر عنها بالقل ، وهذه أقل اللذات وجودا وهي أشرفها ، أما قلها فلأن العلم لا يستلذ إلا عالم ، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم ، وما أقل أهل العلم والحكمة ، وما أكثر المتسعين باسمهم والمترسمين برسومهم . وأما شرفها فلأنها لازمة لازول أبدا لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ودائمة لا تمل ، فالطعام يشبع منه فيميل ، وشهوة الرقاق يفرغ منها فتستقل ، والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستقل ، ومن قدر على الشريف الباقي أبد الأبد إذا رضى بالتحسيس القاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله عروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه : أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أهوان وحفظه بخلاف المال ، إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزيد بالإنفاق والمال ينقص بالإنفاق ، والمال يسرق والولاية يعول عنها ، والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل ، فيكون صاحبه في روح الأمن أبدا ، وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبدا ، ثم العلم نافع ولذيذ وجيل في كل حال أبدا ، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة ، ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سماه خيرا في مواضع . وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم . فلما لعدم الذوق فن لم يذق لم يعرف ولم يشفق ، إذ الشوق تبع الذوق ، ولما لفساد أمر جتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمرض الذي لا يدرك حلوة العسل وراه مراً ، ولما لقصور فطنتهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن ، وذلك لا يدل على أنها ليست لذذة ، ولا استطابته اللبن يدل على أنه ألد الأشياء ، فالتناصر من حرك لذة العلم والحكمة ثلاثة ، إما من لم يمس باطنه كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة بانباع الشهوات ، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات : وقوله تعالى (في قلوبهم مرض) إشارة إلى مرض العقول . وقوله عز وجل (لينذر من كان حيا) إشارة إلى من لم يمس حياة باطنة ، وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتي وإن كان عند الجهال من الأحياء ، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان الثانية : لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كذلة الرياضة والتلبة والاستيلاء ، وذلك موجود في الأسد والقر وبعض الحيوانات . الثالثة : ما يشارك فيها سائر الحيوانات كذلة البطن والفرج ، وهذه أكثرها وجودا وهي أخسها ، ولذلك اشترك فيها كل مادي ودرج حتى الديدان والحشرات ، ومن جاوز هذه الرتبة نشبت به لذة العقلية ، وهو

أشدّها تصاناً بالمتخالفين ، فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة ، لاسيّما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله ، وهذه رتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها إلا بزوج استيلاء حب الرياسة من القلب ، وآخر ما يخرج من رموس الصديقين حب الرياسة . وأما شره البطلان والفرج ففسدهما بما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرهما إلا الصديقون : فأما قبحها بالكليّة - حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجاً عن مقدور البشر . نعم قلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلادة الرياسة والتغلب ، ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفقرات فتعود إلى الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حل النفس على العدول عن العدل ، وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام : قلب لا يجب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإنما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه . ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية . وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصناعات البشرية ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالملم والمعرفة . أما الأول فإن كان مكمّلاً في الوجود فهو في غاية البعد . وأما الثاني فالعالم طالفة به . وأما الثالث والرابع فوجودان ولكن على غاية الندور ، ولا يتصور أن يكون ذلك نادراً شاذاً ، وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة ، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام ، فلا يزال يزداد المهدطولاً ويزداد مثل هذه القلوب قلة ، إلى أن تقرب الساعة ويقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإنما يجب أن يكون هذا نادراً لأنه مبادئ ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرثون ، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم ، فكذلك في ملك الآخرة ، فإن الدنيا مرآة الآخرة ، فإنها عبارة عن عالم الشهادة ، والآخرة عبارة عن عالم النيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم النيب ، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة ، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك ، فإنك لا ترى نفسك ، وترى صورتك في المرآة أولاً فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ، فالقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق المعرفة والقلب المتأخر متفهماً ؛ وهذا نوع من الانسكاس ولكن الانسكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم ، فكذلك عالم الملك والشهادة عماك لعالم النيب والملوكوت ، فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملوكوت فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الحق به فقال ﴿ فاعبروا يا أولى الأبصار ﴾ ومنهم من عييت بصيرته فلم يعتبر فأحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتش إلى حسيه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء ناراً من شأنه أن تطلع على الأفتدة ، إلا أن بينه وبين إدراكها حجاباً ، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك ، وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والتار مخلوقتان ، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين ، وعين اليقين لا يسكون إلا في الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين ، فلذلك قال الله تعالى ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين لرون الجحيم ﴾ أي في الدنيا ﴿ ثم لرون عين اليقين ﴾ أي في الآخرة ، فإذا ظهر أن القلب الصالح للآخرة لا يكون إلا عزيراً كالشخص الصالح في الدنيا .

(قصة سادسة) حاوية لمجامع النعم : اعلم أنّ النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل

الغاية : أما العاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : جاء لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهي النعمة الحقيقية ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عيش إلا عيش الآخرة ^(١) ، وقال ذلك مرة في الشدة تسلياً للنفس ، وذلك في وقت حزن الخندق في شدة الضر ؛ وقال ذلك مرة في السرور منّا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا ؛ وذلك عند إحدائق الناس به في حجة الوداع ^(٢) . وقال رجل : اللهم إني أسألك تمام النعمة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وهل تعلم ما تمام النعمة ؟ قال : لا . قال : تمام النعمة دخول الجنة ^(٣) .

وأما الوسائل فتقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس ؛ وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني ، وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب للطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة ؛ وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبينها لحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية ، فهي إذن أربعة أنواع : (التوفيق الأول) وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق ، وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله ، وإلى علوم المعاملة . وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين : ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال تعالى (أن لا تظنوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ، فمن خصى نفسه ليزيل شهوة الشكاح ، أو ترك التكساح مع القدرة والأمن من الآفات ، أو ترك الأكل حتى يصفى عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان . ومن انهك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان ، وإلما العدل أن يغلو وزنه وتقديره عن العطين والحسران فتعتمد به كفتا الميزان ، فإذن الفضائل الخاصة بالنفس الخمسة إلى الله تعالى أربعة : علم مكاشفة ، وعلم معاملة ، وعفة ، وعدالة . ولا يمت هذا في غالب الأمر إلا بالتوفيق الثاني وهو الفضائل البدنية وهي أربعة : الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر ولا تفتأ هذه الأمور الأربعة إلا بالتوفيق الثالث وهي النعم الخارجة للطيفة بالبدن وهي أربعة : المال والأهل ، والجاه ، وكرم العشيرة ، ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالتوفيق الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية النافعة وهي أربعة هداية الله ، ورشده ، وتأييده . فجميع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجلة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة أبنت إلا بهما ، فليس للإنسان إلا ما سعى وليس لأحد في الآخرة إلا ما زود من الدنيا ، فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورية ؛ وأما الحاجة الثقافية على الجلة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل ، فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم النافعة .

فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشيرة ؟ فأعلم أن هذه الأسباب جارية بحرى الجناح المبلغ والآلة المسبلة للقعود . أما المال فالفقير في طلب العلم والكالد ليس

- (١) حديث قوله عند خلع الخندق « لا عيش إلا عيش الآخرة » متفق عليه من حديث أس .
- (٢) حديث قوله في حجة الوداع « لا عيش إلا عيش الآخرة » رواه البخاري ومسلم ، والمالك متصل وصحه ، وتقديمه في الحج
- (٣) حديث قال رجل : اللهم إني أسألك تمام النعمة ... الحديث ، أخرجه الترمذي من حديث معاذ بن عبد الله بن

له كفاية : كساع إلى الميخا بغير سلاح ، وكبازى يروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : نعم المال الصالح للرجل الصالح ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : نعم العون على تقوى الله المال ^(٢) ، وكيف لاومن عدم المال صار مستغرق الاوقات في طلب الاوقات وفي تهية اللباس والسكن وضرورات المعيشة ، ثم يتعوض انواع من الاذى تشغله عن الذكر والتفكير ولا تتدفع لإصلاح المال ، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفائة الخيرات .

وقال بعض الحكماء - وقد قيل له ما التمس ؟ فقال : الفنى فأنى رأيت الفقير ليعيش له . قيل : زدنا ! قال : الامن ، فأنى رأيت الخائف ليعيش له . قيل : زدنا ! قال : العافية ، فأنى رأيت المريض ليعيش له . قيل : زدنا ! قال : الشباب ، فأنى رأيت الهرم ليعيش له . وكان ما ذكره إشارة إلى نعم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : من أصبح معافى في بدنه آمنًا في سربه عنده قوت يومه ، فكانما حيزت له الدنيا بحذافرها ^(٣) ، وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما ، إذ قال صلى الله عليه وسلم : لم العون على الدين المرأة الصالحة ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم في الولد : إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ... الحديث ، ^(٥) وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب الكساح . وأما الآداب فهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل العين والأيدى فيتيسر له بسببهم من الأمور الدينية المهمة في دينه ما لو انفرد به لطاق شغله ، وكل ما يفرغ قلبك من ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذن نعمة . وأما الز والجاه ، فيه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضعف ، ولا يستغنى عنه مسلم فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يبدؤش عليه عمله وفراغه ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله ، وإنما تتدفع هذه الشواغل بالز والجاه ، ولذلك قيل : الدين والسلطان توأمان . قال تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم بعضا لفسدت الأرض ﴾ ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب ، كما لا معنى للنسب إلا ملك الدراهم ، ومن ملك الدراهم تسخرت له أبواب القلوب لدفع الأذى عنه ، فكان يحتاج إلى سقف يدفع عنه المطر ، وجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته ، فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وعلى هذا التصديكان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه ، وكذلك علماء الدين لاعل قصد التناول من خزانهم والاستئثار والاستكثار في الدنيا بتأبيهم ، ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ويمكن في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجهاه كانت أقل من نعمة عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الحرب والهجرة ^(٦)

(١) حديث « نعم المال الصالح للرجل الصالح » رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في حديث عمرو بن العاص بسند جيد .
(٢) حديث « لم العون على تقوى الله المال » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن النسكر من جابر . ورواه أبو القاسم البزوى من رواية ابن النسكر مرسلا : ومن طريقه رواه الفضاض في مسند الصباح هكذا مرسلا .
(٣) حديث « من أصبح معافى في بدنه آمنًا في سربه ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، من حديث عبيد الله بن عمن الأضرارى ، وقد تقدم .
(٤) حديث « لم العون على الدين المرأة الصالحة » لم أجده له لسانا بولس من حديث عبد الله بن عمرو . الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .
(٥) حديث « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وتقدم في الكساح .
(٦) حديث ما ناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الحرب والهجرة . رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت لئن لم صلى الله عليه وسلم : لم أكن عليك يوم أحد من يوم أحد » قاله : لقد لقيت من فوقك وكان أشد ما لقيت يوم البصرة إذ عرضت نفسى على ابن عبد المطلب ... الحديث ، ولترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أمه : قد أختفى في الله وما يخاف أحد =

فإن قلت : كرم العشرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول : نعم ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش ^(١) » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكفاء ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن » فقيل : وما خضراء الدمن ؟ قال « المرأة الحسناء في الثبث السود ^(٤) » فهذا أيضا من النعم ولست أغني عن الانتساب إلى الظلة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالمعلم والعمل .

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنية ؟ فأقول : لاختفاء بقية الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أفضل السمادات طول العمر في طاعة الله تعالى ^(٥) » وإنما يستقر من جلته أمر الجلال ، فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات ، ولعمري الجلال قليل الفناء ولكنه من الخيرات أيضا ؛ أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها ، وأما في الآخرة فن وجهين (أحدهما) أن التيسير مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجليل إلى الإجابة أقرب وجهه في الصدور أوسع ، فكانه من هذا الوجه جناح مبلغ كماله والجاه ، إذ هو نوع قدرة ، إذ يقدر الجليل الوجه على تسخير حاجات لا يقدر عليها القبيح ، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها . والثاني : أن الجلال في الأكثر يدل على فضيلة النفس ؛ لأن نور النفس إذا تم إشرافه تأدى إلى البدن ، فالنظر والنخبر كثيرا ما يتلازمان ، ولذلك عزل أصحاب القراسة في معرفة مكالم النفس على هيات البدن فقالوا : الوجه والعين مرآة الباطن . ولذلك يظهر فيه أثر التعصب والسرور والنعم ، ولذلك قيل : طلالة الوجه عنوان مافي النفس . وقيل : مافي الأرض قبيح إلا وجهه أحسن مافيه . واستعرض المأمون جيشا ففرض عليه رجل قبيح ، فاستعطفه فذا هو ألكن ، فأسقط اسمه من الديوان وقال : الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة ، أو على الباطن فصباحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير عند صباح الوجوه ^(٦) » وقال عمر

« ولقد أوديت في الله وما يؤذي أحد وقد أتى على ثلاثون من بين يرمي وليه ومالي وليلالطام يأكله فوكبد لا شيء يواريه أبطله » قال الترمذي : معنى هذا حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال . والبخاري عن عروة قال : سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المعركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت عتبة بن أبي سفيان جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على موضع وداه في منه نطفه ختفا خديها ، جاء أبو بكر فدفعه عنه ... الحديث . ولابزار وأبي بلى من حديث أس قال : لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه ، فلما أبو بكر جلى بلى بنادى : ويلكم أقتلون رجلا أن يقول ربي الله . واستاده صحيح على شرط مسلم : (١) حديث « الأئمة من قريش » رواه اللذان والمأكلين حديث أس بإسناد صحيح (٢) حديث « كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم . هذا معلوم نفروى مسلم من حديث (٣) حديث « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش طه ، واصطفاني وأنا » روى الأئمة صحيحاً . (٤) حديث « إياكم وخضراء الدمن » تقدم فيه أيضاً . (٥) حديث « أفضل للسادة طول العمر في عبادة الله » غريب بهذا اللفظ ، ولترمذي من حديث أبي بكر أن رجلاً قال :

(٦) حديث « اطلبوا الخير عند حسن الوجوه » أخرجه أبو بلى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت عبد بن ثابت بن سابع من أمها عاتكة ، وخيرة وأميها لا أعرف خلفاً . ورواه ابن حبان من وجه آخر في القضاء ، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر ، وله طرق كلها ضعيفة .

رضي الله تعالى عنه : إذا بعتم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم . وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أو لاما بالإمامة ، وقال تعالى ممثلا بذلك (وزاده بسطة في العلم والجسم) ولنا نغنى بالجمال ما يترك الشهرة فإن ذلك أوثق ، وإنما نغنى به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتماصف خلفه الوجه بحيث لا يثير الطباع عن النظر إليه .

« فإن قلت : فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز التميم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه ، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكذا العلماء . قال تعالى (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) وقال عز وجل (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) وقال على كرم الله وجهه في ذم النسب : الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه . وقيل : المرء بنفسه لأبائه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا ؟ فاعلم أن من يأخذ العلوم من الانفاظ المنقولة المؤتولة والسمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب مالم يتبدى بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه ، ثم ينزل الثقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى ؛ فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسيلا إلى جحدها ، إلا أن فيها فتنا وغشوف ؛ فثال المال مثال الحياة التي فيها تزيان نافع وسم نافع ، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سبها وطريق استخراج تزيانها النافع كانت نعمة ، وإن أصابها السوادى التي فهي عليه بلاء وهلاك ، وهو مثل البحر الذي تحتها أصفاف الجواهر واللكل ، فمن ظفر بالبحر فإن كان طالما بالسباحة وطريق النوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهلا بذلك فقد هلك ، فذلك مدح الله تعالى المال وصيحه خيرا ، ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم العون على تقوى الله تعالى المال » وكذلك مدح الجاه والدر ، إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله وحببه في قلوب الخلق ، وهو المعنى بالجاه ، ولكن المنقول في مدحهما قليل ، والمنقول في ذم المال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب ، وإنما كثر هذا وقل ذلك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق النوص في بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل الشور على جواهره ، ولو كانا في أعينهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، ولا أن ينضاف إليها النبي كما كان لسليلان عليه السلام ؛ فالتناس كلهم صبيان والأموال حيات والآنياء والمآفون معزومون ، فقد يضرب الصبي مالا يضرب المعزم . نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده . وأخذ الحياة إذا رآها ليذب بها فيهلك ، فله غرض في التزيان وله غرض في حفظ الولد ، فوجب عليه أن يزن غرضه في التزيان بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن التزيان ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فوجب عليه أن يهرب عن الحياة إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويمتدح أن فيها سببا قاتلا لا ينجز منه أحد ولا يحدته أصلا بما فيها من نفع التزيان ، فإن ذلك ربما ينزوه فيقدم عليه من غير تمام المعرفة . وكذلك النواص إذا علم أنه لو غاص في البحر يجرأ من ولده لأبعمه وهكذا .

(١) حديث ذم المال ولله . أخرجه الترمذي من حديث كعب بن مالك « ما ذنبا جالان أرسلا في غم بأفسد لما من حب المال والفرق له به » وقد تقدم في ذم المال والبخل .

فواجب عليه أن ينجو العبي سائل البحر والبر . فإن كان لا ينجو العبي يجرى الزجر مهما رأى والده يجرى حول الساحل . فواجب عليه أن يبعد عن الساحل مع العبي ولا يقرب منه بين يديه . فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغنياء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم مثل الولد لولده »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما تهافتون على النار تهافت القراش وأنا أخذ بحجزكم »^(٢) ، وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن الهلاك ، فإنه لم يمتوا إلا لذلك ، وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت ، فلا جرم اقتصروا على ذر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه ، فإن الإنفاق فيه الترياق ، وفي الإمساك السم ، ولو فتح الناس باب كسب المال ورغبوا فيه لساوا إلى سم الإمساك ورغبوا عن ترياق الإنفاق ، فذلك فحش للأموال ، والمعنى به تضييع إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذتها ؛ فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفائض إلى الخيرات فليس بمذموم ، وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله ؛ فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفاء فلا بأس بالاستكثار . وقوله عليه الصلاة والسلام « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب »^(٣) ، معناه لا تنسك خاصة ولا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة . ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بقدره استأذنه عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه في أن يخرج من جميع ما يملكه ، فأذن له فزل جبريل عليه السلام ، وقال : مره بأن يعلم المسكين ويسكو العارى ويرى الضيف^(٤) ... الحديث فلذا التتم النبوية مشوبة قد امتزج دوافعها بلباسها ومرجوها بخوفها ونعيمها بعضها ؛ فن وثق بصيرته وكال معرفته أنه أن يقرب منها متبعا ثامها ومستخرجا دواها ومن لا يتق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار ، فلا تعدل بالسلامة شيئا في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وحده لطريقه .

« فإن قلت : فما معنى التتم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد ؟ فأعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحب ، وهو عبارة عن التأليف والتلقيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره ، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل لخصص بين مال إلى الباطل عن الحق ، وكذا الارتداد ، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله لفتي فأكثر ما ينجي عليه اجتاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها ، لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخره

- (١) حديث « إنما أنا لكم مثل الولد لولده » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله « لولده » وقد تقدم .
- (٢) حديث « إنما تهافتون على النار تهافت القراش وأنا أخذ بحجزكم » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلطفاً من مثل الناس ، وقال مسلم « ومن أمث كمثل رجل استودع نارا فجئت أبواب القراش يمين فيه فأنا أخذ بحجزكم وأنت تهافتون فيه »
- (٣) أخرجه ابن ماجه والمالك من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال « بنية » وقال « مثل زاد الراكب » وقال صحيح الإسناد قلت : هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسين وقال ابن ماجه « عهد إلى أن يمكن أحدكم من زاد الراكب » .
- (٤) حديث استأذنه عبد الرحمن بن عوف أن يخرج من جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بقدره فأذن له فزل جبريل فقال : مره أن يعلم المسكين ... الحديث أخرجه المسالك من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الإسناد ، قلت : كلا ، فيه ظن من أبي مالك ضيف جليا .

ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحاً فمن أين ينفعه مجرد الإرادة ؟ فلا قاعدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية ، ولذلك قال تعالى ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكني منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى ، أي بهدايته ، فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا » ، وللهادية ثلاث منازل (الأولى) معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى ﴿ وهديناه للتبدين ﴾ وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعباده بالعقل وبعضه على لسان الرسل ، ولذلك قال تعالى ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا لعمى على الهدى ﴾ فأسباب الهدى هي الكتاب والرسل وبصائر العقول ، وهي مبدولة ولا يمنع منها إلا الخسد والكبر وحسب الدنيا ، والأسباب التي تسمى القلوب التي تسمى القلوب وإن كانت لا تسمى الأبصار ، قال تعالى ﴿ فأنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور ﴾ ومن جملة المعميات : الإلف والمادة وحسب استصحابها ، وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ الآية . وعن الكبر والخسد العبارة بقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وقوله تعالى ﴿ أبشرا منا واحداً نتبعه ﴾ فهذه المعميات هي التي منعت الاعتناء ، والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال ، وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ والذين اعتدوا زادهم هدى ﴾ والهداية الثالثة وراء الثانية : وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة ، فيبتدى بها إلا ما لا يبتدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات ؛ وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهة تعالى ، فقال تعالى ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ وهو للمسمى حياة في قوله تعالى ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ﴾ والمعنى بقوله تعالى ﴿ أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وأما الرشد فنحن به الناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفقره عما فيه فساد ، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عاين ﴾ فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركاً لها ، فالنصي إذا بلغ خيراً يحفظ المال وطرق التجارة والاستقامة ولكنه مع ذلك يذر ولا يريد الاستقامة لا يسمى رشيداً لانعدام هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك دواعيته ، فكمن من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية ويميزها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد ، فالرشد بهذا الاعتبار أكل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت ، فإن الهداية بمجرد ما لا تمكن ، بل لابد من هداية محركاً للداعية وهي الرشد والارشاد لا يمكن ، بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المرامد التي نبشت للداعية إليه فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تبيين الداعية للتسقيط وتنحيزه ، والتسديد إعانة ولصرة بتحرك الأعضاء في صوب السداد ، وأما التأيد فكانه جامع لكل ، وهو عبارة عن تقوية أسره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج ، وهو المراد بقوله عز وجل ﴿ إذ أبدلك بروح القدس ﴾ وتقرب منه العصمة ، وهي

(١) حديث « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله » متفق عليه من حديث أبي هريرة « من يدخل أحكم عمل الجنة » قالوا ولأنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا ولا أنا أن يتخذني الله بفضل منه ورحمة » وفي رواية لمسلم « ما من أحد يدخله عمل الجنة .. الحديث » وأما عليه من حديث عائشة ، وأفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

عبادة عن وجود الهى يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحرى الخير ويتجنب الشر يصير كائن من باطنه غير محسوس ، وإليه عن بقوله تعالى (ولقد سمت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) فهذه هى جماع النعم ، ولن تذهب إلا بما يتقوله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعى والقلب البصير للرأى المتواضع والمعلم الناصح والمسال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذى يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء ، ويستدعى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا ، وتستدعى تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهى بالآخرة إلى دليل المتحيزين وملجأ المضطربين وذلك رب الآداب ومسبب الأسباب ، وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وبالله التوفيق .

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخرجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جئنا النعم في ستة عشر مشربا ، وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة ، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لا بد لها من جسم متحرك هو آلاتها ، ولا بد لها من قدرة على الحركة ، ولا بد من إرادة الحركة ، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ، ولا بد للأكل من مأكل ، ولا بد للمأكل من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صانع يصحله ؛ فلنذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادات ، ثم أسباب القدرة ، ثم أسباب المأكل على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء .

الطرف الأول : في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والحديد والتماس وسائر الجواهر التي لا تنمى ولا تنفذ ؛ فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض ، وهى له آلات ، فيها يجتذب الغذاء وهى العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ، ثم تفلظ أصولها ، ثم تنشعب ، ولا تزال تستدق وتنشعب إلى عروق شعيرية تنسب في أجزاء الورقة حتى تئيب عن البصر ، إلا أن النبات مع هذا السكال ناقص ، فإنه إذا أحرزه غذا يساق إليه ويمس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من وضع آخر ، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب والاتصال إليه والنبات عاجز عن ذلك ، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء ، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هى آلات الإدراك ، فأولها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار عرقرة أو سيف جارح تحص به فتهرب منه ، وهذا أول حس يخلق للحيوان ، ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس ، لأنه إذا لم يحس أصلا فليس بحيوان ، وأما حواس أخرى من الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويمسه ، فإن الإحساس بما يمد منه إحساس أتم لا محالة ، وهذا الحس موجود لكل حيوان ، حتى الدودة التي في الطين فإنها إذا غرغ فيها لمرة انقبضت للهرب ، لا كالثبات فإن النبات يقطع فلا يتقبض إذ لا يحس بالقطع ، إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت

نافعاً كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يسبب بك فتجذب به إلى نفسك فقط ، فاقترعت إلى حس تدرك به ما بعد عنك ، تخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدرى أنها جاءت من أى ناحية ، فحتاج إلى أن تطوف كثيراً من الجوانب فربما تثر على الغذاء الذى شممت وريحه ، وربما لم تثر فتكون فى غاية التقصان لولم يخلق لك إلا هذا ، تخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقتصد تلك الجهة بعينها ، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً ، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدواً لا حجاب بينك وبينه ؛ وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب المدق فتخرج عن الحرب ، تخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئاً حاضراً ، وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع ، فاشتدّت إليه حاجتك تخلق لك ذلك ، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات ، وكل ذلك ما كان يتيقن لولم يكن لك حس الذوق ، إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذب ، وربما يكون ذلك سبب جفافها ، ثم كل ذلك لا يكتفيك لولم يخلق في مقدّمة دماغك إدراك آخر يسمى حساً مشتركاً تتأذى إليه هذه الحسوسات الحس ويجتمع فيه ، ولولاه لبال الأمر عليك ؛ فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلاً فوجدته مزاً غالياً لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانياً لولا الحس المشترك ، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتع والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة ، فلا بد من ما كتمت جمع عند الصفرة والمرارة جميعاً ، حتى إذا اردت الصفرة حكم أنه مر فيجتمع عن تناوله ثانياً ، وهذا كله تشارك فيه الحيوانات ، إذ لشاء هذه الحواس كلها ؛ فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصاً ؛ فإنّ البهيمة يحتمل عليها فتؤخذ فلا تدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيدت ، وقد تلقى نفسها بغير ولا تدرى أن ذلك يهلكها ، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثاقب الحال فتمرض وتموت ، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر ، فأما إدراك العواقب فلا ، فيزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى وهى أشرف من الشكل وهو العقل ، فيه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل ، وبه تدرك كيفية طيب الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك في الأكل الذى هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل ، وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عالمه ، وعند ذلك تغلب فائدة الحواس الخمس في حقلك ، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به ، فواحدة منها بأخبار الألوان ، والآخرى بأخبار الأصوات ، والآخرى بأخبار الروائح ، والآخرى بأخبار الطعوم ، والآخرى بأخبار الحز والبرد والخشونة والملاسه واللين والصلابة وغيرها ، وهذه الرد والجواسيس يقتصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك ، والحس المشترك قاعد في مقدّمة الدماغ ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهى محتومة ويسلمها ، إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها ؛ فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذى هو الأمير والملك سلم الإتيان إلى عتومة ، فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبسبب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود وهى الأعضاء : مرة في الطلب ومرة في الحرب ومرة في إنعام التدبيرات التى تمنّ له ،

فهذه سبابة لعمدة الله عليك في الإرادة كالت ، ولانظن أنا استوفيناها ؛ فإن الحواس الظاهرة هي بعض الإرادات ، والبصر واحد من جملة الحواس ، والعين آلة واحدة له ، وقد ركب العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية ، وبعض الأغشية كأنها نسج المتكسوت وبعضها كالشمعة ، وبعض تلك الرطوبات كأنه يياض البيض وبعضها كأنه الجمد ، ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتعبير وتركيب ، ولو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم ، فهذا في حس واحد ، ففسر بحاسة السمع وسائر الحواس ؛ بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة ، مع أن جملة لا تزيد على جيزة صغيرة ؛ فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجايبه ، فهذه مرائز إلى نعم الله تعالى بخلق الإرادات .

الطرف الثاني : في أصناف النعم في خلق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحيلك على الحركة لكان البشر معطلا ، فكمن مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناول ، فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه ، فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافيك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كرامة تطلب بالشهوة وتهرب بالكرامة ؛ خلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطانها عليك وكلها بك كالتناهي الذي يضطرك إلى تناول وتقتدى فتبقي بالغذاء ، وهذا مما يشارك فيه الحيوانات دون الثبات ، ثم هذه الشهوة لو لم تكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكك نفسك ، خلق الله لك الكرامة عند الشبع لترك الأكل بها ، لا كالزعر فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى ، وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدئك خلق لك شهوة الجماع حتى تتجمع فيبقى به لسلك ، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق دم الحيض ، وتآليف الجنين من المني ودم الحيض ، وكيفية خلق الأثنين والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة من التراب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث ، وكيفية إدارتها في أطوار خلفها مضفة وعلقة ثم عظاما ودما ، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس وبد ورجل ويطن وظهر وسائر الأعضاء : لتقصين من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل السبب ، فضلا عما نراه الآن ، ولكننا لسنا زبد أن نتعرض لإلا نعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام ؛ فلنذكر شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يكفينا ، فإنه تأنيك المهلكات من الجوانب ، فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، لبقيت عرضة للأفات ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء ، فإن كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، ثم هذا لا يكفينا إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلى إلا ما يضر وينفع في الحال ، وأما في المآل فلا تكن في هذه الإرادة ، خلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعترف للموافاق ، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل ، إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تفرضك لا تشيئك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة ، وهذه

الإرادة أفردت بها عن الهائم إكراماً لئلي آدم كما أفردت بمعرفة العواقب ، وقد سمينا هذه الإرادة باعاً دنيهاً ، وفصلناه في كتاب العبر تفصيلاً أوفى من هذا .

الطرف الثالث : في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك ، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والحرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والحرب ، فكمن من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد روحه ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لقلج وغدر فمهما ، فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً وبمقتضى الكرامة هرباً ، فذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها ؛ فنها مامو الطلب والحرب كالرجل للإنسان والجنح للطير والقوائم للذئب ، ومنها مامو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان ، وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافاً كثيراً ؛ فنها ما يكثر أعداؤه ويعد غذاءه فيحتاج إلى سرعة الحركة لخلق له الجنح لطير بسرعة ، ومنها ما خلق له أربع قوائم ؛ ومنها ما له رجلان ، ومنها ما يدب وذكرك ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غير ما نقول : ووظيفتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تتكفي ما لم تتمكن من أن تأخذه ؛ فافتقرت إلى آلة باطنة ؛ فأتمم الله تعالى عليك خلق اليدين وهما طوليتان تمتدتان إلى الأشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتد وتنتهي إليك فلا تكون كتبتة منصوبة ؛ ثم جعل رأس اليد عريضاً يخلق الكف ؛ ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع وجعلها في صفتين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ، ولو كانت بجمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعا وضعا وإن بسطتها كانت لك بحرفة وإن ضممتها كانت لك مغرفة ؛ وإن جمعتها كانت لك آلة الضرب ، وإن اشترتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ، ثم خلق لها أطرافاً وأسند إليها رموس الأصابع حتى لا تفتش وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برموس أطرافك ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما يصل إلى المعدة وهي في الباطن ، فلا بد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه ، فجعل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة ، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتييسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام ، تخلق لك اللحيين من عظمتين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام لطناً ، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك ، فقسم الإنسان إلى عريضة طواحين كالأضراس ، وإلى سادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالانياب ، ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلاً بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرمح ، ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحد ماعلى الآخر مثل تصفيق اليدين مثلاً ، وبذلك لا يتم الطحن . فجعل اللحي الأسفل متمركزاً حركة دورية ، واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحي صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحي الذي صنعه الله تعالى ، إذ يدور منه الأسفل على الأعلى ، فسيبانه ما أعظم شأنه وأعر سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام في فمك فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان ، أو كيف تستجزء الأسنان إلى نفسها ، وكيف يتصرف باليد داخل الفم ؟ فانظر كيف أتمم الله عليك خلق اللسان ، فإنه يطفو في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الإنسان بحسب الحاجة كالبحرفة التي ترد الطعام إلى الرحي ،

هذا مع ما فيه من فائدة التدفق وجماع قوة الطلق والحكم التي لنا لطلب بذكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطلحته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزل إلى الحلق ينوع وطوبى ، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى يتمجن به الطعام ، فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فأهلك ترى الطعام من بعد فيثور الحنك في الخدمة وينصب اللاب حتى تتحب أشدائك والطعام بعد بعيد عنك ، ثم هذا الطعام المطحون للتمجن من يرصه إلى المعدة وهو في الثم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد في المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام ، فانظر كيف هب الله تعالى المريء والخنجر وجعل على رأسها طبقات تفتح لتأخذ الطعام ثم تطبق وتضغط حتى يتقلب الطعام بصفعة فيؤى إلى المعدة فيدهل المريء ، فإذا ورد الطعام على المعدة وهو مشرب وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحا وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزائه ، خلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتلفق عليه الأبراب ، فلا زال لا يثا فيها حتى يتم الهضم والضمج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة ، إذ من جانبا الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ، ومن قدام الثراب ، ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائلا متشابها يصلح للتغذ في تجاوب المروق ، وعند ذلك يشبه ماء الصمير في تشابه أجزائه وركته ، وهو بعد لا يصلح للتغذية ؛ خلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجرى من المروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فيأتي إلى الكبد ، والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينشر في أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصفيه بلون الدم ، فيستقر فيها ريثما يحصل له لفضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء ، إلا أن حرارة الكبد هي التي تضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ : إحداها شبيهة بالبردى والعكر وهو الخلط السوداء ، والأخرى شبيهة بالبرغوة وهي الصفراء ، ولولم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء ، خلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عقلا مدودا إلى الكبد داخل في تجويفه ، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداء ، فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ووطوبى لما فيه من المائية ، ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعدا إلى الأعضاء ؛ خلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عقلا طويلا إلى الكبد . ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عقنهما ليس داخل في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطائفة من حدة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد ، إذ لا يجذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من البروق ، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نقيا من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساما ، وشعب كل قسم بشعب ، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا ، فيجرى الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كمروق الأوراق والأشجار بحيث لا تدرك بالابصار ، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ، ولو حلت المرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمة ، وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداء حدثت الأمراض السوداء كالحمى والجذام والماليخوليا وغيرها ، وإن لم تدفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره . ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الحسية : أما المرارة فلأنها تجذب بأحد عتها وتقذف

بالنقى الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في نقل الطعام رطوبة مزلفة يحدث في الأمعاء لنوع يحركها للدفع، فتتضبط حتى يندفع الثقل وينزلق وتكون صفته لذلك . وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة لإحالة يحصل بها فيه حوصة وقبض ، ثم يرسل منها كل يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بمحوصته وبنيها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثقل ، وأما الكلىة فإنها تقتضى بها في تلك للسائمة من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل . ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضواريب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها - لطال الكلام ، وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولا أمور أخرى سواء ، بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والنظ وكثرة الانقسام وقلته ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو لفتان أو لثلاث أو أربع إلى عشرو زيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جعلها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن ، هلكت يامسكين ، فانظر إلى لمة الله تعالى عليك ألا لتتوى بعدما على الشكر ، فإنك لا تعرف من لمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أحسنها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والمار أيضاً يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجمع ويستمنع فيمنع ويرجع ، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الممار فكيف تقوم بشكر لمة الله عليك ؟ وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط ، فقس على الإجمال ما أمثله من جملة ما عرفناه حذرا من التعليل ، وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر ، إلا أن من علم شيئاً من هذا أدرك شئ من معاني قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها بخيار لطيف يتصاعد من الأخطاط الأروية ومستقر القلب ، ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضواريب فلا ينتهى إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء محتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها ، كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه، ولكنه جعل السراج سبباً له بمكنته ؛ وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح ؛ وعمله القلب ، ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالسرجة ، والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفنتيلة ، والنزاع له كالزيت ، والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء السراج في جملة البيت وكان السراج إذا انقطع زنه انطفأ فسراج الروح أيضاً ينطفئ مهما انقطع غذاؤه ، وكان الفنتيلة قد تحترق فتصير ماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ " السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تقبض به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفئ " مع وجود الغذاء ؛ فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت ولا الفنتيلة النار به ؛ وكان السراج تارة ينطفئ بسبب من داخل كما ذكرنا وتارة بسبب من خارج كرجع عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل ، وكان انطفاء السراج بقاء الزيت أو بفساد الفنتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا لأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر ، فكذلك انطفاء الروح ، وكان انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب ، فكذلك انطفاء الروح ؛ وكان السراج إذا انطفأ أعظم البيت كله فالروح إذا انطفأ أعظم

البدن كله وفارقه أنواره التي كان يستفيد منها من الروح وهي أنوار الإحساسات والقدرة والإرادات وسائر ما يجتمعها معنى لفظ الحياة ، فهذا أيضا من وجوب العالم آخر من عوالم نعم الله تعالى ومحاسن صنعه وحكمته ليعلم أنه لو كان البحر مدادا لكتبت ربي لفند البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي) عز وجل : فتبصرا لمن كفر بالله تعسا ؛ وصحنا لمن كفر نعمته صحفا .

فإن قلت : فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الروح فلم يرد عن أن قاله قل الروح من أمر ربي ^(١) ، فلم يصفه لهم على هذا الوجه . فأعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح ، فإن الروح يطلق لعمان كثيرة لا نطول بذكرها نحن إنما وصفنا من جعلتها جسما لطيفا تسميه الأطباء روبا ، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سيرانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به ، حتى إذا خدر بعض الأعضاء علوا أن ذلك لوقوف سدة في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة ، فإن هذا الجسم بلطفه يتدفق شبك النصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقي إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل . وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن ، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال : هو أمر رباني كما قال تعالى (قل الروح من أمر ربي) والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تحرير فيها عقول أكثر الخلق ، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات ، وتزول في ذكر مبادئ وصفها معاد العقول القليلة بالجواهر والعرض المحبوسة في ضيقها ، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية ، نسيته إلى العقل نسبة العقل إلى الهم والخيال ، وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا ، فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد ، فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ماوراءها ؛ لأن ذلك طور لم يبلغه بعد ، وإنه لما شريف ومشرب عذب وربة عالية ، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين ، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد ، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ، ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب ، وعلى أول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني ؛ فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة واستحال أن يصل للميدان ، فكيف بالانتباه إلى ماوراءه من المشاهدات العالية ، ولذلك قيل : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وإن صادف هذا خزنة الأطباء ؟ ومن أين للطبيب أن يلاحظه ؟ بل المعنى المسمى روبا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطلي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك ، ولا يشك في أن خطأ فاحش ، وهذا الخطأ أخش منه جثا ، ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تترك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسول صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه ، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ، ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ، ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته ، أما نسبته في قوله تعالى (من أمر ربي) وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى (يا أيها النفس

(١) حديث : أنه سئل عن الروح فلم يرد على أن قال « الروح من أمر ربي » متفق عليه من حديث ابن مسعود ، وقد اهتم في شرح عجائب القلب .

المطعمة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي () ولترجع الآن إلى الغرض ، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل ، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل .

الطرف الرابع : في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة

وتصير صالحة لأن يصلحها الأدنى بعد ذلك بصنعه

اعلم أن الأطعمة كثيرة ، والله تعالى خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تنتهي ، وذكر ذلك في كل طعام بما يطول ، فإن الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية ، فلتأخذ الأغذية فلإنها الأصل ، ولتأخذ من جهتها حبة من البر ولتدع سائر الأغذية فنقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيته وبقيت جالما ، فأوحى بك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تنبت نباتا جاتك المخلق الله تعالى في حبة الحبة من القوى ما يتنبت به كما خلق فيك ، فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاعتناء لأنه يتنبت بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تقتدي أنت وتجذب ، ولستنا نطلب في ذكر آلات النبات واجتذاب الغذاء إلى نفسه ، ولكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أن الخشب والتراب لا ينديك بل يحتاج إلى طعام مخصوص ، فكذلك الحبة لا تمتد إلى بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص ، بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ، وبجرد الهواء لا يصلح لغذائها ، ولو تركتها في الماء لم تزد ، ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد ، بل لا بد من أرض فيها ماء يخرج مائها بالأرض فيصير طينا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صبنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعينا وقصبا . وزيتونا ونظلا ... ﴾ الآية ، ثم لا يكفي الماء والقراب ، إذ لو تركت في أرض ندية صلبة عراكة لم تنبت لفقد الهواء ، فيحتاج إلى تركها في أرض رطبة متخلطة يتنقل الهواء إليها ، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بهز عنف على الأرض حتى ينفذ فيها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وإنما إلحاقها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ، ثم كل ذلك لا يفيئك لو كان في برد مفرط وشتا شات ، فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف ، فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة ، فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد ، إذ يحتاج للماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي ، فانظر كيف خلق الله البحار ولج العيون وأجرى منها الأنهار ، ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها ، فانظر كيف خلق الله تعالى النسيم وكيف سلط الريح عليها لتسوقها لإذنه إلى أقطار الأرض وهي محبب حوامل بالماء ، ثم انظر كيف يرسله مدرازا على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة ، وانظر كيف خلق الجبال حافظة للياه تنفجر منها العيون تدريجا ، فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي ، ونعم الله في الجبال والسهاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها ، وأما الحرارة فلإنها لا تنصل بين الماء والأرض وكلهما باردان ، فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخرة للأرض في وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد ، والحر عند الحاجة إلى الحر ، فهذه إحدى حكم الشمس - والحكم فيها أكثر من أن تحصى ، ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في القواكة انعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من غاصيته الترطيب كما جعل من غاصية الشمس التسخين ، فهو ينضج القواكة ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ، ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر

الكواكب عليها لكانت قاسدة نافثة ، حتى إن الشجرة الصغيرة تسد إذا ظللتها شجرة كبيرة ، وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتقلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكذا يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا ، ولا تطول فيها لاطمئح في استقصائه ، بل تقول : كل كوكب في السماء فقد بحر لنوع فائدة كما سحرت الشمس للشمس والقمر للترطيب ، فلا يغزو واحد منها عن حكم كثيرة لان في قوة البشر إحسانها ، ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ وقوله عز وجل ﴿ وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما إلا عبادين ﴾ وكذا أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة ، والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تآمران أعضاء بدنك في جملة بدنك ، وشرح ذلك يطول ، ولا ينبغي أن نفلن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة - مخالف للشرح لما ورد فيه من النبي عن تصديق المتجدين وعن علم النجوم ^(١) ، بل المنهى عنه في النجوم أمران (أحدهما) أن تصدق بأنها فاعلة لأنارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها : وهذا كفر (والثاني) تصديق المتجدين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها ، لأنهم يقولون ذلك عن جهل ، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اتدرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يشتر فيه الصواب عن الخطأ ؛ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لأنار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق ، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قاذح في الدين ، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك : أخرج الثوب وابسه فإن الشمس قد طلعت وحى الثبار والهواء لا يملك تكذيبه ولا يملك الإبتكار عليه بجوالاته حى الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال : قرعتي الشمس في الطريق فأودى وجهي لم يملك تكذيبه بذلك ، وقس بهذا سائر الآثار ، إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول ، فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه ، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الشتاء والحرارة بطول الشمس ، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام يشروقه القمر ؛ فإذن الكواكب ما خلقت عبثا ، بل فيها حكم كثيرة لأخصى ، ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار ﴾ ثم قال صلى الله عليه وسلم « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته ^(٢) ، ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا ، فن قطع منه معرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته ، فله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى ؛ فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصنيفه ليزداد يزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له ، فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى ، فإن العالم

(١) حديث النبي عن تصديق المتجدين وعن علم النجوم . أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس « من اتبس علما من النجوم اتبس شعبة من النحر » زاد ما زاد « والطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان « لذا ذكرت النجوم فأسكوا » وإسناده ضعيف ، وقد تقدم في العلم . وللم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال : قلت لرسول الله ، أمركنا نعمتنا في الجاهلية كنا نأثي الكهان ! قال « فلا تأثروا الكهان ... الحديث » .

(٢) حديث قرأ قوله تعالى ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار ﴾ ثم قال « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته » أي ترك تأملها . أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس بلفظ « ولم يفكر فيها » وفيه أبو جابر يعين بن أبي جة ضعيف .

كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنفه بواسطة قلوب عباده ، فإن تعجب من تصنيف فلا تعجب من المصنف ، بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسدده وتعرفه ، كما إذا رأيت لعب المشعوذ رقص وتتحرك حركات موزونة متناجبة فلا تعجب من ألعب فلها خرق محركة لامتحركة ، ولكن تعجب من خلق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار ، فإذا المفسود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولا يتم ذلك إلا بالأنفلاك الذى هو مركوزة فيها ، ولا يتم الأنفلاك إلا بحركتها ، ولا يتم حركتها إلا بلامكة سبابة يحركونها ، وكذلك يتبادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبها بما ذكرناه على ما أمناه ، ولتقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

الطرف الخامس : فى نعم الله تعالى فى الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد فى كل مكان بل لها شروط مخصوصة لاجلها توجد فى بعض الأماكن دون بعض ، والثام منتشر على وجه الأرض وقد بعد عنهم الأطعمة ويحور بينهم وبينها البحار والبرارى ، فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع أنهم لا يفتهم فى غالب الأمر شيء ، بل يجمعون فلما أن تفرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتون فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين ، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجهل والنفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح وبركوا الأخطار ويفترروا بالآرواح فى ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك ! وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها ! وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والخل فى البرارى ، وانظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة ، وإلى الخمار كيف جعل صبورا على التعب ، وإلى الجمال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش ، وانظر كيف سدرم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج ! وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما يحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ، ويتبادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر ترى تركها طلبا للإيجاز .

الطرف السادس : فى إصلاح الأطعمة

اعلم أن الذى ينبت فى الأرض من النبات وما ينطق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل ، وهو كذلك ، بل لا يلقى كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف وإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور أخر لا تحصى ، واستقصاء ذلك فى كل طعام يطول ، فلننبئ رغباً واحداً ، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرفيف الواحد حتى يستدبر ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر فى الأرض ، فأقول ما يحتاج إليه الحمار ليزرع ويصلح للأرض ، ثم الثور الذى يثير الأرض والقدان وجميع أسبابه ، ثم بعد ذلك التمهيد بسقى الماء مدة ، ثم تقيية الأرض من الحشيش ، ثم الحصاد ، ثم الفرث والتقية ، ثم الطحن ، ثم العجين ، ثم الخبز ! فتأمل عدد هذه الأفعال التى ذكرناها وما لم نذكره ، وعدد الأشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التى يحتاج إليها من الحديد والحطب والحجر وغيره ! وانظر إلى أعمال الله تعالى فى إصلاح آلات الخرافة والطنحن والخبز من نحر ، وحذاء وغيرهما ! وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرباص والنحاس ! وانظر كيف خلق الله تعالى

الجال والاحجار والمعادن ! وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة ! فإن فقتت علت أن رغيماً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لآلة كآلة بامسكين مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع ، فابتدئ من الملك الذي يرحى السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة اللامحكة حتى تنتهي التوبة إلى عمل الإنسان فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات ، حتى إن الإبرة التي هي آلة صغيرة فأنبتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لامتكل صورتها من حديد تصليح للإبرة إلا بعد أن يمر على يد الإبري خمساً وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملاً ، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافترقت إلى عمل للتجل الذي تحصد به البر مثلاً بعد نباهه لنفذ عمرك وعجزت عنه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قدرة لأن يعمل هذه الأعمال المعجبة والصنائع الغريبة ! فانظر إلى المقراض مثلاً وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيقتاولان الشيء ممماً ويقطعانه بسرعة ، ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذ فضله وكرمه لمن قبلنا وافترنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوئى أكل القول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن غيرها ! فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان ، فانظر الآن لوخلأ بلدك عن الطحان مثلاً ، أو عن الحدّاد ، أو عن الحجام الذي هو أخص البقال ، أو عن الخائك ، أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ! فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكيمته ولتوجز القول في هذه الطبقة أيضاً فإن الغرض التثني على نعم دون الاستقصاء .

الطرف السابع : في إصلاح المصلحين

إعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين الأطلمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتباينت طباعهم تباين طبع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحش لا يجمعهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأئس والمحبة عليهم (لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) فلاجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا واتلفوا وبنوا المدن والبلاد وربوا المساكن والدور متجاورة وربوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاءه ، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يترامحون عليها ويتنافسون فيها ، ففي جملة الإنسان النيط والحسد والمنافسة ، وذلك مما يؤدي إلى القتال والتنازع ، فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدّم بالقوة والمدّة والأسباب وألقى رعيهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعاً وكرهاً ، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى ربوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها البعض ، فربوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق ، واضطروا الخلق إلى قانون العدل والأموه التساعد والتعاون حتى صار الحدّاد ينتفع بالصاب والحناز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحدّاد ، وصار الحجام ينتفع بالحراث ، والحراث بالحدّاد ، والحدّاد بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه ، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض . وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعزفهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه

ما امتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلاً عما أرشدوا إليه من إصلاح الدين ! وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فاختار بمنزلة السجين والطمان يصلح الحب بالطين والحزات يصلحه بالخصاد ، والحقاد يصلح آلات الحرافة والتجار يصلح آلات الحفاد وكذا جميع أرباب الصناعات للمصلحين آلات الأطمعة ، والسلطان يصلح الصناعات والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم وراثتهم ، والعلماء يصلحون السلاطين ، والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي ينفوخ كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف ، وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب ، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ لما اعتدنا إلى هذه النبتة اليسيرة من نعم الله تعالى ، ولولا عزله إيانا عن أن نطمع بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لنشوتنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ، ولكنه تعالى عزنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ فإن تكلمنا فيأذنه انبسطنا ، وإن سكتا فبقهره انقبضنا ؛ إذ لا مغطى لما منع ولا مانع لما أعطى ، لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأحسنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

الطرف الثامن : في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة : عليهم السلام

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي إليهم ، ولا تظن أنهم مقتصرين على أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تتحضر بالهبة في ثلاث طبقات : الملائكة الأرضية والسموية وحلة العرش ، فافتر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والنفاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرها . وأعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يفتنى إلا بأن يركل به سبعة من الملائكة هو أوفى إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك ويانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ، وذلك الغذاء يصير دماً في آخر الأمر ، ثم يصير لحماً وعظماً ، وإذا صار لحماً وعظماً تم اغتذاءك ، والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار ، فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ، وبمجرد الطبع لا يكتفي في ترددها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً ثم عجيناً ثم خبزاً مستديراً أو خبزاً إلا بصناع ، فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً وعروفاً وعصباً إلا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كأن الصناعات في الظاهر هم أهل البلد ، وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة ، فأقول : لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم ، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ، ولا بد من ملك يخلع عليه صورة الدم ، ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ، ولا بد من خامس يدفع الفضل الفائض عن حاجة الغذاء ، ولا بد من سادس يلقى ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلاً ، ولا بد من سابع يرعى المتادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدراجه وبالمرضي ما لا يزيل عرضه والمنجوف ما لا يبطل تجويفه ، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته ، فإنه لو جمع مثلاً من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على نخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه ونشوت صورته وخلفته ، بل ينبغي أن يسوق إلى الاجفان مع رقتها وإلى الحدة مع صفائها وإلى الانخاف مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة

وربما بعض اللواضع وضعف بعض المواضع ، بل لو لم يراع هذا الملك العادل في القسمة والتقسيت فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من النذاه ما ينمو به إلا إحدى الرجلين مثلا بقيت تلك الرجل كأن كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن ، فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا يفتتح بنفسه ألبنة ه فراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة ، ولا تظنن أن الدم يطعمه يهندس شكل نفسه فلأن يحمل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول ، فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد ، وهم يصلحون النذاه في باطنك ولا خير لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للايجاز ، والملائكة الأرضية مدداهم من الملائكة السبوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ، ومدد للملائكة السبوية من حملة العرش ولتنعم على جملتهم بالثبوت والتمديد والتقدير للمعين القدوس للفرد بالملك والمملوك والعمرة والجزوت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، والأخبار الواردة في الملائكة للمؤلفين بالسوات والارض وأجزاء الثبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل محاب ينجز من جانب إلى جانب (١) أكثر من أن تحصى فذلك تركنا الاستشهاد به .

ه فإن قلت : فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم انتشر إلى سبعة أملاك ، والخفة أيضا تحتاج إلى من يطعن أولا ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع القصة ثانيا ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يجمع رايها ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من يصبها بالتدور سابعا ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنيا كأعمال الإنس ظاهرا ؟ فاعلم أن خلقه الملائكة تخالف خلقه الإنس ، وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب ألبنة ، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) فذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل ، بل مثالمهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الخواص الحسن ، فلأن البصر لا يراهم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يراهم ولا لها يتذاعن الشم ؛ وليس كاليد والرجل فإنه قد تبشش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا فتراحم به اليد ، وقد تضرب غيرك برأسك فتواحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والمجن والحبز ، فإن هذا نوع من الاعوجاج والدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ، ولذلك نرى الإنسان يطعم الله مرة ويخصمه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته ، وذلك غير ممكن في طباع الملائكة ، بل هم مجبورون على الطاعة

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة المؤكلين بالسوات والأرضين وأجزاء الثبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل محاب ينجز من جانب إلى جانب ... ؛ ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الإسراء قال جهيل لحازن السماء الدنيا : افصح ، وفيه : أن السماء الثانية فقال لحازنها : اتبع ... الحديث ، ولها من حديث أبي هريرة : « إن ملائكة سبعين يملكون من أمم السلام » وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرشه نفسه على عبد الجبل « فنادى ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .. الحديث » ولها من حديث انس « لما قاله وكل بالرحم طسكا .. الحديث » وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي « ما من نبت ينبت إلا ونحته ملك موكل حتى يمحص .. الحديث » وفيه محمد بن صالح العثري وأبو بحر البكري وأبو واسم عثمان بن عبد الرحمن وكلاما شريف . والعثري في من حديث أبي الرداء بندي ضيف : « أن قسلا ملكا يتناولون في كل ليلة يحسون السكالك عن دواب التزاة الإداية في منها جرس » ولقمتي وحسنه من حديث ابن عباس : قالت اليهود يألف الناس أخيرا نعن الرعد لاله ملك من الملائكة موكل بالسحاب . ولمسلم من حديث أبي هريرة : « بينا رجل يخلاتن الأرض سمع صوتا من سحاب : اسق حبة قلال ، فتتج ذلك السحاب فأفرغ ما في حرة .. الحديث »

لأجمال المعصية في حقهم ، فلا جرم لا يعضون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ، والراكع منهم راكع أبدا ، والساجد منهم ساجد أبدا ، والقائم قائم أبدا لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ، ولكل واحد مقام معلوم لا يتبدل ، وطاعتهم لله تعالى من حيث لأجمال للخائفه فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومصيتك أخرى ، بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك يفتتح وينطبق متصلا بإشارتك ، فهذا يشبه من وجهه ولكن يخالفه من وجه ، إذ الجفن لأعمل له بما يصدر منه من الحركة فتتحا وإطباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون ؛ فإذا نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسماوية وساجتلك إليهما في غرض الأكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها ؛ فإننا لم نطول بذكرها ؛ فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم وبجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف آماد ما يدخل تحت جامع الطبقات ، فإذا نعمة الله تعالى عليك ظاهرة وباطنة ، ثم قال (وذروا ظاهر الإيم وباطنه) فترك باطن الإيم بما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة وأخبار الشر الناس إلى غير ذلك من آثار القلوب هو الشكر اللهم الباطنة ، وترك الإيم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة بل أقول : كل من عصى الله تعالى ولو في طريقة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة الله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما ، فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات يحملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضا به فإن الله تعالى في كل طريقة بالجفن نعمتين في نفس الجفن ، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ، ونعمة الله تعالى في سوادها أن يجتمع ضوء العين ، إذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ، ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للوهام من الدبيب إلى باطن العين ومتشبيها للأفناء التي تتنكر في الهواء ، وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصيبها ، وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل : وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر ، فيجمع الأجفان مقدار ما تشببك الأهداب فينظر من وراء شبك الشعر ، فيكون شبك الشعر مانعا من وصول الغدق من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ، ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحدقة كالمنقلة للآفة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الأفناء إلى زوايا العين والأجفان ، والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدان ، فترأى على الدوام يسمح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار وإذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لاقتفاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نؤاخذ به كتابا مقصودا فيه إن أهل الزمان وساعد التوفيق نسميه بحجاب صنع الله تعالى ، فنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير عزم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجفان ، ولا يقرم الأجفان إلا بعين ، ولا العين إلا برأس ؛ ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والنعم والشمس والقمر ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ، ولا السموات إلا بالملائكة ، فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض ، فإذا نعمة الله على كل نعمة في الوجود من منتهى الأثر إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد ولا وبلعنه ، ولذا ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلذتهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم ^(١) وكذلك ورد أن العالم يستغفر

(١) حديث : أن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلذتهم أو تستغفر لهم . لم أجده أصلا .

له كل شيء حتى الحوت في البحر^(١) وأن للملائكة يملئون العصاة^(٢) في ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها، وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بطريقة واحدة جنى على جميع مافي الملك والمملوك، وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السبيل بحسنة يحوها، فيقبل الله بالاعتذار، فمسي الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه، وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام «يا أيوب مامن عبدك من الآدميين إلا وعهه ملكان، فإذا شكرتني على نعمائي قال للملكان: اللهم زده نعماً على نعم، فإنه أهل الحمد والشكر، فكان من الشاكرين قريباً فكنتي بالشاكرين علو رتبة، وعندي أني أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والقباع تحبهم والآمار تبيك عليهم».

وكما عرفت أن في كل طريقة عين نعم كثيرة، فاعلم أن في كل نفس ينسبط وينقبض نعمتين، إذ بانسباطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج هلاك، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدت متنفسه لاحترق قلبه باقتراع روح الهواء وبرودته عنه وهلك، بل اليوم واليلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات، فمليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك، بل في كل جزء من أجزاء العالم، فأنظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى ﴿وإن تمدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ قال: إلهي كيف أشكرك ولك في كل شجرة من جسد نعمتان: أن أليبت أصلها، وأن طمست رأسها؟ وكذا ورد في الآثار: أن من لم يعرف نعم الله في مطعمه ومشربه فقد قل عليه وحضر عذابه.

وجميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعتبر ما سواه من النعم به، فإن البصير لا تنفع عينه في العالم على شيء ولا يلام خاطره بوجود إلا ويتحقق أن الله فيه نعمة عليه، فلتترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع في غير مطعم.

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجاهل والنفلة، فلهزم منهموا بالجهل والنفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسان الحمد لله، والشكر لله. ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحسنة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين للمعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما النفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس يجهلهم لا يدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق بمذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به فلا يمتد نعمة، ولا تزام يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمختتمهم لحظة حتى اقتلع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء ثقل يربو به الماء ماتوا غماً؛ فإن ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نبأ ربهما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنعم في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها؛ فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تسمى عينيه، فتد ذلك لو أعيد عليه بصره

(١) حديث «إن العالم ليسنفذ كل شيء حتى الحوت في البحر» يهدم في العلم (٢) حديث «إن الملائكة يملئون العصاة» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة الملائكة ملئوا أذنك إذا أشار إلى أخيه بحديثه وإن كان أخاه لأبيه وأمه.

أحسن به وشكره وعنده نعمة ، ولما كانت رحمة الله واسعة عم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يمتد الجاهل نعمة ، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حتى أن يضرب دائماً ، حتى إذا ترك شربه ساعة تغلبه ممة ، فلأن ترك شربه على الدوام غلبه البطر وترك الفكر ، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي ينطق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والثقل وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم ، كما شكوا بعضهم فقره إلى بعض أبواب البصائر وأظهر شدة اغتيامه به فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا فقال : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا فقال : أيسرك أن أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً ؟ فقال : لا ، فقال : أيسرك أنك بينون ولك عشر آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فقال : أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً ؟

وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً ، فرأى في المنام كأن قاعلاً يقول له : تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال : لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، فمقد عليه سوراً ثم قال : فملك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ، فأصبح وقد سرى عنه .

ودخل ابن السبائك على بعض الخلفاء وبهده كوز ماء يشربه ، فقال له : حظي ؟ فقال : لولم تعط هذه الشرية إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه ؟ قال : نعم ، فقال : لو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه ؟ قال : نعم . قال : فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء .

فهذا بين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة — وقد ذكرنا النعم العامة — فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول : ما من عبد إلا ولو آمن النظر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصه لا يشاركها فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد ، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور : في العقل ، والخلق ، والعلم .

أما العقل . لما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل من يسأل الله العقل ، وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالق عنه كما يفرح به المتصف به ، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره ، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه ، فمن وضع كنزاً تحت الأرض فهو يفرح به ويشكره عليه ، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فبقي فرحه بحسب اعتقاده وبقي شكره لأنه في حقه كالباقى .

وأما الخلق فاما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرها وأخلاقاً ينمها ، وإنما ينمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها ، فإذا لم يشتغل بئذ التغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيئ .

وأما العلم فاما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره وما هو منفرد به ، ولو كشف النطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لاقتضح ، فكيف لو اطلع الناس كافة ؟ فإذا لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباده الله ، فلم لا يشكر ستر الله الجليل الذي أرسله على وجه مساوية فأظهر الجليل وسر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص عليه به حتى لا يطلع عليه أحد ؟ فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد مطلقاً . وأما في بعض الأمور فنقول عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلاً ، فنقول : ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكه أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو في سائر عجايب أموراً

لوسب ذلك منه وأعطى مخصص به غيره لكان لا يرضى به ، وذلك مثل أن جملة مؤمن لا كافرا وحيا لا جامدا وإنسانا لا بهيمة وذكرنا لا أنثى وصحيفا لا مريضا ولا معييا ؛ فإن كل هذه خصائص ، وإن كان فيها عموم أيضا فإن هذه الأحوال لو بدلت بأحداها لم يرض بها ، بل له أمور لا يتطابها بأحوال الآدميين أيضا ، وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما يخص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما يخص به الأكثر ؛ فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فلذلك حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا من حال نفسه على الجملة وإما في أمر خاص ؛ فلذلك الله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء ، وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المنبهرين عنده فإنه لا عمالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم ، فيكون من درته في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه ، فما باله ينظر إلى من فوقه ليتزددى نعم الله تعالى على نفسه ، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه ، وما باله لا يسوى دنياه بدينه ، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقرأ فيها يستنزل إليها بأن في القساق كثرة ؛ فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ، فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك ؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خير منه ، وسأله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق ، فكيف لا يلزمه الشكر ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتب الله صابرا وشاكرا . ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه وفي الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا »^(١) ، فلذلك كل من اعتبر بحال نفسه وفتش عما يخص به وجدته تعالى على نفسه نهما كثيرة لا سببا من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراخ والصحة والأمن وغير ذلك ، ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحييا يستعيل به في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه ورعا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله »^(٢) ، وهذا إشارة إلى نعمة العلم . وقال عليه السلام « إن القرآن هو الثنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه »^(٣) ، وقال عليه السلام « من أتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استبرأ بآيات الله »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »^(٥) ، وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى »^(٦) ، وقال بعض السلف : يقول الله تعالى في بعض الكتب المغزاة « إن عبد أغنيته عن ثلاثة لقد أحممت عليه نعمتي : عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعماء في يد أخيه » . وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت يأيها كذا الصحة والأمن
وأصبحت أحمأ حزن فلا طاركك الحزن

(١) حديث « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتب الله صابرا وشاكرا .. الحديث » أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب ، وفيه المتن بن الصباح ضعيف . (٢) حديث « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » لم أجده بهذا اللفظ . (٣) حديث « إن القرآن هو الثناء الذي لا غنى بعده ولا فقر معه » أخرجه أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بن مالك . (٤) حديث « من أتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استبرأ بآيات الله » أخرجه البخاري في التاريخ من حديث رجاء النوى بلفظ « من أتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحدا أوفى أفضل مما أوتي فقد ستر أعظم النعم » وقد تقدم في فضل القرآن ، ورجاء مختلف في صحته . وورد من حديث عبادة بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلمها ضعيفة . (٥) حديث « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » تقدم في آداب الخلاوة . (٦) حديث « كفى باليقين غنى » رواه الطبراني من حديث عتبة بن عامر ، ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفا عليه ، وقد تقدم .

(٧) حديث « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتب الله صابرا وشاكرا .. الحديث » أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب ، وفيه المتن بن الصباح ضعيف . (٨) حديث « من أتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استبرأ بآيات الله » أخرجه البخاري في التاريخ من حديث رجاء النوى بلفظ « من أتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحدا أوفى أفضل مما أوتي فقد ستر أعظم النعم » وقد تقدم في فضل القرآن ، ورجاء مختلف في صحته . وورد من حديث عبادة بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلمها ضعيفة . (٩) حديث « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » تقدم في آداب الخلاوة . (١٠) حديث « كفى باليقين غنى » رواه الطبراني من حديث عتبة بن عامر ، ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفا عليه ، وقد تقدم .

بل أرشق عبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق المضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه : فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (١) ، ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث ؛ مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصولهم إلى النعم العظمى والمك العظيم ، بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان ، بل نحن نعلم من الدماء من لو سلم إليه جميع مداخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقبيل له خذها عوضاً عن علك بل عن عشرين علك ؛ لم يأخذها ، وذلك لرجائه أن نعمة العلم تقضى به إلى قرب الله تعالى في الآخرة ، بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بملكه ، غلب هذه اللذات في الدنيا بدلاً عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به ، لكان لا يأخذها ، لعلها بأن لذة العلم دائماً لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تنصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنيا كلها ناقصة مكثرة مشوشة لا يفي مرجوها بمخزونها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بشمها ، هكذا كانت إلى الآن ، وهكذا تكون ما بقى من الزمان إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتنفذ ، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت ، كالمرأة الجليل ظاهرها تزين للشاب الشيق الغنى ، حتى إذا تقيدت بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تمسب قائم وعناء دائم ، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة ، ولو عقل وفض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره ، ففسد كما وقعت أبواب الدنيا في شباك الدنيا وحياتها ، ولا ينبغي أن تقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها ، فإن المقبل عليها أيضاً متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها ، وتألم المعرض يفضى إلى لذة في الآخرة وتألم المقبل يفضى إلى الألم في الآخرة ، فيقلع المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى (ولا تنهوا عن ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون) فإذا نال السد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة .

• فإن قلت : فما علاج هذه القلوب النافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعمساها تشكر ؟ فأقول : أما القلوب البصيرة فلاجها التأمل فيها ومزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة . وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شمعت بالبلاء معها ، فسيبيل أن ينظر أبداً إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية ، إذ كان كل يوم يحضر دار المرضى والمقابر والمراضع التي تقام فيها الحدود ، فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره بلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويمذبون بأنواع المذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنائيات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ، ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى المولى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً ، أما من عصى الله تعالى فليستدارك ، وأما من أطاع فليزد في طاعته ، فإن يوم القيامة يوم التناهن ، فالطبع متعبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات لما أعظم غنى إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات ، وأما العاصي فغيبه ظاهر ، فإذا شاهد المقابر وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقى له ، فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر ، بل في الإهمال في كل نفس من الأنفاس ، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة ، فهذا علاج هذه القلوب النافلة لتشعر بنعم الله تعالى

فمساهما تشكر . وقد كان الربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيداً للبرعة ، فكان قد حضر في داره قبراً فكان يضع غلا في عنقه وبنام في لحدّه ثم يقول (رب ارجعون لى اعمل صالحاً) ثم يقوم ويقول : يا ربيع قد أعطيت ما سألت ، فأعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد .

وعما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر : أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بلازمة الشكر . على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدها بالشكر . وفي الخبر : ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه فن تهاون بهم عرض تلك النعمة الزوال ^(١) ، وقال الله سبحانه وتعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر

فيا يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لذلك نقول : ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً ، فما معنى الصبر إذن . وإن كان البلاء موجوداً فما معنى الشكر على البلاء . وقد ادعى مدعون أننا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة ، فكيف يتصور الشكر على البلاء ، وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً وهما يتضادان ، وما معنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده ؟ فأعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة ، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان ، ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه : أما في الآخرة فكسادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى ، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يمين عليهما ، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه : كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه ، فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد : أما المطلق في الآخرة فالعبد من الله تعالى إما مدة وأما أبداً . وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تنفضي إلى البلاء المطلق . وأما المقيد فكالكفر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا ، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة . وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية ، بل حتى الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي ، نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرهما فلا صبر عليه ، والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية ، بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه ، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزائته ، فإذا رجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر ؛ فإن النفي مثلا يجوز أن يكون

(١) حديث « ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه .. » الحديث « أخرجه ابن عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ « الا عظمت مؤنة الناس عليه ، فمن لم يحمل تلك المؤنة .. » الحديث « ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال : أنه موضوع على حجاج الأمور . »

سببا لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل ويقتل أولاده ، والصحة أيضا كذلك ؛ فما من نعمة من هذه النعم النبوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه ، فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حالة ؛ فرب بعد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ، ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبني ؛ قال الله تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) وقال تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحبي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحبي أحدكم مريضه »^(١) ، وكذلك الزوجة والولد والقريب ، وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فإنها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعم في حقهم ، إذ سبق أن المعرفة كمال ونعمة فإنها صفة من صفات الله تعالى ، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون فقدتها نعمة ، مثله : جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه ، إذ لو عرفه ربما تنقص عليه العيش وطال بذلك غم ؛ وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من مكاره وأقارب لعمة عليه ، إذ لو وقع السر واطلع عليه لطلال ألمه وحقد وحسده واشتغاله بالانتقام ؛ وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه ، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالاعية في الدنيا والآخرة ، بل جهله بالصفات الحميدة في غيره قد يكون نعمة عليه فإنه ربما يكون وليا لله تعالى وهو ينظر إلى إيدائه وإيمائه ، ولو عرف ذلك وآذى كان إيمه لا محالة أعظم ، فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف . ومنها : إلهام الله تعالى أمر القيامة ، وإلهامه ليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة ، وإلهامه بعض الكبار ، فبكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد ، فبهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم . وحيث قلنا إن الله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق ، وذلك مطرد في حق كل أحد ، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخافها في بعض الناس ، وهي أيضا قد تكون نعمة في حق المتألم بها ، فإن لم تكن نعمة في حق كآلام الحاصل من المصيبة كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فإنه يتألم به وهو عاص به ، ولم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم ، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد . ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف للمتعمون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها ، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار . أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليه من حيث إنها عامة مبدولة ، ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السبأ وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ، ولكن زينة السبأ لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها ، فإذا قد صرح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم ، فإذا في خلق الله تعالى البلاء لعمة أيضا إما على المبتلى أو على غير المبتلى ، فإذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة ، فيجتمع فعلى العبد وظيفتان : الصبر والشكر جميعا .

« فإن قلت : فهما متضادان فكيف يجتمعان ؟ إذ لا صبر إلا على غم ، ولا شكر إلا على فرح ؟ فاعلم أن الشيء الوحيد قد ينتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر ، فيكون الصبر من حيث الاغتنام ، والشكر من حيث الفرح . وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح النافل بها ويشكر عليها . (أحدها) أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها ، إذ مقدور لك الله تعالى لا تنتهي فلرضعها الله

(١) حديث « إن الله ليحبي عبده من الدنيا ... الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم ومعه ، وقد تقدم .

تمالي وزادما ماذا كان يردّه ويججزه ، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا . (الثاني) أنه كان يمكن أن تكون مصيبتك في دينه : قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه : دخل الصبيتي وأخذ متاعاً فقال : اشكر الله تعالى ، لو دخل الشيطان قلبك فأنفد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ ولذلك استأذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما ابتليت بلاء إلا كان الله تعالى على فيه أربع نعم : إذ لم يكن في ديني ، وإذ لم يكن أعظم منه ، وإذ لم أحرم الرضا به ، وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق لحبسه السلطان ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له : اشكر الله فضربه ؛ فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال : اشكر الله ، لجئى بمجوسى لحبس عنده وكان مبطوناً فقيد وجمل حليقة من قيده في رحله وحليقة في رجل المجوسى ، فأرسل إليه فقال : اشكر الله ، فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ، فكتب إليه بذلك ، فقال : اشكر الله ، فقال : إلى متى هذا ، وأى بلاء أعظم من هذا ؟ فقال : لو جعل الزنار الذى في وسطه على وسطك ماذا كنت تفعل ؟ فأذن ما من إنسان أصيب بلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أذبه ظاهراً وباطناً في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلاً وآجلاً ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقصر على عشرة فهو مستحق للشكر ، ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداها فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد ، فمسجد لله تعالى بحمد الشكر ، فقيل له : ما هذه السجدة ؟ فقال : كنت أنتظر أن تصب على النار ، فالانقصار على الرماد نعمة ، وقيل لبعضهم : لا تنفجر إلى الاستسقاء فقد احتسبت الأقطار ! فقال : أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجر .

❦ فإن قلت : كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت مصيبتهم على مصيبتى ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار ؟ فأعلم أن الكافر قد خبي له ما هو أكثر ، وإنما أهمل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب ، كما قال تعالى ﴿ إنما على لهم ليزدادوا إثمًا ﴾ وأما للمعاصي فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ، ورب خاطر يسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأظم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح ، ولذلك قال تعالى في مثله ﴿ ومحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ، ثم لعله قد أخرجت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك . وهذا هو الوجه الثالث في الشكر ، وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا ينزل عنها بأسباب أخرى ثمون المصيبة فيخفف وقعها ، ومصيبة الآخرة تدوم ، وإن لم تنم فلا سبيل إلى تخفيفها بالنسي ، إذ أسباب النسي مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المذنبين ، ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانياً ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا فاته أكرم من أن يذنبه ثانياً ﴾ . (الرابع) أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها ، فهذه نعمة . (الخامس) أن ثوابها

(١) حديث « أن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابه شدة أو بلاء في الدنيا فاته أكرم من أن يذنبه ثانياً » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث علي بن أساب في الدنيا ذنباً عوب به فاته أعدل من أن يلقى عقوبته على عبده ... الحديث « لفظ ابن ماجه . وقال الترمذى « من أصاب حدا فجل عقوبته في الدنيا » وقال حسن . ولقيني من حديث عبادة بن الصامت « ومن أصاب من ذلك شيئاً فسوب به فهو كفارة له ... الحديث » .

أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين ، أحدهما : الوجه الذي يكون به الداء الكربة نعمة في حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة حق الصبي ، فإنه لو خلى واللعب كان بمنه ذلك من السلم والادب ، فكان يضر جميع عمره ، فكذلك المال والأهل والآثارب والاعتناء حتى العين التي هي أعر الأشياء قد تكون سببا هلاك الإنسان في بعض الأحوال ، بل العقل الذي هو أعر الأمور قد يكون سببا هلاكا ، فالملحمة غذا يسمون لو كانوا يجانين أو صبياناً ولم يتصرفوا بمقولهم في دين الله تعالى ، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقتدر فيه الحجة ويشكره عليه ، فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغدا يشكره العباد على البلاء إذا وأرا ثواب الله على البلاء ، كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ، إذ يدرك نعمة ما استفاده من التأديب ، والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أعم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد ، فقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصني قال لا تهمل في شيء قضاء عليك ^(١) ، ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك ، فسئل فقال : عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن : إن قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وإن قضى له بالضراء رضى وكان خيرا له ^(٢) ، الوجه الثاني : أن رأس الخطايا للمهلك حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار القرور ، ومواناة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسيائها وأنسها بها حتى قصير كالجنة في حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها ، وإذا كثرت عليه للمصاب الزرع قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت يحبها عليه ، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : الدنيا يحبب للمؤمن وجنة الكافر ^(٣) ، والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها ، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الخشوع إلى الخروج منها ، والكافر بعضه ظاهر وبعضه خفي ، ويقتدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الحق ، بل الموحد المطلق هو الذي لا يجب إلا الواحد الحق ؛ فإذا في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به ، وأما التألم فهو ضروري ، وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامةك بجانا ، أو يسقيك دواء نافعا يشعأ بجانا ، فإنه لا تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح ، فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل ، بل من دخل دار ملك للضيافة وعلم أنه يخرج منها لأعماله ، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الأناس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيمذه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه ، والدنيا منزل وقد دخلها العاس من باب الرحم وهم غارجون عنها من باب اللحد ؛ فكل ما يتحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة ؛ فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلاء ، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر ؛ لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ،

(١) حديث : قال له رجل أوصني قال « لا تهمل في شيء قضاء عليك » رواه أحمد والطبراني من حديث عبادة بن يزيد في أوله ، وفي إسناده أن لمية . (٢) حديث : نظر إلى السماء فضحك . فسئل فقال « عجبت لقضاء الله للمؤمن ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء ، وضحك « عجا لأمر المؤمن لأن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن لأن أمانيه سرا » شكر فكان خيرا له ولأن أمانيه ضراء سيرة فكان خيرا له ، وللشافعي في اليوم واليلة من حديث سعد بن أبي وقاص « عجبت من رضا الله للمؤمن لأن أمانيه خير منه وحده وشكر .. الحديث » (٣) حديث « الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . وقد تقدم .

ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة . وحكى أن أعرابيا عزي ابن عباس على أبيه فقال :

اصبر فكن بك صابرين فإنيما . صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس أجرك بعده . والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس : ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي .

والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من يرد الله به خيرا يصيب منه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى : وإذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدته أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استعفيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أفرسه ديوانا ، وقال عليه السلام : ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى (إن الله ولؤه إليه راجعون) اللهم أجرني في مصيبتي وأخفني خيرا منها إلا فعل الله ذلك به . وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : من سلبت كريمته لجرأؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي ، وروى أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال صلى الله عليه وسلم لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره ^(٢) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يلينها بسل حتى يتبلى بلاء في جسمه فيلینها بذلك ^(٣) ، وعن خباب بن الارت قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا : يارسول الله ، ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمرا لونه ثم قال : إن من كان قبلكم ليؤذي بالرجل فيخفر له في الأرض حفيرة ويحما بالمشار فيبرضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ^(٤) ، وعن علي كرم الله وجهه قال : أيما رجل حبسه السلطان ظلما فلات فهو شديد ، وإن ضربه فلات فهو شديد . وقال عليه السلام : من أجل الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك ، وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه : تولدون للوثة وتعمرون للخراب وتحصون على ما يفتن وتذرون ما يبق ، الأحبنا المكروهات الثلاث : الفقر والمرض والموت . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله تعالى بعبد خيرا وأراد أن يصابه صيب عليه البلاء صبا ونجسه عليه نجسا ، فإذا دعاه قالت الملائكة : صوت معروف وإن دعاه ثانيا فقال يارب قال الله تعالى : لبيك عبيد وسعديك لا تسألني شيئا إلا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو خير وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه ، فإذا كان يوم القيامة جىء بأهل الأعمال فوفوا أعمالهم بالميزان : أهل

(١) حديث : من يرد الله به خير يصيب منه . ورواه البخاري من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال : لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبره . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الرغوة للكفار من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين . (٣) حديث : إن الرجل ليسكون له الدرجة عند الله لا يلينها بسل حتى يتبلى بلاء في جسمه فيلینها بذلك . ورواه أبو داود في رواية ابن داسه ، وابن أبي عمير من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده ، وليس في رواية الأوزاعي . خالد إلا ابنه محمد ، وذكر أبو ليلى أن ابن منده سمى جده الجلاج بن سليم ، فلهذا أعلم . وعلى هذا فإنه خالد بن الجلاج الناصري ذلك مذهب روى عنه جماعة . ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي ليلس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده . ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فلهذا أعلم .

(٤) حديث خباب بن الارت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداه في ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث

الصلاة والصيام والصدقة والحج ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقايض لما يرون ما ينهب به أهل البلاء من الثواب ^(١) ، فذلك قوله تعالى (إنما يؤتى الصابرون أجرهم بغير حساب) وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : شكنا في من الأتينا عليهم السلام إلى وبه فقال : يارب ، العبد المؤمن يطيعك ويحتجب بمعاصيك تروى عنه الدنيا وتعرض له البلاء ، ويكون الكافر لا يطيعك ويغترى عليك وعلى معاصيك تروى عنه البلاء وتبسط له الدنيا ؛ فأوحى الله تعالى إليه : إن العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي ، فيكون المؤمن عليه من النوب ، فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه ، حتى يلقى فأجزيه بحسناته . ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوى عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا ، حتى يلقى فأجزيه بسخطه .

وروى أنه لما نزل قوله تعالى (من يعمل سوءا يجز به) قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، غفر الله لك يا أبا بكر ، ألسنت تمرض ؟ ألسنت يهيك ؟ الأذى ؟ ألسنت تحزن ؟ فهذا مما تحزنون به ^(٢) ، يعني أن جميع ما يهيك يكون كفارة لذنوبك . وعن عتبة بن عامر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ، ثم قرأ قوله تعالى (قلنا نسوا ماذكروا به فتحتنا عليهم أبواب كل شيء) ^(٣) ، يعني لما تركوا ما أمروا به فتحتنا عليهم أبواب الخير (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بفتنة .

وعن الحسن البصري رحمه الله : أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يمر فوقها الجاهلية ، فكلما هم ثم تركها ، لجعل الرجل يلتفت إليها وهو يعيش فصدمه حائط فأتى وجهه فأتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا أراد الله بعبده خيرا لم يجعل له عقوبة ذنبه في الدنيا ^(٤) ، وقال على كرم الله وجهه : ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن ؟ قالوا : بلى ، فقرأ عليهم (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) فالمصاب في الدنيا بكسب الأوزار ، فإذا عافاه الله في الدنيا فافقه أكرم من أن يعذبه ثانيا ، وإن عفا عنه في الدنيا فافقه أكرم من أن يعذبه يوم القيامة . وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : ما تجزع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بجم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها . ولا قطرت قطرة أحب إلى الله من قطرة دم أعريت في سبيل الله ، أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله . وما خطا عبد

(١) حديث أبي أسامة : إذا أراد الله بعبده خيرا وأراد أن يصفيه صبيح عليه البلاء صبا .. الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية أبي بكر بن خنيس عن يزيد الرقائي عن أبي أسامة عن أنس رضي الله تعالى عنه : فلا تكان برأ القامة ... إلى آخره . وبكر بن خنيس والرقائي شفيان . ورواه الأعمش في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقائي خبرا بن عمرو وهو أيضا ضعيف . (٢) حديث لما نزل قوله تعالى (من يعمل سوءا يجز به) قال أبو بكر الصديق : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : غفر الله لك يا أبا بكر ، ألسنت تمرض ... الحديث ، من رواية سلم بن يسلم عن أبي بكر ورواه الترمذي من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه . قال : وليس له إسناد صحيح . وقال الدارقطني : وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير ، قال : وليس فيها شيء يثبت . (٣) حديث عفة بن عامر : إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ... الحديث ، رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن . (٤) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة لجعل يلتفت إليها وهو يعيش فصدمه حائط ... الحديث ، وفيه : إذا أراد الله بعبده خيرا لم يجعل له عقوبة ذنبه في الدنيا ، أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن مسعود مرافقا ومتصلا . ورواه الطبراني أيضا من رواية الحسن عن حماد بن عمار بن عمار ، ورواه أيضا من حديث ابن عباس ، وفسر الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث أبي أسامة وحسنه الترمذي .

خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة ، وخ خطوة إلى صلة الرحم (١) .
وعن أبي الدرداء قال : توفي ابن سليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأثابه ملكان نجيا بين يديه في زى الخوصم ، فقال أحدهما : بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفسده ، فقال الآخر : ما تقول ؟ فقال : أخذت الجادة فأثبتت على زرع فظفرت يميننا وشمالا فإذا الطريق عليه . فقال سليمان عليه السلام : ولم بذرت على الطريق ، أما علمت أن لابد للناس من الطريق ؟ قال : فلم تحزن على ولدك ، أما علمت أن الموت سبيل الآخرة ؟ فتاب سليمان إلى ربه ولم يجرع على ولد بعد ذلك .

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال : يا بني ، لأن تكون في ميزاني أحب إلى من أن أكون في ميزانك ، فقال يا أباي ، لأن يكون ماتحب أحب إلى من أن يكون ماأحب .
وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له ، فاسترجع وقال : عورة ستر ماله تعالى ، ومؤنة كفاها الله وأجر قد ساقه الله تعالى ، ثم نزل فصل ركعتين ثم قال : قد صنعنا ماأمر الله تعالى : قال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) .

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن ، فمزاء بحسب يعرفه ؛ فقال له : ينبغي للعالم أن يفعل اليوم مايفعله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك : اكثروا عنه هذه .

وقال بعض العلماء إن الله ليبثل البئد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الأرض وماله ذنب .
وقال الفضيل إن الله عز وجل ليشاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يشاهد الرجل أهله بالخير .
وقال ساتم الأضمر إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بالمسيح ، وعلى المبيد ييوسف ، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم
وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك ، لجيء بالمشار ففشرت الشجرة حتى بلغ للنشار إلى رأس زكريا ، فأن منه أنه ؛ وأوحى الله تعالى إليه يا زكريا إنك صدقت منك أنه ثانية لأعزئك من ديوان البؤة ، فعض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين .
وقال أبو مسعود البليخي : من أصيب بمصيبة ففرق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ رجا يريد أن يقتل به وبه عز وجل .

وقال لقمان رحمه الله لابنه : يا بني إن الذهب يمزب بالنار والعبد الصالح يمزب بالبلاء ، فإذا أحب الله فامتابلام ، فن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط .

وقال الأخنفت بن قيس : أصبحت يوما اشتكى ضربي ، فقلت لعمى : ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قائما ثلاثا ، فقال : لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة ، وقد ذهب عني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد . وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام : إذا نزلت بك بلية فلا تشكى إلى خلقى وأشك إلى

(١) حديث أس . مايجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة فيظ ودعا بحلم ، وجرعة ممة يصبر الرجل لها ... الحديث . أخرجه أبو بكر بن لاه في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعين ، وفيه عهد بن صدقة وهو الفلكي مشكر الحديث . وروى ابن ماجه بن حديث ابن عمر بإسناد جيد : ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة فيظ كظلمها عبد ابتداء وجه الله . وروى أبو منصور القرطبي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة : ما ظفر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله ، أو قطرة دم في سواد الليل ... الحديث . وفيه عهد بن صدقة ، وهو الفلكي المشكر الحديث .

كما لأشكرك إلى ملائكتي إذا صعدت مساويك وفتاحك ، نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجليل في الدنيا والآخرة .

بيان فضل النعمة على البلاء

لذلك نقول : هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء ؟ فأقول : لاوجه لذلك ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ^(١) وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام : ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ^(٢) ، وكأنا يستعيزون من شناعة الأعداء وغيرها ^(٣) .

وقال علي كرم الله وجهه . اللهم إني أسألك الصبر ، فقال صلى الله عليه وسلم : لقد سألت البلاء فأسأله العافية ^(٤) ، وروى الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : سلوا الله العافية ، فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين ^(٥) ، وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك ، فدافية القلب أعلى من عافية البدن .

وقال الحسن رحمه الله الخير الذي لا شرف فيه : العافية مع الشكر فكف من منعم عليه غير شاكر .
وقال مطرف بن عبد الله : لأن أعاني فأشكر ، أحب إلي من أن أبلى فأصبر .
وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه : وعافيتك أحب إلي ^(٦) .

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد ، وهذا لأن البلاء صار لعمدة باعتبارين : أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين ، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب ؛ فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقعه من البلاء ، ونسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه على الصبر .

فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار .
وقال سمعون رحمه الله تعالى :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فأختبرني

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة رواه أحمد من حديث يسن عن أبي أرحطه بلفظ : أخرجنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، واستاده جيد . ولأبي داود من حديث عائشة : اللهم إني أعوذ بك من خزي الدنيا وضيق يوم القيامة ، وفيه بنية وهو مدلس ، ورواه بإسناد .

(٢) حديث : كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام : ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وثنا عذاب النار . أخرجه البخاري وسلم من حديث أبي بكر . كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم آتانا في الدنيا ... الحديث ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركبتين « ربنا آتانا ... الحديث » (٣) حديث : كان يستعيز من شناعة الأعداء : تقدم في الدعوات (٤) حديث قال علي رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الصبر ، فقال صلى الله عليه وسلم : لقد سألت الله البلاء فسله العافية . رواه الترمذي من حديث مااذني أثناء حديث وحسنه ، ولم يسم عليا وإنما قال : سمع رجلا . وله والنسائي في اليوم والليالي من حديث علي : كنت ساكنا فربى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول .. الحديث . وفيه : فإن كان بلاء فصرتي ، فصر به برجله وقال : اللهم عافه واسقه . وقال حسن صحيح .

(٥) حديث أبي بكر الصديق : سلوا الله العافية ... الحديث . أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليالي بإسناد جيد ، وقد تقدم . (٦) حديث : وعافيتك أحب إلي « ذكره ابن اسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى الطائف بلفظ : وعافيتك أوسع لي » وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا ، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مستمنا وفيه من يجهل .

فهذا من هؤلاء سؤال البلاء ! فاعلم أنه حكى عن سمعون الحب رحمه الله أنه بلى ببد هذا البيت بيلة المحسر ، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب . وأما عبة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن الحب بنفسه حائل ذلك ، فن شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع في الكلام ، ولو زايه سكره علم أن ماغلب عليه كان حالة لا حقيقة لها ، فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أغرط حبهم ، وكلام العشاق يستند سماحه ولا يقول عليه ، كما حكى أن فاختة كان يرادها زوجها فتتمنه ، فقال : ما الذي يمنلك عني - ولو أردت أن أقلب لك الكوكبين مع ملك سليمان ظهرا لطن لفته لاجلك ؟ فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاقبه فقال : يا بني الله كلام العشاق لا يحكى ، وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ماأريد لما يريد

وهو أيضا محال ، ومعناه أني أريد ما لا يريد ، لأن من أراد الرضا ما أراد الهجر ، فكيف أراد الهجر الذي لم يرد ، بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين (أحدهما) أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتبسببه رضاه الذي يتوصل به إلى الرضا في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب ، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة ، فيكون مثاله مثال حب المال إذا أسلم درهما في درهمين فهو يحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال (الثاني) أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث إنه رضاه فقط ، ويكون له لذة في استثمار مرضاه محبوبة منه تريد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كرامته ، فبعد ذلك يتصور أن يريده ما فيه الرضا ، فذلك قد انتهى حال بعض الحيين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استثمارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا ، فهوؤلاء إذا قدروا رضاه في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية ، وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت ، وإن ثبتت مثلا فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فالت به عن الاعتدال ؟ هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه ، وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المانع بفضلته على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا وجميع المسلمين .

بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أن الناس اختلفوا في ذلك ، فقال قائلون : الصبر أفضل من الشكر . وقال آخرون : الشكر أفضل . وقال آخرون : هما سياتن . وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال ، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل ، فلا معنى للتطويل بالنقل ، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى . فنقول : في بيان ذلك مقامان :

(المقام الأول) البيان على سبيل التساهل : وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلُب التنقيش بحقيقته وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الناعمة ، وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يمتد به الوعاظ ، إذ مقصود كلامهم من مخاطبة الدوام إصلاحهم ، والطائر المشفقة لا ينبغي أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السبان وضروب الحلاوات ، بل بالبين اللطيف ، وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملا لما يتوقته ، ويفارق الضعف الذي هو عليه في بنيتة فنقول : هذا المقام في البيان يأتي البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع ، وذلك يقتضي تفضيل الصبر ، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله فلذا أضيف إليه ماورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر ، بل فيه أفضا

صريحة في التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر »^(١) ، وفي الخبر يؤى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزء الشاكرين ، ويؤى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن يجزيك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تعالى : كلا ، أنعمت عليه ففكر وابتليتك فصبرت ، لأضعفن لك الأجر عليه ، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين^(٢) . وقد قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وأما قوله « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »^(٣) فهو دليل على أنَّ الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر ، فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر ، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم « الجمعة حج المساكين وجهاد للمرأة حسن التبعل »^(٤) وكقوله صلى الله عليه وسلم « شارب الخمر كسأب الوثن »^(٥) . وأبدا للشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان » لا يدل على أنَّ الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام الصوم نصف الصبر « فإن كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت ، كما يقال : الإيمان هو العلم والعمل ؛ فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أنَّ العمل يساوى العلم . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه . وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه »^(٦) ، وفي خبر آخر « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً »^(٧) ، وفي الخبر « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد ، وأول من يدخله أهل البلاد أمامهم أيوب عليه السلام »^(٨) .

وكل ماورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ؛ لأنَّ الصبر حال الفقير ، والشكر حال الثني ، فهذا هو المقام الذي يتقن العوام ويكتفهم في الرعظ والاتق والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

(المقام الثاني) هو البيان الذي يقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بمقتضى الأمور بطريق الكشف

(١) حديث « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » تقدم (٢) حديث : يؤى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزء الشاكرين ، ويؤى بأصبر أهل الأرض ... الحديث . لم أجده أصلاً . (٣) حديث « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » أخرجه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .

(٤) حديث « الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل » أخرجه البخاري من أبي أسامة في مسنده بالشار الأول من حديث ابن عباس بسند ضيف ، أو الطبراني بالشار الثاني من حديثه بسند ضيف أيضاً أن امرأة قالت : كتب الله إليهم أهل الرجال فما يدل ذلك من أعالمهم من الطاعة ؟ قال : طاعة أزواجهم . وفي رواية : ما جزاء غزوة المرأة ؟ قال طاعة الزوج ... الحديث . وفي القاسم بن قزاص ، وفتح أبو داود وضحه ابن ميثم وثاني رجاله ثقات . (٥) حديث « شارب الخمر كسأب الوثن » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « مدمن الخمر » ورواه يفظ « شارب » البخاري من أبي أسامة من حديث عبد الله بن عمر ، وكلاماً ضيف وقال ابن عدى : إن حديث أبي هريرة خطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصماني .

(٦) حديث « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه ، وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل « يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً » وقال : لم يروه إلا شبيب بن خالد وهو كوفي ثقة ، وروى البخاري من حديث أسد « أول من يدخل الجنة من أختي أم عبد الرحمن ابن عوف » وفي أغلب بن تميم ضيف . (٧) حديث « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً » تقدم حديث ما قبله . ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أسد بن مالك ، ودينار البجلي أحد الكذابين على أسد ، والحديث منكرو : (٨) حديث « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد . . الحديث » لم أجده أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة خرفة ، فروى مسلم من حديث أسد في الضعفاء والقوى نفس محمد بن عيسى عن أبيين المصريين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، ولأبيان عليه يوم وهو كلفظ من الزمام .

والإيضاح فنقول فيه : كل أمرين مهمين لا يمكن الموازنة بينهما مع الإجماع مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما ، وكل مكتشف يشتمل على أقسام لا يمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن نفرد الأحاد بالموازنة حتى يبين إرجحان . والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يبين حكمهما في إرجحان والتقصان مع الإجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة : علوم ، وأحوال ، وأعمال ، والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك ، وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها بالبعض لاح لناظرين في الظواهر أن السليم تراد للأحوال ، والأحوال تراد للأعمال ، والأعمال هي الأفضل ؛ وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك ؛ فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم ؛ فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال ؛ لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لاحالة أفضل منه ؛ وأما أحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تساوى وقد تفاوتت إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وكذا أحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض ؛ وكذا أحاد المعارف ؛ وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة ، بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد للمعاملة ؛ فمادتها إصلاح العمل ، وإتمامها العلم بالمعاملة على العابد إذا كان عليه مما يسم نفسه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل ؛ وإلا فالعلم بالتأصيل بالعمل ليس بأفضل من العمل بالقاصر ؛ فنقول : قاعدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب ، وقاعدة إصلاح حال القلب أن يتكشف له جلال الله تعالى ذاته وصفاته ، وأفعاله ، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه ، وهي النائية التي تطلب لإنائها ، فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ، ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة فأنما يشعر بها في الآخرة وفي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تقتيد بشيئها . وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها ، فلها إثمات تراد لأجلها . ولما كانت مرادة لأجلها كان تعاونها بحسب نفسها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى ؛ فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إمبارسة أو بوسائل كثيرة ، فكما كانت الوسائط بينه وبين معرفته تعالى أقل فهي أفضل وأما الأحوال فتعني بها أحوال القلب في تصفية وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق ، حتى إذا طهر وصفا تضح له حقيقة الحق ، فلذلك فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعدادها لأن تحصل له علوم المكاشفة ، وكان تصفية المرأة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال المرأة بعضها أقرب إلى الصفاة من بعض ، فكذلك أحوال القلب ، فالحالة القريبة أو القريبة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لاحالة بسبب القرب من المقصود ، وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه ، وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زعاجف الدنيا ، وإما أن يجلب إليه حالة مهمة المكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه . واسم الأول المعصية ، واسم الثاني الطاعة ، والمادى من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة ، وكذا الطاعات في توير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول المطلق ربما قول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وأن الحج أفضل من الصدقة ، وأن قيام الليل أفضل من غيره ، ولكن التحقيق فيه أن النى الذى معه مال وقد غلبه البخل وحسب المال على إساكه فخرج الهمم له أفضل من قيام ليل وصيام أيام ، لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أو منه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع ، فأما هذا المدير إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنه الشبع منه ، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره ، وهو كالمرضى الذى يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينفع به ، بل حقه أن ينظر في المهلك الذى استولى عليه ، والشبع المطاع من جملة

(١٨ - أحياء علوم الدين - ٤)

المهلكات ، ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة ، بل لا يزيله إلا إخراج المال ؛ فعليه أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذه بما ذكرناه ذريرع المهلكات فليرجع إليه ؛ فإذا باعتبار هذه الأحوال يختلف ، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ ، إذ لو قال لنا قائل : الخبز أفضل أم الماء ؟ لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للمائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتماعا فلينتقل إلى الأغلب ؛ فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، فإن تساوبا فهما متساويان ، وكذا إذا قيل : السكجيين أفضل أم شراب اللينفور ؟ لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا : السكجيين أفضل أم عدم الصفراء ؟ فنقول : عدم الصفراء ، لأن السكجيين مراد له ، وما يراد لنيره فذلك أفضل منه لاعماله ، فإذا في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ، وينبأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمرقة الله تعالى وجهه ، فالأفضل المعرفة ، ودونها الحال ، ودونها العمل .

• فإن قلت : فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ وقال تعالى ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟ فأعلم أن الطبيب إذا أتى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه ، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ، ومرض القلوب بما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لاسمراة معه ، فإنه لا يشعر به ، ولو ذكر له لا يصدق به . والسبيل معه المبالغة في الشاء على غسل الوجه بما الورود مثلا إن كان مالم الورود يزيل البرص ، حتى يستعنه فرط الشاء على المراقبة عليه فيزول مرضه ، فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه .

ولنضرب مثلا أقرب من هذا : من له ولد عليه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه ، وعلم أنه لو أمره بالترك والدراسة ليبقى له محفوظا لعل أنه محفوظ ولا حاجة في إلى تكرار ودراسة ، لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا ، وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجبل لتتوفر دأعيته على كثرة التكرار بالتعليم ، فرمما يظن العبيد المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم ، فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجمل منهم وأحر عند الوالد ، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد أقرر عليه دون تكليفي به ، وأعلم أن لا نقصان لأني بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن ، فرمما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استثناء أبيه وعلى كرمه في المغر عنه فينسى العلم والقرآن ويترك مديرا محروما من حيث لا يدري ، وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا : إن الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن أن يستعترض منا ، فأى معنى لقوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ ولو شاء الله اطعم المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم ، كما قال تعالى حكاية عن الكفار ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا بما رزقكم الله قال الذين كفروا الذين الذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمهم ﴾ وقالوا أيضا ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ﴾ فأنظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدهم ، فنبجان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل ﴿ يفضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ﴾ فهو لا لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو جل الله تعالى ثم قالوا لاحظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أسكننا : هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل

العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا ، وإنما كان ذلك من الوالد تطلقاً به في استجراؤه إلى ما فيه سعادته ، فهذا المثال يبين لك ضلال من خل من هذا الطريق ، فإذا هذا المسكين الآنجد مالك يستوفى بواسطة المال خيب البخل وحب الدنيا من باطنك ، فإنه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك ؛ فالحجام غادم لك لأنك غادم للحجام . ولا يفرج الحجام عن كونه غادماً بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئاً بالدم ، ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها ^(١) ، كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس ، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها ^(٢) ، والمقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع الملهكات ، والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة ، فهذا هو القول السلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ، وإن رجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول : في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل ، فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال ، أو العمل في الآخر ، بل يقابل كل واحد منها بنظيره حتى يظهر التناسب ، وبمد التناسب يظهر الفضل ، ومهما قبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة الشاكر : أن يرى نعمة العينيين مثلاً من الله تعالى . ومعرفة الصابر : أن يرى العسى من الله ، وهما معرفتان متلازمان متساويتان هذا إن اعتبرنا في البلاء والمصائب . وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية ، وفيما يتعد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة ، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى ، فالصبر والشكر فيه إسمان تسمى واحد اعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبراً بالإضافة إلى باعث الهوى ، ويسمى شكراً بالإضافة إلى باعث الدين ، إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة : وهو أن يصرخ به باعث الشهوة ، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة ، فهما عبارتان عن معنى واحد ، فكيف يفضل الشيء على نفسه : فإذا جرى الصبر ثلاثة : الطاعة ، والمعصية ، والبلاء وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية ، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة ، والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلاً ، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال ، أما العينان فحسب الاعى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العسى في بعض المحاصي ، وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأسرين : أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة ، وكل أحد من الأسرين لا يتخلل عن الصبر ؛ فإن الاعى كفى الصبر عن الصور الجلية لأنه لا يراها ، والبصير إذا وقع بصره على جيل فعصر كان شاكرًا لنعمة العينين ؛ وإن أبغى النظر كفر نعمة العينين ؛ فقد دخل الصبر في شكره ، وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضاً فيه من صبر على الطاعة ، ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ، ولولا هذا لكاتب رتبة شيعب عليه السلام مثلاً وقد كان ضريراً من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ، لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلاً ، ولكن الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلامه على وضوح وذلك حال جننا

(١) حديث النبي عن كسب الحجام : تهمد : (٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها . أخرجه مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة : أن هذه الصدقة لا تغل إلا أنما هي أوساخ القوم وإنها لا تغل لأهل محمد ولا لآل محمد ، وفي رواية له : « أوساخ الناس » .

لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين ، وشكرها باستعمالها فيها آلة
 نفسه من الدين ، وذلك لا يكون إلا بصبر ، وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال
 فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ماوراءه ، ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر ،
 ووجود الزيادة نعمة ، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات ، أو أن لا تستعمل في المعصية ، فإن أضيف
 الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل ، لأنه تضمن الصبر أيضا ، وفيه فرح بنعمة الله
 تعالى ، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التمتع المباح ، وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين
 أفضل من شيء واحد ، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض ، وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين
 أبعاضها ، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التمتع المباح فالصبر ههنا أفضل من
 الشكر ، والفقر الصابر أفضل من الثني المسك ماله الصارف لإياه إلى المباحات لا من الثني الصارف ماله إلى
 الخيرات ، لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى ، وهذه الحالة تستدعي لأعماله
 قوة ؛ والثني أبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح ، والمباح فيه مندوحة عن الحرام ، ولكن لا بد من
 قوة في الصبر عن الحرام أيضا ، إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها
 الاقتصاد في التمتع على المباح والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها ، فإن الأعمال لاتراد إلا لأحوال القلوب ،
 وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان ، فما دل على زيادة قوة الإيمان فهو أفضل لأعماله ،
 وجميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص
 لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال التي بها ، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان :
 الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية ، لأن يصرفها إلى الطاعة ، فإذا صبر أفضل من الشكر ، أي الصبر الذي
 تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة ، وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيـد رحمه الله حيث سئل
 عن الصبر والشكر : أيهما أفضل ؟ فقال : ليس مدح الثني بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم ، وإنما المدح في
 الاثنين قيامهما بشرط ماعليهما ، فشرط الثني يصحبه فيها عليه أشياء ثلاث صفته وتمتعها وتلاذذها ، والفقير
 يصحبه فيها عليه أشياء ثلاث صفته وتعبها وترعجها ، فإذا كان الاثنين قائمين لله تعالى بشرط ماعليهما كان الذي
 ألم صفته وأزعجها أتم حالا من متع صفته وتمتعها . والأمر على ما قاله ، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر
 في القسم الأخير الذي ذكرناه ، وهو لم يرد سواء . ويقال : كان أبو الدباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال :
 الثني شاكر أفضل من الفقير الصابر ، فدعا عليه الجنيـد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف
 أمواله وزوال حقه أربع عشرة سنة ، فكان يقول : دعوة الجنيـد أصابني ، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر
 على الثني الشاكر .

ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من التولين وجهها في بعض الأحوال ، فرب فقير
 صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ، ووب غني شاكر أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الثني الذي يرى نفسه مثل
 الفقير ، إذ لا يسلك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يسك ، على اعتقاده أن عازن
 للحتاجين والمساكين ، وإنما ينتظر حاجة تسبح حتى يصرف إليها ، ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت
 وللتقليد منه ، بل أداه حتى الله تعالى في تفقد عبادته ، فهذا أفضل من الفقير الصابر .

« فإن قلت : فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر ؛ لأن هذا يستمر لذة القدرة وذلك يستمر ألم الصبر ؛ فإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق » فأعلم أن الذي أراد أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكل حالاً عن ينفقه وهو يخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهراً . وقد ذكرنا تفصيلاً هذا فيما سبق من كتاب التوبة ، فأيلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها ، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد ، والكلب للتأديب أكل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابراً على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليهما في النهاية ، بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذتها عنده ، كما يصير التعلم عند الصبي المائل لذتها . وقد كان مؤلماً له أولاً ، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية - بل قبل البداية بكثير - كالصبيان ، أطلق الجنبه القول بأن الذي يؤلم صفة أفضل ، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق ، فإذا نكت لا تفصل الجواب وتطفله لإرادة الأكثر فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام ؛ فإذا أردت التحقيق ففصل ، فإن الصبر درجات أهلها ترك الشكوى مع الكرامة ، ووراءها الرضا وهو الرضا وهو مقام وراء الصبر ، ووراءه الشكر على البلاء وهو راء الرضا ؛ إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مغروح به ، وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أنصافاً ، ويدخل في حملتها أمور دونها ؛ فإن حياة العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظم حلم الله وكشف سره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر ، والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر ، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسايط شكر ؛ إذ قال عليه السلام : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله »^(١) ، وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة ، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدى المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر . وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر أحادها ؛ وهي درجات مختلفة ؛ فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار .

وقد روى عن بعضهم أنه قال : رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن فسأته عن حاله فقال : إنني كنت في ابتداء عمرى أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني ؛ فأنفق أنها زوجت مني ، فليلة زفافها قلت : نال حتى نحى هذه الليلة شكر الله تعالى على ما جمعت ، فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه ؛ فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك ، فصلينا طول الليل ، فند سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، ليس كذلك بأفلاحة ؛ قالت المعجوز : هو كما يقول الشيخ ؛ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفاقة ، أولو لم يجمع الله بينهما ، وانسب صبر الفاقة إلى شكر الرضا على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل ، فأذن لا وقوف على حقائق المفاضلات إلا بتفضيل كما سبق . والله أعلم .

(١) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » تقدم في الزكاة .

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربيع المنجيات من كتاب [حياء علوم الدين

زينب

الحمد لله المرجو لطفه ونوابه ، والخوف مكره وعقابه ، الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بطائفة آياته إلى النور بفتائه ، والدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه . وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المرضين عن حضرته إلى دار نوابه وكرامته ، وصدم عن التبرؤ لآثمته والتهدؤ لسنخه ونقمته ، قودا لأصناف الخلق بسلاسل النهر والمنف وأزمة الرفق والطف إلى جنته . والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خلقته وصلّى الله وأصحابه وعترته :

(أما بعد) فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المتزبون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل حبة كشود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقل الأعباء محفوقا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء - [لأزمة الرجاء . ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم - مع كونه محفوقا بطائفة الشهوات وعجائب الذات -] لاسياط التخويف وسطرات التعنيف ، فلا بد إذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتماثلهما . ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشمل على شطرين : الشطر الأول في الرجاء ، والشطر الثاني في الخوف .

أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء ، وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء ، والطرق الذي يمتثل به الرجاء .

بيان حقيقة الرجاء

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وأما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام ، وإلما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال ، وكذا أن الصفة تنقسم إلى ثابتة كصفة الذهب ، وإلى سريعة الزوال كصفة الرجل ، وإلى ماهو بينهما كصفة المريض ، فكذا صفات القلب تنقسم هذه الأنقسام ، فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب ؛ وغرضنا الآن حقيقة الرجاء ، فالرجاء أيضاً يتم من حال وعلم وعمل ، فالعلم سبب يشر الحال . والحال يقتضي العمل ، وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة ، وبيانه : أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحروب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في المستقبل ، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكراً وتذكراً ، وإن كان ماخطر بقلبك موجوداً في الحال سمي وجداً وذوقاً وإدراكاً ، وإلما سمي وجداً لأنها حالة تجدهما من نفسك ، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في المستقبل وغلب ذلك على قلبك سمي انتظاراً وتوقفاً ، فإن كان المنتظر مكروها حصل منه ألم في القلب سمي خوفاً وإشفاقاً ، وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتملق القلب به وإخطار وجوده بالبال أذة في القلب وأرتياح سمي ذلك الارتياح رجاء ، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ماهو محبوب عنده ، ولكن ذلك

المحبوب المتوقع لآبته وأن يكون له سبب ، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظارا مع انخراط أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحق عليه أصدق من اسم الرجاء ، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب . وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، أما ما يقطع به فلا ، إذ لا قال : أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب ، لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقضاءه . وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزورة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبنجر فيه ، والطاعات جارية بحرى تغليب الأرض وتطهيرها وبحرى حفر الأنهار وسياقه الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلنا ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة ، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ، ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ، ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، سمي انتظاره رجاء . وإن بك البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشغل بتمهيد البذر أصلا ، ثم انتظر الحصاد منه ، سمي انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء . وإن بك البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء أو أخذ ينتظر مياه الأنهار حيث لا تغلب الأمطار ولا تتمتع أيضا : سمي انتظاره تمنيا لا رجاء ؛ فإذا سمى الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تتمهد جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس بدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف التواطع والمفسدات ؛ فالعبد إذا بك بذر الإيمان ، وسقاها بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى ثبته على ذلك إلى الموت وحسن الحاتمة المفضية إلى المغفرة : وكان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعتباره على اللواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت ؛ وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات ، وترك القلب مشغورا بذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حق وغرور ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا أحق من أن يعذب نفسه هوأها وتمنى على الله الجنة » ، وقال تعالى ﴿ تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ وقال تعالى ﴿ تخلف من بعدهم خائفون ﴾ الكتاب يأخذون عرض هذا الأذى ويقولون سيفرن لنا) وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال ﴿ ما أظن أن تعيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلباً ﴾ فإذا العبد اجتهد في الطاعات المحتجب للمعاصي حقق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة . وأما المعاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير تحقيق بأن يرجو قبول التوبة . وأما قبل التوبة إذا كان كارهيا للمعصية تسوء السيئة ونسره الحسنه وهو يذم نفسه ويلومها ويستهيئ التوبة ويشاقق إليها ، لتحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ؛ لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى بحرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة ، وإنما الرجاء بمنه . تأكد الأسباب ، ولذلك قال تعالى ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود

الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ؛ ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء ، فأما من ينهلك فيأبى كرهه الله تعالى ولا يندم نفسه عليه ولا يذم على التوبة والرجوع ، فربماؤه المنفرة حق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتهدده بسقي ولا تقيية . قال يحيى بن مازد : من أعظم الاعتزاز عندى القادى فى الذنوب مع رجاء الغفران من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بنير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر التماس ، وطلب دار اللطيمين بالمعاصي ، وانتظار الجزاء بنير عمل ، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تبحر على اليبس

فلذا عرفت حقيقة الرجاء ومفنته فقد تليت أنها حالة أثمرها العلم بحريان أكثر الأسباب ، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاءؤه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتمهدها وتنحية كل حشيش يثب فيها فلا يفر عن تمهدها أصلا إلى وقت الحصاد ، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس ، واليأس يمنع من التمدد ، فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا يثب ؛ فيترك لأحالة تفقد الأرض والتعب في تمهدها ، والرجاء محمود لأنه باعث ، واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل ، والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة ، فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمراظلة على الطاعات كينها فقلت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتتمتع بمناجاته والتلطف في التلق له ، فإن هذه الأحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى ؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والتورق في حضيض الضرر والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء . ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل ، وبدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل ، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد علامة فيمن لا يريد ؟ فقال : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أحب الخير وأمله ، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بشوابه ، وإذا فاقني منه شيء حزننت عليه وحننت إليه . فقال : هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هياك لما شئ لا يسألني في أى أوديتها هلكتك ، فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير ، فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور (١) .

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له ، والحب يقبل الرجاء ، واعتبر ذلك بممكن يندم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيا في وقت الموت : قال تعالى (لا تنظروا من رحمة الله) لحرم أصل اليأس ، وفي اعتبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أرحم إلى . أتدري من فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنت غافل عن خفت الذئب ولم ترجى ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له . وقال صلى الله عليه وسلم : لا يموت

(١) حديث : قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامة فيمن لا يريد ... الحديث . أخرجه العبداني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ، وفيه أنه قال : أنت زيد الخير . وكذا قال ابن أبي حاتم سمعته صلى الله عليه وسلم زيد الخير يروى عنه حديث ، وذكره في حديث يروى : تمام زيد الخير فقال : يا رسول الله ... الحديث ، سمعت أبي يقول ذلك

أحدكم إلا وهو يحسن بالله تعالى ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ؟ يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي في فليظن في ما شاء ^(٢) . ، ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الزرع فقال : كيف تجدك ؟ فقال : أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي . فقال صلى الله عليه وسلم : ما اجتماع في قلب عبدي هذا الوطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه بما يخاف ^(٣) ، وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : يا هذا بأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان : من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى فقره عليه ورجاه غفرانه غفر الله له ذنبه ، قال : لأن الله عز وجل عبقروما فقال ^(٤) : وذلك ظنكم الذي ظنتم بربكم أركاكم ^(٥) وقال تعالى ^(٦) : وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإن لفقه الله حجة قال : يارب وجوهك وخفت الناس . قال : فيقول الله تعالى . قد غفرت لك ^(٨) ، وفي الخبر الصحيح : أن رجلا كان يباين الناس فيسألهم الفتي ويتجاوز عن المنكر فلقى الله ولم يعمل خيرا قط ، فقال الله عز وجل : من أحق بذلك منا ^(٩) ، فمعا عنه حسن ظنه ورجاه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات . وقال تعالى ^(١٠) : إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ^(١١) ولما قال صلى الله عليه وسلم : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصدقات لتلهمون صدوركم وتجارون إلى ربكم ، فهبط جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقول لك لم تقط عبادي ؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم ^(١٢) . وفي الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام . أحسن وأحب من يحسن ويحبنى إلى خلقى . فقال : يارب ، كيف أحبيك إلى خلقك ؟ أذكرني بالحسن الجميل وأذكر آلائي وإحسانى وذكرهم ذلك فأنهم لا يعرفون مني إلا الجليل ^(١٣) ورؤى أبان بن أبي عياش في الثوم وكان يكثُر ذكر أبواب الرجاء فقال : أوقفني الله تعالى بين يديه فقال : ما لي حملك على ذلك ؟ فقلت : أردت أن أحبيك إلى خلقك ، فقال : قد غفرت لك . ورؤى يحيى بن أكرم بعد موته في الثوم ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني الله بين يديه وقال : يا شيخ السوء ، فقلت وفعلت ، وقال : فأخذني من الرعب ما يملأ الله ، ثم قلت : يارب ما هكذا حدثت عنك ، فقال : وما حدثت عنى ؟ فقلت : حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت : أنا عند ظن عبدي في فليظن في ما شاء ، وكنت أظن بك أن لا تمضي ، فقال الله عز وجل : صدق جبريل وصدق نبي ، وصدق أنس ، وصدق الزهري ، وصدق معمر ، وصدق عبد الرزاق وصدقك قال فألبست موسى بين

- (١) حديث : لا يؤمن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله . أخرجه مسلم من حديث جابر .
 (٢) حديث : أنا عند ظن عبدي في فليظن في ما شاء . أخرجه ابن حبان من حديث واثقه بن الأسمع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله « فليظن في ما شاء » . (٣) حديث : دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الزرع فقال : كيف تجدك ؟ الحديث . ورواه الترمذي وقال غريب ، والنسائي في الكبرى ، وابن ماجه من حديث أسد وقال الترمذي : إسناده جيد . (٤) حديث : إن الله يقول للعبد يوم القيامة : ما منك إذ رأيت المنكر أن تنكره ... الحديث . أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد ، وقد تقدم في الأمر بالمعروف .
 (٥) حديث : إن رجلا كان يباين الناس فيسألهم الفتي ويتجاوز عن المنكر ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي مسعود . وحسب رجل من كان فيسأل فلما يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخاطب الناس وكان موسرا فكان يأمر غلامه أن يتجاوزوا عن المنكر قال الله عز وجل : نحن أحق بذلك ، تجاوزوا عنه . وافقنا عليه من حديث حذيفة وأبي هريرة بنحوه .
 (٦) حديث : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ... الحديث « وفيه » فهبط جبريل ... الحديث . أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة ، فأوهى معلق عليه من حديث أنس ، ورواه زيادة ، ولخرجتم إلى الصدقات « أخرجه أحمد والحاكم ، وقد تقدم . (٧) حديث : إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام أحسن وأحب من يحسن . الحديث .
 (٨) لم أجده أصلا ، وكأنه من الإسرائيليات كالتى قبله .

بدي الرومان إلى الجنة ، فقلت : يا لها من فرحة . وفي الخبر : أنَّ رجلاً من بني إسرائيل كان يقبض الناس ويشد عليهم ، قال : فيقول له الله تعالى يوم القيامة : اليوم أويستك من رحمتي كما كنت تقبض عبادي منها ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنَّ رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى : يا بنان يا بنان ، فيقول الله تعالى لجبريل : اذهب فائتني بهمدي . قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى : كيف وجدت مكانك ؟ فيقول : شر مكان . قال : فيقول ردوه لى مكانه . قال : فيمضى ويلتفت إلى ورائه ، فيقول الله عز وجل : إلى أى شئ ملتفت ؟ فيقول : لقد رجوت أنَّ لا تميدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها ، فيقول الله تعالى : اذهبوا به إلى الجنة ^(٢) ، فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته ، فسأل الله حسن التوفيق بلفظه وكرمه .

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أنَّ هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة ، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله ، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال ؛ فأما العاصي المفرور المتعنى على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تغلب سموما مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفا لمن غلب عليه البرد ، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة ، بل المفرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب الملهجة له ، فلهاذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً ناظراً إلى مواقع اللال معالجاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها ، فإنَّ المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها ؛ فإذا جازر الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يردّه إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط ، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب ، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويردهم بالكيفية ، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استئالة القلوب واستعطاف الخلق بالتناء كيفما كانوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فساداً وازداد المهتمسون في طغيانهم تمادياً . قال على كرم الله وجهه (إنما العالم الذي لا يقبض الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله .

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعاً لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطيب الحاذق لاستعمال الآخرق الذي يظن أن كل شئ من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يغلب بشيئين ، أحدهما : الاعتبار ، والآخر : استقراء الآيات والأخبار .

أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وبجائهم حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام

(١) حديث : أنَّ رجلاً من بني إسرائيل كان يقبض الناس ويشد عليهم ... الحديث ، وواله البيهقي في المعجمين زهير بن أسلم ، فذكره مقطوعاً . (٢) حديث : أنَّ رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا بنان يا بنان . الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الثناء بالله ، والبيهقي في المعجم وشافيه من حديث أسلم .

الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستفراص الحاجبين واختلاف أوزان العينين وحرمة الشفتين وغير ذلك مما كان لا يتلذذ بفقدته غرض مقصود ؛ وإنما كان يفوت به مزلة جمال ، فالعناية الإلهية إذا لم تقتصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لبناءه أن تفوتهم المزايا والمزايا في الرتبة والحاجة كيف يرضى يساقهم إلى الهلاك المؤبد ، بل إذا نظر الإنسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيئ له أسباب السعادة في الدنيا ، حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلا أو لا يحشر أصلا فليست كراهتهم للمم لا لأن أسباب النعم أغلب لاحالة ، وإنما الذي يتنمى الموت نادر ، ثم لا يتنمى إلا في حال نادرة وراقمة هاجمة غريبة ، فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجهد لها تبديلا ، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لأن مديبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم ، فهذا إذا توكل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ، ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وسننها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها ، حتى كان بعض الصوفيين يرى آية المدائنة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء . فقيل له : وما فيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الإنسان منها قليل ، والدين قليل عن رزقه ، فانظر كيف أزل الله تعالى فيه أطول آية يهدى عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه ، فكيف لا يحتفظ دينه الذي لا عوض له منه ؟

الفن الثاني : استقراء الآيات والأخبار ، فما ورد في الرجاء خارج عن المحصر ، أما الآيات فقد قال تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا يزال إنه هو الغفور الرحيم)^(١) وقال تعالى (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض) وأخبر تعالى أن النار أعتدها لأعدائه ، وإنما خوفها أوليائه وقال (لهم من فوقهم ظلال من النار ومن تحتهم ظلال ذلك يصفو الله به عباده) وقال تعالى (واتقوا النار التي أعتدت للكافرين) وقال تعالى (فأندركم ناراً تنظى لا يصلها إلا الأشتى الذي كذب وتولى) وقال عز وجل (وإن ربك ذو مغفرة للناس على ظلمهم) ويقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له : أما ترى وقد أنزلت عليك هذه الآية (وإن ربك ذو مغفرة للناس على ظلمهم)^(٢) . وفي تفسير قوله تعالى (وسوف يعطيك ربك فترضى) قال : لا يرضى بمحدود واحد من أمته في النار ، وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول : أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية ، ونحن أهل البيت نقول : أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى (وسوف يعطيك ربك فترضى) وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة مجمل الله عنها في الدنيا : الزلازل والفتن ، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمي رجل من أهل الكتاب فقيل : هذا فداؤك من النار »^(٣) ،

(١) حديث : قرأ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يزال أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب . (٢) حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل حتى قيل له : أما ترى وقد أنزلت عليك (وإن ربك ذو مغفرة للناس على ظلمهم) لم أجده بهذا القبط . وروى ابن أبي حاتم والبيهقي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسهب قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا عفو الله ومحاربه ما أضحى أحدنا البش ... الحديث » . (٣) حديث أبي موسى « أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها مجمل الله عليها في الدنيا الزلازل والفتن ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه . (٤) فإذا كان يوم القيامة ... الخ . فرواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف ، وفي صحيحه من حديث أبي موسى كاسياني ذكره في الحديث الذي يليه .

وفي لفظ آخر « يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودى أو نصرانى إلى جهنم فيقول : هذا فدايتى من النار فيلق فيها ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « الحى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار ^(٢) » ، وروى في تفسير قوله تعالى « يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه » أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام : « إنى أجعل حساب أمثلك إليك » قال « لا يارب أنت أرحم بهم منى » فقال « إذن لا تخزيك فيهم ^(٣) » . وروى عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال « يارب أجعل حسابهم إلى ثلاثين طلع على مساوهم غيرى ، فأوحى الله تعالى إليه : هم أمثلك وهم عبادى ، وأنا أرحم بهم منك ، لا أجعل حسابهم إلى غيرى ثلاثين تنظر إلى مساوهم أنت ولا غيرك ^(٤) » . وقال صلى الله عليه وسلم « حياتى خير لكم وموتى خير لكم ، أما حياتى فأمن لكم السنن وأمرع لكم الفرائع . وأما موتى فلئن أعمالكم تعرض على فأرايت منها حسناً حمدت الله عليه ، وأما موتى فمنا سيئنا استغفرت الله تعالى لكم ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم يوما « يا كريم العفو » فقال جبريل عليه السلام : أقدرى ما تفسير : يا كريم العفو ؟ وإن عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكمه ^(٦) . وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول : اللهم إني أسألك تمام التهمة . فقال « هل تدري ما تمام التهمة ؟ » قال لا . قال « دخول الجنة ^(٧) » قال السلياء : قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى « وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » وفى الخبر « إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فلم أعلم له ربا ينظر الذنوب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أنى قد غفرت له ^(٨) » وفى الخبر « لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عتات السماء غفرتها له ما استغفرتى ورجائى ^(٩) » وفى الخبر « لوليتى عبدى بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة ^(١٠) » وفى الحديث « إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات ، فلئن تاب واستغفر لم يكتبه عليه ولا كتبها سيئة ^(١١) » ، وفى لفظ آخر : « فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب الجنين لصاحب

- (١) حديث « يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودى أو نصرانى إلى جهنم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى موسى . وإذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول : هذا فداؤك من النار » وفى رواية له « لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً » . (٢) حديث « الحى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار » أخرجه أحمد من رواية أبى صالح الأشرى عن أبى أمامة ، وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه . (٣) حديث « إن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم إنى أجعل حساب أمثلك إليك » فقال « لا يارب أنت خير لهم منى ... الحديث » فى تفسير قوله تعالى « يوم لا يخزى الله النبي » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله . (٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب أمته فقال « يارب أجعل حسابهم ... الحديث » لم أقبله على أصل . (٥) حديث حياتى خير لكم وموتى خير لكم ... الحديث أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى داود وكنز أئمه لمسلم ووهبة ابن ميثم واللساني قد ضعه كتيرون ، ورواه المارث بن أبى أمامة فى مسنده من حديث أنس بنحوه بإسناد ضعيف . (٦) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوماً « يا كريم العفو » فقال جبريل . أقدرى ما تفسير يا كريم العفو ؟ الحديث : لم أجده من الذى صلى الله عليه وسلم ، والوجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل ، هكذا رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة . بن قول عتبة بن الوليد . ورواه البيهقى فى الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال : حدثنى بنى الزهاد ... فقد ذكره . (٧) حديث سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك تمام التهمة ... الحديث : تقدم . (٨) حديث « إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى للملائكة انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فلم أعلم له ربا ينظر الذنوب » متفق عليه من حديث أبى هريرة يلفظ « إن عبداً أذنب ذنباً فقال : أى رب أذنبت ذنباً فأغفر لى ... الحديث » وفى رواية « وأذنب عبيد ذنوباً فقال ... الحديث » (٩) حديث « لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عتات السماء ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أنس ، وابن آدم لوليت ذنوبك عتات السماء ما استغفرتى غفرت لك » وقال : حسن . (١٠) حديث « لوليتى عبدى بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة » أخرجه مسلم من حديث أبى ذر . ومن لقي بقراب الأرض خطيئة لا يفرجك من شيطان لقيه بعتاه مغفرة » والترمذى من حديث أنس القى له « يا ابن آدم لوليتى ... الحديث » (١١) حديث « إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات ، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه ... الحديث » قال : وفى لفظ آخر « فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب الجنين لصاحب السبيل =

الشال وهو أمير عليه : ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسنته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات ، فتلقى عنه السيئة ، وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال : إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه ، فقال أعرابي : وإن تاب عنه ؟ قال : عفى عنه ، قال : فإن عاد ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : يكتب عليه ، قال الأعرابي : فإن تاب ؟ قال : عفى من خطيئته ، قال : إلى متى ؟ قال : إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل ، إن الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار ؛ فإذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليقين حسنة قبل أن يعملها ، فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعائة ضعف ، وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل ^(١) .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلي إلا الحس لا أزيد عليها ، وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع ؛ أين أنا إذا مت ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : نعم معي ، إنا حفظت قلبك من التفتين : الفل ، والحسد ؛ ولسانك من التفتين : الغيبة ، والكذب ؛ وعينيك من التفتين : التلثر إلى ما حرم الله ، وأن تردى بهما مسلماً . دخلت معي الجنة على راحتي هاتين ^(٢) ، وفي الحديث الطويل لأبي أنس : أن الأعرابي قال : يا رسول الله ، من يلى حساب الخلق ؟ فقال : والله تبارك وتعالى ، قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم ، فتبسم الأعرابي ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : هم ضحكك يا أعرابي ؟ ، فقال : إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب ساء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق الأعرابي ، ألا لا كريم أكرم من الله تعالى ، هو أكرم الأكرمين ، ثم قال : فقه الأعرابي ^(٣) ، وفيه أيضاً : إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبداً هدمها حجراً حجراً ثم أهرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى ، قال الأعرابي : ومن أولياء الله تعالى ؟ قال : المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى ، أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ ، وفي بعض الأخبار : للمؤمن أفضل من الكعبة ^(٤) ، وود للمؤمن طيب

= وهو أمير عليه : ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسنته واحدة من تضعيف العشر... الحديث « أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضاً أطول منه وفيه « لئن صاحب اليقين أمير على صاحب الهبال » وليس فيه : أنه يأمر صاحب الهبال بإلقاء السيئة حتى يأتى من حسنته واحدة ، ولم أجد ذلك أصلاً .

(١) حديث أنس « إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه » فقال أعرابي : فإن تاب عنه ؟ قال : عفى عنه ، قال : فإن عاد ؟ .. الحديث . وفيه « إن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار » الحديث أخرجه البيهقي في الشعب باللفظ : يا رسول الله إني أذنبت ذنباً . قال : « استغفر ربك » قال : « تأستغفر ثم أعود . قال : « فإذا عدت فاستغفر ربك » ثلاث مرات أو أربعاً . قال : « فاستغفر ربك حتى يسكن الشيطان هو المسجون المحذور » وفيه أبو بكر بن الحكيم المصري يشكر الحديث . وروى أيضاً من حديث عوف بن عامر : « أحداً يذنب ؟ قال : يكتب عليه » قال : « ثم يستغفر ويتوب ؟ قال : « بفرقاً وتتاب عليه » قاله : فيموت . الحديث . وفيه « لا يمل الله حتى تتلوا » وليس في الحديثين قوله في آخره « فإذا هم العبد بحسنة . الخ » وهو في الصحيحين نحوه . من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها برويه عن ربه « فإن هم بحسنة فلم يصليها كتبها الله عنه حسنة كاملة ، وإن لم يعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعائة ضعف أو مائة ضعف كثيرة ، وإن هم بخطيئة لم يكتبها الله عنها حسنة كاملة ، فإن هم بها فعلها كتبها الله سيئة واحدة » زاد مسلم في رواية « أو عماها الله ولا يملك على الله إلا هالك » ولها نحوه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث : جاء رجل فقال : يا رسول الله إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلي إلا الحس لا أزيد عليها ، وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع ... الحديث تقدم . (٣) حديث أبي الطويل : قال أعرابي : يا رسول الله ، من يلى حساب الخلق ؟ قال : الله تبارك وتعالى ، فقال هو بنفسه ؟ قال : نعم ، فتبسم الأعرابي . الحديث ، لم أجد له أصلاً .

(٤) حديث : المؤمن أفضل من الكعبة « أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر باللفظ « ما أعظمك وأعظم حرمتك ، وإني نفسي بيده لحزمة المؤمن أعظم حرمة منك والله ودمه وأن يظن به إلا خيراً » وشيخه نصر بن محمد بن سليمان الحمصي ضعفه أبو حاتم ووجه ابن حبان ، وقد تقدم .

ظاهر^(١) . و « المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة »^(٢) ، وفي الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة »^(٣) . وفي خبر آخر « يقول الله عز وجل : إنما خلقت الخلق ليرجوا علي ولم أخلقهم لأرجع عليهم »^(٤) ، وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما ينل به وجعل رحمته تنقلب غضبه »^(٥) ، وفي الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي تغلب غضبي »^(٦) ، وعن معاذ بن جبل وأبى بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة »^(٧) . و « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تحسبه النار »^(٨) . و « من أتى الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار »^(٩) . و « لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان »^(١٠) . وفي خبر آخر « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما آس من جنته أحد »^(١١) ، ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ قال « أتدرون أي يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لأدم عليه الصلاة والسلام : قم فأبعت بعت النار من ذريتك ، فيقول : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة » قال : فأبسط القوم وجعلوا يبكون وتعتلو يروهم عن الاشتغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « ما لكم لا تملكون ؟ فقالوا : ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا ؟ فقال : « كم أنتم في الأمم ؟ أين تأويل وتاريخ ومسلك وما جوج وأسلاج ؟ أم لا يحصيها إلا الله تعالى ، إنا أنتم في سائر الأمم كالشجرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، وكالرفقة في ذراع الدابة »^(١٢) ، فانظر كيف كان الخوف يسوق الخلق ببساطة الخوف ويقودهم بأزمنة

- (١) حديث « المؤمن طيب ظاهر » لم أجده بهذا اللفظ ، وفي الصحيحين من حديث حذيفة « المؤمن لا ينجس » .
- (٢) حديث « المؤمن أكرم على الله من الملائكة » أخرجه ابن ماجه ، ورواية أبي المهزم يزيد بن ميان عن أبي هريرة بلفظ « المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة » وأبو المهزم تركه شعبة وضمه ابن ميين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف . (٣) حديث « خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده إلى الجنة » لم أجده هكذا ، وبني عنه ما رواه البيهقي من حديث أبي هريرة « يجب ربنا من قوم يجاه بهم إلى الجنة في السلاسل » .
- (٤) حديث « قال الله تعالى إنما خلقت الخلق ليرجوا علي ولم أخلقهم لأرجع عليهم » لم ألق له على أصل .
- (٥) حديث أبي سعيد « ما خلق الله شيئا إلا جعل له ما ينل به وجعل رحمته تنقلب غضبه » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب ، وفيه عبد الرحمن بن كردم جهه أبو حاتم ، وقال صاحب الميزان : ليس بواه ولا يجهول .
- (٦) حديث « إن الله كتب على نفسه بفضه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي تغلب غضبي » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .
- (٧) حديث معاذ وأبى « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » أخرجه الطبراني في المعجم بلفظ « من مات يهتد » .
- (٨) وقد تقدم من حديث معاذ ، وهو في اليوم واليلة لقناني بلفظ « من مات يهتد ... » وقد تقدم من حديث معاذ ، ومن حديث أنس أيضا ، وقد تقدم في الأذكار . (٩) حديث « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تحسبه النار » أخرجه أبو داود والمسلم وصححه من حديث معاذ بلفظ « دخل الجنة » . (١٠) حديث « من أتى الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار » أخرجه الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لهذا « ما من عبد يهتد أن لا إله إلا الله وأن عبد الله ورسوله إلا حرم الله على النار » وزاد البيهقي . « ساد من قلبه » وفي رواية له « من أتى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة » ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ « جعل الله في الجنة » ولقد أتى من حديث أبي هريرة الإصصاري في أثناء حديث فقال « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عبد يؤمن حقا إلا أجاب عن النار يوم البياضة » . (١١) حديث « لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان » أخرجه أحمد من حديث سهل بن بيضاء . من شهد أن لا إله إلا الله حرم الله على النار » وفيه انقطاع ، وله من حديث عثمان ابن عفان « أتى لأهل مكة لا يفرقوها حقا من قلبه إلا حرم على النار » قال عمر بن الخطاب : هي كلمة الإخلاص ، وإسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من الموحدين النار وإخراجهم بالشفاعة ، لم يأت في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد ، وفيه « فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه » وقال مسلم « من خير » بدل « من إيمان » . (١٢) حديث « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما آس من جنته أحد » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (١٣) حديث : « لا زلزلة الساعة شيء عظيم » قال « أتدرون أي يوم هذا ؟ ... » الحديث « أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين وقال : حسن صحيح . قلت : هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسم منه » وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد .

الرجاء إلى الله تعالى ، إذ ساقهم بسياط الخوف أولاً ، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس وادام بدواء الرجاء وودم إلى الاعتدال ، والقصد والآخر لم يكن منافضاً للأول ولكن ذكر في الأول ما رآه سبياً للشفاء واقصر عليه ، فلما احتاجوا إلى المالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر ، فعل الواظ أن يقتدى بسيد الواظ فيتطلف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة المال الباطنة ، وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد برعته أكثر مما يصلحه ، وفي الخبر « لو لم تذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم ^(١) » ، وفي لفظ آخر « لذهب بكم وجاء بخلق يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم » ، وفي الخبر « لو لم تذنبوا لحشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل : وما هو ؟ قال : العجب ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده أنه أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها ^(٣) » ، وفي الخبر « ليغفر الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد ، حتى إن إبليس ليتناول لها رجاء أن تصيبه ^(٤) » ، وفي الخبر « إن الله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنه تسعاً وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يترحم الخلق ، فتحن الوالدة على ولدها وتمطف الهمية على ولدها ، فلذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض . قال : فلا يملك على الله يومئذ إلا هالك ^(٥) » ، وفي الخبر « ما منكم من أحد يدخله عمل الجنة ولا ينجي من النار » قالوا : ولأنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتمغنني الله برحمته ^(٦) » ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعلموا وابشروا واعلموا أن أحدنا إن ينجي عمله ^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي أترونها للظالمين الثقلين بل هي للتائبين المخطئين ^(٨) » ، وقال عليه الصلاة والسلام « بشت بالخنيفية السمعة السهلة ^(٩) » ، وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى « أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا سماحة ^(١٠) » ، ويدل على معناه استجابة الله تعالى للؤمنين في قولهم « ولا تحمل علينا إصراً » وقال تعالى « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال « لما نزل قوله تعالى « فاصفح الصفيح الجليل » قال « يا جبريل ، وما الصفيح الجليل ؟ قال عليه السلام : « إذا عفوت عن طلبك فلا تنابه » فقال « يا جبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه » فبكي جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبش الله تعالى

- (١) حديث « لو لم تذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم » . وفي لفظ « لذهب بكم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي أيوب ، واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريباً منه . (٢) حديث « لو لم تذنبوا لحشيت عليكم ما هو شر من الذنوب » قيل ما هو ؟ قال « العجب » أخرجه الزائر وابن حبان ، في الصفراء ، والبيهقي في الشعب من حديث أس ، وهمم زعم السكوني والعجب (٣) حديث « والذي نفسي بيده أنه أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب (٤) حديث « لينفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الثناء بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف . (٥) حديث « إن الله تعالى مائة رحمة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « ما منكم من أحد يدخله عمل الجنة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم . (٧) حديث « اعلموا وابشروا واعلموا أن أحدنا إن ينجي عمله » تقدم أيضاً . (٨) حديث « إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ... الحديث » أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة « لكل نبي دعوة وأنا خبات دعوتي شفاعتي لأمتي » . ورواه مسلم من حديث أس ، ولقوله من حديثه « ووصفه » وابن ماجه من حديث جابر « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ، ولأن ماجه من حديث أبي موسى ، ولأحد من حديثنا بن عمر « خيرتين المفاعاة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة » ، فأخبرت المفاعاة لأنها أعم وأكبر ، أترونها للتائبين ... الحديث » وفيه لم يسم . (٩) حديث « بشت بالخنيفية السمعة السهلة » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بنند ضعيفون قوله « السهلة » ولعله الطبراني من حديث ابن عباس « أحب الذين إلى الله الخنيفية السهلة » وفيه محمد بن اسحق رواه بالسنة . (١٠) حديث « أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا سماحة » رواه أبو عبيد في غريب الحديث ، واحد .

إلهاميكائيل عليه السلام وقال : إن ربكاً يرفعك السلام ويقول : كيف أعائب من عفوت عنه ، هذا ما لا يشبه كرمي^(١) والآنبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال على كرم الله وجهه : من أذنب ذنباً فسفره الله عليه في الدنيا فاته أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة ، ومن أذنب ذنباً فموت عليه في الدنيا فاته تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة . وقال الثوري : ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبري لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم في منها . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصي الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكلف محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه : إن العبد إذا كان مسرفاً على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول يارب حببت للملائكة صوته ، وكذا الثانية والثالثة ، حتى إذا قال الرابعة : يارب ، قاله الله تعالى : حتى متى تحجبون عني صوت عبدي ، قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر له الذنوب غيري ، أشهدكم أني قد غفرت له وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله عليه : خلال الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة ، فوفقت في الملتزم عند الباب فقلت : يارب اعصمني حتى لا أضيعك أبداً ، فهفت في هاتف من البيت : يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك ، فإذا عصمتهم فعل من أفضل ؟ ولم أغفر ؟ وكان الحسن يقول : لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قبه بالذنوب . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالחסنين . ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له : إلى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال : يا أبا يحيى ، إلى لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تغرق له كساءك هذا من الفرح . وفي حديث ربيع بن حراش عن أخيه - وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت - قال : لما مات أخى يحيى شوبه وأقنياء على نفسه ، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعداً ، وقال : إلى أقيمت ربي عز وجل لحياي بروح وريحان وربي غير غضبان ، وإلى رأيت الأمر أيسر بما تظنون فلا تغفروا ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم يلتظرنى وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال : ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت ، فحملناه ودفناه .

وفي الحديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى ، فكان أحدهما يسرف على نفسه ، وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويرجعه ، فكان يقول : دعني وربي ، أبعت على رقيباً ، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال : لا يغفر الله لك . قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيسطيع أحد أن يحظر رجلي على عبادي ، اذهب أنت فقد غفرت لك ، ثم يقول للمعابد : وأنت فقد أوجبت لك النار . قال : فوالذي نفسى بيده لقد تكلم بكلمة أهلكك دنياه وآخرته^(٢) .

وروى أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة ، فز عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحوارين ، فقال اللص في نفسه : هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثاً ، قال : فنزل ليعلم يريد أن يدنو من الحوارى ويردري نفسه تمطيط الحوارى ويقول في نفسه : مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد . قال : وأحس الحوارى به ، فقال في نفسه : هذا يمشي إلى جانبي ، فطم نفسه وشمى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ، فشمي بجنبه فبقى اللص خلفه ، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة

(١) حديث محمد بن الحنفية عن علي : لما نزل قوله تعالى (فاصبح الصبح الجليل) قال : « يا مبريل وما الصبح الجليل ؟ » قال : إذا عفوت من ظلمك فلا تنابه ... الحديث « أخرجه ابن مردويه في تهذيبه موقوفاً على علي بن أبي طالب ، قال : الرضا بن عتبات ، ولم يذكر بقية الحديث ، وفي إسناده نظر . (٢) حديث « أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً ... الحديث » رواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد .

والسلام . قل لها ليستأنفا العمل فقد أحبطت ماسبق من أعمالها ؛ أما الحوارى فقد أحبطت حسناتها لمجبه بنفسه ، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما أزدرى على نفسه ، فأخبرهما بذلك وضم الص إلى إله في سياحته وجعله من حواريه .

وروى عن مسروق أن نبياً من الأنبياء كان ساجداً فوطئ عتقه بعض المصاة حتى أرق الحصى بجمه ، قال : فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مضطرباً قال « اذهب فلن ينفراقه لك » فأوحى الله تعالى إليه : تتألى على في عبادى ، إلى قد غفرت له .

ويقرب من هذا ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ويلتئم في صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى (ليس لك من الأمر شيء) الآية ، فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى طاعة أولئك للإسلام^(١)

وروى في الآخر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة ، قال : فإذا أدخلنا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول : يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر منى عبادة فرفعت على في عليين ، فيقول الله سبحانه : إنه كان بسأئى في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسأئى النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤاله ، وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الراجى منها على الخائف . فكأن من فرق في الملوك بين من يخدم انقياداً لمقابله وبين من يخدم ارتجاءاً لإنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريماً^(٢) ، وقال : إذا سألت الله فأعطوا الرغبة وأسألوا الفردوس الأعلى ؛ فإن الله تعالى لا يتعاطفه شيء^(٣) .

وقال بكر بن سليم الصواف : دخلنا على مالك بن أنس في المشية التي قبض فيها فقلنا : يا أبا عبد الله ، كيف تمجدك ؟ قال : لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستميتون من عفاقة ما لم يكن لكم في حساب ، ثم ما برحنا حتى أمضنا .

وقال يحيى بن معاذ في مناجاته : يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إليك مع الأعمال ؛ لأنى أعتد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ، وأجدنى في الذنوب أعتد على عفوك وكيف لأتفرها وأنت بالجود موصوف .

وقيل إن جوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسألت أمنتك ؛ فز الجوسى ،

(١) حديث ابن عباس : كان يقنت على المشركين ويلتئم في صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى (ليس لك من الأمر شيء) فترك الدعاء عليهم ... الحديث ، أخرجه البخارى من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من التجر يقول اللهم أنت علانا وفلا وفلا ، بعد ما يقول « مع الله إن حمده ربنا والله الحمد » فأزل الله عز وجل (ليس لك من الأمر شيء) إلى قوله (فإنهم ظالمون) ورواه الترمذى وصحاح أبي سفيان والمبارك بن هشام وصفيان بن زائدة وزاد فتاب عليهم فأبدوا لحسن إسلامهم . وقال حسن غريب . وفى رواية له « أربعة نفر » ولم يسهم وقال « فهداهم الله للإسلام » وقال حسن غريب صحيح .

(٢) حديث « سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريماً » لم أجده بهذا اللفظ . فترجمت من حديث ابن مسعود « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل » وقال : مكنا روى حاد بن واقد وليس بالحافظ .

(٣) حديث « إذا سألت الله فأعطوا الرغبة وأسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاطفه شيء » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر ليان شئت ، ولكن ليؤمن ويلتزم الرغبة » فإن الله عز وجل لا يتعاطفه شيء . أعطاه البخارى من حديث أبي هريرة في أثناء حديث « فإذا سألت الله فأسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » ورواه الترمذى من حديث معاذ وهبان بن الصامت .

فأوحى الله تعالى إليه : يا إبراهيم لم قطعته إلا بتغيير دينه ونحن من سبعة سنين قطعته على كفره ، فلو أضغته ليلة ماذا كان عليك ؟ فرأى إبراهيم يسعى خلف المجوسى فردّه وأضافه ؛ فقال له المجوسى ما السبب فيما بدا لك ؟ فذكر له ؛ فقال له المجوسى : أمكنا يعاملنى ثم قال : اعرض على الإسلام فأسلم .

ورأى الأستاذ أبى سهل الصلوكى أباسهل الزجاجى فى المنام وكان يقول برعيد الأبد ، فقال له : كيف حالك ؟ فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا .

ورأى بعضهم أباسهل الصلوكى فى المنام على هيئة حسنة لا توصف ، فقال له : يا أستاذ ، بم نلت هذا ؟ فقال : بحسن ظنى برى .

وحكى أن أبابى العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول : أين العلماء ؟ قال : لجأوا ، ثم قال : ماذا علمتم فيما علمتم ؟ قال : فقلنا يارب قصرنا وأسانا ؛ قال : فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره ، فقلت : أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه ، فقال : اذهبوا به فقد غفرت لكم ، ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

وقيل : كان رجل شريف جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئا من الفواكه للجلس ، فز التلام بباب مجلس منصور بن عسار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول : من دفع إلى أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات ، قال : فدفع التلام إليه الدراهم ، فقال منصور : ما الذى تريد أن أدعوك ؟ فقال : لى سيد أريد أن أتخلص منه ، فدعا منصور وقال : الأخرى . قال : أن يخلف الله على دراهمى ، فدعا ، ثم قال : الأخرى . قال : أن يتوب الله على سيدى ، فدعا ، ثم قال : الأخرى ، فقال : أن ينفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم ، فدعا منصور ، فرجع التلام فقال له سيده : لم أبطأت ؟ فقص عليه القصة . قال : وبم دعا ، فقال : سألت لنفسى العتق . فقال له : اذهب فأنت حر . قال : وأيش الثانى ؟ قال : أن يخلف الله على الدراهم ، قال : لك أربعة آلاف درهم ، وأيش الثالث ؟ قال : أن يتوب الله عليك . قال ثبت إلى الله تعالى . قال : وأيش الرابع ؟ قال : أن ينفر الله لى ولك وللقوم ، قال . هذا الواحد ليس لى ، فلما بات تلك الليلة رأى فى المنام كأن قائلا يقول له : أنت فعلت ما كان إليك ، أفترى أنى لا أفسد ما لى ، قد غفرت لك وللتلام وللمصور بن عسار وللقوم الحاضرين أجمعين .

وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال : رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة ، قال : فأخذت مسكان المرأة وذهبت إلى المقبرة وصليتا عليها ودفنا الميت ، فقلت للمرأة : من كان هذا الميت منك ؟ قالت ابنى . قلت ولم يكن لكم جيران ؟ قالت بلى ولكن صفروا أمره . قلت : وأيش كان هذا ؟ قالت : محتشا ، قال فرحمته وذهبت بها إلى منزل وأعطيتها دراهم وخطة ونيابا ، قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر لية البدر وعليه ثياب بيض لجلس يتشكرنى ، فقلت من أنت ؟ فقال المختف الذى دفنتمونى اليوم رحمنى ربى باحتقار الناس لراى .

وقال إبراهيم الأطروش : كنا قموذا ببنداد مع معروف الكرخى على دجلة ، إذ مر أحداث فى زورق يضربون بالنف ويضربون وباميون ، فقالوا لمعروف أما تراهم يعمون الله بمجاهرين ، ادع الله عليهم ، فرفع يديه وقال إلهى كافرتهم فى الدنيا ففترحمهم فى الآخرة ، فقال القوم : إنما سألتك أن تدعهم عليهم ، فقال : إذا

فرحهم في الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض السلف يقول في دعائه : يارب وأى أهل دهر لم يصورك ثم كانت نعمتك عليهم سابعة ورزقك عليهم دارا سبحانه ما أحلىك وعزتك إنك لتمعي ثم تسبح النعمة وتدبر الرزق حتى كأنك ياربنا لا تفضب .

فهذه هي الأسباب التي بها يحلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحق المفرود فلا ينبغي أن يسموا شيئا من ذلك ، بل يسمون ماسنورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف ، كالعبد السوء والعبي العرم لا يستقيم إلا بالسوط والمصا وإظهار الخشوعة في الكلام . وأما منذ ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والعنيا .

الشرط الثاني من الكتاب : في الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف ، وبيان درجاته ، وبيان أقسام الخوف ، وبيان فضيلة الخوف ، وبيان الأنفل من الخوف والرجاء ، وبيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة ، وبيان أحوال الخائفين من الإنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

بيان حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحترافه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ، ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا بجمال الحق على الدوام : لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يمكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فلأنما زمانا بمنان النفس عن الخروج إلى عزائها ، وإلى هذا أشار الراجي حيث قال : الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد . وقال أيضا : إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف ؛ وبالجمله فالخوف إذا شغل قلبه في مشاهدة تأخيره بخوف الفراق كان ذلك نقصا في الجهود ، وإنما دوام الجهود غاية المقامات ، ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول : حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المنفعي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات ، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة عله بالأسباب المنفعية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقدرا غضوبا منتقما وكونه مخفوقا بمن يمتنه على الانتقام غالبا عن يتشفع إليه في حقه ، وكان هذا الخائف طاعلا عن كل وسيلة حسنة تمحرا لرجائيه عند الملك ، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب ، وبحسب ضعف هذه الأسباب ينعطف الخوف ، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارحها الخائف بل عن صفة الخوف كالذي وقع في غلب سبب فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الاقتراس غالبا وإن كان اقتراسه بالاختيار . وقد يكون من صفة جبلية للخوف منه ، كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الما يخاف لأنه يطعمه مجبول على السيلان والإغراق ، وكذا التار على الإحراق ؛ فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث الخير لإحراق القلب وتألمه ، وذلك الإحراق هو الخوف ، فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وأنه لو أهلك الما لم يبال ولم يمنه مانع ؛ وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارعة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعا . وبحسب معرفته بعبود نفسه ومعرفة جهل الله تعالى واستغفاه وأنه لا يسأل عما يفعل وهم

يستولون) فتكون قوة خوفه ؛ فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وربه ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنا أخوفكم هـ (١) ، وكذلك قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ثم إذا كملت المعرفة أوردت جلال الخوف واحتراف القلب ، ثم يفيض أثر الخوف من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما في البدن فبالتحول والصفار والنشبة والزعة والبكاء ، وقد تنشق به المرارة فيفيض إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما في الجوارح فيكبتها عن المعاصي وتهيئها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه . وقيل لذي النون : متى يكون العبد خائفا ؛ قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمى عنقه طول السقام . وأما في الصفات فإن يجمع الشهوات ويكثر القذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العمل مكروها عند من يشتهيها إذا عرف أن فيه سما ، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأبد الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والخفوع والدلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مستوعب ألهم بنوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفزع لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والفتنة بالأنفاس والحفظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع في غلاب سبع منار لا يدري أنه يفعل عنه فيفلك أو يهجم عليه فيهلك ، فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره : هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحترافه ، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبميوه النفس وما بين يديها من الأخطار والأحوال ، وأقل درجات الخوف عما يظهر أثره في الأعمال : أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا ، فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى ، إذ التقوى : أن يترك ما يريه إلى ما لا يريه وقد جمعه على أن يترك ما لا يأس به عنقاه ما به يأس وهو الصدق في التقوى ، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبغي ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق ، وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا ، ويدخل في الصدق التقوى ، ويدخل في التقوى الورع ، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ؛ فإذا الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام وينتجده بسبب الكف اسم العفة ، وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم الكف عن المحظور والشبهة جميعا ، ووراء اسم الصديق والمقرب ، وفجرى الزبنة الآخرة بما قبلها مجرى الاخص من الأعم ؛ فإذا ذكرت الاخص فقد ذكرت الكل ، كما أنك تقول : الإنسان إما عربي وإما عجمي ، والعربي إما قرشي أو غيره ، والقرشي إما هاشمي أو غيره ، والهاشمي إما علوي أو غيره ، والعلوي إما حسني أو حسيني ، فإذا ذكرت أنه حسني مثلا فقد وصفته بالجميع ، وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه بما هو أعم منه ، فكذلك إذا قلت صديق فقد قلت : إنه تقى وورع وعفيف ، فلا يبغي أن تظن أن كثرة هذه الأسماء تدل على معان كثيرة متباينة ، فيختلط عليك كما اختلط

(١) حديث « أنا أخوفكم هـ » أخرجه البخاري من حديث أبي داود وأبو داود ، والشيخان ، من حديث عائشة « والله أنى أعلمهم بالله وأشدهم له خيفة » .

على من طلب للماني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ الماني ، فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتسفه من جانب العلم كالسفر للموجة له ومن جانب السفار كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما .

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود ، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحداً وهو غلط ، بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى ، والأصلح للبهيمة أن لا تخاف عن سوط وكذا الصبي ، ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمود ، وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال ، والمحمود هو الاعتدال والوسط ؛ فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء ينظر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع ، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى النفلة ، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالضيقب الضعيف الذي تقرب به دابة قوية لا يؤلمها ألماً مبرحاً فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها ، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ، ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمترسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن الخوف ، بل أعني العلماء بالله وبآيائه وأفعاله ، وذلك بما قد عز وجوده الآن ؛ ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فكسكت ، فإنك إن قلت لا ، كفرت ، وإن قلت نعم ، كذبت ، وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات ومالم يؤثّر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والفتور ، وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل ، وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والذهشة وزوال العقل ؛ فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الخلل على العمل ، ولولا ما كان الخوف كالألأ لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأ الجهل والعجز . أما الجهل فإنه ليس يدري عاقبة أمره ولوعرف لم يكن خائفاً لأن الخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض لمخذور لا يقدر على دفعه ؛ فإذا هو محمود بالإضافة إلى نقص الأدنى ، وإنما المحمود في نفسه وذاته هو السلم والقدرة ، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس بكمال في ذاته ، وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه ، كما يكون احتيال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت ، فما يخرج إلى الفتور فهو مذموم ، وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والذهشة وزوال العقل ، وقد يخرج إلى الموت ، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكرس عضواً من أعضائها ، وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى الفتور أو أحد هذه الأمور ، فكل ما يراد لأمر فالحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوز فهو مذموم ، وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى ، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل ، فكل ما يتدقح في هذه الأسباب فهو مذموم .

• فإن قلت : من عاف فسات من خوفه فهو شهيد ، فكيف يكون حاله مذموماً ؟ فأعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة يسبب موته من الخوف كان لا ينالها لومات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف ، فهو بالإضافة إليه فضيلة ، فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة ، بل السالك إلى الله تعالى بطريق

الفكر والمجاهدة والترفى درجات للمارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يقتل مبع إلى رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه ، وهو محال ، فلا ينبغي أن يظن هذا ، بل أفضل المساعدات طول العمر في طاعة الله تعالى ؛ فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتمثل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخرى ؛ كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصديقين ، فإذا الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجده كعدمه ، مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة ، وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره ، فإن لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة ، فإذا أثمر الورع فهو أعلى ، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين ؛ وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبق لغير الله تعالى فيه متسع ؛ فهذا أقصى ما يبعد منه ، وذلك مع بقاء الصحة والعقل ؛ فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ، ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ، ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للبردين اللذان من الجوع أباما كثيرة : احفظوا عقولكم فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل .

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه إما أن يكون مكروها في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروها لأنه يفضي إلى المكروه ، كما تكره المعاصي لأنها تؤدي إلى مكروه في الآخرة وكما يكره المريض الفواق المظرة لأنها تؤدي إلى الموت ، فلابد لكل عاقل من أن يمثل في نفسه مكروها من أحد القسمين وبقي انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشهاده ذلك المكروه ، ومقام الخائفين يختلف فيما ينقلب على قلوبهم من المكروهات المخدرة ، فالذين ينقلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره ؛ كالذين ينقلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقص التوبة ونكث العهد ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتبليغ حقوق الله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة . أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف استيلاء المادة في إرباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يهلك الله تعالى إلى حسناته التي أكل عليها وتمزجها في عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم : أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحسب ، أو خوف هجمات الناس عنده في الغيبة والحيانة والنش وإضرار السوء ، أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تسهيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بالعارف الدنيا ، أو خوف اطلاع الله على سريره في حال غفلته عنه . أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل . فهذه كلها مخاوف ، ولكل واحد خصوص فائدة ؛ وهو سلوك سبيل الخذر عما يفضي إلى الخوف ، فمن يخاف استيلاء المادة عليه فيواري على الفطام عن المادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريره يشتغل بتطهير قلبه عن الوسواس ، وهكذا إلى بقية الأقسام . وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة ، فإن الأمر فيه خطر ، وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة ؛ لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تغلغ أسباب كثيرة ، فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء في أم الكتاب ، والخاتمة من الخاتمة بالإضافة إلى الخاتمة من السابقة كرجلين وقع الملك في خندقهما بتوقيص يحتمل أن يكون فيه حر الرقية ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيص إليهما بعد ، فيرتبط قلب أحدهما بمخالفة وصول التوقيص ونشره وأنه

عماداً يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيح الملك وكيفيته وأنه مالمذى خطر له في حال التوقيع من رحمة وأغضب وهذا التفتات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع ، فكذاك الالتفات إلى القضاء الأزل الذى جرى بتوقيحه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر فى الأبد ؛ وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر قبض كفه اليمنى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يراد فيهم ولا ينقص ، ثم قبض كفه اليسرى وقال ، هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يراد فيهم ولا ينقص وليعلمن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستفقدون الله قبل الموت ولو بفراق ناقة . وليعلمن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفراق ناقة ، السعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقى بقضاء الله ، والأعمال بالخواتيم ^(١) » وهذا كاقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجناته ، وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التى تقتضى المحبة لعلامة ، فهذا أعلى رتبة ، ولذلك يبقى خوفه وإن كان فى طاعة الصديقين ، وأما الآخر فهو فى عرصة الضرر والأمن ؛ إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين ، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين ، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى ، وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جنابة ؛ بل العاصى لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ، ولو لا أنه يخوف فى نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها ، فإن تيسر أسباب المعصية لإبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجبر عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توصل بها من يسر له الطاعات ومهد له سبيل القربات ، فالعاصى قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى ، وكذا العظيم فالذى يرفع محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أباه فى أسفل سافلين من غير جنابة سبقت منه قبل وجوده جذرياً أن يخاف منه لصفته جلالة ، فإن من أطاع الله أطاع بأن سطر عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة أجازة والقدرة التامة يصير الفعل ضرورياً ، والذى عصى لأنه سطر عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة ، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضرورياً ، فليت شعري ما الذى أوجب إكرام هذا وتخفيفه بتسليط إرادة الطاعات عليه ، وما الذى أوجب إمانته الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه ، وكيف يحال ذلك على العبد ؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزل من غير جنابة ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حرم عند كل عاقل ، ووراء هذا المعنى سر القدر لا يجوز إفشاءه ولا يمكن أن تفهم الخوف منه فى صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجري على ذكره ذو بصيرة ، فقد جاء فى الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود خفى كما تخاف السبع الضارى ^(٢) . فهذا المثل يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقتضيك على سببه فإن الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ، ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والخاص أن السبع يخاف للجنابة سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي ، فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يتألم بقتلك شفقة عليك وإيضاح على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك بملة عنده على وتيرة واحدة ، إذ لا يتحس

(١) حديث « هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال : حسن صحيح غريب . (٢) حديث « إن الله تعالى أوحى إلى داود : يا داود ، خفى كما تخاف السبع الضارى » لم أجده له أصلاً ، ولعل المصنف قصد بإيراد أنه من الإسراءيات ، فانه عبر عنه بقوله : جاء فى الخبر ، وكثيراً ما يبره بذلك عن الإسراءيات التى هى غير مرفوعة

ذلك في عالم سمعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ، والله المثل الأعلى ، ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله « هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهوؤلاء إلى النار ولا أبالي » ويكتفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستثناء وعدم المبالاة . الطبقة الثانية من الخائفين : أن يشمل في أنفسهم ما هو المكروه ، وذلك مثل سكرات الموت وشدة ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر ، أو هول المطلع ، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف السر والسؤال عن التقدير والقطمير ، أو الخوف من الصراط وحذره وكيفية العبور عليه ، أو الخوف من النار وأغلاها وأهوالها ، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والمكالم المقيم وعن نقصان الدرجات ، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى ، وكل هذه الأسباب مكرومة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها . وأعلاما رتبة خووف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك خووف العاملين والصالحين والزهادين وكافة العالمين ، ومن لم تكمل معرفته ولم تتفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بالم البعد والفراق ، وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتجنب منه في نفسه ، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولا مانع الشرع إياه من إنكاره ، فيكون اعترافه به بالسان عن ضرورة التقليد ، وإلا فباطنه لا يصتق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج واللين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان ، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم ؛ فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم ، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ، ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره ، فإلى هذه الأنقسام يرجع خوف الخائفين ، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكمه .

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار ، وتارة بالآيات والأخبار .

أما الاعتبار فسيبيله أن فضيلة الشيء بقدر غناه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة ، إذ لا مقصود سوى السعادة ، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه ؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته ، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبة والانس به في الدنيا ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الانس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تيسر المراقبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتبهات إلا بقمع الشهوات ، ولا تتمتع الشهوة بشيء كما تتمتع بنار الخوف ؛ فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ؛ فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق ، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل المغفرة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلي .

وأما بطريق الانتساب من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر ، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي جماع مقامات أمل الجنان ، وقال الله تعالى (وهدي ورحمة للذين لم لربهم يرهبن) وقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وصفهم بالعلم لحديثهم . وقال عز وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف ثمرة العلم ، ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام : وأما الخائفون

فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه ، فأنظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى ، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يليق بهم ، ولذلك لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول : سألك الرفيق الأعلى ^(١) ، فإذا إن نظر إلى شعره فهو العلم ، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما ، حتى إن العافى صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها ، كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يقال : الحمد لله رب العالمين ، والعافية للبتين ، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين . وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منك) وإنما التقوى عبارة عن كف بهتة الحرف . كما سبق . ولذلك قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى (ولقد وصينا الذين أتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) وقال عز وجل (وعافون إن كنتم مؤمنين) وأمر بالخوف وأرجه وشرطه في الإيمان . فذلك لا يتصور أن يفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى ودوا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فإذا هم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أذانهم فيقول : يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتمكم إلى يومكم هذا فأفصروا إلى اليوم ، إنما هي أعمالكم ترد عليكم ، أيها الناس : إني قد جعلت نسا وجهنم نسا ، فوضعت نسي ورفعت نسبك ، قلت (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وأيتهم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان ، فالיום أضع نسبك وأرفع نسي ، أين المتقون ؟ فيرفع القوم لواميتيهم التوم لوادم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب ^(٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام : رأس الحكمة عفافه الله ^(٣) ، وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود : إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بهدي ^(٤) ، وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير . وقال الثعلبي رحمه الله : ما خفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط . وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان : خوف العقاب ورجاء العفو كمثل بين أسدين . وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبق أحد إلا ناقشته الحساب وفلقت عما في يده إلا الورعين فإنه استحى منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب .

والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف ، فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسام ، وكذلك ما ورد في فضائل الذكر لا يخفى ، وقد جده الله تعالى مخصوصا بالنافقين فقال (سيد كر من يخشى)

(١) حديث : لما خير في مرض موته كان يقول : سأله الرفيق الأعلى : متفق عليه من حديث طائفة قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو مصبح : أه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يغفر . فلما نزل به ورأسه في مجرى غشى عليه ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال : اللهم الرفيق الأعلى . فقلت : أه لا يخترنا ، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح ... الحديث . (٢) حديث : إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أذانهم فيقول : يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتمكم إلى يومكم هذا فأفصروا إلى اليوم ، إنما هي أعمالكم ترد عليكم ، أيها الناس : إني قد جعلت نسا ... الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط والمحاكم في المستدرک بسند ضعيف والتملي في التفسير مختصرا على آخره . أنى جعلت نسا ... الحديث . من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث : رأس الحكمة عفافه الله . رواه أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الشعب ، وضمنه من حديث ابن مسعود ، ورواه في دلائل النبوة من حديث عتبة بن راسي ولا يصح أيضا .

(٤) حديث : إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بهدي . قاله ابن مسعود : ألم ألق له على أصل .

وقال تعالى ﴿ ولن عاف مقام ربه جنتان ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له آمين فإن آمنى في الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافني في الدنيا أمنتته يوم القيامة (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من خاف الله تعالى خافه كل شيء ، ومن خاف غير الله خشفه الله من كل شيء (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أتحمك عقلا أشدكم خوفا لله تعالى ، وأحسنكم فيها أمرا الله تعالى بهدي عنه لظرا (٣) » ، وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه : مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد حبه وصح له به . وقال ذو النون أيضا : ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فإذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان أبو الحسين الضعيف يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة ، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإذا انقطع زمامه هلك مع المالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا ؟ فقال : أشدكم خوفا اليوم . وقال سهل رحمه الله : لا تجهد الخوف حتى تأكل الحلال ، وقيل للحسن ، يا أبا سعيد ، كيف نضع ؟ فقال : أفرأيت أن تقولوا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال : والله إنك إن تخاطب أفرأيت أن تقولوا حتى يدركك أمن ؟ خير لك من أن تصعب أفرأيت أن يقولوا حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما فارق الخوف قلبا إلا خرب . وقالت عائشة رضي الله عنها : قلت يا رسول الله ﴿ الذين يؤتون ما آتوا وفلهم وجلة ﴾ هو الرجل يسرق ويؤني ؟ قال : لا ، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويحاف أن لا يقبل منه (٤) ، والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر ، وكل ذلك ثناء على الخوف ، لأن مزمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه ، وضد الخوف الأمن ، كما أن ضد الرجاء اليأس ، وكما دلت مزمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مزمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول : كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان ، فإن كل من رجا عبويا فلا بد وأن يخاف فوفه ، فإن كان لا يخاف فوفه فهو إراد لا يعبه فلا يكون بانتظاره راجيا ، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يثلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه ، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف ؛ فإذا نفي الخوف الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لاعتالة ؛ فتقدير وجوده بروح القلب وهو الرجاء ؛ وتقدير عدمه يوجب جمع القلب وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان لاعتالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه ، نعم أحد طرفي الشك قد يرجع على الآخر بمحض بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا ، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء ونفى الخوف بالإضافة إليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وقال عز وجل ﴿ يدعون ربهم خوفا وطمعا ﴾ ولذلك عبر العرب عن الخوف

- (١) حديث : لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له آمين . أخرجه ابن حبان في صحيحه ، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ، ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن حسلا .
 (٢) حديث : من خاف الله خافه كل شيء ... الحديث . رواه أبو الفتح ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا . ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بإسناد ضعيف متصل ، وقد تقدم .
 (٣) حديث : « أتحمك عقلا أشدكم خوفا ... الحديث » لم ألق له على أصل ، ولم يصح في فضل الفعل شيء .
 (٤) حديث عائشة : قلت يا رسول الله ﴿ الذين يؤتون ما آتوا وفلهم وجلة ﴾ هو الرجل يسرق ويؤني ؟ قال : لا ... الحديث . رواه الترمذي وابن ماجه والمالك ورواه صحيح الإسناد . قلت : بل انقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن الرحمن بن حازم عن أبي هريرة .

بالرجاء ، فقال تعالى (مالك لا تحزن لله وقارا) أى لا تخافون ، وكثيرا ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما ، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلزمه ، بل أقول : كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية ، فإن البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) وقال تعالى (يسكون ويذيعهم خشوعا) وقال عز وجل (أفن هذا الحديث تمشجون وتضحكون ولا يبحون وأنهم سامدون) وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من عبد مؤمن تخرج من عليه دعة وإن كانت مثل رأس الذئب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حر وجهه إلا حترمه الله على النار ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إذا انشمر قلب المؤمن من خشية الله تحانت عنه خطاياه كما يشحات من الشجرة ورقها ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، لا يبلغ النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع ^(٣) ، وقال عقبه بن عامر ، ما التجاة بأرسول الله ؟ قال : أملكك عليك لسانك وليسك يتيك وإليك على خطيئتك ^(٤) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يا رسول الله أدخل أحد من أمته الجنة بغير حساب ؟ قال : نعم من ذكر ذنوبه فبكى ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أريق في سبيل الله سبحانه وتعالى ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، اللهم ارزقني عيتين هطاليتين تشفيان القلب بذروف الدمع مع خشيتك قبل أن تصير الدموع دما والأخراس جبرا ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، وذكر منهم ، رجلا ذكر الله غاليا ففاضت عيناه ^(٨) .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : من استطاع أن يبكي فليبك وبك لم يستطع فليذكر .
وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول . بكنى أن النار لا تأكل موضعا من الدموع .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فالذى نفس يده لو لم يعلم أحكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصل حتى يشكر صلبه .

وقال أبو سليمان النخعي رحمه الله : ما تفرغت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قط ولا ذلة يوم القيامة ،

(١) حديث ، ما من مؤمن يخرج من حبه دعة وإن كانت مثل رأس الذئب ... الحديث ، أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٢) حديث ، إذا انشمر قلب المؤمن من خشية الله تحانت عنه خطاياه ... الحديث ، أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أبي بصير بسند ضعيف . (٣) حديث ، لا يبلغ النار أحد بكى من خشية الله ... الحديث ، أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح ، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة .

(٤) حديث قال عقبه بن عامر ، ما التجاة بأرسول الله ؟ قال : أملكك عليك لسانك ... الحديث ، يندم .

(٥) حديث عائشة : قلت يا رسول الله أدخل الجنة أحد من أمته بغير حساب ؟ قال : نعم من ذكر ذنوبه فبكى ، لم أقبله على أصله .

(٦) حديث ، ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع من خشية الله ... الحديث ، أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة

وقال : حسن قريب ، وقد يندم . (٧) حديث ، اللهم ارزقني عيتين هطاليتين تشفيان القلب بذروف الدمع ... الحديث ، أخرجه الطبراني في الكبير في الدعاء وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ، ورواه الحديث الروزي في زيادته على الزهد

والرافعي لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلا دون ذكر الله ، وذكر المارغني في السبل أن من قال فيه « من أبيه »

وحم ، وأجما هو عن سالم بن عبد الله مرسلا ، قال : وسالم هذا يبيح أن يكون سالم بن عبد الله المارغني وليس ابن عمر انتهى ،

وما ذكره من أنه سالم المارغني هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ وسلم في السكتي وابن أبي شامة عن أبيه وأبي أحمد الحاكم

فإن الراوي له عن سالم عبد الله أبو سلمة ، ولأنهم ذكروا له رواية عن سالم المارغني وفاة أهل . ثم حكى ابن صباكر في تاريخه

المخالف في أن الذي يروي عن سالم المارغني هو سالم بن عبد الله بن عمر . (٨) حديث « سبعة يظلهم الله يظلهم ... الحديث »

معلق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد يندم :

فإن سألت دموعه أظفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران ، ولو أن وجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة .
وقال أبو سليمان البكال من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق .

وقال كعب الأحمير رضي الله عنه . والذي نفسى بيده ؛ لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب إلى من أن أتصدق بحبل من ذهب .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . لأن أدمع دمة من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار .
وروى عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهل فندت من المرأة وجرى بيتان من حديث الدنيا ففسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا ، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي . قد ناقضت حيث تحولت عنى ما كنت فيه من الخوف والرهبة ، فخرجت وجعلت أنادى . نافق حنظلة ، فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال . كلا لم ينافق حنظلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول . نافق حنظلة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . كلا لم ينافق حنظلة ، فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهل فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه . فقال صلى الله عليه وسلم « يا حنظلة لو أنكم كنتم أبدأ على تلك الحالة لصالحكم الملائكة في الطريق وعلى فراشكم ؛ ولكن يا حنظلة ساعة وساعة »^(١) ، فإذن كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف ؛ لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب .

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدلهما

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما ، ونقول القائل . الخوف أفضل أم الرجاء ؟ سؤال فاسد يضاهى قول القائل : الخبز أفضل أم المساء ؟ وجوابه أن يقال : الخبز أفضل للجائع ، والمساء أفضل للمطمان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب : فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالمساء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان ، وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه ، والخوف والرجاء دوامان يداوى بهما القلوب ؛ ففضلهما بحسب الداء الموجود ؛ فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاعتراض به فالخوف أفضل ، وإن كان الأغلب هو اليأس والافتقار من رحمة الله فالرجاء أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المصيبة فالخوف أفضل ، ويجوز أن يقال مطلقا : الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه الخبز أفضل من السكرتين ، إذ يماثل بالخبز مرض الجوع ، وبالسكنتين مرض الصفراء ، ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل ، فهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل ؛ لأن المصاعب والاعتراض على الخلق أغلب ، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستق من بحر الرحمة ، ومستق الخوف من بحر التعذب ، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فليست له الالتفات إلى الصفات التي تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة عاجزتها للرجاء .

(١) حديث حنظلة : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا ... فحدث ، وفيه « نافق حنظلة الحديث » وفيه « ولكن يا حنظلة ساعة وساعة » أخرجه مسلم مختصرا .

وعلى الجملة فما يراد لثبته ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فتقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة للمعاصي . فأما التي الذي ترك ظاهر الإيمان وباطنه وخفيه وجليها فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . وروى أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده : يا بني خف الله خوفا ترى أنك لو أنيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاءا ترى أنك لو أنيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل ، وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التواضع والتساوي ؛ فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوى خوفه ورجاؤه ؛ فأما المعاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استغنى من الذين أسروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره .

هـ فإن قلت : مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه ، بل ينبغي أن يغلب رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء ، وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالورع والبذر ، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض تقيّة وواظب على تمهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه . فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين ؛ فاعلم أن من يأخذ المعارف من الانكشاف والامثلة يكثر زلله ، وذلك وإن أوردناه مثالا فليس يضاهي مآثر فيه من كل وجه ، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة ، إذ علم بالتجربة صحة الأرض وتقاؤها ، وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق للمهلكة في تلك البقاع وغيرها ، وإنما مثال مسألتنا بذر لم يحزب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يمهدها الزارع ولم يحتبرها ، وهي في بلاد ليس يندى أكثر الصواعق فيها أم لا ، فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاءه على خوفه ، والبذر في مسألتنا هو الإيمان - وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب - وخفاياها شبه وصفائه من الشرك الخفي والتفاني والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة ، والآفات هي الشهوات وزغارف الدنيا والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال ، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة ، إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يحزب مثله ، والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ، وذلك مما لم يحزب مثله ، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة وذلك لم يحزب ، فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جبانا في نفسه غلب خوفه على رجائه لعمالة كما سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين ، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاءه ، فأما أن يغلب رجاءه فلا ، ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار التفاني شيئا ، إذ كان قد خصمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ «لم يتأقن»^(١) ، فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا التفاني والشرك الخفي ، وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتبليس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه ؟ وإن وثق به فمن أين يتق يقائمه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة ثم يحسن سنة حتى لا يبق بينه وبين الجنة إلا شهر^(٢) ، وفي رواية : إلا قدر فراق

(١) حديث : أن حذيفة كان خصمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ «لم يتأقن» أخرجه مسلم من حديث حذيفة « في أصحابي اتعصر متافقا » بحامه « لا يمشون الجنة حتى يبلغ الجبل في سم الحياض » الحديث .

(٢) حديث : أن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة ثم يحسن سنة حتى لا يبق بينه وبين الجنة إلا شهر ، وفي رواية : إلا قدر فراق

نافذة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار ، وقدر فواق النافذة لا يحتمل عملا بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يتخلل في القلب عند الموت فيقتضي غائمة السوء ، فكيف يؤمن ذلك ؟ فلذن أقصى غايات المؤمن أن يتبدل خوفه ورجاؤه ، وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة ، ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أتى عليهم فقال تعالى (يدعونهم خوفا وطمعا) وقال عز وجل (ويدعوننا رغبا ورهبا) وأين مثل عمر رضي الله عنه ؟ فالحلق الموجود في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط أن لا يترجمهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المنفرة فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل وداعيا إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف ، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكثر جميع الشروات ويرجع القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الضرر فهو الخوف المحمود ، دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للتقنوط .

وقد قال يحيى بن معاذ : من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء ناه في مغارة الاغترار ، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محبة الأذى كل .

وقال مكحول الدمشقي : من عبد الله بالخوف فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئي ، ومن عبده بالحجة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والحجة فهو موحد .

فلذن لابد من الجمع بين هذه الأمور ، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت ، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل ، فالشرف على الموت لا يقدّر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف ، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته ، وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ويعجب إليه ربه الذي إليه رجاءه ، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا بحجة تعالى ليكون محبا لقاء الله تعالى ، فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ، والرجاء تقارنه المحبة فن ارتجى كرمه فهو محبوب ، والمقصود من العلم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تتم المعرفة المحبة ، فإن المصير إليه والتقدم بالموت عليه ، ومن قدم على محبوه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوه اشتدّت محنته وعذابه ، فهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والمغار والرفقاء والأصحاب : فهذا رجل عابه كلها في الدنيا ، فالدنيا جنته ، إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب ، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه ، ولا يتبقى حال من يمالي بينه وبين ما يشتهيه ، فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلاقاتها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه ، لأن السجن عبارة عن البقعة المألقة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه ، فموته قدم على محبوه وخلّص من السجن ولا يبقى حال من أفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوه بلا مانع ولا مكدر ، فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والمقاب فضلا عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر ، وف فضلا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من

== ناقة ... الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، إذا الرجل ليمسّل الزمن للفلول يمسّل أهل الجنة ثم يحتمل أهل النار ، والبرزخ والمطهراني في الأوسط « سبعين سنة » واستاده حسن . وقشيتين في أثناء حديث لأن مسعود « أن أحدكم ليمسّل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا أذراع ... الحديث » ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر « شهر » ولا « فواق ناقة » .

الإنسكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والفسال ، فسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصلحين ، ولا يقطع في إجابة هذا الدعاء إلا بالكسباب حب الله تعالى ، ولا سبيل إلا بإخراج حب غيره من القلب وقطع الملاقى عن كل ماسوى الله تعالى من جاه ومال ووطن ، فالأولى أن تتحجج بما دعا به نيتنا على الله عليه وسلم إذا قال : اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد (١) ، والقرص أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة ، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقنع لمحبة الدنيا عن القلب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه (٢) ، وقال تعالى : أنا عند ظن عبدي في فليظن في ماشاء ، ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه : يا بني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به ، وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه . وقال أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه ضد الموت : اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن ، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه ، ولذلك أوصى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : أن حبيبي إلى عبادي . فقال : بماذا ؟ قال : بأن تذكر لهم آلاؤي ونعمائي ، فإذا غاب السعادة أن يموت محبا لله تعالى ، ولما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الناداني في المنام وهو يعطيه ، فسأله ؟ فقال : الآن أفلت ، فلما أصبح سأله عن حاله فقيل له : إنه مات البارحة .

بيان الدواء الذى به يستجلب حال الخوف

اعلم أن ما ذكرناه في حال الصبر وشرحه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض ، لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء ، لأن أول مقامات الدين اليقين الذى هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار ، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر ، فإن الجنة قد حفت بالمكارة فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف ، ولذلك قال على كرم الله وجهه . من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والتفكير فيه على الدوام ، ويؤدي دوام الذكر إلى الأناش ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ، ويؤدي كمال المعرفة والأناش إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات ، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين ، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، وبه المجاهدة والتجرد قد ظاهرا وباطنا ، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلى الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأناش ، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بمنائيه وهو التوكل ، فإذا فيها ذكرناه في علاج الصبر كفاية ، ولكننا نفرد الخوف بكلام جلي فنقول : الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين أحدهما أعلى من الآخر ، ومثاله : أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف ، وربما مثالبه إلى الحية ليأخذها ويلعب بها ، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها ، فإذا نظر الصبي إلى أبيه

(١) حديث « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك . . الحديث » أخرجه الترمذي من حديث معاذ ، وتقدم في الأذكار والنعمات . (٢) حديث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه » أخرجه مسلم من حديث جابر ، وتقدم .

وهو ترعد فرائصه ومحتال فى الحرب منها قام معه وغلب عليه الخوف وواقفه فى الحرب ؛ بخوف الآب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسببها وعاصيتها وسطوة السبع وبقلة مبالاته . وأما خوف الابن فإيمانه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب يخوف فى نفسه ، فيعلم أن السبع يخوف ولا يعرف وجهه ، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين : أحدهما الخوف من عذابه ، والثانى الخوف منه ؛ فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب البارفين من صفاته ما يقتضى الهيبة والخوف والحدس للظلمين على سر قوله تعالى (ويحذركم الله نفسه) وقوله عز وجل (اتقوا الله حق تقاته) وأما الأول فهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاء من على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإعما زول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر فى أحوال يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة ، وزول أيضا بالنظر إلى الخائفين وبجاستهم ومشاهدة أحوالهم ؛ فإن فالت مشاهدة فالسباع لا يخلو عن تأثير ، وأما الثانى وهو الأعلى فإن يكون الله هو الخوف ، أئنى أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى : خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت فى بحر لجى ، وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ، ولكن هو بمجرد التقليد أيضا هى خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه ، وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويذول على قرب ، حتى إن الضبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويترب به فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احتزن من أخذها تقليدا لأبيه ، والعقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها على تكثير الطاعات واجتناب المعاصى مدة طويلة على الاستمرار ، فلذمن ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف ، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقفا فى غيابه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : خفى كما تخاف السبع الضارى . ولا حيلة فى جلب الخوف من السبع الضارى إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع فى غيابه فلا يحتاج إلى حيلة سواء فن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالى ، ويحكم ما يريد ولا يخاف ، قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة ، وأبعد إبليس من غير جريمة سائلة ، بل صفته ما ترجمه قوله تعالى : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى . وإن خطر ببالك أنه لا يعاتب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يجد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يجد المعاصى بدواعى المعصية حتى يعصى شاء أم أبى ، فإنه مهما خلق الغفلة والشهوة والقنطرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقفا بها بالضرورة ، فإن كان أبده لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يقسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه فى الأزل ، وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال : احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند رجعا ، حج آدم موسى عليه السلام ، قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيه من روحه وأمجد لك ملائكته وأسكنك جنته ، ثم أمهطت الناس يخطيتك إلى الأرض . فقال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالة وبكلامه وأعطاك الأنواح فيها تبيان كل شئ . وقربك نجيا ، فهكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاما . قال آدم : فهل وجدت فيها (وعصى آدم ربه فغوى) قال نعم . قال : أفأزمنى على

أن عملت صلاحيته الله على قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة ، قال صلى الله عليه وسلم ، فصح آدم موسى (١) ، فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلقين على مر القدر ، ومن سمع هذا فآمن به وصديق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف ، فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقبور الصبي الضعيف في غلب السبع ، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخله ، وقد يهجم عليه فيفتسه وذلك بحسب ما يتفق ، ولذلك الاتفاق أسباب مرية بقدر معلوم ، ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمي اتفاقاً ، وإن أضيف إلى علم الله لم يجر أن يسمى اتفاقاً ، والواقع في غلب السبع لو كنت معرفته لكان لا يخاف السبع ؛ لأن السبع مسخر : إن سلب على الجوع اقتصر ، وإن سلب عليه الغفلة خلى وترك ، فإنما يخاف خالق السبع وعائق صفاته ، فليست أقول مثال الحرف من الله تعالى الحرف من السبع ، بل إذا كشف النطاء علم أن الحرف من السبع هو عين الحرف من الله تعالى ، لأن الملاك بواسطة السبع هو الله فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا ، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلاً يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجرم الأزل إلى ما خلق له ، يخلق الجنة وخلق لها أهلاً وسخروا لأسبابها شاموا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وسخروا لأسبابها شاموا أم أبوا ، فلا يرى أحد نفسه في ملطعم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر ، فمن قده به تقتصر عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسيهله أن يبالغ نفسه بسباع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين للفرورين ، فلا يتأخر في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآخرون فهم الفراعة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين (٢) وكان أشد الناس خوفاً (٣) حتى روى أنه كان يصل على طفل : ففي رواية أنه سمع في دعائه يقول والله هم عذاب القبر وعذاب النار (٤) ، وفي رواية ثانية : أنه سمع قائلاً يقول : هنيئاً لك ، مصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال « ما يدريك أنه كذلك ، والله إلى رسول الله ، وما أدري ما يصنع في إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً لا يزداد فهم ولا ينقص منهم (٥) » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة : هنيئاً لك الجنة ، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك : والله لا أركي أحداً بعد عثمان (٦) ، وقال محمد بن خولة الحنفية : والله لا أركي أحداً غير رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « احتج آدم وموسى ضد ربهما ، فنج آدم موسى . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وهو متفق عليه بالفاظ أخر .

(٢) حديث : كان سيد الأولين والآخرين . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « وأما سيد ولد آدم ولائز . . . الحديث » .

(٣) حديث : كان أشد الناس خوفاً . تقدم قبل هذا خمسة وعشرين حديثاً قوله « والله لا أخشاكم الله » وقوله « والله أني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

(٤) حديث أنه كان يصل على طفل تسبح في دعائه يقول « اللهم هم عذاب القبر وعذاب النار » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صل على صبي أو سبية وقال « لو كان أحد نجا من شدة القبر لثبت هذا الصبي » واختلاف في إسناده ، فرواه في الكبير من حديث أبي أيوب أن سبياً دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أفلت أحدكم ضمة القبر لأفلت هذا الصبي » (٥) حديث : أنه سمع قائلاً يقول لطفل مات : هنيئاً لك مصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال « ما يدريك . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة قالت : ترقى صبي لثقت طوق من مصفور من عصافير الجنة . . . الحديث وليس فيه غضب ، وقد فهم . (٦) حديث : لما توفى عثمان بن مظعون قالت أم سلمة : هنيئاً لك الجنة . . . الحديث . أخرجه البخاري من حديث أم البلاد الأصبارية وهي الهذليّة رحمة الله عليك أبا السائب فتشاهدني عليك لقد أكرمك الله ، قال « وما يدريك الحديث » وورد أن التي قالت ذلك أم غريبة بن زيد ، ولم أجده فيه . ذكر أم سلمة .

وسلم ولا أبي الذي ولدني ، قال : فثارت الشيعة عليه ، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه ، وروى في حديث آخر عن رجل من أهل الصفقة استشهد فقالت أمه هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة ها جرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك أنه كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره ^(١) » وفي حديث آخر « أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو غليل فسمع امرأة تقول : هنيئاً لك الجنة ، فقال صلى الله عليه وسلم « من هذه المتألية على الله تعالى ؟ » فقال للريض : هي أي يا رسول الله ، فقال « وما يدريك ، لعل فلاناً كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يعنيه ^(٢) » وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول شيبتي هود وأخواتها ^(٣) ، سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى « ألا بعداً لقوم هود » (ألا بعداً لقوم) (ألا بعداً للمدين كما بددت قوم) مع الله صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا ، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفي سورة الواقعة (ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة) أي جفف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى زلت الواقعة : إما خافضة قوما كانوا سرفعين في الدنيا ، وإما رافعة قوما كانوا غفوضين في الدنيا . وفي سورة التكموير أحوال يوم القيامة وانكشاف الحائطة ، وهو قوله تعالى « وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علبت نفس ما احضرت » وفي عم يتساءلون « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » الآية ، وقوله تعالى (لا يتشكعون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى « وإنني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » لكان كافياً ، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحادها ، وأشد منه قوله تعالى « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فمسي أن يكون من المفلحين » وقوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) وقوله تعالى (سنفرغ لك آية التفلان) وقوله عز وجل « أفأمنوا مكر الله » الآية . وقوله « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذها أليم شديد » وقوله تعالى « يوم نحشر المحقين إلى الرحمن وفداً » الآية . وقوله تعالى « وإن منكم إلا واردها » الآية وقوله « اعملوا ما شئتم » الآية : وقوله « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه » الآية . وقوله « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » الآية . وقوله تعالى « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل » الآية . وكذلك قوله تعالى « والعصر إن الإنسان لني خسر » إلى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الحشران ، وإنما كان خوف الأنبياء مع ما قاض عليهم من النعم لانهم لم يأمنوا مكر الله تعالى « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفاً من الله تعالى ، « وأوحى الله إليهما لم يتبيكان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكر الله ؟ » « وكانهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لاوقوف لها على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله « قد أمنتكما » ابتلاء وامتحاناً لها ومكرهما ، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وقيا بقولهما

(١) حديث : أن رجلاً من أهل الصفقة استشهد فقالت أمه : هنيئاً لك يا بني الجنة . رواه البيهقي في الشعب . لا أنه قال فقالت أمه : هنيئاً لك المصادة وهو عند الترمذي ، إلا أنه قال : أن رجلاً قال له : أبسر بالجنة ، وقد تقدم في ذم المال والبيهقي مع اختلاف . (٢) حديث : دخل على بعض أصحابه وهو غليل فسمع امرأة تقول : هنيئاً لك الجنة ... الحديث ، تقدم أيضاً . (٣) حديث « شيبتي هود وأخواتها ... الحديث » أخرجه الترمذي وصححه . والمالك وصححه من حديث ابن عباس ، وهو في التلخيص من حديث أبي جحيفة . وقد تقدم في كتاب الجامع . (٤) حديث : أنه وجبريل صل الله عليهما وسلم بكيا خوفاً من الله عز وجل ، فأوحى الله إليهما : لم يتبيكان ؟ الحديث ، أخرجه ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر ، ورويناه في مجلس من أمال أبي سعيد الخدري . بسند ضيف

كما أنَّ إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع في المنيح قال : حسي الله ، وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعرض بجبريل في الهواء ، حتى قال : ألك ساجدة ؟ فقال : أما إليك فلا ، فكان ذلك وقام بحقيقة قوله حسي الله ، فأخبر الله تعالى عنه فقال (وإبراهيم الذي وفى) أى بموجب قوله : حسي الله ، وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال (إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) ، قال لانخاف إني ممكاً أسمع وأرى (ومع هذا لما أتى السحرة سحرم أوجس موسى في نفسه خيفة ؛ إذا لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له (لا تخف إنك أنت الأعلى) ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم « اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يبديك ^(١) » فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : دعك مناشدتك ربك فإنه وافى لك بما وعدك ، فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بربعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر ؛ وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لعلاله ، ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له (أأنت قلت للناس اتخذوني وأنى ألحين من دون الله) قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) وقال (إن أتدبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم) الآية ، ففرض الأمر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية من البين ، لعله بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حدّ المقولات والمألوقات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسان فضلاً عن التحقيق والاستيقان ، وهذا هو الذى قطع قلوب المارفين ، إذ الطاعة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل في الدنيا يهذبهم بأنواع الآلام والأمراض ، ويعرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يخذل العقاب عليهم أبد الآباد ، ثم يغير عنه ويقول (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لا ملأنا جهم من الجنة والناس أجمعين) وقال تعالى (وتمت كلمة ربك لا ملأنا جهم) الآية ؛ فكيف لا يخاف ماحق من القول فى الأزل ولا يطمع فى تداركه ولو كان الأمر أنما كانت الأطلاع تمتد إلى حيلة فيه ، ولكن ليس إلا التسليم فيه واستتراء حتى السابقة من جل الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح ؛ فن يستر له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكانه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشفاعة ، إذ كل ميسر لما خلق له ، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعاً وبظاهره وباطنه على الله مقبلاً : كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدعاء على ذلك موثقاً به ؛ ولكن خطر الحاقمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالاً ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمنين بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشدّ تعلقاً من القدر في غليظاته ، وقد قال مغلب القلوب عز وجل (إن عذاب ربهم غير مأمون) فأجهل الناس من أمته وهو يتأذى بالتعذير من الأمن ، ولولا أن الله لطف بمبادء المارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لا تحرق قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب النفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ؛ إذ لو انكشف النطاء لذهبت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقاب القلوب . قال بعض المارفين : لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد تخسين

(١) حديث قال يوم بدر « اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يبديك » : أخرجه البخارى من حديث ابن عباس بلفظ « اللهم إن شئت لم يبد بعد اليوم ... الحديث » .

سنة أسطورة فات لم أطلع له بالتوحيد ، لأنى لا أدري ماظهر له من التغلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب النار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام ، لأنى لا أدري مايرض لقلبي بين باب الحجرة وباب النار . وكان أبو الهريث يثبث بالله ما أحد آمن على إيمانه أن يسليه عند الموت لإسائه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة ، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال ﴿وقلوبهم وجلة﴾ .

ولما احتضر سفيان جميل يبكي ويحز ، فقبل له : يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفوا الله أعظم من ذنوبك ، فقال : أو على ذنوبي أبكي لوعبت أنى أموت على التوحيد لم أبال بأن أنى الله بأمشال الجبال من الخطايا .

وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال : إذا حضرتى الوفاة فاقم عند رأسى ، فإن رأيتنى مت على التوحيد غلظ جميع ما أملكه فاشتر به لوزا وسكرا وانشره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفلت ، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يفتروا بشهود جنازتى ليحضر جنازتى من أحب على بصيرة . لتلا يلحنى الرياء بعد الوفاة . قال : وبم أعلم ذلك ؟ فذكر له علامة ، فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفقره .

وكان سهل يقول : المرید يخاف أن يبتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر . وكان أبو زيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكأن فى وسطى زنارا أخاف أن يذهب فى إلى البيعة ويبتى النار حتى أدخل المسجد فيقطع عن الزنار ، فهذا فى كل يوم خمس مرات . وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الجواريين ، أتم تخافون المعاصى ، ونحن معاصر الأنبياء نخاف الكفر .

وروى فى أخبار الأنبياء أن نبيا شكى إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عدى ، أما وضيت أن عصمت قلبك أن تكفر فى حتى تسألنى الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد وضيت يارب فأصمنى من الكفر .

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء . وسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والتناق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من التناق حتى قال الحسن : لو أعلم أنى برىء من التناق كان أحب إلى مماطلت عليه الشمس وماضوا به التناق الذى هو ضد أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلما متناقا ، وله علامات كبيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، وإن كانت فيه خصلته منهن ففیه شبهة من التناق حتى يذهبها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أتمن خان ، وإذا خامس لم »^(١) وفى لفظ آخر « وإذا عاهد غدر » .

وقد فسر الصحابة والتابعون التناق بتفسير يخلو عن شيء منه إلا صديق ، إذ قال الحسن : إن من التناق اختلاف السر والملاينة واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج ، ومن الذى يخلو عن هذه المعاني

(١) حديث « أربع من كن فيه فهو منافق . . الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو ، فى قواعد التناقض .

بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ونسى كونها منكر بالكيفية ، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضى الله تعالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيصير بها منافقا إلى الأبد من أحدكم في اليوم عشر مرات ^(١) . وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون : إنكم لتعلمون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كما ندها على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الكبائر ^(٢) . وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكبره من الناس ما تأتي مثله ، وأن يحب على شيء من الجور ، وأن ينفذ على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رضى الله تعالى عنه : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ^(٣) . وروى أنه سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال : أرايت لو كان الحجاج حاضرا أكنيت تتكلم بما تكلم به ؟ قال : لا . قال : كنا لنعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ^(٤) . وأشد من ذلك ما روى أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال : تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ؛ فقال : كنا لنعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ^(٥) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتي على القلب ساعة يحتل بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مفرز لبرة ، ويأتي عليه ساعة يحتل بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مفرز لبرة ، فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الحاتمة ، وأن سببه أمر يتقدمه منها البدع . ومنها المعاصي ، ومنها النفاق ، وحتى ينظر العبد عن شيء من جملة ذلك ، وإن ظن أنه خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل : من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إني أخاف على نفسي النفاق ، فقال : لو كنت منافقا لما خفت النفاق ، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والحاتمة خائفا منهما ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم : العبد المؤمن بين عفتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ، فوالذي نفسى بيده ما بعد الموت من مستتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ^(٦) ، والله المستعان .

بيان معنى سوء الحاتمة

• فلن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الحاتمة ، فما معنى سوء الحاتمة ؟ فأعلم أن سوء الحاتمة هل يثبت : إحداها أعظم من الأخرى ، فأما الزفة المنظمة المائلة : فإن يلقب على القلب عند سكرات الموت وظهور أموره : إما الشك ، وإما الجور ، فتنقض الروح على حال غلبة الجور أو الشك ، فيكون ماغلب على

(١) حديث حذيفة : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيصير بها منافقا . الحديث ، أخرجه أحمد من حديث حذيفة ، وقد تقدم في قواعد المفائد .

(٢) حديث أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إنكم لتعلمون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر ... الحديث . أخرجه البخاري من حديث أسد وأحمد ، والبخاري من حديث أبي سعيد ، وأحمد والمالك من حديث حبان بن نرس وصححه إسناده ، وقد تقدم في التوبة . (٣) حديث : قال رجل لابن عمر : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون ... الحديث ، رواه أحمد والطبراني ، وقد تقدم في قواعد المفائد . (٤) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال : أرايت لو كان الحجاج حاضرا ... الحديث ، تقدم هناك ولم أجده في ذكر الحجاج . (٥) حديث : لن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا ... الحديث ، أخرجه البيهقي في الشعب من رواية الحسن بن رجل من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد تقدم

أجل قد مضى ... الحديث . أخرجه البيهقي في الشعب من رواية الحسن بن رجل من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد تقدم في ذم الدنيا : ذكره ابن المبارك في كتاب الوعد والعتا ، وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجوه في مسند الفردوس .

القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً ، وذلك يقتضى البعد الدائم والمذاب المخد . والثانية وهى دونها أن يثقل على قلبه عند الموت حب أسر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها ، فيتشتت ذلك في قلبه ويستترقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لتغيره فيفتق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسراً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها . ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب . ومهما حصل الحجاب نزل المذاب إذ ناز الله الموقدة لاتأخذ إلا المحجرين عنه ؛ فأما لماؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار : جز يامؤمن فلئن نورك أطفأ لمي ، فهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا ، فالأمر خطر ، لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الثابتة عليه ، إذ لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال ؛ فلا مطعم في عمل ولا مطعم في رجوع إلى الدنيا ليتدارك ، وعند ذلك تعظم الحسرة ، إلا أن أصل الإيمان وحسب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فإنه يحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت ، فلن كان إيمانه في القوة إلى حد متعال أخرجه من النار في زمان أقرب ، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار ، ولو لم يكن إلا متعال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين .

« فلن قلت : فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقوب موته ، فما بالله يؤخر إلى يوم القيامة ويهمل طول هذه المدة ؟ فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان ، بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما سمعت به الأخبار وهو : أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة ^(١) وأنه قد يفتح إلى قبر المذنب سبعون باباً من الجحيم ^(٢) ، كما وردت به الأخبار ، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاد إن كان قد شق بسوء الحاتمة . وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات ، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر ^(٣) والتعذيب بعده ^(٤) ، ثم المناقشة في الحساب ^(٥) والافتضاح على ملا من الأشهاد في القيامة ^(٦) ، ثم بعد ذلك خطر الصراط ^(٧) وهول الزبانية ^(٨) . . . إلى آخر ماوردت به الأخبار ، فلا يزال الشقي متردداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتقدمه الله برحمته « ولا تظن أن محل الإيمان لا يأكله التراب ، بل التراب ياكل جميع الجوارح ويبدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الأجزاء المتفرقة وتعاد إليها الروح التي هى عمل الإيمان ، وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة ، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والبياد بالله شقية .

(١) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب ، وهم في الأذكار . (٢) حديث « أنه يفتح إلى قبر المذنب سبعون باباً من الجحيم » لم أجده أصلاً . (٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر : تقدم في قواعد الفوائد . (٤) حديث عذاب القبر : تقدم فيه : (٥) حديث المناقشة في الحساب : تقدم فيه . (٦) حديث الافتضاح على ملا الأشهاد في القيامة : رواه أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر « وأما الكفار والمنافق » من اتفق من وفده ليفضحه في الدنيا فضحه الله على ردوس الأشهاد « وفي الصحيحين من حديث ابن عمر « وأما الكفار والمنافق فينادى بهم على ردوس المخلوق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » والطبرانى والحقيل في الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض « فضوح الدنيا أمون من فضوح الآخرة » وهو حديث طويل منكر . (٧) حديث خطر الصراط : تقدم في قواعد الفوائد (٨) حديث حول الزبانية أخرجه الطبرانى من حديث أسد « الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسق حلة البركان منها إلى عبدة الأوثان والنيران » قال صاحب الميزان : حديث منكر . . . فزوى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مضافاً خرفة جهنم ما بين منكره آدم كما بين المعرق والمغرب .

• فإن قلت : فما السبب الذي يفضي إلى سوء الحاتمة ؟ فأعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها : أما الحتم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين :

(أحدهما) يقتصر مع تمام الروع والزهدة وتعمام الصلاح في الأعمال : كالمتدع الزاهد فإن عاقبته خطيرة جدا ، وإن كانت أعماله سالحة ولست أحن مذهبا فأقول إنه بدعة ؛ فإن بيان ذلك يطول القول فيه ، بل أحن بالبدعة : أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف ما هو عليه ، إما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يقول وبه يقتر ، وإما أخذاً بالتقليد من هذا حاله ؛ فإذا قرب الموت وظهرت له ناحية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا ، إذ سال الموت حال كشف النطاء ومبادئ سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض الأمور ؛ فهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد عاصا للاتجاه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص ، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له ، إذ لم يكن عنده فرق في إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشك فيها ، فإن اتفق زهوق روجه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعباد بالله منه ، فهو لاهم الماردون بقوله تعالى ﴿ وبنا لهم من الله مالم يكونوا يحسبون ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ﴾ الذين ضل سبيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿ وكما أنه ينكشف في الثوم ماسيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذا ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور ، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المائلة للقلب من أن ينظر إلى المملوكات ، فيطالع مافي الوح المحفوظ لتكشف له الأمور على ما هي عليه ، فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ، ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات ، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ما هو به إما تقليداً وإما نظرا بالرأى والمقول ، فهو في هذا الخطر والزهدة والصلاح لا يكتفي لدفع هذا الخطر ، بل لا ينبغي منه إلا الاعتقاد الحق ، والبلة بمول عن هذا الخطر ، أحن الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا بجملا راسخا كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالا ولا ضروا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البلة ^(١) ، ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور ، وأمروا بالخلق أن يقتصر على أن يؤمنوا بما أنزل الله من وجل جميعا ، وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نقي التفتيش ، ومنعهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقابه كثرة ومسالكه وعرة ، والمقول عن ذلك جلال الله تعالى قاصرة ، وهاديا الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبت عليه من حب الدنيا محبوبة ، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقم لهم مضطرب ومتمازج ، والقلوب لما ألقي إليها في مبدأ النشأة آلفة وبه متعلقة ، والتعميمات النافرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر ، ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة ، وشهوات الدنيا يمنعتها آخذة وعن تمام التفكير صادرة ، فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأى والمقول مع تفاوت الناس في قراءتهم واختلافهم في طبعهم وحرص كل جاهل منهم على

(١) حديث • أكثر أهل الجنة البلة • أخرجه البراز من حديث أنس ؛ وقد تقدم .

أن يدعى الكمال أو الإِسَاطة بكته الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصنفين إليهم ، وتأكد ذلك بطول الآلاف فيهم ، فأنشد بالكلية طريق الخلاص عليهم ، فكانت سلامة الخلق أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعوضوا لها من خارج عن حد نطاقهم : ولكن الآن قد استرخى السانوفنا الهذيان ونزل كل جاهل على ماوافق طبعه بظن وحسبان ، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الإيمان ، ويظن أن ماوقع به من حسد وتغمين علم اليقين وعين اليقين (ولتعلن نبأه بعد حين) ويهني أن يفشدهن مؤلاد عند كشف الغطاء :

أحسنت ظنك بالابام إذ حسنت ولم تحض سوء مايقى به القدر

وسألتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج باقة ورسوله وكتبه وغاض في البحث ، فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انتسرت سيفيته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج ، فرجا يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد ، والمهلك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم إما مع الادلة التي حوزوها في تمصباتهم أو دون الادلة ، فإن كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واثقا فهو آمن من مكر الله مغتر بقوله الناص ، وكل غائص في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين ، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المشاهدة الذي هو مشرق في عالم الولاية والثبوت . وذلك هو الكبريت الأحمر ، وإنما يتيسر ، وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الحاتمة .

(وأما السبب الثاني) فهو ضعف الإيمان في الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب . ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا ، فيصير بحيث لا يبق في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب ، فلا يزال يطنى مافيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعنا وروينا ، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استعمار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستعمار فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله فيستلج خيمه بإنكار ماقد عليه من الموت وكراهة ذلك . من حيث إنه من الله ، فينشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب ، كما أن الذي يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمراله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا ، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا ، والسبب الذي بغض إلى مثل هذه الحاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان المرجح لضعف حب الله تعالى ؛ فن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو البدء المضال ، وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى ، إذ لا يجب إلا من عرفه ؟ ولهذا قال تعالى ﴿ قل إن كان آباءكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترمتموها وتجارة نخشون كسادها ومساکن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله قلوبكم مغنى عن العمل ﴾ فإذا كان كل من طارقه زرع في سالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله وظهر بغض فعل الله بقلبه في تفرقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ؟ فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا

لما أحبه ، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبى إذا قدم به على مولاه فقها ، فلا ينبغي ما يستحقه من الجزى والنعكال ، وأما الذى يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذى تحمل مشاق الأعمال ووعاء الأسفار طمعا في لقاءه ، فلا ينبغي ما يلقاه من الفرح والسرو ويجتد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام .

وأما الخاتمة الثانية التى هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار ، فلها أيضا سيان :

(أحدهما) كثرة المعاصى وإن قرى الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصى ، وذلك لأن مقارنة المعاصى سببا غلبة الشهوات وفسوخها في القلب بكثرة الإلف والمادة . وجميع ما ألّفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله ، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت ؟ فرمما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومصيبة من المعاصى ، فيتقيد بها قلبه ويصير محبوا عن الله تعالى ، فإذئذ لا يقارف الذنب إلا الغيبة بعد الغيبة فهو أبعد عن هذا الخطر ، والذي لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر ، والذي غلبت عليه المعاصى وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جدا ، ونعترف هذا بمثال : وهو أنه لا ينبغي عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التى عهدما طول عمره ، حتى إنه لا يرى إلا ما يائىل مشاهدته في اليقظة ، وحتى إن المراقب الذى يحتمل لا يرى صورة الواقع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ، ولو بقي كذلك مدة رأى عند الاحتلام صورة الواقع ، ثم لا ينبغي أن الذى قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه الطيب والفقيه ؟ الذى قضى عمره في التجارة ، والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطيب والفقيه ؟ لأنه إنما يظهر في حال النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب ، والموت شبه النوم ولكنه فوقه ، ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من النشبة قريب من النوم ، فيقتضى ذلك تذكر المؤلف وعوده إلى القلب ، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف ، فطول الإلف بالمعاصى والطاعات أيضا مرجح ، وكذلك يخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق ، فتكون غلبة الإلف سبب لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه ، فرمما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها ، وكما أن ما يخطر في اليقظة إنما يخطر بسبب غاص يعلقه الله تعالى ، فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نفرف بعضها ولا نفرف بعضها ، كما أننا نعلم أن الحاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشاهدة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشاهدة فإن ينظر إلى جميل فيذكر جميلا آخر ، وأما بالمضادة فإن ينظر إلى جميل فيذكر قبيحا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما ، وأما بالمقارنة فإن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيذكر ذلك الإنسان ، وقد ينتقل الحاطر من شيء إلى شيء مولا يندى وجهه مناسبة له ، وإنما يكون ذلك بواسطة واسطتين ، مثل أن ينتقل من شيء ثان ، ومنه إلى شيء ثالث ، ثم يلقى الثاني ، ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ، ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأول مناسبة ، فكذلك لانتقالات الحواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس ، وكذلك عند سكرات الموت ، فعلى هذا - والعالم عند الله - من كانت الحياطة أكثر أشغاله ، فإليك تراه يومى إلى رأسه كأنه يأخذ ليرته ليخيط بها ويبيل أصبعه التى لما عادة بالكسبان ويأخذ الإزار من فوقه ويتدبره ويشهره كأنه يتعاطى تفصيله ، ثم يمد يده إلى القراض ،

ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والتهورات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب ، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المراقبة على الخير وتحلية الفكر عن الشر عتة وذخيرة لحالة سكرات الموت ، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ويمحشر على ما مات عليه ، ولذلك نقل عن قتال أنه كان يلقن عند الموت كلتي الشهادة فيقول : خمسة ستة أربعة ، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت . وقال بعض العارفين من السلف : العرش جوهرة تتلألأ نورا ، فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها ، فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش ؛ فربما يرى نفسه على صورة معصية ، وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذها من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف ، وما ذكره صحيح ، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك ، فإن المنام يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ ، وهي جزء من أجزاء النبوة ، فإذا رجع سوء الحاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الحواطر ومقلب القلوب هو الله ، والاتفاقات المقتضية لسوء الحواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولا كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير ، فهذا عظم خوف العارفين من سوء الحاتمة ، لأنه لو أراد الإنسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمراقبة عليه ما يؤثر فيه ، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة ، حتى سمعت الشيخ أبا علي الغارمذي رحمه الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المرید لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال : حكيت لشيخني أبي القاسم الكرماني مناماً لي قلت : رأيته قلت لي كذا ؛ فقلت : لم ذاك ؟ قال : فبهجرتي شراً ولم يكلمني وقال : لو أنه كان في باطنك تصوير المطالبة وإنكار ما أقوله لك لا جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال ؛ إذ قلنا يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه ؛ فهذا هو القدر الذي يسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الحاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة ، وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الحاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وترجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية ؛ فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكائك ونياحتك ويدوم به حزئك وقلقك ، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيبة لنار الخوف من قلبك ، وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها خاتمة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح ، وإن سلامته مع اضطراب أمواج الحواطر مشكلة جداً ، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول : لأن لا أعجب من هلاك كيف هلك ، ولكني أعجب من نجاة كيف نجاة ؛ ولذلك قال حامد اللغاف : إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تمسجت الملائكة منه وقالوا : كيف نجاة هذا من دنيا فسدت فيها خيارنا . وكان الثوري يوماً يبكي ف قيل له علام تبكي ؟ فقال : بكيت على الذنوب زماناً ، فالآن تبكي على الإسلام . وبالجملة من وقعت سفينة في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبدياً من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة ، وأمواج الحواطر أعظم التطامناً من أمواج البحر ، وإنما الخوف عند الموت خاطر سوء ينظر فقط ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فراق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب ^(١) ، ولا يفسح

(١) حديث « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة . . . الحديث » تقدم .

فراق الناقة لأعمال توجب الشفاعة ، بل هي الخواطر التي تضطرب وتضطرب خطور البرق الخاطف . وقال سهل : رأيت كأنى أدخلت الجنة ، فرأيت ثلثمائة نبي فسألتهم : ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا ؟ قالوا : سوء الخاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها ، وكان موت النجاة مكروها ، أما الموت فجأة فلاه وربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب لا يتخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة . وأما الشهادة فلاها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب ، إذ لا يحجم على صف القتال موطن نفسه على الموت إلا حبا لله وطبا لمرضاة وباعما دنياه بآخرته وراضيا بالبيع الذي بإيمه الله به ، إذ قال تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ والبايع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب ؛ ويجزء حب العوض المطلوب في قلبه ، ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهو الروح فيها ، ففصل القتال سبب لزهو الروح على مثل هذه الحالة ، هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والثنية وحسن الصيت بالشجاعة ، فلو أن هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار ^(١) .

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها ، فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل للمعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز من مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهديك ، فإن ذلك أيضا يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخوارطك ، وإياك أن تسرف وتقول : سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفسنا حاتمة ، إذ يمكن أن تحتطف فيه وروحك فرأيت قلبك في كل طريفة ، وإياك أن تهمل لحظة فلعل تلك اللحظة حاتمتك ، إذ يمكن أن تحتطف فيها وروحك ، هذا مادامت في يقظتك ، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ، لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجرد ضعيفة الأثر . واعلم قطعا أنه لا ينقلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبا عليه ، وأنه لا ينقلب في النوم إلا ما كان غالبا قبل النوم ، ولا ينجت عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك ، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة ، فكما لا ينال البعد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه ، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه ، وتحقق قطعا وبقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك ، وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بيمين اليقين ونور البصيرة ، وراقب أنفسك ولحظائك ، وإياك أن تنفل عن الله طرفة عين فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم ، فكيف إذا لم تفعل . والناس كلهم هلكت إلا العالون ، والعالون كلهم هلكت إلا الباعلون ، والباعلون كلهم هلكت إلا الخلقون ، والخلقون على خطر عظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تنق من الدنيا بقدر ضرورتك ، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول ، والضرورة من المطعم ما يقبض صلبك ويد رفقك ، فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك ،

(١) حديث « المقتول في الحرب إذا كان قصده الذبابة والثنية وحسن الصيت فهو بعيد من رتبة الشهادة » متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري « أن رجلا قال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل لفسنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فن في سبيل الله ؟ فقال : من قال لا تكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وفي رواية : الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حجة ويقاتل رياء . وفي رواية فضيا .

إذا لافرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه ، فهما ضرورتان في الجيلة ، وكلا لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطبك فقيمتك ما يخرج من بطبك ، وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك ، فعلمة ذلك تظهر في ثلاثة أمور : من مأكولك في وقته وقدره وجنسه ، أما الوقت فأقله أن يكتفي في اليوم واليلية مرة واحد فيواظب على الصوم ، وأما قدره فيأن لا يزيد على ثلث البطن ، وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقتنع بما يتفق ، فإن قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مشوة الشهوات والذائد قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وأمهلك أن لا تأكل إلا من حله ، فإن الحلال يمر ولا يفي بجميع الشهوات ، وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وسد العورة ؛ فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسة بدانق فطيلك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والنساء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطعم أخرى من الحرام والفسه ، وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك ؛ فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده . بل كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب ، وكذلك المسكن إن اكتنفت بمقصوده فكنتك السماء مسقفا والأرض مستقرا ؛ فإن غلبك حر أو برد فدليك بالمساجد ، فإن طلبت مسكنا عاصا طال عليك وانصرف إليه أكثر عرك ، وعرك هو بضاعتك ، ثم إن تيسر لك قصدت من الخائف سوى كونه حائلا بينك وبين الأضرار ، ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار ، فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد توطأت في مهارة يمد ريقك منها ، وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرتها عليها فتزغث الله وقدرت على التزود لأخرك والاستعداد لحاتمك ، وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمان تشعبت همومك ولم يبال الله في أي واد أمسكك ؛ فأقبل هذه النصيحة بمن هو أحوج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير ، فإذا دفعته يوما بيوم في تسويقك أو غفلتك اختلطت لجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وتدامتك ، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بنصف خوفك إذا لم يكن فيها وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخوفك فإننا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض التساوة عن قلبك ، فإنك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك ، فتأمل مع كلال بصيرتك وعش عين قلبك في أحوالهم : لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصفق وبعضهم يدهش وبعضهم ينسقط منشيا عليه وبعضهم يتجز ميتا إلى الأرض ، ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فإن قلوب النافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة (ولأن من الحجارة لما يتجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) .

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

روت عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نذر الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من غلب الله (١) . وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصق (٢) ، وقال تعالى (ونزل موسى صمعا) ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل

(١) حديث عائشة : كان إذا نذر الهواء وهبت ريح عاصفة تنير وجهه ... الحديث ، متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) حديث : قرأ سورة الواقعة فسق ، المرفوع فيها يبرى من هذه القصة أنه قرأ عنده (أن لدينا أنسلا لوجدينا ولماذا لنا غنة وهذا يا أيها) فسق ، كأروان ابن عدى والبيهقي في الشعب مسلا ، وهكذا ذكره المستنفل على الصواب في كتاب السماع كاهدم

عليه السلام بالأبطح فصق^(١) . وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيزاً كأزيز المرجل^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : ما جأني جبريل قط إلا وهو يرعد فرقا من الجبار^(٣) ، وقيل : لما ظهر على إيليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان ، فأوحى الله إليهما : مالكما بيبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا : يا رب ، ما تأمن مكره ! فقال الله تعالى : هكلنا كونا ، لا تأمنا مكرى ،

وعن محمد بن المنكدر قال : لما خلقت النار طارت أفتة الملائكة من أمانتها ، فلما خلق بنو آدم عادت . وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل : مالي لا أرى ميكائيل يضحك ؟ ، فقال جبريل : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار^(٤) .

ويقال : إن الله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن ينضب الله عليهم فيعذبهم بها . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال ، يا ابن عمر ، مالك لا تأكل ؟ قلت : يا رسول الله لا أشتهي ، فقال : لكنني أشتهي وهذا صبح رابحة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربى لأعطاني ملك يقصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يجشون رزق سنهم ويضعف اليقين في قلوبهم ؟ قال فواء ما برحنا ولا لنا حتى نزلت (وكان من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات ، من كنز دنائير يريد بها حياة فانية فلن الحياة يده الله ، ألا وإنى لا أكنز دينار ولا درهما ولا أعبا رزقا لند^(٥) .

وقال أبو الدرداء : كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه .

وقال مجاهد : بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه ، فنودي : يا داود أجمع أنت قططم ؟ أم ظمان فتسقى ؟ أم طار فتكسى ؟ فنجب نجبة حاج العود فأحرق من حر جوفه ، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال : يارب اجعل خطيئتي في كفى فصار خطيئتي في كفه مكتوبة ، فكان لا يمسك كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رأاه وأبكته ، قال : وكان يؤتى بالندح لثاء فلذا

(١) حديث : أنه رأى سورة جبريل بالأبطح فصق : أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند جيد : سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل أن يراه في صورته ؟ فقال : ادع ربك ، فدما به فطلع عليه من قل المعرق فجعل يرتفع ويدير ، فلما رآه صق . ورواه ابن المبارك من رواية الحسن حسنا بلفظ : فغشى عليه . وفي الصحيحين من مائة : رأى جبريل في صورته صهين ولها من ابن مسعود : رأى جبريل له ستائة جناح .

(٢) حديث : كان إذا دخل في الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل . رواه أبو داود والترمذي في القبائل ، والنسائي من حديث عبد الله بن الفضير ، ووافقه في كتاب السجاء . (٣) حديث : ما جأني جبريل قط إلا وهو يرتعد فرائسه من الجبار ، لم أجده هذا القبط . وروى أبو الشيخ في كتاب النطفة من ابن عباس قال : إن جبريل عليه السلام يوم القيامة طعم بين يدي الجبار بآرك ولعل ترمد فرائسه فرقا من عذاب الله ... الحديث ، وفي زميل بن سبأ الخني يحتاج إلى مرسته .

(٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : مالي لا أرى ميكائيل يضحك ، فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار . رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد ، ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت حسنا ، وورد ذلك أيضا في حق إسرائيل . رواه البيهقي في الشعب ، وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين . (٥) حديث ابن عمر : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل الحديث . أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر ، قال البيهقي : هذا إسناد مجهول ، والجراح بن مهالك ضعيف .

تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه . و يروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل ، وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روعي ، سبحانه إلهي آتيت أطباء عبادك ليبدواوا خطيئتي فسلمهم عليك يدي ، فبؤسا للقائطين من رحمتك .

وقال الفضيل : بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فومب صارعا واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجلال فاجتمعت إليه السباع فقال : ارجعوا لأرأيكم ، إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا البكاء ، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء . وكان ينام في كثرة البكاء فيقول ، دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتغال الحشا وقبل أن يؤسر في ملائكة غلاظ شداد لا يمحسون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال : إلهي يح صرت في صفاء أصوات الصديقين . وروى أنه عليه السلام لما طال بكأؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه ، فقال : يا رب أمارس بكائي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ، نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ، فقال : إلهي وسيدى كيف أئسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأطلق الطير على رأسى وأنت الوحش إلى عراقي ، إلهي وسيدى فما هذه الوحشة التي بيني وبينك ، فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، يا داود آدم خلق من خلق خلقته يدي ونفخت فيه من روعي وأسجدت له ملائكتي وألبست ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقلاري ، وشكلك للوحدة فزوجته حواء أمي وأسكنته جنى ، عصاني فطردته عن جوارى هريانا ذليلا ، يا داود اسمع مني والحق أقول : أطعمتا فأطعناك ، وسألنا فأعطيناك ، وعصيتنا فأهملناك ، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك . وقال يحيى بن أبي كثير : بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء ، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية ، فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وما حولها من النياض والأكام والجلال والبراري والصوامع والبيع ، فينادى فيها : ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت ، قال : فتأتى الوحوش من البراري والأكام وتأتى السباع من النياض وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن ، وتجتمع الناس لذلك اليوم ، ويأتى داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته يحيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه ، فيأخذ في التثاء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والثاس ، ثم يأخذ في أحوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة ، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال : يا ابتاه قد موقت المستمعين كل عرق ومات طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام ، فيأخذ في الدعاء ، فيثاء هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل : يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك ! قال فيخز داود مضطجعا عليه ، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر متاد ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فسكنت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يا من قتلته ذكر النار ، يا من قتلته خوف الله ثم إذا أفاق داود قائم ووضع يده على رأسه ودخل بيت عباده وأغلق بابيه ويقول : يا إله داود أغضيبني أنت على داود ولا يزال ينادي ربه ، فيأتى سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول : يا ابتاه تقو بهذا على ما تريد ، فيأكل كل من

ذلك القرص ماشاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشي . خرج داود ذات يوم بالناس يمشون ويمتدحونهم ، فخرج في أربعين ألفاً فات منهم ثلاثون ألفاً ومارجع إلا في عشرة آلاف ، قال : وكان له جارياتان اتخذهما ، حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدنا على صدره وعلى وجهه مخافة أن تفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج ، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ، ونظر إلى مجتهدهم قد خرخوا القراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدتوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس ، فباله ذلك ، فرجع إلى أبويه فقصصا يلعبون ، فقالوا له : يا يحيى ، هل بنا تلعب فقال : إني لم أخلق للعب ، قال : فأتى أبويه فسألهم أن يدرجاه الشعر ففعلوا ، فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهارة ويصبح فيه ليلاً ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة ، فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشباب ، فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أتقن رجليه في الماء حتى كاد العطش يذهب وهو يقول : وعزتك وجلالك لا أدوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك ، فسأله أبواه أن يفتح على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه ، فدح بالبر ، فرده أبواه إلى بيت المقدس ، فكان إذا قام يصل بكى حتى يسكى معه الشجر والمدر ، ويسكى ذكرى عليه السلام لبسكاته حتى يشفى عليه ، فلم يزل يسكى حتى خرقت دموعه لحلم خديه وبدت أضراره للناظرين ، فقالت له أمه : يا بني لو أدنت لي أن اتخذ لك شيئاً تورى به أضراسك عن الناظرين فأذن لها ، فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خديته ، فكان إذا قام يصل بكى فإذا استنفعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه فمصرتهما ، فإذا رأى دموعه تسيل على خداه أمه قال : اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين ، فقال له زكريا يوماً : يا بني إنما سألت ربّي أن يهبك لي لتقر عيني بك ، فقال يحيى : يا أبت يا جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مغارة لا يقطعها إلا كل بسكاه . فقال زكريا عليه السلام : يا بني فابك .

وقال المسيح عليه السلام : معاشر الحراريين ، خشية الله وحسب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا . بحق أقول لكم : إن أكل الشعير والنوم على المزابيل مع السكلاب في طلب الفردوس قليل .

وقيل : كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يمشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلافيل ، فيأتيه جبريل فيقول له : ربك يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلاً يخاف خليفه ؟ فيقول يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلقى ، فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فإني أعلمهم أعرف خلق الله بالله وصفاته ، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المتقين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف

روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال انظر ليقن مثلك باطائر ولم أخلق بشراً .

وقال أبو ذر رضي الله عنه : وددت لو أتى شجرة لتمسك وكذلك قال طلحة .

وقال عثمان رضي الله عنه : وددت إني إذا مت لم أبعث .

وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أني كنت نسياً منسياً .

وروى أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن منشياً عليه ، فكان يباد بإماما . وأخذ يوماً منة من الأرض فقال يا ليتني كنت هذه التينة ، يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً ، يا ليتني كنت نسياً منسياً ،

باليقنى لم تلبث أى . وكان في وجه عمر رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع وقال رضى الله عنه : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يفسخ ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير مازون . ولما قرأ عمر رضى الله عنه (إذا الشمس كورت) واتى إلى قوله تعالى (وإذا الصحف نشرت) خز منشيا عليه . وسر يوما بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة (الطور) فوقف يستمع ، فلما بلغ قوله تعالى (إن عذاب ربك لواقع *) ما له من دافع) نزل عن محاربه واستند إلى حائط ومكث زمانا ، ورجع إلى منزله فرمض شهرا يعود الناس ولا يدرون ما مرضه .

وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلما رأوا اليوم شيئا يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعنا صفرا غيراً بين أعينهم أمثال ركب للمزى قد باتوا له سجداً وقياماً بتلون كتاب الله يراوون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبوا ذكروا الله فسادوا كما يبدى الشجر في يوم الريح ، ومثلت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم ، والله فكان بالقوم باتوا غافلين ، ثم قام ، فأروى بعد ذلك مناحكاً حتى حمره ابن ملجم .

وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رماداً تلسفى الريح في يوم عاصف ،

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : وددت أنى كبش فيذبحنى أهلى فيأكلون لحى ويحسون مرقى وكان على بن الحسين رضى الله عنه إذا ترخأ اصفر لونه ، فيقولون له أهله : ما هذا الذى يعتادك عند الرضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟

وقال موسى بن مسعود : كما إذا جلسنا إلى الثورى كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خونه وجوعه .
وقرأ مضر القارئ يوماً (هذا كتابنا بنطق نليك بالحق . . الآية) فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه ، فلما أتق قال : وعزتك لأعصيتك جهدى أبداً ، فأعنى بتوفيقك على طاعتك .

وكان السور بن غزمية لا يقوى أن يسمع شيئاً من القرآن : لشدة خوفه ، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فلا يعقل أياً ما ، حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه (يوم نحشر للمنتقين إلى الرحمن وفداً *) ولسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) فقال أنا من المجرمين ولست من المنتقين ، أعد على القول أيتها القارئ ، فأعادها عليه فشبه شققة فلقق بالآخرة .

وقرئ عند يحيى البكاء (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) فصاح صيحة مكث منها مريناً أربعة أشهر يعادمن أطراف البصرة .

وقال مالك بن دينار : بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجورية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول : يارب كم شهوة ذهبت لثانها وبقيت تبعانها ؟ يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار ؟ وتبكي ، فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك : فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسى صارخاً أقول : تكلمت مالكا أمه .

ودوى أن الفضيل رأى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء التكلى المحترقة ، حتى إذا كادت الشمس تنرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : واسواته منك وإن غفرت ، ثم انقلب مع الناس .

وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين ؟ فقال : فلوهم بالحرف فرحة ، وأعينهم باكية ، يقولون : كيف نفرح والموت من وراءنا ، والقر أماننا ، والقيامة وعذنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله ربنا موقفنا .

ومن الحسن بنشاب وهو مستترق في ضحكته وهو جالس مع قوم في مجلس ؛ فقال له الحسن : يا فتى ، هل مررت بالصراط ؟ قال : لا . قال : فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار ؟ قال : لا . قال فما هذا ضحكك ؟ قال فأروى ذلك الفتى بعدها ضاحكا .

وكان حماد بن عبيد ربه إذا جلس جلس مستوفرا على قدميه ، فيقال له : لئلا أعلم أنك ؟ فيقول : تلك جلسة الأمن ، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الخفة في قلوب العباد رحمة كيلا يتوآ من خشية الله تعالى .
وقال مالك بن دينار : لقد حممت إذا أنا مت آسرم أن يقيدوني وينلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربى كما ينطلق بالعبد الآتيق إلى سيده .

وقال حاتم الأصم : لا تفترب موضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها مائتي : ولا تفترب بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تبعده لقي مائتي ١ ولا تفترب بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي ١ ولا تفترب برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع ببقائه آثاره وأعداؤه ١

وقال السري : إني لا أنظر إلى أنني كل يوم مرات عناقته أن يكون قد اسود وجهي . وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلى نظير السخط وأعمالى تدل على ذلك .
وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال : إني اجتربت البارحة على الله سألته الجنة .

وقالت أم محمد بن كعب القرظي لأبيها : يا بني إني أعرفك صغيرا طيبا وكبيراً طيباً ، وكانك أحدثت حدثاً موبقاً لما أراك تصنع في ليالك وتهارك ١ فقال : يا أمه ، ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبى ففتنى وقال : وعزى وجلال لا غفرت لك

وقال الفضيل : إني لا أعط نيا مرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبداً صالحا ، ليس هؤلاء يمانون يوم القيامة ، إنما أعطى من لم يخلف .

وروى : أن قى من الأنصار دخلته خشية النار ، فكان يبكي حتى حبه ذلك في البيت ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه ظهر ميتا ، فقال صلى الله عليه وسلم : جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فت كبده ^(١) ،

وروى عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول : يا ليت أوى لم تلتنى ، فقالت له أمه : يا ميسرة ، إن الله تعالى قد أحسن إليك ، هناك إلى الإسلام ، قال : أجل ولكن الله قد بين لنا أنا واردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها ،

وقيل لفرقة السبخى : أخبرنا بأعجب شيء بلنك عن بنى إسرائيل ١ فقال : بلننى أنه دخل بيت المقدس مخملا عذراء لابسهن الصفوف والمسوح ، فتذاكرن ثواب الله وقضاها لئن جميعا في يوم واحد .

وكان عطاء السلى من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو . وقيل له في مرضه : ألا تشهى شيئا ؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة : إنه مارع رأسه إلى السماء ولا ضحك

(١) حديث : أن قى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبه خوفه في البيت ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في المائتين من حديث حذيفة ، والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيها نظر .

أربعين سنة . وأنه رفع رأسه يوما ففرغ فسقط فافتق في بطنه فتق ، وكان يمس جسده في بعض الليلة خفاة أن يكون قد مسخ . وكان إذا أصابته ريح أو برق أو غلاء طعام قال : هذا من أجل يصيبهم ، لومات عطاء . لاستراح الناس . وقال عطاء : خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بظهور المشاء قد تورت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رمسهم ولصقت بأودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار ، يصبحون كأن جلودهم قشور البليخ وكانهم قد خرجوا من القبور يتبرون كيف أكرم الله الطيعين وكيف أهان العاصين ، فينبأهم بمشون إذ مزأحد بمكان غز منشيا عليه ، جلس أصحابه حوله يسكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح حرقا ، فجاءوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسأله عن أمره ؟ فقال : إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان .

وقال صالح المري : قرأت على رجل من المتعبدين (يوم قلب وجوههم في النار يقولون باليتنا أظننا الله وأظننا الرسولا) فصمت ثم أفاق فقال : زدني يا صالح فألقى أجد غشا ، فقرأت (كلا أرادوا أن يخرجوا منها أعيديا فيها) فخر ميتا .

وروى أن زراة بن أبي أوفى صلى بالناس القعدة فلما قرأ (فإذا نقر في النافور) خر منشيا عليه ، لحمل ميتا . ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال : عظمي يا يزيد : فقال يا أمير المؤمنين ، أعلم أنك لست أول خليفة بموت ، فبكى ثم قال : زدني ، قال : يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت ، فبكى ثم قال : زدني يا يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل ، فخر منشيا عليه .

وقال ميمون بن مهران : لما نزلت هذه الآية (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدر أن عليه (١) .

ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول : يا ابنه ، ليت شرى أى خديك بدأ به الدود أولا ؟ فصمت داود وسقط مكانه .

وقيل : مرض سفيان الثوري فعرض دليبه على طبيب ذى فقال : هذا رجل قطع الخوف كبده . ثم جاء وجس عروقه ثم قال : ما عالت أن للملة الحنيفية مثله .

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله عليه : سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ، ففتح ثغفت على عظمي ؛ فقال : يارب على قدر ما أطيق ، فسكن قلمي .

وقال عبد الله بن عمرو بن الناباس : ابكوا فإن لم تبكوا قتبوا كرا ، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى يتكسر صلبه ، وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : لو تعلمون ما أهمل لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٢) .

وقال الثوري : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فأطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته ترجف ، فقال : عليكم بالقرآن ، عليكم بالصلاة ، وبكم ! ليس هذا زمان حديث ، إنما هذا زمان بكاء ونزع واستكانة ودعاء كدعاء الفرير ، إنما هذا زمان : احفظ لسانك وأخف مكانك وطاع قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر .

(١) حديث ميمون بن مهران : لما نزلت هذه الآية (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) صاح سلمان الفارسي : لم أتف له على أصل

(٢) حديث « لو تعلمون ما أهمل لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » تقدم في قواعد الفوائد .

وروى الفضيل بن عياض وهو يمشي ، فقيل له : إلى أين ؟ قال : لا أدري ، وكان يمشي والمانس الحروف .
وقال دز بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبيكون أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ، فقال : يأتي ليست الثالثة الشكلى كالثالثة المستأجرة .

وحكى أن قوما وقفوا بعباد وهو يبيكون فقالوا : ما الذي يبكيك يرحمك الله ؟ قال : قرحة يجدها الخافقون في قلوبهم قالوا : وما هي ؟ قال : روعة التداء بالمرض على الله عز وجل .

وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته : قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتني .

وقال صالح المري : قدم علينا ابن السكك مرة فقال : أرنى شيئا من بعض عجائب عبادكم ، فذهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له ، فاستأذنا عليه ، فإذا رجل يعمل خوصا ، فقرأت عليه (إذ الأغلال في أعتاقهم والسيلاسل يسبحون ه في الحميم ثم في النار يسبحون) فشقق الرجل شهقة وخز منشيا عليه ، فخرجنا من عندنا وكناه على حاله ، وذهبتا إلى آخره دخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشقق شهقة وخز منشيا عليه ، فذهبتا واستأذنا على ثالث ، فقال : ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا ، فقرأت (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) فشقق شهقة فبدا الدم من منخره وجعل يتسخط في دمه حتى يبس ، فتركناه على حاله وخرجنا فأدبره على ستة أنفس كل نخرج من عنده ونتركه منشيا عليه : ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا ، فإذا امرأة من داخل الحص تقول : ادخلوا ، فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في ملاءه ، فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا ، فقلت بصوت عال : ألا إن للخلق غدا مقامنا ، فقال الشيخ : بين يدي من ويحك ؟ ثم بقي مبهوتا قائما فاه شاخصا بصره يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت ، فقالت امرأة : اخرجوا فإنكم لا تفتنوني به الساعة ، فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم ؟ فإذا ثلاثة قد أقاموا ، وثلاثة قد لحقوا باله تعالى . وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحمرا لا يؤدي فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل .

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال ، وكان قد حلف أن لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل سمنأ أبدا ، لما روى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل سمنأ حتى مات رحمه الله .

وقال الحجاج لسعيد بن جبير : بلني أنك لم تضحك قط ؟ فقال : كيف أضحك وجهي قد سمرت والأغلال قد نصبت والربانية قد أعنت .

وقال رجل للحسن : يا أبا سعيد كيف أصبحت ؟ قال : بخير ، قال : كيف حالك ؟ فتبسم الحسن وقال تسألني عن حال ؟ ما ظنك بناس ركبو السفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بمنشبه ؟ على أي حال يكون ؟ قال الرجل : على حال شديدة . قال الحسن : حال أشد من حالهم .

ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتا عيناها : فرقدت فاستبكت في منامها ، ثم انتبهت فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنني واهة رأيت عجبا ، قال ، وما ذلك ؟ قالت : رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جرى بالصراط ووضع على منشا ، فقال : هيه ، قالت : هيه . فبعيد الملك بن مروان لحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط ، فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه ، قالت : ثم جرى بالوليد بن عبد الملك لحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم ، فقال عمر : هيه قالت : ثم جرى بلسان بن عبد الملك فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك ، فقال عمر : هيه قالت : ثم جرى بك واهة يا أمير المؤمنين : فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة خز منشيا عليه ،

فقامت إليه جلست تنادى في أذنه : يا أمير المؤمنين ، إني رأيتك والله قد نجوت إني رأيتك والله قد نجوت ! قال : وهي تنادى وهو يصيح ويفصص برجليه . ويمحى أن أوبسا القرنى رحمه الله كان يحضر عند القاص فيسكن من كلامه ، فإذا ذكر النار صرخ أوبس ثم يقوم منطلقاً فينبه الناس فيقولون مجنون مجنون .

وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه .

وكان طاوس يفرس له الفرس فيضطجع ويتقل كما تتقل الحبة في القلى ، ثم يلب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول : طهر ذكر جهنم نوم الخائفين .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، باليتنى كنت ذلك الرجل ، وإنما قال ذلك لحوفه من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ما ضحك أربعين سنة ! قال : وكنت إذا رأيتة قاعدا كأنه أسير قد قُثم لتضرب عنقه ، وإذا تسلم كأنه يعان الآخرة فيخبر عن مشاهدتها ، فلذا سكنت كأن النار تسمرين عيني . وعوبت في شدة حزنه وخوفه فقال : ما يؤمنى أن يكون الله تعالى قد اطلع في على بعض ما يكره فقتى فقال : اذهب فلا غفرت لك ؛ فإنا أحمل في غير معتل .

وعن ابن السكك قال : وعظت يوماً في مجلس ، فقام شاب من القوم فقال : يا أبا العباس ، لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالى أن لا نسمع غيرها . قلت : وما هي رحمتك الله ؟ قال قولاك : لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار . ثم غاب عني ففقدته في المجلس الآخر فلم أراه ، فسألت عنه فأخبرت أنه مريض بباد ، فأنيته أعوده فقلت : يا أخى ما الذى أرى بك ؟ فقال : يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار . قال : ثم مات رحمه الله فرأيت في المنام فقلت : يا أخى ما فعل الله بك ؟ قال : غفرل ورحمى وأدخلني الجنة . قلت بماذا ؟ قال بالكلمة .

فهذه غارف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ، ونحن أجدر بالخوف منهم ، لكن ليس بالخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكال المعرفة ، وإلا فليس أمنا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا ، بل قادتنا شهواتنا وغلبت علينا شغواتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا ، فلا قرب الرحيل يلبثنا ، ولا كثرة الذنوب تحركنا ، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تحزفنا ، ولا خطر الخاتمة يرعبنا ؛ فנסأل الله تعالى أن يتدارك بفضلته وجوده أحوالنا فيصلحنا ، إن كان تحريك اللسان مجزئاً السؤال دون الاستعداد يتبعنا .

ومن المعجائب أما إذا أردنا المال في الدنيا زرنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبرارى وعاطرنا . وإن أردنا طلب رتبة العلم فقمنا وتعبنا في حفظه وتكراره وشهرنا ، ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا نثق بضمائم الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول : اللهم أرزقنا ، ثم إذا طمعت أعيننا نحر الملك الدائم القيم قمنا بأن نقول بالسنة : اللهم اغفر لنا وارحمنا ، والى إليه رجأنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول (وإن ليس للإنسان إلا ما سعى) (ولا يذوقنك الله النور) (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) ثم كل ذلك لا يلبثنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا ، فما هذه إلا حمة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركها ويجبرنا ، فנסأل الله تعالى أن يتوب علينا ، بل نسأله أن يشقق إلى التوبة سرائر قلوبنا ، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل ، إذا سمعنا الوعظ بكينا ، وإذا جاء وقت العمل بما سمعنا عصينا ؛ علامة الخذلان أعظم من هذا ؛ فנסأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله .

ولتقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فإن القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكني ، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يفتي . ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني وكان من خيار العباد - أنه رآه على باب بيت المقدس ولقفا كهية الحزون من شدة الوله ما يكادير أدمعه من كثرة البكاء ، فقال عيسى : لما رأيته هالتي منظره ، فقلت : أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك ، فقال : يا أخي بماذا أوصيك ، إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والموام فهو عاقف حذر يخاف أن ينفلت فتفترسه السباع أو يسهر فتنتسه الموام فهو مذخور القلب وجل ، فهو في مخالفة ليله وإن أمن للمفترق ، وفي الحزن نهاره ، وإن فرح البطالون . ثم ولي وتركتي فقلت : لو زدني شيئا عسى أن ينفعني ؟ فقال الظمان يحزبه من الماء أيسره ، وقد صدق فإن القلب الصافي يحزبه أدنى مخالفة ، والقلب الجامد تنبؤ عنه كل المواقف ، وما ذكره من تنبؤه أنه احتوشته السباع والموام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق ؛ فإنه لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيت مشحونا بأصناف السباع وأنواع الموام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها ، وهي التي لا تزال تفترسك وتهشك إن غفلت عنها لحظة ، إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها ؛ فإذا انكشف النطاء وضعت في قبرك عابثتها وقد تمت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمسامها ، فترى بينك المقارب والحيات وقد أحدثت بك في قبرك ولما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها ، فإن أردت أن تقتلها وتقرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل ، وإلا فوطن نفسك على لدغها وتهشها لصمم قلبك فضلا عن ظاهرها بشرتك ، والسلام .

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتدكدك من هيبة الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن وراط الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالندى والأصال ، ثم كمل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبادة حتى لاحظ بضياته حضرة الجلال ، فلاح له من الهبة والبهاء والكمال ، ما استصبح دون مبادئ إشرافه كل حسن وجمال ، واستقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستقلال ، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتمتثل ، وانكشف له باطنها عن مجوز شواهد عجت من طينة الخزي وضربت في قالب الكمال ، وهي متلففة جليبا لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبالها في مدارج الرجال ، فهي تقتصمهم بضروب المكر والاعتقال ، ثم لا تجنئ معهم بالخلف في مراعيه الرصال ، بل تقدم مع قطع الرصال بالسلال والأغلال ، وتليهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف المعارف من قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد المبنيض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنههم على حضرة الجلال ، وأقنعوا منها برصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يمتريها فناء ولا زوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

(أما بعد) فإن الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل ، وبسكرها زل من زل ، لحبها رأس الخطايا والسيئات ، وببضها أم الطاعات وأس القربات . وقد استقصينا ما يتعلق بوضعها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربيع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإيه وأس المنجيات ، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبدن منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بازرواتها عن البدن ويسمى ذلك فقرا ، وإما بازوارها البدن عنها ويسمى ذلك زهدا ، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الإغاة على الفوز والنجاة . ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر وشر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه ، ونبدأ بذكر الفقر فنقول :

الشرط الأول من الكتاب في الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر ، وبيان فضيلة الفقر مطلقا ، وبيان خصوص فضيلة الفقراء ، وبيان فضيلة الفقير على الغني ، وبيان أدب الفقير في فقره ، وبيان أدبه في قبوله العطاء ، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة ، وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال ، وبيان أحوال السائلين ، وأهله المرفق بلطفه وكرمه .

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه ، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا ، وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا ، وإذا فهمت هذا لم تفك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثانی الحال ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وجوده ؛ فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغنى المطلق ، ولا يتصور أن يكون مثل هذا الوجود إلا واحدا ، فليس في الوجود إلا غنى واحد ، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه فيمتدوا بوجودهم بالدوام ، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى (والله الغني وأنتم الفقراء) هذا معنى الفقر مطلقا ، ولكننا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال حال الخصوص ، وإلا فقير العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر ، لأن حاجاته لا حصر لها . ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط ، فنقول : كل فائد للمال فإنما نسميه فقيرا بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه في حقه ، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر . ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لتتوصل بالتبديد إلى ذكر أحكامها :

(الحالة الأولى) وهي العليا : أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحتزرا من شره وشغله وهو الزهد ، واسم صاحبه الزاهد .

(الثانية) أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويذهب فيه لو أتاه ، وصاحب هذه الحالة يسمى راحيا .

(الثالثة) أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوا صفوا أخذته وفرح به ، وإن افتقر إلى نسب في طلبه لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة نسميه قالما ، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة .

(الرابعة) أن يكون تركه الطلب لجزءه ، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، وأهو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص .

(الخامسة) أن يكون منافقه من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والمارى الفاقد للثوب ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية ، وقلنا تنفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال : أعلاما الزهد والاضطرار إن انضم إلى الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه ، ووراء هذه الأحوال خمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوى عنده وجود المال وفقده ، فإن وجوده لم يفرح به ولم يتأذى ، وإن فقده فكذا ، بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذ أتاه مائة ألف درهم من البطاء فأخذتها وفزقتها من يومها فقالت خادمها : ما استطعت فيما فزقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم خما نفطر عليه ، فقالت : لو ذكرتيني لفعلت ، فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بخذا فيرها في يده وخزائمه لم تقصره ، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه ، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره ، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى ، لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعا ، وليفهم من هذا الاسم معنى يفرق اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد ، فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده ، وإنما هو غنى عن دخول المال في يده لاعن بقاءه ، فهو إذن فقير من وجه ، وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضا ، فإنه ليس يتأذى به لاحتياج إلى إخراجة ، وليس يفرح به لاحتياج إلى بقاءه . وليس فاقدا له لاحتياج إلى الدخول في يده ، ففناه إلى المومر أميل ، فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب ، وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ، ولكننا لانسمى صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ، ليقى الغنى احما لمن له الغنى المطلق عن كل شيء . وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجردا أو عدما لم يستغن عن أشياء أخر سواء ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه ، فإن القلب المتعبد بسبب المال رقيق والمستغنى عنه حر ، والله تعالى هو الذي أعفته من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق ، والقلب متعبلة بالرق والحزبة في أوقات متقاربة ، لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فذلك لم يكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا الكمال للإجازة .

واعلم أن الزهد درجة هي كال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المؤمنين ، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانا ، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهذا لأن الكاراة للدنيا مشغول بالدنيا ، كما أن الراغب فيها مشغول بها ، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى ، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا ، فإنه أقرب إليك من جبل الوريد ، وليس هو في مكان حتى تكون السباوات والأرض حجابا بينك وبينه ، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغل بغيره ، وشغل بنفسك وشغوانك شغل بغيره ، وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشغوات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه ، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى ، والمشغول بفيض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله ، مثله مثال الرقيب الحاضر في مجلس جميع العاشق والمعشوق ، فإن انتفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بفضه واستغفاله وكرامته حضوره فهو في حال اشتغال قلبه بفيضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ، ولو استغرقه المشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه ، فكأن النظر إلى غير المعشوق لمحبه عند حضور المعشوق شرك في الشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبعثه شرك فيه ونقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر ، بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بفضا وجا ، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان

في حالة واحدة فلا يجتمع أيضاً بغض وحب في حالة واحدة ؛ فالمشغول ينفذ الدنيا غافل عن الله كالشغول بجها ، إلا أن المشغول بجها غافل وهو في غفلة سالك في طريق البعد ، والمشغول بغيرها غافل وهو في غفلة سالك في طريق القرب ، إذ يرجى له أن ينهى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتقبل بالشهود ؛ فالكال له مرتقب لأن بغض الدنيا طيلة توصل إلى الله فالحب والبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الثاقب وعنفها وتسييرها ، ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدير لها فهما ، سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محبوب عن الكعبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدير إذ يرجى له الوصول إليها ، وليس محمودا بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة للملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يقتصر إلى الاشتغال بالعبادة في الوصول إليها ، فلا ينبغي أن نقول أن بغض الدنيا مقصود في عينه ، بل الدنيا عائق عن الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق ، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : من هذى الدنيا واقتصر عليه فقد استجمل الراحة ، بل ينبغي أن يشتغل بالآخره ؛ فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج ، فإذا قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال ، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كال بالإضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص ، وتقضان بالإضافة إلى درجة المستغنى ، بل الكمال في حق المال أن يستوى عندك المال والماء ، وكثرة للماء في جوارك لا تؤذيكَ بأن تكون على شاطئ البحر ، ولا تلهيكَ تؤذيكَ إلا في قدر الضرورة ، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يفيض الماء الكثير ، بل تقول : أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباده بقدر الحاجة ولا تأكل به على أحد ، فهكذا ينبغي أن يكون المال ؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة ، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر ، وإذا عرفت الله تعالى ووقفت بتدبيره الذي دبر به العالم ؛ علمت أن قدر حاجتك من الخبز بآتيك للحاجة مادمت حيا كما بآتيك قدر حاجتك من الماء ، على ماسأى بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى .

قال أحمد بن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان الداراني : قال مالك بن دينار للنفرة : اذهب إلى البيت نخذ الزكوة التي أهديتها لي فإن الصدق يوسوس لي أن ألقى قد أخذها ، قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية : فزاده في الدنيا ما غلبه من أخذها ، فبين أن كراهية كون الزكوة في بيته التفات إليها سيئه الضعف والثقصان .

فلن قلت : لما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل التفار ؟ فأقول : كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ففتروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يدبرونه مع أنفسهم ، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري المحتاجين إليه ، لأهم كانت قلوبهم مشغولة بجبه أو بغضه وقد حملت خزان الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأدخلوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها ^(١) ، إذ كان يستوى لعدم المال والماء والذهب والحجر ، وما نقل عنهم من امتناع فلما أن ينقل عن عاف

(١) حديث : إن خزان الأرض حملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأدخلوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف ، وقد تقدم في آداب الميعة من عند البخاري نقلنا مجزوماً به من حديث أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم عمال من البحرين وكان أكثر مال أبي بكر وعمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء جلس إليه ، فلما كان يرى أحداً لا أعطاه . ورواه عمر بن عبد العزيز في صحيحه من هذا الوجه . وفي الصحيحين من حديث عمرو ابن عوف : قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأصابع يلقونه ... الحديث ، ولها من حديث جابر : لوجاءنا ناله البحرين أعطيتك هكذا فلانا ، فلما قدم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر أبو بكر منادياً فنادى : من كان له من رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة أودين فلاناً ، فقلت : إن النبي صلى الله عليه وسلم وعدني ، فأتى فلاناً .

أن لو أخذه أن يمدده المال ويقيده قلبه فيدعه إلى الثبوت ، وهذا حال الضعفاء ، فلا جرم البغض للمال والحرب منه في حقهم كمال ؛ وهذا حكم جميع الخلق ، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء ، وإما أن ينقل عن قولى بلغ الكمال ولكن أظهر القرار والفتاوى نزولا إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك ؛ إذ لو اقتدوا به لأخذوا لملوكوا ، كما يفتر الرجل المزمع بين بدى أولاده من الحمية لا تضعفه عن أخذها ولكن لعله أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا راوها فهل يكون ، والسهر يسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء ، فقد عرفنا إذن أن للرباب ست وأعلاما رتبة المستفتى ثم الزاهد ثم الراضى ثم الفاتح ثم الحرص . وأما المظطر فيستوفى حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجه تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال ، واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة . أما تسمية المستفتى فقيرا فلا جرم لها هذا المعنى ؛ بل إن سمي فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفى بقاء استغناؤه عن المال خاصة ، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها ؛ فانه أحق باسم العبد من العالين . وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير ، فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين ، وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعزذ بك من الفقر »^(١) ، وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا »^(٢) ، لا ينافى قوله « أحنى مسكينا وأمتى مسكينا »^(٣) ، إذ فقر المظطر هو الذى استأذى منه ، والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكة ، والمادة والافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأله فى دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطنع من أهل الأرض والسماء .

بيان فضيلة الفقر مطلقا

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى ﴿ الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ الفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ﴾ ساق الكلام فى معرض للمح ، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالمهجرة والإحصار ، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر . وأما الأخبار فى مدح الفقر فأكثر من أن تحصي : روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أى الناس خير ؟ » فقالوا : « موسى من المال يعطى حتى الله من نفسه وماله . فقال : نعم الرجل هذا وليس به » قالوا : « فن خير الناس يا رسول الله ؟ » قال « فقير يعطى جهده »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لبلال ألقى الله فقيرا ولا تلقه غنيا »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الفقير المتعفف أبابا العيال »^(٣) وفى الخبر المشهور « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بحسبانة عام »^(٤) ، وفى حديث آخر

- (١) حديث « أموذ بك من الفقير » تقدم فى الأذكار والنعوات .
- (٢) حديث « كاد الفقر أن يسكون كفرا » تقدم فى ذم المسك . (٣) حديث « أحنى مسكينا وأمتى مسكينا » رواه الترمذى من حديث أنس وجسته ، وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد وقد تقدم . (٤) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « أى الناس خير ؟ » فقالوا : « موسى من المال يعطى حتى الله من نفسه وماله . فقال : نعم الرجل هذا وليس به قالوا : فن خير الناس ؟ » قال : « فقير يعطى جهده » أخرجه أبو منصور الفيلس فى مسند القردوس بسند ضعيف مقصرا على المرفوع منه دون سواه لأصحابه وسؤالهم له . (٥) حديث « قال لبلال « ألقى الله فقيرا ولا تلقه غنيا » أخرجه الحاكم فى كتاب علامات أهل التيقن من حديث بلال . ورواه الطبرانى من حديث أبى سعيد بلفظ « مت فقيرا ولا تم غنيا » وكلاما ضعيف .
- (٦) حديث « أن يعجب الفقير المتعفف أبابا العيال » أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين ، وقد تقدم .
- (٧) حديث « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بحسبانة عام » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال : حسن صحيح

وقد تقدم ،

« بأربعين خريفاً »^(١) ، أي أربعين سنة ، فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على التقى الحريص ، والتقدير بمخساسة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على التقى الراغب ، وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتاً بين الفقراء في درجاتهم ، وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد ، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسين ، ولا تظن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافاً وبالاتفاق ، بل لا يستطعن صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »^(٢) ، فإنه تقدير تحقيق لا محالة ، لكن ليس في قوة غيره أن يعرف حلة تلك النسبة إلا بتخمين ، فأما بالتحقيق فلا ، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ، ويفارق به غيره ، وهو يختص بأنواع من الخواص : أحدها أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة ، لا كما يعلمه غيره بل مخالفاً له بكثرة المعلومات وزيادة اليقين والتحقيق والكشف . والثاني : أن له في نفسه صفة بها تتم له الأعمال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المألوفة بإرادتنا واختيارنا وهي القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعاً من فعل الله تعالى . والثالث : أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدكم كما أن البصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات . والرابع أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الشيب إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يتطلع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب ، فهذه كالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام ، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى تحسين وإلى ستين ، ويمكننا أيضاً أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءاً واحداً من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندرى تحقيقاً أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ، وإنما المعلوم بجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها ، وذلك لا يرشدنا إلى معرفة حلة التقدير ، فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق ، فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلاً على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بمخساسة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به ، والفرض التنبيه على مناجى التقدير في أمثال هذه الأمور ، فإن الضميمة الإيمان قد يظن أن ذلك يجرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق ، وسأشأ منصب النبوة عن ذلك وانرجع إلى نقل الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضاً « خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعها تنجيماً في الجنة ضعفائهم »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحسن ومن أبغضهما فقد أبغضني : الفقر والجهاد »^(٤) ، وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : أعجب أن أجمل هذه الجبال ذهاباً^(٥) .

(١) حديث دخولهم أربعين خريفاً : أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو ، إلا أنه قال : فقراء المهاجرين ، والترمذي من حديث جابر وأنس . (٢) حديث « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد ، ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبد الله بن الصامت وأنس بن مالك . (٣) حديث « خير الأمة فقراؤها ، وأسرعها تنجيماً في الجنة ضعفائهم » لم أجده إلا في حديثي .. الحديث « وفيه » الفقر والجهاد . لم أجده إلا أصلاً . (٤) حديث : أن جبريل نزل فقال : إن الله يقرأ عليك السلام ويقول : أعجب أن أجمل هذه الجبال ذهاباً ... الحديث . هذا ملحق من حديثي فروى الترمذي من حديث أبي أمامة ، عرس على ربي لجبل لي بلسانك مكة ذهاباً . قلت : لا يرب ، ولكن أشبه يوماً وأجوع يوماً . الحديث وقال : حسن ولا أحد من حديث عائشة « الدنيا دار من لا دار له ... الحديث » وقد تقدم في ذم الدنيا .

وتكون مملكة أنبا كسث ، فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا جبريل ، إن الدنيا دار من لادار له ومال من لاملأ له ولها مجمع من لا عقل له ، فقال له جبريل : يا محمد تبئك الله بالقول الثابت وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مرفى سياحته برجل نائم ملثف في عبادة ، فأيقظه وقال : يا نائم قم فاذكر الله تعالى ، فقال ما تريد مني ؟ إنى قد تركت الدنيا لأهلها ، فقال له فمى إذن يا حبيبي .
وسمى موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحته رأسه لينة ووجهه ولحيته في التراب وهو متور عبادة ، فقال : يارب عبدك هذا في الدنيا ضائع ، فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى أما علمت أنى إذا نظرت إلى عبد وجهى كله زويت عنه الدنيا كلها .

وعن أبي رافع أنه قال : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال : قل له يقول لك محمد أسلفني أو بنى دقيقا إلى هلال رجب ، قال فأنيته فقال : لا والله إلا برهن ، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : أما والله إنى لأمين في أهل السماء وأمين في أهل الأرض ولو باعنى أو أسلفني لأديت إليه ، اذهب بدرعى هذا إليه فارضه ، فلما خرجت نزلت هذه الآية (ولا تمدن عينيك إلى ما متنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا)^(١) الآية ، وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم : الفقر أزين بالمؤمن من المذار الحسن على خذ القرس^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من أصبح منك مفا في جسمه أمنا في سره عنده قوت يومه ؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها^(٣) . وقال كعب الأبحار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين .

وقال عطاء الخراساني : مررتي من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتانا ، فقال : بسم الله وأنى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ، ثم سر بأخر فقال باسم الشيطان وأنى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك ، فقال الله تعالى للملاك اكشفوا العبدى عن منزلهما ، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذلك من الهوان قال : رضيت يارب .

وقال نينا صلى الله عليه وسلم : اطلمت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلمت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء ، وفي لفظ آخره : فقلت أين الأغنياء ؟ حبسهم الجذ ، وفي حديث آخره : فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت ما شأنهن ؟ فقيل شغلن الأحرار الذهب والوهران^(٤) . وقال صلى الله عليه وسلم : تحفة المؤمن في الدنيا الفقر^(٥) ، وفي الخبر : آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام المكان ملكه وآخر أصحاب دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه^(٦) ، وفي حديث آخره : رأيت به دخل الجنة زحفا^(٧) .

(١) حديث أبي رافع : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر ... الحديث في نزول قوله تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متنا به أزواجا منهم) أخرجه الطبراني بسند ضيف .
(٢) حديث : الفقر أزين بالمؤمن من المذار الحسن على خذ القرس ، رواه الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنس ، رواه ابن عدى في السكاكيل حكذا (٣) حديث : من أصبح منك مفا في جسمه أمنا في سره عنده قوت يومه ؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ... الحديث .
(٤) الحديث أخرجه الترمذى وقد تقدم (٥) حديث : اطلمت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء ... الحديث .
(٦) حديث : تحفة المؤمن في الدنيا الفقر ، رواه محمد بن خفيف الهزارى في تقدم في آداب التسكع مع الزيادة التي في آخره .
(٧) حديث : أكثر الأنبياء دخولا الجنة سليمان ... الحديث ، وهم في الأوسط الطبراني ابن عمر بسند ضيف جدا .
(٨) حديث : رأيت به دخل الجنة زحفا وقد تقدم وهو ضيف .

وقال للمسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل النقي الجنة .
وفى خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال : إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإذا أحب
الحب البالغ اقتناه . قيل : وما اقتناه ؟ قال : لم يترك له أهلا ولا مالا ^(١) .
وفى الخبر : إذا رأيت الفقير مقبلا فقل مرحبا بشمار الصالحين ، وإذا رأيت النقي مقبلا فقل ذنب
عجلت عقوبته ^(٢) .

وقال موسى عليه السلام : يارب من أحبائك من خلقتك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال : كل فقير فقير ، فيمكن
أن يكون الثاني للتوكيد ، ويمكن أن يراد به الشديدي الفقر .

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه : إن لأحب المسكنة وأبغض النماء ، وكان أحب الأسامي إليه
صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين . ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للبي صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا
يوما ولم يوما يمحيتون إليك ولا ينحى ، ونحى إليك ولا يمحيتون ، يمتنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب
وأبي ذر وغياث بن الأوت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء ورضى الله عنهم أجمعين أجابهم
البي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، وذلك لأنهم شكروا إليه التأذى براضتهم وكان لباس القوم الصوف في شدة
الحر ؛ فلذا عرفوا فاحت الزواجر من لباسهم ، فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأفرع بن حابس التميمي وعيينة بن
حصن الغزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم ، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم
مجلس واحد ؛ فنزل عليه قوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد
عيناك عنهم) يعني الفقراء (تريد زينة الحياة الدنيا) يعني الأغنياء (ولا تقطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا)
يعني الأغنياء إلى قوله تعالى (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ^(٣)) الآية .

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فسق ذلك على النبي
صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدرىك له له يركى أو يذكر فتنفعه
الذكرى) يعني ابن مكتوم (أما من استغنى فأنت له تصدى ^(٤)) يعني هذا الشريف .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة فيمتدح الله تعالى إليه كما يمتدح الرجل للرجل
في الدنيا ، فيقول : وعزى وجلال ما زويت الدنيا عليك لموانك على ولكن لما أعددت لك من الكرامة
والفضيلة ، اخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف ، فن أطمعك في أو كسائك في يريد بذلك وجهي بخذ بيده فهو لك ،
والناس يرمضون قد ألجمهم العرق فيختل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة ^(٥) .

- (١) حديث : إذا أحب الله عبدا ابتلاه ... الحديث « أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني .
(٢) حديث : إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشمار الصالحين ، وإذا رأيت النقي مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته « أخرجه
أبو منصور المبرقي في مسند البردوس من رواية مكحول عن أبي البرداء ولم يسم منه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام . يا موسى ... فذكره بزيادة في أوله . ورواه أبو نعيم في الحلية من قول مكحول الأجلبر
غير مرفوع بإسناد ضعيف .
(٣) حديث : قال سادات العرب وأغنياؤهم للبي صلى الله عليه وسلم . اجعل لنا يوما ولم يوما ... الحديث في نزول قوله تعالى
(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ...) الآية ، يهدم من حديث ثناب ، وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف وينفوح ريعهم
لذا عرفوا ، وهذه الزيادة من حديث سلمان . (٤) حديث استأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل
من أشراف قريش وتزول قوله تعالى (عبس وتولى) أخرجه الترمذي من حديث عائشة قال غريب قلت : ورجاله رجال الصبيح
(٥) حديث : يؤتى بالعبد يوم القيامة فيمتدح الله تعالى إليه كما يمتدح الرجل للرجل في الدنيا ، فيقول وعزى وجلال ما زويت

وقال عليه السلام : أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لم دولة ، قالوا : يا رسول الله ، وما دولتهم ؟ قال : إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : دخلت الجنة فسمعت حركة أمي فظننت فإذا بلال ، ونظرت في أعلاها فإذا قراء أمي وأولادهم ، ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل ؛ فقلت يارب ما شأنهم ؟ قال : أما النساء فأضربهن الأحرار الذهب والحرير ، وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب ، وتفقدت أضيائي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ، ثم جاعف بعد ذلك وهو يبكي ، فقلت : ما خلفك عني ؟ قال : يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيخت وظننت أني لا أراك ، فقلت : ولم ؟ قال : كنت أحاسب بمالي ^(٢) ، فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابغة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من الشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة ^(٣) ، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ^(٤) ، ومع هذا فقد استعصر بالفنى إلى هذا الحد .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئا فقال : لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم ^(٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بملك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يزيه له لو أقسم على الله لأبره ^(٦) .

وقال عمران بن حصين : كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء ، فقال : يا عمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها ، فهل لك في عيادة قاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فقام وقت معه حتى وقف بباب قاطمة ، ففرع الباب وقال : السلام عليكم ، أدخل ؟ ، فقالت : أدخل يا رسول الله . قال : أنا ومن معي ؟ ، قالت : ومن معك يا رسول الله ؟ قال : عمران ، فقالت قاطمة : والذي يملكك بالحق نبيا ما على إلا عبادة . قال : أصنعى بها هكذا وهكذا ، وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدي قد واريته فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خبطة فقال : شدي على رأسك ، ثم أذنت له فدخل فقال

... عنك الدنيا لم أر أنك على الحديث أخرجه أبو الشيخ في كتاب التراب من حديث أنس بإسناد ضعيف « يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا مني أحيائي » فتقول الملائكة : ومن أجابوك ؟ فيقول : قراء المسلمين ، فيدون منه فيقول : أما إنني لم أزو الأيمانكم لخوان كان يسكن على ولكن أردت بذلك أن أضيق لكم كرامتي اليوم ، فتدوا على ملائمتكم اليوم ... الحديث دون آخر الحديث ، وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية ، وسأقي في الحديث الذي بعده .

(١) حديث : أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي لم دولة ... الحديث : أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بن سعيد ضعيف « اتخذوا عند الفقراء أيادي ، فإن لم دولة يوم القيامة » فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : سيروا إلى الفقراء ، فيسفر إليهم كما يسفر أحدكم إلى شيء في الدنيا .

(٢) حديث : دخلت الجنة فسمعت حركة أمي ، ونظرت فإذا بلال ، ونظرت إلى أعلاها فإذا قراء أمي وأولادهم ... الحديث : أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بن سهل ضعيف نحوه ، وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر .

(٣) حديث : إن عبد الرحمن بن عوف أحد الصرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد ، قال الترمذي : حسن صحيح . (٤) حديث : إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ، متفق عليه من حديث أبي ذر

في أثناء حديث تقدم . (٥) حديث : دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال : لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم ، لم أبده . (٦) حديث : ألا أخبركم من ملك الجنة ... الحديث : متفق عليه من حديث حذافة بن وهب مختصرا ولم يقل

« ملك » ، ولد تقدم ، ولا ين ماجه بن سعيد من حديث معاذ : ألا أخبركم من ملك الجنة .. الحديث : دون قوله

« أغبر أشعث » .

والسلام عليكم يا ابتناء ، كيف أصبحت ؟ قالت : أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما في أني لست أقدر على طعام آكله فقد أحضرني الجوع ، فبكي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لا تجزعى يا ابتناء فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث ، وإنى لأكرم على الله منك ، ولو سألت ربي لأطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدنيا ، ثم ضرب يده على منكبيه وقال لها : أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة ، قالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ؟ قال : آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنك في بيت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ، ثم قال لها : اقضى بآب عمك فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة (١) .

وروى عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا أبغض الناس فقراهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم وماعى الله بأربع خصال : بالقطط من الزمان ، والجور من السلطان ، والحثاية من ولادة الأحكام ، والشوكة من الأعداء (٢) .

وأما الآثار : فقد قال أبو الفراء رضى الله عنه : ذو الدرهمين أشد حيسا أو قال أشد حيسا من ذى الدرهم . وأرسل عمر رضى الله عنه إلى سعيد بن عاصر بألف دينار ، فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته : أحدث أمر ؟ قال : أشد من ذلك ، ثم قال : أرى دوعك الخلق فشقه وجمعه صررا وفرقه ، ثم قام يصلى ويبكي إلى العداة ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يدخل فقراء أمى الجنة قبل الأغنياء بمسألة عام ، حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج (٣) .

وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بنهر حساب : رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ، ورجل لم ينصب على مستوفه قدورين ، ورجل دعا بشرايه فلا يقال له أيها تريد .

وقيل : جاء فقير إلى مجلس الثورى رحمه الله فقال له : تخط ، لو كنت غنيا لما قربتك ، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء . وقال المؤمل : ما رأيت الغنى أذل منه فى مجلس الثورى ، ولا رأيت الفقير أعز منه فى مجلس الثورى رحمه الله .

وقال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم لو غاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ، ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الثنى لغازبهما جميعا ، ولو غاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسمد فى الباطن جميعا . وقال ابن عباس : ملون من أكرم بالثنى وأمان بالفقر .

وقال يحيى بن معاذ : حيك الفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفراارك من مصيبتهم من علامة المنافقين .

وفى الأخبار عن الكتب السالفة : أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام . احذر أن أمتهك فتسقط

(١) حديث عمران بن حصين . كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء ، فقال « يا عمران ، إن لك عندنا منزلة وجلا ، فهل لك فى عبادة فاطمة ؟ الحديث » بفتح (٢) حديث « إذا أبغض الناس فقراهم وأظهروا عمارة الدنيا .. الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى بإسناد فيه جهالة ، وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عاصر « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمسألة عام .. الحديث » وفى أوله نسخة أن عمر بن الخطاب سأل أبا الفداء عن رجل غنى ، وقد روى أحد فى الزهد النص لا أنه قال « تسجن عاما » وفى إسناده يزيد بن أبي زياد تسكن فيه ، وفى رواية له « بأربعين سنة » وأما دخولهم قبلهم بمسألة عام فهو عند الترمذى من حديث أبي هريرة وصححه ، وقد تقدم .

من عني فأصب الدنيا عليك صبا .

ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تغزق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وإن درعها لم يرقع ، ويقول لها الجارية : لو اشتريت لك بدمر لما تغطين علي ! وكانت صائمة ، فقالت : لو ذكرتني لفعلت ، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن أردت الحق في فليكن بعيش الفقراء ، ولراك وبجاسة الأغنياء ، ولا تنزعى درعك حتى ترقيه ^(١) ،

وجاء رجل إلى إبراهيم بن آدم بعشرة آلاف درهم ، فأبى عليه أن يقبلها ، فألح عليه الرجل ، فقال له إبراهيم : أريد أن أحوي اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لأفعل ذلك أبدا - رضى الله عنه .

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقائمين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كففاً وقنع به ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : يامدشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تطفروا بثواب فقركم ولا غلا ^(٣) ، فالأول القانع وهذا الراضى ، ويكاد يشعر هذا بمفهومه : أن الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العموما الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه ، فلعل المراد بدم الرضا هو الكرامة لفعل الله في حبس الدنيا عنه ، ورب راغب في المال لا يخطر بقله إنكار على الله تعالى ولا كرامة في فعله ، فتلك الكرامة هي التي تحبط ثواب الفقر .

وروى ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم ، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة » ^(٤) .

وروى عن علي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى » ^(٥) . وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل قوت آل محمد كففاً ^(٦) ، وقال : « ما من أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوفى قوتا في الدنيا » ^(٧) ، وأوصى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام : اطلبني عند المنكسرة قلوبهم . قال : ومن هم ؟ قال : الفقراء الصادقون . وقال صلى الله عليه وسلم : لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا ^(٨) . وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى يوم القيامة : أين صفوك من خلقى ؟ فتقول الملائكة : ومن هم ياربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين القانعون بعمطائى الرضاوان بقدرى ،

(١) حديث : قال عائشة : « إن أردت الحق في فليكن بعيش الفقراء » ولراك وبجاسة الأغنياء ... الحديث ، أخرجه الترمذى والحاكم وصححه نحو من حديثها ، وقد تقدم .

(٢) حديث : « طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كففاً وقنع به » رواه مسلم ، وقد تقدم .

(٣) حديث : يامدشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم .. الحديث ، ولما أبو منصور الديلمى في مستند القردوس من حديث أبي هريرة ، وهو ضيف جدا ، فيه أحد بن الحسن بن أبان المصرى منهم بالكذب ووضع الحديث .

(٤) حديث : « إن لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين » .. الحديث ، رواه الدارقطنى في غرائب مالك ، وأبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق ، وابن عدى في السكامل ، وابن حبان في المصنف من حديث ابن عمر .

(٥) حديث : « أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى عن الله » لم أجده بهذا اللفظ ، وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وهو

« إن الله يحب الفقير المتفف » (٦) حديث : « اللهم اجعل رزق آل محمد كففاً » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وهو متفق عليه بلفظ : قوتا ، وقد تقدم (٧) حديث : « ما من أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوفى قوتا في الدنيا » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس ، وقد تقدم (٨) حديث : « لأحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا » لم أجده بهذا اللفظ

أدخلهم الجنة . فدخلوها وبأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون ^(١) ، فهذا في القانع والراضي . وأما الزاهد فسنذكر فضله في السطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى .

وأما الآثار في الرضا والقناعة فكبيرة ، ولا يخفى أنَّ القناعة يضادها الطمع . وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه : إن الطمع فقر والياس غنى ، وإنه من يئس عما في أيدي الناس وقع استغنى عنهم .

وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه : مامن يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش : يا ابن آدم ، قليل يكفيك خير من كثير يعطيك .

وقال أبو الرداء رضي الله تعالى عنه : مامن أحد إلا وفي عقله نقص ، وذلك أنه إذا أته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار حائبان في هدم عمره ثم لا يميزه ذلك ، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص .

وقيل لبعض الحكماء : ما النفي ؟ قال : قلة غنيك ورحاك بما يكفيك .

وقيل : كان إبراهيم بن آدم من أهل التعم بخراسان ؟ فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله ، فلما أكل نام ، فقال لبعض غلمانه : إذا قام جئني به ، فلما قام جاء به إليه ، فقال إبراهيم : أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جالس ؟ قال نعم . قال فشعبت ؟ قال نعم ، قال ثم طعيتا ؟ قال نعم . فقال إبراهيم في نفسه ، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تنقع بهذا القدر .

وسر رجل بامرئ بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا ، فقال له : يا عبدا لله أرضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال : ألا أدلك على من رضى بشر من هذا ؟ قال : بلى . قال من رضى بالدنيا عرضا عن الآخرة .

وكان محمد بن واسع رحمه الله عليه يخرج خبزا يابساً فيه له بالماء ويأكله بالملح ويقول : من رضى من الدنيا بهذا لم يمتنع إلى أحد .

وقال الحسن رحمه الله : لمن الله أقواما أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ، ثم قرأ ﴿ وفي السماء رزقكم وماتوعدون ﴾ ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴿ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾ .

وكان أبو ذر رضي الله عنه يوما جالسا في الناس فأته امرأته فقالت له : اجلس بين هؤلاء ؟ والله ما في البيت هبة ولا سفة ، فقال : يا هذه ، إن بين أيدينا عتبة كثودا لا ينجز منها إلا كل عصف ، فرجعت وهي راضية .

وقال ذو النون رحمه الله : أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له .

وقيل لبعض الحكماء : ما مالك ؟ فقال : التجميل في الظاهر والقصد في الباطن والياس بما في أيدي الناس .

وروي أن الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة : يا ابن آدم ، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجملت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك .

وقد قيل في القناعة :

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس واقنع بياس فإن العز في اليأس

واستغن عن كل ذي قربى وذو رحم إن النني من استغنى عن الناس

(١) حديث « يقول الله يوم القيامة : أين سنون من خاني ؟ فتقول الملائكة : ومن هم ياربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين ... الحديث » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

وقد قيل في هذا المعنى أيضا :

يا جاعاً مانساً والذهر يرمقه مقدراً أي باب منه ينفقه
مفكراً كيف تأليه منيته أغادها أم بها يسرى فتطرقة
جمعت مالا فقل لى هل جمعت له يا جامع المال أيا ما تنزقه
المال عندك مخزون لوارثه ما المال مالك إلا يوم تنفقه
أروقه يبال فقى يقدو على نقمة أن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالمعرض منه مصبون ما يدلسه والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها لم يبق في ظلها م يورقه

بيان فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا ، فذهب الجنيذ والمخوامس والأكثرون إلى تفضيل الفقر وقال ابن عطاء .
الغنى الشاكر القائم بحجته أفضل من الفقير الصابر . وبقال إن الجنيذ دعا على ابن عطاء لخالفته إياه في هذا فأصابته عنة ،
وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيننا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر — ومهدنا سبيل طالب الفضيلة في الأعمال
والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل .

فأما الفقر والغنى إذا أخذنا مطلقاً لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ، ولا بقية من تفضيل
فغنى (أحدهما) فقير صابر ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض
بالإضافة إلى غنى منفق ماله في الخيرات ليس حريصاً على إمساك المال (والثاني) فقير حريص مع غنى حريص ،
إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص 'الممسك' ، وأن الغنى المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير
الحريص ، أما الأول فربما يظن أن الغنى أفضل من الفقير ، لأنهما تساويا في صنف الحرص على المال ، والغنى
متقرب بالصدقات والخيرات والنفير عاجز عنه ، وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه ، فأما الغنى المتمتع بالمال
وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع ، وقد يشهد له ما روى في الخبر : أن الفقراء شكوا إلى
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد ، فسلهم كلمات في التسليح ،
وذكر لهم أنهم يتألمون بها فوق أماله الأغنياء ، فتعلم الأغنياء ذلك فكأنوا يقولونه ، فعاد الفقراء إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال عليه السلام : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (١) .

وقد استشهد ابن عطاء أيضاً لما سئل عن ذلك فقال : الغنى أفضل لأنه وصف الحق ، أما دليله الأول ففيه
لفظ : لأن الخبر قد ورد مفصلاً تفضيلاً يدل على خلاف ذلك : وهو أن ثواب الفقير في التسليح يزيد على ثواب
الغنى ، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه
قال : بعث الفقراء رسولاً إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني رسول الفقراء إليك ، فقال : مرحباً بك
وإن جئت من عندهم قوم أجهم ، قال : قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يصحون ولا تقدر عليه ،
ويستمررون ولا تقدر عليه ، وإذا مرضوا بمثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بلغ عنى

(١) حديث . شكى الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات . . الحديث ، وفي آخر :
فقال : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه .

الفقراء أن لن صبر واحتساب منك ثلاث خصال ليست للأغنياء : أما خصلة واحدة : فإن في الجنة غرضا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء ، لا يدخلها إلا نبي فقير ، أو شريد فقير ، أو مؤمن فقير ، والثانية : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة : إذا قال الغني : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني بالفقير ولو أنه في عشرة آلاف درهم ، وكذلك أعمال البر كلها ، فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : رضينا ورضينا^(١) فهذا يدل على أن قوله : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم . وأما قوله : إن الغني وصف الحق ، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال : أرى أن الله تعالى غني بالأسباب والأعراض ، فائق قطع ولم ينطق ، وأجاب آخرون فقالوا : إن التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع ، ثم قالوا : بل هذا يدل على أن الفقراء أفضل لأن صفات النبوة فضل للبعد كالخوف والرجاء ، وصفات الربوبية لا ينبغي أن يتنازع فيها ، ولذلك قال تعالى فيها روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم : الكبرياء وداني والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحد منهما قصمته^(٢) . وقال سهل : حب المر والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى ؛ فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغني والفقير ، وحاصل ذلك تعلق بمهمات تعجز التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد منافقتها ، إذ كما يناقض قول من فضل الغني بأنه صفة الحق بالتكبر ، فكذلك يناقض قول من ذم الغني لأنه لا وصف للبعد بالمعروف والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى ، والجهل والقفلة وصف العبد ، وليس لأحد أن يفضل القفلة على العلم ، فكشف النطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر : وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاهى إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله ، والدنيا ليست بحذرة لعينها ولكن لدكونها عاقبة عن الوصول إلى الله تعالى ، ولا الفقر مطلوب بالعينه لكن لأن فيه فقد العائني عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه ، وكمن غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهم ، وكمن فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد ، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والانس به ، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته ، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن ، والفقير قد يكون من الشواغل كما الغني قد يكون من الشواغل ، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب ، والمحجب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله ، وربما يكون شغله في الفراق أكثر ، وربما يكون شغله في الرضا أكثر ، والدنيا معشوقة للنافلين ، المحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها ؛ فإذا إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفائد والواجد ، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده ، إذ الجامع يسلك سبيل المرت لاسبيل المعرفة . وإن أخذت الأسر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد ؛ إذ فتنة السراء أشد من فتنة الغراء ، ومن العصمة أن لا يقدر ، ولذلك قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم : بلينا بفتنة الضراء فصبونا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الصادق الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا .

(١) حديث زيد بن أسلم عن أنس : بعث الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولوا : أن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا يقدر عليه ... الحديث ، وفيه : بلغ عن الفقراء أن لن صبر واحتساب منك ثلاث خصال ليست للأغنياء ... الحديث . لم أجدهم هكذا بهذا السياق ، والمعروف في هذا المعنى : رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر : اشتكى قراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله به عليهم أغنياءهم ، فقال : يا ميسر الفقراء ألا أخبركم أن قراء المؤمنين يمشون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام . ولستاده ضيف . (٢) حديث : قال الله تعالى : الكبرياء وداني والعظمة إزاري ، تهدم في العلم وغيره .

ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر - والضرء أصح للكل دون ذلك النادر - زجر الشرع عن الثنى وذمه ، وفضل الفقر ومدحه ، حتى قال المسح عليه السلام : لا تطروا إلى أموال أهل الدنيا فإن يريق أموالهم يذهب بؤر إيمانكم .

وقال بعض العلماء : تحليب الأموال بمحض حلاوة الإيمان .

وفي الخبر « إن لكل أمة مجلا ومجلا هذه الأمة الدينار والدرهم »^(١) ، وكان أهل مجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا ، واستواء المال والماء ، والذهب والحجر إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء ، ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة ، إن كان الثنى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول للدنيا « إليك عني »^(٢) ، إذ كانت تمثل له بريقتها . وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء غري غري ، ويا بيضاء غري غري ، وذلك لاستنساخه في نفسه ظهور مبادئ الاعتزاز بهالولا أن رأى برهان ربه ، وذلك هو الثنى المطلق ، إذ قال عليه الصلاة والسلام « ليس الثنى عن كثرة العرض إنما الثنى غنى النفس »^(٣) ، وإذا كان ذلك بعيدا فلذلك الأصح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات ، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحته بذلها ، وكل ذلك يورث الأنا هذا العالم ، ويقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ؟ ويقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ، ومهما انقطعت أسباب الأنا بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها ، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله الصرف لاجالة إلى الله ، إذ لا يتصور قلب فارغ ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره ، فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر ، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنيهما جهتان ، فالتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر ، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر ، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى ، فينبغي أن يكون « طمع نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنه بها ، فلذلك فضل الفقير والثنى بحسب تعلق قلبهما بالمال فقط ، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما ، إلا أن هذا منزلة قدم وموضع غرور ، فإن الثنى ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ، ويكون حبه دفينا في باطنه وهو لا يشعر به ، وإنما يشعر به إذا فقد ، فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه ، فإن وجد قلبه إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا ، فكمن رجل باع سرية لظله أنه منقطع القلب عنها فيبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كت مستكه فيه ، فتحقق إذن أنه كان مغرورا ، وأن العشق كان مستكنا في القواد استكنا النار تحت الرماد ، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء ، وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطق القول بأن الفقر أصح لكافة الخلق وأفضل ، لأن علاقة الفقير وأنه بالدنيا أضعف ويقدر ضيف علاقته بتضايف ثواب تسبيحاته وعباداته ، فإن حركات السان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنا بالذكور ، ولا يكون تأنيها في إثارة الأنا في قلب فارغ من غير المذكور كتنهيرا في قلب مشغول ، ولذلك قال بعض السلف : مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفى النار بالحطب ومثل من يغسل يده من الغمر بالسملك .

(١) حديث « لكل أمة مجل ، ومجل هذه الأمة الدينار والدرهم » رواه أبو منصور البجلي عن طريق أبي عبد الرحمن السلمي عن حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة . (٢) حديث : كان يقول الدنيا « إليك عني .. الحديث » رواه الحاكم مع اختلاف . (٣) حديث « ليس الذي من كثرة العرض .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة « والله أعلم » .

وقال أبو سليمان الناباذي رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها : أفضل من عبادة غنى أنعام .

وعن الضمك قال : من دخل السوق فرأى شيئاً يشتهيهِ فصبر واحتسب ، كان خيراً له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى .

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله : ادع الله لي فقد أضربني العيال فقال : إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فأدع الله لي في ذلك الوقت ، فإن دعائك أفضل من دعائي . وكان يقول : مثل الثنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ، ومثل الفقير المتعبد مثل صفد الجوهري في جيد الحسنة . وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الذل عند النصف من نفسي ، والرهة فيما جاوز الكفاف . وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كاله يجذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن فقد المال أصلح من وجوده هذا ، مع أن أحسن أحوال الثنى أن يأخذ حلالاً وينفق طيباً ، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ، ومن توفش الحساب فقد عذب ، ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن اللجنة إذا كان مشغولاً بالحساب كما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ما أحب أن لي حاوراً على باب المسجد ولا تخططي فيه صلاة وذكر وأريح كل يوم خمسين ديناراً وأصدق بها في سبيل الله تعالى : قيل : وما تكره ؟ قال : سوء الحساب ، ولذلك قال سفيان رحمه الله : اختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء : اختار الفقراء الراحة النفس و فراغ القلب وخفة الحساب ، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب ، وما ذكره ابن عطاء من أن الثنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ، ولكن إذا كان العبد غنياً عن وجود المال وعدمه جميعاً بأن يستوى عنده كلامهما ، فأما إذا كان غنياً بوجوده ومفقراً إلى بقائه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى ، لأن الله تعالى غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق ، وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنياً بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غنى يريد بقاء المال ، وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح ، بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد ، بل منتهى العبد أن يتغنى بأخلاق الله تعالى ، وقد سمعت بعض المشايخ يقول : إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له : أي يكون له من كل واحد نصيب ، وأما التكبر فلا يليق بالعبد ، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى ، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والطبيب على العاصي فيليق به نعم قدره بالتكبر الزهو والصف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى ، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك ، والعبد ما أموره بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس ، فلي العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر ، والطبيب أكبر من العاصي ، والعالم أكبر من الجاهل ، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات ، وأقرب إلى الله تعالى منها فلما رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محقة لا شك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائمة به وفضيلة في حقه ، إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فإن ذلك موقف على الخاتمة ، وليس يدرى الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق؟ فلجعله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر ، إذ ربما يختم للكافر بالإيمان ، وقد يختم له بالكفر ، فلم يكن ذلك لائمة به لتقصيره عن معرفة العاقبة . ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كالا في حقه لأنه

في صفات الله تعالى ، ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تفرضه صار ذلك العلم قصصانا في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره ، فعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في البعد من صفات الله تعالى ، فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء ، فإذا لو استوى عنده وجود المال وعنده فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة ، أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا ، فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .

المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص

ونفرض هذا في شخص واحد هو طالب اللبالب وساع فيه وقافد له ثم وجده ، فله حالة الفقر وحالة الوجود ، فأى حالتيه أفضل ؟ فنقول : نذكر فإن كان مطلوبه ما لا بد منه في المديشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه لحال الوجود أفضل ، لأن الفقر يشغله بالطلب ، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والدكر إلا قدرته مدخولة يشغل ، والمكثي هو القادر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل قوت آل عمد كقوتنا ، وقال : كاد الفقر أن يكون كفرا ، أى الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه ، وإن كان المطلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين ؛ لحالة الفقر أفضل وأصلح ، لأنها استويا في الحرص وحب المال ، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين ، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعضية بسبب الفقر والغنى ؛ ولكن افرقا في أن الواحد يأمن بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا ، والنافذ المضطر يتجأ في قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يبغى الخلاص منه ، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا وجلان أحدهما أشد وكوتا إلى الدنيا ؛ لحالة أشد لعلالة ؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنه بالدنيا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : إن روح القدس نفث في روعي : أجب من أحببت فإنك مفارقة ^(١) ، وهذا تنبيه على أن فرقا محجوب شديد ، فينبغي أن تحب من لا يفارقه وهو الله تعالى ، ولا تحب ما يفارقه وهو الدنيا ، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقائها تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه ؛ وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه من فراقه بقدر حبه وقدر أنه وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس النافذ لها وإن كان حريصا عليها ، فإذا قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين : أحدهما غنى مثل غنى مالفرضي الله عنها يستوى عنده الوجود والعدم ، فيكون الوجود مزيدا له ؛ إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع مهم ؛ والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا ، ولا خير فيه يرجع منه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقى حياته ثم يستعين بقوة حياته على الكفر والمعاصي ؛ ولو مات جوعا كانت معاصيه أقل ، فأصلح له أن يموت جوعا ولا يجد ما يضطر إليه أيضا ؛ فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر . ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه ، وفي غنى دونه من الحرص على حفظ المال ، ولم يكن نفعه بفقد المال لو فقدته كتنفيع الفقير بفقره ، فهذا في محل النظر ، والأظهر أن بدما عن الله تعالى بقدر قوة تفهمها لفقد المال وقرعها بقدر ضعف تفهمها بفقدته ؛ والعالم عند الله تعالى فيه .

(١) حديث « لن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنك مفارقة » تقدم .

بيان آداب الفقير في فقره

اعلم أن الفقير إذا با في باطنه وظاهره ومخاطبه وأصله ينبغي أن يراعيها .

فأما أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر ، أعني أنه لا يكون كارهاً فعل تعالى من حيث إنه فعله . وإن كان كارهاً للفقر - كالحجوج يكون كارهاً للحجامة لئلا بها ولا يكون كارهاً فعل الحجامة ولا كارهاً للحجامة ، بل ربما يتقصد منه منه ، فهذا أقل درجاته وهو واجب ، وتقيضه حرام ومحيط ثواب الفقر ، وهو معنى قوله عليه السلام « يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا ثواب فقركم وإلا فلا » وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر بل يكون راضياً به ، وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعل به بفوائده النقي ، ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى واتقاه في قدر ضرورته أنه إن لم يكن لا محالة ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف . وقد قال على كرم الله وجهه : إن الله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر ؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علاماته - إذا كان مخوبة - أن يسوء عليه خلقه ويمسح به بترك طاعته ويكثر الشكوى ويستخط القضاء ، وهذا يدل أن كل فقير فليس محمود ، بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعل به بشمرته ، إذ قيل : ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له : خذ من ثلثة أمثلاث : شغل وهم وطول حساب .

وأما أدب ظاهره : فأن يظهر التمعف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ويستر أنه يستره في الحديث « إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أباً العيال » وقال تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ وقال سفيان : أفضل الأعمال التجمل عند المحنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كوز البر .

وأما في الأعمال فأدبه : أن لا يتواضع لئلا لأجل غناه ، بل يتكبر عليه . قال على كرم الله وجهه : ما أحسن تواضع النقي للفقير رغبة في ثواب الله تعالى ، وأحسن منه فيه الفقير على النقي ثقة بالله عز وجل ، فهذه رتبة ، وأقل منها أن لا يخاطب الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله : إذا خاطب الفقير الأغنياء فاعلم أنه مرء ، وإذا خاطب السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض المارفين : إذا خاطب الفقير الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل . وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مدانة للأغنياء وطعماً في البطاء .

وأما أدبه في أفعاله : فأن لا يفتخر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بذلك قليل ما يفضل عنه ، فإن ذلك جهل المثل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى : روى زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم » قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال « أخرجه رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها ، وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه ، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف »^١ ، وينبغي أن لا يتخبر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات (إحداها) أن لا يتخبر إلا ليومه وليته وهي درجة الصديقين (والثانية) أن يتخبر لأربعين يوماً فإن مازاد عليه داخل في طول الأمل ، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام

(١) حديث زيد بن أسلم « درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف » قيل : وكيف يا رسول الله ؟ قال « أخرجه رجل من عرض ماله مائة ألف ... الحديث » أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة متصلاً ، وقد تقدم في الزكاة ، ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مهبطاً .

فهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوما . وهذه درجة المتقين (والثالثة) أن يتخير لستهوى أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين ، ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية ، ففنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سته ، وغنى الخصوص في أربعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة . وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم لساءه على مثل هذه الأقسام ، فبعضهم كان يعطيهما ثورت سنة عند حصول ما يحصل ، وبعضهم قوت أربعين يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

يلبني أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال . وغرض المعطى ، وغرضه في الأخذ . أما نفس المال فيلبي أن يكون حلالا غالبا عن الشبهات كلها ، فإن كان فيه شبهة فيحترز من أخذه ، وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب .

وأما غرض المعطى فلا يتلو : إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية ، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة ، والذكر والرباء والسمة إما على التجرد وإما بمزوجا ببقية الأغراض .

أما الأول - وهو الهدية - فلا بأس بقبولها فإن قبلها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ، ولكن يلبني أن لا يكون فيها منة . فإن كان فيها منة فالأولى تركها ، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض : فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش ، فقبل السمن والأقط ورد الكبش ^(٢) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقتل من بعض الناس ويرد على بعض ^(٣) . وقال : لقد هممت أن لأتلب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي ^(٤) . وفعل هذا جماعة من التابعين . وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خسين درهما فقال : حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أتاه رزق من غير مسألة فرده فأما يرد على الله ^(٥) » ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرهما . وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضا ولكن حل إليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان ، فرد ذلك وقال : من جلس مجلسي هذا وقيل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق . وهذا يدل على أن أسر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء . وقد كان الحسن يقبل من أصحابه . وكان إبراهيم التيمي يدأل من أصحابه الدوهم والدمهين ونحوه ويعرض عليه غيرهم الكمين فلا يأخذها . وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول . اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل من قبل القبول فأعبرني

- (١) حديث أن يقول الهدية سنة : تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية .
- (٢) حديث : أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش . أخرجه أحمد في أثناء حديث لبيط بن مرة : وأهدت إليه كديين وشيتا من سمن وأقط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر » وليستأذ جيد . وقال وكيع : صرة عن يمين مرة عن أبيه .
- (٣) حديث : كان يقبل من بسن الناس ويرد على بسن رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة . وإما الله لأبيل بعد يوي هذا من أحد هدية إلا أن لا يكون مهاجرا ... الحديث « فيه عمد في لاسق ورواه بالسننة .
- (٤) حديث : لقد هممت أن لأتلب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي . أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال : روى من غير وجه عن أبي هريرة ، قلت : ورواه قتات . (هـ) حديث عطاء مرسلا « من أتاه رزق من غير وسيلة فرده فأما يرد على الله عز وجل » لم أجده مرسلا هكذا . ولأحد وأبي يهل والطبراني بإسناد جيد من حديث عطاء بن عدى الجهمي « من أتاه معروف من أخيه من غير مسألة ولا لشراف نفس فليقبل ولا يرد فإني ما هو رزق ساءه الله عز وجل إليه » ولأحد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة « من أتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله » وفي الصحيحين من حديث عمر « ما أتاك من هذا المال وأنت غير مصرف ولا سائل فخذ . الحديث » .

حتى يأخذه وإلا فلا، وأما رد هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنفعة على نفسه في قبول صدقته هديته، فإن علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقهاء الصديقين. وقال بشر: ما سألت أحدا قط شيئا إلا سرى السقطى لأنه قد صح عندي زعمه في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عرضا له على ما يجب. وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بقال وسأله أن يأكله فقال: أتفرقه على الفقراء، فقال: ما أريد هذا. قال ومتى أعيش حتى أكل هذا؟ قال: ما أريد أن تنفقه في الخيل والبقول بل في الخلاوات والطليات، فقبل ذلك منه، فقال الخراساني: ما أجد في بئداد أمن على منك، فقال الجنيد: ولا يفتني أن يقبل إلا من مثلك.

الثاني: أن يكون الثواب الجزد وذلك صدقة أو زكاة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة. وإن كانت صدقة وكان يعطيه لأبيه فليُنظر إلى باطنه، فإن كان مقارفا لمعصية في السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه، فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لغلته أنه عالم أو علوى ولم يكن، فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه.

الثالث: أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة، فيفتني أن رد عليه فصدقه الفاسد ولا يقبله، إذ يكون مميّنا له على غرضه الفاسد. وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول: لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لأخذت وعوبت بعضهم في رد ما كان بأيديهم من صلة فقال: إنما أرد صلتهم لإشفاقا عليهم ونصحا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويعيون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم.

وأما غرضه في الأخذ فيفتني أن ينظر: أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مستغن عنه، فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطى فالأفضل له الأخذ، قال النبي صلى الله عليه وسلم «ما للمعطى من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا»^(١)، وقال صلى الله عليه وسلم «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو رزق ساقه الله إليه»^(٢)، وفي لفظ آخر «فليرده». وقال بعض العلماء: من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط. وقد كان سرى السقطى يرسل إلى أحد بن حنبل رحمه الله عليه شيئا فردّه مرة، فقال له السري: يا أحد، احذر آفة الرد فلها أشد من آفة الأخذ، فقال له أحد: أعد على ما قلت فأعاده، فقال أحد: ما رددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر، فأحبسه لي عندك، فلذا كان بعد شهر فأنفذه إلى، وقد قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره؛ فأما إذا كان ما أتاه زائدا على حاجته فلا يخلو؛ إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والاتفاق عليهم لمسا في طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا لطريق الآخرة، فإن ذلك محض اتباع الهوى، وكل عمل ليس لله فهو سبيل الشيطان أو داع إليه، ومن ساء حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ثم له مقامان (أحدهما) أن يأخذ في العلائية ويرد في السر، أو يأخذ في العلائية ويفترق في السر، وهذا مقام الصديقين؛ وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمانت نفسه بالرياسة (والثاني) أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه. أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه، فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلائية؛ وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار

(١) حديث «ما للمعطى من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا» رواه الطبراني من حديث ابن عمر. وقد تقدم في الزكاة. (٢) حديث «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو رزق ساقه الله إليه» وفي لفظ آخر «فلا يرده» فقد قبل هذا الحديث.

الاخذ أو إخفاؤه ؟ في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فيطلب من موضعه . وأما امتناع أحد بن حنبل
عز قبول عطاء سرى السقطي ورحمهما الله ، فإنهما كانا لاستغنائهما عنه ، إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن
يشغل بأخذه وصرفه إلى غيره ؛ فإن في ذلك آفات وأخطار ، والورع يكون حذراً من مظان الآفات إذ لم يأمن
مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجازين بمكة . كانت عندي دراهم أعدتها للإنفاق في سبيل الله ، فسمعت
فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي : أنا جائع كما ترى عريان كما ترى ، فما ترى يا فتى يا من يرى
ولا يرى ، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تراه ، فقلت في نفسي : لا أجد لدرامي موصفاً أحسن من هذا ؛
فحملتها إليه ، فنظر إليهم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مؤثرين ، ودرهم أنفقه ثلاثة فلا حاجة لي إلى الباقي
فرده . قال : فرأيت البلية الثانية وعليه مئزران جديان ، فهجس في نفسي منه شيء ، فالتفت إلى فأخذ بيدي ، فأطافني
معه أسبوعاً كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخسش تحت أقدامنا إلى الكعبيين : منها ذهب وفضة
وباقوت ولؤلؤ وجوهر ، ولم يظهر ذلك للناس ، فقال . هذا كله قد أعطانيه فهدت فيه وأخذ من أيدي الخلق لأن
هذه أفعال وفتنة ، وذلك للمباد فيه رحمة ولعنة ، والمقصود من هذا : أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء
وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه ، وقد ر الحاجة يأتيك رفقاً بك ، فلا تفعل عن الفرق بين الفرق والابتلاء .
قال الله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لبأولم نأمرهم أحسن عملاً ﴾ وقد قال صلى الله عليه وسلم : لاحق
لأبن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكثر ، فما زاد فهو حساب ^(١) ، فإذا
أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب ، وفيما زاد عليه إن لم تقص الله متمرض للحساب ، وإن عصيت الله
فأنت متمرض للعقاب . ومن الاختيار أيضاً : أن تزم على ترك لذة من اللذات تنزهاً إلى الله تعالى وكسراً لصفة
النفس فتأتيك عفراً صفواً فتتمتع بها قوة عقلك ، فالأولى لا تمتنع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألغت
نقض العهد وعادت لمعادتها ولا يمكن قهرها ، فزد ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذه وصرفته إلى محتاج فهو غاية
الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون : وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحق الفقراء وتهدد جماعة
من الصالحين غلظ مازاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، ويأدرى إلى الصرف إليهم ولا تدخره ، فإن
إمساكك ولو لبلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربما يحلو في قلبك فتسكك فيكون فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة
الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في الطعام والمشرب وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه
الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الثمن بالله لا على اعتد السلاطين الظلة ، فإن رزقه الله من
حلال قضاء ، وإن مات قبل القضاء قضاء الله تعالى عنه وأرضى غرامه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال
عند من يقرضه فلا ينز للمقرض ولا يندعه بالمرأى بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقرضه على بصيرة . ودين
مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة ، وقد قال تعالى ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق
بما آتاه الله ﴾ قيل معناه : لبيع أحد ثوبيه . وقيل معناه : فليستقرض بجماعه ، فذلك بما آتاه الله . وقال بعضهم :
إن لله تعالى عباداً يتفقون على قدر بضائعهم ، وقه عباد يتفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم
فأوصى بماله ثلاث طوائف : الأقوياء ، والأسيخاء ، والأغنياء ، فقيل : من هؤلاء ؟ فقال : أما الأقوياء فهم أهل

(١) حديث : لاحق لأبن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكثر . وما زاد فهو حساب .
أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال : وجب الجز والماء ، بدل قوله : طعام يقيم صلبه ، وقال صحيح .
(٢٧ - إحياء علوم الدين - ٤)

التوكل على الله تعالى ، وأما الاستيلاء فهم أهل حسن الفناء بالله تعالى ، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى ، فإذن هما وجدت هذه الشروط فيه وفي المالوف للمطلى فليأخذ ، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المطلى ؛ لأن المطلى واسطة قد سخر للطعام ، وهو مضطر إليه بما سطر عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقاً في خمسين من أصحابه ، فوضع الرجل مائدة حسنة ، فلما قد قال لأصحابه : إن هذا الرجل يقول : من لم يرن صنع هذا الطعام وقدمته فطعماى عليه حرام ، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شاباً منهم كان دونهم في الدرجة ، فقال صاحب المنزل لشقيق : ما قصدت بهذا ؟ قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم . وقال موسى عليه السلام : يارب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يتعبدني هذا يوما ويعشيني هذا ليلة وأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي ، أجرى أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم ، فلا ينبغي أن يرى المطلى إلا من حيث إنه مسخر ماجور من الله تعالى ، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه .

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة ؛ وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت منه كثيرة في السؤال وتشديدات ، وورد فيه أيضاً ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم : للسائل حق ولو جاء على فرس ^(١) ، وفي الحديث : ردوا السائل ولو بظلف عمق ^(٢) ، ولو كان السؤال حراماً مطلقاً لما جاز إعانة المتدنى على عدوانه والإعطاء إعانة ، فالكاشف للنظام فيه أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة ، فإن كان عنها بد فهو حرام ، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا يفتك من ثلاثة أمور محرمة .

(الأول) إظهار الشكوى من الله تعالى ، إذ السؤال إظهار للعقر وذكر لقصور لعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى ، وكان أبو العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشليماً على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى ، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحمل الميتة .

(الثاني) أن فيه إذلال السائل نفسه لنير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لنير الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه ، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة ، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المستول .

(الثالث) أنه لا يفتك من إيذاء المستول غالباً ؛ لأنه ربما لا تسمح نفسه بالذل عن طيب قلب منه ، فإن يذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استحياء وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء ، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة ، ومهما فهمت هذه المخذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم : مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها ^(٣) ، فانظر كيف سبها فاحشة ، ولا ينبغي أن الفاحشة إنما تباح

(١) حديث : للسائل حق ولو جاء على فرس . رواه أبو داود من حديث الحسين بن علي ، ومن حديث علي ، وفي الأول يدل بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ورواه ابن حبان ، وفي الثاني شيخ لم يسم ، وسكت عليهما أبو داود ، وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه يذنه من أحمد بن حنبل قال : أرمه أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها . السائل حق .. الحديث . فإنه لا يصح عن أحمد ، فقد أخرجه حديث الحسين بن علي في مسنده . (٢) حديث : ردوا السائل ولو بظلف عمق . رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، والثالثي والناظر له من حديث أم مجيد . وقال ابن عبد البر . حديث مضطرب . (٣) حديث : مسألة الناس من الفواحش . وما أحل الله من الفواحش غيرها . لم أجد له أصلاً .

لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره . وقال صلى الله عليه وسلم « من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جر جهنم »^(١) ، « من سأل وله ما ينفيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقفع وليس عليه لحم ، وفي لفظ آخر ، وكانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه »^(٢) ، وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية « ولا تسألوا الناس شيئاً »^(٣) ، وكان صلى الله عليه وسلم بأمر كثير بالتعفف عن السؤال ويقول « من سألنا أعطينا » ومن استغنى أغناه الله ، « ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير » قالوا : ومنك يا رسول الله ؟ قال « ومنى »^(٥) ، وسمع عمر رضى الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب فقال لو احد من قومه : عش الرجل ، فمشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال : قد عشيت ، فظفر عمر فإذا تحت يده غلام مملوء خبزاً فقال : لست سائلاً ولكنك تاجر ، ثم أخذ الخلة وشراها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالذرة وقال : لا تمد . ولولا أن سؤاله كان حراماً لما ضربه ، ولا أخذ غلاته ، ولعل التقية الضعيف المنة الشقيق الحوصلة يستبد هذا من فعل عمر ويقول : أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتزوير ، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالمعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه ؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه ، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده ؟ أتقرى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضباً في معصية الله وشأه ، أو أراد الجرح بالمصلحة بنزير طريق شرعها بنى الله ، وهبات وإن ذلك أيضاً معصية ، بل الفقه الذى لاح له فيه أنه رأى مستتباً عن السؤال ، وعلم أن من أعطاه شيئاً فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج ، وقد كان كاذباً فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التليس وحصر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه ، إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم ، فبقى كاذباً لا مالاً له ، فوجب صرفه إلى المصالح ، وإلail الصدقة وعلقها من المصالح ، ويتولى أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذباً كاذباً لئلا يقول بقوله إلى علوى وهو كاذب . فإنه لا يملك ما يأخذه ، كأخذ الصوفى الصالح الذى يعطى لصلاحه وهو فى الباطن مقارن لمعصية لو عرفها للمضى لما أعطاه — وقد ذكرنا فى مواضع أن ما أخذه على هذا الوجه لا يملكه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه .. فاستدل بفعل عمر رضى الله عنه على صحة هذا المعنى الذى ينقل عنه كثير من الفقهاء ، وقد قرأناه فى مواضع ، ولا تستدل بفعلك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر .

فلذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فأعلم أن الشيء . إما أن يكون معطراً إليه ، أو محتاجاً إليه حاجة

- (١) حديث « من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جر جهنم ... الحديث » رواه أبو داود وابن جابر من حديث سهل ابن الحنفية مقتصر على ما ذكرته وتقدم فى الزكاة ، ولسلم من حديث أبي هريرة « من يسأل الناس أموالهم تكثراً لا يجأل إلا بما يسأل جراً ... الحديث » ، وقيل بالبدلين ، وقيل بالبدلين من حديث مسعود بن عمر « ولا يزال اليد يسأل وهو غنى حتى يهلك وجهه » ، وفى إسناده ابن ولقيشيين من حديث ابن عمر « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس له وجه سريه لحم » ، وإسناده جيد .
- (٢) حديث « من سأل وله ما ينفيه كانت مسئلة خدوشاً وكدوحاً في وجهه » رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود ، وتقدم فى الزكاة .
- (٣) حديث : « ابتاع قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفية « ولا تسألوا الناس شيئاً » أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي .
- (٤) حديث « من سألنا أعطينا » ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا » أخرجه ابن أبي الدنيا فى الفتناء ، والمحلى بن أبي أسامة فى مسنده من حديث أبي سعيد الخدري ، وفى مسنده من حديث ابن عمر « لا تسألوا الناس شيئاً » .
- (٥) حديث « استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير ... الحديث » أخرجه الترمذى والبيهقى من حديث ابن عباس . استغنوا عن الناس ولو بغوس الدوا ، وإسناده صحيح ، وله فى حديث « تتفقدوا ولو لمعزم الحطب » وفيه من لم يسم ، وليس فيه : وما قل من السؤال ... الخ .

مهمة أو حاجة خفيفة . أو مستثنى عنه ؛ فهذه أربعة أحوال .

أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه مونا أو مرضا وسؤال العاوى وبذنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المستول بكونه مباحا ، والمستول منه بكونه راضيا في الباطن ، وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب ، فإن القادر على الكسب وهو بطلال له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته ، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالورقة .

وأما للمستثنى فهو الذى يطلب شيئا عنده مثله وأمثاله ، فسؤاله حرام قطعا ، وهذا طرفان واختمان .

وأما المحتاج حاجة مهمة فكلريض الذى يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه ولم يستعمله ولكن لا يخلو من خوف ، وكن له جبة لا قبض تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهى إلى حد الضرورة ، وكذلك من يسأل لأجل الكراه وهو قادر على المشى بمشقة ، فهذا أيضا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضا حاجة حقيقة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جيتى قبض والبرد يؤذنى أذى أطيلة ولكن يشق على ، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى .

وأما الحاجة الخفيفة فثل سؤال قبضا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستريح الحروق من ثيابه عن أعين الناس ، وكن يسأل لأجل الأدم وهو واجد الخبز ، وكن يسأل الكراه لغرس في الطريق وهو واجد كراه الحمار ، أو يسأل كراه الحمل وهو قادر على الراحة ، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبس حال يظاها حاجة غير هذه فهو حرام ، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المستول فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لاتصلح لأن تباح بها هذه المحذورات ، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة .

• فإن قلت : فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟ فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ، ولكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ولكن تقابلنى رعونة النفس بثوب فوق ثيابى وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس ، فيخرج به عن حد الشكوى ، وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذى يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله ، أو الرجل السخى الذى قد أعد ماله لمثل هذه المكارم فيخرج وجود مثله ويتقلد منه منه بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك ، فإن الذل لازم للنة لا محالة . وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يمين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرعا بصدق الرغبة ، وإن كان في القوم شخص مرموق لولم يبذل لكان يلام ، فهذا إيذاء ، فله ربما يبذل كرها خوفا من اللامة ، ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى أن لا يصرح بل يمرض قريضا يبق له سبيلا إلى التنازل إن أراد ، فإذا لم يتنازل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذ به ، وينبغي أن يسأل من لا يستحي منه لو رده أو تناقل عنه ، فإن الحياء من السائل يؤذى كما أن الرياء مع غير السائل يؤذى .

• فإن قلت : فإذا أخذ مع العلم بأن باعث للمعطى هو الحياء منه أو من المحاضرين ولولاه لما ابتدأ به فهل هو حلال أو شبهة ؟ فأقول : ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة ، وحكمة حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلدك بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبك بسوط الحياء وخوف الملام ، وضرب الباطن أشد نكاية في قلوب العقلاء ، ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضى به وقد قال صلى الله

عليه وسلم « إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ^(١) »، فإن هذه ضرورة القضاء في فصل الخصومات، إذ لا يمكن رددهم إلى البواطن وقرائن الأحوال، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول بالسان مع أنه ترجمان كثير الكذب، ولكن الضرورة دعت إليه، وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى، والحاكم فيه أحكم الحاكمين، والقلب عند كالآلة عند سائر الحكماء فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أقنوك وأفنوك، فإن الملقى مع التقاضى والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة، ومفتى القلوب هم علماء الآخرة، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة، كما أن مفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا، فإذا ما أخذه مع الكرامة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه، فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوى قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتفحص عن عهده، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورنه، فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى.

• فإن قلت: فهذا أمر باطن يمسر الاطلاع عليه، فكيف السبيل إلى الخلاص منها فرما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضاً؟ فأقول: لهذا ترك المفتون السؤال رأساً فكانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال: لأنى علمت أنه يفرح بمزج المال من يده فأنا أعينه على ما يجب، وإنما عظم التكبر في السؤال وتأكيد الأمر بالتعفف لهذا، لأن الأذى إنما يصل بضرورة: وهو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يطعمه من غير كرامة وأذى، فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة، فكان الامتناع طريق الوريين، ومن أرباب القلوب من كان وانما بصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه، ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضاً ويرد بعضاً، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكبش والسمن والأقط، وكان هذا بأثمهم من غير سؤال، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة، ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه أو طلباً للرياء والسمعة فكانوا يمتنزون من ذلك، فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأساً إلا في موضعين: أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة: سليمان، وموسى، والحضر عليهم السلام. ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم. والثاني: السؤال من الأصدقاء والإخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بنير سؤال واستئذان، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان، وقد كانوا وهموا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمبايعةهم، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستفتون عن السؤال، وحذراً لراحة السؤال أن تعلم أن المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لا بد لك دون السؤال، فلا يكون لسؤالك تأخير إلا بتعريف حاجتك، فأما في تحريك الحياء وإثارة داعيته بالجلل فلا، ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن، وحالة لا يشك في الكرامة، ويعلم ذلك بقرينة الأحوال، فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق، وفي الثانية محتم، ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الإجماع، وليسعد ما يريه إلى ما لا يريه، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته، فإن قوى الحرس وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكرامة، وهذه الدقائق يطالع على سر قوله

(١) حديث « إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » لم أجده أصلاً، وكذا قال المزي لما سئل عنه.

صلى الله عليه وسلم ، إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ^(١) ، وقد أوتى جوامع الكلم ، لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فليأكل من أبدى الناس ، وإن أعطى بغير سؤال فإنما يعطى يديه ، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى يديه فيكون ما يأخذه حراما ؛ وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالطعام إذا سئل ؟ وأين من يقتصر في السؤال على حدة الضرورة ، فإذا قشقت أحوال من يأكل من أبدى الناس علت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبه بجلا كسبك أو موزكك ، فإذا نبت أن يجتمع الورع مع الأكل من أبدى الناس ، فمسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره ، وأن يثبتنا بجلا له عن حرامه ، وبفضله عن سواه ؛ إنه وسعة جوده ، فإنه على ما يشاء قدير .

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم من سأل عن ظهر غنى فإنما يسأل جمرا فليستقل منه أو ليستكثر ، صريح في التحريم ، ولكن حدة الغنى مشكل وتقديره عسير ، وليس الينا موضع المقادير ، بل يستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد في الحديث : استغنوا بغير الله تعالى عن غيره . قالوا : وما هو قال : غداه يوم وعشاء ليلة ^(٢) ، وفي حديث آخر : من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل الخما ^(٣) ، وورد في لفظ آخر : أربعون درهما ، ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة ، فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير متمتع ، وغاية الممكن فيه تقريب ، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى به عورته ، ويكت يكتنه فما زاد فهو حساب ، فلتجمل هذه الثلاث أصلا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات ، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي وكذلك ما يجرى به من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفاله كالنساء أيضا . وأما المقادير فالثوب راعي فيه ما يليق ببدن الدين وهو ثوب واحد وقيص ومتنديل وسراويل ومداس وأما الثاني من كل مجلس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعا ، ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والفضة فيها يكفي فيه الحذف ، فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أحسن أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقد رده في اليوم مدهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير . والأدم على الدوام فضلة ، وقطعة بالكلية إضرار ، ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة . وأما للسكن فأقله ما يجرى من حيث المقدار وذلك من غير زينة ، فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى ، وأما بالإضافة إلى الأوقات فاحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يليه وماوى يكتنه فلا شك فيه فأما سؤاله للتسبيل فهذا له ثلاث درجات (أحدها) ما يحتاج إليه في غد (والثانية) ما يحتاج إليه في أربعين يوما أو خمسين يوما . (والثالثة) ما يحتاج إليه في السنة ، ولتقطع بأن من معه ما يكفي له ولعاليه إن كان له عيال

(١) حديث « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه » تقدم .

(٢) حديث « استغنوا بغير الله » قالوا : وما هو ؟ قال : غداه يوم وعشاء ليلة . تقدم في الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا ما بينته ؟ قال : ما يديه أو بغيره . ولأحد من حديث علي بن زياد حسن : قالوا وما ظهر غنى ؟ قال : عشاء ليلته . وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب التردوس من حديث أبي هريرة (٣) حديث « من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل الخما » وفي لفظ آخر « أربعون درهما » تقدم في الزكاة .

لسته فسؤاله حرام ، فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما في الحديث ، فإن خمسة دنائير تكفي المنفرد في السنة إذا اقتصد ، أما الملعل فرجما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة ، فإن كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل مالا يحتاج فيكفيه غداه يوم وعشاء ليلة ، وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا التقدير . وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيسأل له السؤال ، لأن أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال عاقب أن يبقى مضطرا عاجزا عما يعنيه ، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفا وكان مالا لجهله السؤال عار جاعا عن الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف الفوت وتراخي المدة التي فيها يحتاج إلى السؤال ، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتاد العبد وظهره لنفسه بينه وبين الله تعالى ، فيستغنى فيه قلبه ويعمل به إن سالكا طريق الآخرة ، وكل من كان يقينه أقوى وقمته بجبهه الرزق في المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى ، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ووليكائك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان ، وقد قال تعالى ﴿ فلا تخافوهم وخالفون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ الشيطان يبدكم الفقر وأمركم بالفحشاء ، والله يبدكم مغفرة منه وفضلا ﴾ والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة ، وحال من يسأل حاجة مترائية عن يومه وإن كان ما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة ، وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطرائق الأمل وعدم الثقة بفضل الله ، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلفظه وكرمه

بيان أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ ، فهذا مع الروحانيين في عليين . وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ ، فهذا مع المميزين في جنات الفردوس . وفقير يسأل عند الحاجة ، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليقين .

فلنذكر قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة .

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان : كيف تركت الفقراء من أصحابك ؟ قال : تركتهم إن أعطوا شكروا ، وإن منعوا صبروا - وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أتى عليهم غاية التناء ، فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا ، فقال له إبراهيم : فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق ؟ فقال : الفقراء عندنا إن منعوا شكروا ، وإن أعطوا آثروا . فقبل رأسه وقال : صدقت بأستاذ .

فلنذكر درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة ، فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها ، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرق من حضيضها إلى قلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى أعليين ، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رد إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عاليا ، ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرق قطعا ، وإنما الشك فيمن عرف ذلك ، فإنه ربما لا يقدر عليه ، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال من بدا لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى سالمهم فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا إسحاق النوري رحمه الله يتدبده ويسأل الناس في بعض المواضع ، قال : فاستعظمت ذلك واستجبته له ، فأنيبت الجنيده رحمه الله فأخبرته بذلك فقال : لا يعظم هذا

عليك ، فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يشعرون . وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم : يد المعطى هي العليا ^(١) ، فقال بعضهم : يد المعطى هي يد الآخذ للبال لأنه يعطى الثواب والقدر له لا لما يأخذه ، ثم قال الجنيد : هات الميزان ، فوزن ما درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائدة ثم قال : أحملها إليه ، فقلت في نفسي : إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره ، فكيف خلط به بمجولا وهو رجل حكيم ؟ واستحييت أن أسأله ، فذهبت بالصرة إلى النورى فقال : هات الميزان ، فوزن ما درهم وقال : ردّها عليه وقل له : أنا لا أقبل منك أنت شيئا وأخذ ما زاد على المائدة قال : فرددتى إلى الجنيد فيكى ، فسألت فقال : الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه : وزن المائدة لنفسه طلبا لثواب الآخرة ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل ، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه . قال : فرددتها إلى الجنيد فيكى وقال : أخذناه وردمنا الله المستعان ، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير منطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتتأجج الأسرار ، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة ، فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل ، كن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه . ومن أنكره بعد أن طال اجتجاده حتى بذل كنهه بمجوده ولم يصل فأنكر ذلك لغیره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه عاصمة لمة في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا ، وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس عاليا عن حظ واف من الجهل ، بل البصير أحدرجلين : إما رجل سالك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الدق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين ، وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصلى به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين . ولعلم اليقين أيضا رتبة وإن كان دون عين اليقين ، ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتل القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراغبين في العلم القائلين ﴿ آتينا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الآلآب ﴾ .

الشرط الثاني من الكتاب في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد ، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه ، وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والسكن والآثاث وضروب المعيشة ، وبيان علامة الزهد .

بيان حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، ويتنظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات ، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل ، وكان القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مرادا لعينه ، وإن لم يكن صادرا عن حال سمى إسلاما ولم يسمى إيمانا والعلم هو السبب في حال يجرى مجرى المشر ، والعمل يجرى من الحال مجرى الثرة ، فلذلك الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل : أما الحال فتعني بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبسبب غيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه ، وإنما عدل إلى غيره لرغبته

(١) حديث : يد المعطى هي العليا ، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

في غيره ؛ فالحال بالإضافة إلى المدلول عنه يسمى زهدا ، وبالإضافة إلى المدلول إليه يسمى رغبة وحبا ، فإذا استدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه ، فمن رغب عما ليس مطلوبا في نفسه لا يسمى زاهدا ، إذ تارك الحجر والقراب وما أشبهه لا يسمى زاهدا ، وإنما يسمى زاهدا من ترك الدرهم والدنانير لأن القراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة ، وشرط للمرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة ، فالبائع لا يقدم على البيع إلا للضرورة عنده خير من المبيع ، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدا فيه ، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحبا ، ولذلك قال الله تعالى (وشره بئس دواء ممدودة وكانوا فيه من الزاهدين) مناه باعوه ، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه ، إذ طمعوا أن يظنوا لهم وجه أبيهم ؛ وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض ، فإذا كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن في الآخرة ، ولكن المادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا ، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للبيل في وضع المسائل . ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالمدلول إلى شيء هو أحب منه ، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال ، والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الترابيس ولا يجب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك المحظوظ في الآخرة بل طمع في المحور والتصور والأنهار والقواكة فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول ، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ، ودرجته في الزهد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين ، وهو زهد صحيح ، كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة ، فلان التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كالذي لا يبعد ذلك في المحظورات ، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ، ولكن المادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات ، فإذا الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا ، وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه ، فإن ترك ما لا يقدر عليه محال ، وباترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك : يا زاهد ، فقال : الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغبة فتركها ، وأما أنا فبقاذا زهدت ؟ . وأما العلم الذي هو مشر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالإضافة إلى المأخوذ كعلم الساجر بأن العوض خيرا من المبيع فيرغب فيه ، وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع ، فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى ، أي لاناتها خير في أنفسها وأبقى ، كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من التلج مثلا . ولا يسر على مالك التلج يبعه بالجواهر والثلج ، فهكذا مثال الدنيا والآخرة ، فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الدوبان إلى الاقراض ، والآخرة كالجواهر التي لا تاف له ، فيقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة فتوى الرغبة في البيع والمعاملة ، حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ثم بين أن صفاتهم واجبة فقال تعالى (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هنا القدر : وهو أن الآخرة

خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يتدبر على ترك الدنيا ، إما لضعف علمه وبقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً بعد يوم إلى أن ينتقطعه الموت ولا يبق معه إلا المحسرة بعد الفوت : وإلى تعريف خسارة الدنيا بالإشارة بقوله تعالى ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ وإلى تعريف نفاسة الآخرة بالإشارة بقوله عن وجل ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير ﴾ فبه على أن العلم بنفاسة الجواهر هو الرغب عن عوذه ، ولم يتصور الزهد إلا بمعاضدة ورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه : اللهم أرني الدنيا كما تراها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « لا تقل هكذا ، ولكن قل : أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك ^(١) » وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي ، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والمبد يراها حقيرة في نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له ، ولا يتصور أن يرى بالتم القوس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً ، لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن القوس ، والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه ، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ، ويراه متفادياً بالإضافة إلى غيره ، والزاهد هو الذي يرى تفاديه بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره . وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه يبيع ومعاملة واستبدال الذي هو خير بالذي هو أدنى ، فكأن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض ، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكيفية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقتضاها وعلاقتها ، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين والد ما أخرجه من القلب ويرطف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات ، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن ، فإذا وفي بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليست بشر بيمينه الذي يبيع به ؛ فإذن الذي يباعه بهذا البيع وفي بالهدم ، فمن سلم حاضراً في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسمى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان النافذ عن يوق بصدقه وقدرته ووفائه بالهدم ، وما دام ممسكاً للدنيا لا يصبح زهده أصلاً ، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ وعزموا على إبعاده كآدموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك ، ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند المزم على إخراجه ، بل عند التسليم والبيع ، فعلامة الرغبة الإسك ، وعلامة الزهد الإخراج : فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيها أخرجت فقط ولست زاهداً مطلقاً ، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد ، لأن ما لا يتدبر عليه لا يقوى على تركه ، وربما يستهويك الشيطان بفروره ويحيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتلك فأنت زاهد فيها ، فلا ينبغي أن تدل بجمل غروره دون أن تستوق وتستهو بمرق غليظ من الله ، فإليك إذا لم تجزب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها ، فكأن من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تقدرها ، فلما تبسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها ، وإذا كان هذا غرور النفس في المخاطرات ، فإياك أن تثق بوعدها في اللباحات ، والموتق التليظ الذي تأخذه عليها ، أن تجزبها مرة بعد مرة في حال القدرة ، فإذا وفيت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعداء ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ، ولكن تكون من تعيرها أيضاً على حذر ، فإنها سريعة النقض للهدم ، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة . قال ابن أبي ليلى لابن شبة : ألا ترى إلى ابن الحناتك هذا

(١) حديث : قال رجل : اللهم أرني الدنيا كما تراها ، فقال له « لا تقل هكذا ، ولكن قل : أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك » ذكره صاحب القدر دوس مختصراً . اللهم أرني الدنيا كما تريها صلح عبادك . من حديث أبي القيسر ولم يخرجوه وفاء

لا تفتى في مسألة إلا رد علينا — يعني أبا حنيفة ، فقال ابن شبرمة : لا أخرى أحو ابن الحائك أمهاو ؟ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها ، وهرب منا فطلبناها ، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء يحبه لقمناه حتى نزل قوله تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ^(١)) . قال ابن مسعود رحمه الله : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت منهم — يعني من القليل . قال : وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ^(٢)) . وأعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات ؛ وإنما الزهد أن تترك الدنيا للملك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة ؛ فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور من لا يؤمن بالآخرة ؛ فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ، ولكن لا يكون زهدا ؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ المعالجة وهي ألد وأهنا من المال ، وكذا أن ترك المال على سبيل السلم طعاما في العوض ليس من الزهد ، فكذلك تركه طعاما في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستقلاله لما في حفظ المال من المشقة والعناء . والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا ، بل هو استئصال آخر للنفس ؛ بل الزاهد من آتته الدنيا راغبة صفوا عفوا وهو قادر على التتم بها من غير نقصان جاء وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس ، فتركها خوفا من أن يأنس بها ، فيكون أنسا بغير الله وجبا لما سوى الله ، ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره . أو تركها طعاما في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طعاما في أشربة الجنة ، وترك التمتع بالسراري والنسرات طعاما في الحور العين ، وترك التزوج في البساتين طعاما في بساتين الجنة وأجهارها ، وترك التزين والتجميل بزينة الدنيا طعاما في زينة الجنة ، وترك المطاعم الفريدة طعاما في فواكه الجنة وخوفنا من أن يقال له (أذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا) فأترفي بجميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعله بأن ماني الآخرة خير وأبقى ، وأن ماسوى هذا لعمالات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلا .

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى (نخرج على قومك في زينته ... إلى قوله تعالى ... وقال الذين أوتوا العلم وبلكم ثواب الله خير لمن آمن) ففسبب الزهد إلى العباد ووصف أهله بالمعلم وهو غاية الثناء ، وقال تعالى (أولئك يؤتوا أجرهم مرتين بما صبروا) وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا . وقال عز وجل (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لما نلبوهم أبهم أحسن عملا) قيل : معناه أبهم أزهدها فيها ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال . وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة زد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) وقال تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه وذرزركم ذلك خيرا وأبقى) وقال تعالى (الذين يستحيون الحياة الدنيا على الآخرة) فوصف الكفار بذلك ، ففهموه أن المؤمن هو الذي يتصف بتقيته وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا .

(١) حديث قال المسلمون . إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء يحبه لقمناه ، حتى نزل قوله تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية : لم أنف له على أصل . (٢) حديث ابن مسعود . ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) الآية أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن .

وأما الأخبار : فما ورد منها في ذم الدنيا كثير ، وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا مع ربيع المهلكات ، إذ حُب الدنيا من المهلكات ونحن الآن تقتصر على فضيلة بنض الدنيا فإنه من التجليات ، وهو المنى بالزهد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره وفترق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الله إلا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتاً وزهداً في الدنيا فاقربوا منه فإنه يأتي بالحكمة ^(٢) ، وقال تعالى (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) ولذلك قيل من زهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله بتأيسر الحكمة في قلبه وأطلق بها لسانه . وعن بعض الصحابة أنه قال قلنا يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال كل مؤمن محرم القلب صدوق اللسان ، قلنا يا رسول الله وما محرم القلب ؟ قال : الذي اتقى الذي لا غش فيه ولا غش ولا بنى ولا حسد ، قلنا : يا رسول الله ، فمن على أمره ؟ قال : الذي يشأ الدنيا ويحب الآخرة ^(٣) ، ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم : إن أردت أن يحبك الله فأزهد في الدنيا ^(٤) ، لجمال الزهد سبباً للعبه ، فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات ، فيبتنى أي يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ، ومفهومه أيضاً أن من حب الدنيا متمترس لبض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت « الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة ، فإن صادقا قلباً فيه الإيمان والحياء أهما فيه وإلا ارتحلا ^(٥) » ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا مؤمن حقاً قال : وما حقيقة إيمانك ؟ قال : عرفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وزهرها ، وكأني بالجنة والنار ، وكأني بعرش ربي بارزاً ، فقال صلى الله عليه وسلم « عرفت فالزم عبد تورا قلبه بالإيمان ^(٦) » فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بهزوى النفس عن الدنيا وفرقه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : عبد تورا قلبه بالإيمان . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) ، وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قال : إن التور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح ، قيل يا رسول الله ، وهل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، التجاني عن دار الفروع ؛ والإجابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للوئ قبل نزوله ^(٧) ، فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام وهو التجاني عن دار الفروع ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « استحيوا من الله حق الحياء . قالوا : إنا لنستحي منه تعالى ، فقال : ليس كذلك تهنون مالا تسكنون ، وتجمعون مالا تأكلون ^(٨) » ، فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا : إنا مؤمنون ، قال : وما علامة إيمانكم ؟ فذكروا

(١) حديث « من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه .

(٢) حديث « إذا رأيتم العبد قد أوتي صمتاً وزهداً في الدنيا فاقربوا منه فإنه يأتي بالحكمة » رواه ابن ماجه من حديث أبي خلد بسند فيه ضعف . (٣) حديث : قلنا يا رسول الله وما محرم القلب ؟ قال « التي اتقى ... الحديث » رواه ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله : يا رسول الله فمن على أمره ، وقد تقدم ، ورواه بهذه الزيادة بإسناد المدكور الحرطلي في مكارم الأخلاق (٤) حديث « لن أردت أن يحبك الله فأزهد في الدنيا » رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه ، وقد تقدم . (٥) حديث « الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة ، فإن صادقا قلباً فيه الإيمان والحياء أهما فيه وإلا ارتحلا ، لم أجده أصلاً . (٦) حديث : لما قاله حارثة : أنا مؤمن حقاً ، فقال : وما حقيقة إيمانك ... الحديث » أخرجه البزار من حديث أنس ، والطبراني من حديث الحارث بن مالك ، وكلا الحديثين ضعيف .

(٧) حديث : سئل عن قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) ... الحديث . أخرجه الحاكم ، وقد تقدم .

(٨) حديث « استحيوا من الله حق الحياء ... الحديث » رواه الطبراني من حديث أبي الوليد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف

الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشهادة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبثوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون ^(١) » . فجعل الزهد تكملة لإيمانهم . وقال جابر رضي الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « من جاء بلا إلا الله لا يخطئ بها غيرها ، وجبت له الجنة » ، فقام إليه على كثر ما وجهه . فقال : « باني أنت وأبي يا رسول الله مالا يخطئ بها غيرها ؟ صفه لنا فسرنا لنا » ، فقال : « حب الدنيا طلبا لها وإتباعا لها » ، وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون عمل الجبابرة ، فمن جاء بلا إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة ^(٢) . وفي الخبر : السخام من اليقين ولا يدخل النار موقن ، والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك ^(٣) . وقال أيضاً : « السخي قريب من الله ، والبخل قريب من الناس » ، والبخل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار ^(٤) ، والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا ، والسخاء ثمرة الزهد . والثاء على الثمرة ثناء على المثلر لاجالة . وروى عن ابن المسيب من أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأفطن بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجها منها سالماً إلى دار السلام ^(٥) » ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه بعشار من الترق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ، وأعظمها في قلوبهم قال الله تعالى (وإذا المشار عطلت) قال : فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره ، فقيل له : يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا نتنظر إليها ؟ فقال : « قد ناهى الله عن ذلك » ، ثم تلا قوله تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به) الآية ^(٦) ، وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : ألا نستطيع الله فيطعمك ؟ قالت : ويكيت لما رأيت به من الجوع ؛ فقال يا عائشة ؛ والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجرى معي جبال الدنيا ذهباً لأجرها ما حيث شئت من الأرض ؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها وقرع الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ؛ يا عائشة إن الدنيا لا تنفي محمد ولا آل محمد ؛ يا عائشة إن الله لم يرض لأول الزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض إلا أن يكفني ما كنهم ؛ فقال (فاصبر كما صبر أولو الزم من الرسل) والله مالي يد من طاعته وإنى والله لأصبرن كما صبروا بهمدي ولا قوة إلا بالله ^(٧) . وروى عن عمر رضي الله عنه : أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها .

- (١) حديث : لما قدم عليه بشر الفوائد قالوا : لئامؤنن . قال : « وعلمة إيمانكم . الحديث . رواه الخطيب وابن عساکر في تاريخها بإسناد ضيف من حديث جابر . (٢) حديث جابر : « من جاء بلا إلا الله لا يخطئ بها شيئاً وجبت له الجنة » لم أره من حديث جابر ، وقد رواه الترمذي المحكم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضيف . (٣) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن ... الحديث . ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرجوه فيه في مسنده .
- (٤) حديث « السخي قريب من الله ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة . وقد تقدم .
- (٥) حديث أبي ذر « من زهد الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه ... الحديث » لم أره من حديث أبي ذر ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتابه ذم الدنيا من حديث صفوان بن سلم مرسل ، ولا بن عدي في السكاكيل من حديث أبي موسى الأشعري « من زهد في الدنيا أربين يوماً وأخلص فيها العبادة أجرى الله بتأبيح الحكمة من قلبه على لسانه » وقال حديث منكسر . وقال الله في بطل : ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصراً من حديث أبي أيوب « من أخشى الله » وكتابه ضيفة .
- (٦) حديث مر في أصحابه بعشار من الترق حفل .. الحديث . وفيه : « ثم تلا قوله تعالى (ولا تمدن عينيك) الآية : لم أجده إلا في الحديث . وفيه « يا عائشة ، إن الله لم يرض لأول الزم من الرسل إلا الصبر ... الحديث » أخرجه أبو منصور البجلي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد بن محاذ عن الهيثم عن مسروق مختصراً « يا عائشة إن الله لم يرض من أولي الزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض إلا أن يكفني ما كنهم » ، فقال تعالى (فاصبر كما صبر أولو الزم من الرسل) ومجاهد يختلف في الاحتياج به .

البس أين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر : يا حفصة ، أنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ فقالت : بلى . قال : ناشدك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ، وناشدك الله ، هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من القروهم وأهله حتى فتح الله عليه خيبر ؟ وناشدك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قزيم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض ؟ وناشدك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يناسم على عبادة مثلية فثبنت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال : منتموني قيام الليلة بهذه العبادة اثنوها بانتمين كما كنتم تنتمونها ، وناشدك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتسفل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة لما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ؟ وناشدك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كسامين لإزارا ووداء وبشت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقد عقد طرفه إلى عنقه فضلى كذلك ؟ فما زال يقول حتى أبكاه وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج ^(١) . وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال : كان لي صاحبان سلكا طريقا ، فإن سلكت غير طريقهما سلك في طريق غير طريقتهما ، وإن رواه صاحب هرمل عيشهما الشديد لعلى أدرك منهما عيشهما الرغيد .

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لقد كان الأنبياء قبل يبثلى أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العبادة ، وإن كان أحمدهم ليبثلى بالقميل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من المعاء إليكم ^(٢) .

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الحوال ، فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة .

وفي حديث عمر رضى الله عنه أنه قال : لما نزل قوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

(١) حديث : أن عمر لما قصت عليه الفتوحات قالت له حفصة : البس أين الثياب إذا قدمت عليك الوفود ... الحديث بطوله ، وفيه : ناشدك الله هل تعلمين كذا : يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاه وبكى ... الخ . لم أجده هكذا مجرما في حديث ، وهو طريق في عدة أحاديث ؟ فروى الزبارة من حديث عمران بن حصين قال : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله طعاما وعشاء من خبز شحير حتى أتى ربه ، وفيه عمرو بن عبد الله القدري مرقوم الحديث ، والترمذي من حديث طاعة قالت : ما شبع من طعام فأشأه أن أبكي إلا بكيت ، قلت : لم ؟ قالت : أذكر المال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها ، والله ما شبع من خبز ولم يهز في يوم . وقال حديث حسن ، والشيخين من حديثها : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال ياما حتى لبس . والبخاري من حديث أنس : كان لا يأكل على خوان ... الحديث ، ويقدم في آداب الأكل ، والترمذي في المعامل من حديث حفصة أنها لما سالت : ما كان فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ؟ مسح ثيابه ننتين فنام عليه .. الحديث . ولأن سعد بن الطلائع من حديث عائشة : أنها كانت تهرش ثيابي من صلاة عليه وسلم عبادة بانتمين ... الحديث ، وهما في آداب المبيتة . ولزبارة من حديث أبي المرداء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخلل له الحقيق ولم يسكن له إلا قيس واحد . وقال : لا لم يروى بهذا القفل إلا بهذا الإسناد . قال يونس بن بكير : قد حثت عن سيد بن ميسرة البكرى بأحاديث لم يتابع عليها واحتلت على ما فيها . قلت : فيه سيوف ميسرة فقد كذب يحيى المعافان وحسن البخاري وابن حبان وابن عدى وغيرهم . ولأن ما جمن حديث عبادة بن الصامت من أن شقة قد عقد عليها زاد النضر بن قزيم المجهور : فمضعا في عنقه ما عليه غيرها وأسناده ضيف ، ويقدم في آداب المبيتة . (٢) حديث أبي سعيد الخدري : كان الأنبياء بين أحمدهم ليبثلى بالقميل ولا يلبس إلا العبادة ... الإسناد صحيح في آتائه حديث أوله : دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يرك دون قوله : وإن كان أحمدهم ليبثلى بالقميل

في سبيل الله) قال صلى الله عليه وسلم : تبأ الدنيا تبأ الدينار والدرهم . قلنا : يا رسول الله تبأنا الله عن كثر الذهب والفضة ، فأى شيء نُدخر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لئيتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا ووجهة سالحة تعينه على أسر آخرته ^(١) .

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث : هما لا يفارق قلبه أبدا وفقر لا يستغنى أبدا وحرص لا يشبع أبدا ^(٢) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ؛ وحتى يكون قلقله شيء أحب إليه من كثره ^(٣) .

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم الدنيا قطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل له : يا نبي الله لو أمرت أن نبني بيتا نمد الله فيه ؟ قال : اذهبوا فابنوا بيتا على الماء ، فقالوا : كيف يستقيم بنينا على الماء ؟ قال : وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ؟

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : إن ربى عز وجل عرض على أن يجعل لى بطعام مكة ذمها ، فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأفزع إليك وأدعرك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بمشى وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل ، والذي بعثك الحق ما أسمى لآل محمد كفى سوقى ولا سفة دقيق ، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفطمته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما الله القيامة أن تقرم ؟ قال : لا ، ولكن هذا إسماعيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك ، فأنا إسماعيل فقال : إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وباقوتا وذهبا وفضة ففعلت ، وإن شئت نبييا ملكا ، وإن شئت نبييا عبدا . فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال : نبييا عبدا ، فلما ^(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه ^(٥) .

(١) حديث عمر : لما نزل قوله تعالى (والذين يكتفون الذهب والفضة) الآية : قال : يا نبي الله تبأنا الله عن كثر الذهب وفيه : فأى شيء ، نُدخر ؟ أخرجه الترمذى وابن ماجه ويحتمد في التلخيص دون قوله : تبأ الدينار والدرهم . والإضافة رواتها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان ، وأما حال المصنف لانه حديث عمر لأمر عمر هو الذى سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أى المال يتخذ ؟ كما في رواية ابن ماجه ، وكما رواه الأزار من حديث ابن عباس ،

(٢) حديث حذيفة : من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث . الحديث : لم أجده من حديث حذيفة ، أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن : من أشرف في قلبه حب الدنيا انقطع منها ثلاث : شقاء لا ينفذ عنه ، وحرص لا يبلغ غناه ، وأل لا يبلغ منتهاه ، وقآخر زياده . (٣) حديث : لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ، وحتى يكون قلته أحب إليه من كثره ، لم أجده لساندا ، وذكره صاحب الفردوس من رواية عن ابن طلحة مرسلا ، لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون لله الشيء أحب إليه من كثره ، وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله ، ولم يجزئه وله في مسند الفردوس ، وعلى بن أبي طلحة أخرجه مسلم . وروى عن ابن عباس ، ولكن روايته عنه مسجلة ، والحديث إذن مشغل . (٤) حديث ابن عباس : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا ... الحديث في نزول إسماعيل . وقوله : لن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وباقوتا وذهبا وفيه ... الحديث تقدم مختصرا . (٥) حديث : إذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه . رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله : ورغبه في الآخرة ، وزاد : فقهه في الدين ، ولسانده ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم لرجل : ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد في أيدى الناس يحبك الناس ^(١) .
وقال صلوات الله عليه ، من أراد أن يؤتبه الله علما بنير تعلم وهدى ينير هداية فلينزه في الدنيا ^(٢) ، وقال
صلى الله عليه وسلم : من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن خاف من النار لها عن الشهوات ، ومن ترقب
لموت ترك اللذات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه مصيبتا ^(٣) .

ويروي عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام : أربع لا يدركن إلا بتب : الصمت وهو أول العبادة ،
والتواضع ، وكثرة الذكر ، وقلة الشيء ^(٤) ، وليراد جميع الأخبار الواردة في مدح نبض الدنيا وذم حبا
لا يمكن ، فإن الأنبياء ما يمشوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيها
أوردناه كفاية والله المستعان .

وأما الآثار : فقد جاء في الآثار : لا تزال لاله إلا الله تدفع عن العباد خطئ الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص
من دينهم . وفي لفظ آخر : ما يؤثروا صفقة دينهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى :
كذبتم ، لستم بها صادقين .

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال : تابنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبغى من زهد في الدنيا .
وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وكانوا خيرا منكم . قيل : ولم ذلك ؟ قال : كانوا أزهد في الدنيا منكم
وقال عمر رضي الله عنه : الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد .

وقال بلال بن سعد : كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها .
وقال رجل لسفيان : أشقنى أن أرى عالما زاهدا ، فقال : ويحك : تلك ضالة لا توجد .
وقال وهب بن منبه : إن الجنة ثمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون : وعرة ربنا
لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا الماشقين للجنة .

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله : إنى لأشقى من الله ثلاث خصال : أن أموت حين أموت وليس في ملكي
دوم ، ولا يكون على دين ولا على عظمى لحم فأعطى ذلك كله .

ويروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بمجرؤ فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فقال له
بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فسبك الفضيل وقال : أتبدرون ما مثل ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت
لهم بقرة يمحرون عليها ، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن يلتفتوا بمجدها ، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبريتي ، موتوا
يا أهل جحوا خير لكم من أن تدبحوا فضيلا .

وقال عبيد بن عمير كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل كل الشجر ، وليس له وليد يموت ولا يبيت
يترب ولا يضر لئله ، أينما أدركه المساء نام ،

وقالت امرأة أبي حازم لابي حازم . هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب ا

(١) حديث «ازهد في الدنيا يحبك الله... الحديث» تقدم . (٢) حديث «من أراد أن يؤتبه الله علما بنير تعلم وهدى ينير هداية فلينزه في الدنيا... الحديث» لم أجده أصلا . (٣) حديث «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات... الحديث» رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث عن أبي طالب . (٤) حديث «أربع لا يدركن إلا بتب : الصمت وهو أول العبادة... الحديث» رواه الطبراني والحاكم من حديث أمي وقد تقدم ،

فقال لها أبو حازم : من هذا كله بة ، ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار .

وقيل للحسن : لم لا تفصل عيالك ؟ قال : الأمر أهمل من ذلك .

وقال إبراهيم ابن آدم : قد حبيت قلوبنا ثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمسح ، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنك على المفقود فأنت ساهط والساهط معذب ، وإذا سررت بالمسح فأنت معجب والمعجب يحبط العمل .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرعدا .

وقال بعض السلف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف علينا ، وكأنه انتفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم ، إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحبون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه (١) ، فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدى إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدى إلى السقم .

وكان الثوري يقول : الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح ، من عرفها لم يفرح برحما ولم يحزن على شقاء .

وقال سهل : لا يخلص العمل لمتعبد حتى يفرغ من أربعة أشياء : الجوع ، والعري ، والفقر والفذل .

وقال الحسن البصري : أدركت أنوما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشئ من الدنيا أقبل ، ولا بأسفون على شئ منها أدبر ، ولهي كانت في أعينهم أهون من الأرباب : كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطرف له ثوب ولم ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط ، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم ، يفتشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم . كانوا إذا عملوا الحسنات دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنهم وسألوا الله أن يفرها لم فلم يرالوا على ذلك ، وواجه ماسلوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه .

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه : وإلى المرغوب عنه ، وإلى المرغوب فيه

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث : (الدرجة الأولى) وهي السفلى منها : أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يحامدها ويكبتها ، وهذا يسمى الزهد ، وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد ، والزهد يذيب أو لا ينفسه ثم كيسه والزاهد أولا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على مآثره ، وللزهد على خطر ، فإنه ربما تغلبت نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير . (الدرجة الثانية) : الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه ، كالذي يترك دواما لأجل درهمن ، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبرهده ، ويظن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه ، وهذا أيضا نقصان (الدرجة الثالثة) وهي العليا : أن يزهد طوعا ويزهده في زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا . إذ عرف أن الدنيا لا شيء

(١) حديث : إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا ... الحديث .

فيكون كمن ترك خوفه وأخذ جوهره ، فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركا شيئا ، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ، ولنعم الآخرة أحسن من خوقة بالإضافة إلى جوهره ، فهذا هو السكال في الزهد . وسببه كال المعرفة ، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك الخوقة بالجوهر آمن من طلب الإقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأن موسى عبد الرحيم : في أي شيء تتكلم ؟ قال : في الزهد ، قال : في أي شيء ؟ قال في الدنيا : ففضض يده وقال : ظننت أنه يتكلم في شيء ، والدنيا لا شيء ، وإيش يزهد فيها .

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فأتى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته ، أفترى أنه يرى نفسه بدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ماقدناله ؟ فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الثامن من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع ، والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال الضغ وتقتضى على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى منها في المعدة ، ثم تنتهي إلى التئن والقدر ، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الفضل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى مايسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا ، إذ لا نسبة للتمتع إلى مالا نهاية له ، والدنيا متناهية على القرب ، ولو كانت تتبادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لانسبة لها إلى نعيم الأبد ، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكثرة غير صافية ، فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد ، فإذن لا يلتفت الزاهد إلى زهد إلا إذا التفت إلى مازهد فيه ، ولا يلتفت إلى مازهد فيه إلا لأنه يراه شيئا ممتدا به ، ولا يراه شيئا ممتدا به إلا لتصور معرفته ، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة ، فهذا تفاوت درجات الزهد ، وكل درجة من هذه أيضا لها درجات ، إذ تصير المتردد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة في الصبر ، وكذلك درجة المعجب يزهد بقدر التفاته إلى زهد .

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات : (الدرجة السفلى) أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأحوال كما وردت به الأخبار ، إذ فيها « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء »^(١) فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالدم لو أعدموا ، فإن الخلاص من الآلام يحصل بمجرد العلم . (الدرجة الثانية) أن يزهد برغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الجور والنصور وغيرها ، وهذا زهد الراجين ، فإن هؤلاء ماتركوا الدنيا فتاعة بالدم والخلاص من الآلم بل طمعوا في وجود دائم ولنعم سرمد لا آخر له (الدرجة الثالثة) وهي العليا : أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى ، وهو الذي أصبح وموهوم واحد ، وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى ، لأن من طلب غير الله فقد عبده ، وكل مطلوب معبود ، وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه ، وطلب غير الله من الشرك الخفى ، وهذا زهد

(١) حديث « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء » أخرجه أحمد من حديث ابن عباس « ألقى مؤمنا على باب الجنة : مؤمن غني ، ومؤمن فقير ... الحديث ، وفيه : « إن حبست بدمك محبا فظلمنا كرمها ، وأوصلت إليك حتى سال من العرق ما لوورد ألف بعير أكالة حتى لصدرت عنه رواء » وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد : حديثه ملك .

المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه ، وكأن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار ، فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالجوهر العبد والنظر إلى نقش القصور وخضرة الإجماع غير ممكن ، فلا يجب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره ، ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى لذة الجوار والنظر متسع في قلوبهم ، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة فهم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض وراقب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور والذهب به ، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للمعب بالصفور التارك لذة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لأن اللعاب بالصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق .

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الأقاويل ، ولكن نشير إلى كلام يحيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل . فنقول : المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لأحاديث الأقسام وبعضها أجل للجمل . أما الإجمال في الدرجة الأولى : فهو كل مأسوى الله ، فيلبي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا ، والإجمال في الدرجة الثانية : أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها . وفي الدرجة الثالثة : أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ لهما ترجع جميع حظوظ النفس . وفي الدرجة الرابعة : أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه والأموال وإن كثرت أسنانه فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابها فيجمع إلى العلم والقدرة وأغنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كأن معنى المال ملك الأيمان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيسلك بخرج ما فيه الزهد عن الحصر . وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال ، (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا) ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل (اعلوها إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد) ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى (وإنما الحياة الدنيا لعب ولهو) ثم رد السك إلى واحد في موضع آخر فقال (وهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا ، فيلبي أن يكون الزهد فيه . وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى .

فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمه لإحاطة ، لأنه إنما يريد البقاء ليشتمع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء ؛ فإن من أراد شيئا أراد دوامه ، ولا معنى لحب الحياة إلا لحب دوام ما هو موجود أو يمكن في هذه الحياة ، فلذا رغب عنها لم يرددها ، ولذلك لما كتب عليهم القتال (قالوا ربنا لم كنيت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) فقال تعالى (قل متاع الدنيا قليل) أى لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا ، فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المتأفكين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم ببيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسينين ، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستشفقون راتحة الجنة ويأبدون إليه مبادرة الظمان إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله

أو نيل ربه الشهادة ، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة ، حتى إن عابد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للوت على فراشه كان يقول : كم غررت بروحى وجمعت على الصوف طمعاً في الشهادة وأنا الآن أموات موت العجائز ، فلما مات عدل جسده ثمانية ثقب من آثار الجراحات ، هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وأما المتأفون ، ففروا من الزحف خوفاً من الموت فقبل لهم (إن الموت الذين تفرون منه فانه ملائكم) فيأثمهم البقاء على الشهادة استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فسارحت بهارثهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون ، فلأن الله تعالى اشترى أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلاً أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذى يبيعوا به ، فهذا بيان المزهود فيه .

وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون في حد الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالباً على نفسه أو على من كان يخاطبه ، فقال بشر رحمه الله تعالى : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى : الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف ، فيقدر ما مالك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد في الشهوات . وقال الفضيل : الزهد في الدنيا هو القناعة ، وهذا إشارة إلى المال خاصة . وقال الثوري : الزهد هو قصر الأمل ، وهو جامع لجميع الشهوات ، فإن من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبناء فيقول أمله ، ومن قصر أمله فكانه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس : إذا خرج الزاهد يطلب زهد عنه ، وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد . وقال أويس أيضاً : الزهد هو ترك الطلب للضمون ، وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث : حب الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول ، والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة ، وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذى يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ، ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات ، فإن من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة ، وقد طولوا ما حتى ينقض عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها ، فشرط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه ، وقال الحسن : الزاهد الذى إذا رأى أحداً قال ، هذا أفضل منى ، فذهب إلى أن الزهد هو التواضع ، وهذا إشارة إلى نفي الجاه والمحب وهو بعض أقسام الزهد . وقال بعضهم : الزهد هو طلب الحلال ، وأين هذا عن يقول : الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال . وقد كان يوسف بن أسباط يقول : من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد .

وفي الزهد أقوال وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة ، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقوال الناس رأها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة ، وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدرك بمشاهدة من قلبه لا يتلقف من سمعه ، فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته ، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته ، وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة ، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة ، والمباحات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف ، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الزائدة التي هي مقام البعد في نفسه والأحوال تختلف ، فلا جرم الأقوال المتغيرة عنها تختلف ، وأما الحق في نفسه

فلا يكون إلا واحدا ولا يتصور أن يختلف ، وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل : ما قاله أبو سليمان البارقي إذ قال : سمنا في الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل ، وقد فصل مرة وقال : من تزوج أو سافر في طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا لجعل جميع ذلك صنفا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى (إلا من أتى الله بقلب سليم) فقال : هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال : إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من مومنها للأخرة ، فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أحناف المزهود فيه ؛ فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة ، كما قاله إبراهيم بن آدم ، قال فرض : هو الزهد في الحرام . والنفل : هو الزهد في الحلال . والسلامة : هو الزهد في الشهوات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد ، إذ قيل لما لك بن أنس : ما الزهد ؟ قال : التقوى ، وأما بالإضافة إلى خفائها ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه ، إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في المحطرات والخطوات وسائر الحالات ، لأسباب خفائها الرياء فلئن ذلك لا يبطل عليه إلا سيطرة العلماء ، بل الأحوال الفاضلة أيضا درجات الزهد فيها لا تنتهي ، فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ ترسد حجرا في نومه فقال له الشيطان : أما كنت تركت الدنيا لما الذي بدا لك ؟ قال : وما الذي تجهد ؟ قال : توسد الحجر : أي تمتعت برفع رأسك عن الأرض في النوم ، فرى الحجر وقال : خذه مع ما تركته لك . وروى عن يحيى بن زكريا عاينهما السلام أنه لبس للمسوح حتى تقب جلده تركا للتنعم بلبس اللباس واستراحة حس اللبس ، فسأله أنه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى ، آثرت على الدنيا ، فيسكني الصوف وعاد إلى ما كان عليه . وقال أحمد رحمه الله تعالى : الزهد زهد أويس ، بلغ من العرى أن جلس في قوصرة . وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط لإنسان فأقامه صاحب الحائط ، فقال : ما أقتنى أنت إنما أقتنى الذي لم يرض لي أن أتمتع بظل الحائط ، فلذن درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها ، وأقل درجاته : الزهد في كل شبهة ومحذور . وقال قوم : الزهد هو الزهد في الحلال لافي الشبهة والمحذور ، فليس ذلك من درجاته في شيء ، ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن .

• فإن قلت : مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس وغسلات الناس ومكائهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى ؟ فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإنفال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ، ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء ، ولابقاء إلا بضروريات النفس ؛ فهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستمانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتتلا بنير الله ؛ فلئن ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه ؛ فالاشتغال بمكافاة الله وبسببها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ، ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل نائتك في طريق الحج ، ولا غرض لك في تنعم نائتك بالذات ، بل غرضك مقصود على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك ، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش والمهلك بالأكل والشرب ، وعن الحزن والبرد والمهلك باللباس والسكن ، فتقتصر على قدر الضرورة ولا تنهض للتلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى ، فذلك لا يناقض الزهد ، بل هو شرط الزهد ، وإن قلت : فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع ؛ فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ ، فلئن شارب الماء البارد قد يستلذذ بالشرب ويرجع حاسدا إلى زوال ألم العطش ، ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك

ولكن لا يكون ذلك مقصوداً عنده ومطلوباً بالقصد ، فلا يكون القلب منصرفاً إليه ؛ فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتقسيم الأصحار وصوت الأقطار ، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ، ولقد كان في الخائفين من طلب موضعاً لا يصيبه فيه نسيم الأصحار خيفة من الاستراحة به وأمس القلب منه ، فيكون فيه أمس بالدنيا وتقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ، ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه مأوى فكان لا يرفعه من الشمس ، ويشرب الماء الحار ويقول : من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه عوارف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط ، فإنه وإن كان شافاً فذمه قريبة والاحتياط مدة يسيرة للتنعم على التأيد ، لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ما الناس منكمون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم ؛ فالفضول كالتخيل المسوقة مثلاً . إذ غالب الناس إنما يقتنيا للترفة بركوبها وهو قادر على المشي والمهم كالأكل والشرب ، ولنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر ، وإنما ينحصر المهم الضروري ، والمهم أيضاً يتطرق إليه فضول في مقداره وجسده وأوقاته ، فلا بد من بيان وجه الزهديه ، والمهمات ستة أمور : الطعام ، والملبس ، والسكن ، وأثاثه ، والمتكبر ، والمال . والجاه يطلب لأغراض . وهذه الستة من جملة ما ، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربيع المهلكات ، ونحن الآن نقصر على بيان هذه المهمات الستة .

(الأول الطعام) ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض ، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد ؛ فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر ، فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به ، وأما عرضه في مقدار الطعام وجسده وقت تناوله ؛ أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل ، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصاد على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يذخر من غذائه لشهائه ، وهذه هي الدرجة العليا . (الدرجة الثانية) أن يذخر لشهر أو أربعين يوماً . (الدرجة الثالثة) أن يذخر لسنة فقط ، وهذه رتبة ضيق الزهاد ، ومن ادخر لأكثر من ذلك فقسيمته زاهداً حال ؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جداً فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس ، كما دود الطائي فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقا في عشرين سنة ؛ فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد ، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار ، وأقل درجاته في اليوم واليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلى مد واحد ، وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفاية ، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ، ومن لم يقدر على الاقتصاد على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب ، وأما بالإضافة إلى الجلوس فأقله كل ما يقوت ، ولو الحبز من التخالة ، وأوسطه خبز الشعير والنرة ، وأعلى خبز البر غير منخول ، فإذا ميز من التخالة وصار حواري فقد دخل في التمتع وخرج عن أبواب الزهد فضلاً عن أدائه . وأما الأدم : فأقله الملح أو البقل والحل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أى دهن كان ، وأعلى اللحم أى لحم كان ، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين ، فإن صار دائماً أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً في البطن أصلاً ، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم واليلة مرة وهو أن يكون صائماً ، وأوسطه

أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، وبأكل ليلة ولا يشرب ، وأعلاء أن ينهى إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه ، وقد ذكرنا طريق تحليل الطعام وكسر شرهه في ربيع المهلكات ، ولننظر إلى أسوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمصاحبة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في الطعام وتركهم الأدم :
قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كانت تأتي علينا أربعمون ليلة وما يرقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مصباح ولا نار . قيل لها : فهم كنتم تعيشون ؟ قالت : بالأسودين النمر والماء ^(١) . وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم .

وقال الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف ويقتل الخوص ويلحق أصحابه ويأكل على الأرض . ويقول : إنما أنا عبد أكل كما تأكل العبيد ، وأجلس كما تجلس العبيد ^(٢) .

وقال المسيح عليه السلام : بحق أقول لكم ، إنه من طلب الفردوس يغير الشعر له والثوم على الزبال مع السكاب كثير .

وقال الفضيل ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر ^(٣) وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول : يا بني إسرائيل ، عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البر ، فإنكم لن تقوموا بشكره . وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في الطعام والمشرب في ربيع المهلكات فلا نبيده .

ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل ، فوضع القدح من يده وقال : أما إنني لست أحرمه ولكن أتركه تواضعا لله تعالى ^(٤) .

وأما عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال : اعزلوا عني حياها . وقد قال يحيى ابن معاذ الرازي : الزاهد الصادق قوته ما وجد ، ولياسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبور مضجعه ، والخلة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والجزن شأنه ، والحياء شماره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والنقل دليله ؛ والعبادة حرفته والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى .

(المهم الثاني) الملبس . وأقل درجته : ما يدفع الحر والبرد ويسر العبورة . وهو كساء ينشيط به . وأوسطه : قيص وقطنوس ونملان وأعلاء . أن يكون معه منديل وسراويل . وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد . وشرط الزاهد : أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه . بل يلزمه التعمد في البس . فإذا صار صاحب قيصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع ألوان الزهد من حيث المقدار . أما الجنس فأقله المسوح

(١) حديث عائشة : كانت تأتي أربعمون ليلة وما يرقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار ... الحديث . أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة : كان يأتي على آل عمه الصهر ما يرى في بيت من بيوتهم دخان ... الحديث . وفي رواية له : ما يوقد فيه نار . ولأحد : كان يمر بنا خلال وحلال ما يوقد في بيت من بيوتهم نار . وفي رواية له : ثلاثة أمهات .

(٢) حديث الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار الحديث ، تهم دون قوله : إنما أنا عبد . فإنه ليس من حديث الحسن ، إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم .

(٣) حديث : ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر ، تقدم .

(٤) حديث : لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن يسيل فوضع القدح من يده ... الحديث ، تقدم .

الحشنة وأوسطه الصوف الحشن وأعلاه القطن الغليظ . وأما من حيث الوقت ، فأقصاه مايستمر سنة ، وأقله مايقوم ، حتى تقع بعضهم ثوبه بروق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه ، وأوسطه مايتناسب عليه شهرا ومايقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد لزهد ، وإلا إذا كان المطلوب خشونة ، ثم قد يبيع ذلك ثوبه ودوامه ؛ فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به ، فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان عبدا لدنيا ، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس : قال أبو بردة : أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبد ، وإزارا غليظا فقالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي ما لبس ^(٢) ، وقال عمرو بن الأسود التميمي : لا لبس مشهورا أبدا ، ولا ناما بليل أبدا على دثار أبدا ، ولا أركب على مأثور أبدا ، ولا أملك جوف من طعام أبدا فقال عمر : من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود ^(٣) . وفي الخبر : ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيبا ^(٤) ، واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم ^(٥) .

وكانت قيمة ثوبه عشرة ^(٦) وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا ^(٧) واشترى سراويل بثلاثة دراهم ^(٨) . وكان يلبس شلتين يضادين من صوف ^(٩) وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد ، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ . وفي الخبر : كان قبضه رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قبض زيات ^(١٠) . ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيئا من سندس قيمته ماثنا درهم ^(١١) فكان أصحابه يلبسونه ويقولون

(١) حديث أخرجه طائفة كساه ملبد وإزارا غليظا فقالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . رواه الشيخان وقد عدم في آداب الهمية ، (٢) حديث « أن الله يحب المتبذل لا يبالي ما لبس » لم أجده أسلا .

(٣) حديث عمر « من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى هدى عمرو بن الأسود » رواه أحمد بإسناد جيد . (٤) حديث « ما من عبد لبس ثوب شهرة ... الحديث » رواه ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله « وإن كان عنده حبيبا » . (٥) حديث . اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم . أخرجه أبو بلي من حديث أبي هريرة ، قال دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس إلى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم ... الحديث ، وإسناده ضيف .

(٦) حديث : كان قيمة ثوبه عشرة دراهم ، لم أجده . (٧) حديث : كان إزاره أربعة أذرع ونصفا . أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسل : كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، وعرصه ذراعا واحد . الحديث ، وفيه ابن أبي عمير . وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة : كان له إزار من لجم عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الزاهد .

(٨) حديث : اشترى سراويل بثلاثة دراهم ، المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم تقدم عند أبي بلي ، وشراؤه السراويل منه أصحاب السنن من حديث سعيد بن أبي لهي لا لأنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه ، قال الترمذي : حسن صحيح .

(٩) حديث : كان يلبس شلتين يضادين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد ، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ ، هدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للسهلة والبرد والمطبة . وأما لبسه الحلة في الصعيدين من حديث البراء : رأته في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرة وعليه أحسن ما يكون من حال الجن وقال : رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحال . وفي الصعيدين من حديث طائفة : أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ سما يسمى بآئين ، وقدمه في آداب الهمية . ولأبي داود والترمذي واللسان من حديث أبي رمثة : وعليه بردان أخضران ، سكت عليه أبو داود واستغفره الترمذي . ولأبنا من حديث قدامة السكلي : وعليه حلة حمراء وعليه عريف بن إبراهيم لا يعرف ، قاله الذهبي .

(١٠) حديث : كان قيمة كأنه قبض زيات . أخرجه الترمذي من حديث أبي بسند ضيف : كان يكثر من رأسه ويستر به لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات . (١١) حديث : لبس يوما واحدا ثوبا سيئا من سندس قيمته ماثنا درهم امداده الموقوس ثم نزع ، ... الحديث .

إرسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا - وكان قد أهداه إليه المقدوس ملائكة الإسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ، ثم نزع وأرسل به إلى رجل من لشركين وصله به ، ثم حرم لبس الحرير والديباغ . وكأنه إنما لبسه أولا تأكيداً للتحريم ، كما لبس عاتما من ذهب يوما ثم نزع^(١) ، فحرم لبسه على الرجال ، وكما قال لعائشة في شأن بريرة « اشترطي لأهلها الولاء »^(٢) ، فلما اشترطته سعد عليه السلام للمتبعة فحرمه ، وكما أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر التكاح^(٣) . وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميسة لما علم ، فلما سلم قال : شغلني النظر إلى هذه ، أذهبو بها إلى أبي جهنم واتوني بأنبيائتيه^(٤) ، يعني كساءه ، فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم ، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصل فيهِ ، فلما سلم قال « أعيذوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فإني نظرت إليه في الصلاة ، وليس عاتما من ذهب ونظر إليه على المتبر نظرة فرى به فقال « شغلني هذا عنكم ، نظرة إليه ونظرة إليك »^(٥) ، وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة لعين جديدتين ؛ فأعجب حسنها ، فخر ساجدا وقال « أعجبت حسنها فتواضعت لربي خشية أن يمقتني » ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه^(٦) . وعن سنان بن سعد قال : حيكت رسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أتمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال « انظروا ما أحسنها ! ما أليتها ! » قال : فقام إليه أعرابي فقال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يخطله به ، قال : فدفعتها إليه وأمر أن يحاكم له واحدة أخرى ، فأتى صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكم^(٧) . وعن جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل ، فلما نظر إليها يسكى وقال « يا فاطمة ! تجزعي مرارة الدنيا لنعيم الآب » ، فأُنزل الله عليه (ولسوف يطعمك ربك قرضي^(٨)) وقال صلى الله عليه وسلم « إن من خيار أمتي فيما أنبأني للآل الأعل قوما يضحكون جهرا من سعة رمة الله تعالى ، ويكونون سرا من خوف عذابه ، مؤتمهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة ، يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان ؛ أجسامهم في الأرض وأفئدتهم عند العرش »^(٩) فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس وقد أوصى أمتة عامة باتباعه ، إذ قال « من أحبني فليستن بسنني »^(١٠) ، وقال « عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالفواجذ »^(١١) ، وقال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها عامة وقال « إن أردت اللحد في فؤادك ومجالسة الأثنياء ولا تنزع ثوبا حتى ترقيعه »^(١٢) ، وعد على قيس عمر رضى الله عنه الفئاة عشرة رقعة بعضها من أدم .

- (١) حديث : لبس يوما عاتما من ذهب ثم نزع . متفق عليه وقد تقدم . (٢) حديث قال عائشة ثأن بريرة « اشترطي لأهلها ... الحديث » متفق عليه من حديثها . (٣) حديث : أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها . أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع . (٤) حديث : صلى في خميسة لما علم ... الحديث ، متفق عليه ، وقد تقدم في الصلاة . (٥) حديث : لبس عاتما فنظر إليه على المتبر ففرى به وقال « شغلني هذا عنكم ... الحديث » تقدم . (٦) حديث : احتذى لعين جديدتين فأعجب حسنها ... الحديث ، تقدم . (٧) حديث سنان بن سعد : حيكت رسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف أتمار ... الحديث ، ورواه أبو داود الطيالسي والعلاني من حديث سهل بن سعد دون قوله : وأمر أن يحاكم له أخرى ، فهي عند العلاني قطع ، وفي نسخة بن صالح ضعيف ، ويصح في كثير من نسخ الإحياء : « سأل بن سعد وهو غلط . (٨) حديث جابر : دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى ... الحديث . أخرجه أبو بكر بن لال في مسكرم الأخلاق بإسناد ضعيف . (٩) حديث ابن من خيار أمتي فيما أنبأني للآل الأعل قوما يضحكون جهرا من سعة رحتهم ، ويكونون سرا من خوف عذابه ... الحديث ، تقدم ، وهو عند الحاكم والبيهقي في الضعيف وضبطه . (١٠) حديث « من أحبني فليستن بسنني » تقدم في التكاح . (١١) حديث « عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين ... الحديث » ورواه أبو داود والترمذي وصححه ، وابن ماجه من حديث الرهبان بن سارية . (١٢) حديث قال عائشة « إن أردت اللحد في فؤادك ومجالسة الأثنياء » أخرجه الترمذي وقال غريب ، والحاكم وصححه من حديث فاطمة ، والله أعلم . (٣٠ - إسحاق طرم الدين - ٤)

واشترى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كفيه من الرسغين وقال الحمد لله الذي كساني هذا من ريشه . وقال الثوري وغيره : ألبس من الثياب مالا يشرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال ، وكان يقول : إن الفقير ليؤذي وأنا أصل فأدعه يجوز ، ويجزى واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البرزة فأدعه يجوز . وقال بعضهم قومت ثوبى سفيان ولعليه بدرهم وأربعة دواقي . وقال ابن شبرمة : خير لياني ما خدمني وشمرها ما خدمته . وقال بعض السلف : ألبس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ، ولا تلبس منها ما يشرك فينظر إليك . وقال أبو سليمان النخعي : الثياب ثلاثة : ثوب لله وهو ما يستر العورة ، وثوب للنفس وهو ما يطلب لينة ، وثوب للناس وهو ما يطلب جهره وحسنه . وقال بعضهم : من رقى ثوبه رقى دينه . وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين درهما ، وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قيص ومنزوت تحتة ، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف : أول السلك الذي ، وفي الخبر والبداذة من الإيمان ، وفي الخبر : من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة في ثغبات الياقوت ، وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : قل لأوليائي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي . ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ ، فقال : انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق — وكان عليه ثياب رفاق ، وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في برته ، فجعل يتكلم في الزهد ، فوضع أبي ذر راحته على فيه وجعل يضطر به ، فنضب ابن عامر ، فشكا إلى عمر فقال : أنت صنعت بنفسك ، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البرزة وقال على كرم الله وجهه : إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم النبي ، ولا يرى بالفقر فقره . ولما عوب في خشونة لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدى به المسلم . ونهى صلى الله عليه وسلم عن التتم وقال : إن الله تعالى عبادا ليسوا بالمتتمين ^(١) ، ورؤى فضالة بن عبيد وهو والي مصر أشعث حافيا فقيل له : أنت الأمير وتعمل هذا ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرقاء ، وأمرنا أن نحلق أحيانا ^(٢) . وقال على لأمر رضى الله عنهما : إن أردت أن تلتحق بصاحبك فارفع القميص ونكس الإزار واخسف التمل وكل دون الشبع . وقال عمر : اخشوشوا وإياكم وزى العجم كسرى وقبصر ، وقال على كرم الله وجهه : من تريا يرى قوم فهو منهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من شرار أمتي الذين غنوا بالتتم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشققون في الكلام ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، وما أسفل من ذلك ففي النار ، ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جز إزاره بطرا ^(٤) ، وقال أبو سليمان الداراني : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يلبس الشر من أمتي إلا مرأ أو أمتي ^(٥) ، وقال الأوزاعي : لباس الصوف في السفر سنة ، وفي الحضر بدعة . ودخل محمد بن واسع

- (١) حديث : نهى عن التتم وقال : إن الله تعالى عبادا ليسوا بالمتتمين . أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وقد تقدم .
 (٢) حديث فضالة بن عبيد : نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرقاء ، وأمرنا أن نحلق أحيانا . أخرجه أبو داود بإسناد جيد .
 (٣) حديث : لمن شرار أمتي الذين غنوا بالتتم ... الحديث . رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف .
 (٤) حديث : أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ... الحديث . وأخره « أولئك شرار أمتي » وقد تقدم .
 (٥) حديث : ألبس الذين من أمتي لا يلبسوا من أمتي ... الحديث . رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا الدلائلي من حديث أبي هريرة قال عبد بن يحيى القمي : كلا الحديثين محفوظ .
 (٥) حديث أبي سليمان : لا يلبس الشر من أمتي إلا مرأ أو أمتي . لم أجده له إسنادا .

على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف؛ فقال له قتيبة: مادعاك إلى مدرعة الصوف؟ فسكت فقال: أكلتك ولا يجنيني! فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي، أو فقرأ فأشكر ربي. وقال أبو سليمان: لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه: أن وار عورتك من الأرض، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل؛ فإنه كان يتخذ سراويلين! فإذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة، وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: مالك لاتلبس الجيد من الثياب؟ فقال وما للعبد والثوب الحسن، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدا. ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي. وقال الحسن لفرقد السبني: تحسب أن لك فضلا على الناس بكساءك، بل نفي أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفقا. وقال يحيى بن معين: أرايت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الحرق من المزابل ويضلعها ويلفها ويلفها، فقلت: إنك تكسى خيرا من هذا! فقال: ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة، لجمال يحيى ابن معين يحدث بها ويكي.

(المهم الثالث) المسكن، والزهد، فيه أيضا ثلاث درجات (أعلاها) أن لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقتنع بربوايا المساجد كأصحاب الصفة. (وأوسطها) أن يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سف أو خض أو ما ينسبه (وأدناها) أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة؛ فلو كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرج هذا القدر عن آخر درجات الزهد، فلو طلب التشديد والتجصيص والسعة وارتفاع القف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن؛ فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو الطين أو الحجر، واختلاف قدره بالسعة والضيق، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا، والزهد مدخل في جميع ذلك. وبالجملة كما مر بالضرورة فلا ينبغي أن يتجاوز حد الضرورة، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته، وما جاوز ذلك فهو معاند للدين والشرع من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى، وأقل الدرجات فيه معلوم، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعي له يمسد من الزهد جدًّا، وقد قيل: أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشديد، يعني بالتدريز: كف دروز الثياب فلإنها كانت تشل شلا والتشديد: هو البزيان بالجص والآجر، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد^(١). وقد جاء في الخبر: «يأتى على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود الخمانية»، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه كان قد علا بها^(٢). ومر عليه السلام بمجندة معلقة فقال: «لن هذه؟»، قالوا: فلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر، فذهب فهدمها؛ فر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالموضع فلم يرها. فأخبر بأنه هدمها فهدمها له خير^(٣).

(١) حديث: كانت الثياب تمل شلا وكانوا يبنون بالسف والجريد. أماثل الثياب من غير كف فروى الطبراني والمالك أن عمر قلع ما فضل عن الأصابع من غير كف. وقال: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما البناء في الصحيين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة: فسفوا الذين لبسوا المسجد وجعلوا عضاديه المجاورة... الحديث، ولها من حديث أبي سعيد: كان المسجد على عرش فوكف المسجد. (٢) حديث: أمر العباس أن يهدم عليه كان قد علا بها. رواه الطبراني من رواية أبي العالئ أبي العباس بن فرقة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «هدمها... الحديث» وهو منقطع.

(٣) حديث: مر بمجندة معلقة فقال: «لن هذه؟» فقالوا: فلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه... الحديث. أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد يحفظ: فرأى قبة مرفوعة الحديث، والمجندة القبة.

وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضح لينة على لينة ولا قصبة على قصبة ^(١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله بعبده شراً أهلك ماله في الماء والطين ^(٢) ، وقال عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصاً ، فقال : « ما هذا ؟ » قلنا خص لنا قد وهى فقال : أرى الأمر أجل من ذلك ^(٣) ، واتخذ نوح عليه السلام بيتاً من قصب ، فقيل له : لو بنيت له ؟ فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال الحسن دخلنا على صفوان بن يحيى وهو في بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل له : لو أصلحته ؟ فقال : كمن رجل قد مات وهذا قائم على حاله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من بنى فوق ما يكتفيه كلف أن يحمله يوم القيامة ^(٤) » ، وفي الخبر : « كل نفقة في الأرض يؤجر عليها إلا ما أنفقته في الماء والطين ^(٥) » ، وفي قوله تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ إنه الرياسة والتطاؤل في البنيان . وقال صلى الله عليه وسلم كل بناء دبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكن من حر أو برد ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم الرجل الذي شكاً إليه ضيق منزله « اتسع في السماء ^(٧) » ، أي في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بخص وأجر ، فكتب وقال : ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني هاهنا لفرعون ؛ يعني قول فرعون ﴿ فأرسل ياحامان على الطين ﴾ يعني به الأجر ، ويقال : إن فرعون هو أول من بنى له بالخص والأجر ، وأول من عمله هاهنا ، ثم تبعهما الجبابرة ، وهذا هو الإخرف ورأى بعض السلف جامعاً في بعض الأمصار فقال : أدركت هذا المسجد مبنيًا من الجريد والسعف ، ثم رأيت من رصص ، ثم رأيت الآن حديقاً بالبن ، فكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرصص ، وكان أصحاب الرصص خيراً من أصحاب اللبن . وكان من السلف من يبني داره مراراً في مدة عمره لضيف بانه وقصر أمه وزمده في إحكام البنيان ، وكان منهم من إذا حج أو غزا بزج بيته أو وجهه لجيرانه ، فإذا رجع أعاده ، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن ، وكان ارتفاع بناء السقف قائم وبسطة . قال الحسن : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف . وقال عمرو بن دينار : إذا أعل العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك : إلى أين يا فاسق الفاسقين ؟ وقد نهي سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال : لولا نظر الناس لما شيدوا فالتظر إليه معين عليه . وقال الفضيل : إن لم أعجب من بنى وترك ، ولكن أعجب من نظر إليه ولم يعتبر . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون اللبن ويستعملون الأرازن ، يصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير دينكم .

(١) حديث الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضح لينة على لينة . الحديث ، رواه ابن جرير في الثلاث ، وأبو لم في الحلية هكذا مسلاً . والطبراني في الأوسط من حديث عائشة : « من سأل عن أوسره أن ينظر إلى فيلظير إلى أشعث صاحب مقبر لم يضح لينة على لينة .. الحديث » . ولنا نداء ضيف .

(٢) حديث : « إذا أراد الله بعبده شراً أهلك ماله في الماء والطين » . رواه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد . « خضره في الطين والطين حتى يبني » . (٣) حديث عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصاً نائداً وهي الحديث . رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه .

(٤) حديث : « من بنى فوق ما يكتفيه كلف أن يحمله يوم القيامة » أن يحمله . رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد فيه إير واقطاع (٥) حديث : « كل نفقة العبد يؤجر عليها إلا ما أنفقته في الماء والطين » . رواه ابن ماجه من حديث ثباب بن الأرت بإسناد جيد بالفظ : « لا في التراب أو قال في البناء .. » (٦) حديث : « كل بناء دبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أو برد » . رواه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بالفظ : « إلا مالا » . يعني ملائذ منه .

(٧) حديث قال الرجل الذي شكاً إليه ضيق منزله « اتسع في السماء » قال المصنف : أي في الجنة . رواه أبو داود في المرسل من رواية الحسن بن المنيرة قال : شك خالد بن الوليد فذكره . « ولقد سمعنا الطبراني فقال عن الحسن بن المنيرة عن أبيه عن خالد ابن الوليد ، « لا آله قال : أرفع إلى السماء واسأل الله السعة » وفي إسناده لين .

(المهم الرابع) أثاث البيت ، والزهد فيه أيضا درجات (أعلامها) حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنسانا يمشط لحيته بأصابعه ، فرمى بالمشط ، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز ، وهذا حكم كل أثاث ، فإنه إنما يراد المقصود ، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة . ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخرف في كل ما يمكن فيه الخرف ولا يزال بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به (وأوسطها) أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد ، كالذي معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها ، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف (وأعلامها) أن يكون له ببذل كل حاجة آلة من الجنس النازل الحسيس ، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ، ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد كانت ماثلة رضى الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم خشوها ليف ^(١) . وقال الفضيل : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة من آدم خشوها ليف ^(٢) . وروى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشرط ، جلس ، فرأى أثر الشرط في جنبه عليه السلام ، فدمعت عيناه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما لى أبكاك يا ابن الخطاب ؟ قال : ذكرت كسرى وبصرى وما مما فيه من الملك ، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيته ورسوله نائم على سرير مرمول بالشرط ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أما ترى ما نحن أن نكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ قال : بلى يا رسول الله ؟ قال : فذلك كذلك ^(٣) . ودخل رجل على أبي ذر لجل يقلب بصرف يده بيتة فقال : يا أباذر ، ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال : إن لنا بيتا توجه إليه صالح متاعا ، فقال : إنه لا بد لك من متاع ما دمت هنا ، فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدم عمر بن سعيد أمير حمص على عمر رضى الله عنهم قال له : ما مملك من الدنيا ؟ فقال : معنى عصا أتركها عليها وأقتل بها حية إن لقيتها ، ومعنى جرابي أحمل فيه طعامي ، ومعنى قصعتي أكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي ، ومعنى مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهورى للصلاة ، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي ، فقال عمر : صدقت رحمة الله وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها ستر وفي يديها قلين من فضة ، فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي ، فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أبو رافع فقال : من أجل التستر والسواوين ، فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت : قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى ، فقال : أذهب بهما وادفعه إلى أهل الصفة ، فباع القلين بدرهمين ولصف وتصقت بهما علمهم ، فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال : بآبى أنت قد أحسن ^(٤) ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فتهتك

(١) حديث عائشة : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم خشوها ليف . رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، وابن ماجه . (٢) حديث : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة من آدم خشوها ليف . رواه الترمذي في المعالي من حديث حفصة بقصة الباءة ، وقد تقدم ، ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بنى طريقه . (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشرط التخل جلس فرأى أثر الشرط في جنبه ... الحديث ، معلق عليه من حديثه ، وقد تقدم .

(٤) حديث : قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفي يديها قلين من فضة فرجع ... الحديث ، لم أره عموما ولا في داود وابن ماجه من حديث سفينة بإسناد جيد : أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على صفادتي الباب فرأى الثرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع ، فكانت فاطمة تلبس : انظر أوجهه . الحديث رواه النسائي من حديث ثوبان بإسناد جيد قال : =

وقال «كلمنا رأيته ذكرت الدنيا أرسلني به إلى آل فلان»^(١) ، وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم يتم على عبادة شنية ؛ فما زال يتقلب ليلته ، فلما أصبح قال لها : أعدي العيادة الخفيفة ونحى هذا الفراش عنى قد أمرني الليلة^(٢) ، وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلا فيبتها ، ففسر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل ، قالت عائشة رضى الله عنها : فنام حينئذ حتى سمعت غطيظه ثم قال «ما ظن محمد بربه لو أنى الله وهذه عنده»^(٣) ، وقال الحسن : أدركت سبعين من الأخيار مالا أحدهم إلا أثرب وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط : كان إذا أراد الترم ياتر الأرض بحمسه وجعل ثوبه فوقه .

(المهم الخاص) للنكح ، وقد قال قائلون : لاعمى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرتة ، وإليه ذهب سهل ابن عبد الله وقال : قد حجب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف زهد فيه ؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال : كان أزهد الصحابة على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة ويضع عشرة سرية . والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال : كل ما شئتك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغوم ، والمرأة قد تكون شاغلا عن الله . وكشف الحق فيه : أنه قد تكون العروبة أفضل فى بعض الأحوال كاسبقى فى كتاب النكاح ، فيكون ترك النكاح من الزهد ، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب ، فكيف يكون تركه من الزهد ؟ وإن لم يكن عليه آفة فى تركه ولا فائدة ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إلىهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد ، فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلا ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربان ، واللذة التى تلحق الإنسان فيها هو من ضرورة الوجود لا تضره ، إذ لم تكن هى المقصد والمطلب ، وهذا ممن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد فى شيء ، لأننى ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك فى ترك النكاح انقطاع نسله ، فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا فى لذته من غير خوف آفة أخرى ، وهذا ما عاهد سهل لاعتاله ، ولأجله تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بالمصالح من الإيقاق عليهم^(٤) ، فلامعنى لزهده فيه حذرا من مجردة لذة الوقوع والتلذذ ، ولكن أن يتصور ذلك لتغير الأنبياء والأولياء ، فأكثر الناس يشغلهم

جاءت أمة هيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفى يدىها فتخ من ذهب .. الحديث . وفيه : أنه وجد فى يد فاطمة سلة من ذهب . وفيه : يقول الناس فاطمة بنت محمد فى يدىها سلة من نار . وأنه خرج ولم يبقه ، فأمرت بالسلة فبيعت فاشترت بها عبد فأعتقه ، فلما سمع قال « الحمد لله الذى لم يحمى فاطمة من النار » .

(١) حديث : رأى على بابي فاطمة سرة فتكسك ... الحديث . أخرجه الترمذى وحسنه . والسنائي فى الكبرى من حديثه . (٢) حديث : فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا . وفيه : كان يتم على عبادة شنية ... الحديث ، رواه ابن بشار فى كتاب أغلاق التى صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت : دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فرشت رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة شنية فاطلقت فبشت إلى إبراهيم بن عوف ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما هذا » الحديث . وفيه : أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته ، وفيه مجاهد بن سعيد يختلف فيه ، والمروفي حديث خصه المتقدم ذكره من التباين .

(٣) حديث : أتته دنانير خمسة أو ستة فعاد فيبتها ففسر ليله .. الحديث ، وفيه : ما ظن محمد بربه لو أنى الله وهذه عنده ، أخرجه أحمد من حديث فاطمة بستان حسن أنه قال فى مرضه الذى مات فيه « يا عائشة ، ما كنت بالذهب » . جاء ما بين الحجة إلى التماسية إلى السنة لجل بقلها بيده ويقول « ما ظن محمد ... الحديث » . وزاد « انقضا » ورواية : سبة أو ستة دنانير ، وهمن حديث أم سلمة بستان صحيح : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شامم الوجه ، قالت : خست ذلك من وجع ، فقلت : باني الله ، مالك شامم الوجه ؟ فقال « من أجعل الدنيا البسة التى أتتنا أس أسينا ومضى فى خضم الفراش » وفى رواية « أسينا ولم تنقها » (٤) حديث : كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بالمصالح من الإيقاق عليهم ، تقدم فى النكاح

كثرة النساء ، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة من أوجال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك .

قال أبو سليمان : الزهد في النساء : أن يختار المرأة الهون أو اليقظة على المرأة الحمية والشريفة .

وقال الجنيد رحمه الله : أحب البريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث والترحل . وقال : أحب الصوفى أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه ؛ فإذا ظهر أن لذة التكساح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيها جميعا .

(الملمح السادس) ما يكون وسيلة إلى هذه الخسة ، وهو المال والجاه : أما الجاه فعناء ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة بالأغراض والأعمال ، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجته وافتر إلى من يتقدمه افتقر إلى جاه لا حاجة في قلب عادمه ، لأنه إن لم يكن له عنده عمل وقدر لم يتم خدمته ، وقيام القلوب هو الجاه ، وهذا له أول قريب ولكن يتأدى به إلى هوان لا يحق لها ، ومن حاس حول الحى يوشك أن يقع فيه ، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم ، فأما النفع فينبغي عنه المال فإن من يتقدم بأجرة يتقدم وإن لم يكن عنده للسأجر قدر ، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يتقدم بنير أجرة ، وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكل فيه العدل ، أو يكون بين جيران يظفونه ولا يقدر على دفع شرم إلا بعمل له في قلوبهم أو عمل له عند السلطان ، وقدر الحاجة فيه لا يضبط لأسباب إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالمراقب ، والخاص في طلب الجاه سالك طريق الهلاك ، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً فإن اشتغاله بالدين والمعبادة يمهده له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين ، فأما الترهات والتفديرات التي تتجوز إلى زيادة في الجاه على الحاصل بنير كسب فهي أوهام كاذبة ، إذن طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى في بعض الأحوال ، فعلاج ذلك بالاحتياط والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه ، فإذا نزل طلب المحل في القلوب لارخصة فيه أصلاً ، واليسير منه داع إلى الكثير ، وضراوته أشد من ضراوته لخر فليحذر من قليله وكثيره . وأما المال فهو ضرورى في المشقة أعنى القليل منه ، فإن كان كسوبا فإذا اكتسب حاجة يومه فيلغى أن يترك الكسب ، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سقفه وقام ، هذا شرط الزهد ؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضمه الزهاد وأقربائهم جميعا ، وإن كانت له شئعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يمكن ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضمه الزهاد ، فإن شرط التوكل في الزهد كاشطه أويس القرني رحمه الله ، فلا يكون هذا من الزهاد . وقلنا : إنه خرج من حد الزهاد نحي به أن ماود الزهادين في النار الآخرة من المقامات المحمودة لآيانه ، وإلا قسم الزهد قد لا يفارقه إلا ضيقة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة ، وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل ، وقد قال أبو سليمان : لا ينبغي أن يرق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ماشاء ؛ معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه . كل ذلك في عياله ، نعم لا ينبغي أن يحميم أيضا فيما يخرج عن حد الاعتدال ، وليتلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وطين ، لأن ذلك من الرينة لا من الحاجة ، فإذا ما يضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس محذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل ، والمقتصر على الضرورة دواء

نافع ، وما بينهما درجات متشابهة ، فما يجرب من الزيادة وإن لم يكن سماعاً فائلاً فهو مضر ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواءً نافلاً لكنه قليل الضرر والسقم يحظر شره ، والواء فرض تناوله ، وما بينهما مشبه أمره ، فمن احتاط فائماً يحاط لنفسه ، ومن تساهل فائماً يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يربيه إلى ما لا يربيه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرق الناجية لا عمالة . والمختصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن يلبس إلى الدنيا ، بل ذلك التقدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة الشروط . ويدل عليه ما روى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئاً فلم يقرضه ، فرجع مهموماً ، فأوحى الله تعالى إليه : لو سألت خليلك لأعطاك ، فقال : يارب عرفت مقتلك الدنيا نغفت أن أسألك منها شيئاً ، فأوحى الله تعالى إليه : ليس الحاجة من الدنيا . فإذا قدر الحاجة من الدين ، وما وراء ذلك وبال في الآخرة ، وهو في الدنيا أيضاً كذلك يعرفه من يغير أحوال الأغنياء وما عليهم من الحنّة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه ، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيما كرهه ، وربما يكونون أعداء له ، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معيناهم عليها ، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حياً ثم يروم الخروج فلا يجد غصلاً فيموت ويهلك بسبب عمله الذي غلبه نفسه ، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فائماً يحكم على قلبه بسلاسل تقيد به بما يشتبهه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيد المال والجاه والأمل والولد وشماتة الأعداء ورمامة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلا خطر له أنه قد أخطأ فيه قصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيداً بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ، ولو ترك مجرباً من عجايب باختياريه كاد أن يكون قاتلاً لنفسه وساعياً في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جبهده دفعة واحدة . فتنبى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي قاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا ، وغالب ملك الموت قد علقت بهروق قلبه تجذبه إلى الآخرة ، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كمنخص ينشر بالمشاء ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالجاذبة من الجانبين ، والذي ينشر بالمشاء إنما ينزل للمؤلم يدينه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره ، فما ظنك بألم يتمكن أولاً من صميم القلب خصوصاً به لا بطريق السراية إليه من غيره ، فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت الزوال في أهل عليين وجوار رب العالمين ، فبالزواج إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى ، وعند الحجاب تسلط عليه نار جهنم ، إذ التائر غير مسطرة إلا على محبوب . قال الله تعالى ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ ثم إنهم لصالو الجحيم ﴿ فترى المذاب بالنار على ألم الحجاب ، وألم الحجاب كاف من غير علالة النار ، فكيف إذا أضيفت العلالة إليه ؟ فنسأل الله تعالى أن يقر في أسماعتنا ما نشت في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قيل له : أحب من أحببت فأنك مفارقة ^(١) . وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر :

كدود كدود القز ينسج دائماً ويهلك غداً وسط ما هو ناجمه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن الببد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه : وفضوا الدنيا بالكلية ، حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدرياً كانوا فيما أحل الله لهم أزهق منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحاً منكم بالحسب والرخاء لو رأيتموهم قتلهم بجنان ، ولو راوا خياركم قالوا

(١) حديث : نشت في روع أحب من أحببت فأنك مفارقة ، تقدم .

ما هؤلاء من خلقي ، ولو وأدا اشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يمرض لهم المال الحلال فلا يأخذه ويقول : أخاف أن يفسد على قلبي ، فن كان له قلب فهو لا عمالة يخاف من فساد ، والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى (ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون) وقال عز وجل (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) . وقال تعالى (فأعرض عن تولي عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) ذلك ميلهم من العلم (فأحال ذلك كله على التفتلة وعدم العلم ، ولذلك قال رجل ليعسى عليه السلام : احملني معك في سياحتك ، فقال : أخرج مالك والحقني . فقال : لا أستطيع ، فقال عيسى عليه السلام : يجب يدخل الثني الجنة - أو قال بشدة - وقال بعضهم : ما من يوم ذو شارة إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات : ملكان بالشرق وملكبان بالمغرب ، يقول أحدهم بالشرق : يا باغي الخير هلم ، ويا باغي الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفاً وأعط ممسكا تلفاً . ويقول اللذان بالمغرب : أحدهما : إلهو للربوت وإيتوا للخراب . ويقول الآخر : كلوا وتمتعوا بطول الحساب .

بيان علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ؛ فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المذبح بالزهد ، فكم من الرهايين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا دبرا لأبواب له ، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظروهم إليه ومدحهم له ، فذلك لا يدل على الزهد دلائل قاطعة ، بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع ليس الأرواف الفاخرة والثياب الرقيقة ؛ كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال : وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يتهمون بذلك على الناس ليهدي إليهم مثل لباسهم ، ثلثا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيخفروا فيقطعوا كما تعطى المساكين ، ويحتجبون ثيابهم بأتباع العلم وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعملة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضائق ، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يدعوا بتصفية أسرارهم ولا بهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم فقلبتهم فادعوا حالاً لهم ، فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص رحمه الله ؛ فإذن معرفة الزهد أمر مشكل ، بل حال الزهد على الزاهد مشكل .

وينبغي أن يقول في باطنه على ثلاث علامات (العلامة الأولى) أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) بل ينبغي أن يكون بالصبر من ذلك : وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده (العلامة الثانية) أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه (العلامة الثالثة) أن يكون أنه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله ، وهما في القلب ككلام والهواء في القدح ، فلامه إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان ، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشغل بغيره ، ولذلك قيل لبعضهم : إلى ماذا أنسى بهم الزهد؟ فقال : إلى الأنس بالله ؛ فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان .

وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلق الإيمان بظواهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما ، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وبادره أبهى الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها ، ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام :

الهم إلى أسألك إني أياها يباشر قلبي .

وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه شغل عن الناس — وهذا مقام العاملين . ومن شغل بربه شغل عن نفسه — وهذا مقام المارفين . والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين ، ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم ، ولا يستدل بإمساكه قليلا من المال على فقد زهده أصلا .

قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان : أكان داود الطائي زاهدا ؟ قال : نعم . قلت : قد بلغني أنه ورت عن أبيه عشرين دينارا فأنفقها في عشرين سنة ، فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدينارين ؟ فقال : أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ، وأراد بالحقيقة الثابتة ، فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه ، وآخره أن يترك كل ماسوى الله حتى لا يتوسد حجرا كما فعله المسيح عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيبا وإن قل ، فإن أمثالا لا يستجري على الطمع في غايته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه . وإذا لاحظنا محاسن نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتماطله شيء فلا بد من أن ننظم السؤال اعتيادا على الجود الجاوز لكل كمال .

فإن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم ، وذلك لذلة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لعلالة : مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها .

وقيل : علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبني رباطا أو أعمر مسجدا .

وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد : السخاء بالموجود .

وقال ابن خفيف : علامته وجود الراحة في الخروج من الملك . وقال أيضا : الزهد هو عروف النفس عن الدنيا بلا تكلف .

وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم .

وقال يحيى بن حبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سري : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش الماروف إذا اشتغل بنفسه .

وقال الثوري بأذى : الزاهد غريب في الدنيا ، والماروف غريب في الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث : عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة . وقال أيضا الزاهد أنه يستطيع الخلق والخرذل ، والمعارف يمسكه للسلك والمنبر . وقال له رجل : متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأندم مع الزاهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تنصف في نفسك ، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضا : الدنيا كالمرس ومن يطلبها ماشطها والزاهد فيها يسبح وجهها ويتفشعها ويخرق ثوبها ، والماروف يشغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السري : مارست كل شيء من أمر الزهد فقلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإني لم أبلهه ولم أطفه .

وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشكره في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا .

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعبادة والجبروت . الرفع السهاد بغير عمد ، المقدر فيها أرزاق العباد . الذي صرف أعين ذوى القلوب والألباب ، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ، ووقع مهمهم عن الالتفات إلى ما عند الله والاعتماد على مدبر سواه ، فلم يبدوا إلا إياه علماً بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقاً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغى عندهم الرزق ، وأنه مامن ذرة إلا لئلا الله خلقها ، وما من حاجة إلا على الله رزقها ؛ فلما تحققوا أنه لربق عباده ضامن وبه كفيلاً توكلوا عليه فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

والصلاة على محمد قاض الأباطيل ، الهادي إلى سواء السبيل ، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

(أما بعد) فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات المؤمنين ، بل هو من معال درجات المؤمنين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل ، ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتقاد عليها شرك في التوحيد ، والتناقل عنها بالكفاية طعن في السنة وقدس في الشرع ، والاعتقاد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تغيير في وجه القتل ، وانفاس في غمرة الجهل ، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والثقل والشرع في غاية التمعن والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا بمسيرة العلماء الذين اكتشفوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعجاب مما شاهدوه من حيث استطقوا . ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ، ثم نردفه بالتوحيد في الشطر الأول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني .

بيان فضيلة التوكل

أما من الآيات ، فقد قال تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وقال عز وجل (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقال سبحانه وتعالى (إن الله يحب المتوكلين) وأعظم مقام موسوم بحجة الله تعالى صاحبه ، ومضمون كفاية الله تعالى ملائسه ، فإن الله تعالى يحب وكاليه وعبه ومراعيه : فقد فاز الفوز العظيم ، فإنَّ المحبوب لا يهذب ولا يهجم ولا يهجم . وقال تعالى (ليس الله بكاف عبيده) فطالب الكفاية من غيره والناظر للتوكل : هو المكذب لهذه الآية . فإنه سؤال في معرض استطلاق بالحق ، كقولته تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) وقال عز وجل (ومن يتوكل على الله فإن الله عزير حكيم) أي عزير لا يذل من استجار به ، ولا يضيغ من لاذجته والتجأ إلى

ذمائه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا مِثْلَ بَيْنِ أَخْبَنَ سَأَلَ مِنْهُ الْمَالُ فَوَعَدْتُهُ الْمَالُ فَأَتَى اللَّهَ فَغَنِيًّا ﴾ . وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَيَمَكُنَنَّ أَعْيُنُكَ عَلَى صُرُوفِهِمْ عِندَ اللَّهِ وَالرَّزْقَ يَأْتِيهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ . وقال عز وجل ﴿ وَفِي خُرَافَاتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ . وقال عز وجل ﴿ يَذَرُ الْأَمْرَ مَآمِنًا شَقِيقٌ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ . وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار .

وأما الأخبار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم فيها رواه ابن مسعود أريت الأمم في الموسم فرايت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبت كثيرهم وهياتهم ، فقيل لي : أَرْضَيْتَ ؟ قلت : نعم ، قيل : ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب . قيل : من هم يا رسول الله ، قال الذين لا يكتنون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى وجههم يتكلمون ، فقام عكاشة وقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم اجعله منهم ، فقام آخر فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : سبقك بها عكاشة ^(١) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تفتدونها مما يصا وتروح بطاناً ^(٢) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب : ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها ^(٣) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من سره أن يسكن أغنى الناس فليكن بما عند الله أوفى مما في يده ^(٤) ، ويروي عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا إلى الصلاة ، ويقول : بهذا أمرني ربي عز وجل ، قال عز وجل ﴿ وَأَمَّا أَهْلُكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ ^(٥) الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : لم يتوكل من استرقى واكتوى ^(٦) ،

وروي أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقدرى إلى النار بالمنجنيق : ألك حاجة ؟ قال : أما ليكفلا ، وقال بقله حسب الله ولهم الوكيل ، إذ قال ذلك حين أخذ امرئى ، فأزل الله تعالى ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود ، مامن عبد يتحصن في دون خلق فيسكده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً .

وأما الآثار . فقد قال سعيد بن جبير : لدغني عقرب فأقدمت على أمي لتدبرتين . فساوت الراقي يدي التي لم تلدغ .

(١) حديث ابن مسعود « أريت الأمم في الموسم فرايت أمتي قد ملأوا السهل والجبل ... الحديث » رواه ابن مبيح بإسناد حسن ، وافق عليه الشيفان من حديث ابن عباس .

(٢) حديث « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير » الحديث . أخرجه الترمذي والمالك وصحاه من حديث عمر ، وقد تقدم (٣) حديث « من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة » الحديث . أخرجه الطبراني في المعجم وابن أبي الدنيا ، ومن طريقه البيهقي في الشعب من رواية الحسن بن عمران بن حصين ولم يسمع منه ، وفيه إبراهيم بن الأشعث تسكتون إبراهيم بن أبي حمزة (٤) حديث « من سره أن يسكن أغنى الناس فليكن بما عند الله أوفى مما في يده » رواه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

(٥) حديث : كان إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا إلى الصلاة ، ويقول : بهذا أمرني ربي ، قال تعالى ﴿ وَأَمَّا أَهْلُكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ رواه الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حزمة عن عبد الله بن سلام قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الشيبان أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية . وعبد بن حزمة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه . (٦) حديث « لم يتوكل من استرقى واكتوى » أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في السكبر والطبراني واللفظ له ، إلا أنه قال : أو من حديث المنيرة بن شعبة ، وقال الترمذي « من اكتوى أو استرق فقد برئ من التوكل » وقال النسائي : ما توكل من اكتوى أو استرق .

وقرأ الخواص قوله تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) إلى آخره ، فقال : ما ينبغي العبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى منامه : من وثق بالله بما لا فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء : لا يشكك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تبال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك .
وقال يحيى بن معاذ : فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أنَّ الرزق ما مور بطلب العبد .
وقال إبراهيم بن آدم : سألت بعض الرهبان : من أين تأكل ؟ فقال لى : ليس هذا العلم عندى ولكن سأل ربى من أين يطعمنى ؟ .

وقال هرم بن حيان لأويس القرنى : أين تأمرنى أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام . قال هرم : كيف المعيشة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب قد غالتها الشك لا تنفعها الموعظة .
وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيفا وجدت إلى كل خير سبيلا . نسأل الله تعالى حسن الأدب .

بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من باب الإيمان ، وجميع أبواب الإيمان لا يمتثل إلا بعلم وحال وعمل ، والتوكل كذلك ينتظم من - علم هو الأصل - وعمل - هو الثمرة - وحال - هو المراد باسم التوكل .

فلنبداً ببيان العلم الذى هو الأصل وهو المسمى بإيمانا فى أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوى سمى يقينا ، ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما ينبغى عليه التوكل وهو التوحيد الذى يترجمه قولك (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) والإيمان بالقدره التى يترجم عنها قولك (له الملك) والإيمان بالجلود والحكمة الذى يدل عليه قولك (وله الحمد) فن قال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) ثم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه ، فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول ، وهو من علم المكاشفة ؛ ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم الممامة إلا بها ، فإذا نلتعرض لإلا القدر الذى يتعلق بالممامة ، وإلا فالتوحيد هو البحر الحظم الذى لا ساحل له ، فنقول .

للتوحيد أربع مراتب ، وينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر . وإلى قشر التشر . وننقل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضمنية بالجوهر فى قشره المليا فإن له قشرتين ، وله لب ، وللب دهن هو لب اللب ، فالرتبة الأولى من التوحيد : هى أن يقول الإنسان بلسانه (لا إله إلا الله) وقلبه غافل عنه أو منكره ككوحيد المنافقين . والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد الموم . والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام القشرتين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار . والرابعة : أن لا يرى فى الوجود إلا واحداً ، وهى مشاهدة الصديقتين وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضا ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان غالبا على نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فى عن رؤية نفسه والخلق ؛ فالأول موحد بمجرد اللسان ويعسم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان . والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه غافل عن التكذيب بما انفعده عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه الشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ولم تضف

بالمعاشي عقده ، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضييفه وتحليله تسمى بدعة ، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضييف ويقصد بها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما ، والمعروف به يسمى متكلما ، وهو في مقابلة المبتدع ومقصد دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام ، وقد يخص المتكلم باسم الموجد من حيث إنه يعمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تحمل عقده . والثالث موجد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا إذا انكشف له الحق كما هو عليه . ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه ، لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين ، إذ لم يفارق المتكلم المعنى في الاعتقاد بل في صفة تليق الكلام الذي به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة . والرابع موجد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد ، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد ؛ فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كالب ، والرابع كالدهن المستخرج من الب . وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مَرّ مذاق ، وإن نظر إلى باطنه فهو كره المنظر ، وإن اتخذ حطباً أطفال النار وأكثر الدخان ، وإن ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرى به عته فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن ؛ لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ؛ والقشرة السفلى هي القلب والبدن . وتوحيد السائق يصون بدنه عن سيف الغزاة فلنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده ، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون الب وتحرسه عن الفساد عند الإدخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطباً لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى الب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد لفظ اللسان نافع القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بالشرح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه ، إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى ﴿ فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وكما أن الب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عسارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد طال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق .

ه فإن قلت . كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحد وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة ؛ فكيف يكون الكثير واحداً ؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات . وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب ، فقد قال البارفون : إضفاء سر الربوبية كفر ، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة ، نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك يمكن . وهو أن الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار ، وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد ؛ فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد ، وكل من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمناه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه ، والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع ، والمثلث إلى الكثرة في تفرقه ، فكذلك كل مافي الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو باعتبار واحد من

الاعتبارات الواحدة ، واعتبارات أخرى سواء كثير ، وبعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الترض ولكنه يلبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم للمشاهدة واحدا ، ويستيقن بهذا الكلام ترك الإنسان والجود لمقام لم يلقه وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك . وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة وتوهم وتارة نظراً كالبرق الخاطف وهو الأكثر ، والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يقول في الأسفار فقال : فإذا أنت ؟ فقال : أدور في الأسفار لأصحح حالي في التوكل وقد كان من المتوكلين ؛ فقال الحسين : قد أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فأين الفناء في التوحيد ؟ فكان الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال .

• فإن قلت : فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه ؛ فأقول : أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه ، وليس التوكل أينما مبني عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث . وأما الأول وهو الاتفاق فواضح وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين ، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في عالم السلام ، وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذي يبنى عليه التوكل ، فلذلك منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمل أمثال هذا الكتاب . وحاصله : أن يتكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ووزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقير إلى غير ذلك مما يطلق عليه اسم الخلق لا يبداهه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه تمتك وعليه ابتكالك ، فإنه الفاعل على الأفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك أبواب الم Kashفة اتضح لك هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصعد الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغى به أن يترك إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثاني الالتفات إلى الجمادات ، أما الالتفات إلى الجمادات فسكاعتادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى النسيم في تولد المطر ، وعلى البرد في اجتماع النسيم ، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها ؛ وهذا كله شرك في التوحيد وجعل بمقتضى الأمور ، ولذلك قال تعالى ﴿ فإذا ركعوا أو قاموا دعا الله عيسى له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ قيل : معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجاهمنا . ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه عالم يحركه محرك ، وكذلك محركه ، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا يحركه ولا هو متحرك في نفسه عز وجل ؛ فاللغات البعد في النجاة إلى الريح ينشأ التفات من أخذ لتحر رقبته . فكتب الملك ترويعاً بالعفو عنه وتغليته ، فأخذ يشتغل بذكر الجبر والكافد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول : لولا القلم لما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل . ومن علم أن القلم لا يحركه في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب ، بل ربما يدمعه فرح التجاوز وشكر الملك والكاتب من أن يحظر بيانه القلم والجبر والدواة والشمس والقمر والتجوم والمطر والنسيم والأرض ، وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كفسخ القلم في يد الكاتب ، بل هذا تمثيل في جفك اعتقادك أن الملك

المرجع هو الكتاب التوقيع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فإذا انكشف لك أن جميع مافي السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان عائدا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأناك في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأعمال الاختيارية ويقول : كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقه باختياره ، فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذي يحرق قلبك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حرقه وإن شاء عفا عنك ، فكيف لا تخافه ، وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تفكر فيه ، ويقول له أيضا نعم إن كنت لأرى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ، وعند هذا زل أقدام الأكثرين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان الذين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما شاهد جميع الضملاء كون القلم مسخرا ، وعرفوا أن غلط الضملاء في ذلك كغلط الله مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ، ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للياض ، وذلك لتصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدتها ، فكذلك من لم يشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام فصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض ، بل أبواب القلوب والمجاهدات قد أفلط الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها فلق كل شيء حتى سمعوا تهديسها وتسيبها قه تعالى ومهادتها على نفسها بالبحر بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزلون ، ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يماز بالأصوات ، بل الحار شريك فيه ، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم ، وإنما أريد به سمعها يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي .

فلن قلت : فهذه أعجوبة ما يقبلها العقل ففصل كيفية لفظها وأنها كيف لفظت وماذا لفظت ، وكيف منحت وقدرت ، وكيف شهدت على نفسها بالبحر ؟ فاعلم أن لكل ذرة في السماوات والأرض مع أبواب القلوب مناجاة في السر ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فلأنها لكلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر ﴾ الآية ، ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر لزم ، بل صدور الأحرار قيود الأسرار ، وهل رأيت قط أمينا على أسرار ملك قد نوحى بغفائه فتأدى بسره على ملائكة الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا »^(١) ، بل كان يذكر ذلك لهم حتى يكونون ولا يضحكون . ولما نهى عن إفشاء سر القدر^(٢) ولما قال « إذا ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا »^(٣) ، ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار^(٤) . فلن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أبواب المشاهدات مائنان (أحدهما) استحالة إفشاء السر (والثاني) خروج كلماتها عن المحصر والنهاية ، ولكنا في المثال الذي كنا فيه - وهي حركة القلم -

(١) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ... الحديث » تقدم غير مرة (٢) حديث النهي عن إفشاء سر القدر : رواه ابن عدى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر « القدر سر الله فلا تفشوا أنه عز وجل سره » لفظ أبي نعيم ، وقال ابن عدى « لا تسلكوا في القدر فإنه سر الله الحديث » وهو ضيف . وقد تقدم .

(٣) حديث « إذا ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث » أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء ، وهم في التلم (٤) حديث : أنه خص حذيفة ببعض الأسرار ، تقدم .

نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ؛ وزد كتابها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن حروفا وأصواتا ، ولكن هي ضرورة التفهم فنقول : قال بعض الساطرين عن مشكاة نور الله تعالى للكائد وقد رآه أسود وجهه الجابر : ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد ؟ فلم سودت وجهك ؟ وما السبب فيه ؟ فقال الكائد : ما أنصفتني في هذه القالة ! فإني ماستدت وجهي بنفسى ولكن سل الجبر فإنه كان مجموعا في الحيرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا ! فقال : صدقت ، فقال الجبر عن ذلك ؟ فقال : ما أنصفتني فإني كنت في الحيرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها ، فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد ، واختطفني من وطني وأجلائي عن بلادى وفرق جمعى وبدنى كما ترى على ساحة بيضاء ، فالسؤال عليه لاعل ! فقال صدقت ، ثم سأل القلم عن السبب في ظله وعدوانه وإخراج الجبر من أوطانه فقال : سل اليد والأصابع فإني كنت قصبا نابتا على شط الأهار منتزها بين خضرة الأنهار ، لجأته اليد بسكين فنجت عنى فشرى ومزقت عنى لبابى واقتلعتنى من أصلى وفصلت بين أنابى ، ثم برتني وشقت رأسى ، ثم غشمتنى في سواد الجبر ومرارته وهى تستخدمنى وتمشي على قة رأسى ، ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك ، فتشع عنى وسل من فهري ، فقال : صدقت ، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد : ما أنا إلا لآلحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه ؟ وإنما أنا مركب مسخر ركنى فارس يقال له القدرة والعزة ، فهى التى ترددنى ، وتجول فى فى نواحي الأرض ، أما ترى للدر والحجر والشجر لايتعدى شئ منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر ، أما ترى أيدى المولى تساوينى في صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينهما وبين القلم ، فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بينى وبين القلم ، فهل القدرة عن شأنى فإني مركب أزجى من ركنى ، فقال صدقت ، ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت : دع عنك لومى وممانيتى ، فكم من لائم لوم ، وكم من لوم لا ذنب له ، وكيف خفى عليك أسرى ؟ وكيف ظننت أنى ظلمت اليد لما ركبنا وقد كنت لها ركة قبل التحريك ، وما كنت أحركها ولا استسخرها ، بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون أنى ميتة أو معدومة ، لأنى ما كنت أمحرك ولا أحرك حتى جاءنى موكل أزجى وأرهقنى إلى ما تراه منى ، فكانت لى قوة على مساعدته ، ولم تكن لى قوة على مخالفته ، وهذا الموكل يسمى الإرادة ، ولا أعرفه إلا باسمه وهجرته وصياله ، إذ أزجى من غمرة النوم وأرهقنى إلى ما كان لى مندوحة عنه لو خلانى ورأى ، فقال : صدقت ، ثم سأل الإرادة ما الذى جزأك على هذه القدرة الساكنة المطمئة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهابا لم تجد عنه خلاصا ولا مناصا ، فقالت الإرادة : لا تميل على فعلل لنا عذرا وأنت تلوم ، فإني ما انتهضت بنفسى ولكن انتهضت وما ابشت ولكنى بشت بصمك فاهر وأمر جازم ، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن وود على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأغصتها باضطراب فإني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا أدري بأى جرم وقعت عليه وسخرت له وألزمت طاعته ، لكنى أدري أنى فى دعة وسكون ما لم يرد على هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقعت عليه وألزمت طاعته إزاما ، بل لا يبقى لى معه مجرم حكمه طاعة على المخالفة ، لعمري مادام هو فى التردد مع نفسه والنحيب فى حكمه ، فأنا ساكنة لكن مع استئثار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه أزجيت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فهل العلم عن شأنى ودع عنى عتابك ،

فلنرى كما قال القائل :

مَنْ تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَّرُوا أَنْ لَا تَفَارِقَهُمْ فَلَا حِلَّ لَهُمْ

فقال صدقت، وأقبل على العلم والعقل والتقلب مطالبا لهم ومما بناه لإمام على استبصار الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة ، فقال العقل : أما أنا فصرّاج ما اشتعلت بنفسى ولكن اشتعلت ، وقال القلب : أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت ، وقال العلم : أما أنا فنقش نقشت في يياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخبطت بنفسى ، فكأن هذا اللوح قبل خاليا عني ، فسل القلم عني لأن الخط لا يكون إلا بالقلم ، فعند ذلك تمتنع السائل ولم يقنعه جواب وقال : قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازل ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكن كنت أظن نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا لا في الفؤاد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال : فأما قولك : إنني خط ونقش ، وإنما خطي قلم فقلت أفهمه فلنني لا أعلم فلما إلا من القصب ، ولا لرحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالحبر ، ولا سراجا إلا من النار ، وإنني أسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا : أسمع جعجعة ولا أرى طحنا : فقال له القلم : إن صدقت فيما قلت فبضاعتك من جنة وزادك قليل ومركبك ضعيف ، واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة : فالصواب لك أن تصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك ، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له ، وإن كنت راغبا في استتمام الطريق إلى المقصد فأنت سمكة وأنت شهيد . واعلم أن الدوام في طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولاها ، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثاني عالم الملكوت وهو ورأى ؛ فإذا جاوزتني انتهيت إلى منزله وفيه للمهابة التيسر والجلال الشاهقة والبحار للفرقة ، ولا أدري كيف تسلم فيها ، والثالث هو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ، ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أرواحها منزلة القدرة والإرادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ؛ لأن عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه منهجا ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء ، فلا هي في حد اضطراب الماء ، ولا هي في حد سكون الأرض وثبوتها ، وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة ؛ فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان يمشي في عالم الجبروت ؛ فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تمتنع ؛ وإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وغلظت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي ، وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء ، أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام : لو ازداد يقينا لمشى على الهواء (١) ، لما قيل له إنه كان يمشي على الماء ، فقال السالك السائل : قد تحيرت في أمرى واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدري أطيع قطع هذه المهامة التي وصفها أم لا ؟ فهل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، أنتج بصرك واجمع ضوء عينيك وحققه نحو فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فينبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه ﴿ اقرأ وربك

(١) حديث : قيل له إن عيسى يمشي على الماء ، قال : لو ازداد يقينا لمشى على الهواء « تقدم »

الأكرم • الذي علم بالعلم • علم الإنسان ما لم يعلم) فقال السالك : لقد فتحت بعزى وحدته ، فو الله ما أرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك ، فقال العلم : لقد أبعدت النجسة ، أما سمعت أن متاع البيت يبه رب البيت ، أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الدورات ، فكذلك لا تشبه يده الأبدى ولا قلبه الأقاليم ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط ، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت ، فليس الله تعالى في ذاته جسم ولا هو في مكان بخلاف غيره ، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأبدى ، ولا قلبه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولا خطه رقم ووسم ، ولا حجره زاج وغصص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا عشتا بين حولة التنزيه وأثره التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا هؤلاء ، فكيف نهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ؟ ونهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلبه ولوحه وخطه ؟ فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق آدم على صورته ، الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكأن مشبها مطلقا ، كما يقال : كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلبس بالتوراة ، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالابصار فكأن منوها صرفا ومقتسا خلا ، واطو الطريق فإنك بالوارد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فليكن تجمد على النار هدى ، ولعلك من سرادات العرش تتادى بما نودى به موسى (إني أنا ربك) فلما سمع السالك من العلم ذلك استنصر قصور نفسه وأبه عتقت بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيتة الذي في مشكاة قلبه يسكب دغى ولم تمسه نار ، فلما انقش فيه العلم بجذته اشتعل زيتة فأصبح نورا على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجمد على النار هدى ، ففتتح بصره فانكشف له القلم الإلهي ، فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه : ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم ، وكان له في كل قلب رأسا ولا رأس له ، فغضى عنه العجب وقال : نعم الرفيق العلم ، لجواه الله تعالى حتى خيرا ، إذ الآن ظهر لي صدق أنبيائه من أوصاف القلم : إني أراه قلما لا كالأقلام ؛ فمتد هذا ودع العلم وشكره وقال : قد طال مقامى عندك وراحت لك ، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه ، فسافر إليه وقال له : ما بالك أيها القلم تخط على العوام في القلوب من الصلوم ما تبعث به الإرادات إلى إغصاص القدر وصرفها إلى المقصورات ؟ فقال : أود قد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سأله فأسألك على اليد ؟ قال : لم أنس ذلك . قال : لجوابي مثله جوابه . قال : كيف وأنت لا تشبهه ؟ قال القلم : أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ قال نعم . قال فصل عن شأنى للقلب يمين الملك فاني في قبضته ، وهو الذى يردنى وأنا مقهور مسخر ؛ فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الأبدى في معنى التنخير ، وإنما الفرق في ظاهر الصورة . فقال : فن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى (والسماوات مطويات بيمينه) ؟ قال : نعم . قال : والأقلام أيضا في قبضة يمينه هو الذى يرددها ، فسافر السالك من عنده إلى العيين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه ، بل لا يحوى مجلدات كثيرة عشر عشر وصفه ، والجلية فيه أنه يمين لا كالإيمان ، ويد لا كالأبدى ، وأصعب لا كالأصابع ؛ فرأى القلم عذرا في قبضته ، فظهر له عذر القلم ، فسأل العيين عن شأنه وتحريك القلم ؟ فقال : جوابي مثل ما سمعته من العيين التي رأيته في عالم الشهادة وهي الحسالة على القدرة ، إذ اليد لا جكم لها في نفسها وإنما

عزحك القدرة لاجلها ، فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استعجز عنه ما قبله وسأله عن تحريك العين فقالت : إنما أنا صفة فأسأل القادر ، إذ العدة على الموصفات لاجل الصفات ، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادات الحضرة ﴿ لا يستل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ فنشيت هيبنة الحضرة ، نحر صمعا يضطرب في غشيتة ، فلما أفاق قال : سبحانك ما عظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ، وما لي إلا أن أسألك وأنضرع إليك وأبهتل بين يديك ، فأقول : اشرح لي صدري لأعرفك واحلل عقدة من لساني لأتني عليك ؛ فنودى من وراء الحجاب : إياك أن تطمع في الثناء وتزد على سيد الانبياء ، بل أرجع إليه فإ آتاك غنمه وما نهاك عنه فانته عنه ، وما قاله لك فقله ؛ فإنه ما زادني هذه الحضرة على أن قال : سبحانك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ^(١) . فقال : ألمى ، إن لم يكن لسان جرأة على الثناء عليك فهل القلب مطمع في معرفتك ، فنودى : إياك أن تتعطلى رقاب الصديقين ، فأرجع إلى الصديق الأكبر فافتد به ؛ فإن أصحاب سيد الانبياء كالنجوم بأهم اقتديتم اهتديتم ، أمامته يقول : المعجز عن درك الإدراك إدراك ؛ فيكتبك نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جلالنا وجلالنا ؛ فندد ذلك رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعايبه وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بهما : اتقوا عذرى فإنى كنت غريبا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة ، فما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل ، والآن قد صبح عهدي صديقكم وانكشف لي أن المنفرد بالملك والملكوت والسمة والجبروت هو الواحد القهار ، فما أنتم إلا مستخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون قبضته وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ؛ فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له : كيف يكون هو الأول والآخر وهما وصفان متناقضان ، وكيف يكون هو الظاهر والباطن ؛ فالأول ليس بآخر ، والظاهر ليس بباطن ؛ فقال : هو الأول بالإضافة إلى الموجودات ، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر بالإضافة إلى سائر السائر إليه فلم يسم لابرارون مترفين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة ، فيكون ذلك آخر السفر ، فهو آخر في المشاهدة أول في الوجود ، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبيين لإدراكه بالحواس الخمس ، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت ، فهذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل : أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد .

هـ فإن قلت : قد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يثبت على الإيمان بعالم الملكوت ، فمن لم يفهم ذلك أو يمجده فسا طريقه ؟ فأقول : أما المجاهد فلا علاج له إلا أن يقال له : إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس ، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس ، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فإن قال : وأنا منهم فإنى لا أعتدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال : إنكارك لما شاهدناه بما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس ، فإنهم قالوا : ما نراه لا نثق به ، فقلنا نراه في المنام . فإن قال : وأنا من جملتهم فإنى شاك أيضاً في

(١) حديث : سبحانك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . تقدم .

المحسوسات فيقال : هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه ، فيترك أيا ما فاعلا ، وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء : هذا حكم الجاحد . وأما الذي لا يصدق ولكن لا يفهم ، فطريق السالكين معه أن يظنوا إلى عبته التي يشاهد بها عالم الملكوت ، فإن وجدوها صحيحة في الأصل وقد زل فيها ما أسود يقبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتفتيته اشتغال الكحال بالابصار الظاهرة ، فإذا استوى بصره أروشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه ؛ فإن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذوات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلوه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضن فهمه فإن في عالم الشهادة أيضاً توحيدا ، إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين ، والبلك يفسد بأعيرين ، فيقال له على حد عقله . إله العالم واحد والمدير واحد ، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فيكون ذلك على ذوق مارآء في عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله ، وقد كاف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عاداتهم في المحاورة .

هـ فإن قلت : فكل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلافه ؟ فأقول : نعم ؛ فإن الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يصفى ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالباً ، ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه ، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرسه بالعقيدة التي تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بيته . وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحاً ، كما أن الذي يرى إنساناً في وقت الإسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحاً في تفصيل خلقته ، وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري ؛ فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكثرثوا بقول فرعون (لا أظنن أيديكم وأرجلكم من خلاف) بل (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) فإن البيان والكشف يمنع التنبير وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر التعبان ، فلما فظروا إلى بحل السامري وسمخوا خواره تنبروا وسمخوا قوله (هذا الحكم وإله موسى) ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ؛ فكل من آمن بالنظر إلى إيمان بكفر لأحالة إذا فطر إلى بحل ، لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كبير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا نجد فيه اختلافاً وتضاداً أصلاً .

وإن قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات ، وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الإنسان فإنه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء ، فكيف يكون مسخراً ؟ فأقول أنه لو كان مع هذا إيمان أن أراد أن يشاء ، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء ، لكان هذا منزلة القدم وموقع الغلط ، ولكن علم أنه يفعل ما يشاء وإذا شاء إن يشاء أم لم يشاء فليست المشيئة إليه ، إذ لو كانت إليه لاقتضت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية ، وإذا لم تكن إليه المشيئة فبما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند المحزوم المشيئة . فالمشيئة متحدت ضرورة في القلب . فهذا ضرورات ترتب بعضها على بعض . وليس العبد أن يدفع ويجرد المشيئة ولا انصراف

القدرة إلى القدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بحث للشيئة للقدرة ، فهو مضطر في الجميع
فإن قلت : فهذا جبر عرص والجبر يناقض الاختيار ، وأن لا تنسرك الاختيار فكيف يكون مجبوراً؟ أقول :
لو انكشف النطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور ، فهو إذن مجبور على الاختيار . فكيف يفهم هذا من لا يفهم
الاختيار فلفشر الاختيار لسان للتكلمين شرحاً وجيزاً يليق بما ذكر متطفاً وتامياً فإن هذا الكتاب لم يقصد به إلا
علم للعامة ، ولكفى أقول لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه ، إذ يقال : الإنسان يكتب بالأصابع
ويتنفس بالرئة والحجرة ويغرق الماء إذا وقف عليه بحسبه فينسب إليه الحرق في الماء والتنفس والكتابة ، وهذه
الثلاثة في حقيقة الاضطراب والجبر واحدة ، ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات :
ففسى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعياً ، ونسبى تنفسه فعلا إرادياً ، ونسبى كتابته فعلا اختياريّاً ،
والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح الهواء انغرق الهواء لا محالة
وقد يكون الحرق بعد التخطي ضرورياً ، والتنفس في معناه فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق
الماء إلى ثقل البدن ؛ فهما كان الثقل موجوداً وجد الانخراق بعده ، وليس الثقل إليه ، وكذلك الإرادة ليست إليه ،
وإنك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطراباً ، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أنّ تغميض
الأجفان اضطراباً فعل إرادياً ، ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض
ضرورة ، وحدثت الحركة بها ، ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة ، فقد اتضح هذا
بالفعل الطبيعي في كونه ضرورياً . وأما الثالث - وهو الاختيار - فهو مظنة الاتباس كالكتابة والنطق ، وهو الذي
يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وتارة لا يشاء ؛ فيظن من هذا أنّ الأمر إليه ، وهذا للجهل بمعنى
الاختيار فلنكشف عنه ويانه : أنّ الإرادة تبع العلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك ، والأشياء تنقسم إلى ما تحكم
مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد ، وإلى ما قد يتردد العقل فيه ؛ فأدى تقطع به من غير
تردد أن من يقصد عينك مثلاً بإبرة أو بدلك بسيف ، فلا يكون في قلبك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق ، فلا جرم
تبعيت الإرادة بالعلم . والقدرة بالإرادة ، وتحصل حركة الأجفان بالدفع ، وحركة البد بدفع السيف ولكن من غير روية
وفكرة ، ويكون ذلك بالإرادة ، ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج إلى
روية ففكر حتى يميز أن الخير في الفعل أو الترك ، فإذا حصل بالفكر والرؤية العلم بأن أحد ماخير التحق ذلك بالذي يقطع
به من غير روية ففكر ، فانبثت الإرادة هناك كانبثت لدفع السيف والسنان ؛ فإذا انبثت لفعل ما ظهر للعقل
أنه خير سميت هذه الإرادة اختياريّاً مشتقاً من الخير ، أي هو انبثت إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك
الإرادة ، ولم ينتظر في انبثاتها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه ، إلا أن الخيرية في دفع
السيف ظهرت من غير روية بل على البدئية وهذا افتقر إلى الروية ، فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي
انبثت بإشارة العقل فباله إدراكه توقف ، وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه لتتيسر بين خير الخيرين وشر
الشرين ، ولا يتصور أن تبعيت الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان
أن يميز ربة نفسه مثلاً لم يمكنه لا لعدم القدرة في اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الفاعلية المشخصة للقدرة
ولمّا فقدت الإرادة لأنها تبعيت بحكم العقل أو الحسن يكون الفعل موافقاً ، وقتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه
مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلة لا نفاق ؛ فإن العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد؛ لأن

تردده بين شر الشرين ؛ فإن ترجع له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه ، كالتى يتبع بالسيف القتل فإنه يرى بنفسه من السطح مثلاً وإن مهلكاً ولا يبال ولا يمكنه أن لا يرى نفسه ، فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرى فوقت أعضائه فلا يمكنه أن يرى نفسه ولا يثبت له داعية البتة ، لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس ، والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدور ، فإنما هو محل ويجرى لهذه الأمور ، فأما أن يكون منه فسكلاً ولا ، فإذا معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لانه ، ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل غيراً محضاً موافقاً للحكم أيضاً جبراً فإذا هو مجبور على الاختيار ، ففعل النار في الإحراق مثلاً جبر محض ، وفعل الله تعالى اختيار محض ، وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار ، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة ، لأنه إما كان فنا ثالثاً واتصافه بكتائب الله تعالى فسوءه كسباً وليس منافقاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه ، وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تغيير وتردد ، فإن ذلك في حقه محال ، وجميع الألفاظ المذكورة في النكات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز ، وذكر ذلك ليلين بهذا العلم ويطول القول فيه .

• فإن قلت : فهل يقول إن العلم ولد الإرادة ، والإرادة ولدت القدرة ، والقدرة ولدت الحركة ، وأن كل متأخر حدث من المتقدم ؟ فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لامن قدرة الله تعالى ، وإن أبيت ذلك فاعنى ترتب البعض من هذا على البعض فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض ، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذى يعبر عنه بالقدرة فالأزلية ، وهو الأصل الذى لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون في السلم فإنهم وقفوا على كنه معناه ، والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيهه بقدرة ما وهو بعيد عن الحق ، وبيان ذلك يطول ، ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد عمل الحياة ، وكذا لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ، ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للامة وبعضها لم يظهر إلا للنخاس المكاشفين بنور الحق وإلا فلا يقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق والزوم ، وكذلك جميع أفعال الله تعالى ، ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهى فعل الجانين - تعالى الله عن قول الجاهلين علواً كبيراً . وإلى هذا أشار قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما لآعين . ما خلقتناهما إلا بالحق ﴾ فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث ، وعلى هذا الترتيب الذى وجد لما تأخر متأخر إلا لانتظار شرطه ، والمشروط قبل الشرط محال ، والمحال لا يوصف بكونه مقدوراً ، فلا يتأخر العلم عن التطفة إلا لانتظار شرط الحياة ، ولا يتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم ، وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ، ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق ، بل كل ذلك بحكمة وتدبير ، وتفهم ذلك صعب ، ولكننا نعرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثلاً يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة ، وذلك بأن

نقدر إنساناً محدثاً قد انغمس في الماء إلى رقبته ، فالحديث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرافع وهو ملاقيه ، فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للقدورات متعلقة بها ملاقاته الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظاراً للشرط وهو غسل الوجه ، فإذا وضع الرأف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث ، فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث حقيقه ، إذ يقول : كان الماء ملاقياً ولم يكن رافعاً والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل ، بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه ، فإذا غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل بضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والإرادة والإرادة بالملم ، وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاق لها لا بفضل الوجه ، والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيها شيء ، ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة ، فهكذا يلغى أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة ، وهذا فرع باب آخر لعالم آخر من عوالم الماكشافات ، فلترك جميع ذلك فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل ، فإن الفاعل بالحقيقة واحد فهو الخوف والمرجوع وعليه التوكل والاعتماد ، ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا فطرة من بحر المفاهيم الثالث من مقامات التوحيد ، واستيفاء ذلك في عمر نوح حال ، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه ، وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله ، وما أخف مؤثته على اللسان ١ وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظة على القلب ١ ما أعر حقيقته ولبه عند العلماء الراغبين في العلم فكيف عند غيرهم .

هـ فإن قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع : ومعنى التوحيد : أن لا فاعل إلا الله تعالى ؛ ومعنى الشرع لإتيان الأفعال للعباد ؛ فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله تعالى فاعلاً ؟ وإن كان الله تعالى فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً ؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟ فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان الفاعل معنى واحداً ، وإن كان له معنيين ويكون الاسم مجعلاً مردداً بينهما لم يتناقض ، كما يقال : قتل الأمير فلان ، ويقال : قتله الجلاد ، ولكن الأمير قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر ، فكذلك العبد فاعل بمعنى ، والله عز وجل فاعل بمعنى آخر ؛ فمضى كون الله تعالى فاعلاً أنه المخترع للوجد ، ومعنى كون العبد فاعلاً أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم ، فارتبطت القدرة بالإرادة ، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط ، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلوم بالعلّة وارتباط المخترع بالمخترع ، وكل ماله ارتباط بقدرة فلان محل القدرة يسمى فاعلاً له كيفاً كان الارتباط ، كما يسمى الجلاد قاتلاً والأمر قاتلاً ؛ لأن القتل ارتباط بقدرتها ولكن على وجهين مختلفين ، فذلك سمي قاتلاً لها ، فكذلك ارتباط القدورات بالقدورين ، ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى للأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ، ونسبها لبعينها مرة أخرى إلى نفسه ، فقال الله تعالى في الموت (قل يتوفاكم ملك الموت) ثم قال عز وجل (إله يتوفى الأنفس حين موتها) وقال تعالى (أنفأيت ما تمحرون) أضاف إلينا ثم قال تعالى (أنا صبينا الماء صبائهم شققنا الأرض شقاً فأبنتنا فيها حبا وعينا) وقال عز وجل (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سواي) ثم قال تعالى (فنفخنا فيها من روحنا) وكان النافع جبريل عليه السلام ، وكما قال تعالى (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) قيل في التفسير : معناه إذا قرأه عليك جبريل . وقال تعالى (فانظروهم يعذبهم الله بأبديةكم) فأضاف القتل إليهم والتمذيب إلى نفسه ، والتمذيب هو عين

القتل ، بل صرح وقال تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) وقال تعالى (وما رميت إلا ما رميت ولكن الله رمى) وهو جمع بين التني والإيجابيات ظاهرا ، ولكن معناه : وما رميت بالمتى الذى يكون الرب به راميا إذ رميت بالمتى الذى يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى (الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) ثم قال (الرحمن علم القرآن) وقال (عله البيان) وقال (ثم إن علينا بيانه) وقال (أفأرأيتم ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه ثم نحن الخالقون) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام ، إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا ، فيقول ، يارب ، أذكر أم أنثى ، أسوى أم معوج ؟ فيقول الله تعالى ما شاء ويخلق للملك ^(١) ، وفي لفظ آخر ، ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسادة أو بالشفاعة . وقد قال بعض السلف : إن الملك الذى يقال له الروح هو الذى يولج الأرواح في الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ، ولذلك سمي روحا ، بما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاعده أرباب القلوب ببصائرهم ، فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالثقل والحكم به دون الثقل تخمين مجرد ، وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الآلة والآيات في الأرض والسموات ، ثم قال (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) وقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو) فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة ، فكيف من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكيف من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم : عرف ربى بربى ، ولولا ربى لما عرف ربى ، وهو معنى قوله تعالى (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيى والمميت ، ثم فوض للموت والحياة إلى ملكين ، ففي الخبر : أن ملك الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة : أنا أحى المرقى ، فأوحى الله تعالى إليهما : كونتا على علمكما وما تحكما لكما من الصنع ، وأنا المميت والمحى لا يميت ولا يحيى سواى ^(٢) ، فإذا القم يستعمل على وجوه مختلفة فلا يتناقض هذه للمعاني إذا فهمت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الذى ناوله التمرة : خذها ، لو لم تأتها لأنتك ^(٣) ، أضاف الإيمان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أن التمرة لا تأتى على الوجه الذى يأتى الإنسان إليها ، وكذلك لما قال التائب : أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد ، فقال صلى الله عليه وسلم : عرف الحق لأهله ^(٤) ، فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذى عرف الحق والحقيقة ، ومن أضافه إلى غيره فهو المتجاوز والمستعير في كلامه ، وللتجاوز وجه كما أن للحقيقة وجهها ، واسم الفاعل وضنه واضع اللغة للضريح ، ولكن ظن أن الإنسان متزعزع بقدرته فسأه فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق ، وتوهم أن نسبه إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبه إلى الجلال ، فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالمكس

(١) حديث : وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا ... الحديث ، رواه البزار وابن عدى من حديث عائشة . أن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الحق يبت ملكا فيدخل الرحم فيقول : يارب ماذا ... الحديث ، وفي آخره : فأنشئ لا وهو يخلق منه في الرحم ، وفي سنده جهالة . وقال ابن عدى : إنه منكر ، وأصله منق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه . (٢) حديث : أن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة أنا أحى الأموات ، فأوحى الله إليهما : أن كونتا على علمكما ... الحديث ، لم أجده أصلا . (٣) حديث : قال الذى ناوله التمرة : خذها لو لم تأتها لأنتك . أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل ابن شرحبيل ، ورواه الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجاله الصحيح . (٤) حديث أنه قال الذى قال لأبوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد ، عرف الحق لأهله ، تقدم في الزكاة .

وقالوا : إنَّ الفاعل قد وضعته أيها الفتوى للمخترع فلا فاعل إلا الله ، فالاسم له بالحقيقة ولغيره باليجاز : أى تتجزئ به عما وضعه الفتوى له ، ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصدا أو انهماكا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « صدق بيت قاله الشاعر قول لبيد : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » (١) ، أى كل ما لا قوام له بنفسه - ولما قوامه بغيره - فهو باعتبار نفسه باطل ، وإنما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه ، فإذا لاحق بالحقيقة إلى الحى القيوم الذى ليس كئله شيء ، فإنه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته ، فهو الحق وما سواه باطل ، ولذلك قال سهل : ياهسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون ، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا : كن الآن كما لم تكن فإنه اليوم كما كان .

فإن قلت : فقد ظهر الآن أن الكل جبر ، فما معنى الثواب والعقاب والفضب والرضا ، وكيف غضبه على فعل نفسه ؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلا نطول بإعادته ، فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة ، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب ، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الأسباب ، ولا يتم حال التوكل كما سيأتى إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل ، وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه فطول ، فلنذكر حاصله ليعتده الطالب لقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه . وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كله على عقل أعظمهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلهم على أسرار الملكوت وعزهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ، ثم أمرهم أن يذروا الملك والمملوك بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يراد فيها دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ، ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن ينقص منها ذرة ، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرر عن بل به ، ولا أن يزال حبة أو كمال أو غنى أو نفع عن أنعم الله به عليه ، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور ، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن ومجز وفقر وإيمان وكفر وطاعة ومعصية ، فكله عدل محض لا جور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالتدريج الذى ينبغي ، وليس في الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكل ولو كان وادخره مع القدرة ولم ينتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الإلهية ، بل كل فقر وضرر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره ، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما تمتع الأصحاء بالصحة ، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة ، وكأن فناء أرواح الإنس بأرواح البهائم وتسلطهم على ذبحها ليس بظلم ، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل ، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران ، وفداء

(١) حديث : « صدق بيت قاله العرب بيت لبيد : * ألا كل شيء ما خلا الله باطل * » متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قاله الشاعر : « ول رواية لسهل : « أشرك كل تكلمت بها العرب » .

أمل الإيمان بأهل الكفران عين العدل ، وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس ، فإنَّ الكمال والنقص يظهر بالإضافة ، فنقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا ، وكأنَّ قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص ، فكذلك الأمر في التفاوت الذى بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة ، فكل ذلك عدل لاجور فيه وحق لاملب فيه ، وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الاطراف مضطرب الامواج قريب في السمة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سر القدر الذى يحير فيه الاكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون .

والحاصل أنَّ الخير والشر مقضى به ، وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره ، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

ولتقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل ، ولترجع إلى علم المماملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الشرط الثاني من الكتاب

في أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل ، وبيان ما قاله الشيخون في حد التوكل ، وبيان التوكل في الكسب للبغداد والمميل ، وبيان التوكل بقدر الادخار وبيان التوكل في دفع المضار ، وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوى وغيره ، والله الموفق برحمته .

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أنَّ مقام التوكل ينتظم من : علم ، وحال ، وعمل . وذكرنا العلم .

فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه ، وإنما العلم أصله والعمل ثمرة ، وقد أكثر الخائفون في بيان حد التوكل واختلقت عباراتهم ، وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ، ولا فائدة في النقل والإكثار ، فلنكشف الغطاء عنه ونقول :

التوكل مشتق من الوكالة ، يقال : وكل أمره ، إلى فلان أى فوضه إليه واعتمد عليه فيه ، ويسمى الموكل إليه وكليلا ، ويسمى المفوض إليه متوكلا عليه ومتوكلا عليه معها اطمأنات إليه نفسه ووثق به ولم يهتم فيه بتقصير ولم يمتنع فيه عجزا وقصورا ، فالتوكل عبارة عن اعتياد القلب على الوكيل وحده . ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلا فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتليبس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التليبس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ، ومنتهى القوة ، ومنتهى النصاحة ، ومنتهى الشفقة . أما الهداية فليعرف بها موانع التليبس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلا . وأما القدرة والقوة فليستجري على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن ، فإنه ربما يطلع على وجه تليبس خصمه فيمنه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به : وأما النصاحة فهي أيضا من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الانصاح عن كل ما استجر القلب عليه وأشار إليه : فلا كل عالم بموانع التليبس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التليبس : وأما منتهى الشفقة فيكون باعثا على بذل كل ما يتدر

عليه في حقه من الجهد ، فإن قدرته لا تفتى دون العناية به إذا كان لا يمه أمره ولا يبالي به ظفر خصمه أو لم ينظر هلك به حقه أو لم يهلك ؛ فإن كان شاكا في الأربعة أو في واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكمل منه لم تظمن نفسه إلى وكيله ، بل بقى منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما عبده من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الحاصل فيه ، والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تفاوتت تفاوتنا لا ينحصر ، فلا جرم تفاوتت أحوال المتوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتنا لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه ، كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذي يسمى بلج الحلال والحرام لأجله ، فإنه يحصل له يقين بتمنى الشفقة والعناية ، فتصير خصلة واحدة من الحاصل الأربعة قطعية ، وكذلك سائر الحاصل يتصور أن يحصل القطع به ، وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أنصح الناس لسانا وأقدرهم بياناً وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال ففس عليه التوكل على الله تعالى ، فإن ثبت في نفسك كشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العناية والعطف والرحمة بحملة العباد والأحاديث وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بخلق ورحمته لك عناية ورحمة ، استكمل لعائلة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره يوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ، فإن الأحوال عبارة عن الحركة ، والوقرة عبارة عن القدرة ، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فبهي أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الحاصل الأربعة ، وإما ضعف القلب ومرصته باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد يزجج تبعا لرم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين ، فإن من يتناول عسلا فصبه بين يديه بالعدرة ربما نفر طبعه وأعذر عليه تناوله ، ولو كلف الماقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقنا بكونه ميتا وأنه جمد في الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحضره الآن ولا يحويه وإن كان قادرا عليه ، كما أنها مطردة بأن لا يقبل القلم الذي في يده حية ولا يقبل السور أسدا وإن كان قادرا عليه ، ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعه الميت في فراش أو الميت معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجادات ، وذلك جين في القلب وهو نوع ضعيف قلنا تنافى الإنسان عن شيء منه وإن قل ، وقد يقوى فيه رصدا حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه ، وإذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا ، إذ بهما يحصل سكن القلب وطمأنينته . قالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكمن يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام ﴿ أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ قالس أن يكون مشاهدا لإحياء الميت بعينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ؛ وذلك لا يكون في البداية أصلا . فكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب ، فإن اليهودى مطمئن القلب إلى تهوذه ، وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلا ، وإنما يقيمون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين ، إلا أنهم معرضون عنه ، فإذا الجبن والجراءة غرازا ولا ينفع اليقين معها ، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل . كما أن ضعف اليقين بالحاصل الأربعة أحد الأسباب ، وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى ؛ وقد قيل : مكتوب في التوراة : ملعون من فقهه لإنسان مثله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم

« من استمر بالعبيد أذله الله تعالى ^(١) ، وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلت الحالة التي سميت توكلاً فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

(الدرجة الأولى) ما ذكرناه : وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفائته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل (الثانية) وهي أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها ، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها ، وإن نابه أسرى غيبتها كان أول سابق إلى لسانه : يا أمه ، وأول خاطر يخطر في قلبه أمه فإنها مفرجه ، فإنه قد وثق بكفائتها وكفائتها وشفتها ثقة ليست عالية من نوع إدراك بالتميز الذي ، ويظن أنه طبع من حيث إن الصي لو طربا بتفصيل هذه الحاصل لم يقدر على تلقين لفظة ولا على إحضاره مفصلاً في ذهنه ، ولكن كل ذلك وراء الإدراك ، فمن كان بالله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كاف به كما يكاف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً : فإن الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول : أن هذا متوكل وقد فني في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته ، بل إلى التوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكاف والكسب وليس فانياً عن توكله لأن له التفاتاً إلى توكله وشعوراً به ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده ، وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل : ما أدناه ؟ قال : ترك الأمانى . قيل : وأوسطه ؟ قال ترك الاختيار ، وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه (الثالث) وهي أعلاها : أن يكون بين يدي الله تعالى في حركانه وسكانه مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت ، وهو الذي قوى بيقينه بأنه يجري بالحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات ، وأن لا يحدث جبراً فيكون باتماً عن الانتظار لما يجري عليه ، ويفارق الصبي فإن الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتملئ بذيلها ويدعو خلفها ، بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يرتق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسأله اللبن فالأم تمنحه وتسقيه ، وهذا المقام في التوكل يشر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسأل ، فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق ، والمقام الثاني لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط .

« فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر ، والمقام الثاني والثالث أضرهما ، والأول أقرب إلى الإمكان ، ثم إذا وجد الثالث والثاني فداومه أبعد منه ، بل يكاد لا يكون للمقام الثالث في دوامه إلا كصفرة الرجل ، فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض ، كما إن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض . والرجل عبادة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تتمشى عن ظاهر البشرة الحمراء التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة ، فإن البشرة ستر رقيق تراه من وراءه حرة الدم ، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم ، وكذا انقباض القلب بالكليّة عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم ، وأما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوماً ويومين ، والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول .

(١) حديث « من استمر بالعبيد أذله الله » أخرجه التبريل في السخاء ، وأبو لم في الحلية من حديث عمر ، وأوردته الفيل في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي وقال : لا يحتاج على حديثه ، وقد ذكره ابن جبان في الفتاوى قال : يخالف في روايته .

« فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم إن المقام الثالث ينفي التدبير رأساً مادامت الحالة باقية ، بل يكون صاحبها كالمهتوم . والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث القدر إلى الله بالدعاء ، والابتهاال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط . والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيلات كتلوتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عاداته وسنته دون صريح إشارته ، وأما الذي يسرفه بإشارته بأن يقول له : لست أتمكلم إلا في حضورك فيشتغل بالحالة بالتدبير للحضور ، ولا يكون هذا منافضاً لتوكله عليه ، إذ ليس هو فزعا منه إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره ، بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رحمه له ؛ إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر ؛ فقوله وأما المسلم من عاداته وأطراده سنته ؛ فهو أن يعلم من عاداته أن لا يحتاج الخصم إلا من السجل ، فبما تركه إن كان متوكلاً عليه ؛ أن يكون معولاً على سنته وعاداته ووافياً بمتعضاه ؛ وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند حاجته ؛ فإذا لم يستثنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ، ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصاً في توكله فكيف يكون فصله نقصاً فيه ، نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعاداته وقصد ناظر إلى حاجته فقد يفتنى إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبق كالمهتوم المنتظر لا يفرغ إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة ، وقد كان فرعه إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته ، وقد انتهى نهايته فلم يبق إلاطمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري ، وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسبأني تفصيله في الأعمال ، فإذا فرغ المتوكل إلى حوله وقوته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً معضاً بلا جدوى ؛ فإذا لم يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إن الوكيل جملة معتمداً لحاجته ، وعزفه ذلك بإشارته وسنته ، فإذا لم يحول ولا قوة إلا بالوكيل ، إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالفاً حوله وقوته ، بل هو جاعل لها مفيد من أنفسهم ولم يكونا مفيدين لولا فعله ، وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاً لما سيخلق من بعدهما من الفوائد والمقاصد ، فإذا لم يحول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً ، فمن شاهد هذا كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله ^(١) ، وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد التلب بفهمهم لفظها ؟ وهيئات فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد ، ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة (لا إله إلا الله) وثوابها كنسبة معنى أحدهما إلى الأخرى ، إذ في هذه الكلمة إضافة إلى شيئين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه ، فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب (لا إله إلا الله) بالإضافة إلى هذا ، وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبيين ، فكذلك لهذه الكلمة ولسان الكليات ، وأكثر الخلق قيدا بالقرئين وما طرقوا إلى البين ، وإلى البين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله

(١) الحديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله : تقدمت في الدعوات .

صداقاً من قلبه غلظاً وجبت له الجنة^(١)، وحيث أطلق من غير الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع، والمادة به المقيد بالعمل الصالح، فالملك لا يتال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضاً حديث ولكنه حديث نفس، وإنما الصدق والإخلاص وراهما، ولا ينصب سرير الملك إلا للعزيزين وهم المخلصون، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضاً درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلا بالملك، أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال (على سرور موضونة متكئين عليها متقابلين) ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد في ذكر الماء والظل والقواكه والأشجار والحدود العين، وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمحسوس، ويتصور ذلك البهائم على الدوام، وأين لذات البهائم من لذة الملك، والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين، ولو كان لهذه اللذات قدر لما سمعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة للملائكة، أقرى أن أحوال البهائم - وهي مسية في الرضاى متمتعة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالزوان والسفاد - أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوبة - من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين، هيئات هيئات ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حاراً أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام^١ وليس ينفى أن شبه كل شيء منجذب إليه، وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة، فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب، وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة، فهو بالبهايم أشبه منه بالملائكة لاحتالة، وهؤلاء هم الذين يقال فيهم (أولئك كالأنعام بل هم أضل) وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة، فتركها الطلب المعجز. وأما الإنسان ففي قوته ذلك، والتقدير على نيل الكمال أخرى بالنم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال. وإذا كان هذا كلاماً معترضاً فلنرجع إلى المقصود فقد بينا معنى قول (لا إله إلا الله) ومعنى قول (لا حول ولا قوة إلا بالله) وإن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل.

ه فإن قلت: ليس في قولك (لا حول ولا قوة إلا بالله) إلا نسبة شيئين إلى الله، فلو قال قائل، السما والارض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه؟ فأقول: لا، لأن الثواب على قدر درجة الثابت عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصف الحول والقوة إن جاز وصفها بالصغر تجوزاً، فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة آدميين بل هما من خلق الله تعالى، فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر في الرأي والمقول حتى يشق الشعر بمجدة نظره، فهي مهلكة خطيرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون إذ أخذوا بها لأنفسهم أمراً وهو شرك في التوحيد وإثبات خلق سوى الله تعالى، فمن جاوز هذه الدقة بتوفيق الله تعالى إياه فقد عسكرت به وضطمت درجته فهو الذي يصدق قول لا حول ولا قوة إلا بالله، وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عبتان (إحداهما) النظر

(١) حديث « من قال لا إله إلا الله صادقاً غلظاً من قلبه وببيت له الجنة » رواه الطبراني من حديث زيد بن أرقم، وأبو داود من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والغيوم والمطر وسائر المجدات (والثانية) النظر إلى اختيار الحيوانات وهى أعظم العقبتين وأخطرهما وبقطعهما كمال سر التوحيد فذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعنى ثواب للشاهدة التى هذه الكلمة ترجعها ، فإذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق ، وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى .

بيان مآقاله الشيوخ فى أحوال التوكل

ليبين أن شيئاً منها لا يخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال ، فقد قال أبو موسى الديلمي : قلت لأبي يزيد : ما التوكل ؟ فقال : ما تقول أنت ؟ قلت : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك شرك . فقال أبو يزيد : نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتدعمون وأهل النار لا يمدون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل ، فذكره أبو موسى فهو خير من أجل أسوال التوكل وهو المقام الثالث ، وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعر أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة ، وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغضى أنواع العلم ورواه سر القدر ، وأبو يزيد قلنا يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطاً فى المقام الأول من التوكل ؛ فقد احتراز أبو بكر رضى الله عنه فى الغار إذ سدت منافذ الحيات ^١ إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره ، أو يقال : إنما فعل ذلك شفقة فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لاني حق نفسه ، وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغييره لاسر يرجع إلى نفسه ، والنظر فى هذا مجال ، ولكن سيأتى بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل ، فإن حركة السر من الحيات هو الخوف ، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات ، إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله ، فإن احتراز لم يكن انكالا على تدبيره وحوله وقوته فى الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير .

وسئل ذو النون المصرى عن التوكل ؟ فقال : خلع الأرباب وقطع الأسباب ، نزع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد ، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقيل له : زدنا ؟ فقال : إلقاء النفس فى العبودية وإخراجها من الربوبية ، وهذا إشارة إلى التبرى من الحول والقوة فقط .

وسئل حدود القصار عن التوكل ؟ فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دائق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك فى عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وظاً لا نياش من الله تعالى أن يقضها عنك ، وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسمة القدرة ، وأن فى المقدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة .

وسئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل ؟ فقال : التعلق بالله تعالى فى كل حال ، فقال السائل : زدنى ؟ فقال : ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك ، فالأول علم للمقامات الثلاث ، والثانى إشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، إذ كان سؤاله سبباً يفضى إلى سبب وهو حفظ جبريل له ، فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد محو جبريل لذلك ، فيكون هو المتولى لذلك ، وهذا حال مهوئ غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يره غيره ،

(١) حديث : إن أبى بكر سدت منافذ الحيات فى الغار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم . تقدم .

وهو حال عزيز في نفسه ، ودوامه إن وجد أبعد منه وأحر .

وقال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ، ولعله يشير إلى المقام الثاني ، فسكونه بلا اضطراب : إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به ، واضطراب بلا سكون : إشارة إلى فرجه إليه وابتهاه وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها .

وقال أبو علي الدقاق . التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالمتوكل يسكن إلى وعده ، والمسلم يكتفي بعمله ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه ، فإن العلم هو الأصل ، والوعد يتبعه ، والحكم يتبع الوعد ، ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك ؛ وللمسيوح في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه فلا نطرحها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل ، فهذا ما يتعلق بحال التوكل ، والله الموفق برحمته ولطفه .

بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم بورث الحال ، والحال يشر الأعمال ، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب باليد وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكالحم على الرحم وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع ، والشرع قد أتى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمخطورات الدين ، بل تكشف النطاعة وتقول إنما يظهر تأخير التوكل في حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده ، وسمى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جاب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم يزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض ، فقصد حركات العبد لا بد هذه الفنون الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه ، أو دفع الضار أو قطعه ، فلذلك شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .

(الفن الأول : في جاب النافع) فنقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون غنا يوق به ، وموهم ومما لا يثني النفس به ثقة تامة ولا قطعاً إليه .

(الدرجة الأولى : المقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يتوقف ، كما أن الطعام إذا كان موضوعاً بين يديك وأنت جائع محتاج ولكلك لست تمذ اليد إليه ونقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعي ومذ اليد إليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعال الحنك على أسنانه ، فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء ، فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شعباً دون الخبز ، أو يخلق في الخبز حركة إليك ، أو يسخر ملكاً ليضغه لك ويوصله إلى مدهلك . فقد جهلت سنة الله تعالى ، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطعمت في أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر ، أو تذر وجنتك من غير مرقع كما ولدت مريم عليها السلام : فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه ، أليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعم . أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والاسنان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتقادك على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد على محبة يدك وربما تهيف في الحال وتفلج ؟ وكيف تمول على قدرتك وديا يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ؟ وكيف تمول على حضور الطعام ، وديا يبطل الله تعالى

(٣٤ - إحياء علوم الدين - ٤)

من ينلِكَ عليه أو يبعث حية ترعجك عن مكانك وتفترق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه وتعمل ، فإذا كان هذا حاله وعليه فليمدّ اليد فإنه متوكل .

(الدرجة الثانية) الأسباب التي ليست متينة ولكن الغالب أنّ المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا ، كالتي يفارق الأمصار والتموافل ويسافر في البوادي التي لا يطرّفها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد ، فهذا ليس شرطا في التوكل ، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق ، ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص .

• فلن قلت : فهذا سعى في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة . فاعلم أنّ ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين (أحدهما) أن يكون الرجل قد راض نفسه وبجاهدها وسوّاهما على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشتوش خاطر وتمذر في ذكر الله تعالى (والثاني) أن يكون بحيث يقوى على التفوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة ؛ فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجترئ به فيحيا به بجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل ، وعلى هذا كان يعمل الخواص ونظرأه من التوكلين . والدليل عليه أنّ الخواص كان لا يفارقه الإبرة والمقراض والحبل والزكرة ويقول : هذا لا يقدر في التوكل . وسببه أنه علم أنّ البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض ، وما جرت سنة الله تعالى يصعد للماء البئر بنهر دلو ولا حبل ولا يقلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يقلب وجود الحشيش ، والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة ؛ فلن المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام ، وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتتكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ، ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء ، مما يوجد في البوادي ، فكل مافي معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية ، لأنه مظلون ظنا ليس مقطوعا به ، لأنه يحتمل أن لا يتخرق الثوب أو يغطي إنسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسقيه ، ولا يحتمل أن يتحرك الطعام بمحضوا إلى فيه ، فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأول ، ولهذا نقول : لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرّقه طارق فيه وجلس متوكلا ، فهو آثم به ساع في هلاك نفسه ، كما روى أنّ زاهدا من الزهاد طارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال : لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتيني ربي برزق ، فتعد سبعة فكاد يموت ولم يأت رزق ، فقال : يارب إن أحييتني فأنتي برزق الذي قسمت له وإلا فأنتي إليك ، فأوحى الله جل ذكره إليه . وعزى لأرزقك حتى تدخل الأمصار وتقدم بين الناس . فدخل المصروقة ، فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب ، فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه . أردت أن تذهب حتى يزهك في الدنيا ! أما تلتفتي أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتي ، فإذا التبعاد عن الأسباب كلها مراعاة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الانكسار على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل كما مر بناه مثلا في الوكيل بالخصومة من قبل ، ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية ، ففي التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكن النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب .

فإن قلت: ما قولك في النعوذ في البلد بغير كسب، أم حرام أو مباح أو مندوب؟ فأقول: ذلك ليس بحرام لأنه كفعل صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه، والصبر يمكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام، وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت: فتند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فبأنه يرزقه، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله، فهو أفضل، وهو من مقامات التوكل؛ وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يتم رزقه، فإن الرزق يأتيه لا محالة، وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء: وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه، كالمهرب من الموت لأحركه، وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصيا، ولقال له: يا جاهل، كيف أخلفك ولا أرزقك؟ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رزاق ولا يموت إلا الله تعالى. وقال صلى الله عليه وسلم: «لو توكلتم على الله حتى توكله لرزقكم كما يرزق الطائر تغرد خماسا وتروح بطانا ولوالت بدعاكم الجبال»^(١) وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطائر لا تزوع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم؛ فإن قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف يقبض الله تعالى لها هذا الحق الرزق. وقال أبو يعقوب الواسطي: المتوكلون تجري أرزاقهم على أيدي العباد لا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكثودون. وقال بعضهم: البئس كلهم في رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذلك كالسؤال، وبعضهم يشرب وانتظار كاللجاج، وبعضهم يامتن كالصانع، وبعضهم يمز كالصوفية يشهدون العزير فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الوساطة (الدرجة الثالثة) ملازمة الأسباب التي يتوهم إفتاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالأذى يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها، وهو الذي فيه الناس كلهم: أعني من يكتبسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح، فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والامتثال على الأسباب، فلا يخفى أن ذلك يطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل لبسة الرقية والطير والكسب بالإضافة إلى إزالة العناء؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتبسون ولا يسكنون الأضرار ولا يأخذون من أحد شيئا، بل وصفهم بأنهم يتباطون هذه الأسباب، وأمثال هذه الأسباب التي يوقع بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها. وقال سهل في التوكل: «إنه ترك التدبير وقال: إن الله خلق الخلق ولم يجهجه عن نفسه، وإنما حجاجهم بتدبيرهم، ولعله أراد به استبطاء الأسباب البعيدة بالفكر ففى التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية، فإذا قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج، وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعمله وهو الاستكمال على مسبب الأسباب، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعالم. وأما المظنونات

(١) حديث «لو توكلتم على الله حق توكله... الحديث» وزاد في آخره «ولوات بدعاكم الجبال» وقد تقدمت قريباً دون هذه الزيادة، فرواهما الإمام محمد بن نصر في كتاب تهذيبه في الصلاة من حديث معاذ بن جبل بإسناد فيه لين، ولعله قد حق معرفته لمعظم على الجور ولزات بدعاكم الجبال» ورواه البيهقي في الزهد من رواية عبيد المسك مرسل دون قوله «لمعظم على الجور» وقال: هذا منقطع.

فالتوكل فيها بالحال والدلم والعمل جميعا ، والمتوكلون في ملايصة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات :

(الأول) مقام الخواص ونظرائه ، وهو الذى يدور في الجوادى بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا وما فرقه ، أو تيسير حشيشه له أو قوت ، أو تثبته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك ، فإن الذى يحمل الزاد قد يتفقد الزاد أو يضل بهيمه ويموت جوعا ، فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقدته .

(المقام الثانى) أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأمصار ، وهذا أضعف من الأول ، لكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة ، معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالقعود في الأمصار متموض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالبة ، إلا أن ذلك لا يطل تركه إذا كان نظره إلى الذى يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد ، إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم .

(المقام الثالث) أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب ، وهذا السعى لا يخرج أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبيضايته ، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة ، بل يكون نظره إلى الكفيل الحق يحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له ، بل يرى كسبه وبيضايته وكمايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع ، فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه ماذا يتحرك ؟ وإلى ماذا يميل ؟ وبم يحكم ؟ ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو لفرق على الساكنين فهو بيده مكتسب ويقبله منه منقطع ؛ لخال هذا أشرف من حال القاعد في بيته ، والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط والنصاف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصديق رضى الله عنه لما بوجع بالخلافة أصبح آخذًا بالأنواب تحت حصنه والذراع بيده ودخل السوق ينادى ، حق كرهه المسلمون وقالوا : كيف تفعل ذلك وقد أقت الخلافة بقوة ؟ فقال : لا تشغلوني عن عيالي فإني إن أضعتهم كنت لما سوام أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين ، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطبيب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ، ويستحيل أن يقال : لم يكن الصديق في مقام التوكل ! فن أول بهذا المقام ؟ قد علم أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والدلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدير الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره ، فن دخل السوق ودرمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ، ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا ، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الخداد - وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما وكان من المتوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارت السوق : كنت أكتسب في كل يوم دينارا ولا أبيت منه دافئا ولا أسترجع منه إلى قيراط أدخل به الحمام ، بل أخرجه كله قبل الليل . وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بعرضه وكان يقول : استسنى أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي . وأعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بهيد من التوكل ، فإن لم يكن معلوم ووقف وأمسوا الخادم بالخروج للطلب لم يصح منه التوكل إلا على ضعف ، ولكن يقوى بالحال والدلم ، كتوكل المكتسب ؛ وإن لم يسأله بل قنعوا بما يحمل

إليهم فهذا أقوى في توكلهم ، لكنه بعد اشتغال القوم بذلك فقد صار لهم سوقا ، فهو كدخول السوق ، ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق .

• فإن قلت : فما الأفضل أن يقعد في بيته ، أو يخرج ويكتسب ؟ فأعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا يستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب في الصبر والانكال على الله تعالى ، فاقعد له أول . وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أول ، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب ، وتركه أم من ترك الكسب ، وما كان المتوكلون يأخذون ما يستشرف إليه نفوسهم : كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطى بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه ، فرده ، فلما ولي قال له أحمد : الحق وأعطه فإنه يقبل ، فلفحه وأعطاه ، فأخذه ، فسأل أحمد عن ذلك ؟ فقال : كان قد استشرفت نفسه فرد ، فلما خرج انقطع طعمه وأيس وأخذ . وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو عاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب مראה في أسفاره : رأيت الحضر ورضي بصحبي ولكني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصا في توكلي ، فإذن المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتياده على بضاعته وكفايته كان متوكلا .

• فإن قلت : لا علامة عدم انكاله على البضاعة والكفاية ؟ فأقول : علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارتها أو توفى أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه ، بل كان حال قلبه في السكن قبله وبعده واحدا ، فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده ، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه ، وكان بشر يعمل المنازل فتركها ، وذلك لأن البمادى كآبه قال : بلغني أنك استمتت على رزقك بالمنازل ، أرايت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آله المنازل من يده وتركها . وقيل : تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها . وقيل : فعل ذلك لما مات عياله ، كما كان لسفيان خمسون ديناراً يتجى فيها ، فلما مات عياله فتركها .

• فإن قلت : فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن ؟ فأقول : بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة ، وأن الذين كثرت بضاعتهم ففرقت وهلكت فيهم كثرة ، وأن يوطن نفسه على أن الله لا يفضل به إلا ما فيه صلاحه ، فإن أهلك بضاعته فهو خير له فلهما لو تركه كان سببا لمساد دينه وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يموت جوعا ، فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعا خيره في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته ، فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ، ففي الخبر « إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيبا حزينا يتطير بجواره وابن عمه : من سبقني ؟ من دهاني ؟ وما هي إلا رحمة رحمه الله بها ^(١) » ولذلك قال عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا : فإنني

(١) حديث « إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه ، إلا أنه قال « إن العبد لو صرف على حاجة من حاجات الدنيا ... الحديث » بخلافه .

لا أدري أيهما خير لي ، ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ؛ ولذلك قال أبو سليمان الباری لأحمد بن أبي الحواری : لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فإني ما شمت منه راحة ، هذا كلامه مع علو قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات للمكة ولكنه قال : ما أدركته ، ولعله أراد إدراك أعضائه ، وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد ؛ لم يكمل حال التوكل ؛ فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور - كاسبق - وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تبني على أصولها من الإيمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ، ولذلك قال سهل : من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد .

● فلان قلت : فهل من دواء يفتتح به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تيسر الأسباب الخفية ؟ فأقول : نعم ، هو أن تعرف أن سوء الظن بقلبي الشيطان ، وحسن الظن بقلبي الله تعالى : قال الله تعالى ﴿ الشيطان يمدك الفقر ويأمرك بالفحشاء ﴾ ، والله يمدك مغفرة منه وفضلا ﴿ فلان الإنسان بطبعه مشغوف بسباع تخوف الشيطان ، ولذلك قيل : الشفيق بسوء الظن مولع ، وإذا انضم إليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكئين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية ، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا يهمل التوكل ، فقد حكى عن عابد أنه حكف في مسجد ولم يكن له معلوم ، فقال له الإمام : لو اكتسبت لكان أفضل لك ، فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا ، فقال في الرابعة : يهودى في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين ، فقال : إن كان صادقا في ضمانه فسكوفك في المسجد خير لك ، فقال : يا هذا لو لم تكن إماما تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق وقال إمام المسجد لبعض المصلين : من أين تأكل ؟ فقال : يا شيخ أصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلقك ثم أجيئك .

وينفع حسن الظن بمجمعي الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية : أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه ، وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والاعتناء وقتلهم جوعا ، كما روى عن حذيفة المرعشي وقد كان خدم إبراهيم بن آدم ، فقيل له : ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال : يقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب ، فنظر إلى إبراهيم وقال : يا حذيفة ، أرى بك الجوع ، فقلت : هو ما رأى الشيخ ، فقال : على بدواة وقرطاس ، فجلست به إليه فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود إليه بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى ، وكتب شعرا :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا طارى

هي ستة وأنا الضمين لنصفها فكأن الضمين لنصفها يا بارئ

مدحى لتبرك لحي نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقة فقال : أخرج ولا تعلق قلبك بنير الله تعالى وادفع الرقة إلى أول من يلقاك ، فخرجت فأول من لقيت كان رجلا على بئلة . فتناولته الرقة فأخذها ، فلما وقف عليها بكى وقال : ما فعل صاحب هذه الرقة ؟ فقلت : هو في المسجد الفلاني ، فدفع إلى صرة فيها ستانة دينار ، ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راکب البئلة

فقال : هذا نصراني ، لجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال : لا تمسها فإنه يحىء الساعة ، فلما كان بعد ساعة دخل النهراني وأكب على رأس إبراهيم قبله وأسلم .

وقال أبو يعقوب الأنطلي البصري : جمعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضمعا ، لحظتني نفسي بالخروج فخرجت إلى الوادي لعل أجد شيئا يسكن ضمعي ، فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها ، فوجدت في قلبي منها وحشة وكان قائلا يقول لي : جمعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة ، فرميت بها ودخلت المسجد ووجدت ، فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قطرة وقال : هذه لك ، فقلت كيف خصصتني بها ؟ قال : أعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الترق ، فندرت إن خلصني الله تعالى أن أنصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين ، وأنت أول من لقيته ، فقلت : افتحها ، ففتحتها فإذا فيها سميد مصري ولوز مقشور وسكر كماب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي إلى أصحابك هدية مني إليكم ، وقد قبلها ، ثم قلت في نفسي : وزك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي .

وقال مهاد الدينوري ، كان على دين فاشتغل قلبي بسببه ، فرأيت في النوم كأن قائلا يقول : يا بخيل ، أخذت علينا هذا المقدار من الدين ، خذ عليك الآنخذ علينا البطاء ، فحاسبته بعد ذلك قائلا ولا نصا ولا غيرهما . وحكي عن بنان الحمال قال : كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعى زاد ، فجاءني امرأة وقالت لي : يا بنان ، أنت حمال تعمل على ظهرك الزاد وتوهم أنه لا يركلك ، قال فرميت بزادي ثم أتى على ثلاث لم أكل ، فوجدت خلخلا في الطريق فقلت في نفسي : أحمله حتى يحىء صاحبه فرميا يطعنين شيئا فأرده عليه ، فإذا أنا بذلك المرأة فقلت لي : أنت تاجر تقول عسى يحىء صاحبه فأخذ منه شيئا ثم رمى لي شيئا من الدراهم وقالت : أنفقها ، فاكفيت بها إلى قريب مكة .

وحكي أن باننا احتاج إلى جارية تخدمه ، فأنبسط إلى إخوانه ليعموا له منها وقالوا : هو ذا يحىء التفدير ففتشني ماوافق ، فلما ورد التفدير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا : إنها تصلح له ، فقالوا لصاحبها : بك هذه ، فقال : إنها ليست للبيع ، فألحوا عليه فقال : إنها لبنان الحمال أهدتها إليه امرأة من سميرند ، حملت إلى بنان وذكرته القصة .

وقيل : كان في الزمان الأول وجل في سفر ومعهم قرص فقال : إن أكلته مت ، فوكل الله عز وجل به ملكا وقال : إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تمطه غيره ، فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده .

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت البادية بنير زاد فأصابني قالة ، فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت في نفسي أتى سكنت وانكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها ، فخرجت لنفسى في الرمل حفرة وأريت جسدي فيها إلى صدرى ، فسمعت صوتا في نصف الليل عاليا : يا أهل المرحلة ، إن الله تعالى وليا حبس نفسه في هذا الرمل فألقوه ، فجاء جماعة فأخرجوني وحلوني إلى القرية .

وروى أن رجلا لازم باب عمر رضي الله عنه فإذا هو بقائل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ اذهب فتمم القرآن فإنه سينيكك عن باب عمر ، فذهب الرجل وغاب حتى اقتدعه عمر ، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالمعادة ، فجاءه عمر فقال له : إنى قد اشتقت إليك لما الذى شغلك عني ؟ فقال : إن قرأت القرآن فاعتاني

عن عمر وآل عمر ، فقال عمر . رحلك الله فإ الذي وجدت فيه ، فقال وجدت فيه (وفي السماء رزقكم وما توعدون) فقلت رزق في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، فبكى عمر وقال ، صدقت ، فكان عمر بعد ذلك يأثمه ويحس إلىه ،

وقال أبو حمزة الحراساني : حججت سنة من السنين فيينا أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث ، فقلت لا والله لا أستغيث ، فاستنصت هذا الخاطر حتى مرير رأس البئر رجلان ، فقال أحدهما الآخر تعالى حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد ، فأتوا يقصب وبارية وطورا رأس البئر ، فهمت أن أصيح فقلت في نفسي : إلی من أصيح هو أقرب منهما وسكنت فيينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدل رجله وكأنه يقول تعلق بي في مهمة له كنت أعرف ذلك ، فتعلقت به فأخرجني ، فإذا هو سبع ، فز وهتف في هاتف : يا أبا حمزة اليس هذا أحسن ، نجيناك من التلف بالتلف ، فحييت وأما أقول :

نهاني حياتي منك أن أكشف الهوى وأغيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطف في أسرى فأبدت شاهدي إلى غايي والطف يدرك بالطف
ترامت لي بالنيب حتى كأنما تبشرني بالنيب أنك في الكشف
أراك وبني من هيتي لك وحشة فتونس بالطف منك وبالطف
وتحيي غيا أنت في الحب حشفة وزا محب كون الحياه مع الحشف

وأما هذه الروايات مما يكبر ، وإذا قوى الإيمان به وانعم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير مضيق صدر ، وقوى الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع قالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبه عنه : ثم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات ، وإلا فلا يتم أصلا .

بيان توكل الميعل

اعلم أن من له عيال لحبكه يفارق المنفرد ، لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين (أحدهما) قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس (والآخر) أبواب من الإيمان ذكرناها ، من جعلها : أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأت رزقه ، عسا بأن رزقه الموت والجوع ، وهو إن كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة ، فيرى أنه سبق إليه خير الرزقين له : وهو رزق الآخرة ، وأن هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك وأنه كذا قضى وقدر له ، فهذا يتم التوكل المنفرد ، ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ، ولا يمكن أن يفتر عديم الإيمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق منوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادرا ، وكذا سائر أبواب الإيمان ، فإذا لم يمكنه في حقهم إلا توكل المكسب وهو المقام الثالث ، كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب ، فأما دخول البوادي وترك العيال توكلنا في حقهم أو القعود عن الانهماك بأمرهم توكلنا في حقهم فهذا حرام ، وقد يفرض إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم ، بل التمتع أنه لا فرق بينه وبين عياله ، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغيمة في الآخرة ، فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عياله عنده ، ولا يجوز له أن يضعها إلا أن تساعد على الصبر على الجوع مدة ، فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتشتوش عليه عادته لم يجر له التوكل ، ولذلك روى أن أبا تراب النخشي نظر إلى صوفي مذبذبه إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام . فقال له . لا يصلح لك التصوف . الزم السوق أي لا تصوف إلا مع التوكل .

ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام ، وقال أبو على الروذباري : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام : أأجائع فألزمه السوق ومروده بالعمل والكسب ، فإذا بذنه عياله وتوكله فيها يضر يذنه كتوكله في عياله ؛ وإنما يغار فهم في شيء واحد - وهو أن له تمكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله ، وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس اقتطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة الرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا وملزمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى ، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر ، والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي ، وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يبدوا تلك أسبابا ، وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ، ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيق أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد وزقه وإن ترك الاضطراب ، فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه وزقه ، أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاة أم أبى اضطرابا من الله تعالى إليه بما أشمل في قلبها من نار الحب ، ثم لما لم يكن له من يعض به الطعام جعل وزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ ، ولأنه لرعاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدّاه اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ؟ ولذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قراطع وطواحين لأجل المضغ ، فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التلذذ وسلوك سبيل الآخرة ، فإنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب مميسته ببلوغه بل زادت ، فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب ، فآلان قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقتة مفرطة جدا فكان يعلمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه ، فكذلك قد ساط الله الشفقة والمودة والرحمة والرفقة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة ، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته ، فقد كان المشفق عليه واحدا والآل المشفق عليه ألف وزيادة ، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه عمنابا ، ولو رأوه يتألم لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفّلونه ، فما رؤى إلى الآن في سنى الحصب يقيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص ، والله تعالى كافلة بواسطة الشفقة التي خلفها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحلى ولكنها واحدة ، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الفرض ، فكمن يقيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم لا فينجبر ضئف شفقة الآحاد بكمرة المشفقين وبترك التعم والاعتصام على قدر الضرورة ، ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسمر لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

« فإن قلت : الناس يكفلون يتيمهم يرويه عاجزا بصياه ، وأما هذا فالغادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون : هو مثلكا فليجهت لنفسه ؟ فأقول : إن كان هذا القادر بطلا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإن التوكل من مقامات الدين يستبان به على التفرغ لله تعالى : « فما البطلان والتوكل ؟ وإن كان مشغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو موأبط على العلم والعبادة فالتوكل لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكفونه ذلك ، بل اشتغاله بالله تعالى يقر حبه في قلوب الناس حتى يعملون إليه فوق كفايته ، وإنما عليه أن لا ينلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس ، وما روى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فأت جوما ولا يرى قط ، بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقد رزقني الله ، فإن من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ، ومن اشتغل بالله عز وجل أتى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها ، فقد دبر الله تعالى الملك والمملوك تدييرا كافيا لأهل الملك والمملوك . فمن شاهد هذا التدبير وفق بالمدير واشتغل به وآمن ونظر إلى مدير الأسباب لا إلى الأسباب ، نعم ماديته تدييرا يصل إلى المشتغل به الحلول والطبوع السمان والياب الرقيقة والحيول النفيسة على الدوام للاحالة ، وقد يقع ذلك أيضا في بعض الأحوال لكن دبره تدييرا يصل إلى كل مشغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله للاحالة ، وإنما له أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية ، فلا سبب لترك التوكل إلا لارغبة النفس في التمتع على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة ، وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب ، وهو في الثالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا ، وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب : فأثر الاضطراب نصف عند من انفتحت بصيرته ، فلذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدير الملك والمملوك تدييرا لا يمازج عبدا من عباده وزقه وإن سكن إلا نادرا تدورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب ؛ فإذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال : وددت أن أهل البصرة في عيالي ، وأن حبة بدنيار . وقال وهيب بن الورد : لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقي لظننت أني مشرك : فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن فهم نفسه ، وعلت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل ، فإياك أن تجمع بين الإفلاس : الإفلاس عن وجود المقام ذوقا ، والإفلاس عن الإيمان به علما ؛ فإذا نكحت القناعة بالنور القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك للاحالة وإن فررت منه ، وعند ذلك على الله أن يعطيك رزقك على يدى من لا تحسب ، فإن اشتغلت بالقوى والتوكل شاهدة بالتجربة مصداق قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذات الأطمعة ؛ فما ضمن إلا الرزق الذى تدوم به حياته ، وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضمائم وأطمأن إلى ضئائه ؛ فإن الذى أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق ، بل مداخل الرزق لا تحصى وبجاريه لا يهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء . قال الله تعالى (وفي السماء رزقكم وما تعدون) وأسرار السماء لا يطلع عليها ، ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال : ماذا تطلبون ؟ قالوا : نطلب الرزق ، فقال : إن علمتم في أى موضع هو فاطمونه . قالوا : نسال الله . قال : إن علمتم أنه يسلك فذكروه ، فقالوا : ندخل البيت وتوكل وننظر ما يكون . فقال : التوكل على التجربة شك . قالوا فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى

الحجاز : كنت في البادية فنانى جوع شديد فقلتلى نفسى أن أسأل الله تعالى طعاما ، فقلت : ليس هذا من أفعال المتوكلين ، فطالبتنى أن أسأل الله صبرا ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يتف و يقول :

ويذكرهم أه منا قريب وأنا لا تضيق من أنانا
و رسالتنا على الإقتار جهدا كأننا لا نراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجين باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى : كان مطمئنا لنفسه أبدا وأمنا بالله عروجل ، فإن أسوأ حاله أن يموت ، ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئنا فلذا تنص التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب ، والذي ضمن رزق القائمين بهذه الأسباب التي دبرها صادق ، فافزع . وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك ، ولا تمكن في توكلك منتظرا الأسباب بل لسبب الأسباب ، كما لا تكون منتظرا لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فإنه أصل حركة القلم ، والمحرك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه ، وهذا شرط تركل من يخوض البوادي بلا زاد أو يقعد في الأمصار وهو غامل . وأما الذي له ذكر بالمبادأة والعلم فإذا فتح في اليوم واليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ ، وثرب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الغلام ، بل يأتيه أضعافه ، فتركه التوكل واعتناجه بالرزق غاية الضعف والقصور ، فلما اشتد به سبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الغامل مع الاكتساب ، فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقيس لأن شرطهم التقانة والعلم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لا يلقى بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن ؛ فلما الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتد به بالسلك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما عليه أول لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة لله على نيل الثواب ، ومن نظر إلى مجرى سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ، ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيميا عن الأحق المرزوق والمائل المحروم فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه ، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه : فلما رأوا ختلانه علموا أن الرزاق غيرهم ولا تفقه بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذن من جهلن الهيام

بيان أحوال للمتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلم أن مثال الحلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وفقوا في ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلانا كثيرة ومهم أرفقة من الحبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين وغيفين وبعضهم رغيفا وغيفا ويجهتدوا في أن لا ينفلوا عن واحد منهم ، وأمر مناديا حتى نادى فهم أن اسكروا ولا تتعلموا بنبأناي إذا خرجوا إليكم ، بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فإن التلنان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم : فمن تعلق بالتلنان وآذاهم وأخذ رغيفين فلذا فتح باب الميدان وخرج ابتمته بسلام يكون موكلا به إلى أن أتقدم له قربته في ميعاد معلوم عندي ولكن أخفيه ، ومن لم يؤذ التلنان وقنع برغيف واحد أمه من يد الغلام وهو ساكن فإني أخصه بخدمة سنة في الميعاد المذكور لعقوبة الآخر ، ومن لم يمت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلة له ، ومن أخطأ غلاني فإني أوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعا لم يمسخط الغلنان

ولا فائلا ليه أوصل إلى رغيفا فإني غدا أستوزره وأقرض ملكي إليه فاقسم السؤال إلى أربعة أقسام : قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة ؛ وقالوا : من اليوم إلى غد فرج ! ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فأذومهم وأخذوا الرغيفين ، فسيبت العقوبة إليهم في الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوفاً من العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لقلبة الجوع فسلخوا من العقوبة وما قازوا بالخلمة ، وقسم قالوا : إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا ينظفوننا ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفاً واحداً ونقع به ؛ فلعننا نفوز بالخلمة ففازوا بالخلمة ؛ وقسم رابع اختفوا في زوايا الميادين وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا : إن ابموننا وأعطونا قنطاراً رقيقاً واحداً ، وإن أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة ، فلعننا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك ، فما نفهم ذلك ، إذ اتبهم الغلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفاً واحداً ، وجرى مثل ذلك أياماً حتى اتفق على الدور أن يختفي ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش ، فباتوا في جوع شديد ، فقال انثار منهم : ليتنا نؤمننا للغلمان وأخذنا طعامنا فلنسا نطيق الصبر ، وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة ، فهذا مثال الخلق ، والميادين هو الحياة في الدنيا ، وباب الميادين الموت ، وللمياد المجهول يوم القيامة ، والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائلاً راضياً من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة ، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، والمتعلق بالغلمان هو المعتدى في الأسباب ، والغلمان المستخرون هم الأسباب ، والجالس في ظاهر الميادين بمرأى الغلمان هم المقيمين في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون ، والمخفون في الزوايا هم السامعون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تدبهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل التدور ، فإن مات واحد منهم جائلاً راضياً فله الشهادة والقرب من الله تعالى ، وقد انقسم الخلق إلى هذه الأنقسام الأربعة ، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متوضين للسبب بمجذورهم واشتارهم ، وساح في البوادي ثلاثة ، وتسخط منهم اثنان ، وقاز بالقرب واحد ، ولعله كان كذلك في الأعصار السالفة ، وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف .

(الفن الثاني في التمرؤ لأسباب الادخار) فمن حصل له مال يورث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب ، فله في الادخار ثلاثة أحوال (الأولى) أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائلاً ، وليس إن كان عارياً ، ويشتري مسكناً محتسماً إن كان محتاجاً ، ويغرق الباقي في الحال ، ولا يأخذه ولا يتخذه إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيتحفه على هذه التبة . فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقاً وهي الدرجة العليا (الحالة الثانية) المتعاطلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل : أن يتخبر لسنة فما فوقها ، فهذا ليس من المتوكلين أصلاً ؛ وقد قيل . لا يتخبر من الحيوانات إلا الثلاثة : الفأرة ، والخنزير ، وابن آدم (الحالة الثالثة) أن يتخبر لأربعين يوماً فما دونها ، فهذا : هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين ؟ اختلفوا فيه : فذهب سبيل إلى أنه يخرج عن حد التوكل . وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوماً ويخرج بما يزيد على الأربعين . وقال أبو طالب المكي : لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضاً ، وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجرؤ أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل ، فما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له ، وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة ، وتلك الرتبة لها بداية

ونهاية ، ويسمى أصحاب النهايات : السابقين ، وأصحاب البدايات : أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات ، وكذلك السابقون ، وأعلى درجات أصحاب اليمين تتلاقى أسفل درجات السابقين ، فلا معنى للتقدير في مثل هذا ؛ بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل ؛ وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس ، فإن ذلك كالمستع وجوده ؛ أما الناس فتصاوتون في طول الأمل وقصره ، وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات ، وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الإنسان ، وبينهما درجات لآخر لها ، فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود من يؤمل سنة ، وتقيده بأربعين لاجل ميعاد موسى عليه السلام ؛ بعيد ؛ فإن تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما يخص الأمل فيه ، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لمسر جرت به وبأمانه سنة الله تعالى في تدريج الأمور ، كما قال عليه السلام : إن الله يخر طينة آدم بيده أربعين صباحا ^(١) ، لأن استحقاق تلك الطينة التخرص كان موقفا على مدة مبلغها ماذكر ، فإذا مرأه السنة لا يتذكر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب ، فهو عارج عن مقام التوكل غير واقف بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب ، فإن أسباب الدخول في الارتفاعات والوكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ، ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله ، ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما في الرتبة ، ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل ، فالأفضل أن لا يتخير أصلا ، وإن ضعف قلبه فكما قل ادخاره كان فضله أكثر ، وقد روى في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامة أن ينسلوا ففسلاه وكفناه يردته ، فلما دفعه قال لأصحابه : إنه يموت يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ولولا خصلة كانت فيه ليمت ووجهه كالشمس الضاحية ؛ قلنا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : كان صواما قواما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه ، وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم ، بل أقل ما أوليتم اليقين وعزيمة الصبر ^(٢) ، الحديث ، وليس السكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك ، فإن ادخاره لا ينقص الدرجة ، وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف ، وهذا في حق من لا يزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق ، فإن كان يستشرف في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والهكر فالادخار له أولى ، بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيًا بقدر كفايته وكان لا يتخير قلبه إلا به فذلك له أولى ، لأن المقصود إصلاح القلب ليتجاوز لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه ، والمخذور ما يشغل عن الله عز وجل ، وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمخترعون وأهل الحرف والصناعات ، فلم يأمر التجار بترك تجارتهم ولا المخترعون بترك حرفتهم ولا أمر التارك لها بالاشتغال بهما ، بل دعا لكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى ، وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب ، فصواب الضميف ادخار قدر حاجته ، كما أن صواب القوى ترك الادخار ،

(١) حديث : خر طينة آدم بيده أربعين صباحا . رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسانل النخاسي بإسناد ضعيف جدا وهو باطل .

(٢) حديث : أنه قال في حق الفقير الذي أمر عليا أو أسامة نفسه وكفناه يردته : أنه يموت يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ... الحديث . وفي آخره : من أقل ما أوليتم اليقين وعزيمة الصبر . لم أجده أصلا ، وبهذه آخر الحديث قبل هذا .

وهذا كله حكم المنفرد؛ فأما المليل فلا يخرج من حد التوكل بأدخار قوت سنة لبعاله جسيماً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم، وأدخار أكثر من ذلك مليل للتوكل، لأن الأسباب تتكرر عند تكرار السنين؛ فأدخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه، وذلك يناقض قوة التوكل، فالتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة. وقد ادخر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لبعاله قوت سنة^(١)، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئاً لئلا^(٢)، ونهى بلالا عن الإدخار في كسرة خبز ادخره ليعطى بلالاً، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنفق بلالاً ولا تنقص من ذى العرش إقلالاً»^(٣)، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا سئلت فلا تجمع وإذا أعطيت فلا تخبأ»^(٤)، اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد كان نصرأمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول «ما يدري لعل لا أبلغه»^(٥)، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم لو أخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره، ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعلماً للأقوياء من أمته، فإن أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوته، وادخر عليه السلام لبعاله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله، ولكن ليس ذلك للضعفاء من أمته، بل أخبر: «إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»^(٦)، وتطبيقاً لقلوب الضعفاء حتى لا يفتنى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون اللبسور من الخير عليهم بمعجزهم من منتهى الدرجات، فما أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا راحة للعالمين كلهم عليه اختلاف أصنافهم ودرجاتهم، وإذا فهمت هذا علمت أن الإدخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر، ويدل على ما روى أبو أمامة الباهلي: أن بعض أصحاب الصفة توفي فاجد له كفن، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «فقتلوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كيتان»^(٧).. وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه، وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين: (أحدهما) أنه أراد كيتين من النار، كما قال تعالى ﴿تَكُونُ بِمَا جَبَاهُمْ وَجَنَّتْهُمْ وَظَهَرُوا﴾ وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبس (والثاني) أن لا يكون ذلك عن تلبس، فيكون اللعن به التقصان عن درجة كاله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه، وذلك لا يكون عن تلبس، فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة، إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص بقدره من الآخرة. وأما بيان أن الإدخار مع فراغ القلب عن المتخبر ليس من ضرورته بطلان التوكل، فيشهد له ما روى عن بشر. قال الحسين المغازلي من أصحابه: كنت عنده ضوفة من النهار، فدخل عليه رجل كهل أمر خفيف المراضين، فقام إليه بشر، قال: وما رأيت قائماً لأحد غيره، قال: ودفع إلى كفاه من درهم وقال: اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب، وما قال في قط كسرة خبز، فلم أره.

(١) حديث: ادخر لبعاله قوت سنة، متفق عليه، وتقدم في الزكاة. (٢) حديث: نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً لئلا^(٢)، تقدم لئلا^(٢) أيمن وغيرها. (٣) حديث: نهى بلالا عن الإدخار وقال: «أنفق بلالاً ولا تنقص من ذى العرش إقلالاً» رواه الإزار من حديث ابن مسعود وابن جرير، وقال: دخل عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعنده مبر من تمر، فقال ذلك. وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة: «كلها ضيفة». وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز، فلم أره.

(٤) حديث قال بلال: «إذا سئلت فلا تمنع، وإذا أعطيت فلا تخبأ». رواه الطبراني والمالك من حديث أبي سعيد وهو متفق. (٥) حديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال وتيمم مع قرب الماء ويقول «ما يدري لعل لا أبلغه» أخرجه ابن أبي الدنيا في نصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف. (٦) حديث: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه... الحديث» أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمر وقد تقدم. (٧) حديث أبي أمامة: توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخلة إزاره، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كيتان». رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه.

مثل ذلك ، قال : جئت بالطعام فوضعت فأكَل معه وما رأيته أكل مع غيره ، قال : فأكلنا حاجتنا وبقى من الطعام شيء كثير ، فأخذ الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف ، فمضت من ذلك وكبرته له ، فقال لي بشر : لعلك أنكرت فعله ؟ قلت : نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن ، فقال : ذاك أخوتنا فتح الموصلي زارنا اليوم من الموصل فإنما أراد أن يعلنا أن التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار .

(الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المترى بالخوف) اعلم أن الضرر قد يمرض الخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأسا ؛ أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المسائل والسقف المنكسر ، فكل ذلك منهي عنه ، وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة ، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ، ومظنونة ، وإلى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وحى الله لسببها إلى دفع الضرر لسبب السكى والرقية ؛ فإن السكى والرقية قد تقدم به على المخذور دفعا لما يتوقع ، وقد يستعمل بعد نزول المخذور الإزالة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك السكى والرقية والطيرة ، ولم يفهمهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة ، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع ، وكذلك كل مافى منها من الأسباب ، نعم الاستظهار بأكل التوم مثلا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تبيها لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من السكى بخلاف الجبة ، ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان ، فإنه إذا أسكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر ، قال الله تعالى (فاتخذوا كيلا واصبر على ما يقولون) وقال تعالى (ولصبرن على ما أذيتنونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال عز وجل (ودع أذاك وتوكل على الله) وقال سبحانه وتعالى (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال تعالى (نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) وهذا في أذى الناس ، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والمقارب ، فترك دفعها ليس من التوكل في شيء إلا قاعدة فيه ، ولا يراد السعى ولا يترك السعى ليعتد بل لإعاقته على البين ، وترتب الأسباب منها كترتها في السكب وجلب المنافع فلا تطول بالإعادة ، وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال ، فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت سنة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أحمل البعير وقال توكلت على الله وأعقلها وتوكل .^(١) ، وقال تعالى (خذوا حذركم) وقال في كيفية صلاة الخوف (وليأخذوا أسلحتهم) وقال سبحانه (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن دباط الخيل) وقال تعالى لموسى عليه السلام (فأمر بعبادى ليلا) والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب ، واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في النار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر .^(٢) ، وأخذ السلاح في الصلاة فليس دفعا قطعاً لقتل الحية والمقرب ظناً بدافع قطعاً ، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع ، وإنما الموهوم هو الذى يقتضى التوكل تركه .

ه فإن قلت : فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك . فأقول : وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسجروا فلا يلزى أن يترك ذلك المقام ؛ فإنه وإن كان محيطاً في نفسه فلا يصلح للاقتداء

(١) حديث « أعقلها وتوكل » أخرجه الترمذى من حديث أنس ، قال يحيى القطان : مشكور . ورواه ابن خزيمة في التوكل ، والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضميرى بإسناد جيد « ليدها » . (٢) حديث : اخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعين الأعداء دفعا للضرر ، تقدم في قصة اختفائه في النار عند لروادة الهجرة .

بطريق التعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطا في التوكل ، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها .

• فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أني قد وصلت إليها ؟ . فأقول : الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه : أن يسخر لك كلب هو مملك في إهابك يسمى التنبؤ ، فلا يزال يحضك ويضع فرك ، فإن سحر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستقل إلا بإشارتك وكان مسخرا لك ، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع ، وكلب دارك أولى أن يكون مسخرا لك من كلب البراذي ، وكلب إهابك أولى بأن يسخر من كلب دارك ، فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطلع في استئجار الكلب الظاهر .

• فإن قلت : فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق ، فبأي اعتبار يكون متوكلا ؟ فأقول : يكون متوكلا بالعلم والحال ، فاما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفائته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه ؛ فكيف من باب يعلق ولا يندفع ، وكمن يدير يعقل ويموت أو يفات ، وكمن أخذ سلاحه يقتل أو يغلب ؛ فلا تتكل على هذه الأسباب أصلا بل على مسبب الأسباب ، كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة فإنه إن حضروا حضر السجل فلا يتشكل على نفسه ويحمله بل يتشكل على كفاية الوكيل وقوته ، وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول : اللهم إن سلطت على ماني البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك ، فإن لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسرجعها ، أو عارية وودعة فقتلها ، ولا أدري أنه رزق أو سبقت مشيتك في الأزل بأنه رزق غيري ، وكيفما قضيت فأنا راض به ، وما أغلقت الباب تحصنا من قضاك وتسخطا له ، بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب ، فلا تله إلا بك يا مسبب الأسباب ؛ فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه هله لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ، ثم إذا فوجئ متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى ، وإن لم يجده بل وجدته مسروقا نظر إلى قلبه ، فإن وجدته راضيا أو فرحا بذلك عالما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه ، وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقا في دعوى التوكل ؛ لأن التوكل مقام بعد الزهد ، ولا يصح الزهد إلا بمن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي ، بل يكون على المكس منه ، فكيف يصح له التوكل ؟ نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس ، وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب بيده ، فقد كانت السرقة مزيدا له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذب في جميع الدعاوى ؛ فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصنق نفسه في دعاوئها ولا يتبدل بحبل غرورها ؛ فإنها خنقة أماراة بالسوء مدعية الخير .

• فإن قلت : فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ ؟ فأقول : التوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإمام يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت ، وقد يدخل في يده مال وهو يسكنه ليجد محتاجا فيصرفه إليه ، فلا يكون ادخاره على هذه النية مجبلا لتوكله ، وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده ، وإنما ذلك في

المأكل وفي كل مال زائد على قدر الضرورة ؛ لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد ، وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولأقل كل أسبوع ، والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل ، ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل والزكوة والمقراض والإبرة دون الزاد ، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأحرار .

هـ فإن قلت : فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه ، فإن كان لا يشتهي فلم أمسكه وأغلق الباب عليه ، وإن كان أمسكه لأنه يشتهي لحاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهي ؟ فأقول : إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع ، ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه ، فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به ، إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبطل بفقد ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في الصب والتائب أكثر ؛ فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه ، لأنه في جميع الأحوال وافق بالله حسن الظن به ، فيقول : لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخير قل الآن في عدمها لما أخذها مني ، فبمثل هذا الظن يتصور أن يتدفع عنه الحزن ، إذ به يفرج عن أن يكون فرحها بأسباب من حيث إنها أسباب ، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية ولطفًا ، وهو كالمرضى بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله ، فإن قدم إليه الغذاء فرح وقال : لولا أنه يعرف أن الغذاء ينقضي وقد قويت على احتجائه لما قربه إلى ، وإن أخر عنه الغذاء بمد ذلك أيضا فرح وقال : لولا أن الغذاء يضرب ويسوقني إلى الموت لما سأل بيني وبينه ، وكل من لا يستند لطف الله تعالى ما يعتمد المريض في الوالد المشفق الحاذق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب ، فإنه لا يدري أي الأسباب خير له ، كما قال عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا ؛ فإنني لا أدري أيهما خير لي ، فكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل يسرق متاعه أو لا يسرق فإنه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة ، فكمن من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان ؛ وكمن غنى ببطل بوافقة لأجل غناه يقول ياليتي كنت فقيرا !

بيان آداب للتوكلين إذا سرق متاعهم

للتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه (الأول) أن يفتق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالناسك من الجيران الحفظ مع النلق ، وبكمه أغلاقا كثيرة ؛ فقد كان مالك بن دينار لا يفتق بابه ولكن يشده بخریط ويقول : لولا السكاب ما شددته أيضا (الثاني) أن لا يترك في البيت متاعا يمرض عليه السارق فيكون هو سبب معصيتهم أو إصاكه يكون سبب هيجان رغبتهم ، ولذلك لما أهدى الخيرة إلى مالك بن دينار زكوة قال : خذها لا حاجة لي إليها . قال : لم ؟ قال : يوسوس إلى البدن أن اللص يأخذها ، فكانه أحرز من أن يهوى السارق ؛ ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ، ولذلك قال أبو سليمان : هنا من ضغف قلوب الصوفية هنا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها (الثالث) أن ما ينظر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول : ما يأخذ السارق فهو منه في حل أو في سبيل الله تعالى ، وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة ، وإن لم يشترط الفقر فهو أولى ، فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير (إحصاها) أن يكون

ماله ما ناله من المصيبة ، فإنه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصبانته بأكل الحرام لما أن جعله في حل (والثانية) أن لا يظلم مسلماً آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما ينوب حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوب دفع المصيبة عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتنل قوله صلى الله عليه وسلم « النصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »^(١) ، ونصر الظالم : أن تمنحه من الظلم ، وعضوه عنه إعدام الظلم ومنع له ، وليتحقق أن هذه الآية لا تقصر بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويفسر القضاء الأزل . ولكن يتحقق بالزهد فيته ، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعة دراهم لأنه نواه وقصده ، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضاً ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأثر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له^(٢) ، لأنه ليس أمر الولد إلا الوفاق ، فأما الحق والحياة والزك والبقاء فليس إليه ، فلو خلق لكان نوابه على فعله ، وفعله لم ينعدم ، فكذلك أمر السرقة (الرابع) أنه إذا وجد المال مسروقاً فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول : لولا أن الحيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ، ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل ، فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين ؛ وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه ، فإنه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة ، فإن أعيد عليه ، فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل ، وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم ، لأن الملك لا يزول بمجرد تلك الآية ، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين :

وقد روى أن ابن عمر سرق ناقته فطلبها حتى أعيا ، ثم قال : في سبيل الله تعالى ، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن ناقتك في مكان كذا فليس لكه ، ثم قال : استغفر الله وجلس ، فقيل له : ألا تلذّب فتأخذهما ؟ فقال : إني كنت قلت في سبيل الله .

وقال بعض الشيوخ : رأيت بعض إخواني في التوم بعد موته فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفرت وأدخلني الجنة وعرض على منازل فيها فرأيتها ، قال : وهو مع ذلك كتيب حزين ! فقلت : قد غفرك ودخلت الجنة وأنت حزين ! فتنفس الصعداء ثم قال : نعم إني لأزال حزيناً إلى يوم القيامة . قلت : ولم ؟ قال إني لما رأيت منازل في الجنة رفعت لي مقامات في عطين ما رأيت مثلاً فيها رأيت ، ففرحت بها ، فلما هممت بدخولها نادى منادى من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له ! فما هي لمن أمضى السبيل ، فقلت وما لمضاء السبيل ؟ فقيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه ، فلو كنت أمضيت السبيل لأمعنيته لك .

وحكى عن بعض العباد بمسكه أن كان نائماً إلى جنب رجل معه مميته ، فأنابه الرجل ففقد مميته فأتته به ، فقال له كم كان في مميته ؟ فذكر له ، فحمله من البيت ووزنه من عنده ، ثم بعد ذلك أعلاه أصحابه أنهم كانوا أخذوا المميته من ما معه ، فجاء هو وأصحابه معه ورددوا الذهب ، فأبى وقال خذوا حلالاً طيباً ، فما كنت لأعود في مال أخرجه في سبيل الله عز وجل ، فلم يقبل ، فألجأوا عليه ، فلما أبى وجدل يصره صريراً ويبعث به إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء .

فهكذا كانت أخلاق السلف ، وكذلك من أخذ رغبنا ليعطيه فقيراً فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجهم فيعطيه فقيراً آخر ، وكذلك يفعل في الهرام والذناير وسائر الصدقات (الخامس) وهو أقل الدرجات

(١) حديث « النصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » متفق عليه من حديث أس ، وقد تقدم . (٢) حديث « من ترك الزل وأثر النطفة قرارها كان له أجر غلام ... الحديث » لم أجده أصلاً .

أن لا يدعوا على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كرامته وتأسفه على ما فات ، وبطل زعمه ، ولو بالغ بطل أجره أيضا فبما أصيب به ، في الخبر « من دعا على ظلمه فقد انتصر »^(١) . وحكى أن الربيع بن خثيم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلي ، فلم يقطع صلاته ولم ينزع لطلبه ، فجاءه قوم يمزونه فقال : أما إني قد كنت رأيتك وهو يهله : قيل : وماملكك أن تزجره ؟ قال : كنت فيها هو أحب إلي من ذلك - يعني الصلاة - فجعلوا يدعون عليه فقال : لا تفعلوا وقولوا خيرا فإني قد جعلتها صدقة عليه .

وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له : ألا تدعو على ظالمك ؟ قال : ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه . قيل : أرايت لو رد عليك ؟ قال : لا آخذه ولا أنظر إليه لاني كنت قد أحلته له . وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال : ما ظلمني أحد ، ثم قال : إنما ظلم نفسه ، ألا يكفي المسكين ظم نفسه حتى أزيده شرا .

وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه ، فقال : لا تفرق في شتمه ، فإن الله تعالى ينتصف للحجاج من اتهمك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه .

وفي الخبر « إن العبد ليظلم للظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظالم »^(٢) ، (السادس) أن يتم لأجل السارق وعصيانه وتوحيده لعذاب الله تعالى ، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك قصفا في دينه لا تقصافي دينه ، فقد شكأ بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال : إن لم يكن لك غم أنه قد صار في السلبين من يستحل هذا أكثر من غمك بما لك لما نصحت للسلبين .

وسرق من على بن الفضيل دنائير وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن ، فقال : أعلی الدنايير بكى ؟ فقال : لا والله ولكن على المسكين أن يستل يوم القيامة ولا تكون له حجة .

وقيل لبعضهم : ادع على من ظلمك ، فقال : إني مشغول بالحزن عليه عن العناء عليه ، فهذه أخلاق السلف رضى الله عنهم أجمعين .

(الفن الرابع : في السعي في إزالة الضرر كدواوة المرض وأمثاله) اعلم أن الأسباب المزية للعرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالإملاء للزيل لضرر العطش والخبز للزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب ، أعني معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب ، وإلى موهوم كالسكي والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه ، بل تركه حرام عند خوف الموت . وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم التوكلين ، وأقواها السكي ، وبابه الرقية ، والطيرة آخر درجاتها ، والاعتقاد عليها والامتناع إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب ، وأما الدرجة المتوسطة وهي المختلطة كالدواوة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم ، وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع ، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين ، ويدل على أن التداوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث « من دعا على ظلمه فقد انتصر » تقدم . (٢) حديث « إن العبد ليظلم للظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة » . الحديث .

وسلم وقوله وأمره به ؛ أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السم »^(١) ، يعني الموت . وقال عليه السلام « تداءوا عباد الله فإن الله خلق الماء والدواء »^(٢) . وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : « هي من قدر الله »^(٣) ، وفي الخبر المشهور « ما مرت بلاء من الملائكة إلا قالوا سرأتمك بالحجامة »^(٤) ، وفي الحديث أنه أمر بها وقال « احتجموا لسبع عشرة وقسم عشرة ولحدي وعشرين لا يتبين بكم الدم فيقتلكم »^(٥) ، فذكر أن يتبين الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى ، وبين أن إخراج الدم خلاص منه ، إذ لا فرق بين إخراج الدم المملوك من الإهاب وبين إخراج المقرّب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت ، وليس من شرط التوكل ترك ذلك ، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلاً . وفي خبر مقطوع « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة »^(٦) ، وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى بالحجامة^(٧) ، وقطع لسعد بن معاذ عرقاً^(٨) أي فصدّه ، وكوى سعد بن زرارة^(٩) ، وقال لعل رضى الله تعالى عنه وكان رمد العين « لا تأكل من هذا » يعني الرطب ، وكل من هذا فإنه أوفى لك^(١٠) ، يعني سلفاً قد طبخ بديق شير . وقال لصبيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين دماً كل تمر وأنت أرمده ، فقال : « إني آكل من الجانب الآخر » فتهبهم صلى الله عليه وسلم^(١١) . وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى في حديث من طريق أهل الحديث أنه كان يكتم كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة^(١٢) . قيل : السنة الحكى .

(١) حديث « مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السم » رواه أحمد والبخاري في حديث ابن مسعود دون قوله « ولا السم » وهو عند ابن ماجه مختصراً دون قوله « عرفه ... إلى آخره » واستاده حسن ، والترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك « ولا المرم » والبخاري في الأوسط والبخاري في الحديث أبي هريرة « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » وسلم من حديث جابر « لكل داء دواء » . (٢) حديث « تداءوا عباد الله » . رواه الترمذي وصححه ، وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك . (٣) حديث : سئل عن القواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال « هي من قدر الله ... » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي خزيمة ، وقيل من أبي خزيمة عن أبيه ، قال الترمذي : وهذا أصح . (٤) حديث « ما مرت بلاء من الملائكة إلا قالوا سرأتمك بالحجامة » رواه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ، ورواه ابن ماجه من حديث أسامة بن شريك . (٥) حديث « احتجموا لسبع عشرة وقسم عشرة ولحدي وعشرين ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث ابن عباس بسند حسن موثقاً ، ورواه الترمذي بلفظه أن خير ما تحتجون فيه سبع عشرة ... الحديث « دون ذكر التبيخ » ، وقال : حسن غريب ، وقال البخاري : إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ، وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك « من أراد الحجامة فليحتر صبة عصر ... الحديث » .

(٦) حديث « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة » رواه البخاري في حديث معقل بن يسار ، وابن جرير في الضعاف من حديث أسامة واستادهما واحد اختلف على رواه في الصحابي ، وكلاماً فيه زين المعنى وهو ضيف . (٧) حديث أسامة بالتداوى أنبر واحد من الصحابة . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعرابي حين سأله « تداءوا ... الحديث » وسأني في قصة علي وصبيب في الحية بسده . (٨) حديث : قطع عرقاً لسعد ابن معاذ ، أخرجه مسلم من حديث جابر قال : روى سعد في كفه لحسه التي صلى الله عليه وسلم بيده بمقحم ... الحديث . (٩) حديث أنه كوى سعد بن زرارة ، رواه البخاري من حديث سهل بن حنيف بسند ضيف ، ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل . (١٠) حديث قال لعل وكان رمدنا « لا تأكل من هذا » . الحديث « رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن غريب ، وابن ماجه من حديث أم القنبر . (١١) حديث قال لصبيب ولقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تأكل تمرأ وأنت رمد ... الحديث » يهدم في آفات اللسان . (١٢) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتم كل ليلة وعصم كل شهر ويعرب الدواء كل سنة ، أخرجه ابن عدى من حديث عائشة قال : إنه مشكرك ، وفيه سيف بن عبد كذبه أحد بن حنبل ومحمّد بن مجاهد .

وتدأى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقر وغيرها ^(١) . وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي صعد رأسه فكان يلقفه بالحناء ^(٢) . وفي خبر : أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء ، وقد جعل على قرحة خرجت به ترابا ^(٣) . وما روى في تدأيه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر ، وقد صف في ذلك كتاب ومي طب النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بعله فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته ! فقالوا له : لو تدأيت بكذا لبرئت ، فقال : لا أتدأى حتى يمافيني هو من غير دواء ، فطالت علته فقالوا له : إن دواء هذه العلة معروف مجرب ، وإننا نتدأى به فغيراً ، فقال : لا أتدأى ، وأقامت علته ، فأوحى الله تعالى إليه : وعزني وجلالي لأبرأتك حتى تتدأى بما ذكره لك ، فقال لهم : داووني بما ذكرتم ، فدأوه فبرأ ، فأوحى في نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟ .

وروى في خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكاة مجدها ، فأوحى الله تعالى إليه : كل البيض . وشكا نبي آخر الضعف ، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم بالبن فإن فيها القوة ، قيل هو الضعف عن الجماع . وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم فبشع أولادهم ، فأوحى الله تعالى إليه : مرم أن يطعموا نساءهم الحبال السفرجل فإنه يحسن الولد . ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع ، إذ فيه يصور الله تعالى الولد ، وقد كانوا يطعمون الحبل السفرجل ، والنساء الموط .

فهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط للسيات بالأسباب إظهاراً للحكمة ، والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كاستار الأسباب ، فكأن أن الحبز دواء الجوع والماء دواء العطش والسكجين دواء الصفراء ، والسقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلا في أحد أمرين (أحدهما) أن معالجة الجوع والعطش والماء والحبز جلي واضح يدركه كافة الناس ، ومعالجة الصفراء بالسكجين يدركه بعض الخواص ، فن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالآل (الثاني) أن الدواء يسهل ، والسكجين يسكن الصفراء بشروط أخرى في الباطن وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها ، وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الإسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطاً كثيرة ، وقد يتفق من العوارض ما يوجب داء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبداً ينحصر في هذين الشيئين ، وإلا فالسبب ينال السبب لاعتالة مهما تمت شروط السبب ، وكل ذلك به بير مسبب الأسباب وتسخييره ، وتريه بحكم حكته وكالقدرته ، فلا يضرب التوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء ؛ فقد روى عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يارب ، من الماء والدواء ؟ فقال تعالى : مني . قال : فما يضع الأطباء ؟ قال : يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس

(١) حديث أنه تدأى غير مرة من العقر وغيرها ، رواه الطبراني بإسناد حسن من حديث جابر بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدفته عقر ب فمى عليه ففلا . ناس ... الحديث ، وله في الأوسط من رواية سعيد بن مسرة وهو ضعيف عن أس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى ففح كفا من شونيز وشرب عليه ماء وعسلا ، ولأبي بلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتجم بعد ماسم ، وفيه جابر الجعفي ضفة الجمهور .

(٢) حديث : كان إذا نزل عليه الوحي صعد رأسه فلقفه بالحناء ، أخرجه البزار وابن عدى في السكاكل من حديث أبي هريرة ، وقد اختلف في إسناده على الأوس بن حكيم : كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء ، رواه الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى ، قال الترمذي : غريب . (٣) حديث : جعل على قرحة خرجت بيده ترابا ، رواه البزارى وسلم من حديث طايفة : كان إذا اشتكى الإنسان الداء منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي صلى الله عليه وسلم يسه هكذا ، ووضع سليمان بن عبيدة الراوى سبانه بالأرض ثم رفعها وقال « بسم الله تربة أرضنا وروية بمننا يقضى سقبتنا » .

عبادى حتى يأتى شفاى أو يفتاق ؛ فلوذن معنى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال ، كما سبق في فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع ، فأما ترك التداوى رأساً فليس شرطاً فيه .

« فإن قلت : فالكى أيضاً من الأسباب الظاهرة للنفع . فأقول : ليس كذلك ، إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقى المبرعات للحرور . وأما الكى فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه ، وقبلها يمتد الكى في أكثر البلاد ، وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب ؛ فهذا من الأسباب الموهومة كالرقى ، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه إحراق النار في الحال مع الاستغناء عنه فإنه مأمون وجع يعالج بالكى إلا وله دواء يثنى عنه ليس فيه إحراق ، فالإحراق بالنار جرح عجزب للبيئة محذور السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرائتها بعيدة ولا يستمسها غيرها ، ولذلك نبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكى دون الرقى (١) . وكل واحد منهما بعيد عن التوكل . وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكى فامتنع ، فلم يزالوا به وعزم عليه الأسر حتى أكتوى ، فكان يقول : كنت أرى نوراً وأسمع صوتاً وتسلم على الملائكة ، فلما أكتويت انقطع ذلك عني ، وكان يقول أكتويتا كيات فواقه ما أفلحت ولا أنجحت ، ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى ، فرد الله تعالى عليه ما كان يهد من أمر الملائكة . وقال لمطرف بن عبد الله : ألم تر إلى الملائكة التي كان أكرمى الله بها قد ردما الله تعالى على ! بعد أن كان أخبره بفقدما ؛ فلوذن الكى وما يجرى مجراه هو الذي لا يليق بالتوكل لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير ، ثم هو مذموم ، ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها ، والله أعلم

بيان أن ترك التداوى قد يحمى في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل

وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الذين تداؤوا من السلف لا ينحصرون ، ولكن قد ترك التداوى أيضاً جماعة من الأكابر ، فربما يظن أن ذلك نقصان ، لأنه لو كان كالا تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاذ لا يكون حال غيره من التوكل أكل من حاله .

وقد روى عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قيل له : لو دعونا لك طبيباً ؟ فقال : الطبيب قد نظر إلى وقال : إنى نعال لما أريد . وقيل لأبي برداء في مرضه : ما تشكى ؟ قال : ذنوبى . قيل : فما تشفى ؟ قال : مغفرة ربى قالوا ألا ندعو لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضى وقيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه : لو داويتها ؟ قال : إنى عنهما مشغول ؛ فقيل : لو سألت الله تعالى أن يعافيك ؟ فقال : أسألهما هو أم على منهما .

وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج ، فقيل له لو تداويت ؟ فقال : قد هممت ثم ذكرت عباداً وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فهم الأطباء ، فهلك المداوى والمداوى ، ولم تدرى الرقى شيئاً . وكان أحمد بن حنبل يقول : أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وإن كان به علل فلا يغير للمتطلب بها أيضاً إذا سأل .

(١) حديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكى دون الرقى ، ورواه البخارى من حديث ابن عباس « وأنها أمى عن الكى » ولى الصحيحين من حديث عائشة : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من كل دى حة .

وقيل لسهل : متى يصح للعبد التوكّل ؟ قال : إذا دخل عليه الضرر في جسمه والتقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلا بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه .

فإذا منهم من ترك التداوى وراءه ، ومنهم من كرهه ، ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله إلا بحصر الصوارف عن التداوى . فنقول : إن ترك التداوى أسبابا (السبب الأول) أن يكون المريض من المكاشفين وقد كشف بأنه انتهى أجله وأن الهواء لا ينفعه ، ويكون ذلك معلوما عنده نارة برؤيا صادقة ، ونارة بحس وطن ، ونارة بكشف محقق ، ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التداوى من هذا السبب ، فإنه كان من المكاشفين ، فإنه قال لما شفى رضى الله عنه في أمر الميراث : إنما من أختاك ، وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت أمراته حاملا فولدت أنثى ، فلم أنه كان قد كشف بأنها حامل بأنثى ، فلا يبعد أن يكون قد كشف أيضا بانتهاء أجله ، وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به (السبب الثاني) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف طاقته وإطلاع الله تعالى عليه ، فيمنسه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله ، وعليه يدل كلام أودز إذ قال : إني عنهما مشغول . وكلام أبي الرداء إذ قال : إنما أشتكى ذنوبي ، فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ، ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته ، أو كالحائض الذي يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له : ألا تأكل وأنت جائع ؟ فيقول : أنا مشغول عن ألم الجوع ، فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طمنا فيمن أكل ، ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له : ما القوت ؟ فقال : هو ذكر الحى التيمم ، قيل : إنما سألناك عن القوام ؟ فقال : القوام هو العلم . قيل : سألناك عن الغذاء ؟ قال : الغذاء هو الذكر . قيل : سألناك عن طعمة الجسد ؟ قال : مالك وللجسد . دع من تولاة أولا يتولاة آخرها : إذا دخل عليه علة فردّه إلى صانعه ، أما رأيت الصنعة إذا صيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها (السبب الثالث) أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع . جار بجرى السكى والرفية ، فيتركه المتوكل ؛ وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال : ذكرت حادا ونمرد وفهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى . أى أن الدواء غير موثوق به ، وهذا قد يكون كذلك في نفسه ، وقد يكون عند المريض كذلك فقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له ، فلا يهلب على ظنه كونه نافعا ، ولا شك في أن الطبيب المجهز أشد اعتقادا في الأدوية من غيره ، فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد ، والاعتقاد بحسب التجربة ، وأكثر من ترك التداوى من السبب والزهاد ، هذا مستقدم لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لا أصل له ، وذلك صحيح في بعض الأدوية عندما عرف صناعة الطب ، غير صحيح في البعض ، ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى السكل نظرا واحدا ، فيرى التداوى تعمقا في الأسباب كالسكى والرفى ، فيتركه (السبب الرابع) أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاه الله تعالى ، أو ليحزب نفسه في القدرة على الصبر . فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره . فقد قال صلى الله عليه وسلم : نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاه ثم الأمل فالأمل يبطل العبد على قدر إيمانه فإن كان صلب الإيمان شدد عليه البلاه . وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاه ^(١) ، وفي الخبر : إن الله تعالى يحزب عبده بالبلاه كما يحزب أحدهم ذهبه بالآثار

(١) حديث : نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاه ثم الأمل فالأمل ... الحديث . رواه أحمد وأبو بيل والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف ، وقد تقدم مختصرا ، ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص وقال : صحيح على شرط الشيخين .

فهم من يخرج كالذهب الإبريز ، لا يزيد ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم من يخرج أسود عتقا ^(١) ، وفي حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضى اصطفاه » ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « تجبرون أن تكونوا كالخرف الضالة لا تترضون ولا تسقمون » ^(٣) ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه ، تجد المؤمن أصح شئ قلبا وأمرضه جسما ، وتجد المنافق أصح شئ جسما وأمرضه قلبا ، فلما عظم الشفاء على المريض والبلاء أحب قوم المرض واعتصموا اينالوا ثواب الصبر عليه ، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويدل أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغل المرض عنه ، وإنما يمنع المرض جوارحه ، وعلوا أن صلاتهم قعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع الغاية والصحة ، ففي الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة : اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فإنه في وثاق إن أطاقتة أبديته لخائرها من له ودعا خيرا من دمه ، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي » ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » ^(٥) ، فقيل : معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصاب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ وكان سهل يقول : ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات . وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها ، وكان يداوى الناس منها ، وكان إذا رأى العبد يصلى من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض ، فيتداوى للقيام إلى الصلاة والقبوض إلى الطاعات يجب من ذلك ويقول : صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للثقة والصلاة قائما ، وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل في شئ من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف ، ومن لم يدخل في شئ فهو أفضل ، لأنه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه ، ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه . وكان مذهبه ومذهب البصر بين أضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بأن ذمة من أعمال القلوب : مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، والمريض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان أله غالبا مدعشا . وقال سهل رحمه الله علل الأجسام رحمة الله وعلل القلوب ضيقة .

السبب الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها ، فيرى المريض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال الحى والمميلة بالعبد حتى يمضى على الأرض كالبردة ما عليه ذنب ولا خطيئة » ^(٦) ، وفي الخبر « حتى يوم كفاة سنة » ^(٧) ، فقيل لأنها تمدة سنة وقيل للإنسان ثلثائة وستون مقصلا فتدخل الحى جميعها ويجد من كل واحد الماء فيكون كل

(١) حديث « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحسنكم ذهبه ... الحديث » رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف . (٢) حديث : من طريق أهل البيت : « إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ... الحديث » ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرج له في مسنده ، والطبراني من حديث أبي عتبة « إذ أراد الله بعبده خيرا ابتلاه ، وإذا ابتلاه افتناه لا يتركه مالا ولا ولما » وسنده ضعيف . (٣) حديث « تجبرون أن تكونوا كالخرف الضالة لا تترضون ولا تسقمون » أخرجه ابن أبي عامر في الأحاد والثاني ، وأبو بصير وابن عبد البر في الصعابة ، والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة ، وهو صدر حديث « أن الرجل تكون له المزة عند الله ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر ، وقد تقدم . (٤) حديث « إن الله يقول للملائكة : اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فإنه في وثاق ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر ، وقد تقدم . (٥) حديث « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » تقدم ولم أجده مرغوما .

(٦) حديث « لا تزال الحى والمميلة بالعبد حتى يمضى على الأرض كالبردة ما عليه خطيئة » أخرجه أبو بصير وابن أبي عمير من حديث أبي هريرة ، والطبراني من حديث أبي الفرداء نحوه وقال « الصداق » بدل « الحى » والطبراني في الأوسط من حديث أسى « مثل المريض إذا صعد وبرأ من حره كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفاتها ولونها » وأما بسند ضعيف . (٧) حديث « حتى يوم كفاة سنة » رواه الفضامي في مسند الصهايب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال « ليلة » بدل « يوم » .

الم كفارة يوم . ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحلى ، سأله زيد بن ثابت ، به عز وجل أن لا يزال يحرموا فلم تكن الحلى تفارقه حتى مات رحمه الله ، وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكاتب الحلى لا يزالهم ^(١) ، ولما قال صلى الله عليه وسلم ، من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة ^(٢) ، قال فلقد كان من الأنصار من يتنى العصى . وقال عيسى عليه السلام ، لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطايه . وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال : يارب أرحمه فقال تعالى : كيف أرحمه فيما به أرحمه - أى به أكفر ذنوبه - وأزيد في درجاته .

السبب السادس : أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البطر والطفیان بطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعوده النغلة والبطر والطفیان ، أو طول الأمل والتسویف في تهاونك الغائت وتأخير الخيرات ، فإن الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينعم الهوى وتتوكل السموات وتدعو إلى المعاصي ، وأنها أن تدعو إلى التسمم في المباحات ، وهو تضییع الأوقات وإهمال الريح العظيم في غفلة النفس وملزمة الطاعات ، وإذا أراد الله بعد خيرا لم يخله عن التنبيه بالأمراض والمصائب ، ولذلك قيل : لا يخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة . وقد روى أن الله تعالى يقول : الفرح بهي والمرض قيدي أحبس به من أحب من خلتي ، فإذا كان في المرض حبس عن الطفیان وركوب المعاصي فأى خير يزيد عليه ؟ ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فأعافية في ترك المعاصي ، فقد قال بعض البارفين للإنسان : كيف كنت بدى ؟ قال : في عافية ، قال : إن كنت لم تعص الله عز وجل فأنت في عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوا من المصيبة ؟ ما عوفى من عصى الله وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم عيد : ما هذا الذى أظهره ؟ قالوا : يأمر المؤمنين هذا يوم عيد لهم ، فقال : كل يوم لا يصلى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد .

وقال تعالى (من بعد ما أراكم مانحين) قيل الدوافع (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) وكذلك إذا استغنى بالعافية . قال بعضهم : إنما قال فرعون : أما ربكم الأعلى لطول العافية ، لأنه لبث أربعين سنة لم يصعد له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه حرق فأدعى الربوبية - لعنه الله - ولو أخذته الحقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم : أكثروا من ذكر هادم اللذات ^(٣) ، وقيل : الحى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسویف .

وقال تعالى (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها . ويقال : لأن العبد إذا مرض مرتين ثم لم يقب قال له ملك الموت : يا فالح جاءك منى رسول بعد رسول فلم تحب .

(١) حديث لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحلى سأله زيد بن ثابت أن لا يزال يحرموا فلم تكن الحلى تفارقه حتى مات رحمه الله ، وسأل ذلك طائفة من الأنصار : أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد جيد : أن رجلا من المسلمين قال لرسول الله : أرايت هذه الأمراض تصيبنا ما لنا فيها قال « كفارات » قال أى : ولن قلت ؟ قال « فإن شربك ما فوفاها » قال : فدما أى أن لا يغارله الوصح حتى يموت ... الحديث ، والطفیان فى الأوسط من حديث أبي بن كعب أنه قال : يارسول الله ، اجزاء الحلى ؟ قال : تجرى الحسنات على صاحبها ما احتلج عليه قدم أو غرب عليه عرق ، فقال : اللهم أنى أسألك حتى لا يتنى خروجا في سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا مسجد نبيك . . . الحديث ، والإسناد مجهول ، قاله أبو بن المدين . (٢) حديث « من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة » تقدم المرفوع منه دون قوله : فلقد كان في الأنصار من يتنى العصى .

(٣) حديث « أكثروا ذكر هادم اللذات » أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب ، والنساق وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال . وقالوا : لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوما أن يرقع روعة أو يصاب ببلية حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم « عرض عليه امرأة ثكبي من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقبل وإنها ما مرضت قط ، فقال لأحاجة لي فيها ^(١) » . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ما عرفه ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم « إليك عني من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وهذا ^(٢) » لأنه ورد في الخبر « الحى حظ كل مؤمن من النار ^(٣) » .

وفي حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما : قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة ^(٤) » ، وفي لفظ آخر « الذى يذكر ذنوبه فتحتره » ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أعظم ، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها إذ رأوا أنفسهم من يدا فيها لا من حث رأوا التداوى نقصانا ؟ وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم ؟ .

بيان الرد على من قال : ترك التداوى أفضل بكل حال

فلو قال قائل : إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنفيه وإلا فهو حال الضعفاء ، ودرجة الأقياءه توجب التوكل بترك الدواء ؟ فيقال : يلزم أن يكون من شروط التوكل ترك الحجة والفصد عندتبغ الدم .

فإن قيل : إن ذلك أيضا شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينجمها عن نفسه ، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما ؟ . فإن قال : وذلك أيضا شرط التوكل ؟ فيقال : يلزم أن لا يزيل لدغ العنصر بالماء ولدغ الجوع بالجذب ولدغ البرد بالجة وهذا لا قائل به .

ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب ربها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته . ويدل على أن ذلك ليس من شروط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون ، فإنهم لما قصدوا الشام وانتهبوا إلى الجابية بلنهم الخبر أن به موتا عظيما وبواب ذريعا ، فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم : لا ندخل على الرواب فلتقى بأبيدنا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى : بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفتر من الموت فنسكن كمن قال الله تعالى فيهم ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾ فرجعوا إلى عمر فسأله عن رأيه ، فقال : رجع ولا ندخل على الرواب ، فقال له المخالفون لو رأيه : أنفتر من قدر الله تعالى ، قال عمر : نعم نفتر من قدر الله إلى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلا ، فقال : أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان : إحداهما مخصبة : والأخرى مجربة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجربة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا : نعم ، ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه . وكان غائبا . فلما أصبحوا جاء

(١) : حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل : إنها ما مرضت قط ، فقال « لأحاجة لي فيها » أخرجه أحمد من حديث أنس بن مالك بإسناد جيد .
(٢) : حديث : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ؟ ما عرفه ؟ فقال « إليك عني » . الحديث . رواه أبو داود من حديث عامر البراء بن أسير بن أسير بن أسير ، وفي إسناده من لم يسم .
(٣) : حديث « الحى حظ كل مؤمن من النار » . رواه البخاري من حديث عائشة ، وأحمد من حديث أبي أمامة والطبراني في الأوسط من حديث أنس ، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود ، وحديث أنس بن مالك وبأبي حنيفة .
(٤) : حديث أنس وعائشة : قيل يا رسول الله ، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة » لم ألق له على إسناده .

عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال : عدى فيه يأمر المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : الله أكبر ، فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تتقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ^(١) » ، فخرج عمر رضى الله عنه بذلك وحداقه تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فإذا كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل ؟ .

• فإن قلت : فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء ، وسبب الوباء في الطب الهواء ، وأظهر طرق التداوى الفرار من المضر ، والهواء هو المضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح ، وهذا لا يدل على المقصود ، ولكن الذى ينقدح فيه - والعلم عند الله تعالى - أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له ، فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأخير في الباطن ، فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذى استحكم من قبل ، ولكن يترجم للخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرق والطيرة وغيرهما ، ولو تجر هذا المنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منبها عنه ، ولكن صار منبها عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص الأصحاء للخروج لما بقي في البلد إلا المرحى الذين أقدمهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعدين ، ولم يبق في البلد من يستقيم المأمور بطمئنتهم الطعام وهم يهجرون عن مباشرهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيًا في إهلاكهم تحقيقًا ، وخلصهم منتظرًا أن خلاص الأصحاء منتظر ؛ فلم يأتمروا لم تكن الإغامة قاطعة بالموت ، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعًا بإهلاك الباقيين ، والمسلمون كالبنيان يشد بعضهم بعضًا والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه . فهذا هو الذى ينقدح عندنا في تمثيل التهى وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فإنه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم . نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون واقتروا إلى المتعدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استجباب الدخول ههنا لأجل الإغامة ، ولا ينهى عن الدخول لأنه تمزى لظهور موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ، وهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف ^(٢) لأن فيه كسرا لقلوب بقية المسلمين وسعيًا في إهلاكهم . فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر مما يحسنه ، وغلط البعاد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك .

فإن قلت : في ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل ؟ فنقول : فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها ، أو خاف على نفسه غطيان العافية وغلبة الشهوات ، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لثلبة النفقة ، أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين ، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهوما كالرق ، أو كان شغله بمجاله بمنه عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضغنه عن الجمع ؛ فإلى هذه الممانى رجعت الصوارف في ترك التداوى ، وكل ذلك كالات بالإضافة إلى بعض الخلق ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها إذا كان حاله يقتضى أن تكون

(١) حديث عبد الرحمن بن عوف « إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تتقدموا عليه ... الحديث » وفي أول قصة خروج عمر بالناس إلى الجابية وأنه ينهون أن يأتوا بالوباء ... الحديث ، ورواه البخاري . (٢) حديث تفهيم الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف : رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد جيد ، ومن حديث جابر بإسناد ضعيف ، وقد تقدم .

مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدما ، فإنه لم يمكن له فطر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ، ومن كان هذا مقامه لم يفرقه الأسباب كما أن الرغبة في المال نقص ، والرغبة من المال كراهية له وإن كانت كالأفنى أيضا نقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه ، فاستواء الحجر والذهب أكل من الحرب من الذهب دون الحجر ، وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده ، وكان لا يمكنه لتعلم الخلق مقام الزهد فإنه متى قوتهم لا تحفوه على نفسه من إمساكه ، فإنه كان أعلى رتبة من أن تزده الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها ^(١) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة ، وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لامته فيها تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف ادخار الأموال فإن ذلك يعظم ضرره . نعم التداوى لا يضّر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ، ومن حيث إبه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصي وذلك منهي عنه ، والمؤمن في غالب الأمان لا يقصد ذلك ، وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنعيم كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبر مشبعا ، لحكم التداوى في مقصوده كحكم الكسب ، فإنه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها ، وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه ، فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل في بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل في بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والنيات ، وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا في التوكل لإلترك المؤثرات كالكي والرق فإن ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالمتوكلين .

بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض وكتباته

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات : لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمان أسلم عن الآفات .

ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد . ومقاصد الإظهار ثلاثة :

الأول : أن يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لا في معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى . فقد كان بشر يصف لبيد الرحمن الطبيب أوجاعه ، وكان أحد بن حنبل يخبر بأمراض يجهده ويقول : إنما أصف قدرة الله تعالى في .

الثاني : أن يصف لطير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكيئا في المعرفة ، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض لعمرة فيفسكر عليها ، فيتحدث به كالتحدث بالنعيم . قال الحسن البصري : إذا حمد المريض الله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى ،

الثالث : أن يظهر بذلك مجرة وإفتقاره إلى الله تعالى ، وذلك يحسن من تلقى به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روى أنه قيل لعلى في مرضه رضى الله عنه كيف أنت ؟ قال : بشر ، فظهر لبعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية ، فقال : أتجلد على الله ؟ فأحب أن يظهر مجرة وإفتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم لم إراءه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه

(١) حديث : أنه مرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها . هدم ، وأفظه : عرضت عليه مذابيح خزائن السماء وكوز الأرض فردها .

عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرني على البلاء ، فقال له صلى الله عليه وسلم : لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية (١) .

فهذه الثبات يرخص في ذكر المرض ، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام - كما ذكرته في تحرير السؤال على الفقهاء إلا بضرورة - ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى ، فإن خلا عن قرينة السخط وعن الثبات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه ، لأنه ربما يوم الشكاية ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزبد في الوصف على الموجود من العلة ، ومن ترك التداوى توكلًا فلا وجه في حقه للإظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء ، وقد قال بعضهم : من بث لم يصبر ، وقيل في معنى قوله (فصر جميل) لا شكوى فيه . وقيل ليعقوب عليه السلام : ما الذي أذهب بصرك ؟ قال : مر الزمان وطول الأحران فأوحى الله تعالى إليه . فنفذت لشكواي إلى عبادي ، فقال : يارب أتوب إليك : وروى عن طلوس ومجاهد أنهما قالا : يكتب على المريض أنيته في مرضه ، وكانوا يكرهون أنفين المرض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل : ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنيته في مرضه ، لجعل الأتئين حظه منه .

وفي الخبر : إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده فإن حمد الله وأثنى عليه دعوا له وإن شكا وذكر شرا قالا كذلك تكون (٢) . وإنما كره بعض المبادعيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام ، فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم ، منهم : فضيل وهويب وبشر ، وكان فضيل يقول : أشتهي أن أمرض بلا عواد ، وقال : لا أكره العلة إلا لأجل العواد . رضى الله عنه وعنهم أجمعين .

كل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه . يتلوه إن شاء الله تعالى : كتاب الحبة والشوق والانس والرضا . والله سبحانه وتعالى الموفق .

كتاب الحبة والشوق والانس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونفصرته ، وصنى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها العكوف على بساط عزته ، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرفت بأنوار معرفته ، ثم

(١) حديث : مرض من فسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : اللهم صبرني على البلاء ، قال : « لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية » تقدم مع اختلاف . (٢) حديث : « إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده » .. الحديث . تقدم .

كشف لهم عن سجات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى ناهت في بيدها كبريائه وعظمته ، فلما اهتزت للاحاطة بكنهه الجلال غشها من الدهش ما غير في وجه العقل وبصيرته ، وكلما همت بالانصراف آهسته نوديت من سرادات الجبال صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته ، فقيت بين الرد والقبول والصعد والوصول غرق في بحر معرفته ، ومخرقة بنار محبته ، والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكامل بقوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا ،

أما بعد : فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، فلا بد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابها كالشوق والانس والرضا وأخواتها ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالثوبة والصبر والرهدة وغيرها ، وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تحل التناوب عن الإيمان بإمكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكروا بعض العلماء إمكانها وقال : لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فحال إلا مع الجنس والمثال . ولما أنكروا المحبة أنكروا الانس والشوق ولذة المنجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه . ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر .

ونحن نذكر في هذا الكتاب : بيان شواهد الشرع في المحبة ، ثم بيان حقيقتها وأسبابها ، ثم بيان أن المستحق للمحبة إلا الله تعالى ، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجهه تعالى ، ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ، ثم بيان الأسباب المقتضية لحب الله تعالى ، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، ثم بيان معنى الشوق ، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ، ثم بيان معنى الانس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط في الانس ، ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ، ثم بيان حقيقته ، ثم بيان أن البقاء وكرامة المصاحي لا تناقضه وكذا الفرار من المصاحي ، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض ، وكيف يفرض مالا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته ؟ فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب ، وبدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقوله تعالى ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة : إذ قال أبو رزين العقيلي : يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما »^(١) ، وفي حديث آخر : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما »^(٢) ، وفي حديث آخر : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين »^(٣) ، وفي رواية : « ومن

(١) حديث أبي رزين العقيلي : أنه قال يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » أخرجه أحمد بزيادة في أوله . (٢) حديث « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » معلق عليه من حديث أبي بلفظ ، لا يجد أحد سلوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله ، وذكره بزيادة . (٣) حديث « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » وفي رواية « ومن نفسه » متفق عليه من حديث أبي أس ، واللفظ « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله » وله من حديث عبد الله بن هشام : قال عمر يا رسول الله لانت أحب إلى من كل شيء إلا نفسي ، فقال : لا والله نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال عمر : فانت الآن والله أحب إلى من نفسي ، فقال : الآن يا عمر .

نفسه ، كيف وقد قال تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ ﴾ الآية . وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجة فقال : أحبوا الله لما يفتدوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي ^(١) . وروى أن رجلا قال : يا رسول الله إني أحبك ، فقال صلى الله عليه وسلم : استمده للفقر ، فقال إني أحب الله تعالى ، فقال استمده للبلاء ^(٢) . وعن عمر رضي الله عنه قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تعلق به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انظروا إلى هذا الرجل الذي ترون الله لقد رأيته بين أربيه يفتدونه بأطيب الطعام والشراب فداء حب الله ورسوله إلى ما ترون ^(٣) .

وفي الخبر المشهور : إن إبراهيم عليه السلام قال للملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يحب خليفه ؟ فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت عبا يكره لقاء حبيبه ؟ فقال ياء لك الموت الآن فأقبض ^(٤) . وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه .

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه : اللهم ارزقني حبلك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبلك واجعل حبلك أحب إلي من الماء البارد ^(٥) . وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال : ما أعددت لها ، فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب ^(٦) . قال أنس : لما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص عبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا هده فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان النيسابوري : إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم هته فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟

وروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة ، فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن وجوههم المرأى من الثور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل ، فقال أنتم المقتربون أنتم المقتربون أنتم المقتربون . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم في الثلج فقلت أما تجد البرد ؟ فقال من شغله حب الله لم يجد البرد . وعن سري السقطي : تدعى الأيام يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فيقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير الخمين لله تعالى فإنهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا .

- (١) حديث « أحبوا الله لما يفتدوكم به من نعمه » الحديث . أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب .
- (٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله إني أحبك ، فقال « استمده للفقر ... » الحديث « أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن منفل باللفظ » فأعده للفقر ثم غفا . دون آخر الحديث وقال حسن غريب . (٣) حديث عمر قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تعلق به ... الحديث ، أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد حسن .
- (٤) حديث : إن إبراهيم قال للملك الموت إذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خيلا يفتدو خليفه ... الحديث ، لم أجده له أميلا .
- (٥) حديث « اللهم ارزقني حبلك وحب من يحبك ... » الحديث « تقدم . (٦) حديث قال أعرابي يا رسول الله متى الساعة ؟ قال : ما أعددت لها ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه .

وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفرة وهي تحسره في الدنيا وترقحه في الآخرة . وقال يحيى ابن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ؟ وجه بهدش العقول فكيف دوده ؟ وودده يلمس مادونه فكيف لطفه ؟ وفي بعض الكتب : عدى أنا وحقله لك عجب فبحق عليك كن لي عباً . وقال يحيى بن معاذ : مقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب . وقال يحيى بن معاذ : إلهي إني مقم بفنائك مشغول بفنائك ، صغيراً أخذتني إليك وسريلتي بمعرفتك وأمكنتي من لطفك ونفقتني في الأحوال وقلقتني في الأعال ستراً وتوبة وزهداً وشوقاً ورحباً تسقيني من حياضك وتهمني في رياضك ملازماً لا مارك ومشغولاً بقولك ، ولما طر شاربي ولوح طائري فكيف ألصق اليوم غلك كبيراً وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلي ما بقيت حولك دندنة وبالصراعة إليك مهممة لأنني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف . وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به .

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لا يتكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ، ثم معرفة شروطها وأسبابها ، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى :

فأقول ما ينبغي أن يتحقق ؛ أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جهادبل هو من خاصية الحى للدرك . ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائه ويلذنه ، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤله ، وإلى ما لا يؤثر فيه لا يلام وإنذار . فكل ما في إدراكه كذلة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يتخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً . فإذا كل لذت محبوب عند المتذنب ، ومعنى كونه محبوباً أن في الطبع ميلاً إليه ، ومعنى كونه مبغوضاً أن في الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء المذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقاً . والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المولم المتب ، فإذا قوى سمي مقتاً . فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته (الأصل الثاني) أن الحب لما كان تابعاً للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك نوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات ، والطبع يسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم . فلهذا العين في الإبصار وإدراك المصبرات البلية والصور الملية الحسنة المستلذة ، ولذة الأذن في النغامت الطيبة الموزونة ، ولذة الشم في الروائح الطيبة ، ولذة الذوق في الطعوم ، ولذة اللمس في اللين والنعومة .

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذذة كانت محبوبة ، أى كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبيب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجمل قرة عيني في الصلاة »^(١) ، فسمى الطيب محبوبة ومعلوم أنه لاحظ العين والسمع فيه ؛ بل الشم فقط ، وسمى النساء محبوبات ولا حظ فهن إلا البصر واللمس دون

(١) حديث « حبيب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ... الحديث » أخرجه النسائي من حديث أسد دون قوله « ثلاث » وقد تقدم .

النم والذوق والسمع ، وسمى الصلاة قوة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تقارن فيها البهائم الإنسان ، فإن كان الحب مقصوراً على مدركات الحواس الخمس - حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتشبه في الخيال فلا يحب - فإذا قد بطلت خاصية الإنسان وما يميز به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنبور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات ، فلا مشاحة فيه ومهمات ، فالصورة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكاً من العين ، وجمال المعاني المدركة بالمقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لأعالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والمقل الصحيح إليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة - كما سيأتي تفصيله - فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلاً .

(الأصل الثالث) أن الإنسان لا ينبغي أنه يحب نفسه ولا ينبغي أنه قد يحب غيره لأجل نفسه ، وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه ؟ هذا بما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى الحب سوى إدراك ذاته . والحق أن ذلك متصور وموجود ، فلتبين أسباب المحبة وأقسامها ، ويانه أن المحبوب الأول عند كل حي : نفسه وذاته ، ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلاً إلى دوام وجوده ، ونفرة عن عدمه وهلاكه ، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للحب ، وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده ؟ وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه ؟ فذلك يجب الإنسان دوام الوجود وبكره الموت والقتل ، لا ليجد ما يضافه بعد الموت ولا ليجرد الحذر من سكرات الموت ، بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير نواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارهاً لذلك ، ولا يجب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم في الحياة . ومهما كان مبيتاً بلاء فحجبه زوال البلاء ، فإن أحب الدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء ، فالهلاك والعدم بموت ودوام الوجود محبوبة . وكما أن دوام الوجود محبوبة فكذلك الوجود أيضاً محبوبة لأن الناقص فائدته لكمال ، والقصص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه . والهلاك والعدم بموت في الصفات . وكما الوجود كما أنه بموت في أعمل الذات ووجود صفات الكمال محبوبة ، كما أن دوام أصل الوجود محبوبة . وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) .

فلذا المحبوب الأول الإنسان ذاته ، ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه . فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود معروف عليها ، والمال محبوبة لأنه أيضاً آلة في دوام الوجود وكاله وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكاله بها ، حتى إنه ليحب ولده وإن كان لا يتأله منه حظ بل يتحمل المشاق لأجله لأنه يتخلفه في الوجود بعد عدمه ، فيكون في بقاء نفسه نوع بقاء له ، فلنفرط حبه في بقاء نفسه يجب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً . نعم لو خير بين قلبه وقتل ولده - وكان طبعه باقياً على اعتداله - آثر بقاء نفسه على بقاء ولده ، لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق ، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه فإنه يرى نفسه كثيراً بهم قواً بسببهم متجملين بكاملهم ، فلذا المشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجنات المسكن للإنسان ، وكما الوجود ودوامه محبوبة بالطبع لا محالة . فلذا المحبوب الأول عند كل حي ذاته وكما ذاته ودوام

ذلك كله ، والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب .

السبب الثاني : الإحسان ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم لا تجعل لفاجر على يدي فيجبه قلبي ^(١) ، وإشارة إلى أن حب القلب للحسن اضطرارا لا استطاع دفيه ، وهو جبة وفطرة لاسيول إلى تغييرها . وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجني الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة . وهذا إذا حقق رجوع إلى السبب الأول ، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكال الوجود وحصول الحفظ التي بها يتبنا الوجود ، إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب ، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب يكون سببا في دوام صحة الأعضاء ، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لآثاره بل لأنه سبب الصحة وكذلك العلم محبوب والاستاذ محبوب ، ولكن العلم محروب لذاته والاستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب . وكذلك الطعام والشراب محبوب والذنانير محبوبة ، لكن الطعام محبوب لذاته والذنانير محبوبة لآثارها وسيلة إلى الطعام . فلو أن رجوع الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فشكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه . فشكل من أحب المحسن لإحسانه فأحب ذاته تحقيقا فأحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لوزال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ، ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ، ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه .

السبب الثالث : أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوق بدهاوه ، وذلك كحب الجار والحسن ، فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ، ولا تقطن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضا لذية فيجوز أن يكون محبوا لذاته ، وكيف يشكر ذلك والحضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتزكّل الحضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ؟ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الحضرة والماء الجاري ^(٢) ، والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطياف المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل ، حتى إن الإنسان لتفرج عنه النعموم والحوموم النظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر . فهذه الأسباب ملذة وكل لذية محبوب ، وكل حسن وجمال فلا يتألم إدراكه عن لذة ، ولا أحد يشكر كون الجمال محبوبا بالطبع ، فإن ثبت أن الله جميل كان لمعاله محبوا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله جميل يحب الجمال ^(٣) .

(الامل الرابع) في بيان معنى الحسن والجمال : اعلم أن المحبوس في معنيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون ، وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان ، فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبرار ، وأكثر التفاتهم

(١) حديث : اللهم لا تجعل لفاجر على يدي فيجبه قلبي « رواه أبو منصور الهيثمي في مسند الفردوس : من حديث معاذ بن جبل بن عبد شريف متفق ، وقد تقدم . (٢) حديث : كان يعجبه الحضرة والماء الجاري ... أخرجه أبو لميم الله النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الحضرة وإلى الماء الجاري ، وإسناده ضعيف . (٣) حديث : إن الله جميل يحب الجمال « رواه مسلم في أثناء حديث لابن مسعود .

إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا ملونا مقدر فلا يتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محروبا . وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخاتمة وامتزاج اليباض بالحمرة . فإنا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن ، بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إمام حسن ، فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ؟ ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ باستماع النغمت الحسنة الطيبة . وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح ، فما معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الأشياء ؟ فلا بد من البحث عنه . وهذا البحث بطول ، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء لجماله وحسنه في أن يحضر كاله اللاحق به الممكن له ، فإذا كان جميع كالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال ، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر ، فالفرس الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو ويسر كز وفز عليه ، والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازنها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ، ولكل شيء كال يلقى به وقد يلقى بغيره منه . لحسن كل شيء كاله الذى يلقى به . فلا يحسن الانسان بما يحسن به الفرس ، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصرث ، ولا تحسن الآواني بما تحسن به الثياب ، وكذلك سائر الأشياء .

فإن قلت : فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والعلوم فلما لا تنفك عن إدراك الحواس لما فهى محسوسات ، وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ، ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس ؟ فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال : هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة ، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والمثل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير ، وشئ من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الحسن بل يدرك بنور البصيرة الباطنة ، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته ، وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطبايع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا ، بل حب أرباب للمذاهب مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم ؛ حتى أن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حدة العشق فيحمله ذلك على أن تتفق جميع ماله في نصرة مذهب والذب عنه ويغضطر بروحه في قتال من يظن في إمامه ومتبوعه . فكيف من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب ، وليس شمرى من يحب الشافعى مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ؟ ولو شاهد رجلا لم يستحسن صورته ، فاستحسنه الذى حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة ، فإن صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب ، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين واتباعه لإنادة علم الشرع ولينشره هذه الخيرات في العالم ، وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة ، فأما الحواس فقاصرة عنها . وكذلك من يجب أبا بكر الصديق رضى الله عنه ويفضله على غيره ، أو يجب عليا رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتمسك به ، فلا يجهم إلا لاستحسان جوهر الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره . فعلوم أن من يجب الصديق رضى الله تعالى عنه مثلا ليس يجب تعظمه ولحه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وبُذِلَ والندم ، ولكن بقى ما كان الصديق به صديقا وهى الصفات المحموددة التى هى مصادر السير الجميلة ، فكان

الحب باقيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور . وتلك الصفات ترجع مجملها إلى العلم والقدرة إذاعلم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بغير شهواته ، لجميع خلال الخير ينشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ، ومعلمها من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقبة . وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوا بالأجله فلذلك الجمال موجود في السير ، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يرجح ذلك حبا فالمحسوب مصدر السير الجميلة ، وهي الإخلاص الحميدة والفضائل الشريفة ، وترجع مجملها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس ، حتى إن الصبي الخليل وطيمه إذ أردنا أن نحجب إليه غالبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناط في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة . فهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه ، فهل غلب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض أبى جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناط في وصف المحاسن والمفاجئ التي لا تدرك بالحواس ؟ بل لما وصف الناس عامسا بالسخاء وصفوا غالدا بالشجاعة أحبتهم القلوب حبا ضروريا ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يتاله المحب منهم ، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاحة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ونأى الديار . فلذلك ليس حب الإنسان مقصورا على من أحسن إليه ، بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهى قط لإحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال حسن فهو محبوب ، والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتذكر الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالصيرة الباطنة ؛ فن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يعيل إليها ، ومن كانت الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الخائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة .

السبب الخامس : المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حفظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم ، فأنعارف منها اتلف وما تناكر منها اختلف ^(١) ، وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصبر عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب فلذلك ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب : وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه . وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على قيامه ودفع المهلكات عنه . وحبه من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه . وحبه لكل ما هو جميل في ذاته ؛ سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة . وحبه لمن يثبه وبينه مناسبة خفية في الباطن . فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة ، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوا لا محالة غاية الحب ، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ، فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات . فلقين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كالمسا واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقبة إلا الله سبحانه وتعالى .

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبت إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى ، وحسب الرسول

(١) حديث « ما نعارف منها اتلف وما تناكر منها اختلف » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم في آداب الصبر .

صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحبة المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوز به إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للحبة سواء . وإيضاحه بأن ترجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ، ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد في غيره إلا أحادها ، وأما حقيقة في حق الله تعالى ، ووجودها في حق غيره وهم تخيل وهو مجاز يحض لا حقيقة له . ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة منذ ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقاً ، وبأن أن التحقيق يقتضى أن لا تحب أحداً غير الله تعالى .

فأما السبب الأول : وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكآله ودوام وجوده ، وبغضه لملاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كآله فهذه جبلة كل حى ، ولا يتصور أن ينفك عنها ، وهذا يقتضى غاية المحبة له تعالى فلأن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكآله وجوده من الله وإلى الله وبالله ، فهو المخرج الموجد له وهو الملقى له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه ذو خلق الهداية إلى استعمال الأسباب ، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته ، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكامل لخلقته . وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا التقييم الحى الذى هو قائم بذاته ، وكل ما سواه قائم به . فإن أحب المعارف ذاته وجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يجب التقييد لوجوده والديمق له إن عرفه خالقاً موجداً وعترتاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوماً لغيره ، فلأن كان لا يجب فهو لجهله بنفسه ورببه ، والمحبة ثمرة المعرفة فتعتمد بالندامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوةها ، ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها . وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ؟ ومعلوم أن المبتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيجب بالضرورة الإشجار التى بها قوام الظل ، وكل ما فى الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فلأن الشكل من آثار قدرته ، ووجود الشكل تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر ، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وفالقض منها ووجودها ، وهو خطأ محض إذا انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبرار أن النور حاصل من قدراته تعالى اختراعاً عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة ، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى ، ولكن النرض من الأئمة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق ، فلأن إن كان حب الإنسان نفسه ضرورياً لجهل من به قوامه أولاً ودوامه ثانياً في أصله وصفاته وظواهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضرورى ، إن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن الحب هذا فلأنه اشتغل بنفسه وشموهه وذهل عن ربه وخالفه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته وحسوساته ، وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم في التمتع بالإنساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يبعأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة ، فينظر فيه بقدر قرب في الصفات من الملائكة وقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم ،

وأما السبب الثانى : وهو حبه من أحسن عليه فراساه بمآله ولاطفه بكلامه وأمدته بمعونته واتدب لنصرته

وقم أعداده وقام بدفع شر الأشرار عنه واتهنى وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقارب، فإنه محبوب لا عالة عنده . وهذا بيته يقتضى أن لا يجب إلا الله تعالى فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فليست أعدما إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الفكر ، ولكننا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى . ولنفرض ذلك فبمن أنعم عليك بجميع خزانته ومملكته منها لتصرف فيها كيف تشاء فإنه تظن أن هذا الإحسان منه ، وهو غلط فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبدايعته الباعثة له على صرف المال إليك ، فمن الذى أنعم بحلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذى حييك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك ؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله . ومهما سلط الله عليه الدواعى وقوى في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا في التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذى اضطره لك ويخرجه وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة إلى الفعل ، وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطرا في ذلك اضطرا يجرى الماء في جريان الماء فيه ، فإن اعتقدته عسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لامن حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الأمر ، فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه ، أما الإحسان إلى غيره فحال من المخلوقين ، لأنه لا يبدل ماله إلا لغرض له البذل إما أجل وهو الثواب وإما عاجل وهو المنة والاستخار أو التناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة ، وكأن الإنسان لا يلقى ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقى في يد إنسان إلا لغرض له فيه ، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده ، وأما أنت فليست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والتناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال ، فقد استخرك في القبض للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه وممتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلا أبته . فإذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين .

(أحدهما) أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدرة له على المخالفة . فهو جار يجرى خازن الأمير فإنه لا يرى محسنا بتسليم خلمة الأمير إلى من خلق عليه ، لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك . فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبدل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى في نفسه أن يحظه ديناً ودنياً في بذله فبذلك لذلك . (والثاني) أنه ممتاض عما بذله حفظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يمد البائع محسنا لأنه بذل ببعوض هو أحب عنده مما بذله ، فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والتناء أو عوضا آخر ، وليس من شرط العوض أن يكون عينا متعولا بل الحفظ كلها أعراض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان في الجود ، والوجود هو بذل المال من غير عرض وحفظ يرجع إلى الباذل ، وذلك حال من غير الله سبحانه فهو الذى أنعم على المالمين إحسانا إليهم ولاجلهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فإنه يتملى عن الأغراض فللفظ الجود والإحسان في حق غيره كذب أو مجاز ، ومنه في حق غيره حال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض ، فهو المنفرد بالجود والإحسان والطول والامتنان ، فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف إلا الله تعالى ، إذ الإحسان

من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده ، وأما غيره فيستحق المحبة على الإنسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته .

وأما السبب الثالث : وهو حبك المحسن في نفسه وإلى لم يصل إليك إحسانه . وهذا أيضا موجود في الطباع . فإنه إذا بلنك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس منلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلنك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متعنتك شرير وهو أيضا بعيد عنك ؛ فإنك تجد في قلبك نفرة بينهم إذ تجد في القلب ميلا إلى الأول وهو الحب ، ونفرة عن الثاني وهو البغض ، مع أنك آيس من خير الأول وآمن من شر الثاني لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما ؛ فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك ، وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب ، فإنه الله عز المحسن إلى الكفاة والمتفضل على جميع أصناف الخلاق ؛ أولا : بإيجادهم ، وثانيا : بتكليمهم بالانصاء والأسباب التي هي من ضروراتهم ، وثالثا : بترقيهم وتعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة ، ورابعا . بتجسيمهم بالمرايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم .

ومثال الضروري من الأعضاء : الرأس والقلب والكبد ، ومثال المحتاج إليه : العين واليد والرجل . ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحرمة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فأت لم يتخرم به حاجة ولا ضرورة .

ومثال الضروري من الثمن الخارجة عن بدن الإنسان . لثاء والنفاء . ومثال الحاجة : الدواء والحمل والقواكة ومثال المرايا والزوائد : خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائف القواكة والأطعمة التي لا تنخرم بعدها حاجة ولا ضرورة .

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى متنى الفرش . فإذن هو المحسن ؛ فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ؛ فإنه عالق الحسن وعالق المحسن وعالق الإحسان وعالق أسباب الإحسان ، فالحب بهذه الملة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يجب بهذه الملة إلا الله تعالى .

وأما السبب الرابع : وهو حب كل جميل لذات الجمال لالحظ ينال من وراء إدراك الجمال ؛ فقد يتأنا ذلك مجبور في الطباع ، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة للدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة للدركة بعين القلب ونور البصيرة ، والأول يدركه الصبيان والبهائم ، والثاني يختص بدركه أرباب التسلوب ولا يشاركهم فيه من لا يلم إلا ظاهر آ من الحياة الدنيا . وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال ، فإن كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب . ومثال هذا في الشاهدة حب الأنبياء والعلماء وذوى السكارم السنية والأخلاق المرضية ، فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدرك . نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه ، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه ، فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصدق رضى الله تعالى عنه أو الشافعي رحمه الله عليه فلا يصحهم إلا لحسن ما ظهر له منهم ، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم ، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل

حسن نقش الفخاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ، ثم كلما كان العلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجل ، وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا ، وأجل المعلومات هو الله تعالى ، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى ، وكذلك ما يقاربه ويختص به فشره على قدر تعلمه به .

فلذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور (أحدها) علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . (والثاني) قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة (والثالث) تفرغهم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر ، وبمثل هذا يجب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فالنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى .

أما العلم : فآين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يهرب عنه مقال ذرة في السموات ولا في الأرض ؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نعمة أو ببوصة لم يطلخوا على عشر عشر ذلك ﴿ ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء ﴾ والقدر اليسير الذى عليه الخلائق كلهم فيتعلمه علومه كما قال تعالى ﴿ خلق الإنسان عليه البيان ﴾ فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوا وكان هو في نفسه زينة وكالا للوصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى . فعلوم العلماء جهول بالإضافة إلى علمه ، بل من عرف أعمل أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحالة أن يحب بسبب العلم الأجهول وبترك العلم وإن كان الأجهول لا يخلو عن علم متفاضل يعيش . والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية .

وأما صفة القدرة : فهي أيضاً كال والمعجز نقص ، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيد ، حتى إن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة على وغالب رضى الله عنهما وغيرهما من الشجمان وقدرتهما واستيلائهما على الأقران فيصافى في قلبه اعتزازا وفرحا وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ووبرت ذلك حبا في القلب ضروريا للمتصف به فإنه نوع كال ، فالنسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكا وأقوام بطشا وأقهرهم للشهوات وأقبحهم للجناسات النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره - ما منتهى قدرته ؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإلـس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضمرا ولا نفعا ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ، ولا يحتاج إلى عذ ما ينجو عنه في نفسه وغيره بما هو على الجملة متعلق بقدرة ، فضلا عما لا يتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلأكمها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحجراتها وجميع أجزائها ، فلا قدرة له على ذرة منها . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبغضه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك . ولو سلب بوحنا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه ، فليس للعبد

قدرة إلا بتسكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذى القرنين إذ قال (إنا مسكنا في الأرض) فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتسكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض ، والأرض كلها مدبرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحيط بها الناس من الأرض غيرة من تلك المدرة ، ثم تلك الغيرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه ، فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكآل قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار القاهر والعالم القادر ، السموات مطويات بيمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته ، إن أهلكتهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكوته ذرة . وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يغيظهم ولا يمسهم لغوب ولا تنور في اختراعها ، فلاقدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والمظنة والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فإن كان يتصور أن يحب قادر لكآل قدرته فلا يستحق الحب بكآل القدرة سواء أصلا .

وأما صفة التنزه عن العيوب والقائض والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحس والجمال في الصور الباطنة ، والأنبياء والصديقون وإن كانوا مظهرين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كآل التقديس والتنزه إلا للواحد الحق الملك والقدوس ذى الجلال والإكرام

وما أكمل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا غلوفا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كآل إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس في المقدور أن ينعم انتهى الكمال على غيره فإن انتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك حال في حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن التقديس المقدس عن العيوب . وشرح وجوه التقديس والتنزه في حقه عن النقائص بطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطوّل بذلك . فهذا الوصف أيضا إن كان كآلا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته إلا له ، وكآل غيره ومنزهه لا يكون مطلقا بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا ، كما أن للفرس كآلا بالإضافة إلى الحمار وللإنسان كآلا بالإضافة إلى الفرس . وأصل التقديس شامل للكل وإنما يتفاوتون في درجات التقديس .

فلذا الجليل محبوب والجليل المطلق هو الواحد الذي لا تزد له ، الفرد الذي لا ضد له ، الصمد الذي لا منازع له ، الغنى الذي لا حاجة له ، القادر الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لأراد لحكمه ولا معقب لقضائه ، العالم الذي لا يهز عن علمه مقال ذرة في السموات والأرض ، القاهر الذي لا يفتزع عن قبضة قدرته أثناع الجبارة ولا يفلت من سطوته وبطشه رقاب التياصرة ، الأزلى الذي لا أول لوجوده ، الأبدى الذي لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرة ، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجناد والحيوان والنبات ، المنفرد بالبرة والجهروت ، والموحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال ، الذي تسمير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الألسنة ، الذي كآل معرفة المعارفين الاعتراف بالمعجز عن معرفته ومنهية نبوة الأنبياء الإفراد بالقصور عن وصفه ، كآل سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ولا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ^(١) ، وقال سيد الصديقين رضی الله تعالى عنه : المعجز عن درك الإدراك إذراك . سبحانه من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالمعجز عن معرفته فليت شعري من يشكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويعمله مجازا ؟ أيشكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال

(١) حديث « ولا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » تقدم .

والحامد ونموت الكمال والحاسن أن يشكركون الله تعالى موصوفاً بما أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والظلمة محبوا بالباطح عند من أدركه ؟ فسيحان من احتجب عن بصائر العيمان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسن الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتهمون وفي مسارج المحسوسات وشهوات الهائم يترددون ؛ يعلون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون .

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان لأن الإحسان يريد وينقص . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : **إِنَّ أَوْدَ الْأَوْدَاءِ إِلَى مَنْ عِدْتِي بِغَيْرِ نَوَالٍ لَكِنِ ابْطَلِي الرُّبُوبِيَّةَ حَقَّهَا** . وفي الزبور : **مَنْ أَظْلَمُ مِنْ عِدْتِي لَجَنَةِ أَوْنَارٍ لَوْ لَمْ أَخْلُقْ جَنَّةً وَلَا نَاراً لَمْ أَكُنْ أَهْلًا أَنْ أُطَاعَ** . ومَنْ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا : تخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم : مخلوقا خفتهم ومخلوقا رجوتهم . ومَنْ يقوم آخريين كذلك فقالوا : نعبده حباً له ونعظيماً لجلاله فقال : **أَنْتُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ حَقًّا مَعَكُمْ أَمَرْتُ أَنْ أَقِيمَ** . وقال أبو حازم : **إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أُعْبِدَهُ الثَّوَابَ وَالْعَقَابَ فَإِنْ كُنْتُ كَالْعَبْدِ السَّوِّءِ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلْ ، وَكَالْأَجِيرِ السَّوِّءِ لَمْ يَعْطَ لَمْ يَعْمَلْ** . وفي الخبر **لَا يَكُونُ أَحَدُكُمْ كَالْأَجِيرِ السَّوِّءِ إِنْ لَمْ يَعْطَ أَجْرًا لَمْ يَعْمَلْ ، وَلَا كَالْعَبْدِ السَّوِّءِ إِنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلْ** (١) .

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لأن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل . ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه ، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالغير ، وأنس الشجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح . وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الأخبار والأمار كما استقصاها في باب الآخرة في الله من كتاب آداب الصحبة فيليب منهُ . وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمثابة الصبي الصبي في معنى الصبا ، وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه كاترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال **وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَاسْتَمَارَفَ مِنْهَا ائْتَمَفَ وَمَاتَنَّا كَر مِنْهَا اخْتَلَفَ** . فالتمارف هو التماسك ، والتناكر هو التباين . وهذا السبب أيضاً يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة ، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الذبارة حتى يعتبر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك .

فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاعتداء والتخلق بأخلاق الرُّبُوبِيَّةِ ، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله ، وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان والخلق وإفاعة الخير والرحمة على الخلق والصحبة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكالم الشريعة . فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالمساكن بل بالصفات .

وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يوصي إليها قوله تعالى **(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)** إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى **(فَإِذَا سُوِّتِهِ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)** ولذلك أعجب له ملائكته . ويشير إليه قوله تعالى **(إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)** إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله صلى الله

(١) حديث : لا يكون أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل ، لم أجده إلا .

عليه وآله وسلم « إن الله خلق آدم على صورته ^(١) » حتى ظن المتصورون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المذكورة بالحواس ففسهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام « مررت فلم تدنى فقال يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبيد فلان فلم تعده ولو عدته وجدت عندته ^(٢) » وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على التواقل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى « لا يزال يتقرب العبد إلى بالتواقل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ^(٣) » وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول ، حتى قال بعضهم : أنا الحق . وحمل التصاري في عيسى عليه السلام فقالوا : هو الإله وقال آخرون منهم تذرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون : اتحد به . وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتثليل واستحالة الاتحاد والحلول وانضح لهم مع ذلك حقيقة السرف فهم الأقلون . ولعل أبا الحسن النوري عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول التامل :

لا زلت أزل من ودادك منزلا تحجير الألباب عنه نزوله

فلم يزل يمدد في ووجهه على أجمه قد قطع قصبا وبقى أصوله حتى تشقت قدماه وتوزمتا ومات من ذلك . وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقروا وهو أعزها وأبدها وأقلها وجودا . فهذه هي المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفي أعلى الدرجات لائق أدناها ، فكان المقول المقبول عند ذوي البصائر حب الله تعالى فخطا كما أن المقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ، ثم كل من يجب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يجب غير لشاركه إياه في السبب ، والشركة نقصان في الحب ونقص من كاله . ولا يتفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه ، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد ، إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا ، فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته . فهو المستحق - إذاً - لأصل المحبة - والكمال المحبة استحقاقا لا يسام فيه أصلا .

بيان أن أجل الذات وأعلاما معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم

وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن الذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والنرات ، ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها في نيلها المقتضى طبعها الذي خلقت له فإن هذه النرات ما ركبت في الإنسان عيلا بل ركبت كل قوة وغريزة لأسر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الثبلة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذي به التروام فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذي هو مقتضى طبعها ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاشباع والشم ، فلا تغفل غريزة من هذه النرات عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها . فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى ﴿ أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وقد تسمى النور وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى

(١) حديث « إن الله خلق آدم على صورته » هدم . (٢) حديث قوله تعالى « مررت فلم تدنى » فقال : وكيف ذلك ! قال : مرضي فلان ... الحديث « هدم . (٣) حديث قوله تعالى « لا يزال يتقرب العبد إلى بالتواقل حتى أحبه ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

نور الإيمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالأسماء فلأن الاصطلاحات مختلفة ، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب ، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متشعبة ولا عسوسة ، كإدراكه خلق العالم أو انقضائه إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ، ولنفس تلك التفرقة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق التجادة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية ، وإلا فالصفة التي فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعر الصفات فلا ينبغي أن تزم ، وهذه التفرقة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها ففتضى طبعها للمعرفة والعلم وهي لذتها . كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها . وليس ينبغي أن في العلم والمعرفة لذته حتى إن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به ، والذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقيق يغمم به ، وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحذير بالعلم والتقدم به في الأشياء الحقيقية . فالعالم باللعب بالسطرئ على خسته لا يطبق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما تعلمه ، وكل ذلك لفرط لذته العلم وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال ، ولذلك يرتاح الطبع إذا أتى عليه بالذكاء وغرارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الشاء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ، ثم ليست لذته العلم بالحراثة والحياطة كذمة العلم بسياسة الملك وتديره أسرار الخلق ، ولا لذته العلم بالنحو والشعر كذمة العلم بالله تعالى وصفاته وملامكته وملوكوت السموات والأرض ، بل لذته العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذته وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه ، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره في رياسته كان ذلك ألد عنه وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو سالك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنه وألد من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألد من علمه بباطن أسرار الوزير ، وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وحب له أكثر لأن لذته فيه أعظم . فهذا استبان أن ألد المعارف وأشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكل وأشرف والأعظم فالعلم به ألد المعلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها . وليت شمري هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكل وأعظم من عائق الأشياء كلها ومكملها ومزينا ومبدئها ومميتها ومديرها ومسرهما ؟ وهل يتصور أن تكون - حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادئ جلالها ومجائب أحوالها وصف الواصفين ؟ فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الإطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات والأدما وأطيبها وأشهاها ؟ وأخرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها ، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين أن العلم لذيد ، وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وتديره في ملكته . من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين - فينبغي أن يعلم أن لذته للمعرفة أقوى من سائر اللذات أثنى لذته للشهوات والنضب ولذته سائر الحواس الحس ، فلأن اللذات مختلفة بالنعو أولا ، كمخالفة لذته للوانع لذته السماع ، ولذته المعرفة لذته الرئاسة . وهي مختلفة بالضعف والقوة ، كمخالفة لذته الشيق المختل من الانجم لذته الغار للشهوة ، كمخالفة لذته النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال لذته النظر إلى ما دونه في الجبال . وإنما تعرف أقوى

الذات بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن الخير بين النظر إلى صورة جملة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألد عنده من الروائح الطيبة ، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمتع باللعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل ، فيعلم به أن لذة التلعب في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل . فهذا ميباً صادق في الكشف عن ترجيح الذات فنسود ونقول :

الذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس ، وإلى باطنة كلذة الرياسة والقلبة والكرامة والعلم وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق ، والمعاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من الذات الظاهرة ، فلو غير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان الخير خسيس المهمة ميت القلب شديد التهمة اختار اللحم والخلاوة ، وإن كان على المهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة الفتوة أباناً كثيرة : فاختياره للرياسة يدل على أنها ألد عنده من العلوم الطيبة . نعم التافس الذي لم يكتل معانيه الباطنة بعد كالصبي ، أو كالذي ماتت قوامه الباطنة كالعمه لا يبعد أن يؤثر لذة المعلومات على لذة الرياسة وكذا أن لذة الرياسة والكرامة أغلب للذات على من جاوز نقصان الصباوالمته فلهذا معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألد من الرياسة التي هي أعلى الذات الغالبة على الخلق ، وغاية العبارة عنه أن يقال (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وأنه أعز لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً ، فإنه لا عمالة يؤثر التهنيل والتفرد والفكر والذكر وينفخ في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحق الخلق الذين برأسهم لعله بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته ، وكونه مشوباً بالكدورات التي لا يتصور الخلو عنها ، وكونه مقطوعاً بالموت الذي لا بد من إتيائه مهما أخذت الأرض زخرفها وأزبنت وطن أهلها أنهم قادرون عليها فيستظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام ملكته من أعلى عيين إلى أسفل السافلين ، فإنها خالية من المراحات والمكدرات متسعة المتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض ، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لمرضها ، فلا يزال المعارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتفع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها ، إذ تمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا بمنوعة ، ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم عمل معرفة الله تعالى وعملها الروح الذي هو أمر رباني سماوي ، وإنما الموت ينير أحوالها ويقطع شواغلها وعواطفها ويخليها من حبسها فأما أن يهدمها فلا . ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) الآية . ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فإن المعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر : إن الشهيد يتنقى في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتننون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء ^(١) .

فإذن جميع أنظار ملكوت السموات والأرض ميدان المعارف يقبوا منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بحسبه وتخصه ، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض . وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً ، إلا أنهم يتفاوتون في سعة متزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرم

(١) حديث « ان الشهيد يتنقى حتى أن يرد في الآخرة إلى الدنيا ليقول مرة أخرى .. الحديث » متفق عليه من حديث أس واذ تلم ، وليس فيه « وان الشهداء يتننون أن يسكنوا علماء ... الحديث »

وسمة معارفهم ، وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم ، فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوى الكمال من لذات الحراس كلها ، وأن هذه اللذة لا تكون لهيمة ولا لصبي ولا لمتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لنوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة ، فأما متى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله ، ولكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاتها ، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة ، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الواقع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين ، لأنه فقد الصفة التي يدرك هذه اللذة ، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شه أدرك التفاوت بين الذثنين ، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف . ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا يطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف للمشكلات والتحلال للشبهات التي قوى حرصهم على طلبها ، فإنها أيضا معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية ، فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ، ويتعجب من نفسه في ثباته واحتياله لقوة فرجه وسروره ، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى . فهذا القدر ينهيك على أن معرفة الله سبحانه ألد الأشياء وأنه لا لذة فوقها .

ولهذا قال أبو سليمان النراقى : إن الله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له : أخبرني يا أبا عنفوط أى شيء هاجلك إلى العبادة والانتقطاع عن الحلق ؟ فسكت فقال : ذكر الموت ، فقال : وأى شيء الموت ؟ فقال : ذكر القبر والبرزخ ، فقال : وأى شيء القبر ؟ فقال : خوف النار ورجاء الجنة ، فقال : وأى شيء هذا ؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفى أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفقى مشغولا يطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشرى بالحارث فى النوم فقال : ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يا كلان ويشريان ، قلت : فأنت ؟ قال : علم الله فله رغبتي فى الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه . وعن علي بن الموفق قال : رأيت فى النوم كأنى دخلت الجنة ، فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقيانه من جميع الطيبات وهو يأكل ، ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا ، قال : ثم جاوزتم إلى حديقة القدس فرأيت فى سرادق العرش رجلا قد شخص بصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف ، فقلت لرضوان : من هذا ؟ قال : معروف الكرخي عبد الله لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين : بشرى بالحارث وأحمد بن حنبل . ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لرابية : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ماعبدته خوفا من ناره ولا جبا لجنته فأكون كالاجير السوء ، بل عبده حبا له وشوقا إليه وقالت فى معنى المحبة نظما :

أحبك حين حب الهوى وحبا لأنك أمل لذا

فأما الذى هو حب الهوى فشتلى بذكرك عن سواكا

وأما الذى أنت أمل له فكشفكلى الحب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحسب الهوى : حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحفظ العاجلة ، وبمجه لها هو أهل له : الحب بجلاله الذي انكشف لها ؛ وهو أهل الحيين وأقوامها ، ولذته مطالعة جمال الزبوية هي التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى « أعددت لمبادئ الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »^(١) ، وقد تعجل بعض هذه الذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم : إني أقول يارب يا الله فأجد ذلك على قلبي أتخل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب ؛ وهل رأيت جليسا ينادي جليسه ؟ وقال : إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة ؛ أي يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقوله جنونا أو كفرا . فقصد المارقين كلهم وصله ولقاءه فقط ، فهي قوة العين التي لا تلم نفس ما أخفى لهم منها ، وإذا حصلت انحصت المحموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها ، فلما أتى في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعم الجنة لم يلتفت إليه لسكالك نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية ، وليت شعر من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بآلة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل ؟ وأي معنى لردة الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم التمجيد ؟ بل من عرف الله عرف أن الذات للفرقة بالشهوات المختلفة كلها تطوى تحت هذه الآلة كما قال بعضهم :

كانت لتلقي أهواء مفسدة فاستجمعت مذرائك العين أهواي

فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولاني

تركزت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا ديني وديناني

ولذلك قال بعضهم :

وجهره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إشار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والتكاسح ، فإن الجنة معدن تمتع الحراس ، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط .

ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما تذكره : وهو أن الصبي في أول حركته ويميزه يظهر فيه غريزة بها يستند اللعب واللهو ، حتى يكون ذلك عنده ألد من سائر الأشياء ، ثم يظهر بعده لذة الرينة وليس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ، ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ، ثم تظهر لذة الرياضة والعلو والتكاسح ، وهي آخر للذات الدنيا وأعلاما وأقواما كما قال تعالى (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر) الآية . ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها ، فكل متأخر فهو أقوى ، وهذا هو الأخير ، إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز ، وحب النساء والزينة في سن البلوغ ، وحب الرياضة بعد العشرين ، وحب العلوم يقرب الأربعمين ، وهي الغاية العليا . وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشغل بملعبة النساء وطلب الرياضة ؛ فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياضة ويشغل بمعرفة الله تعالى . والمعارفون يقولون (إن تسخروا منا فلنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون) .

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى « أعددت لمبادئ الصالحين ما لا عين رأت ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلم أن الدركات تقسم إلى ما يدخل في الخيال ؛ كالصور المتخيلة والأجسام المتلونة والمشكلة من أشخاص الحيوان والنبات ، وإلى ما لا يدخل في الخيال ، كذات الله تعالى وكل ما ليس به جسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها . ومن رأى إنساناً ثم غُض بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها ، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدركت غفرة بينهما ، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للتخيلة ، وإنما الافتراق يزيد بالوضوح والكشف ، فإن صورة المرقى صارت بالروية أتم اكتشافاً ووضوحاً ، وهو كمن يرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم روى عند تمام الضوء ، فإنه لا تفارق إحدى الخاتمتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف . فإذن الخيال أول الإدراك والروية هو الاستكمال لإدراك الخيال وهو غاية الكشف ، وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في العين ، بل لو خلق الله هذا الإدراك السكالم للكشوف في الجلبة أو الصدر مثلاً استحق أن يسمى رؤية .

وإذا فهمت هذا في التخييلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضا في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان (إحداهما) أول (والثانية) استكمال لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت في مذهب الكشف والإيضاح ما بين التخييل والمرئ ، فيسمى الثاني أيضا بالإضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية . وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف ، وكان أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر والمرئ ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، ولم تأمر ترفع كان الإدراك الحاصل بجود التخييل فكل ذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محبوبة بعمراض البدن ومقتضى الشوائب وما غاب عليها من الصفات البشرية ، فلها أن تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار . والقول في سبب كونها حجابا بطول ولا يليق بهذا العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ وقال تعالى ﴿ لَئِنْ دَرَسْتَ أَبْصَارَ ﴾ أى في الدنيا والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الله تعالى ليلة الميراج ^(١) . فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكسوروات الدنيا ، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة ، فنها ما تراكم عليه الخبث والعدا فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقي ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم بآب الآباد . نموذ بالله من ذلك - ومنها ما لم يفته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقي فمعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذي هو متدنس به ، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين - كما وردت به الأخبار - سبعة آلاف سنة ^(٢) ولن ترتحل نفس عن

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المراج إلى الصحيح ، هذا الذي يسمعه المصنف هو قول عائشة ، أخت الصديقين : أنها قالت من حدثك أن عمداً رأى به فقد كذب . وظهر من حديث أبي ذر : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيته ربك ؟ قال : «نوراني أراه» وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى أنباء رؤيته ، وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحدث أبي ذر قال فيه أحمد : ما زلت منه منكراً . وقال ابن خزيمة : في القلب من صحة إسناده شيء ، مع أنه رواية لأحمد في حديث أبي ذر . وأما نوراً أن أراه . ورجال إسناده رجال الصحيح . (٢) حديث «ان أنسى المسكت في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة» أخرجه الترمذي المحكم في تواتر الأصول من حديث أبي هريرة «أما الفضيلة يوم القيامة ان عمل الكاشتر من أمي . . . الحديث» وفيه «وأطولهم مكاناً فيها مثل الدنيا من يوم خلت في يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة» وولساده ضعف .

هذا العالم إلا ويصحبها غيرة وكدورة ما ، وإن قلت ، ولذلك قال الله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها ، فإذا أكل الله تطهيرها وتركيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والمرض وغيره ووافى استحقاق الجنة - وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه فإنه واقع بعد القيامة ؛ ووقت القيامة مجهول - فمعد ذلك يشتغل بصفاة وبقائه عن الكدورات حيث لا يرقق وجهه غيرة ولا قرة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما عليه كان انكشاف تجلى المرأة بالإضافة إلى ما تجليه . وهذه المشاهدة والتجلى هي التي تسمى رؤية ، فإذن الرؤية حق ، بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في تمثيل متصور مخصوص بجهة ومكان ، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا ، بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة ، فقرأه في الآخرة كذلك . بل أقول : المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتقلب مشاهدة ، ولا يكون بين للمشاهدة في الآخرة ، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح ، كما ضربناه من المثال في استكمال الخيال بالرؤية . فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة لأنها هي بعينها لا تفرق منها إلا في زيادة الكشف ، كما أن الصورة الزمنية هي للتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أعم لنا نورنا) إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف ، ولهذا لا يهون بدرجة النظر والرؤية إلا السارفون في الدنيا ، لأن المعرفة هي البذر الذي ينتقل في الآخرة مشاهدة - كما تنقلب الثروة شجرة والحب زرعاً ، ومن لا ثروة في أرضه كيف يحصل له ثقل ؟ ومن لا يورث الحب فكيف يحمّد الزرع ؟ فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلى أيضا على درجات متفاوتة ، فاختلاف التجلى بالإضافة إلى اختلاف المعارف كالختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر ، إذ تختلف لأحالة بكميتها وقوتها وحسنها وقوتها وضعفها ، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة »^(١) ، فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يحد من لذة النظر والمشاهدة ما يحدّه أبو بكر ، بل لا يحد إلا عشر عشره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشره ، ولما فضل من الناس بسر وقر في صدره فضل لأحالة بتجلى انفراديه ، وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرئاسة على المعلوم والمتكسح ، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرئاسة وعلى المتكسح والمطعوم والمشروب جميعا ؛ فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ، إذ يرجع نعيمها إلى المعلوم والمتكسح ، ومثواها بينهم م الذين حاطم في الدنيا ما وصفنا من إثارة لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار البرهانية على لذة المتكسح والمطعوم والمشروب ؛ وسائر الحائق مشغولون به . ولذلك لما قيل لرابعة : ما تقولين في الجنة ؟ قالت الجار ثم الغار . فيثبت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة . وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه

(١) حديث « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة » أخرجه ابن عدى من حديث جابر . وقال بإطل بهذا الإسناد وفي البلدان لذهبي أن الفريضي رواه من الحامل عن علي بن عبيدة وقال الفريضي إن علي بن عبيدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وطاعة .

في الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحب من الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يبشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه ، فاصحب من المعرفة هو الذي يقم به بعينه فقط ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتضاعف اللذة به ؛ كما تضاعف لذة الماشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق برؤية صورته فإن ذلك متبني لذته ، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي ، فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذته له في غيره ، بل ربما يتأذى به . فإذن نعم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته ؛ فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان .

فإن قلت : فإذنة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها ، لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا ينبتى في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها ؟ فأعلم أن هذا الاستحقاق للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة ، فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ؟ وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بهلاقي الدنيا فكيف يدرك لذتها ؟ فلعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ، ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والمشاركة ، كإلا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ، ولإذنة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ، ولإذنة اللبس باليد إلى لذة الرقاق .

وأظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول : لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب (أحدها) كمال جمال المعشوق ونقصانه ، فإن اللذة في النظر إلى الأجل أكل لا محالة . (والثاني) كمال قوة الحب والشهوة والعشق ؛ فليس التناذر من اشتد عشقه كالتناذر من ضعف شهوته وحبه . (والثالث) كمال الإدراك ، فليس التناذر برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستار رقيق أو من بعده كالتناذر بإدراكه على قرب من غير ستار وعند كمال الضوء ، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كأدراكها مع التجرد . (والرابع) اندفاع العوائق المشوشة والألام الشاغلة للقلب ؛ فليس التناذر الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق كالتناذر الخائف المذهور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بغيرهم من المهمات .

فقدّر تاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستار رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتماع عليه عقارب وزناير تؤذيه وتلذذه وتشفل قلبه ، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة مامن مشاهدة معشوقه ، فلو طرأت على الفجأة حالة انبهتك بها السر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبق سلبا فارغا وحجبت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات ، فانظر كيف تضاعف اللذة حتى لا يبق الأولى إليها نسبة بعمدتها ، فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة . فالستر الرقيق مثال اليلدين والاشتغال به ، والمقارب والزناير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والنم والحزن ، وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى المآل الأعلى والتفتانها إلى أسفل السافلين وهو مثل تصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياضة والتغافل إلى اللعب بالمصفور ، والعارف بعزائ قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشغولات ولا يتصور أن يخلو عنها البتة . نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم ، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ، ولكن يكون ذلك

كالحرق الخاطف وقلا يدمم ؛ بل يمرض من الشواغل والأفكار والحواطر ما يشقوه ويفنضه ، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الغاية فلا تزال هذه اللذة منتضة إلى الموت ، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإتمام العيش عيش الآخرة (وإن النار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون) وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يجب لقاء الله تعالى فيحب الموت ، ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فإن المعرفة كالبنير ويخرج المعرفة لا ساحل له ، فلا إحاطة بكنهه جلال الله تعالى ، فكما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقوته ؛ كثر التعميم في الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا ، ولا يزرع إلا في صعيد القلب ، ولا حصاد إلا في الآخرة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله »^(١) ، لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتنتفع في العمر الطويل بمداومة التفكير والمواظبة على المجاهدة والانتقطاع عن علاقات الدنيا والتجرد للطلب ، ويستدعي ذلك زمانا لا محالة ، فمن أحب الموت أحب لانه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالناس إلى منتهى ما يمر له ، ومن كره الموت كرهه لانه كان يؤمل من مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر ، فهذا سبب كراهة الموت ووجهه عند أهل المعرفة .

وأما سائر الخلق فنظروهم مقصور على شهوات الدنيا إن اتسمت أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت . وكل ذلك حرمان وخسران مصدوره الجهل والغفلة . فالجهل والغفلة مفروض كل شقاوة . والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بهذا ذكرنا معنى المحبة ، ومعنى المشق فإنه المحبة المفرطة القوية ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ، ومعنى لذة الرؤية ، ومعنى كونها ألد من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوي النقصان ، كما لم تكن الرئاسة ألد من المعلومات عند الصيادين .

• فإن قلت : فهذه الرؤيا عليها القلب أو العين في الآخرة ؟ فأعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه ، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ، ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلف في عينه أو جبهته ، بل يقصد الرؤيا ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها ، فإن العين على وظرف لا نظر إليه ولا حكم له ، والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن تحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين ، هذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة من الجأزين فلا يدرك إلا بالسمع^(٢) والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يتحقق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر ، وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره ، إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا للضرورة والله تعالى أعلم .

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى ، فإن الآخرة معناتها التقديم على الله تعالى ودرك سعادته لقائه ، وما أعظم نعم الحب إذ أقدم على محبته بعد طول شوقه ! وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآبادين

(١) حديث « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله » أخرجه إمام الحرمين في كتاب ذكر الموت من رواية ابن أبي عمير عن ابن المغازي عن المطلب من أبيه من النبي صلى الله عليه وسلم قال « السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله » ورواه المطلب عبد الله بن حبيب يختلف في صيغته وأحد من حديث جابر « أن من سعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله » ورواه المطلب من حديث أبي بكر : أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس خير ؟ قال « من طالع عمره وحسن عمله » قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم . (٢) حديث « رؤى الله في الآخرة حقيقة » متفق عليه من حديث أبي هريرة : أن الناس قالوا لرسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تشارون في رؤية القبر إلى القبر ... الحديث » .

غير منقص ومكثر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع ! إلا أن هذا النعم على قدر قوة الحب فكما ازدادت المحبة ازدادت اللذة ، وإنما يكسب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لانه لا ينفك عن أصل المعرفة ، وأما قوة الحب واستيلائه حتى ينتهي إلى الاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بسببين (أحدهما) قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإيحاء لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء (ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه) وكال الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه . وما دام يلتفت إلى غيره فزأوة من قلبه مشغولة بغيره ، فيقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله ، ويقدر ما يبق من الماء في الإيحاء ينقص من الخل للصبر فيه . وإلى هذا التفريد والتفريد بالإشارة بقوله تعالى (قل الله ثم ذرهم في خوضهم) وقوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استغماوا) بل هو معنى قولك لا إله إلا الله ، أي لا معبود ولا محبوب سواه ، فكل محبوب فإنه معبود ، فإن العبد هو للقيد والمعبود هو المقيد به . وكل محب فهو مقيد بما يحبه . ولذلك قال الله تعالى (أرايت من اتخذ إلهه هواه) وقال صلى الله عليه وسلم « أبغض إله عبد في الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة »^(١) ، ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه فلا يبق فيه شرك لغير الله ، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقتصد قلبه فقط ، ومن هذا حاله فالدنيا بمنته لأنها مائلة له من مشاهدة عبده وموته خلاص من السجن وقدم على المحبوب ، فما حال من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه شوقه وتهادى عنه حبسه نظى من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبد الآباد ، فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الأمل والمال والولد والآفات والمعار والدواب والبساتين والمتنزهات حتى إن المنفرح بطيب أصوات الطيور وروح لسم الأبحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتمرس لنقصان حب الله تعالى بسببه ، فيقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا وينقص بقدرة من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدرة ، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب زوجها ، فالدنيا والآخرة ضربتان وهما كالمشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لنوى القلوب انكشافا أوضح من الإبصار بالعين ، وسيل قلح حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملزمة الصبر والانقياد إليهما بامام الخوف والرجاء . فما ذكرناهما من المقامات كالثوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسبها أحد ركني المحبة وهو تحلية القلب عن غير الله ، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ، ويتشعب منهما التوبة والمهر طهيها . ثم ينتج ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميع طهارة القلب عن غير الله فقط ، حتى يتسع بعمده لنزول معرفة الله وجهه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام ، الطهور شطر الإيمان^(٢) ، كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة .

(السبب الثاني) لقوة المحبة : قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلائها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها بجرى بجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني . ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي حارب الله بها مثلا حيث قال (حارب الله مثلا كلمة

(١) حديث « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » هدم . (٢) حديث « الطهور شطر الإيمان » أخرجه مسلم حديث أبي مالك من الأشرعى وقد تقدم .

طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (وإليها الإشارة بقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب)
 أي المعرفة (والعمل الصالح يرفعه) فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالآدم وإتمام العمل الصالح كله في تطهير
 القلب أولاً من الدنيا ثم لإدامة طهارته ، فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة ، وأما العلم بكيفية العمل فيراد العمل ،
 فالعلم هو الأول وهو الآخر ، وإتمام الأول علم المعاملة وغرضه العمل ، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته
 ليتضح فيه جلية الحق ويتبين بلم المعرفة وهو علم المكاشفة . ومهما حصلت هذه المعرفة تبعها المحبة بالضرورة ،
 كما أن من كان معتدلاً المزاج إذا أبصر الجليل وأحركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة ،
 فاللذة تبع المحبة بالضرورة ، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا
 من القلب إلا بالنفكر! الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي
 ملكوته سمواته وسائر مخلوقاته .

والواصلون إلى هذه الرتبة يتقسمون إلى (الأقوياء) ويكون أول معرفتهم بالله تعالى ، ثم به يعرفون غيره .
 وإلى (الضعفاء) ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل . وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى
 (أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) ويقول تعالى (شديد الله أنه لا إله إلا هو) ومنه نظر بعضهم حيث
 قيل له : بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربي ولولا ربي لما عرفت ربي ، وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى
 (سفيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) الآية ويقول عز وجل (أولم ينظروا في ملكوت
 السموات والأرض) ويقول تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) ويقول تعالى (الذي خلق
 سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين
 ينقلب إليك البصر غاسقاً وهو حسير) وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين ،
 وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكير والاعتبار والنظر في آيات عارضة عن الحصر .

فإن قلت : كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة فاعلم
 أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض ، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر
 الخلق فلا فائدة في إيرادها في الكتب ، وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ، وإنما
 قصرت الأنعام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ النفس ، والممانع من ذكر هذا اتساعه
 وكثرة وانشباب أبوابه الخارجة عن الحصر والهاية ، إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا
 وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكآله حكمة ومتنبي جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يقاوم
 (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) فالخوض فيه الناس في بحار علوم
 المكاشفة ولا يمكن أن يتفطن به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الركن إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع
 التنبيه لجلسه فقول :

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلتستلهم فيها وثلثك الأعلى ، ثم الأفعال الإلهية كثيرة فغلب أفعالها وأحضرها
 وأغمرها ولننظر في عجائبا ، فأقول المخلوقات هو الأرض وما عليها - أعني بالإضافة إلى الملائكة وملكوت
 السموات - فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل
 الأرض مائة وثلاثين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى

فلكها الذى هي مركوزة فيه ، فإنه لانسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة ، وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ، ثم السموات السبع في الكرسي كلفة في فلاة ، والكرسي في العرش كذلك . فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المفادير ، وما أحتر الأرض كلها بالإضافة إليها ، بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار ! فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض ^(١) ، ومصدق هذا عرف بالمساعدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء بجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض ، ثم انظر إلى الأذى المخلوق من التراب - الذى هو جزء من الأرض - وإلى سائر الحيوانات وإلى صفه بالإضافة إلى الأرض ، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجرى مجراه ، فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بمقل حاضره وفكر صاف ، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطومًا مثل خرطوم ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه الفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضائه الظاهرة فأثبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ؟ ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره في سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الناذية والجاذبة والنافعة والماسكة والماخضة ما ركب في سائر الحيوانات ، هذا في شكله وصفاته ، ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعوفه أن غذاه دم الإنسان ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس وكيف هداه إلى مسام بشره الإنسان حتى يضع خرطوميه في واحدتها ثم كيف قواه حتى يفرز فيه الخرطوم ! وكيف طله المص والتجزع الدم ! وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفًا حتى يجرى فيه الدم الرقيق وينتهي إلى باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه ! ثم كيف عوفه أن الإنسان يقصده بيده فله حيلة الحرب واستعداد آتته ؛ وخلق له السمع الذى يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة عنه فيترك المص ويهرب ! ثم إذا سكنت اليد يعود ! ثم انظر كيف خلق له حذقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه

وانظر إلى أن حذقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حذقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمراة الحذقة عن التقذى والنيار - خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى الذباب فقراه على الدوام يسمح حذقته يديه . وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحذقته الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر ، وأطرافهما سادة فيجمع النبار الذى يلحق الحذقة ويرميه إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتتجمع ضوء العين وتأمين على الإبصار وتحسن صورة العين وتفتيكها عند هيجان النبار فينظر من وراء شبك الأهداب ، واشباها كما يمنع دخول النبار ولا يمنع الإبصار . وأما البعوض فخلق لها حذقتين مصقلتين من غير أجفان وعليها كيفية التصصيل باليدين ، ولأجل ضعف أبصارها تراها تنهات على السراج لأن بصره ضعيف فهي تطلب ضوء النبار ، فلذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء ، فلذا زال يطلب الضوء ويرى نفسه إليه فلذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق . ولذلك نفل أن هذا نقصان وجهها ، فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها ، بل صورة الأذى في الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التفات على النار ، إذ تلوح للكدى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم النافع القاتل ، فلذا زال يرى نفسه عليها إلى أن ينفسس فيها ويقتيد بها ويهلك

(١) حديث : الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض ، لم أجد له أصلا .

ملا كما موبدا ، فليت كان جهل الأدي كجهل الفراش ! فلأنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة ، ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول « إني مسك بحجركم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش »^(١) ، فهذه ملعة عجيبه من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات ، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الآقون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته ، فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى .

ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعجيب تخصصه لا يشاركه فيها غيره ، فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اغتذت من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يمشون ، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما شيئا وجعل الآخر شفا ، ثم لو تأملت عجائب أسرها في تناولها الأزهار والأوراق واحترازها عن التجمسات والأقذار ، وطاعتها لوحد من جمعاتها هو أكبرها شغفا وهو أميرها ، ثم ما سحر الله تعالى له أميرها من العدل والإيصاد فيها - حتى إنه ليقول على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة - لتقتضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بناتها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبنى بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا بل مسدسا ، لخاصية في الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركه ، وهو أن أوسع الأشكال وأحوالها : المستديرة وما يقرب منها ، فإن المربع يخرج منه زوايا ضالمة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيق الزوايا فتبقى فارغة ، ثم لو بناها مستديرة لقيت خارج البيوت فرج ضالمة فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة ، ولا شكل في الأشكال ذات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس ، وهذه خاصية هذه الشكل ، فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صنعه جرمه ولطافته فده لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتنبا بعبثه ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه !

فاعتبر بهذه اللعبة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ، فإن القدر الذي يلته فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ، ولا نسبة لما أحاط به علينا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كاهم إلى ما استأثر الله تعالى بكنهه ، بل كل ما عرفة الخلق لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى ، فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الخاصة بأسهل الطريقين ، ويزداد المعرفة تزداد المحبة ، فإن كنت طالبا سمادة لقاء الله تعالى فأبذ الدنيا وراء ظهرك ، واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم ففساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن نال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له .

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون في أصل الحب لا شترآكهم في أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا ، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أساليبها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات

(١) حديث « إني مسك بحجركم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش » متفق عليه من حديث أبي هريرة « على ومثل أمي كمثل رجل استولد لارا غلبت الدواب والفراش ، فبنى فأنا أخذ بحجركم وأنتم تلتحنون فيه » لفظ مسلم واتبع البخاري على أوة ولمسلم من حديث جابر « وأنا أخذ بحجركم وأنتم تلتحنون من يدى » .

والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقوها وحفظوها ، وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعو على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب الدين ، والمختليون هم الضالون ، والمارفون بالحقائق هم المقتربون . وقد ذكر الله سال الأصفاء الثلاثة في قوله تعالى (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) الآية . فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثلا فنقول : أصحاب الشافعي مثلا يشتركون في حب الشافعي - رحمه الله - الفقهاء منهم والموام ، لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ، ولكن العامي يعرف عليه بجمل ، والفقهاء يعرفه مفصلا ، فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجاب به وجبه له أشد ، فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة ومال إليه قلبه ، فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأجيب تصانف لا محالة حبه لأنه تصانف معرفته ببله ، وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنفته ازداد به معرفة وازداد له حبا ، وكذا سائر الصناعات والفضائل . والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري مافي التصنيف فيكون له معرفة بجمل ويكون له بحسبه ميل بجمل ، والبصير إذا فقه عن التصنيفات واطلع على ما فيها من السجائب تصانف حبه لا محالة ، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم يحمله صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامي يعلم ذلك ويمتدحه : وأما البصير فإنه يطلع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى في البعوض مثلا - من عجائب صنعه ما ينظر به عقله ويتحير فيه له ويزداد بسببه لا محالة عظمة الله وجلاله وكآل صفاته في قلبه فيزداد له حبا ، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله ، وازداد به معرفة وله حبا . وبمر هذه المعرفة - أصح معرفة عجائب صنع الله تعالى - بحر لاساحله ، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحصر له ، وبما تفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منها عليه ولم يحبه لذاته ضعف محبته ، إذ تتغير بتغير الإحسان ، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والثناء . وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كآله وجهاله وبعده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه . فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة . والتفاوت في المحبة هو السبب لتفاوت في سعادة الآخرة . ولذلك قال تعالى (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) .

بيان السبب في تصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أزل الماروف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك ، فلا بد من بيان السبب فيه . وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلها لمن لا تفهمه إلا بشال : وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات ، لحياته وعقله وقدرته وإرادته للحياة أجل عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة ، إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه ، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه كقدر طول واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته وقدرته وإرادته وعقله وكونه حيوانا فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات

لا نحس بشيء من الحواس الخمس ، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بغيابته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل ما في العالم سواء لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ، ووجوده تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض ، بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا ، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة - وكل واحد من هذه للمدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد ، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته . وللوجودات للمدرك لا حصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس لها يشهد إلا شاهد واحد وهو ما أحسنا به من حركة يده ، فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمتته وجلاله ؟ إذ كل ذرة فإنها تنادي بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وإنما تحتاج إلى موجد ومحرك لها ، يشهد بذلك أولاً تركيب أعضائها واتلاف عظامها ولحمها وأعصابها ومنابت شعورها وتشكل أطرافها وسائر أجزائها الظاهرة والباطنة ، فإنه لعل أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ، ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وساطر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فأنهت العقول ودهشت عن إدراكه .

فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان (أحدهما) خفاؤه في نفسه وغمره وذلك لا يخفى مثاله (والآخر) ما يتناهى وضوحه ، وهذا أن الخفاش يصير بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخباء الليل واستارته ولكن لشدة ظهوره فإن بصر الخفاش ضئيف يبره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إحصائه فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضمف ظهوره .

فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراف والاستارة وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفاؤه ، فسيحان من احتجب بإشراف نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده حتى أنه لاخذ له عسر إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على لئق واحد أشكل الأمر . ومثاله : نور الشمس المشرق على الأرض ، فإننا نعلم أنه عرض من الأعراس يحدث في الأرض ويحول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائماً الإشراف لا غروب لها لكانت نظن أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما ، فإننا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض ، فأما الضوء فلا ندركه وحده ، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المراتع أدركنا تفرقة بين الحاليين ، فعلينا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء وانصفت بصفة فارتبها عند الغروب ، فعرضا وجود الثور بدمه ، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بصر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والثور ، هذا مع أن الثور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره ، انظر كيف تصور استبهاً أمره بسبب ظهوره لولا طرياق ضده ؟ فانه تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهت السموات والأرض وبطل الملك (٤١ - لبياء علوم الدين - ٤)

والملكوت ، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين . ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجدًا بغيره لأدركت التفرقة بين الشئيين بالدلالة ، ولكن دلالاته عامة في الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أوجبت شدة الظهور غفاه ، فهذا هو السبب في قصور الأفهام .

وأما من قويت بصيرته ولم تصغف منه فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله . وأما له أثر من الآثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها . ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيران وبحر ، بل ينظر فيه من حيث أنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره ، كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعصص وزاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف . وكل العالم تصنيف الله تعالى ، فنظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله ولا عيا إلا له ، وكان هو الواحد الحق الذي لا يرى إلا الله ، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبدا لله ، فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وإنه فنى عن نفسه . وإليه الإشارة بقول من قال : كنا بنا ففتينا عنا ففتينا بلا نحن . فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر ، أشكلت لبعض الأفهام عن دركها وقصور قدرة البلاء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهومة موصلة للفرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لنيرهم بما لا يعينهم . فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، والضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غيرة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق في الهم بشمواته وقد أسس بدركه وعسواته وأفهامه فسقط وقعا من قلبه بطول الأتس ، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيرانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى عارفا للمادة عجيبا أطلق لسانه بالمعرفة طبعًا فقال : سبحان الله ، وهو يرى طول النهار نفسه وأعضائه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحصى بشهادتها لطول الأتس بها ، ولو فرض أنه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض وآبهار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لحيف على عقله أن يذهر لعظم تعجبه من شهادة المعجائب لحالها .

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشرورات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستقصاء بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة ، فالتاس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره ، والمجليات إذا صارت مطلوبة صارت ممتاعة . فهذا سر هذا الأمر فليحقق . ولذلك قيل :

فقد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكمة لا يعرف القمر
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن تثبت وجود الشوق إلى الله تعالى ، وكون العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار . أما اعتبار فيمكن في إجابته ما سبق في إثبات الحب ، فكل محبوب يشتاق إليه في غيبته

لا محالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه ، فإن الشوق طلب ومشوق إلى أمر والموجود لا يطلب . ولكن بياه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، فأما ما لا يدرك أصلا فلا يشتاق إليه ، فإن من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه ولا يتصور أن يشتاق إليه ، وما أدرك بكأله لا يشتاق إليه ، وكأل الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة مجرّبه مداوما فنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ، ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، وهو من وجهين لا يكشف إلا بمثل من المشاهدات .

فنعلم مثلا : من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية ، فلو انمحي عن قلبه ذكره وخیاله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق إليه ، ولو رآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية ، فعنى شوقه لشوق نفسه إلى استكمال خياله ، فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا يكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته ، ونعم الاستكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه (والثاني) أن يرى وجهه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر سماته فيشتاق لرؤيته ، وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن يكشف له ما لم يرها قط .

والوجهان جميعا متصوران في حق الله تعالى ، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإن ما ألتصع العارفين من الأمور الإلهية — وإن كان في غاية الوضوح — فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الانضاح ، بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات ، فإن الخيالات لا تنفرد في هذا العالم عن التمثيل والحاكاة لجميع المعلومات ، وهي مكدرات للمعارف ومنهضات ، وكذلك يضاهي إليها شواغل الدنيا ، فأنما كأل الوضوح بالمشاهدة ونعم إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة ، وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنه متتهى محبوب العارفين . فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما ألتصع انضاحا ما (الثاني) أن الأمور الإلهية لا نهاية لها وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها ويتبقى أمور لا نهاية لها غامضة . والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ، وإدلم أن ما غاب عن عليه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له أصل للرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلا ، لامةرفة واضحة ولا معرفة غامضة .

والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن في الدنيا . وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال : قلت ذات يوم : يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقاءك فأعطني ذلك فقد أضرب القلق ، قال : فرأيت في التورم أنه أوقفني بين يديه وقاله يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقاءي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ، فقلت يارب تهت في حبلك فلم أدر ما أقول فأغفر لي وعلني ما أقول ، فقال قل اللهم رضى بقضائك وصبرنى على بلائك وأرغنى شكر نعمائك ، فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة .

وأما الشوق الثاني فينبه : أن لا يكون له نهاية لاف الدنيا ولا في الآخرة ، إذ نهايته أن يكشف لعمد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو حال لأن ذلك لا نهاية له . ولا يزال العبد عالما بأنه بقى من الجلال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه ، لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال ، فهو يجد لذلك شوقا لا يذبا لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون أطراف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال التعم واللذة متزايدا أبدا لا يآبد ،

وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعم شائعة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل : وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا ، فإن كان ذلك غير مبدول فيكون النعم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام . وقوله سبحانه وتعالى (نورم يسمي بين أيديهم وبأييمانهم يقولون ربنا أنم لنا نوراً) محتمل لهذا المعنى ، وهو أن يتم عليه بإتمام التوهمما تزود من الدنيا أصل النور ، ويحتمل أن يكون المراد به [تمام النور في غير ما استقر في الدنيا استقارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق ، فيكون هو المراد بنهاه . وقوله تعالى (انظرونا نقبوس من نوركم - قبل ارجعوا وراءكم فاتمسوا نورا) يدل على أن الأنوار لا يذ وأن يتوود أصلها في الدنيا ثم يرداد في الآخرة [إشراقا ، فأما أن يتجدد نور فلا ، والحكم في هذا برجم الظنون غطر ، ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوقع به ، ففسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا . فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى ، فما اشتر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقاءك » (١) ، وقال أبو الدرداء لكعب : أخبرني عن أخص آية - يعني في التوراة - فقال : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقاء وإنني إلى لقاءهم لاشد شوقا . قال : ومكتوب في جانبها : من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ، فقال أبو الدرداء : أشهد أني لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا . وفي أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى قال ياد داود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني وجلس لمن جالسن ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبن ومختار لمن اختارن ومطيع لمن أطاعني ، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحبته جبالا يتقدمه أحد من خلقي ، من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ؛ فافرضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلدرا إلى كرامتي ومصاحبتى ومجالستي ، وانفوسا في أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم ، فاني خلقت طينة أجباني من طينة إبراهيم خليل موسى نبي ومحمد صفي ، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ولعمري بجلال .

وروى عن بعض السلف : أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لي عبادا من عبادي يصبرون وأحبهم ويشاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكرون وأذكروهم وينظرون إلى وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم ممتك ، قال : يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه ، ويحتنون إلى غروب الشمس كما يحى الطائر إلى وكره عند الغروب ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلاكل حبيب يحببه نصبوا إلى أقدامهم واهترشوا إلى وجوههم وتاجون بكلاى وتغلقوا إلى بلاناي فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكم وساجد ، بمعنى ما يتحملون من أجل ، ويسمى ما يشكون من حب ، أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نوري في قلوبهم فيصبرون عني كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقلها لهم . والثالثة : أقبل بوجهي عليهم ، فترى من أقبلت عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ .

وفي أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه : ياد داود إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إلى ،

(١) حديث : أنه كان يقول في دعائه « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وقدم في السموات .

قال : يارب من المشتاقين إليك ؟ قال : إن المشتاقين إلى الذين صغيبتهم من كل كدر ونهبتهم بالخدر وخرقت من قلوبهم إلى خرقا ينظرون إلى ، وإلى لاهل قلوبهم يبدى فأضهما على سماءي ، ثم أدرع نجاها ملائكتي فلذا اجتمعوا بجودالي ، فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى وأباهي بكم أهل الشوق إلى فإن قلوبهم لتضى . فى سماءي للملائكتي كما نضى الشمس لاهل الأرض ، يادادو إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ولعمتها بنور وجهي فأتخذتهم لنفسى محبتي ، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلى يزدادون فى كل يوم شوقا ، قال داود : يارب أرنى أهل محبتك ، فقال : يادادو امت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفسا فهم شيان وفهم شيوخ وفهم كهول ، فلذا أتيتهم فأقرتهم منى السلام وقل لهم إن ربكم يقرمكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فإنكم أحبابى وأصفياى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم . فأتاهم داود عليه السلام فرجدهم عند عين من الميون يتفكرون فى عظمة الله عزوجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتزفوا عنه ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم يقرمكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ؟ ألا تبادونى أسمع صوتكم وكلامكم فلأنكم أحبابى وأصفياى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيرة الرفقة ؟ قال : جرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فأغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فىا معنى من أعمارنا . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامتن علينا بحسن النظر فىا بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيد أفنجترئى على السماء وقد علمت أنه لا حاجة لنا فى شيء من أمورنا فأقدم لاروم الطريق إليك وأنتم بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون فى طلب رضاك فأعنا علينا بجودك . وقال الآخر : من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك أفنجترئى على الكلام من هو مشتغل بمظلمتك متفكر فى جلالك ؟ وطلبنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كلت السننا عن دعائك ؛ لعظم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك ؛ وفزغتنا للاشتغال بك ، فأغفر لنا تقصيرنا فى شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هى النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجترئ العبد على سسيده ؟ إذ أمرتنا بالسماء بجودك . فهب لنا نورا ترحمى به فى الظلمات من أطباق السموات وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا وتديه عندنا . وقال الآخر : نسالك تمام نعمتك فىا وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لا حاجة لنا فى شيء من خلقك فامتن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تسمى عني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامتن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك . فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : فلم تعلم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتهم فلينافق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ نفسه سر يا فلانى كاشف المحجاب فىا بينى وبينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى . فقال داود : ياربهم نالوا هذامنك ؟ قال : بحسن الظن والكعبن الدنيا وأهلها والمخالات بنى ومناجهم لى وإنى هذا منزل لا يتاله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفرغ قلبه لى واختارنى على جميع خلقى ، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف المحجاب فىا بينى وبينه حتى ينظر إلى نظر الناظر

بمينه إلى الشيء وأربه كرامتي في كل ساعة وأقربه من نور وجهي ، إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا قلت ذلك به يادود عمت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحجبا إليه لا يفتر عن الاشتغال بي ، يستعجلني القوم وأنا أكره أن أميت لأنه موضع نظري من بين خلق لا يرى غيري ولا أرى غيره ، فلو رأيته يادود وقد ذابت نفسه وغل جسمه وتشممت أعضائه وانخلع قلبه إذا سمع بكري أباهي به ملائكتي وأهل سموات يزداد خوفاً وعبادة ، وعزقي وجلالي يادود لأقعدته في الفردوس ولا شقين صدره من النظر إلى حتى يرضى وفوق الرضا .

وفي أخبار داود أيضاً . قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي ما حركم إذا احتجبت عن خلقى ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى بيمون قلوبكم ، وما حركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم ، وما حركم مستحيلة الخلق إذا التستم رضائي . وفي أخبار داود أيضاً : إن الله تعالى أوحى إليّ تزعم أنك تحبني ، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك فإنّ حبّي وحبا لا يجتمعان في قلب . يادود غالص حبيبي خاصة وغالط أهل الدنيا مخالطة ودنك فقلدني ، ولا تقلد دنك الرجال ، أماما استبان لك مما واثق محبتي فتمسك به ، وأماما أشكل عليك فقلدني حقاً على أنّي أسارع إلى سياساتك وتحريكك وأكن قائداً ودليلاً ، أعطيك من غير أن تسألني وأعنيك على العداوات وإنّي قد حلقت على نفسي أنّي لا أثيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلغاء كفه بين يدي وأنه لا غنى به عني . فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الفنى قلبك فإنّي قد حلقت على نفسي أنه لا يعطين عبداً إلى نفسه ينظر إلى فعلها إلا وكلته إليها ، أحضف الأشياء إلى لأفضاد علك فتكون متعباً ولا ينفع بك من يصحبك ولا تجد لمرفعي حداً فليس لها غاية ، ومتى طلبت مني الزيادة أعطتك ولا تجد للزيادة مني حداً ، ثم أعلم بي إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب ، فلتنظم وغبته وإرادتهم هندی أبح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، منعت بين عينيك وانظر إلى بصير قلبك ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الدين حببت عقولهم عن فأمرجوا وصحت بانقطاع ثوابي عنها فإنّي حلقت بهزقي وجلالي لأفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويق ، تواضع لمن تملّه ولا تظاول على المريدين ، فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا هم أرضاً يمشون عليها . يادود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيدا ، ومن كتبته عندي جهيدا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين . يادود تملك بكلامى وأخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب عنك محبتي لا تؤيس عيادي من رحمتي ، افطع شهورتك لي فلأبسا أجت الشهورات اضنفة خلق ما بال الأقوياء أن يبالوا الشهورات فأنقص حلاوة مناجاتي ، وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عنى فإنّي لم أرض الدنيا لحبيبي ونزعت عنها . يادود لا تجعل بيني وبينك عالماً يصحبك يسكره عن محبتي ، أو لك قطع الطريق على عبادي المريدين ، استعن على ترك الشهورات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة في الإنظار فإنّ محبتي للصوم إدمانه . يادود تحبب إلى بمعاداة نفسك أمتها الشهوات أنظر إليك وترى المحب بيني وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقرى على ثوابي إذا منفت عليك به وإنّي أحبه عنك وأنت تملك بطاعتي .

أوحى الله تعالى إلى داود : يادود لو يعلم المدبرون عنى كيف تنظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماثروا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي . يادود هذه إرادتي في التدبير عنى فكيف إرادتي في التقبلين على

يادارد أوحى ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى ، وأرحمها أكون ببدي إذا أدبر عنى ، وأجل ما يكون عندى إذا رجع إلى ، فهذه الأخبار وفطرتها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والانس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

بيان حجة الله للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك ، ولتقدم الشواهد على محبة فقد قال الله تعالى (يحبهم ويحبونه) وقال تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) وقال تعالى (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال (قل فلم يذبكم بذنوبكم) وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أحب الله تعالى عبدا لم يصره ذنبا والثائب من الذنوب كن لا ذنبا له . ثم تلا (إن الله يحب التوابين)^(١) ، ومعناه أنه إذا أحببه تعالى لم يصره ذنبا الموت فلم تقرر الذنوب الماضية وإن كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام ، وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنوب فقال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب^(٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تواضع لله رحمه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحب الله^(٣) ، وقال عليه السلام : قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به^(٤) ، الحديث . وقال زبدين أسلم : إن الله يحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : أعمل ما شئت فقد غفرت لك . وما ورد من ألفاظ المحبة خارج من المحصر .

وقد ذكرنا أن حجة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق ، والعشق عبارة عن الميل الثالب المفرط . وقد بينا أن الإنسان موافق للنفس ، والجبال موافق أيضاً ، وأن الجبال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر .

فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً ، بل الأساس كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غيره الله لم تتلق عليها معنى واحد أصلاً ، حتى إن اسم « الوجود » الذى هو أعم الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد ، بل كل ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع . وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشيء في اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فهما من غير استحقاق أحدهما ، لأن يكون فيه أصلاً ، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلق ، وهذا التباعد في سائر الأساس يظهر كالم والإرادة

(١) حديث أنس : إذا أحب الله عبدا لم يصره ذنبا والثائب من الذنوب كن لا ذنبا له . ذكره صاحب القردوس ولم يخرج له في مسنده وروى ابن ماجه للشمس الثاني من حديث ابن مسعود وقدم في التوبة . (٢) حديث : إن الله يعطي الإيمان من يحب ومن لا يحب . الحديث . أخرجه الحاكم وصححه استاده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود . (٣) حديث : من تواضع لله رحمه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحب الله . أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سمية بإسناد حسن دون قوله : ومن أكثر ... إلى آخره . ورواه أبو جلى واحد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة . (٤) حديث : قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ... الحديث . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الحق . وواضع الئمة إنما وضع هذه الأسماء أولاً للخلق فإن الخلق أسبق إلى القول والأفهام من الخالق ، فكان استعالمها في حق الخالق بطريق الاستمارة والتجوز والتقل . والنجمة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائمتها ، وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يرافقتها فستنفيد بنيله كالأفتلتد بنيله ، وهذا محال على الله تعالى ، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبداً وأزلاً ، ولا يتصور تجدده ولا زواله ، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد المني رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) فقال بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه ، على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره ، فمن لا يجب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته ، فهو إذن لا يجب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ في حبه لعياده فهو مؤقول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكنه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الآزل ، لحيه لمن أحبه أزل مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب ، وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بمحدث السبب المتعنى له كما قال تعالى لا يزال عبيد يتقرب إلى بالتواقل حتى أحبه ، فيكون تقربه بالتواقل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه ، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه .

ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه ، لما ينصره بقوته أو ليعترج بمشاهدته أو ليستشير في رأيه أو ليعي أسباب طعامه وشرابه ، فيقال : إن الملك يحبه ، ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للملائمة له . وقد يقرب عبداً ولا يمتعه من الفحول عليه لا للافتتاح به ولا للاستجداد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفاً من الأخلاق الرضية والحصال الحيدة بما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك وافر الحظ من قربه ، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلاً ، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال : قد أحبه ، وإذا اكتسب من الحصال الحيدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال : قد توصل وحجب نفسه إلى الملك . لحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول . وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى ، والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسياع والشياطين ، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريباً فصار قريباً فقد تغير ، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعاً إذ صار قريباً بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى ، إذ التغير عليه محال ، بل لا يزال في نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال .

ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص ، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعاً ، وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر ، بل القرب في الصفات أيضاً كذلك ، فإن التليذ يطلب القرب من درجة أستاذة في كمال العلم وجماله والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تليذه ، والتليذ متحرك مفرق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم ، فلا يزال دائماً

في التفسير والتركى إلى أن يقرب من أستاذه ، والأستاذ ثابت غير متغير ، فكذلك ينبغي أن يفهم ترقى العبد في درجات القرب ، فكما صار أكل صفة وأنهم علما وإحاطة بمقتضى الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ، وصنيت الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كاله . نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله تعالى ، فإنه لا نهاية لكاله ، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حد محدود فلا قطع له في المساواة ، ثم درجات القرب متفاوت متفاوتا لا نهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال .

فلذا نحب الله العبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمصاعب عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه .

وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مقصده منه قائده ، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته ، وإذا أدرك منه شيئا يلتذ به ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى .

فإن قلت : محبة الله العبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول : يستدل عليه بعلاماته . وقد قال صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإذا أحب الحب البالغ اقتناه ، قيل : وما اقتناه ؟ قال : لم يترك له أهلا ولا مالا ^(١) ، فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لميس عليه السلام : لم لا تشترى حمارا فتركه ؟ فقال : أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار . وفى الخبر : إذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فإن صبر اجتنبه فإن رضى اصطفاه ^(٢) . وقال بعض العلماء : إذا رأيتك تحبه ورأيتك يبتليك فاعلم أنه يريد أن يصفيك . وقال بعض المريدين لأستاذه : قد طولت بشئ من المحبة ، فقال : يا بنى هل ابتلاك بمحبوب سواء فأثرت عليه ؟ قال : لا ، قال : فلا تطمع فى المحبة فإنه لا يعطيك عبدا حتى يلو . وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : إذا أحب الله تعالى عبدا جعل له وأعطا من نفسه وزاجرا من قلبه بأمره ونهيه ^(٣) . وقد قال : إذا أراد الله تعالى عبدا خيرا بصره بمحبوب نفسه ^(٤) ، فأخص علاماته حبه لله تعالى فلذا يدل على حب الله تعالى له .

وأما الفعل الدال على كونه محبوا فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهه فيكون هو المشير عليه والمدير لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسند لظاهره وباطنه والجاعل هومه مما واحدا والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته . فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد . فلذا ذكر الآن علامة محبة العبد لله تعالى فإنها أيضا من علامات حب الله تعالى للعبد .

القول فى علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المحبة يدعى ما كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى ، فلا ينبغي أن يقتصر الإنسان بتليس الشيطان

- (١) حديث : إذا أحب الله عبدا ابتلاه ... الحديث . أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني وقد تقدم .
 (٢) حديث : إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتنبه ... الحديث . ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرج فيه في مسنده . (٣) حديث : إذا أحب الله عبدا جعل له وأعطا من نفسه وزاجرا من قلبه بأمره ونهيه . (٤) حديث : إذا أراد الله بعبدا خيرا بصره بمحبوب نفسه . أخرجه أبو منصور الديلمي في مسنده الفردوس من حديث أبي يزيد في يأسد ضميم .
 (٥) - لحياء علوم الدين - ٤)

وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يتمتعها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة . والمحبة هجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وثمارها خضر في القلب واللسان والجوارح . وتدل تلك الآثار الفالصة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة النمار على الأشجار . وهي كثيرة فيها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام ، فلا يتصور أن يحب القلب محبوبا إلا ويجب مشاهدته لقاءه ، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محبا للموت غير فاق منه ، فإن المحب لا يبتل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوه ليتم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وآله وسلم : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ^(١) . وقال حذيفة عند الموت : حبيب جاء على فاقة لا أفزع من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود . وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله ، حيث قالوا : لا تحب الله لجمل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) وقال عز وجل (يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع قلعه مرعى والباطل خفيف وهو مع خفته ودي ، فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدرئك ، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن أجزئه . وبروي عن إسحق بن سعد بن أبي وقاص قال : حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد : ألا ندعو الله ؟ فخلوا في ناحية فدعا عباده بن جحش فقال : يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فقتل رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاته فبك وبثاني ، ثم يأخذني فيجرح أنفي وأذني ويقر بطني ، فإذا لقيتك غدا قلت يا عبد الله من جدد أفنك وأذنك ، فأقول : فيك يارب وفي رسولك ، فتقول صدقت قال سعد : فلفد رأته آخر النهار وإن أنه وأذنه لملفتان في خيط ^(٢) قال سعيد بن المسيب : أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوله . وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان : لا يكره الموت إلا مريب ، لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البيهقي لبعض الزهاد : أحب الموت ؟ فكانه توفى فقال لو كنت صادقا لأحبته ، وتلا قوله تعالى (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) فقال الرجل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يتمنين أحدكم الموت ^(٣) . فقال : إنما قاله لضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه .

فإن قلت : من لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد ، وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة ، فإن الناس متفاوتون في الحب . ويدل على التفاوت ما روي أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سلم مولاها عاتبة قريش في ذلك وقالوا : أنكحت عتيقة من عوائل قريش لمولى ؟ فقال : والله لقد أنكحت لراها

(١) حديث : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة . (٢) حديث إسحق بن سعد ابن أبي وقاص قال : حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد . ألا ندعو الله ؟ فخلوا في ناحية فدعا عبدا عبد الله بن جحش فقال : يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فقتل رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاته فبك وبثاني ويحجج أني وأذني . الحديث . أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو سلم في الحلية وإسناده جيد . (٣) حديث : لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ... الحديث . متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

وإني لأعلم أنه خير منها ، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا : وكيف هي أختك وهو مولاك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليُنظر إلى سالم^(١) ، فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويجب أيضا غيره فلا جرم يكون لبيته بقاء الله عند القدم عليه على قدر حبه ، وعلامة يفرق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .

وأما السبب الثاني للكرامة : فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره مجلته قبل أن يستمد للقاء الله ، فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالحب الذي وصله الحبيب بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليعيش له داره ويمد له أسباب فيلقاه كما يهواه فأرق القلب عن الشواغل خفيف الظاهر عن الدواقي ، فالكرامة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا ، وعلامته للودوب في العمل واستتراق الهم في الامة بمداد .

ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويحسب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ومتزيا إليه بالتواضع وطالبا عنده منزلا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه . وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيمان فقال (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ومن بقى مستغترا على متابعة الهوى لمحبوبه ما يهواه ، بل يترك المحب هوى نفسه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قبح الهوى فلم يبق له تتم بغير المحبوب ، كما روى أن زليخا لما آمنت وزوجها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى ، فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل ، فإذا دعاهما ليلا - وقت به إلى النهار وقالت : يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا ، حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه يخرج منك ولدين وجاعلها نبيين ، فقالت : أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلني طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى ، فعندها سكنت إليه . فإذا من أحب الله لا يصيبه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تمسى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الأفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن الحب لمن يحب مطيع

وفي هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هوته فأرضى بما ترضى وإن تخطت نفسي

وقال سهل رحمه الله تعالى : علامة الحب إثارة على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبيا ، وإنما الحبيب من اجتنب المناهى : وهو كما قال ، لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى (يحبهم ويحبونه) وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه ، وإنما عدوه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يهلكه إلى هواه وشهواته .

(١) حديث أبي حنيفة بن حنبل : أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه طاهر فريش في ذلك . وفيه : فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليُنظر إلى سالم ، لم أره من حديث حذيفة وروى أبو بصير في الحديث المنفرد منه من حديث عمر ، أن سالما يحب الله حقا من قلبه ، وفي رواية له وإن سالما شديد الحب لله مزوج لو لم يخف الله عز وجل ماصدا . وفيه عبد الله بن لهيعة .

ولذلك قال تعالى (والله أعلم بأعدائكم وكنى بالله وليا وكنى بالله نصيرا) .

فإن قلت : فالعصيان هل يضاد أصل المحبة ؟ فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها ، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويجب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره ؟ وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه . ولكن المعرفة قد قصفت والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة . ويدل عليه ما روي أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيجده في مصعقة يرتكبها إلى أن أتى به يوما فحده ، فلعنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ولانلته فإنه يحب الله ورسوله ^(١) ، فلم يخرج به بالمصعقة عن المحبة . نعم تخبره المصعقة عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين : إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى جسامتوسلا ، فإذا دخل سويداء القلب أحب الحب البالغ وترك المعاصي . وبالجمله في دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل : إذا قيل لك أحب الله تعالى ؟ فاسكت ، فإنه إن قلت : لا ، كفرت وإن قلت : نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر الفتى . ولقد قال بعض العلماء : ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يحقق بشيء من ذلك .

ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى لا يفتخر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يمتلئ به ، فعلامه حب الله ؛ حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه ، فإن من يحب إنسانا يحب كلب محله . فالحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة في الحب فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله ، وكلامه لأنه كلامه ، فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ، ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه ، فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الآخرة والصحة ولذلك قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحبا الله لما ينذركم به من نعمه وأحبوني لله تعالى ^(٢) ، وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله ، ومن أكرم من يكرم الله فلنما يكرم الله . وحكى عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال : فسمعت قائلا يقول في المنام ؛ إن كنت تزعم أنك تحبني فلم تجفرت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتاي ، قال : فأتيت وقد أشرب في قلبي حبة القرآن فماودت إلى حالي . وقال ابن مسعود : لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل - رحمه الله تعالى عليه - علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب السنة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بنض الدنيا ، وعلامة بنض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغته إلى الآخرة .

ومنها أن يكون أنه بالخلة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التجدد ويفتنم هذه الليل وصفاة الوقت بانقطاع اللواحق ، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلة بالحبيب والتعمق بمناجاته ، فمن كان اليوم والاشتغال بالحديث ألد عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته ؟ قيل لإبراهيم بن آدم وقد رزق من الجبل : من أين أقبلت ؟

(١) حديث : أتى نعيمان يوما لحده فلعنه رجل قال : ما أكثر ما يؤتى به ؟ فقال : لانلته فإنه يحب الله ورسوله . أخرجه البخاري وقد تقدم . (٢) حديث « أحبا الله لما ينذركم به من نعمه ... الحديث » .

فقال : من الأنس بالله . وفي أخبار داود عليه السلام : لا تستأنس إلى أحد من خلقى ، فإنى إنما أقطع عني رجلين رجل استبطأ ثوابي فاقطع ورجلا تسينى فرضى بحاله ، وعلمة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران ، ومهما أنس بفقر الله كان يقدر أنه بفقر الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبة . وفي قصة برخ - وهو العبد الأسود الذى استبقى به موسى عليه السلام - أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : إن برعا نعم العبد هو لى إلا أن فيه عيبا ، قال : يارب وما عيبه ؟ قال : يمجبه لسم الأسماء فيسكن إليه ومن أجنى لم يسكن إلى شيء وروى أن عابدا عبد الله تعالى في غيضة دهر طويلا فذفر إلى طائر وقد بنش في شجرة يأوى إليها ويصرف عندها ، فقال : لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة فكنت أنس بصوت هذا الطائر قال : فافعل ، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق لأحزنك درجة لا تملكها بشيء من عملك أبدا . فإذا علامة المحبة كال الأنس بنجاة المحبوب وكال التمتع بالخلة به وكال الاستحاش من كل ما ينقص عليه الخلة ويوق عن لذة النجاة . وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بذا النجاة ، كاذى يتخاطب معشوقه وبناجيه ، وقد انتهت هذه الآلة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلة والنجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على محبه مرارا ، مثل الماشق الوهان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنه في الباطن يذكر حبيبه . فالحب من لا يطمئن إلا بمحبه . وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ الذين آمنوا وطمعن قلبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قال : همت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضى الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر : الحب لا يسأم من حديث حبيبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قد كذب من ادعى محبة إذا جه الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فما أنا ذا موجود لمن طلبنى . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأفصذك ؟ فقال : إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن مداذ : من أحب الله أبغض نفسه وقال أيضا : من لم تمكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب ؛ يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والمعبادة على خدمة الخلق .

ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلعت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستطاف والاستعاب والتوبة . قال بعض البارفين : إن الله عابدا أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفاتت فلم يتشاغلوا بحظ أنه سيم . إذ كان ملك مليكهما يوما شاه كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم وما قاتهم فبحسن تدبيره لهم . وحق الحب إذا رجع من غفلته في لحظة أن يقبل على عبده ويستغل بالمتاب ، ويسأله ويقول : رب بأى ذنب قطعت برك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسى وممتائة الشيطان ؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة ، وتمكن هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه . ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئا إلا الله لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته ، ويذكر قوله ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ .

ومنها أن يقسم بالطاعة ولا يستكفها ويستقط عنه نعمها كما قال بعضهم : كابدت الليل عشرين سنة . ثم تعبت به

عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحب دوام النشاط والهدوب بشهوة فقر بدنه ولا يفتقر قلبه . وقال بعضهم : العمل على المحبة لا يدخله القصور . وقال بعض العلماء : والله ما اشتنى محب لله من طاعته ولو حل بهظم الرسائل . فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات ، فإنّ الماشق لا يستقل السعى في هوى ومشوّه ويستذل خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه . ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تباوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشغل به ، فهكذا يكون حب الله تعالى ، فإن كل حب صار غالبا فهو لاجل ما هو دونه . فمن كان عبوه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه . وقيل لبعض المحبين - وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء - بما كان سبب حاله هذه في المحبة ؟ فقال : سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبه به وهو يقول : أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت معرض عني بوجهك كله ! فقال له المحبوب : إن كنت تحبني فأيش تنفق علي ؟ قال : يا سيدي أملكك ما أملك ثم أنفق عليك ورحى حتى تهلك فقلت : هذا خلق الخلق وعبد لعبد فكيف يبيد لعبود ؟ فكل هذا بسببه .

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله ورحيما بهم شديدا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرمه كما قال الله تعالى (أشداء على الكفار رحماء بينهم) ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف ، وبه وصف الله أوليائه إذ قال الذين يكلفون يحيى كما يكلف الصبي بالشيء . وياوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكرة ، ويغضبون لمحارمة كما يغضب النمر إذا حرد فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا ، فانظر إلى هذا المثال فإن الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلا ، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه ، فإن نام أخذه معه في نياحه ، فإذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ، ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه ، وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه . فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ، ومن امتزج بحبه حب غير الله تمت في الآخرة بقدر حبه ، إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقتربين كما قال تعالى في الأبرار (إن الأبرار لئي لئيم) ثم قال (يسقون من حريق ختموهم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسليم حين يشرب بها المقتربون) فلذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصافي الذي هو المقتربون . والشراب عبارة عن جملة نعم الجنان ، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال (إن كتاب الأبرار لئي عليلين) ثم قال (يشهده المقتربون) فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقتربون ، وكما أن الأبرار يمدون المريد في حالم ومعرفة بهم من المقتربين ومشاهدة لهم ، فكذلك يكون حالم في الآخرة (ما خلصكم واليهتم إلا كفس واحدة . كما بدأنا أول خلق نعيده) وكما قال تعالى (جزاء وفاقا) أي وافق الجزاء أعمالهم فقبول الخالص بالصرف من الشراب وقبول المشوب بالمشوب . وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه وأعماله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها . وإن كان مثقال حبة من خردل أثينا بها وكفى بنا حساسين) فمن كان حبه في الدنيا رجاء لنعيم الجنة والجنود البين والقصور : مكن من الجنة لينبؤا منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنساء ؛ فهناك تلتقي لذته في الآخرة لأنه إنما يعطى كل إنسان في المحبة ما تشبهه نفسه وتلك عينه . ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يطلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق : أنزل (في مقدم

صدق عند ملك مقتدر ﴿ فالأبرار يرفعون في السماين ويقمعون في الجنان مع الجور العين والرائدان . والمقربون ملازمون الحضرة عا فكون بطرفهم عليها يستحقون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذوة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللمجالسة أقوام آخرون ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الآلآباب (١) ، ولما نصرت الأفهام عن درك معنى علين عظم أمره فقال (وما أدراك ما علين) كما قال تعالى (القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة) .

ومنها أن يكون في حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم ، وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك ، بل إدراك العظمة بوجوب الهيبة كما أن إدراك الجمال بوجوب الحب والخصوص المحبين يخافون في مقام المحبة ليست لغتهم ، وبعض يخافهم أشد من بعض ، فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد ، وهذا المغنى سورة هود وهو الذى شيب سيد المحبين (٢) إذ سمع قوله تعالى (ألا بهذا لقد - ألا بهذا لدين كما بدت فمود) وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاته وتتم به ، لحديث البعد في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب ، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد ، ولا يكرى خوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ، ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإنا قدما أن درجات القرب لانهائية لها وحق العبد أن يمتد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استوى يوماء فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون (٣) ، وكذلك قال عليه السلام : إنه ليثمان على قلبى في اليوم واليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة (٤) ، وإنما كان استغفاره من التقدم الأول فإنه كان بعدا بالإضافة إلى التقدم الثانى ، وبكون ذلك عقوبة لهم على القصور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب ، وكأروى أن الله تعالى يقول : إنك إذ ذمنا أصنع بالعالم إذا أثر شهور الدنيا على طاعى أن أسله لئذ منا جاتى . فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد بمزود الدعوى والمعجب والركون إلى ما ظهر من مبادئ اللطف ، وذلك هو المكر الخفى الذى لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ، ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته سمع إبراهيم بن آدم قائلا يقول وهو في سياحة وكان على الجبل : كل شيء منك مغفور وسوى الإعراض عنا قد وهبنا لك ما شاءت فهب لنا ما طقت

فاضطرب وغشى عليه فلم يقن يوما ولىلة وطرات عليه أحوال ثم قال : سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحمت .

ثم خوف السلوة فإن المحب يلزمه الشوق والطلب الحديث فلا يقتر عن طلب المزيد ولا يتسل إلا بالطف جديد ، فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجوعه . والسلا يدخل عليه من حيث لا يشعر كأنه يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر ، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سمائية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، فإذا

(١) حديث « أكثر أهل الجنة علين وذوى الآلآباب » أخرجه البيهقي حديث أس بنه ضعيف مقتصر على القطر الأول ، وقد تقدم ، والقطر الثانى من كلام أحد بن أبى الحواري وله أخرج فيه .

(٢) حديث « شيبني هود » أخرجه الترمذى وقد تقدم غير مرة . (٣) حديث « من استوى يوماء فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون » لأجل هذا لا في مقام لعبد العزيز بن أبى رواد قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم قلت : يا رسول الله أوصني ، فقال ذلك بزيادة في آخره رواد البيهقي في الزهد . (٤) حديث « إنه ليثمان على قلبى » متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أراد الله للمكر به واستدراجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو ففبق مع الرجاء ويستر بحسن النظر أو بنية التغلة أو الحوى أو النسيان ، فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان ، وكما أن من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهى أوصاف: اللطف والرحمة والحكمة ، فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء . وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان . ثم خوف الاستبدال بباتة القلب من حبه إلى حبه غيره ، وذلك هو اللقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والإعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملا له لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها . وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت . نموذ باقه منه - وملازمة الخوف لهذا الأمر وشدة الجذب منها بصفا ما لمراقبة دليل صدق الحب ، فإن من أحب شيئاً خاف لا محالة فقدته فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب بما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين : من عبده الله تعالى بحجة من غير خوف ذلك بالبسط والإدلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير حجة انقطع عنه بالبعد والاستيحاءش ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى ففقره ومكته وعلمه ، فالمحب لا يخلو عن خوف والحاسف لا يخلو عن حجة ، ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة ويمد من المحبين ، وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب ، فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر ، فإنما الخوف يبدله ويخفف وقعه على القلب ، فقد روى في بعض الأخبار : أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، ففهم في الجبال وسار عقله ووله قلبه وبقى شاخصا سبعة أيام لا يلتفت بشيء ولا يلتفت به شيء ، فسأل له الصديق ربه تعالى فقال : يارب أنقصه من الذرة بمضها ، فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيتاه جزءا من مائة ألف جزء من المعرفة ، وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذى سألني هذا ، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيتهم ، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ما أصابه من ذلك ، فقال : سبحانك يا أحكم الحاكمين أنقصه مما أعطيتهم فإذا عب الله عنه جملة الجزء ، وبقى معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفا وجهه ورجأه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل في وصف حال العارف :

| | |
|----------------------------|-------------------------|
| قريب الوجد ذو مرمى بعيد | عن الأحرار منهم والعبيد |
| غريب الوصف ذو علم غريب | كان فؤاده زهر الحديد |
| لقد عزت معانيه وجلت | عن الأبصار إلا الشبيد |
| زى الأعياد في الأوقات تهرى | له في كل يوم ألف عبيد |
| وللحجاب أفرح بعيد | ولا يحمد السرور له بعيد |

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أربابا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره .
وهى هذه الآيات :

| | |
|-------------------------------|-------------------------|
| سرت بأناس في التيوب قلوبهم | لخوا يقرب للماجد للتفضل |
| عراسا يقرب الله في ظل نفسه | تجول بها أرواحهم وتفضل |
| مواردهم فيها على العز والتهنى | ومصدرهم عنها لما هو أكل |

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| تروح بجز مفرد من صفاته | وفي حلل التوحيد تمشي وترفل |
| ومن بعد هذا ماتدق صفاته | وما كتمه أولى لديه وأعدل |
| سأكرم من علمي به ما يصوته | وأبذل منه ما أرى الحق يذلل |
| وأعطي عباد الله منه حقوقهم | وأمنع منه ما أرى للنع بفضل |
| على أن للرحمن سرا يصونه | إلى أهله في السر والعلن أجل |

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهر مامننا نكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له ، بل لو اشترك الناس فيها لحزبت الدنيا ، فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعامة الدنيا ، بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لحزبت الدنيا زهدهم فيها ، وبطلت الأسواق والمعامل ، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولو ققت الألسنة والأفلام عن كثير مما انتشر من العلوم ، ولكن الله تعالى فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم ، كما أن له في الخير أسراراً وحكماً ، ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرة .

ومنها كيان الحب واجتتاب الدعوى والتوق من إظهار الوجد والمحبة تمطياً للمحور وإجلالاً له وهيبة منه وغيره على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويريد عليه فيكون ذلك من الإغراء وتعمق العقوبة عليه في المعنى وتمجيد عليه البلوى في الدنيا . نعم قد يكون للحبيب سكرة في حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك تن غير تحمل أو اكتساب فهو مذمور لأنه مقهور ، وربما نشبت من الحب نيرانه فلا يطلق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يتدفع فيضانه . فالتأخر على الكتمان يقول :

وقالوا : قريب ، قلت : ما أنا صانع بقرب شعاع الشمس لو كان في حجرى ؟
فقال منه غير ذكر بخاطر يبيع نار الحب والشوق في صدرى !

والمعجز عنه يقول :

يخفى فيسدى اللمع أسراروه ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضاً :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكم ؟

وقد قال بعض العارفين : أكثر الناس من الله يبدأ أكثرهم إشارة به . كأنه أراد : من يكثر التعريض به في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو محموت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل . ودخل ذو التون المصري على بعض إخوانه - ممن كان يذكر المحبة - فراه مبتلي بلاء فقال : لا يحبه من وجد ألم ضره ! فقال الرجل : لكني أقول لا يحبه من لم يقيم بصره ، فقال ذو التون : ولكني أقول : لا يحبه من شعر نفسه به ، فقال الرجل : استنفر الله وأتوب إليه .

فإن قلت : المحبة منتهى المقامات وإظهارها إظهار للخير فلماذا يستنكر ؟ فأعلم أن المحبة محمودة ظهورها محمود أيضاً ولأننا المذموم المتظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار ، وحق الحب أن ينم على حبه الحق أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله . وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولأن إظهار الفعل الدال على الحب ، بل ينبغي أن يكون قصد الحب إطلاع الحبيب فقط ، فأما إرادته إطلاع غيره فنكر في الحب (٤٣ - إحياء علوم الدين - ١)

وقادح فيه ، كما ورد في الإنجيل : إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك . فالذى يرى الخفيات يجرئك علانية وإذا صمت فأغسل وجهك وأدمن رأسك لتلا يعلم بذلك غير ربك . فأظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فأطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حتى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استعمله فيه فأخبر بذلك معروفاً السكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال : يا أخى له عجبون صناروكبار وعقلاد وعجائين ! فهذا الذى رأيته من مجانينهم . وعما يكره : التظاهر بالحب ، بسبب أن الحب إن كان عارفاً - وعرف أحوال الملائكة في جهنم الله ثم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفغرون ولا يمضون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعاً أنه من أخس المجبيين في ملكوته وأن حبه أنقص من حب كل عجب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين : عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شيئاً ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها : قبلت صفاً من الملائكة بمدد جميع ما خلق الله من شيء ، فقلت : من أنتم فقالوا : نحن المحبون لله عز وجل لنبدع هنا منذ ثلثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواء ولا ذكرنا غيره . قال : فاستحييت من أعمالى فوهبنا لمن - حق عليه الوعيد تخفيفاً عنه في جهنم .

فلإذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه - حتى الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى . نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته : كما حكى عن الجنيد أنه قال : مرضي أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف ليلته دواء ولا عرفنا لما سبب ، فوصف لنا طبيب حاذق . فأخذ فارورة مائة فغظز إليها الطبيب وجعل ينظر إليه ملياً ثم قال لى : أراه بول عاشق ! قال الجنيد : فصغت وغشى على ووقعت الفارورة من يدي ، ثم رجعت إلى السرى فأخبرته ، فتبسم قال : قاله الله ما أبصره ! قلت : يا أستاذ وبين المحبة في البول ! قال : نعم . وقد قال السرى مرة : لو شئت أقول : ما أبهى جلدى على عظمى ولاسل جسمى إلا حبا ! ثم غشى عليه . وتدل الفشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدمات الفشية . فهذه جماع علامات الحب وثمراته .

ومنها : الانس والرضا - كما سيأتى .

وبالجملة جميع محاسن الدين ومكلام الأخلاق ثمرة الحب ، وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق . نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحبسن إليه . والمحبون لا يجرجون عن هذين القسمين . ولذلك قال الجنيد : الناس في عبة الله تعالى عام وخاص ، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتألكوا أن أرضوه إلا أنهم نقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان ؛ فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والتدرة والدلم والحكمة والتفرد بالملك . ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبه إذا استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لما ولو أزال عنهم جميع النعم ، نعم من الناس من يحب هواه . وعقد الله لإبليس - وهو مع ذلك إبليس على نفسه بحكم الضرور والجهل - فيظن أنه يحب لله عز وجل وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات ، أو إبليس بما نفاقاً ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظن من نفسه خلاص ذلك ، كدباء السوء وقرءاء السوء أولئك بنضاء الله في أرضه . وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال : يا دوسيت - أى يا حبيب - فقبل له : قد لا يكون حبياً فكيف تقول هذا ؟ فقال في أذن القائل سرا : لا يخلو إما أن يكون مؤمناً أو منافقاً : فإن كان مؤمناً فهو حبيب الله عز وجل ، وإن كان منافقاً فهو حبيب لإبليس : وقد

قال أبو تراب التنخشي - في علامات الحجة - أياتنا :

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| لا تخدعن فالحبيب دلائل | ولديه من تحف الحبيب وسائل |
| منها تنعمه بحر بلائه | وسروبه في كل ما هو فاعل |
| فالمع منه عطية مقبولة | والنقر لإكرام وبر عاجل |
| ومن الدلائل أي ترى من عومه | طوع الحبيب وإن ألح العاذل |
| ومن الدلائل أن يرى متبها | والقلب فيه من الحبيب بلايل |
| ومن الدلائل أن يرى متفهما | لكلام من يحظى لديه السائل |
| ومن الدلائل أن يرى متشفعا | متحفظا من كل ما هو قائل |

وقال يحيى بن معاذ :

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| ومن الدلائل أن تراه مشمرا | في خرقتين على شطوط الساحل |
| ومن الدلائل حزنه ونحيبه | جوف الظلام فما له من عاذل |
| ومن الدلائل أن تراه مسافرا | نحو الجهاد وكل فصل فاحل |
| ومن الدلائل زهده فيما يرى | من دار ذل والتعمير الزائل |
| ومن الدلائل أن تراه باكيا | أن قد رآه على قبيح فعاقل |
| ومن الدلائل أن تراه مسلحا | كل الأمور إلى الملك العادل |
| ومن الدلائل أن تراه راضيا | بملكه في كل حكم نازل |
| ومن الدلائل ضحكه بين الوري | والقلب عزون كقلب السائل |

بيان معنى الألس بالله تعالى

قد ذكرنا أن الألس والخوف والشوق من آثار الحجة ، ولأن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته ، فإذا غلب عليه التطمع من وراء حجب النيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره من الإطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه ، وتسمى هذه الحالة في الأزعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب ، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الجاهر المكشوف غير ملتفت إلى عالم يدركه بعد ، استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا ، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزول والبعاد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تأله خوفا . وهذه الأحوال ثابتة لهذه الملاحظات ، والملاحظات ثابتة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها ، فالألس معناه استبشار القلب فرحه بمطالعة الجمال ، حتى إنه إذا غلب وتجاوز عن ملاحظة ماغاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم فعيبه ولذته ، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له : أنت مشتاق ؟ فقال : لا إنما الشوق إلى غائب ، فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق ؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى مايق في الإيمان من مزايا الألطاف .

ومن غلب عليه سال الألس لم تكن شهرته إلا في الانفراد والحلوة ، كما حكي أن إبراهيم بن آدم نزل من الجبل فقيل له : من أين أقبلت ؟ فقال : من الألس بالله ، وذلك لأن الألس بالله يلزمه التوحش من غير الله ، بل كل

ما يفرق عن الخلوة فيكون من أفضل الأشياء على القلب ، كما روى أن موسى عليه السلام لما كمله ربه مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه النسيان ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فينزع من القلب عذوبة ماسواه . ولذلك قال بعض الحكماء فى دعاؤه : يا من آلتنى بذكره وأوحشنى من خلقه ، وقال الله عز وجل لما روى عليه السلام : كن لى مشتاقًا ولى متأسفًا ومن سواى مستوحشًا وقيل لرابعة : بهم تلك هذه المنزلة ؟ قالت : بتركى مالا يبتغى وأنسى بمن لم يزل . وقال عبدالواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له ياراهب لقد أعجبتك الوحدة ؟ فقال : يا هذا لو دقت حلالة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك ، الوحدة رأس العبادات ، فقلت ياراهب ما أقل ما تهجد فى الوحدة ؟ قال : الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم ، قلت ياراهب متى يذوق العبد حلالة الأنس بالله تعالى ؟ قال : إذا صفا الرذ وخلصت للمعاملة ، قلت : ومتى يصفر الرذ ؟ قال : إذا اجتمع لهم فصارهما واحد فى الطاعة ، وقال بعض الحكماء : عجبًا للخلاق كيف أرادوا بك بدلًا عجبًا للقلوب كيف استأنست بسواك عنقه ؟ .

فإن قلت : فما علامة الأنس ؟ فأقول أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معايشة الخلق والتبرم بهم واستناره بعذوبة الذكر ، فإن غالى فهو كنفرد فى جماعة ويجتمع فى خلوة ، وغرب فى حضر وحاضر فى سفر ، وشاهد فى غيبة وغائب فى حضور ، وغالط بالبدن منفرد بالقلب ، مستغرق بعذوبة الذكر ، كما قال على كرم الله وجهه فى وصفهم : هم قوم عجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلثوا ما استوعق المقررون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالخل الأعل ، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه . فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهد .

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التقصير ، وجهله بأن جمال المذكرات بالبصار أكل من جمال البصرات ، ولئلا معرفتها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحد بن غالب ، يعرف بنلام الخليل أنكر على الجنيذ وعلى أبى الحسن الثورى والجماعة حديث الحب والشوق والدمشق حتى أنكسر بعضهم مقام الرضا ، وقال : ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور . وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القصور فظن أنه لا وجود إلا للقصر ، فإن المحسوسات وكل ما يدخل فى الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه الباطن المطلوب ، فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

الأنس بالله لا يحويه بطال وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجيب وكلهم صفوة الله عمال

بيان معنى الانبساط والإدلال الذى ثمره غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينقصه خوف التنفيع والحجاب فإنه يثمر نوعًا من الانبساط فى الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى ، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الحية ولكنه محتال عن أقيم فى مقام الأنس ، ومن لم يتم فى ذلك المقام يقتضب بهم فى الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر .

ومثاله : مناجاة برخ الأسود الذى أمر الله تعالى كلمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى ابنى إسرائيل ؛

بعد أن قطعوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستق لهم في سبعين ألفا ، فأوحى الله عز وجل إليه : كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم سرأرم خبيثة يدعوننى على غير يقين وبأمنون منكى ، ارجع إلى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له ، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف ، فبينما موسى ذات يوم يمشى في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود ، فيثلمة قد عقد ما على عنقه ، ففرقه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل فلم عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمى برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين أخرج فاستسق لنا ، فخرج فقال في كلامه : ما هذا من فمالك ولا هذا من حلك ؟ وما الذى بذلك ؟ فأقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم ندد ما عندك أم اشتد غضبك على اللذين ؟ أأستكنت غفارا قبل خلق الخطاهين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطف ، أم تربنا أنك تمتنع أم تنشى الفوت فتعجل بالمعوبة ، قال فما برح حتى اخضعت بنو إسرائيل بالنظر وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب ، قال : فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال : كيف رأيت حين خاصمت بنى كيف أنصفنى ؟ فهم موسى عليه السلام به ، فأوحى الله تعالى إليه : إن برعا يضحكن كل يوم ثلاث مرات . وعن الحسن قال : احترقت أخصاص البصرة ذوق في وسطها خص لم يحترق ، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة ، فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الحص ، قال : فأنى يشيخ فقال : يا شيخ ما بال خصك لم يحترق ؟ قال : إني أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقه ، فقال أبو موسى رضى الله عنه : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يكون في أمى قوم شعثاء رموسهم ، دنة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم ^(١) ، قال : ووقع حريق بالبصرة فجلد أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار ، فقال له أمير البصرة : انظر لا تحترق بالنار ، فقال : إني أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرق بالنار ، قال : فأعزم على النار أن تطفأ ، قال : فمرم عليها فطفئت . وكان أبو حصص يمشى ذات يوم فاستقبله رستاق مدهوش فقال له أبو حصص : ما أصابك ؟ فقال : ضل حمارى ولا أملك غيره ، قال : فوقف أبو حصص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة مالم ترد عليه حماره ، قال : فظهر حماره في الوقت ومز أبو حصص رحمه الله .

فهذا وأمثاله يجرى لنوى الأنس وليس لنبيهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله : أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند السامة . وقال مرة : لو سمعها العموم لكفروهم وهم يحمدون المزيدي أحرارهم بذلك . وذلك بمشعل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل :

قوم تخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه
تأهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما تأهوا

ولا تستبددون رضاه عن العبد بما ينضب به على غيره مهما اختلف مقامهما ، ففى القرآن تنبيات على هذه المعاني لو فطنت وفهمت ، لجميع قصص القرآن تنبيات لأول البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بين الاعتبار ، فلما هي عند ذوى الاعتبار من الاسماء .

فأقول القصص . قصة آدم عليه السلام وإبليس أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والمخالفة ثم تابنا في الاجتناب والمعصية . أما إبليس فأبليس عن رحمة ، وقيل إنمن المبدئين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتنبه فتاب عليه وهدى) .

(١) حديث الحسن بن أبى موسى • يكون في أمى قوم شعثاء رموسهم دنة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم • أخرجه ابن أبى الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

وقد عاب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في الإعراض عن عبد والإقبال على عبد ، وهما في العبودية سيات ولكن في الحال مختلفان ، فقال (وأما من جاءك يسعى وهو يعشى فأنت عنده تلهى) وقال في الآخر (أمامن استغنى فأنت له تصدى) وكذلك أمره بالعود مع طائفة ، فقال عز وجل (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم) حتى قال (فلا تعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) وقال تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) .

فكذلك الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون بعض . فن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام (إن هى إلا فتنتك فقل لها من تشاء وتمهدى من تشاء) وقوله في التعليل والاعتذار لما قيل له (اذهب إلى فرعون) فقال (ولم على ذنب) وقوله (إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطق لسانى) وقوله (إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى أقيم مقام الأنس بلاطف ويحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة ، فحرق بالسجن في بطن الحوت . في ظلمات ثلاث . ونودى عليه إلى يوم القيامة (لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم) . قال الحسن : العراء هو القيامة . ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) .

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الأول من التفاضل والتفاوت في التهمة بين العباد ، وقد قال تعالى (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وقد قال (منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) فكان عيسى عليه السلام من المفضلين والإدلاله سلم على نفسه ، فقال (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس .

وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياة فلم ينطق حتى أتى عليه خالقه ، فقال (وسلام عليه) .

وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف ما فعلوه يوسف وقد قال بعض العلماء : قد عدت من أول قوله تعالى (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا) إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطبة بعضها أكبر من بعض ، وقد مجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع . فففر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل المزور في مسألة واحدة سأل عنها في القدر ، حتى قيل عى من ديوان التوبة ! وكذلك كان بلعام بن باعورا من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان آصف من المسرفين وكانت مصيئته في الجوارح ففعا عنه . فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام : يارأس الما بدىن ويا ابن حجة الزاهدين إلى كم يعصين ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مدة مئة مرة فوعزى وجلال لئن أخذته عصفة من عصفاك عليه لأرتكه مثله لمن معه ونكالا لمن بعده ، فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا كتيبا من رمل ، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال : إلهى وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أثوب إن لم تنب على وكيف أستعصم ؟ إن لم تصمنى لأعورن ، فأوحى الله تعالى إليه : صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد ثبت عليك وأنا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه .

وفي الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى عبد تباركه بعد أن كان أشقى على الملئكة كم من ذنب واجهته به فغفره لك قد أهلكك في دونه أمة من الأمم . فهذه سنة الله تعالى في عبادته بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به للشيعة الأزلية .

وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عبادته الذين خلوا من قبله ، فما في القرآن شيء إلا وهو مدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه ، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول (الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) وتارة يتعرف إليهم في أفعاله المخوفة والرجوة فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات الجوارح - ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) .

ولا يبدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي : الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه ، أو معرفة صفاته وأسمائه ، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده . ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرآن فقال : من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن ^(١) ، لأن منتهى التقديس أن يكون واحداً في ثلاثة أمور : لا يكون حاصلاته من هو لظهيره وشبهه . ودل عليه قوله (لم يلد) ولا يكون حاصلاته من هو لظهيره وشبهه . ودل عليه قوله (ولم يولد) ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلاً له ولا فرعاً من هو مثله . ودل عليه قوله (ولم يكن له كفوا أحد) ويجمع جميع ذلك قوله تعالى (قل هو الله أحد) وجلته تفصيل قول : لا إله إلا الله ، فهذه أسرار القرآن ولا تنقضي أمثال هذه الأسرار في القرآن (ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : تورو القرآن وانقوسوا غرابه ففيه علم الأولين والآخرين ، وهو كما قال ، ولا يعرفه إلا من طالع في آحاد كلماته فكره وصفه له فهمه حتى تشبه له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر ملك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر . وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار ، فكان حريصاً على استنباطها ليكشف لك فيه من المعاني ما تستحق منه العلوم المخرقة الخارجة عنه .. فهذا ما أردنا ذكره من معنى الألس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفالوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وماورد في فضيلته

أعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المؤمنين وحقيقته غامضة على الأكثرين ، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علم الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين ، فقد أنكر أنكرون تفسر الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا : إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل أيقيني أن يرضى بالكفر والمعاصي وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى . ولو انكشف هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال : اللهم فقهِه في الدين وعلمه التأويل ^(٢) . فليبدأ ببيان فضيلة الرضا ، ثم بمحركات أحوال الراضين ،

(١) حديث « من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن » أخرجه أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد وسلم من حديث أبي الدرداء نحوه . (٢) حديث دعاء لابن عباس « اللهم فقهِه في الدين وعلمه التأويل ، مثق عليه دون قوله « وعلمه التأويل » ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم .

ثم تذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوّره فيما يخالف الهوى ، ثم تذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه كثره اللدناء والسكرت على المعاصي .

بيان فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وقد قال تعالى ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ومتى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وقال تعالى ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾ فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال ﴿ إن الصلاة تهى عن الفحشاء والمنكر والبكر ﴾ فكأن مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان .

وفي الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك »^(١) فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فنذكر حقيقة ، وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب بما ذكرناه في حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقة إذ تقتصر أفهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فلأنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوه غاية النيات وأقصى الأمان لما ظفروا بنعم النظر ، فلما اسروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلوا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب . وقال الله تعالى ﴿ ولدينا مزيد ﴾ قال بعض المفسرين : يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ؛ أحدها : هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلاً فذلك قوله تعالى ﴿ فلا تمل نفس ما أتى لهم من قوة أينع ﴾ والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية فضلاً وهو قوله تعالى ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ والثالثة : يقول الله تعالى : إني عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أى من النعم الذى هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد .

وأما من الأخبار : فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ما أتم ، فقالوا : مؤمنون ، فقال « ما علامة إيمانكم » فقالوا : نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء ، فقال « مؤمنون ورب الكعبة »^(٢) ، وفي خبر آخر أنه قال « حكام علماء كادوا من فهمهم أن يكونوا أنبياء »^(٣) ، وفي الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضى به »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل »^(٥) ، وقال أيضاً « إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فإن صبر اجتياه فإن رضى اصطفاه » وقال أيضاً « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمم أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى

(١) حديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك » أخرجه البزار والبيهقي في الأوسط من حديث أنس بن حديث طويل بسند فيه لير وفيه « فيجلى لهم يقول أنا الذى صدقتم وعدي وأتممت عليكم نعمتي وهذا عمل إكرامى فسلوني فيسألونه الرضا .. الحديث » ورواه أبو يلى باللفظ « ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك ... الحديث » ورواه رجال الصحيح (٢) حديث : سأل طائفة من أصحابه ما أتم ، فقالوا : مؤمنون فقال « ما علامة إيمانكم ... الحديث » تقدم . (٣) حديث : أنه قال في حديث آخر « حكام علماء كادوا من فهمهم أن يكونوا أنبياء » تقدم أيضاً . (٤) حديث « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضى به » أخرجه الترمذى من حديث فضالة بن عبيد باللفظ « وقع » وقال صحيح وقد تقدم (٥) حديث « من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل » رواه في أمالي الحافظ بإسناد ضعيف من حديث عن أبي طالب ومن طريق الحافظ رواد أبو منصور الهذلي في مسند الفردوس .

الجنان يسرحون فيها ويتمتعون فيها كيف شاءوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حسابا ، فتقول لهم : هل جزم الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا صراطا ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئا ، فتقول للملائكة : من أمة من أمتهم ؟ فيقولون : من أم محمد صلى الله عليه وسلم ، فتقول : ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا ، فيقولون : خصلنا كائناتنا قبلتنا هذه الميزة بفضل راحة الله ، فيقولون : وماها ؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير بما قسم لنا ، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فخركم وإلا فلا ^(٢) .

وفي أخبار مرسى عليه السلام : إن بني إسرائيل قالوا له : سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا ، فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت ما قالوا ، فقال : يا موسى قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم . وبشهد لهذا ما روى عن زينبا صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فليظفر ما به عز وجل عنده ، فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أزاله العبد من نفسه ^(٣) .

وفي أخبار داود عليه السلام : ما لأوليائي والهمم بالدينا ، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم ، يادادون محبتى من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يقتضون .

وروى أن موسى عليه السلام قال : يارب دلتى على أمر فيه رضاك حتى أعلمه ، فأوحى الله تعالى إليه : إن رضاى فى كرهك وأنت لتعصى على مأكركه ، قال : يارب دلتى عليه ، قال : فإن رضاى فى رضاك بقضائى . وفى مناجاة موسى عليه السلام : أى رب أبى خلقك أحب إليك ؟ قال : من إذا أخذت منه المحبوب سألنى ، قال : فأبى خلقك أنت عليه سألنى ؟ قال : من يستخيرنى فى الأمر فإذا قضيت له سخط قضائى . وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال : أنا الله لا إله إلا أنا لم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى ولم يرض بقضائى فليخذ ربا سوائى ^(٤) ، ومثله فى الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه زينبا صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال الله تعالى قدرت المقادير ودرت التدبير وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقائى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقائى ^(٥) ، وفى الخبر المشهور : يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوى لمن خلقت له الخير وأجريت الخير على يديه ، وويل لمن خلقت الشر وأجريت الشر على يديه ، وويل ثم وويل لمن قال لم وكيف ^(٦) .

وفى الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكأ إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ما أأراد ، ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكو ، هكذا كان بدوك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات

(١) حديث : إذا كان يوم القيامة أتت الله طائفة من أمم أجنعة فيطرحون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ، ورواه ابن حبان فى الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلى من حديث أسامع اختلاف، وفيه حميد بن عيسى ، والطحايف والمحدث متشكر مخالف للفرقان ، وللأحد الحديث الصحيحة فى ورود وغيره . (٢) حديث : أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فخركم وإلا فلا . (٣) حديث : من أحب أن يعلم ماله عند الله فليظفر ما به عز وجل عنده . . . الحديث . أخرجه الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ : منزلة ، ورواه الله . . . (٤) حديث : قال الله أنا الله لا إله إلا أنا لم يصبر على بلائى . . . الحديث . أخرجه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند البارى مختصرا على قوله : من لم يرض بقضائى وأصبر على بلائى فليتس رباً سوى . . . وإسناده ضعيف . (٥) حديث : قال الله تعالى قدرت المقادير ودرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا . . . الحديث . لم أجده بهذا اللفظ ، ولطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة : خلق الله المخلوقين والقضية وأخذ ميثاق النبيين . . . الحديث . وإسناده ضعيف . (٦) حديث : يقول الله خلقت الخير والشر فطوى لمن خلقت له الخير . . . وأجريت الخير على يديه . . . الحديث . أخرجه ابن شاهين فى شرح السنة من أبى أمامة بإسناد ضعيف .

والارض وهكذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق النيام أجلك أم تريد أن أبذل ماقرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ماتريد فوق ما أريد ، وعزى وجلال لئن تاجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأعجزك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه ويزلون . يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ، ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه . فقال له بعض ولده : يا أباي ! أمانى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا ! فقال : يا بني إنى رأيت مالم تروا ، وعدت مالم فعلوا ، إنى تحزكت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ، فأخاف أن أعجزك أخرى فيصينى مالا أعلم . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : خدمت رسولا لله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله لم لأفعله ، ولا قال فى شيء كان ليته لم يكن ، ولا فى شيء لم يكن ليته كان ، وكان إذا خاصنى خصام من أهله يقول دعوه لو قضى شيء لكان (١) . وروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد ، فإن سلمت لما أريد كفتيك ماتريد ، وإن لم تسلم لما أريد أنعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد .

وأما الآثار : فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما . أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز : ما بقى لى سرور إلا فى موافق القدر ، وقيل له : ما تشهى ؟ فقال : ما يقضى الله . وقال ميمون بن مهران : من لم يرض بالقضاء فليس لحقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تقصر على تقدير الله لم تقصر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : ليس الشأن فى أكل خير الشعر والحل ولا فى لبس الصوف والشعر ، ولكن الشأن فى الرضا عن الله عز وجل . وقال عبد الله بن مسعود : لأن الحس حجرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة فى رجل محمد بن واسع . فقال : إنى لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إنى لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج فى عيني .

وروى فى الإسرائيليات ؛ أن عبدا عبد الله دهرا طويلا فأرى فى المنام : فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة ؛ فسأل عنها لى أن وجدها فاستضافها فلان لا ينظر إلى عملها ، فكان بيت قائما وبيت نائمة ويظل قائما وظل مغطاة . فقال : أما لك عمل غير ما رأيت ؟ فقالت : ما هو والله إلا ما رأيت لأعرف غيره ، فلم يزل يقول : تذكرى ، حتى قالت : خسيصة واحدة هى فى ! إن كنت فى شدة لم أتمن أن أكون فى رخاء ، وإن كنت فى مرض لم أتمن أن أكون فى صحة ، وإن كنت فى الشمس لم أتمن أن أكون فى الظل ، فوضع العابد يده على رأسه وقال : أهذه خسيصة ؟ هذه والله خصلة عظيمة يميز عنها العباد .

وعن بعض السلف : إن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو برداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضى الله عنه . ما أبالي على أى حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء . وقال الثوري يوما عند رابطة : اللهم ارض عني ، فقالت : أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال : استغفر الله ، فقال جعفر بن سليمان الضبعي : ففى يكون البعد راضيا عن الله

(١) حديث أنس : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم فما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ... الحديث . متفق عليه وقد تقدم .

تعالى ؟ قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبي الحواري : قال أبو سليمان النراقى إن الله عز وجل من كرمه قد رضى من عبده بما رضى العبيد من مواليم قلت : وكيف ذلك ؟ قال : أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت : نعم ، قال : فإن بحمة الله من عبده أن يرضوا عنه . وقال سهل : حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل يحسبته وجلاله جميل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجميل التمس والجزن في الشك والسخط ^(١) .

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم أن من قال : ليس فيما يخالف الهوى وأتواع البلاد إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور ؟ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة ، فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفئال الحبيب ، ويكون ذلك من وجهين .

(أحدهما) أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها . ومثاله : الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بألم ذلك لشغل قلبه . بل الذي يهجم أو يعلق رأسه بمحبة كالة يتألم به ، فإن كان مشغول القلب بهم من مهماته فرغ للزينة والجمام وهو لا يشعر به . وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عده ، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يفتقره لولا عشفه ، ثم لا يدرك غمه والله لفرط استيلاء الحب على قلبه . هذا إذا أصابه من غير حبيه ! فكيف إذا أصابه من حبيه ؟ وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل ، وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الألم العظيم بالحب العظيم ، فإن الحب أيضاً يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم ، وكما يقوى حب الصور الجميلة للمدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة للمدركة بنور البصيرة ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال ، فمن ينكشف له شيء منه فقد يهره بحث يدهش ويفشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه فقد روى أن امرأة فتح الموصلي عثرت فأنقطع ظفرها فضحكته ، فقيل لها : أما تجدن الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجهه . وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه ، فقيل له في ذلك فقال : يادوست ضرب الحبيب لا يرجع !

(وأما الوجه الثاني) فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راعياً فيه مريداً له - أعني بمقله - وإن كان كارهاً بطبعه ، كالذي يلتزم من الفساد الفسد والجمامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومنقلب من الفساد به منة بفضل ، فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم . وكذلك كل من يسافر في طاب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجماله راضياً بها . ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه . هذا إن كان

(١) حديث . لأن الله يحسبته وجلاله جميل الروح والفرح في الرضا . الحديث « أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال « بأسطه » وقد تقدم .

يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه ، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراده محبوه ورضاءه لا لمنى آخر وراءه ، فيكون مراده حبيبه ورضاه محبوا عنده ومطلوبا ، وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد تراصفها المتراضفون في نظمهم ، وقرم له ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر ، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأفكار والاختبات بدايته من نقطة مدرة ونهايته جيفة قدرة وهو فيها بين ذلك يحمل العذرة . وإن نظر إلى المدرك للجمال فهو الدين الحسيه التي تغلظ فيها ترى كبيرا ، ترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقصيح جيلا ، فإذا تصوّر استيلاء هذا الحب فن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدى الذي لا منتهى لكأله المدرك بعين البصيرة التي لا يمتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت ؟ حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف ؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم .

فقد قال شقيق البلخي : من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها ؟ وقال الجنيد : سألت سريا السقطي هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال : لا ، قلت وإن ضرب بالسيف ؟ قال : نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة - ضربة على ضربة . وقال بعضهم : أحببت كل شيء يحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحارث : صرحت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حل إلى الحبس ، فقبضته فقلت له : لم ضربت ؟ فقال لأنى عاشق ، فقلت له ولم سكنت ؟ قال لأنى معشوق كان بمحذائي ينظر إلى ، فقلت فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟ قال فوقع زعقة خز ميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازي - رحمه الله تعالى - إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم ، فما ظنك بقلوب وقت بين جماله وجلاله ؟ إذا لاحظت جلالة هابت وإذا لاحظت جماله تاهت ؟ وقال بشر : قصدت عبادان في بدايتي فإذا برجل أعشى مجنوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى لو قطعتى إربا إربا ما ازدددت له إلا حبا ؟ قال بشر فما رأيت بعد ذلك نعمة بين عبد وبين ربه فأفكرتها . وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام ، كانوا إذا جامعوا نظروا إلى وجهه ففتنهم جماله عن الإحساس بألم الجوع . بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو قطع النسوة أيديهن لاستيهانهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شابا في يده مديّة وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول وللموت من ألم التفرق أجمل
قالوا الرحيل فقلت لست براحل لصكّن مهجتي إلى ترحل

ثم يقر بالمديّة بطنه وخز ميتا ، فألت عنه وعن أمره فقيل له إنه كان يهوى فنى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا . ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دنى على أعبد أهل الأرض ؟ فدلّه على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب يصره فسمعه وهو يقول إلى من متعتي بهما ما شئت أنت ، وسلبتني ما شئت أنت ، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمرو بن عبد الله أنه اشتكى له ابن أخته

وجده عليه حتى قال بعض القوم : لقد خشيتم على هذا الشيخ إن حدث بهذا التلام حدث ، فبات التلام يخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سرورا أبدا منه ، فقيل له في ذلك فقال ابن عمر : إنما كان حزني رحمة له ، فلما وقع أمر الله وحيتنا به . وقال مسروق . كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالدبك يوقظهم للصلاة والحمار يوقظون عليه للماء ويجعل لهم خيامهم والكلب يحرسهم ، قال : فجاء الثعلب فأخذ الديك ، فخرنوا له وكان الرجل صالحا فقال : عسى أن يكون خيرا ، ثم جاء ذئب فغرق بطن الحمار فقتله فخرنوا عليه فقال الرجل : عسى أن يكون خيرا ، ثم أصيب الكلب ببد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم ، قال : وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والدبكة ، فكانت الحيرة لمؤلا في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى . فإذا من عرف حق لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال . ويروى أن عيسى عليه السلام من رجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنين بفالج وقد تأثر لونه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني عما ابتلي به كثيرا من خلقه ، فقال له عيسى : يا هذا أي شيء من البلاء أراء مصروفا عنك ؟ فقال : ياروح الله أنا خير من لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من مرضته ، فقال له : صدقت هات يدك ، فساوله يده فإذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة ! وقد أذهب الله عنه ما كان به ، فصحب عيسى عليه السلام وتعبه معه . وقطع عروة بن الزبير رجله . من ركبته - من أكله فخرجت بها ثم قال : الحمد لله الذي أخذ مني واحدة وإيكم لئن كنت أخذت لقد أقيمت ، ولئن سكنت ابتليت لقد طافيت ، ثم لم يدع ورده تلك الليلة ، وكان ابن مسعود يقول : الفقر والفتن مطيتان ما أبالي أبتما ركبتي ؟ إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الفتن فإن فيه البذل . وقال أوسليان الباراني : قلت قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فإني منه إلا مشام الريح ، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا . وقيل لما عرف آخر : هل نلت غايته الرضا عنه ؟ فقال : أما الغاية فلا ، ولكن مقام الرضا قد نلته ، لو جعلني جسرا على جهنم يبر الخلاق على إلى الجنة ثم ملأني جهنم - تحلة لقسمه وبدلا من خليقته - لأحببت ذلك من حكمة ورضيت به من قسه . وهذا كلام من علم أن الحب قد استغرق همه حتى منه الإحساس بألم النار ، فإن بقي إحساس فينفره ما يحصل من لذته في استشهاده حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار . واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء وينظن أن ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء . وقال الروذباري : قلت لأبي عبد الله بن الجلاء الدمشقي : قول فلان : وددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه ؟ ما مناه ؟ فقال : يا هذا إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف وإن كان هذا من طريق الإشفاق والتصح للخلق فأعرف ، قال : ثم غشي عليه . وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فيق ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد - قد نقب له في سريره من جريد كان عليه موضع لفضاض حاجته - فدخل عليه مطرف وأخوه الدلاء لجلل بيكي لما يراه من حاله ، فقال : لم تبكي ؟ قال : لأني أراك على هذه الحالة العظيمة ! قال : لا تبكي فإن أحب الله تعالى أحب إلى ! ثم قال : أحذرك شيئا . لعل الله أن ينفك به ، واكتم على حتى أموت ، إن لللائكة زورق فأفس بها وتسلم على فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بمقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجميمة ! فن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضيا به ؟ قال : ودخلنا على سويد بن منبجة نموده ، فرأينا ثوبا ملقى فاظننا أن تحته شيئا حتى كشف ، فقالت له امرأت : أهمل

فداؤك ما فطعك . ما نطقك ؟ فقال : طالت الضجعة ودرت الحراقف وأصبحت نضوا لا أطمع طعاما ولا أسخ شربا منذ كذا ، فذكر أياما ، وما يسرى أنى نقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة . وقد كان كف بصره . جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا ولهذا . وكان يجاب الدعوة . قاله عبد الله بن السائب : فأبته وأنا غلام فتعزفت إليه فعرفتي وقال : أنت قارئ أهل مكة ؟ قلت : نعم ، فذكر قصة قال في آخرها : فقلت له : يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك ! فتبسم وقال : يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري ! وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر ، فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ، فقال : اعترضني عليه فيا قضى أشد على من ذهب ولدى . وعن بعض العباد أنه قال : إنى أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة . وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من الذنب . فقيل له : وما هو ؟ قال : قلت مرة لشيء كان ، ليته لم يكن . وقال بعض السلف : لو قرض جسمي بالمغاريض لكان أحب إلى من أن أقول لشيء قضاء الله تعالى سبحانه ليته لم يقضه . وقيل لعبد الواحد بن زيد : ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة ، فقصده فقال له : يا حيي أخبرني عنك هل قنعت به ؟ قال : لا ، قال أنست به ؟ قال : لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال : لا ، قال فلماذا مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم ، قال لولا أنى أستحي منك لأخبرت بك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ! ومغناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتفرق إلى درجات القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تعد في طبقات أصحاب اليمين ، لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التى هي مزيد أهل الموم . ودخل جماعة من الناس على الشبل رحمه الله تعالى في ما رستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة ، فقال من أنتم ؟ فقالوا عبيدك ، فأقبل عليهم برمهم بالحجارة فتباروا فقال ما بالكم ادعيتهم عبيد إن صدقتهم فاصبروا على بلائى !

وللشبل رحمه الله تعالى :

إن المحبة للرحمن أسكرنى وهل رأيت عبا غير سكران ؟

وقال بعض عباد أهل الشام كلّم يلقى الله عز وجل مصدقا ولله قد كذبه ، وذلك أن أحداكم لو كان له أصبح من ذهب ظل يشر بها ، ولو كان بهاشل ظل يوارىها ! يعنى بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به ، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستكفون منه . وقيل لأنه وقع الحريق في السوق فقيل للسرى : احترق السوق وما احترق ذلك ! فقال الحمد لله ، ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتى دون المسلمين ! فتاب من التجارة وترك الحافوت بنية عمره توبة واستغفرا من قوله الحمد لله .

فلذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهما كان ذلك ممكنا في حب الحق وحفظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحفظه الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين (أحدهما) الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود كالترا بالفسد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . (والثانى) الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ، فقد يخلب الحب بحيث ينشر مراد الحب في مراد المحبوب ، فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه . كما قيل :

« فلما لجرح إذا أرضاك ألم »

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم ، وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم ، فالقياس والتجربة والملاحظة

وقد روى عن عمرو بن الحارث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي ، وكان معنا فتى يتعشق جارية
ممننة ، وكانت معنا في المجلس فضربت بالفضيب وضعت :

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا
ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشكى

فقال لها الفتى : أحسنت والله ياسيدي أعتقدين لي أن أموت ! فقالت : مت راشدا ! قال : فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فيه وغمض عينيه ، فحركه فإذا هو ميت . وقال الجنيذ : وأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع إليه وينظر له الحبة ، فالتفت إليه الصبي وقال له : إلى متى ذا التفاني الذي تظهر لي ؟ فقال : قد علم الله أنني صادق فيما أورد ، حتى لو قلت لي مت لمت ، فقال : إن كنت صادقا فمت ، قال : فتسحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا . وقال سمعون المحب : كان في جيراننا رجل وله جارعة يحبها غاية الحب ، فاعتلت الجارية مجلس الرجل ليصلح لها حيا ، فبينما هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه ! قال فدهش الرجل وسقطت للملقة من يده وجعل يحرك ماني القدر بيده حتى سقطت أصابعه ! فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا مكان فولك - آه . وحكى عن عميد ابن عبد الله البندادي قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

من مات عشقا فلمت هكذا لا خير لي عشق بلا موت !

ثم يرى بنفسه إلى الأرض ، فخلوه ميتا . فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخالوق والتصدق به في حب الخالق .
أولى ، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ، وجمال الحضرة الربانية أو في من كل جمال ، بل كل جمال في
العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال . نعم الذي فقد البصر يشكر جمال الصور ، والذي فقد السمع يشكر لذة
الإحسان والتغنى للرزقة ، فإذى فقد القلب لابد وأن يشكر أيضا هذه القدرات التي لا مفر لها سوى القلب .

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا ، وكذلك كرامة المصطفى ومقت أهلها ومقت أسبأها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتنافض أيضا . وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المصطفى والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عن وجل فيجب الرضا به ، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع . فأما الدماء فقد تعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام - على ماقتناه في كتاب الدعوات - تدل عليه . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعل المقامات من الرضا . وقد أتى الله تعالى على بعض عباد الله بقوله (ويذعنونا رغبا ورهبا) وأما إنكار المصطفى وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تنجد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال (ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) وقال تعالى (رضا بأن يكونوا مع الخوارج وطبع على قلوبهم) وفي الخبر المشهور « من شهد منكرا فرضى به فكأنه قد فعله » وفي الحديث « المال على الشر كفأه »^(١) وعن ابن مسعود إن عبد الله بن أبي سفيان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرضا بغير حق كالحب بالمرارة » ولأن عبدا قتل بالشرع ورضي بقتله آخر بالمرتب كان

(١) حديث • الدال على الصركفاعه • أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي إسحاق ضعيف جداً .

شريكاً في قتله ^(١) ، وقد أمر الله تعالى بالحدس والمنافسة في الخيرات وتوق الشهور فقال تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم - لا حد إلا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو بينهما في الناس ويعلما ورجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ^(٢) . وفي لفظ آخر « ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والناهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتى هذا لفعلت مثل ما يفعل » .

وأما بنض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) وقال تعالى (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً) وفي الخبر « إن الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبض كل منافق وعلى كل منافق أن يبض كل مؤمن ^(٣) » ، وقال عليه السلام « المرء مع من أحب ^(٤) » ، وقال « من أحب قوماً ووالاهم حشر معهم يوم القيامة ^(٥) » ، وقال عليه السلام « أوتيت عرى الإيمان الحب في الله والبض في الله ^(٦) » وشواهد هذا ذكرناها في بيان الحب والبض في الله تعالى من كتاب آداب الصلوة ، وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فلا فيضه .

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى ^(٧) فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قاذح في التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد ؟ فأعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاضرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد تبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا وسماه حسن الحلق وهو جهل محض ، بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجهه ويرضيه من وجهه ؛ إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكك ، فتكرهه موته من حيث إنه مات عدوك وتراضه من حيث إنه مات عدوك . وكذلك المعصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته ؛ فيرضى به من هذا الوجه تسلياً للملك إلى مالك الملك ورضاً بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه محموتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكروهم ومذموم . ولا ينكشف هذا لك إلا بتأمل :

(١) حديث « لو أن رجلاً قتل بالمسرة ورضى عنه آخر في المنزلة كان شريكاً في قتله » لم أجده إلا بهذا اللفظ ولا في حديث أبي هريرة « من حشر مصيبة فسكرها فسكرها ما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فسكرها فسكرها » وهم في كتاب الأمر بالمعروف . (٢) حديث « لا حد إلا في اثنتين ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم . (٣) حديث « إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبض كل منافق ... الحديث » لم أجده إلا بهذا اللفظ . (٤) حديث « المرء مع من أحب » تقدم . (٥) حديث « من أحب قوماً ووالاهم حشر معهم » أخرجه الطبراني من حديث أبي قرة وابن عدي من حديث جابر « من أحب قوماً على أعمالهم حشر في زميرتهم » زاد ابن عدي « يوم القيامة » وفي طريقه إسماعيل بن عيسى التميمي ضعيف .

(٦) حديث « أوتيت عرى الإيمان الحب في الله والبض في الله » رواه أحمد وتقدم في آداب الصلوة . (٧) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله رواها الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص « من ساءد ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل ... الحديث » وقال غريب وتقدم حديث « أرض بما قسم الله لك تبكّن أغنى الناس » وحديث « إن الله يقسطه جميل الروح والفرح في الرضا » وتقدم في حديث الاستخارة « واقدر ل الخير حيث كان ثم رضني به » وحديث « من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من النسل وحديث « أسألك الرضا بالقضاء ... الحديث » وغير ذلك .

فلنغرض محبوا من الخلق قال بين يدي محبيه . إني أريد أن أميز بين من يحبني ويغضني ، وألصق فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أتي أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضرا يضطره ذلك إلى الشتم لي . حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوا لي ، فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوي ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديق ومحبي . ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة . لحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول : أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإياداه وتدميرك إياداه للبغض والعداوة - فأنا أحب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك ! وأما شتمك إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يبصر ولا يشتم ، ولكنه كان مرادك منه ؛ فإنك قصدت بضربه استئطافه بالشتم المرجب للقتل ، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصا في تدبيرك وقصوبا في مرادك ، وأنا كأنا لثقوت لثقوت مرادك ، ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسبه له وعدوان وتهميم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يتقابل بالشتم ، فأنا كأنا له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما ببغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا ببغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدوه عدوا . وأما ببغضه لك في أرضاء من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ، ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك البغض وكسبه وفعله وأمته لذلك ، فهو يموت عندي لمقتله إياك ، وبغضه ومقتله لك أيضا عندي مكروه من حيث أنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي . وإنما التناقض أن يقول : هو من حيث إنه مرادك مرضي ومن حيث إنه مرادك مكروه ، وأما إذا كان مكروها لا من حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لاتناقض فيه ، ويشهد لذلك كل مايكرهه من وجه ويرضى به من وجه ، ونفطار ذلك لاتحصى .

فإذن تسليط الله دواعي الشهوة والمصية عليه حتى يجزه ذلك إلى حب للمصية ويجزه الحب إلى فعل للمصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلا ؛ ليجزه الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم . ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت مصيئته بتدبيره ، يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه . وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده - أعني تسليط دواعي للمصية عليه - يدل على أنه سبق مشيئته بإياداه ومقت . فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغض الله ويمقت من مقت الله ويأبى من أبغده الله عن حضرته - وإن احتضنه بقهره ووقدرته إلى معاداته ومخالفته - فإنه بعيد مطرد ملعون عن الحضرة ، وإن كان بعيدا بإياداه قهرا ومطردا بطرده واحتضاره . والمبدع عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقبلا ببغضا إلى جميع المحبين - موافقة للمحبيب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإياداه .

بهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتخليط عليهم والبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل . وهذا كله يستمد من سر القدر - الذي لا رخصة في إنشائه - وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في الشئبة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي به . فمن قال : ليس الشر من الله ، فهو جاهل وكذا من قال : إنها جميعا منه - من غير افتراق في الرضا والكره - فهو أيضا مقصر . وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ؛ فالأول السكوت والتأديب بأدب (١٥ - إحياء علوم الدين - ١)

الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم « القدر سر الله فلا تفشوه »^(١) ، وذلك يتعلق بعلم للكاشفة . وغرضنا الآن بيان الإيمان فيها بتعبه بالخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الفرض من غير حاجة إلى كشف السرفيه .

وهكذا يعرف أيضا أن البداء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير منافية للرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبد العباد بالبداء ليستخرج البداء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزاييا اللطف . كما أن حل الكوز وشرب الماء ليس منافيا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش ، وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب ربه مسبب الأسباب فكذا ذلك البداء سبب ربه الله تعالى وأمر به . وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل . واستقصيناه في كتاب التوكل . فهو أيضا لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم لإظهار البلاء في معرض الشكوى ، وإنكاره بالقلب على الله تعالى منافض للرضا ، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف : من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار - أرى في معرض الشكابة - وذلك في الصيف فأما الشتاء فهو شكر ، والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذهم الأطلمة وعيها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مدامة السنتمة مذمة للصانع ، والكل من صنع الله تعالى . وقول الغافل : القفر بلاء وعمة والعيال هم وتعب والاحتراف كذ ومشفة ، كل ذلك قاذح في الرضا ، بل ينبغي أن يسلم التدبير لمبدؤه والمملكة لمالكها ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه : لا بألى أصبحت غنيا أو فقيرا فلأن لا أدري أيهما خير لي .

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان للمعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نبي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون^(١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال ؛ بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لامتدادهم فمهلكون هرا لا وضرا ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالفرار من الزحف^(٢) . ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أخذ لمن قارب البلدة في الانصراف . وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل . وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان للمعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار عما لا بد من الفرار منه . وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأصباغ التي تدعو إليها - لأجل التنفير عن المعصية - ليست مذمومة . فزال السلف الصالح يبتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بندقاد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك : قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرما من بندقاد ؛ قيل : وكيف ؟ قال : هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله . ولما قدم خراسان قيل له : كيف رأيت بندقاد ؟ قال : ما رأيت بها إلا شرطا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ؛ ولا ينبغي أن تظن أن ذلك

(١) حديث « القدر سر الله فلا تفشوه » أخرجه أبو يعلى في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدى في السكائل من حديث حائفة وكلاما ضعيف .

(٢) حديث : النهي عن الخروج من بلد الطاعون . تقدم في آداب السفر . (٣) حديث : أنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف . تقدم فيه .

من النية ؛ لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستنصر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة - وقد كان مقامه ببنداد - يقرب استعداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان تصدق بسة عشر دينار لكل يوم دينار كفارة لمقامه . وقد ذم العراقي جماعة : كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولاه : أين تسكن ؟ فقال : العراق ، قال : فما تصنع به ؟ بلنتي أن مامن أحد يسكن العراق إلا قبض الله قرينا من البلاء . وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشروفيه الهام المضال . وقديلا : قسم الخير عشرة أجزاء : فقسمة أعشاره بالثام وعشره بالعراق ، وقسم الشر عشرة أجزاء ، على العكس من ذلك . وقال بعض أصحاب الحديث : كما يوما عند الفضيل بن عياض لجاءه صوفي متدبر بعبادة ، فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال : أين تسكن ؟ فقال : ببنداد . فأعرض عنه وقال : يأتيانا أحدهم في ربي الرهبان فإذا سألتنا أين تسكن قال في عش الظلمة ؟ وكان بشر بن الحارث يقول : مثال المتعب ببنداد مثال المتعب في الحش . وكان يقول : لا تقتدوا في المقام بها 1 من أراد أن يخرج فليخرج . وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد أثر في نفسي 1 قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بنداد زاهد زاهد وشريرم شريرم .

فهذا يدل على أن من يبلده تكثر فيها المعاصي ويقبل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها ، بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ فإن منه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيا بمجاله مطمئن النفس إليه ، بل ينبغي أن يكون مزعج القلب منها قاطلا على الدوام ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المؤمنين قال الله تعالى ﴿ وانفروا فتنه لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فإذا لم يكن في شيء من أسباب نقص الدين ألبنة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى ، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بمجال .

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال لا اختار شيئا بل أرضى بما اختار الله تعالى ؛ ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا . واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أبي سباط ، فقال الثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم ، واليوم وددت أني مت ، فقال له يوسف لم ؟ قال لما أتخوف من الفتنة ، فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء ، فقال سفيان لم ؟ قال لعل أصادف يوما أنوب فيه وأعمل صالحا ، فقيل لهيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا اختار شيئا ، أحب ذلك إلى أحبه إلى الله سبحانه وتعالى ، فقبله الثوري بين عينيه وقال روحانية وبوب السكبية .

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محبا إنما أنا محبوب والمحبة متعوب . وقيل له أيضا : الناس يقولون إنك واحد من السبعة ؟ فقال أنا كل السبعة . وكان يقول إذا رأيتموني فقد رأيتم أربين بدلا ، قيل وكيف وأنت شخص واحد ؟ قال لأنني رأيت أربين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه . وقيل له بلننا أنك ترى المحضر عليه السلام ؟ فتبسم وقال ليس العجب بمن يرى المحضر ولكن العجب بمن يريد المحضر أن يراه فيحتجب عنه 1 وحكي عن المحضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته

إلا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه . وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى ، فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تملوا ذلك ! قيل لحظنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى ، فقال وهذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه . قيل لحظنا عن رياضة نفسك في بدايتك ، فقال نعم ، دعوت نفسي إلى الله لحمت على فرمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق الثوم سنة فوفت لي بذلك . ويحك عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد - في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر - مستوفرا على صدور قدميه وأما أخصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بيمينه لا يطفرف ، قال ثم مجد عند السحر فأطاله ثم قد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك وإني أهوذك من ذلك ، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم على الأرض فرضوا بذلك وإني أهوذك من ذلك ، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أهوذك من ذلك ، حتى عدت نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ، ثم التفت فرآني فقال : يحيى ! قلت : نعم ياسيدي ، فقال : مذ مني أنت ههنا ؟ قلت : منذ حين ، فسكت ، فقلت : ياسيدي حدثني بشيء فقال : أحذرك بما يصلح لك ، أدخلني في الفلك الأسفل فتدور في الملكوت السفلى وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ، أوقفني بين يديه فقال : سئلى أى شيء رأيت حتى أحبه لك ؟ فقلت : ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه فقال : أنت عبيد حقا تعبدني لأجل صدق لأفعلن بك ولا أفعلن فذكر أشياء . قال يحيى : فهاتى ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت : ياسيدي لم لاسأته للمعرفة به ؟ وقد قال لك ملك الملوك سئلى ما شئت ، قال : فصاح بي صيحة وقال : اسكت وبلك ! أغرت عليه منى حتى لا أحب أن يعرفه سواه . وحكى أن أبا تراب التنشبي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدينه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدهته فقال له أبو تراب يوما لورأيت أبا يزيد ؟ فقال : إني عنه مشغول ، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد ، هاج وجد للمريد فقال : ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغتنى عن أبي يزيد ؟ قال أبو تراب : فهاج طبعي ولم أملك نفسي ، فقلت : وبلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة ! قال : فهبت الفتى من قوله وأنكره فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : وبلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهور لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره ؟ فعرف ما قلت ، فقال : أحلى لي ، فذكر قصة قال في آخرها : فوفقنا على تل فنظرت له ليخرج إلينا من النيسة - وكان يأوى إلى غيضة فيها سبعاء - قال : فز بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى : هذا أبو يزيد فانظر إليه افنظر إليه الفتى فصق ، فخر كساه فإذا هو ميت ، فتماموا على دفنه فقلت لأبي يزيد : ياسيدي نظره إليك قتله ، قال : لا ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه ، فلما رأنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حله ، لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك . ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ؟ فسكت ثم قال : إن الله عبادة في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظلام إلا مات في ليلة واحدة ؛ ولكن لا يفعلون ، قيل لم ؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يجب ، ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يستطيع ذكرها ، حتى قال : ولو سأله أن لا يقيم الساعة لم يقمها . وهذه أمور يمكنه أن أنفسمافن لم يحظ بشيء منها ، فلا يذنبني أن ينلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فإن القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملوكوت

كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الدين اصطنى لاغاية له . ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ماوراء ذلك ، فإن عندك فوق ذلك أضعا فامضاعة ، فإن سكت إلى ذلك حجبك به ، وهذا بلاء مثلهم ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمل فالأمل . وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء رأيتن يتساعين في الهواء ، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوههن يتنقشش ويتقشش معهن فنظرت إليهن لفظة فموقبت أربعين يوما ، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال ، وقيل لي : انظر إليهن ، قال : فسجدت وغضضت عيني في مجردي ثلثا أنظر إليهن وقلت : أعوذ بك مما سواك ! لا حاجة لي بهذا ، فلم أزل أقصرع حتى صرفهن الله عني .

فأما هذه المكاشفات لا ينبغي أن يشكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضائق بحال الإيمان عليه ، بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم مكاشفة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بمحصن الخمول : فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهي أمر موجود في الانقياء من الناس . وبعد تصفية القلب عن كورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين ويتكشف له مبادئ الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديديّة إذا شكلت وتقيت وصفات وصورت بصورة المرأة ، فنظر المتكر إلى مافي يده من زهرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المثلث فيها عند ظهور جوهرها ، وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال .

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا يستد له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه ، وبش المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى ، بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئا رلو من مبادئ الطريق ، كما قيل لبشر : بأى شيء بلغت هذه منزلة ؟ قال : كنت أكرم الله تعالى حال . معناه : أسأله أن يكتم على ويخفي أمرى . وروى أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له : ادع الله تعالى لي ، فقال : يسر الله عليك طاعته ، قلت زدني ، قال وسرها عليك . فقيل معناه سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها . وعن بعضهم أنه قال ألقني الشوق إلى الخضر عليه السلام فأسأله الله تعالى مرة أن يريني إياه ليأني شيئا كان أهم الأشياء على ، قال فرأيت ما غلب على همى ولا همى إلا أن قلت له يا أبا العباس علني شيئا إذا قلته حجبك عن قلوب الخليفة فلم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة ، فقال قل اللهم أسبل على كنيث سترك وحط على سرادقات حجبك واجملي في مكثون غيبك واجحني عن قلوب خلقك ، قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك ، لزأت أقول هذه الكلمات في كل يوم ، لحكي أنه صار بحيث كان يستدل ويمتنع - حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لم يسقطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به - فكانت راحته ركود قلبه ، واستقامة حاله في ذله وخموله . فهكذا حال أولياء الله تعالى ، ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلوا ، والمغرورون إنما يطلونهم تحت المرتقات والطليالة وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة . وغيره الله تعالى على أوليائه تأني الإخفاهم كما قال تعالى أوليائي تحت قباني لا يعرفهم غيري . وقال صلى الله عليه وسلم : رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ^(١)

(١) حديث « رب أشعث أغبر ذي طمرين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه الملقى القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلما . وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعارا إذا ذل واحتشم لم يحس بالذل ، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولا ، فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بدمم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أحسن منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته . فكل هذا القلب يرجي . له أن يستشعر مبادئ هذه الروائح ، فإن فقدنا مثل هذا القلب وحرمانا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لاهله ، فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤمنا بهم فمسي أن يحشر مع من أحب . ويشهد لهذا ما روى أن عيسى عليه السلام قال لبي إسرائيل ابن يثبت الزور ؟ قالوا في التراب ، فقال يعني أقول لكم لا تثبت الحكمة إلا في قلوب مثل التراب . ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بإذلال النفس إلى متنى الضعة والحسة ، حتى روى أن ابن الكربي وهو أستاذ الجنيديعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ، ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك ، فقال : قد رضيت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة السكب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت . وعنه أيضا أنه قال زيات في محلة فمرفت فيها بالصالح ، ففقتت على قلبي ، فدخلت الحمام وصدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعة فوقها وخرجت ، وجعلت أمشي قليلا قليلا . فلحقوني فزعدوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصغفوني وأوجدوني ضربا ، فصررت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي .

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس ، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغفه بنفسه حجاب له ، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخل حاصل ، وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس . ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجاس أبي يزيد ، فقال له يوما : أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وأنا أصدق به وأجبه ، فقال أبو يزيد : ولو صمت ثلاثمائة سنة وقرت ليها ما وجدت من هذا ذرة ! قال : ولم ؟ قال : لأنك محجوب بنفسك ، قال فلهذا دواء ؟ قال : نعم ، قال : قل لي حتى أحله ، قال : لا تقبله ، قال : فاذكره لي حتى أحصل ، قال : اذهب الساعة إلى للزبن فالحق وأسلك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك خلاة علوة جوزا ، واجمع الصبيان حولك وقل : كل من صفقني صفعة أعطيته حمزة ، وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك ، فقال الرجل : سبحان الله ! تقول لي مثل هذا ! فقال أبو يزيد : فوالله سبحان الله ، شرك ، قال : وكيف ؟ قال : لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك ! فقال : هذا لا أقبله ولكن داني على غيره ! فقال : ابتدئ بهذا قبل كل شيء . فقال : لا أطيقه ، قال : قد قلت لك إنك لا تقبل ؟ . فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل ينظره إلى نفسه ومرضى ينظر الناس إليه ، ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله ، فمن لا يطبق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من دأوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا ، فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر التليل أيضا .

وهذه أمور جليلة في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يمد نفسه من علماء الشرع فقد قال صلى الله

عليه وآله وسلم لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون لله الشئ أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف ^(١) ، وقد قال عليه السلام : ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ولا يراى بشئ من عله وإذا عرض عليه أمران أحدهما الدنيا والآخرة للاخرة أثر أمر الآخرة على الدنيا ^(٢) ، وقال عليه السلام : لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال : إذا غضب لم يفرج غضبه عن الحق ، وإذا رضى لم يندخله رضاء في باطل ، وإذا قدر لم يقاتل ما ليس له ^(٣) ، وفي حديث آخر : ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود : العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وخشية الله في السر والعلانية ^(٤) ، فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأولى الإيمان فالمعجب بمن يبدى علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من عله وعقله أن يحمد مالا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عليه وراه الإيمان ؛ وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : إنما اتخذ خلقى من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولا يؤثر على شيئاً من خلقى وإن حرق بالدار لم يجد لحرق النار وجما وإن قطع بالمشاير لم يجد لمس الحديد ألماً . فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات ؟ وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والتقصان لا حصر له . ولذلك قال عليه السلام للسديق رضى الله تعالى عنه : إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن في من أمتى وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم ^(٥) ، وفي حديث آخر : إن الله تعالى لثلاثة خلق من لقيه يخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هل في منها خلق فقال : كلها فيك يا أبا بكر وجها إلى الله تعالى السخاء ^(٦) ، وقال عليه السلام : رأيت ميذانا دل من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتى في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة ووجىء بأمتى فوضعت في كفة فرجح بهم ^(٧) ، ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلق مع غيره فقال : لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله تعالى ^(٨) يعني نفسه .

(١) « حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون لله الشئ أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إلى من أن يعرف » ذكره صاحب الفروع من حديث علي بن أبي طلحة ، وعلم هذا فهو مثل فصل بن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجده له أصلاً . (٢) حديث « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ... الحديث » أخرجه أبو منصور الطبري في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة . وفيه سالم المرادي ضمنه ابن مدين والنسائي ورواه ابن حبان وأبو أيوب عبد الواحد . (٣) حديث « لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال : إذا غضب لم يفرج غضبه عن الحق ... الحديث » أخرجه الطبراني في المعجم بلفظه « ثلاث من أخلاق الإيمان » وإسناده ضعيف . (٤) حديث « ثلاث من أوتيهن فقد أوتى ما أوتى آل داود : العدل في الرضا والغضب » غريب بهذا اللفظ ، والمعروف « ثلاث منجيات » فذكرهن بعده وقد تقدم . (٥) حديث : « إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن في من أمتى ... الحديث » أخرجه أبو منصور الطبري في مسند الفردوس من رواية المارث الأدهم عن علي بن علقمة وأبي بصير والمارث ضعيف . (٦) حديث « إن الله تعالى خلقني من لقيه يخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة عن الله « خلقت بنصف عمر وثلاثة خلق من جاء يخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة » ومن حديث ابن عباس « الإسلام ثلاثة شريعة وثلاثة عشر شريعة وفيه وفي الكثير من رواية المنيرة بن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه عن جده نحوه بلفظه « الإيمان والبرار من حديث عثمان بن عفان » لأن الله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة ... الحديث » وليس فيها كلها تعرض لدوال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة . (٧) حديث « رأيت ميذانا دل من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتى في كفة فرجحت بهم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف . (٨) حديث « لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم .

خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالحجة ينتفع بها

قال سفيان : الحجة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : حوام الذكر ، وقال غيره إثارة الحروب وقال بعضهم : كراهية البقاء في الدنيا . وهذا كله إشارة إلى ثمرات الحجة فأما نفس الحجة فلم يتمزضوا لها . وقال بعضهم : الحجة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتيع الألسن عن عبارته . وقال الجنيد : حزم الله تعالى الحجة على صاحب الملاحة . وقال : كل حجة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت الحجة . وقال ذو النون : قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذلل لغير الله . وقيل للشبلي رحمه الله : صف لنا العارف والمحب ؛ فقال : العارف إن تكلم هلك ، والمحب إن سكث هلك ، وقال الثري رحمه الله :

يا أيها السيد الكريم حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني أنت بما سر في علم
عجبت لمن يقول ذكرت إلى وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالتي وأموت شوقا فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسا بعد كأس فأنفد الشرب وما رويت ؟
فلست خياله نصب لمني فلن قصرت في نظري عيت

وقالت رابعة المدوية يوما : من يدلنا على حبيبنا ، فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعنا عنه . وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إلى إذا اطلمت على سر عبد فلم تجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليته بمحظي . وقيل : تكلم سمعون يوما في الحجة فإذا بطائر زل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الله منه فأت . وقال إبراهيم بن آدم : إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وأنسى بذكرك وفرغتي للتفكير في عظمتك ، وقال السري رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والآخر يندو ويروح في لاش ، والماعقل عن عيوبه فتاش . وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إلى لآحبه حباً شديداً ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين . وسئل عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال : الرضا عن الله تعالى والمحبة له . وقال أبو يزيد : المحبة لا يحب الدنيا ولا الآخرة ؛ إنما يحب من مولاة مولاة . وقال الشبلي : الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم . وقيل الحجة أن تحمى أترك عنك حتى لا يبق فيك شيء راجع منك إليك ، وقيل الحجة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح . وقال الخواص : الحجة نحو الإيرادات واحترق الصفات والمجاهات . وسئل سهل عن الحجة فقال عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للبراد منه . وقيل معاملة المحبة على أربع منازل ؛ على المحبة والمهبة والحياء والتعظيم ، وأفضلها التنظيم والمحبة لأن هاتين المزلتين بقيان مع أهل الجنة في الجنود ورفع عنهم غيرهما . وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد حلالة الإنثيال عليه لم ينظر إلى الدنيا بين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بين القفرة ، وهي تنحصر في الدنيا وتروقه في الآخرة : وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول : وهي باكية والدموع على خدنها جارية : والله لقد شمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لأشترته شوقاً إلى الله تعالى وسجا لقلائه ، قال

فقلت لها ؛ فلي تفت أنت من عمالك ؟ قالت لا ولكن لحبي لإياه وحسن ظني به أفتراه يعمدني وأنا أحبه ؟ وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم اللدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لملقوا شوقاً إلى وتقطع أوصالهم من عجبتي . يا داود هذه إرادتي للذين في القبلين علي ، يا داود أوحج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عني وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدر عني وأجل ما يكون عبدى إذا رجعت إلى ؛ وقال أبو خالد الصنار لقي نبي من الأنبياء عابدا فقال له ؛ إنكم معاش العباد تعملون على أمر لستما معشر الأنبياء لعمل عليه ، أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشفوق . وقال الشبلي رحمه الله : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكرى للذاكرين ، وبتنبي للطيعين ، وزيارتى للشتاتين ، وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله من أنس بحبيبه رضى فعله ومن اشتاق إليه جد في مسيره . وكان الخواص رحمه الله يعزب على صدره ويقول واشوقاه لمن يراني ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمى ، وقام حتى انحنى ، وصلى حتى أقعد ، وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لحضته إليك شوقاً مني إليك . وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال ؛ للمعرفة رأس مالى والعقل أصل ديني والحلب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر رداً والرضا غنيمة والعجز غمى والزهد حرفى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حى والجهاد خلقى وقرة عيني فى الصلاة (١) ، وقال ذو النون سبحة من جمل الأرواح جنود مجندة فأرواح المصارفين جلالة قدسية فذلك اشتاقوا إلى الله تعالى ، وأرواح المؤمنين روحانية فذلك حنوا إلى الجنة ، وأرواح النفاقين هوائية فذلك مالوا إلى الدنيا وقال بعض الشيوخ رأيت فى جبل الكلام رجلا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول ؛

الشوق والهوى صيدانى كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يبرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والإرادات والمعارض والحاجات ، فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والانس والشوق والرضا ، فلتقتصر عليه والله الموفق للصواب .

تم كتاب المحبة والشوق والانس ، بتأليف كتاب النية والإخلاص والصدق .

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به إيمان اللواتين ، ونقر بوحدياته إقرار الصادقين ، ونشهد أن لا إله

(١) حديث من ؛ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال ؛ المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى ... الحديث . ذكره الأمامي ميان من حديث علي بن أبي طالب ولم أجده له إسنادا .
(٤٦ - إحياء علوم الدين - ٤)

إلا الله رب العالمين ، وخالق السموات والأرضين ، ومكلف الجن والإنس والملائكة للمقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين ، فقال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) فإله لا الدين الخالص المبتغي ، فإنه أغنى الأغنياء عن شركه للمشاركين ، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد : فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالملم والعبادة ، فأنس كلهم ملكي إلا المالمون ؛ والمالمون كلهم ملكي إلا المالمون ، والمالمون كلهم ملكي إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عتاء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للتناق كفاء ، ومع المصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق مباء ، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا (وقدما إلى ما عملوا من عمل لجملائه بهاء مشورا) وليت شعري كيف يضح نيته من لا يعرف حقيقة النية ؟ أو كيف ينخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟ أو كيف أطلب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه ؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا البعد إلى النجاة والخلاص .

ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب :

(الباب الأول) في حقيقة النية ومعناها .

(الباب الثاني) في الإخلاص وحقيقته .

(الباب الثالث) في الصدق وحقيقته .

الباب الأول في حقيقة النية ومعناها

وفيه بيان فضيلة النية ، وبيان حقيقة النية ، وبيان كون النية خيراً من العمل ، وبيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنفس ، وبيان خروج النية عن الاختيار .

بيان فضيلة النية

قال الله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) والمراد بتلك الإرادة هي النية . وقال صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أكثر شهاده أمي أصحاب الفرس ورب قتيل بين الصغين الله أعلم بنيتي ^(٢) ، وقال تعالى (إن يريدوا إصلاصاً يوفق الله بينهما) لجمال النية سبب التوفيق . وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ^(٣) ، وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية : وقال صلى الله عليه وسلم : إن البعد لعمل أعمالاً حسنة فتصعد الملائكة في صحف عتمة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول اقرأوا هذه الصحيفة

(١) حديث « إنما الأعمال بالنيات ... الحديث » متفق عليه من حديث عمر وقد قدم . (٢) حديث « أكثر شهاده أمي أصحاب الفرس ورب قتيل بين الصغين الله أعلم بنيتي » أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن خليفة . (٣) حديث « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

فإنه لم يرد بها فيها وجهي ثم يتأذى للملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا إنه لم يعمل شيئا من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الناس أربعة : رجل آتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بهجه في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما في الوزر سواء ^(٢) ، ألا ترى كيف شرکه بالنية في محاسن عمله ومساوئه . وكذلك في حديث أنس بن مالك : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال : إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولاوطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا نخصة إلا مشركونا في ذلك وهم بالمدينة ١ ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا ؟ قال ، حبسهم المذو فشرکوا بحسن النية ^(٣) ، وفي حديث ابن مسعود : من هاجر يبتغي شيئا فهو له ، فهاجر رجل فتزوج امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس ^(٤) ، وكذلك جاء في الخبر : إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدهي قتيلا الحمار ^(٥) ، لأنه قاتل رجلا يأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فاضيف إلى نيته . وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم : من غزا وهو لا يني إلى غزاة فلا فله ما نوى ^(٦) ، وقال أنس : استعنت رجلا بغزو معي فقال : لا حتى تجعل لي جملا ، فجعلت له ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ، ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له ^(٧) ، وروى في الإسرائيليات ، أن رجلا مر بكتبان من رمل في جماعة فقال في نفسه : لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فنصفت به ، وقد ورد في أخبار كثيرة : من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ^(٨) ، وفي حديث عبد الله بن عمرو : من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه صميمه وفارقها أزهى ما يكون فيها ^(٩) ، وفي حديث أم سلمة : أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البلاء فقلت : يا رسول الله يكون فيهم للمكره والأجير فقال : يحشرون على نياتهم ^(١٠) وقال عمر رضي الله

(١) حديث : إن البديل يعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة ... الحديث ، أخرجه البخاري من حديث أنس بإسناد حسن

(٢) حديث : الناس أربعة : رجل آتاه الله علما ومالا ... الحديث ، أخرجه ابن ماجه من حديث أبي كبة الأعمري بسند جيد بلفظ : مثل هذه الأمة كتبت أربعة نفر ... الحديث ، وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه : وآتاه الدنيا لأربعة نفر ... الحديث ، وقال حسن صحيح .

(٣) حديث أنس : أن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ... الحديث ، أخرجه البخاري مختصرا وأبو داود . (٤) حديث ابن مسعود : من هاجر يبتغي شيئا فهو له ، فهاجر رجل فتزوج امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس : أخرجه البخاري بإسناد جيد . (٥) حديث : أن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدهي قتيلا الحمار ، لم أجد له أملا في المصولات ، وإنما رواه أبو إسحق الرازي في السنن من وجه مرسل . (٦) حديث : من غزا وهو لا يني إلى غزاة فلا فله ما نوى ، أخرجه النسائي من حديث عبادة بن الصامت وفتح غير مرة . (٧) حديث أنس : استعنت رجلا بغزو معي فقال لا حتى تجعل لي جملا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له ، أخرجه البخاري في سنن الشافعيين ولأبي داود من حديث يبل بن أمية أنه استأجر أجيرا لغزو وسعى له ثلاثة دنانير فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أجد له في غزوة منه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سعى . (٨) حديث : من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، متفق عليه وقد تقدم . (٩) حديث عبد الله بن عمرو : من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه . الحديث ، أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله : وفارقها أرغب ما يكون فيها ، ودون قوله : وفارقها أزهى ما يكون فيها ، وفيه زيادة ولم أجد من حديث عبد الله بن عمرو . (١٠) حديث أم سلمة : في الجيش ألقى يخسف بهم ، يحشرون على نياتهم ، أخرجه مسلم وأبو داود وقد تقدم .

عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما يقتل المقتولون على النيات ^(١) ، وقال عليه السلام ، إذا اتقى الصنفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حية فلان يقاتل عصبية الأعداء يقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ^(٢) ، وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يبعث كل عبد على ما مات عليه ^(٣) ، وفي حديث الأحنف : عن أبي بكره : إذا اتقى المسلمان بسيفيهما قاتلتا والمقتول في النار ، قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : لأنه أراد قتل صاحبه ^(٤) ، وفي حديث أبي هريرة : من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ، ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من تطيبه تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أبش من الجيفة ^(٦) .

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والأروع حزم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى . وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز : أعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن قصت نقص بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعطله النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي : البر همه التقوى فلا تملكت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما إلى نية سالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل . وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل ، وما دمت تتوى الخير فأنت بخير . وكان بعض المرءين يظفر على العلماء يقول من يدلي على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فإني لأحسب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله ، فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعلمه فإن الهام بعمل الخير كاملاً . وكذلك قال بعض السلف وإن لعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يفرح لكم بما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام طوبى لمن نامت ولاهم بمصيبة وانتهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة يعيشون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ (ولنبؤنكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبأ أخباركم) يبكي ويرددها ويقول إنك إن بولتنا فضحتنا وهتك أستارنا . وقال الحسن إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات . وقال أبو هريرة مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير ، وما أريد به غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد إن العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله ، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في وده ، فإن تزوج لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى ، فإن صلحت نيته فبالخير أن يصلح ما دون ذلك

(١) حديث : إنما يقتل المقتولون على النيات . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ : « نياتهم » ، ورواه في فوائد نعمان بلفظه : « نياتهم » الملتصقون على النيات ، ولابن ماجه من حديث أبي هريرة : « نياتهم » على نياتهم . وفيه ليدت بن أبي سلمة يختلف فيه .

(٢) حديث : إذا اتقى الصنفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم : فلان يقاتل الدنيا ... الحديث . أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وأكثر الحديث مرئوع في الصحيحين من حديث أبي موسى : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ، (٣) حديث جابر : « يبعث كل عبد على ما مات عليه » ، روى مسلم . (٤) حديث الأحنف عن أبي بكره : « إذا اتقى المسلمان بسيفيهما قاتلتا والمقتول في النار » ، متفق عليه . (٥) حديث أبي هريرة : « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان » ، أخرجه أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرًا على لفظ : « الذين » ، دون ذكر : « الصادق » . (٦) حديث : « من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ... الحديث » ، أخرجه أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة من حديث اسحق بن أبي طلحة مرسلاً .

فإن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا ، والنية في نفسها خير وإن تذر العمل باقيا .

بيان حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفة القلب يكتملها أمران : علم ، وعمل (العلم) يقدمه لأنه أصله وشرطه (والعمل) يتبعه لأنه ثمرته وفرعه ، وذلك لأن كل عمل أغنى كل حركة وسكون اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة . لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة . ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للفرض إما في الحال أو في المآل ، فقد خلق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلتمس غرضه ، ويخالفه بعض الأمور ، فيحتاج إلى جلب الملازم الموافق إلى نفسه ودفع الصار المخالف عن نفسه ، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك الشيء للضرر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا ، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الحرب منها ، خلق الله الهداية والعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة . وليس ذلك من غرضنا - ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكتفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه ، إذا المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ، ولقد الباعية المحركة إليه ، خلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة - وأغنى به نزوعا في نفسه إليه وتوجها في قلبه إليه - ثم ذلك لا يكتفيه فك من مشاهد طعاما راغب فيه مرید تناوله عاجز عنه لكونه زنا ؟ فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول ، والعجز لا يتحرك إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر الباعية الباعية ، والباعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له ، فإذا جزمتم للمعرفة بأن الشيء موافق ولا بد وأن يفعل ، وسمت عن معارضة باع آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل ، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالتية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للفرض إما في الحال وإما في المآل . فالحركة الأولى هو الفرض المطلوب وهو الباع ، والفرض الباع هو المقصد المنشئ ، والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل ، إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون باعاً واحد وقد يكون باعيتين اجتماعاً في فعل واحد ، وإذا كان باعيتين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملياً بانتهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع ؟ وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً . فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام : فلنذكر لكل واحد مثالا واسما .

أما الأول : فهو أن ينفرد الباع الواحد ويتجوز ، كما إذا جمح على الإنسان سبع فكلما سبغ فكلما رآه قام من موضعه ، فلا من صبح له إلا لغرض الحرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه صائراً فانبعثت نفسه إلى الحرب ورغبت فيه ، فانتفضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال : نيتته الفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره . وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها إخلاصاً ، بالإضافة إلى الفرض الباع ، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وعمازجته .

وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد . ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حل شيء بمقدار من القوة كان كافياً في الحمل لو انفرد . ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة

فيقتضي الفقرة وقرابته ، وعلم أنه لو لافقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لو لافرايته لكان يقضيها بمجرد الفقر ، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب ، في قضاء حاجته ، وفقير أجني فيرغب أيضا فيه . وكذلك من أمره الطيب وترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حية ، ولو لالحية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة ، وقد اجتمعا جميعا أقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول . فلتسم هذا « مرافقة للبراعث ، والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكل قوى مجموعهما على إنباض القدرة . ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل مالا يفرد أحدهما به . ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه ، ويقصده الأجني الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه ، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر . وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الشاء ، ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يمشه بمزد قصد الثواب على العطاء ، ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصديق عليه لكان لا يمشه بمزد الرباه على العطاء ، ولو اجتمعا أودرنا مجموعهما تحريك القلب . ولتسم هذا الجنس « مشاركة ،

والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل . ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يدعون الضعيف الرجل القوي على الحمل ، ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل ، فلن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حطرت في وقتها جماعة من الناس ، فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم ، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله ، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن بمزد الرباه يصحله عليه ، فهو شرب تطوق إلى النية . ولتسم هذا الجنس ، المعاونة ،

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا . وسند ذكر حكمها في باب الإخلاص . والغرض الآن بيان أقسام النيات ، فلن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل « إنما الأعمال بالنيات » لأنها تابعة لأحكامها في نفسها وإنما الحكم للتبوع :

بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله »^(١)

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، والعمل ظاهر ، ولعمل السر فضل . وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد ؛ لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر ، وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف ، لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل ، بل ليس كذلك فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا لحظات معدودة والأعمال تدوم ، والعموم يقتضي أن تكون نية خيرا من عمله . وقد يقال : لن معناه أن النية بمجرد خيرا من العمل بمجرد دون النية ، وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد ، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا ، والنية بمجرد خيرا ؛ وظاهر الترجيح للمشركين في أصل الخير ، بل المعنى أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل ، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل ،

(١) حديث « نية المؤمن خير من عمله » أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث الثواس بن سمان ، وكلاما ضعيف ،

فنهائ : نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته ، والنرض أن للبد اختياراً في النية وفي العمل ، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما ؛ فهذا معناه .

وأما سبب كونها خيراً ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وناس بعض الآثار ببعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود . فن قال : الخبز خير من الفاكهة ، وإنما يعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للنداء مقصداً وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد وناس بعضها ببعض فالطاعات غذاء للقلوب ، والمقصود شفاؤها وقاؤها وسلاستها في الآخرة ، وسعادتها وتعمها ببقاء الله تعالى ، فالمقصد لذة السعادة ببقاء الله فقط ، ولن يتقدم بقاء الله إلا من مات عبداً لله تعالى عارفاً بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأمن بربه إلا من طال ذكره له . فالأولى يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرد القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرد من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهوراتها حتى يصير مائلاً إلى الخير مريداً له نافراً عن الشر مبغضاً له ، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوط بها ، كما يميل المائل إلى القصد والحجامة لعله بأن سلامته فيها . وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة وإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه ، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى النداء والقوت لتلك الصفة حتى ترشح الصفة وتقوى بسببها . فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميلاً في الابتداء إلا ضعيفاً ، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكده ميلاً ورسخ وعسر عليه النزوع ، وإن خالف مقتضى ميلاً ضعف ميلاً وانكسر ورجع زال وانمحق . بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً ، لو تبعه وعمل بمتنزه فداوم على النظر والجلاسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميلاً حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، ولو قطع نفسه ابتداء وغالف مقتضى ميلاً لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك زبراً ودفعاً في وجهه حتى ينعصف وينكسر بسببه وينتقم وينمحي . وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تزد بها الآخرة ، والشروط كلها هي التي تزد بها الدنيا لا الآخرة . وميل النفس إلى الخيرات الآخروية والنصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرقها للذكر والفكر ، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح ، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فمضى البعض إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وتزى القلب إذا تألم بلمه بموت عزيز من أعزبه أو بهجوم أمر غزوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون ، ولأن القلب هو الأصل للمتجوع فكانه الأمير والراعى والجوارح كالخدم والراعى والاتباع . فالجوارح عادمة القلب بتأكده صفاتها فيه ، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ^(١) ، وقال عليه الصلاة والسلام : اللهم أصلح الراعى والرعية ^(٢) ، وأراد بالراعى القلب وقال الله تعالى (لن ينال لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى

(١) حديث « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد » متفق عليه من حديث التهان بن بهير وقد تقدم .

(٢) حديث « اللهم أصلح الراعى والرعية » تقدم ولم أجده .

منكم) وهي صفة القلب . فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح . ثم يجب أن تكون النية من جعلها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له .
وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب لإرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكتب على الذكر والتفكير ، فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الفرض لأنه متمكن من نفس المقصود ، وهذا كما أن المعدة إذا تأملت فقد تتدأى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتتدأى بالشرب والدواء والواصل إلى المعدة ، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر إلى المعدة ، فسا يلاقى عين المعدة فهو خير وأنفع .

فيؤكد ينبغي أن نفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه يحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب ، فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد في قلبه رقة على يقيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكد الرقة في قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا ، لأن من مسح رأس يقيم وهو غافل بقلبه أو غاف أن يحس ثوبا . لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة ، وكذلك من يسجد خافلا وهو مشغول بالهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدهم ، وما سواى وجوده عديمه بالإضافة إلى الفرض المطلوب منه يسمى باطلا ، فيقال : العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدهم بل زاد شرا ، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوبة تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوبة فمهاوى صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا . فهذا وجه كون النية خير من العمل .

وهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة . لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات ، وإنما الإيتمام بالعمل يزيد تأكيدها ، فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلهما إثارة لوجه الله تعالى ، وهذه الصفة قد حصلت عند جرم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فلو أن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منك) والتقوى ههنا صفة القلب ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : إن قوما بالمدينة قد شركونا في جهادنا - كما تقدم ذكره - لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كتلوب الخارجين في الجهاد وإنما غارقهم بالأبدان لموافق تقص الأسباب الخارجية عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات . وهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية فأعرضنا عليها لينكشف لك أسرارها فلا تظن بالإعادة .

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه - فهي ثلاثة أقسام : معاص وطاعات ومباحات .
(القسم الأول) المعاصي ، وهي لا تستر عن موضعها بالنية ، فلا يفني أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام : إنما الأعمال بالنيات ، فيظن أن المعصية تتقلب طاعة بالنية ، كالذي ينتاب إنسانا مراعاة لقلب

غيره ، أو يعلم فقيرا من مال غيره ، أو يبني مدرسة أو مسجدا أو ياطا بمال حرام ؛ وقصده الخير . فهذا كله جهل ، والثانية لا تؤثر في إخراجها عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية . بل قصده الخير بالشر - على خلاف مقتضى الشرع - شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع ، وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر غير ؟ مهمات ، بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى ؛ فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل ، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ماعصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل ! قيل : يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال : نعم الجهل بالجهل . وهو كما قال ، لأن الجهل بالجهل يستد بالكلية باب التعلم ، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ، ورأس العلم : العلم بالعلم ، كما أن رأس الجهل : الجهل بالجهل . فإن من لا يلم العلم النافع من العلم الفاسد اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم الزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا ، وذلك هو مادقا للجهل ومنيع فساد العالم ، والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير مذموم إلا إذا كان قريب المهد بالإسلام ولم يجد مهلة للتعلم . وقد قال الله سبحانه (فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لاقبلون) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يمدح الجاهل على الجهل ، ولا يجل الجاهل أن يسكت على جهله ، ولا للعالم أن يسكت على علمه ^(١) .

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء للساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم السفهائ والأشرار ؛ المشغولين بالفسق والتجور القاصرين مهمهم على إمارة العلماء ومباراة السفهائ واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والسالكين ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى ، وانتهض كل واحد منهم في بدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويقبض على التقوى ويستعثر الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى ، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ، ويتسلل ذلك ، ويوال جميعه يرجع إلى الدلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه ، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في المسالم ألف سنة مثلا وألفي سنة ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، ثم العجب من جهله حيث يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وقد قصدت بذلك نشر علم الدين ؛ فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير . وإنما صاحب الرياسة والاستبتياع والتفاخر بعلم العلم بحسن ذلك في قلبه ، والشيطان بوسيلة حب الرياسة بليس عليه : وليت شرعي ماجوابه عن وهب سيفا من قاطع طريق وأخذ له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ؛ ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجليلة ، وقصدت به أن يفرز بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى ؛ فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للفراسة من أفضل القربات ، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو المعاصي . وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى للثلاثة خلق من تقرب إليه

(١) حديث « لا يمدح الجاهل على الجهل ولا يجل الجاهل أن يسكت على جهله » . الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة السلفين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله « لا يمدح الجاهل على الجهل » وقال « لا يبنى » بدل « ولا يجل » وقد تقدم في العلم .

بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه سبحانه ^(١) ، فليت شعري لم حرم هذا السجاء ؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسمى في سلب سلاحه لأن يمتد به غيره ؟ والدم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله تعالى وقد يماون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى ! فن لا يزال مؤثرا لفتياه على دينه وهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهادته ؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله تعالى يتفقدون أحوال من يردد إليهم ، ولورأوا منه تقصيرا في نفل من التوافل أنكروه وتركوا إكرامه ، وإذا رأوا منه لجورا واستحلال حرام مجروءه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه ، لئلا يعلم بأن من تسلط مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر ، وقد تعود جميع السلف بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل ، حتى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يردد إليه سنين ، ثم اتفق أن أعرض عنه أحد وهجره وصار لا يكلمه ، فلم يزل يسأله عن تفسيره عليه وهو لا يذكره ، حتى قال - بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أكلة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم . فكيف كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم . وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطياسة والأحكام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير ، أغنى الفضل من العلوم التي لا تشتغل على التحذير من الدنيا والوجر عنها والترغيب في الآخرة والهداء إليها ، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويوصل بها إلى جمع الخطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران .

فإذن قوله عليه السلام : إنما الأعمال بالنيات ، يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي ؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح يتقلب معصية وطاعة بالقصد ، فأما للمعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا نعم لنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصد خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها - كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة .

(القسم الثاني) الطاعات . وهي مرتبطة بالنيات في أصل محبتها وفي تضاعف فضلها . أما الأصل : فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل : فيكثره النيات الحسنة فلئن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها ^(٢) ، كما ورد به الخبر .

ومثاله التعمد للمسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات القربين (أولا) أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله ، فيصدق به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحتى على المزور أن يكرم زائره ^(٣) ، (وثانيا) أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة منتظره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى (ورباطوا) (وثالثا) الترهيب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات ، فلئن الاعتكاف كف - وهو في معنى

(١) حديث : أن الله تبارك وتعالى خلق من غرب إلى بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه سبحانه . تقدم في كتاب المحبة والتوق .

(٢) حديث : تضاعف الحسنه بعشر أمثالها . تقدم . (٣) حديث : من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحتى على المزور إكرام زائره . أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان والبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسروا بإسناد صحيح وله تقدم في الصلاة .

الصوم - وهو نوع ترمب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رهبانية أمتي التعمود في المساجد » (ورايها) عكوف الملم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارقة عنه بالاعتزال إلى المسجد (وعامسها) التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره والتذكر به كما روى في الخبر « من غدا إلى المسجد لذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالجاهد في سبيل الله تعالى » (١) و (سادسها) أن يقصد إقامة العلم بأمر معروف ونهى عن منكر ، إذ المسجد لا يخلو عن شيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه فتنضاعف خيرااته (وسابها) أن يستفيد أعا في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة ، وللمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله (وثامها) أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من المسجد ورثة الله إحدى سبع خصال : أعا مستغادا في الله ، أو رحمة مستزلة ، أو علما مستظرفا ، أو كلفة تدل على هدى ، أو تصرفه عن ردى ، أو يترك الذنوب خشية أو حياء .

فهذا طريق فكثير الثبات ، وقس به سائر الطاعات والمباحات إذا ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة ، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدته في طلب الخير وقشوره له وتفكر فيه . فهذا تركوا الأعمال وتتضاف الحسناات .

(القسم الثالث) المباحات : وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات ويثاب بها معالي الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهمة عن سهو وغفلة ، ولا ينبغي أن يستحق العبد شيئا من المحطرات والمخططات والغلطات فكل ذلك يستل عنه يوم القيامة أنه لم فعله . وما الذي قصد به ؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كرامة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « حللنا حساب وحرامها عقاب » (٢) وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كل عيبيه وعن فئات الطينة بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه » (٣) وفي خبر آخر « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنفن من الجيفة » فاستمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية .

فإن قلت : فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب ؟ فأقول : من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصور أن يقصد التسم بلذات الدنيا ، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسد الأقران ، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة ، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبية إذا كان مستحلا للنظر إليهن ، ولأمور أخرى لا تحصى . وكل هذا يجعل التطيب مصيبة فذلك يكون أنفن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأول وهو اللذ والتسم فإن ذلك ليس بمصيبة إلا أنه يستل عنه ، ومن

(١) حديث « رهبانية أمتي التعمود في المساجد » لم أجده أصلا . (٢) حديث « من غدا إلى المسجد بذكر الله أو يذكر به كان كالجاهد في سبيل الله تعالى » هو معروف من قول كعب الأحبار ورواه ابن جرير ابن طوق والطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة . من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يملكه كأنه كاجر جاع فاما حجه ، وأسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح » . (٣) حديث « حللنا حساب وحرامها عقاب » تقدم . (٤) حديث معاذ « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كل عيبيه وعن فئات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه » لم أجده لستادا .

نوقش الحساب عذب . ومن أتى شيئاً من مباح الدنيا لم يذنب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره ، ونهايك خسرانا بأن يستعمل ما يفنى ويحسر زيادة نعيم لا يفنى . وأما النية الحسنة فإنه ينوب به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة ^(١) ، وينوب بذلك أيضاً تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائراً له إلا طيب الرائحة ، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته برؤسهم ، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إلقاء غثالطيه ، وأن يقصد حسم باب النية عن المختابين إذا اغتايوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه ، فن تعرض للنية وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المصيبة كما قيل :

إذا رحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فلأرحلونهم

وقال الله تعالى ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر ، وأن يقصد به معالجة دماغه لتزديده فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، فقد قال الشافعي رحمه الله من طاب ربحه زاد عقله . فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز العقية عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطاب الخير غالبة على قلبه . وإذا لم ينقلب على قلبه إلا لنعيم الدنيا لم يحضره هذه النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء .

والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقص بهذا الواحد ما عده ، ولهذا قال بعض العارفين من السلف : إنني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكل وشرب ونوم ودخول إلى الحلاء ، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين ، فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه وتطهير قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يبعد الله تعالى بعده فكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطعماً بأكله وكذاحه ، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ، ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله ، وإذا بلغه اغتيال غيره له فيطيب قلبه بأنه سيجعل سيئاته وستقل إلى ديوانه حسنة ، ولينبئ ذلك بسكوته عن الجواب . ففي الخبر : إن العبد ليحاسب فتنبل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيستعجب ويقول : يارب هذه أعمال ما عملتها فقد ؟ فيقال : هذه أعمال الذين اغتايوك وأذكوك وظلوك ^(٢) . وفي الخبر : إن العبد ليوافق القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتصص لهذا من حسنة ولهذا من حسنة حتى لا يبق له حسنة ، فتقول الملائكة : قد نفيت حسنة وبقى طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من

(١) حديث « أن ليس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة » أخرجه أبو داود والمالك وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده وليس أحسن ثياب ... الحديث . ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام « ما لي أسعدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته » وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين : أن عمر رأى حقة صبراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة ... الحديث . (٢) حديث « إن العبد ليحاسب فتنبل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة ... الحديث » وفيه « هذه أعمال الذين اغتايوك ... الحديث » أخرجه أبو منصور الهيثمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث ثابت بن سعد الباقى مختصراً « إن العبد ليأخذ كتابه يوم القيامة منتقرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لي ولم أعلمها فيقال بما اغتايك الناس وأنت لأكثر » وفيه إن ليلة .

سيأتيهم ثم صكوا له صكا إلى النار^(١) ، وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستعقر شيئا من حركاتك فلا تحترق من غرورها وشرورها ولا تمتدجوا بها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقال بعض السلف : كتبت كتابا وأردت أن أرتبه من حائط جاري فتحرّجت ثم قلت : تراب وما تراب ! فترته ففتحت في هاتف : سبيل من استخف بتراب جاره ما يليق غدا من سوء الحساب . وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فمزفه فذ به ليصلحه ثم قبضها فلم يسوّه ، فسأله عن ذلك فقال : إني لبسته تهتمّال ولا أريد أن أسويه لغير الله . وقد قال الحسن : إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول : بيني وبينك الله ! فيقول : والله ما أعرفك ؟ فيقول بلى أنت أخذت لبة من حائطي وأخذت خيطا من ثوبي !

فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين ، فإن كنت من أولى العزم والهي ولم تكن من المترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك ، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولا أنك لم تتحرك ، وماذا قصد ، وما الذي تتال به من الدنيا ، وما الذي يفوتك من الآخرة ، وبماذا ترجع الدنيا على الآخرة ؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فامض عزمك وما خطر ببالك وإلا فامسك ، ثم راقب أيضا قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدّ له من نية صحيحة ، فلا ينبغي أن يكون المباح هوى خفي لا يطلع عليه ، ولا يترك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وانظن للأفوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاعتقاد

فقد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين ، وكان أجيرا لقوم فقدموا له رغيقا - إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده - فدخل عليه قوم فلم يدهم إلى الطعام حتى فرغ ، فتعجبوا لما علوا من سخامه وزهده ونظروا أنّ الخير في طلب المساعدة في الطعام ، فقال : إني أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إلى الرغبة لا تقوى به على عملهم ، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعت عن علمي فالصبر هكذا ينظر في البواطن بنور الله ، فإن ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص وفضل ، ولا حكم للفضائل مع الفرائض وقال بعضهم : دخلت على سفيان وهو يأكل فساكني حتى لقم أصابعه ثم قال : لولا أني أخذته يدين لأجبت أن تأكل منه . وقال سفيان : من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فقلبه زران وإن لم يأكل فقلبه وزر واحد ، وأراد بأحد الوزرين التفاق والثاني ترضيه أمّاه لما كره لوعله . فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية ، فإن لم يحضره النية توقف فإن النية لا تدخل تحت الاختيار .

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أنّ الجاهل يسمع ما ذكرناه من الرخصة بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات ، فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله : نويت أن أدرس لله أو أكل لله . وينظن ذلك نية وهيات ! فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من عاطر إلى عاطر ، والنية بمزمل من جميع ذلك . وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا .
والليل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، بل ذلك كقول السباني : نويت أن أشتى الطعام وأميل إليه ، أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه قلبي ، فذلك محال . بل لا طريق إلى اكتساب

(١) حديث « ان البه ليوان القيامة بحسنة أمثال الجبال » وفيه « وما يأتى قد ظلم هذا ومن هنا ... الحديث » وهم مع اختلاف

سرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما يقدر عليه وقد لا يقدر عليه . وإنما تلبث النفس إلى الفعل إجابة لفرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ، ومالم يعتد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأعمال فلا يتوجه نحوه قصده . وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين ، وإذا اعتقد فإثما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بفرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوراف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال والأعمال . فإذا غلبت شهوة الشكاح مثلاً ولم يعتد غرضاً صحيحاً في الولد دينا ولادنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة ، إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة ، فكيف ينوي الولد ؟ وإذا لم ينل على قلبه أن إقامة سنة الشكاح ^(١) إجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالشكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه ، وهو حديث محض ليس بنية . نعم طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوى أولاً إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه يعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدفع عن نفسه جميع المنغرات عن الولد من فعل اللؤنة وطول التدب وغيره ، فإذا فعل ذلك ربما انتهت من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتتحرك تلك الرغبة وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد ، فإذا انتبهت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناولها ، فإن لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان .

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرم النية وكأوا يقولون ليس تحضرنها فيه نية ، حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال : ليس تحضرني نية . ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدري ، فقالت : أجيء بالمرأة ؟ فسكت ساعة ثم قال : نعم ، فقيل له في ذلك فقال : كان لي في المدري نية ولم تحضرني في المرأة نية فترقت حتى هيأها الله تعالى . ومات حماد بن سليمان . وكان أحد هؤلاء أهل الكوفة . فقيل للثوري : ألا تشهد جنازته ؟ فقال : لو كان لي نية لفعلت . وكان أحدهم إذا سئل عملاً من أعمال البر يقول : إن رزقني الله تعالى نية فعلت . وكان طائوس لا يتحدث إلا بنية ، وكان يسأل أن يحدث فلا يحدث ، ولا يسأل فيحدث . فقيل له في ذلك قال : أفتحبون أن أحدث بغير نية ؟ إذا حضرتني نية فعلت . وحكى أن داود بن المخبر لما صنف : كتاب العقل ، جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا ورده فقال : مالك ؟ قال : فيه أسانيد ضعاف ، فقال له داود : أنا لم أخرجه على الأسانيد ، فانظر فيه بين الخبر إنما نظرت فيه بين العمل فانتفعت ، قال أحمد : فرده على حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلاً ثم قال : جزاك الله خيراً فقد انتفعت به . وقيل لطائوس : ادع لنا فقال : حتى أجده نية . وقال بعضهم : أنا في طلب نية لقيادة رجل منذ شهر فما سمعت لي بعد . وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرف فقال ابنه : ألا تمرض عليه المشاء ؟ قال : ليس من نيتي .

وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية ، وكأوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية لهم بأن النية روح العمل ولأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لأصحاب قرب ، وعلوا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه : نويت ، بل هو انبعاث القلب بجرى مجرى الفتوح من الله تعالى ، فقد تتيسر في بعض

(١) حديث « إن الشكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » تقدم في آداب الشكاح .

الأوقات وقد تتمتع في بعضها . نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين يتيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار التبة للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا . ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفراض إلا جهد جهيد ، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عنها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تلبثت له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته . وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا يتيسر للراغب في الدنيا ، وهذه أعر النيات وأعلامها ، ويمز على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عن يتعاطاها . ونيات الناس في الطاعات أقسام : إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار . ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة ، وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتنظيمه لذاته وجلاله لا لأمر سواه ، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا ، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة ، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه - كالأجير السوء - ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله . وأما عبادة ذوى الآلآباب فلها ما يجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدة وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمعلوم في الجنة فلهم لم يقصدوها ، بل هم الذين يدعون ربههم بالفتاة والعشى يريدون وجهه فقط ، وثواب الناس بقدر نياتهم فلا حرم يقتسمون بالنظر إلى وجهه الكريم ، ويسخرون من يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتمسم بالنظر إلى الحور العين ممن يقتسم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين ؛ بل أشد ، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين ، بل استعظام النفوس البهيمية الشوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء ، فسمى أكثر القلوب عن إحصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن ادراك جمال النساء بأنها لا تنصرف به أصلا ولا تلتفت إليه ، ولو كان لها عقل وذكرن لما استحسنن عقل من يلتفت إليهن (ولا يزالون مختلفين - كل حزب بما لديهم فرحون - ولذلك خلقهم) . حكى أن أحدين خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له : كل الناس يطلبون من الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني ، ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال : يارب كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك وتعال إلى . وروى الشبل بعد موته في المنام فقيل له : ما فعل بك ؟ فقال : لم يطلبني على النساوى بالبرهان إلا على قول واحد : قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة ؟ فقال أى خسارة أعظم من خسران لقاء .

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها . ومعرفة هذه الحقائق توثر أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء ، فلنا نقول : من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة المباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نصبة لأن الأعمال بالنيات . وذلك مثل المعرفه فإنه أفضل من الانتصار في الظلم ، وربما تحضر نية في الانتصار دون المعرفه فيكون ذلك أفضل . ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليرغب نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تلبثت نيته في الحالين بالصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له . بل لو لم البادة

لما ولّبت عليها وسكن لنشاطه وضعفت ورغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة ببلوه وحديث عاد نشاطه فآلوه أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء : إني لأستجم نفسي بشيء من الله فيكون ذلك عوناً لي على الحق . وقال علي كرم الله وجهه : رزحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عمت . وهذه دقائق لا يدركها إلا مسامرة العلماء دون الحشوية منهم ، بل الخاذق بالطلب قد يبالغ المحرور بالحلم مع حرارته ويستبدده القاصر في الطب وإنما يتقنى به أن يعيد أولاً فترته ليحتمل للمعالجة بالصد ، والخاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد يزل عن الرخ والفرس بجائنا ليتوصل بذلك إلى الغلبة ، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويستجيب منه ، وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويولي دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكفر عليه فيقهره . فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة القلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبدها الضعفاء ، فلا ينبشئ للبريد أن يضمّر إنكاراً على ما يراه من شيخه ولا للتعلم أن يمترض على أستاذه ، بل ينبشئ أن يقف عند حد بصيرته وما لا ينهجه من أحوالها يسلمها إلى أن يتكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتتهما ومن الله حسن التوفيق .

الباب الثاني : في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص

قال الله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقال ﴿ ألا الله الدين الخالص ﴾ وقال تعالى ﴿ إلا الذين تابوا وأصبحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ . نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمده عليه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله ^(١) ، وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ظن أبي أني له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضغفاتها ودعوتهم وإخلاصهم ^(٢) ، وعن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي ^(٣) ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لا تهتموا لقلة العمل واهتموا بالقبول فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما ذن بن جيل : أخلص العمل بجزك منته التقليل ^(٤) ، وقال عليه السلام : ما من عبد يخلص لله العمل أربيعين يوماً إلا أظهرت آيات سبع الحكمة من قلبه على لسانه ^(٥) ،

الباب الثاني في الإخلاص

- (١) حديث : ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم : إخلاص العمل لله . أخرجه الترمذي وصححه من حديث الثعلبي بن بدير .
- (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه : أنه ظن أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دائماً نصر الله هذه الأمة بضغفاتها ودعوتهم وإخلاصهم . رواه النسائي وهو عند الثعلبي بلفظ : هل تصرون وتمزقون الأضغاف ؟ .
- (٣) حديث الحسن مرسل : يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي . ورواه في جزء من مسلمات الترويض مسنداً يقول كل واحد من رواه : سألت فلاناً عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء المجبى عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة بن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن أبيه قال : وأحد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وما من الزماد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف .
- (٤) حديث : أنه قال لما ذن أخلص العمل بجزك منه التليل . أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث مباد واستانده منقطع .
- (٥) حديث : ما من عبد يخلص لله أربيعين يوماً . أخرجه ابن عدى ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم .

وقال عليه الصلاة والسلام : أول من يستل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيها علمت فيقول : يارب كنت أقوم آتاه الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملايكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك . ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك لماذا صنعت فيقول : يارب كنت أنصدق به آتاه الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملايكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك . ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ما ذا صنعت فيقول ، يارب أسرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله كذبت وتقول الملايكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك ، قال أبو هريرة ، ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغذى وقال : يا أبا هريرة أدركك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة ^(١) . فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تهز ثم قال : صدق الله إذ قال (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) الآية

وفي الإسرائيليات أن عبدا كان يعبد الله دهرًا طويلا لحماه قوم فقالوا : إنّ هنا قوما يبدون شجرة من دون الله تعالى ، فضضب لذلك وأخذ فأسه على عاقبه وقصد الشجرة ليقطعها ، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال : أين تريد رحلك الله ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة ، قال : وما أنت وذاك ؟ تركت عبادتك واشتغلت بنفسك وتمزغت لنهر ذلك ؟ فقال : إنّ هذا من عبادتي ، قال : فإني لا أنترك أن تقطعها ، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس : أطلقني حتى أكلك ، فقام عنه فقال إبليس : يا هذا إنّ الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يرضه عليك ! وما تمبدا أنت وما عليك من غيرك وفيه تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولوشاء بعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها ! فقال العابد لا بدّ لي من قطعها ، ففأخذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره ففجر إبليس فقال له : هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع ؟ قال : وما هو ؟ قال : أطلقني حتى أقول لك ، فأطلقه فقال إبليس : أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس يمولوك ، ولعلك تحب أن تنفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتسبغ وتستغنى عن الناس ! قال : نعم ، قال : فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وإصالحك وتمدّدت على إخوانك ، فيكون ذلك أنفع لك وللسلمين من قطع هذه الشجرة التي يخرس مكانها ولا يخرم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين بقطعك إياها ! فتفكر العابد فيما قال وقال : صدق الشيخ ! لست بذي فيلزمي قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها ، وما ذكره أكثر منفعة ، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له ، فرجع العابد إلى متعبده فبات ، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ، ثم أصبح اليوم الثالث وما يبدعه فلم ير شيئا . فضضب وأخذ فأسه على عاقبه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له : إلى أين ؟ قال : أقطع تلك الشجرة فقال : كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها ، قال : فتنازله العابد ليقمل به كما فعل أول مرة فقال : هبات ، فأخذه إبليس وصرعه ، فلما هو كالمصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال : لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحك ؟ فنظر العابد فلما لا طاقة له به ، قال : يا هذا غلبني غل عن وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبني الآن ؟ فقال : لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك ، وهذه المرة غضبت لنفسك والدنيا فصرعك .

(١) حديث « أول من يستل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم ... الحديث » قد تقدم .

هذه الحكايات تصديق قوله تعالى ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص ، ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول : يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب المكنوسي : المخلص من يكتم حسنه كما يكتم سيئاته . وقال سليمان : طوبى لمن صحته له خطرة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى . وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري : من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له : أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوب السخيتاني ، تخليص النيات على العباد أشد عليهم من جميع الأعمال . وكان مطرف يقول : من صفا صنعه له ومن خلط خلط عليه . وروى بعضهم في المنام فقيل له : كيف وجدت أعمالك فقال : كل شيء عملته لله وجدته ، حتى حبة ومان لفظنا من طريق وحتى هزة ماتت لنا وأينها في كفة الحسنات ، وكان في فلنسوني خيط من حرير فزأته في كفة السيئات ، وكان قد نفق حمالي فيمته مائة دينار فما رأيت له نوباً فقلت : موت سنور في كفة الحسنات وموت حمالي ليس فيها ؟ فقيل لي : إنه قد وجه حيث يشت به ، فإنه لما قيل لك : قدماء ، قلت : في لعنة الله ، فبطل أجركم فيه ، ولو قلت : في سبيل الله ، لوجدته في حسناتك . وفي رواية قال : وكنت قد صدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرم إلى فوجدت ذلك لا على ولا لي . قال سفيان - لما سمع هذا - ما أحسن حاله ؟ إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ ، الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللين من الفرث والدم . وقيل : كان رجل يخرج في زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو أمم ، فاتفق أن حضر يوماً موضعاً فيه جمع للنساء فسرفت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفثش ، فكلوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت الثوب إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله تعالى بالإخلاص وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا : أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرّة . وقال بعض الصوفية : كنت قائماً مع أبي عبيد القسري وهو يبحث أروحه بعد العصر من يوم عرفة ، فتر به بعض إخوانه من الأبدال فسأله بشيء فقال أبو عبيد : لا ، فز كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني ، فقلت لأبي عبيد : ما قال لك ؟ فقال : سألتني أن أحج معه ، قلت : لا ، قلت : فهل أملت ؟ قال : ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتم هذه الأرض العشية فأخاف إن حجب مع لاجله تعرضت لمقت الله تعالى ، لأنني أدخل في عمل الله شيئاً غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة . وروى عن بعضهم قال : غرقت في البحر ففرض بعضنا غلظة ، فقلت أشرعياً فأنتنعت بها في غرؤي فلما دخلت مدينة كذا بدتها فبرجت فيها ، فاشتريتها فرائيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلوا من السماء فقال أحدهما لصاحبه : اكتب الغزاة فأملى عليه ، خرج فلان مبتزها وفلان مرأيا وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله ، ثم نظر إلى وقال : اكتب فلان خرج تاجراً ، فقلت : الله الله في أمري ! ما خرجت أنجر وما معي تجارة أنجر فيها ما خرجت إلا للغزو ، فقال : يا شيخ قد اشتريت أسس غلظة تريد أن تريح فيها فبيكت وفلت : لا تكتبني تاجراً فأنظر إلى صاحبه وقال ما ترى ؟ فقال : اكتب خرج فلان غازياً إلا أنه اشترى في طريقه غلظة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى . وقال سري السقطي رحمه الله تعالى : لأن قصلي ركعتين في خلوة تحمله بما خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً أو سبعمائة بعلو وقال بعضهم : في إخلاص ساعة نجاه الأبدي ولكن الإخلاص عزيز . وقال : العلم يذر والعمل يزوع وماؤه الإخلاص . وقال بعضهم : إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً ومنه ثلاثاً ، أعطاه صحبة الصالحين ومنه القبول منهم ، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنه

الإخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ومنه الصدق فيها . وقال السوسي : مراد الله من عمل الخالق الإخلاص فقط . وقال الجنيد : إِنَّهُ عِبَادَتُهُمْ فَلَمَّا عَمِلُوا فَلَمَّا عَمِلُوا أَخْلَصُوا فَاسْتَعْمُوا الإِخْلَاصَ إِلَى أَرْبَابِ الْبَرَاءِ . وقال محمد بن سعيد المروزي : الأمر كله يرجع إلى أصليين : فعل منه بك ، وفعل منك له ، فترضى ما فعل وتخلص فيها تعمل . فإذن أنت سحبت بهذين وفوت في الدارين .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أنَّ كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ، ويسمى الفعل المخلص : إخلاصا . قال الله تعالى ﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يتوج به ، والإخلاص بضاده الإثراك ، فمن ليس غلظا فهو مشرك إلا أن الشراك درجات ، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلابة . والشرك - منه غنى ومنه جلى وكذا الإخلاص . والإخلاص وحده يتواردان على القلب فله القلب وإنما يكون ذلك في التصودوثيات . وقد ذكر حقيقة التوبة وأنها ترجع إلى إجابة البواعث ، فهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى المولى ، فمن تصدق وخرجه عن الرياء فهو غلص ، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو غلص . ولكن المادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الدوافع ، كما أنَّ الإخاد عبارة عن الميل ولكن خصصته المادة بالميل عن الحق ، ومن كان باعته مجرد الرياء فهو معرض للهلاك - ولنا تتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربيع المهلكات - وأقل أموره ما ورد في الخبر من « إن المرائي يدعى يوم القيامة بأريم أسام : بأرماني بأخادم بأمرشك ماكفر ⁽¹⁾ » .

وإنما تتكلم الآن فيما انبعت لفصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس . ومثال ذلك أن يصوم ليتفصح بالحياة الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب . أو يعقود عبد ليتخلص من مؤنة وسوء خلقه ، أو يبيع ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يمرض له في بدنه ، وألهرج عن عقد له في منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو يشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما . أو ليتزو ولباريس الحرب ويتعلم أسايه . ويقدر به على تهية المسافر وجرا . أو يصلي بالليل وله غرض في دفع التماس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله . أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيرا بين العشرة ، أو ليكون عقاره أرماله حروسا بمن العلم عن الأطماع . أو اشتغل بالدرس والعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويخرج ببلادة الحديث . أو تتكلم بخدمة العلماء الصوفية لتكون حرمة وافة وعدم وعند الناس ، أو لينال به رقضا في الدنيا . أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه . أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراه . أو توشا ليقتطف أو يتبرد . أو اغتسل لتطيب رائحته . أو روى الحديث ليعرف بعلو الإنسان . أو اعتكف في المسجد ليخفف كراه المسكن . أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طيخ الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها . أو تصدق على السائل ليقطع إرامه في السؤال عن نفسه . أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض . أو يشيع جنازة ليشيع جناز أهله أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فهما كان باعث هو التقرب إلى الله تعالى

(١) حديث : « ان المرأى يدعى يوم القيامة : بإمرأى باعتراف ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتاب السنة والإخلاص وقد تقدم .

ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات ، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك . وقد قال تعالى : **أنا أغنى الشركاء عن الشرك** ، وبالمجمل ، كل حظ من حظوظ الدنيا تسترجح إليه النفس ويميل إليه القلب - قل أم كثر - إذا تطرق إلى العمل تتكدر به صفوه وزال به إخلاصه . والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس . فذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا . وذلك لعمدة الإخلاص وعسر تفتية القلب عن هذه الشوائب ، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى . وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يحنى شدة الأمر على صاحبه فيها ، وإنما نظرنا فيها إذا كان قصد الأصل هو التقرب والخصائص إلى هذه الأمور ، ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المداركة أو في رتبة المعاونة - كما سبق في التية - وبالمجمل : فإما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ، ولكل واحد حكم آخر - كما سنذكره - وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها - قلبها وكثيرها - حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء . وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق المم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يجب الأكل والشرب أيضا ، بل تكون رغبته فيه كرهيته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقربه على عبادة الله تعالى ، ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبق في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوبيا عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون لهم إلا الله تعالى . فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالصا للعمل صحيح التية في جميع حركاته وسكناته ، فهو نام مثلا حتى يرجع نفسه ليقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على التدور ، وكما أن من غلب عليه حب الله وحسب الآخرة فاكسبت حركاته الاعتيادية صفة مه وضارت إخلاصا ، فالذى ينجب على نفسه : الدنيا والمآز والرياسة - وبالمجمل غيرها - فقد اكسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا . فإذا علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذا كان ينيسر الإخلاص . وكمن أعمال يتعب الإنسان فيها ويفطن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور لأنه لا يرى وجه الآخرة بها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول لأنى تأخرت يوما لمدور فصليت في الصف الثاني فاعتزى شجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني ، فعرفت أن نظرت الناس إلى في الصف الأول كان مسر في وسب استراحة قلبي من حيث لا أشر . وهذا دقيق غامض فلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والناس يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى **(وبدا لهم من الله ما يكتوبون)** - وبدا لهم سيئات ما كتبوا - ويقول تعالى **(قل هل تنبئكم بالآخسين)** أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا **(و)** وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء ، فإن الباعث للأكرمين على نشر العلم لثة الاستيلاء والفرح بالاستبعا والاستبشار بالحد والتناء ، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وترى الواعظ يمين على الله تعالى بتضيعة الخلق ووعظه السلاطين وبفرح بيقول الناس قوله وإقبالهم عليه ،

وهو يدعى أنه يفرح بما يسره له من نصرة الدين ولو ظهر من أفرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وخمه ، ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع ذلك لا يتخيله ويقول : إنما غمك لاقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو انتظروا بقولك لكنت أنت المئاب واغنيك لغوات الثواب محمود ، ولا يدور للمكسين أن اقتياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجل ثوابا وأعود عليه في الآخرة من انفراده . وليت شعري لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدى أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمودا أو مذموما ؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما ، لأن اقتياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكلفه بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل ، بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر . فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك ؟ وقد يندفع بعض أهل العلم بنزور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به ، وإخبره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور ، فإن النفس سهلة التباد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دعاه الأمر تفير ورجع ولم يف بالوعد . وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتاحتها ، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يفرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرء الغف وهو المستثنى في قوله تعالى (إلا عبادك منهم المخلصين) فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأهتاج الشياطين وهو لا يشعر .

بيان أقوال الشيوخ في الإخلاص

قال السوسي : الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص . وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن المعجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه محب ؛ وهو من جملة الآفات . والخالص : ما صفا عن جميع الآفات ، فهذا تمرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلية جامعة محيط بالفرص ، وفي معناه قول إبراهيم بن آدم : الإخلاص صدق التوبة مع الله تعالى . وقيل لسهل : أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص إذ ليس لما فيه نصيب وقال روم : الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في المداين . وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة أجلا وماجلا . والمبايد لأجل التتم بالشهوات في الجنة مغلول ، بل الحقيقة أن لا يراذ بالعمل إلا وجهه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص العبدقين وهو الإخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مختلص بالإضافة إلى الحظوظ المأجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق لذوى الأبواب وجهه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الإنسان إلا لحظ ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلي بتكثير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال : هذا من صفات الإلهية وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء ، وهذا لا يمتد الناس حظا بل يتمتعون منه . وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملزمة السجود للحضرة الإلهية سرا وجهها جميع نعم الجنة لاستحقروها ولم يأنفوا إليه ؛ لحرمتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم مجردهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الإخلاص نسيان رؤية

الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط . وهنا إشارة إلى آفة الرياء فقط ؛ ولذلك قال بعضهم : الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه ؛ فإيه إشارة إلى مجرد الإخفاء . وقد قيل : الإخلاص ما استتر عن الخلق وصفا عن العالقي . وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب . وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء . وكذلك قول الحوّايس : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون لمبسي عليه السلام : ما الخالص من الأعمال ؟ فقال : الذي يعمل لله تعالى لا يجب أن يعمده عليه أحد . وهذا أيضا ترميز لترك الرياء وإعنا خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص . وقال الجنيد : الإخلاص تصفية العمل من الكدورات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يباينك الله منهما . وقيل : الإخلاص دوام المراقبة ولسان الحظر لكها . وهذا هو البيان السكامل والآفاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكرير النقل بعد اكتشاف الحقيقة .

وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم إذ سئل عن الإخلاص فقال : « أن تقول ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت ^(١) » أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص سقا .

بيان درجات الشوائب والآفات للمكثرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال . وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا .

فقول : الشيطان يدخل الآفة على المصل مهما كان مخلصا في صلاته ؛ ثم فطر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له : حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بين الرقار والصلاح ولا يزدريك ولا يهتاك ! فتخشع جوارحه ، وتسكن أطرافه ، وتحسن صلاته ؛ وهذا هو الرياء الظاهر ؛ ولا يخفى ذلك على المتدبرين من المريدين .

الدرجة الثانية : يكون المريء قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطبع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان . فإتيه في معرض الخير ويقول : أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عليك ويتأسي بك غيرك ، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت عليك والوزر إن أسأت ، فأحسن عملك بين يديه فمساء يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة ؛ وهذا أخفض من الأول وقد يتخدد به من لا يتخدد بالأول ، وهو أيضا عين الرياء ومبطل للإخلاص ، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لنفيه تركه فلم لم يرض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أمر عليه من نفسه ؟ فهذا يحسن التلبيس ، بل المتدبى به هو الذى اشتقام في نفسه واستقام قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه

(١) حديث : سئل عن الإخلاص فقال : « أن تقول : ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت » لم أره بهذا اللفظ ولا ترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سليمان بن عبد الله التقي قلت : يارسول الله حدثني بأمر أعظم به قال : « قل ربّي الله ثم استقم » وموعده صل بلفظ : قل لى الإسلام قولوا لألسان من أحدا بهذا قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

فأما هذا فحوض التفائق والتليس ، فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتليسه ويدأب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به .

الدرجة الثالثة : وهي أدق عما قبلها ، أن يحزب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والشاهدة للغير محض الرياء ، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في اللأ ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخضع لمشاهدة خلقه تخفعا زائدا على عادته ، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرضيه في اللأ ، ويصل في اللأ أيضا كذلك . فهذا أيضا من الرياء التامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في اللأ فلا يكون قد فرق بينهما ، فالتفاتة في الخلوة واللأ إلى الخلق . بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وثيرة واحدة ، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة اللرايمين ، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلا والملا وهيئات ؛ بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجادات في الخلا والملا جميعا ، وهذا من شخص مشغول بهم بالخلق في الملا والخلا جميعا ، وهذا من المكاييد الخفية للشيطان .

الدرجة الرابعة : وهي أدق وأخفى ، أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيجبر الشيطان عن أن يقول له : اخضع لأجلهم ، فإنه قد عرف أنه قد تفتن لذلك فيقول له الشيطان : تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه ، فيحضر بذلك قلبه وتضع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والنداع ، فإن خشوعه لو كان لنظاره إلى جلالة لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكن لا يختص حضورها بحالة حضور غيره ، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الحاطر بما يألوه في الخلوة كما يألوه في اللأ ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الحاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا لما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة لسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدلس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب التلعة السوداء في الية الظلماء على الصخرة الصماء (١) ، كما ورد في الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهديته ، وإلا فالشيطان ملازم للتشمرين لعبادة الله تعالى لا ينفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب ، فإن هذه سنن وأدقات مخصصة والنفس فيها حظ خفي لا ارتباط نظر الخلق بها ولا استئناس الطبع بها ، فيدعو الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ، ويكون اثبات القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية ، أو مشوبة بها شواها يخرج عن حد الإخلاص بسببه ، وما لا يسلم من هذه الآفات كلها فليس بمخلص ، بل من يتسكف في مسجد معمور فظيف حسن البارة يأقس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف ، وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الإنسان يحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضوعين إذا كان أحسن من الآخر ، وكل ذلك امتزاج بشوايب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص لعمري النش الذي يمزج بمخالص الذهب له درجات متفاوتة . فهذا ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل دركه . ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير . وغش القلب ودغل الشيطان وخبيث النفس أعرض من ذلك وأدق كثيرا .

(١) حديث « العرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب التلعة السوداء في الية الظلماء على الصخرة » تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء .

ولهذا قيل : ركنان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل ، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها ، فإنَّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغترافها كقطر السوادى إلى حمرة الدينار المحمق واستدارته وهو "مغشوش زاهق في نفسه ، وقطرات من الخالص الذى يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه النثر النقي . فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم . ومداخل الآفات المتطرفة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فليتنعم بما ذكرناه مثالا ، والفتن يغني القليل عن الكثير والبلد لا يغني التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل .

بيان حكم العمل للمشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أنَّ العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أنَّ ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه ؟ أما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطار وهو سبب المقت والعقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب ، وظاهر الأخبار يدل على أنه لا ثواب له ^(١) ، وليس تخلوا الأخبار عن تمارض فيه . والذى يتقدم لما فيه - والعالم عند الله - أن ينظر إلى قدر قوة الباعث . فإن كان الباعث الدنيى مساويا للباعث النفسى تقاوما وتسافطا وصار العمل له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومغض للعقاب . نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى يجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب . وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدنيى وهذا لقوله تعالى ﴿ فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ ولقوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ فلا يبين أن يضع قصد الخير ، بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من صفة القصد الفاسد . وكشف الغطاء عن هذا أنَّ الأعمال تأميرها في القلوب بتأكيد صفاتها . فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وقفه ، وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وقفها . فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة ، وأسدما مهلك والآخر منج . فإن كان قوية هذا بقدر قوية الآخر فقد تقاوما . فكان كالمستعصر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته ، فيكون بعد تناوله كأنه لم يتناولها ، وإن كان أحدهما غالبا لم يزل العذاب عن أثر ، فكما لا يضع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك من أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأمير في إرادة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده ، فإذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد إلى ما كان

(١) الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال : وليس تخلوا الأخبار عن تمارض رواد أبو داود من حديث أبي هريرة : أن رجلا قال لرسول الله رجل يبتنى الجهاد في سبيل الله وهو يبتنى هرضا من هرضا الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأجر له » ... الحديث . ولأنسان من حديث أبي أمامة بن باد حنن : أرايت رجلا غزا يبتنى الأجر والذكر ماله ؟ فقال : « لأجر له » فأعادهما - ثلاث مرات - يقول : « لأجر له » ثم قال : « لا ، الله لا يبل من العمل إلا ما كان خالصا وأجنى به وجهه » ولقزمذى وهال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة : الرجل يعمل العمل فيفسره فإذا أطلع عليه أعجبه قال : « أجزان أجر البر وأجر العانية » وقد تقدم في ذم الجبله والرياء .

فلم يكن له ولا عليه ، وإن كان الفعل مما يقتر به شبرين والآخر يمهده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : أتبع السيئة الحسنة تمحها ^(١) ، فإذا كان الرياء المحض يحويه الإخلاص المحض عقبيه ، فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتبادعا بالضرورة . ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأحلب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس . لم يمكن أن يقال : إنما يتأب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص ، وإنما للشرك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة . ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفعك نفس السفر عن ثواب ما . وعندى : أن النزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها التنازع وبين جهة لا غشمة فيها ، ويبعد أن يقال : إدراك هذه التفرقة يحيط بالكلية ثواب جهادهم . بل المدل أن يقال : إذا كان الباعث الأصلي وللرجح القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في التسمية على سبيل التسمية فلا يحيط به الثواب . نعم لا يساوى ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى التسمية أصلا ؛ فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة .

فإن قلت : فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء يحبط للثواب ، وفي معناه شوب طلب التسمية والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن يصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيحب أن يحمده ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ^(٢) . وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أدنى الرياء شرك ^(٣) ، وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره من عملته ^(٤) ، وروى عن عبادة ، أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل لي عملا فأشرك معي غيري ودعت نصيبى لشريكى ، وروى أبو موسى : أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله الرجل يقاثل حية والرجل يقاثل شجاعة والرجل يقاثل ليرى مكانه فأجرهم في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ^(٥) . وقال عمر رضي الله عنه : يقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملا دفتي راحلته ورعا . وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له ^(٦) ، فنقول : هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقولهم : من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا ، وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير البادة عن موضحها ، وأما لفظ الشركه حيث ورد فطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى التفضان تناهوا ولم يكن له

(١) حديث « أتبع السيئة الحسنة تمحها » تقدم في ريادة النفس وفي التوبة . (٢) حديث طاوس وعنده من التابعين : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن يصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيحب أن يحمده ويؤجر فنزلت (فمن كان يرجو لقاء ربه) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والمحاكم نحوه من رواية طاوس مرسل وقد جرد في ذم الجاه والرياء . (٣) حديث معاذ « أدنى الرياء شرك » أخرجه الطبراني والمحاكم وتقدم . (٤) حديث أبي هريرة « يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره من عملته » تقدم فيه من حديث محمود بن حنبل بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة « من عمل عملا أشرك فيه معي فغيري تركته وشريكه » وفي رواية ماله في الموطأ « فهو له كله » . (٥) حديث أبي موسى « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » تقدم فيه . (٦) حديث ابن مسعود « من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له » تقدم في الباب الذي قبله .

ولاعليه ، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ، ثم إن الإنسان عند الشركة أبداً في خطر فإنه لا يدري أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ أى لا يرجى لقاءه مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط ، ويجوز أن يقال أيضاً : منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص فى النزو . وبعبء أن يقال : من كانت داعيته الدينية بحيث ترجحه إلى مجرد النزو - وإن لم يكن غشيمة - وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداها غنية والأخرى فقيرة فقال إلى جهة الأغنياء - لإعلاء كلمة الله والفتنمة - لأثواب له على غزوه البتة ، ولعمد بالله أن يكون الأمر كذلك فإن هذا حرج فى الدين ومدخل للياس على المسلمين ، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا يترك الإنسان عنها إلا على التدور ، فيكون تأخير هذا فى نقصان الثواب ، فأما أن يكون فى إحباطه فلا . نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الآخرى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الخط النفسى ، وذلك مما يحضى غاية الخفاء . فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ فى الاحتياط ، فلذلك ينبغي أن يكون أبداً بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول غائفاً أن تكون فى عبادته آفة يكون وبالمأ أكثر من ثوابها . وممكن أن الخائفون من ذوى البصائر ، وممكن أن يظنى أن يكون كل ذى بصيرة . ولذلك قال سفيان رحمه الله : لأعتد بما ظهر من عمل . وقال عبد العزيز بن أبي رزاد . جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت فى شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسى فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ، لئته لالى ولا على . ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفتر الإخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً . وقد حكى أن بعض الفقهاء كان يخدم أبا سعيد الخراساني ويحفظ أعماله فتسلك أبو سعيد فى الإخلاص يوماً - يريد إخلاص الحركات - فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطلبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحاجات واستضر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يمحور عنها فى أكثر أعماله فتركها ، فقال أبو سعيد : لا تفعل إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد فى تحصيل الإخلاص ، فما قلت لك أترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل ؟ وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك .

الباب الثالث : فى الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق

قال الله تعالى ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب له جنات إلى النجور والنجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً (١) ، ويكنى فى فضيلة الصدق أن الصدق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والتناء فقال ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم أنه كان صديقاً نبياً ﴾ وقال

الباب الثالث فى الصدق

(١) حديث « إن الصدق يهدي إلى البر ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

(واذكر في الكتاب لإسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا) وقال تعالى (واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا) وقال ابن عباس : أربع من كن فيه فقد ربح : الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر . وقال بشر ابن الحارث : من عامل الله بالصدق استوحش من الناس . وقال أبو عبد الله الرضائي رأيت منصورا الدينوري في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ورحمني وأعطاني مالم أؤمل ، فقلت له : أحسن ما توجه به اليك إلى الله ماذا ؟ قال : الصدق وأقبح ما توجه به للكذب . وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مطيعة والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل الحكيم : ما رأيت صادقا فقال له : لو كنت صادقا لعرفت الصادقين . وعن محمد بن علي الكتاني قال : وجدنا دين الله تعالى مبنيًا على ثلاثة أركان ؛ على الحق والصدق والعدل ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثوري في قوله تعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجهمهم مسدود) قال : هم الذين ادعوا عجة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود من صدقتي في سريره صدقته عند المخلوقين في علانيته . وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة ، فقال الشبلي : إن كان صادقا فافقه تعالى ينجي كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فافقه تعالى يفرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت فيها النجاة - ولا يتم بعضها إلا ببعض - الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى في الأعمال ، وطيب المطعم . وقال وهب بن منبه : وجدت على شاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني إسرائيل يمتنعون فقرهوها ويتدارسونها : لا تكذأ نفع من العلم ، ولا مال أربع من الحلم ، ولا حسب أوضع من الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أشد من الجهل ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا عمل أفضل من الفكر ، ولا حسنة أعلى من الصبر ، ولا سيئة أخشى من الكبر ، ولا دواء ألين من الرفق ، ولا داء أوجع من الحرق ، ولا رسول أعدل من الحق ، ولا دليل أنصح من الصدق ، ولا فقر أذل من الطمع ، ولا غنى أشق من الجمع ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا معيشة أهدأ من العفة ، ولا عبادة أحسن من الحشوع ، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد المروزي : إذا طلبت الله بالصدق أنك الله تعالى مرآة يديك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوتراني : احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق . وقيل لدى الثون : هل اللعب إلى صلاح أموره سيئ ؟ فقال :

قد بقيت من الذنوب حيارى لطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعاوى الهوى تخفف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسبل : ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه ؟ فقال : الصدق والسخاء والشجاعة . فقيل : زدنا ، فقال : التقي والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال له قول الحق والعمل بالصدق (١) ، وعن الجنيد في قوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) قال : يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند زعمهم ، وهذا أمر على خطر .

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان : صدق في القول ، وصدق في الية والإرادة ، وصدق في العزم ،

(١) حديث ابن عباس : سئل عن الكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق . لم أجده بهذا اللفظ .

وصدق في الرِّوَاء بالمعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها ، فمن انصف بالصدق في جميع ذلك فهو صادق لأنه بائنة في الصدق . ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإحاطة إلى ما فيه صدقه . (الصدق الأول) صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار ويثبته عليه ، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الرِّوَاء بالوعد والخلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كالات :

(أحدهما) الاحتراز عن المأريض ؛ فقد قيل : في المأريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ، إذا انحذر من الكذب تفهم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه ، إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجرام وفي الحذر عن الغلبة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك ، فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه ، لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه ، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المأريض ما وجد إليه سبيلا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى بنيهم ^(١) ، وذلك لا ينيى أن يخبر إلى الأعداء فيصدق ، وليس هذا من الكذب في شيء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بكاذب من أبلغ بين اثنين فقال خيرا أو أتمى خيرا ^(٢) ، وخصص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : من أبلغ بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب . والصدق هنا يتحول إلى التوبة فلا يراعى فيه إلا صدق التوبة وإرادة الخير ، فهما صبح قصده وصدقت نيته وتجددت لخير إرادته صار صادقا وصدقا كيفما كان لفظه ، ثم التمرض فيه أولى . وطريقه ما حكي عن بعضهم ، أنه كان يطلبه بعض الغلبة وهو في داره فقال لزوجته : خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو هنا ، واحتزر بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صدق وأنهم الظالم أنه ليس في النار . فالكمال الأول في اللفظ أن يعترف عن صريح اللفظ عن المأريض أيضا لإعند الضرورة (والكمال الثاني) أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي ينادي بها ربه كقوله (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمان الدنيا وشهواته فهو كاذب . وكقوله (إياك نعبد) وقوله : أنا عبده ، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صادقا ، ولو طواب يوم القيامة بالصدق في قوله : أنا عبد الله ، لسجرت حقيقة فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا لدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله . وكل ما تنقيد العبد به فهو عبده كما قال عيسى عليه السلام : يا عبيد الدنيا ! وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : تمس عبد الدينار تمس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخيصة ^(٣) . فسمى كل من تنقيد قلبه بشيء عبدا له .

وإنما العبد الحق - لله عز وجل - من اعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا ، فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب قارعا خلعت فيه العبودية لله فلتشغله بالله وبمحبت وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد

(١) حديث : كان إذا أراد سيرا ورى بنيهم : متفق عليه من حديث كعب بن مالك . (٢) حديث : ليس بكاذب من أبلغ بين الناس . . . الحديث . متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت هبة بن أبي محيط وقد تقدم . (٣) حديث : تمس عبد الدينار . . . الحديث . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

إلا الله تعالى ، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الجزية وهو أن يمتنع أيضا عن إرادته لله من حيث هو بل يمتنع بما يريد الله له من تقرب أو إبعاد فتنتفي إرادته في إرادة الله تعالى . وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ، ثم عاد وعتق عن نفسه صار حرا . وصار مفقودا لنفسه موجود السيد ومولاه إن حركه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضى ، لم يبق فيه متسع لطلب والتمس واعتراض ، بل هو بين يدي الله كاليت بين يدي الناس وهذا متنتى الصدق في العبودية لله تعالى . فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة المذيقين . وأما الجزية عن غير الله فدرجات الصادقين ، وبهذا تتحقق العبودية لله تعالى ، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا : فهذا هو معنى الصدق في القول .

(الصدق الثانى) في النية والإرادة ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن ما زجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحب يجوز أن يسمى كاذبا . كما روي في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسأل العالم ما عملت فيها علمت ؟ فقال : فعلت كذا وكذا ، فقال الله تعالى : كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ^(١) . فإنه لم يكذب ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذب في إرادته ونيته . وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد في القصد . وكذلك قول الله تعالى (والله يشهد إن المشايقين لكاذبون) وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ، ولكن كذبهم لا من حيث فلق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التشكيك يتطوق إلى الجبر . وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يستند ما يقول فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه ، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به ، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا .

(الصدق الثالث) صدق العزم ؛ فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه . إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه . أو ينظره ، أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت ، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق . فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التماس والقوة كما يقال : لفلان شهوة صادقة . ويقال : هذا المريض شهوته كاذبة ، معالم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة ، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى . والصادق والصديق هو الذى تصادف عزمته في الخبرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد : بل تسخو نفسه أبدا بالعزم للمصمم الجازم على الخبرات وهو كما قال عمر رضى الله عنه : لأن أقدم فتضرب عتقى أحب إلى من أن تأمر على قوم فهم أبو بكر - رضى الله عنه - فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم ، والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضى الله عنه ، وأكد ذلك بما ذكره من القتل .

ومراتب الصديقين في المراتم تختلف ؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهى به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى ذوا به لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه ، بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبي بكر الصديق .

(الصدق الرابع) في الوفاء بالعزم ، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم

(١) « حديث الثلاثة : حين سأل العالم ماذا عملت فيها علمت ... الحديث » عظيم .

والهزيمة فيه خفيفة ، فلذا حقت الخفائق وحصل التمكن وماجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالزم ، وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) فقد روى عن أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لأن أراي الله شهيدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما صنعت ! قال : فشهد أحدا في العام التالي فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ فقال : وأها لرجع الجنة ! إلى أجد ربيها دون أحد . فقاتل حتى قتل فوجد في جسده يضرع وثمانون مائة وضربة وطعنة فقاتل أخته بنت النضر : ما عرفت أخى إلا بنبأه ، فزلت هذه الآية (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)^(١) ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير - وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر)^(٢) وقال فضالة بن عبيد : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ودفع رأسه حتى وقعت فلقوسه - قال الراوى : فلا أدري فلقوسه عمر أو فلقوس رسول الله صلى الله عليه وسلم - ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلع أنساه سهم عار فقتله فهو في الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة ، ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة^(٣) ، وقال جاهد : رجلا نخرجنا على ملك من الناس فمؤد قاتلا إن رزقنا الله نعال ما لا نتصدق فنبخلوا به فزلت (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين) وقال بعضهم : إنما هو شيء نوره في أنفسهم لم يتكلموا به فقال (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله نبخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعطيهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) لجعل الزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدا . وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث ، فإن الناس قد تسخو بالزم ثم تكسب عند الوفاء لشدة عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب . ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال : لأن أقدم فتعزب عنى أحب إلى من أن أأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لا أجده الآن لأنى لا آمن أن يقتل عليها ذلك فتستعير عن عزمها . أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالزم . وقال أبو سعيد الخزاز : رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لى : ما الصدق ؟ قلت : الوفاء بالعهد ، فقالا لى : صدقت ، وعرجا إلى السماء .

(الصدق الخامس) في الأعمال ، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستتر الباطن إلى تصديق الظاهر ، وهذا يخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن

(١) حديث أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . في قتاله بأحد حتى قتل فوجد في جسده يضرع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول (رجال صدقوا) الآية أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح والسنائى في الكبرى وهو عند البخارى مختصرا ان هذه الآية نزلت في أنس بن النضر . (٢) حديث : وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد ورأى هذه الآية . أخرجه أبو بصير في الحلية من رواية عبيد بن عمير سمعنا . (٣) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب : الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ... الحديث ، أخرجه الترمذى وقال حسن .

الرأي هو الذي يقصد ذلك ، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تقرب بلسان الحال عن الباطن لإعرايا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال وكذلك قد يفتنى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الحق ولا مراعيًا لإمام ، ولا يتجو من هذا إلا باستواء السريرة والملاينة بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره . ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا في دلالة الظاهر على الباطن .

إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص ، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل سريري خيرا من علانيي واجعل علانيي صالحة ^(١) ، وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وأنشدوا :

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عزّ في البارئ واستوجب التنا

فإن عاقل الإعلان سرا فإنه على سعيه فضل سوى الكد والعنا

فخالص الدينار في السوق نافق ومشوشه الردود لا يقتضى الشا

وقال عطية بن عبد الغفار : إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته بأمر الله به للملكة يقول هذا عبدى حقا . وقال معاوية بن قرة : من يدنى على بكاء بالليل بسام بالناهار . وقال عبد الواحد بن زيد : كان الحسن إذا أمر بشئ كان من أحمل الناس به وإذا نهى عن شئ كان من أترك الناس له . ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانيته منه . وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهى عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة ، وعاملتك فيما بيني وبينك بالحياة . ويبيى . وقال أبو يعقوب الهرجورى : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية .

فلذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق .

(الصدق السادس) وهو أعلى الدرجات وأعزها ؛ الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهو والرضا والتوكل والحب وسائر الأمور . فلن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق والمصدق الحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشئ وتمت حقيقتها سمى صاحبه صادقا فيه ، كما يقال : فلان صدق القتال . ويقال : هذا هو الخوف الصادق ، وهذه هي الشهوة الصادقة . وقال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرا هذه الآية فقيل له : سألتك عن الإيمان ؟ فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرا هذه الآية ^(٢) .

ولنضرب الخوف مثلا : فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو غافق من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ،

(١) حديث : اللهم اجعل سريري خيرا من علانيي . الحديث : هدم ولم أحده . (٢) حديث أنذر زناته عن الإيمان فقرا قوله تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ روى عنه ابن عمر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد متصلة لم أجده استادا .

ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة ، أما تراه إذا خاف ، سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصرف لونه وترتد فرائسه ويقتصر عليه عيشه ويتمتع عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره ، حتى لا يلتفت بأهله وولده ، وقد يزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة ، وبالراحة التعب المشقة والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفاً من دوك المخذور . ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان مصيبة عليه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالها ^(١) . فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضئيل وإما قوى ، فإذا قوى سمى صادقاً فيه . لمعرفة الله تعالى وتنظيمه والخوف منه لانهائية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك ، فقال لا تطيق ذلك قال : بل أرى ، فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأثناء فظن النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به لحد سد الأفق - يعنى جوانب السماء - فوقع النبي صلى الله عليه وسلم منسياً عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما ظننت أن أحداً من خلق الله هكذا ، قال : وكيف لو رأيت إسماعيل ؟ إن العرش لعل كاهله ، وإن رجليه قد مرتقا تحت تخوم الأرض السفلى ولأنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع ^(٢) يعنى كالصفور الصغير ، فانظر ما الذى ينشأ من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد ؟ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم . وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مررت ليلة أسرى في جبريل بالملأ الأعلى المجلس البالي من خشية الله تعالى ^(٣) . يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير ، وكذلك الصحابة كانوا غافقين وما كانوا يلبثوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما : لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حق في دين الله . وقال مطرف : ما من الناس أحد إلا وهو أحق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أخف حقير ^(٤) . فالصديق إذن في جميع هذه المقامات عزيز . ثم درجات الصدق لانهائية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض ، فإذن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً . قال سعد بن معاذ : ثلاث أنا فيهن قوى وفيها سواهن ضئيف ؛ ما صليت صلاة منذ أسلمت لحققت نفسى حتى أفرغ منها ، ولا شيعت جنازة لحققت نفسى بغير ماى قاتلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها ، وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً إلا علمت أنه حق ، فقال ابن السيب : ما ظننت أن هذه الحصا تجتمع إلا في النبي عليه السلام . فهذا صدق في هذه الأمور ، وكل قوم من جلة الصحابة قد ادوا الصلاة واتبوا الجنائز ولم يلغوا هذا الملتح ؛ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه . والكلمات المسأورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تتعرض إلا لأحد هذه المعاني نعم قد قال أبو بكر الزواق : الصدق ثلاثة ؛ صدق التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة . فصدق التوحيد لامة المؤمنين قال الله تعالى (والذين آمنوا بآله ورسوله أولئك هم الصديقون) وصدق الطاعة لأهل العلم

(١) حديث « لم أر مثل النار نام هاربها الحديث » . تقدم . (٢) حديث : قال لجبريل « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك » فقال : لا تطيق ذلك ... الحديث . تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخسر من هذا ، والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرين . (٣) حديث « مررت ليلة أسرى في جبريل بالملأ الأعلى المجلس البالي من خشية الله ... الحديث » أخرجه محمد بن نصر في كتابه تنظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه المارتن بن سعيد الإبادي ضمنه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن مسلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطار وهذا مرسل . (٤) حديث « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أخف حقير » لم أجده له أسلاً في حديث مرابح .

والورع ، وصدق للمرة لاهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض - وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ، ولكنه ذكر أقسام مافيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام - وقال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختار عليك غيرك فقال تعالى (هو اجتباكم) وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إني إذا أحببت عبداً ابتليته بآيالاتي فما اتقومت لها الجبال لأنظر كيف صدقه ، فإن وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبيباً ، وإن وجدته جروماً يتكبرني إلى عتقي خذلته ولا أبالي . فإذا من علامات الصدق كثبان المصائب والطاعات جميعاً وكراهة اطلاع الخلق عليها .

تم كتاب الصدق والإخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة ، والحمد لله .

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارية بما اجتاحت ، المطالع على ضائر القلوب إذا هجمت ، الحاسب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذي لا يبرح عن عله مقال ذرة في السهوات والأرض تحزكت أوسكت ، الحاسب على التفيز والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطول بالغرفة من من معاصمهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنتظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا رزقها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لتفشت في صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المراجعة لحابت وخسرت ، فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت ، واستترت رحمة الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت ، فينفحات فضله انسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبمن توفيقه تقيدت الجوارح بالمعادات وتأديت ، وبحسن هدايته انجلت عن ألقاب ظلمات الجهل واقشمت ، وبتأييده ولصره انقطعت مكاييد الشيطان وانفسمت ، وبإلطف عنايته ترجع كافة الحسنات وإذا فلتت ، وبتييسره تيسرت من الطاعات ما تيسرت ، فنه المعالي والجوار والإبداع والإدناء والإسماء والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

أما بعد : فقد قال الله تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أينما بها ﴾ وكفى بنا حاسدين ﴿ وقال تعالى ﴿ ووضع الكتاب قنرى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاسراً ولا يظلمونك أحد ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم يحسبهم الله جميعاً فبينهم بما عملوا أحصاء الله ولسوء واقه على كل شيء شديد ﴾ وقال تعالى ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم يظنون ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم تجمد كل نفس ما عملت من خير يحضرها وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ﴾ وقال تعالى ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ ففرق أبواب البصائر من جملة المبادئ أن الله تعالى لم يمهل المرصدين ، وأنهم سيخافون (٥٠ - إحياء علوم الدين - ٤)

في الحساب ويطالبون بمقابل النذر من الخفطات والحظطات ، وتحققوا أنه لا ينجم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخفطات والحظطات ، فنحاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقبله وآياه ، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي واللقى سيئاته ، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمراقبة فقال عز من قائل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ فربطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة . ثم بالمعاقبة . فكانت لهم في المراقبة ست مقامات ، ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفصلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ، ولكن كل حساب فيبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الحسبان المعاقبة والمعاقبة . فلذلك ذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

للقام الأول من المراقبة : المشارطة

اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركة في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكأن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ وقد غاب من دسها () وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة . والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يركبها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله ، وكأن الشريك يصير خصما مانعا يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه أو يعاتبه رابعا ؛ فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا ينفصل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم يرم منها إلا الحياة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجوف وانفرد بالمال . ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة وبها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نسيم المعنى ، ثم كيفما كانت قصورها إلى التصرم والانقضاء ، ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر ، والخير الذي لا يدوم بقي الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير . ولذلك قيل :

أشد الغم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه انتقلا

لحم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا ينفصل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها . فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كثر من الكثر ولا يتناهى نعيمه أبد الآباد ، فاقباض هذه الأنفاس ضائقة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسبح به نفس عاقل . فإذا أصبح العبد وفرغ من فرضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته . فيقول النفس : مالى بضاعة إلا العمر ومهما في فقد في رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وإنسا في أجل وأتم على به ولو توفقت لكنت أعني أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا ، فأحسني

أنك قد توفيت ثم قد رددت فأياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهر لا قيمة لها وأعلى يانفس أن اليوم واليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر : أنه ينشر العبد بكل يوم ويلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزنة فيها ما علموه نورا من حسنة التي عملها في تلك الساعة فينالها من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدمهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار ، ويفتح له خزنة أخرى سوداء مظلمة يفوح منها وبنشاء ظلامها وهي الساعة التي عصي فيها فينالها من المحول والفرح ما لو قسم على أهل الجنة لتتغص عليهم نعيمها ويفتح له خزنة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه ^(١) ، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على غلوهما وبناؤه من غيب ذلك ما ينال القادر على الرجح الكثير والملك الكبير إذا أمهله وتساهل فيه حتى فاته ، وناهيك به حيرة وغشا : وهكذا تمرض عليه خرائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم في أن تمرى خزانته ولا تدعها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تميل إلى الكسل والدعة والاستراحة فيغوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حيرة لانفارك وإن دخلت الجنة ، فألم الذين وحسرت لا يطاق وإن كان دون ألم النار . وقد قال بعضهم : هب أن للساعة قد عني عنه أليس قد فاته ثواب المحسن ؟ أشار به إلى الغيب والحسرة وقال الله تعالى ﴿ يوم يحصمكم يوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ فهذه وصيته لنفسه في أوقاته .

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسلّمها إليها فأناها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة . وإن لهن سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، وإنما تحين تلك الأبواب لمن عصي الله تعالى بهذه الأعضاء ، فيوصيها بحفظها عن معاصيها (أما العين) فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له يحرم ، أو إلى عورة مسلم ، أو النظر إلى مسلم بين الاحتقار ، بل عن كل فضول مستغنى عنه ، فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم تنزع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها ؛ وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بين الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء ، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاعطاء والاستفادة .

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لاسيما اللسان والبطن (أما اللسان) فلائه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجناته عظيمة بالنية والكذب والقيمة وتركبة النفس ومذمة الخلق والأطمة والغبن والثناء على الأعداء والمأراة في الكلام وغير ذلك - مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو يصد ذلك كله - مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعالم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراتة فليشترط على نفسه أن لا يمزك اللسان طول النهار إلا في الذكر : فنطق المؤمن ذكر ونظرة عبدة وصمته فكرة و ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (وأما البطن) فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال

كتاب الحاسبة والمراقبة

(١) حديث : ينشر للعبد كل يوم ويلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزنة فيها ما علموه من حسنة ... الحديث بطوله لم أجده أملا .

واجتباب الشهات، وبعثه من الشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة . ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئا من ذلك عاقبها بالمتع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها . هكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء . واستقصاء ذلك يطول ولا تحفى معاصي الأعضاء وطاعاتها .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم واليلة ، ثم التواضل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها . وهذه شروط يتفكر إليها في كل يوم ولكن إذا تعوذ الإنسان شرط ذلك على نفسه أيا ما وطاعته نفسه في الوفاء جميعها استغنى عن المشاركة فيها ، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشاركة فيها بيق ، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ، والله عليه في ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشئ من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس أو فلما يحل يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد لائق في مجاريها ويحذر ما منة الإهمال ويعظها كما يوحظ العبد الإيق التمزد : فإن النفس بالطبع مشردة عن الطاعات مستهية عن العبودية ولكن الوعد والتأديب يؤثر فيها (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المراقبة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل . والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله التحذير قال الله تعالى (واعلموا أن الله يعلم ما أنتممكم فاحذروه) وهذا للمستقبل . وكل نظر في كثرة ومقدار لمرة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة . فالنظر فيها بين يدى العبد في تنهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاعكم فأستقوا بآيات الله فتبينوا) وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) ذكر ذلك تحذيرا وتنبها للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت : أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يرضيه ويصطه ، إذا أردت أسرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فاصعه وإن كان غيا فاقته عنه ^(١) . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تظفر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(٢) ، دان نفسه : أى حسبها . ويوم الدين : يوم الحساب . وقوله (أننا لمدينون) أى لمحاسبون . وقال عمر رضى الله عنه : حسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ووزنوها قبل أن توزنوا وتبينوا للعرض الأكبر . وكتب إلى أبي موسى الأشعري : حسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب : كيف تجد هاهنا كتاب الله ؟ قال : ويل لديان الأرض من ديان السماء ؛ فعلاء بالذرة وقال : إلا من حسب نفسه ، فقال لكعب : يا أمير المؤمنين إنما إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلا من حسب نفسه . وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال : من دان نفسه بعمل لما بعد الموت . ومعناه : وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها .

المراقبة الثانية : للمراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه وشروط عليها ما ذكرناه فلا يبق إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال ولا حظاها

(١) حديث عبادة بن الصامت « إذا أردت أسرا فتدبر عاقبته ... الحديث » تقدم .

(٢) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... الحديث » تقدم .

بالعين السكّانة فإنها إن تركت طعت وفدت . ولتذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها .

(أما الفضيلة) فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ^(١) . وقال عليه السلام : اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ^(٢) . وقد قال تعالى (أفن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وقال تعالى (ألم يعلم بأن الله يرى) وقال الله تعالى (إن الله كان عليكم رقيباً) وقال تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون) وقال ابن الماركة لرجل : راقب الله تعالى ؛ فساله عن تفسيره فقال : كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيباً على فلا ألبى بغيره . وقال أبو عثيمين المغربي : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الجبري : أمرنا هذا مبني على أصليين ؛ أن نلزم أنفسكم المراقبة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهره قائماً . وقال أبو عثيمين : قال أبو حنيفة ، إذا جلست للناس فكُن واعظاً لنفسك وقلبك ولا يتوكل اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال لبعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شبوخ ؟ فدعا بمعدة طيور وناول كل واحد منهم طائراً وسكنياً وقال : لينزع كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد . ودفع إلى الشاب مثل ذلك ، قال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد بطائره مذبحوا ورجع الشاب والطائر حي في يده ، فقال : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال : لم أجد موضعاً لإبراني فيه أحد إذا عاين مطلع على في كل مكان ، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا : حق لك أن تكرم . وحكى أن زليخا لما دخلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجهه حتى كان لها فقال يوسف : مالك ؟ أنتستعين من مراقبة جهاد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار ! وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فالتفت له : ألا تستحي ؟ فقال : بمن أستحي وما برأنا إلا الكواكب ؟ قالت : فأين مكرهها ؟ قال الرجل الجعبد بم أستمعن على غرض البصر ؟ فقال : ببلدك أن نأظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المتأظر إليه . وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل : وعن مالك بن دينار قال : جنتان عدن من جنت الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة ، قيل له : ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله عز وجل وإنما يسكن جنت عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمى فرافقوني ، والذين أنثت أفعالهم من خشية ، وعزوني وجلالاً إلى لا هم يذنب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من محتان صرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الله تعالى . وقال المرتضى : المراقبة مراعاة السر بملاحظة القلب مع كل لحظة ونفظة . ويروي أن الله تعالى قال للملائكة : أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن . وقال محمد بن علي الترمذي أجمل مراقبتك لمن لا تريب عن نظره إليك ، وأجمل شكرك لمن لا تقطع نعمه عنك ، وأجمل طاعتك لمن لا تستغنى عنه وأجمل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يزين القلب بغير أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) فقال معناه : ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاد . وسئل ذو النون : بم يشال العبد الجنة ؟ فقال بخلص استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سوء ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب

(١) حديث : سأله جبريل عن الإحسان فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم
(٢) حديث : اعبد الله كأنك تراه . . . الحديث . تقدم .

له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يتغل ساعه ولا أن ما تخفيه عنه ينيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب

وقال حيد الطويل لسليمان بن علي : عظمي ، فقال : لئن كنت إذ داعصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت ظننت أنه لا يراك فلقد كثرت . وقال سفيان الثوري عليك بالمراقبة من لا تخفى عليه عافية ، عليك بالرجاء من يملك الوفاء ، عليك بالخذر من يملك العقوبة . وقال فرقد السجني إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء ولما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فمرسنا في بعض الطريق فأتهمد عليه راع من الجبل فقال له ياراعى بنى شاة من هذه النعم ، فقال إني مملوك ، فقال قل لسيذك أكلها الذئب ؟ قال فأن الله ؟ قال فبكى عمر رضى الله عنه ثم غدا إلى الملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا بهذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه ، فمن احتز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة القلب يشمرها نوع من المعرفة ، وتشر تلك الحالة أعمالا في الجوارح والقلب . أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه . وأما المعرفة التي تشر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر وقريب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك . فهذه المعرفة إذا صارت يقينا - أعنى أنها خلعت عن الشك - ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته ؛ فرب علم لاشك فيه لا ينقلب على القلب كالم بالموت ، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه ، والموتون بهذه المعرفة هم للمقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب النيين ، فراقبتهم على درجتين .

(الدرجة الأولى) مراقبة المقربين من الصديقين ؛ وهي مراقبة التنظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متبقي للالتفات إلى الغير أصلا ، وهذه مراقبة لانفول النظر في تفصيل أعماله فإنها مقصورة على القلب . أما الجوارح فإنها تستغل عن الالتفات إلى المباحث فضلا عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمتعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد . بل يستند الرعية من ملك كلية الراعى ، والقلب هو الراعى ، فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذى صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر المعموم . ومن نال هذه الدرجة فقد يتفول عن الخلق حتى لا يصير من يحضر عنده وهو قائم عيذه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا يسمع به وقد يزعم على ابنه مثلا فلا يكلمه ، حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك فقال لمن عاتبه : إذا مررت في حركتى . ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة للملك الأرض ، حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلب بهمهم حتى من مهمات الدنيا فيفخوص

الرجل في الفكر فيه ويمشي فرحاً يجاوز للموضع الذي قصدته وينسى الشغل الذي نهض له . وقد قيل لعبد الواحد ابن زيد : هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ فقال : ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليك الساعة ! فكان إلا سريعاً حتى دخل عتبة التلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت باعثة ؟ فقال من موضع كذا - وكان طريقه على السوق - فقال : من لتيت في الطريق ؟ فقال : مارأيت أحداً . وبرى عن يحيى بن زكريا عليها السلام : أنه مر بأمرأة قد سقطت على وجهها فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننتها إلا جداراً . وحكى عن بعضهم أنه قال : مررت بمجموعة يترامون وواحد جالس بعيداً منهم ، فتقدمت إليه فأردت أن أكله فقال : ذكر الله تعالى أشهى ! فقلت وحدك ؟ فقال : معي ربي وملكي ! فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له ، فقلت : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال : أكثر خلقك شاغل منك . فهذا كلام مستغرق بمشاهداته تعالى لا يتكلم إلا مته ولا يسمع إلا نبيه . فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه . ودخل الشبل على أبي الحسن التوري وهو معتكف فوجدته ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء . فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال : من سنور كانت لنا ، فكانت إذا أزدت الصيد رابطت رأس الجمل لئلا يتحرك لها شعرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة لقاء أبي على الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري - المعروف بالزاهد - إن في صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرة لملك تسخير منهما ؟ فدخلت صوراً وأنا جامع عشتان وفي وسطى خرقة وليس على كتفي شيء ، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدتين مستقبلتي القبلة فسلمت عليهما فبا أجابني ، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب ، فقلت : لشدتك يا الله ! لا ردتهما على السلام ! فرفع الشاب رأسه من مرقمته فنظر إلى وقال : يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بيني من القليل إلا القليل غلظ من القليل الكثير ، يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا ؟ قال : فأخذ بكلي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلبنا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى ، فلما كان وقت العصر قلت : عطش ! فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان النملة ، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا أكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شرباً ، فلما كان اليوم الثالث قلت في سرى : أحلفهما أن يعطاني لعل أن أتضع بعضهما ، فرفع الشاب رأسه وقال لي : يا ابن خفيف عليك بصيغة من يذكرك الله ورتبه وتوقع هيبته على قلبك ، يظلك بلسان فعله ولا يظلك بلسان قوله ، والسلام ؟ قم عنا ! فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

(الدرجة الثانية) مراقبة الورعين : من أصحاب اليقين ؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهريهم وباطنيهم وعلى قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال مقسمة لثلاث إلى الأحوال والأعمال ، إنما مع ممارسة الأعمال لا تغفل عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يصحبون إلا بعد التثبت فيه ، ويمتنعون عن كل ما يقتضون به في القيامة فلهذا يرون الله في الدنيا مطعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة .

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات : فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فستحج منه فتجسج جلوسك وتزاعي أحوالك ، لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء ، فإن

مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغربك فإنها تهبج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغربك التمتع حتى ترك كل ما أنت فيه شغلا به ، لا حياء منه . فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى .

ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته وخطائنه وبالجملة جميع اختياراته ، ولهفها فظان : فظن قبل العمل ، ونظر في العمل (أما قبل العمل) فلينظر أن مظهره وتحركه بفضله خاطره أهوه خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى يتكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله تعالى أمضاء ، وإن كان لغير الله استحياء من الله وانكسب عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وحمه به وميله إليه وعزفها سوء فعلها وسميها في فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته . وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا يحصى لأحد عنه ، فإن في الخبر : إنه يفكر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول : لم ؟ والثاني كيف ؟ والثالث : لمن ؟^(١) ومعنى لم ، أي لم فلت هذا أكان عليك أن تفعله لو لاك وأملت إليه بشهوته وهواك ؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له : كيف فعلت هذا ، فإن لله في كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا يعلم فقيل له : كيف فعلت أبلغ بحق أم بهمل وظن ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له . لمن علمت أوجه الله خالصا وفاء بقوله ، لا إله إلا الله ، فيكون أجرك على الله ؟ وأولامة خلق مثلك غلظ أجرك منه ؟ أم علمته انتال عاجل ذنباك فقد وثفك نصيبك من الدنيا ؟ أم علمته بسوء وغفلة قد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك ؟ وإن علمت لغيري فقد استوجبت مقى وعقابي إذ كنت عبدا لي تأكل رزقي وترفعه بنعمتي ثم تعمل لغيري أما سمعته أقول (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إن الذين يعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتنوا عند الله الرزق واعبدوه) وعلمك أما سمعته أقول (ألا لله الدين الخالص) فإذا عرف العبد أنه يصد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطلب وأعد السؤال جوابا وليكن الجواب صوابا ، فلا يبدئ ولا يبرأ إلا بعد التثبت ، ولا يحرك جفنا ولا أظلة إلا بعد التأمل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ ، إن الرجل ليستل عن كل عينيه وعن فته العين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه^(٢) ، وقال الحسن ، كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة فظار وثبت فإن كان لله أمضاء . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر . وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان ، اتق الله عند همك إذا هممت^(٣) ، وقال محمد بن علي : إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كطاطب ليل . فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكائد الشيطان ، فلي لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وحمته وفكرته وسكونه وحركته ، فلا يسلم في هذه المراقبة . بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنما ، ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يهذر هياتا بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كانت ركعتان من عالم

(١) حديث « يفكر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم - والثاني كيف - والثالث لمن » لم أنه على أصل .

(٢) حديث : قال لمعاذ « إن الرجل ليستل عن كل عينيه ... الحديث » تقدم في الذي قبله . (٣) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن : اتق الله عند همك إذا هممت » أخرجه أحمد . والمآكل وصحة هذا الخبر منه متوفى وأوله منوع تقدم .

أفضل من ألف ركة من غير علم، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواقع الغرور فيتقن ذلك، والجمال لا يعرفه فكيف يتميز منه؟ فلا يزال الجاهل في قلبه والشيطان منه في فرح وشبهة، فتمد باقه من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران. لحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفضل وسعيه بالجارحة، فيتوقف عن المم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه قد تعالى فيمضيه أو هو ملوئ النفس فينتبه ويبرز القلب عن الفكر فيه وعن المم به، فإن الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورث الرغبة، والرغبة تورث المم والمم يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ماوراهم يتبعه. ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيفتكر في ذلك بنور العلم ويستبين باقه من مكر الشيطان بواسطة الهوى، فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستغنى بنور علماء الدين، وليغز من البلاء المضلين المتبيلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لا تسأل عن عالمنا أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبي أولئك قطع الطريق على صبادي. فالغلوب المظلة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى، وإن مستغنى أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستغنى بها من استدراجها وأقبل على عدوها وحقق بينضها ومقتها وهي شهوات الدنيا؟ فلتكن حمة المريد أولاً في أحكام العلم، أوفى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل السامع عند مجرم الشهوات» (١)، جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً فمن ليس له عقل وازع من الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات. ولذلك قال عليه السلام: «من قارف ذنباً قارعه عقل لا يعود إليه أبداً» (٢)، فما قدر العقل الضعيف الذي سدد الآدى به حتى يعمد إلى محوه وبخعة بمقارفة الذنوب، ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأصوار، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين المخلق في الخصومات النائرة في اتساع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه، وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجزؤوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه. وفي الخبر: «أتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسأني عليكم زمان خيركم فيه المنتهت» (٣)، ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم. فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لواء معجبا برأيه وكان بمن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: «فلذا رأيت نحا مطاعاً وهوى متبياً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فمليك بخاسة نفسه وكل من غاض في شبهة يهتر بتحقيق فقد خالف قوله تعالى ﴿ولا تنفك ما ليس لك به علم﴾» (٤) وقوله عليه السلام: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» (٥)، وأراد به ظنا يبريد دليل كايستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويقتع ظنه. ولعمرة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضي الله تعالى عنه: اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابهاً على فأتبع الهوى وقال عيسى عليه

(١) حديث «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات... الحديث» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه خط من عمر الدين ضعف الجمهور. (٢) حديث «من قارف ذنباً قارعه عقل لا يعود إليه أبداً» تقدم ولم أجده. (٣) حديث «أتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسأني عليكم زمان خيركم فيه المنتهت» لم أجده. (٤) حديث «فلذا رأيت نحا مطاعاً وهوى متبياً... الحديث» تقدم. (٥) حديث «إياكم والظن... الحديث» تقدم.

السلام ، الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه ^(١) . وقد كان من دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : اللهم إني أعوذ بك أن أفل في الدين بغير علم ^(٢) ، فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق ، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتننا على عبده (وكان فضل الله عليك عظيما) وأراد به العلم وقال تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وقال تعالى (إن علينا للهدي) وقال (ثم إن علينا بيانه) وقال (وعلى الله قصد السبيل) .

وقال على كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، ونعم طارد الهم اليقين ، وعافية الكلب الندم ، وفي الصدق السلامة ، رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يمدحك من حبيب سوء ظن ، نعم الحلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأدق العرا التقوى ، وأدق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصحلت به مشوك ، والرزق رزقان : رزق قطله وزرق يطلبك فإن لم تأته أنك ، وإن كنت جازعا على ما أصيب بما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك ، واستدل على ما لم يكن بما كان فإتبع الأمور أشباه ، والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، لما ناك من دنياك فلا تسكرن به فرحا وما فاك منها فلا تتبعه نفسك أسفا ، وليكن سرورك بما قدمت وأسلفك على ما خلفت وشملك لآخرتك وهملك فيما بعد الموت . وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله : ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فإذن النظر الأول للرافع نظره في الهم والحركة أي الله أم للهوى ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يراى بئى من عمله ، وإذ عرض له أمر أن أحداهما للدين والآخر للأخرة أثر الأخرة على الدنيا ^(٣) ، وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحا ولكن لا يمينه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم ، من حسن إسلام المرء تركه ما لا يمينه ^(٤) .

النظر الثاني للرفقة عند الشروع في العمل ، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويعسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكل ما يملكه ، وهذا لازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة ويكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب . فإن كان قاعدا مثلاً فينبغي أن يقدم مستقبل القبلة لقوله صلى الله عليه وسلم « خير المجالس ما مستقبل به القبلة » ^(٥) . ولا يجلس متربعا إذ لا مجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلق عليه ، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول : هكذا مجالس الملوك ؟ لم أجلس بعد ذلك متربعا وإن كان بنام . فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة - مع سائر الآداب التي ذكرناها في موضعها - فكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فرائاه لأدائها وقاء المراقبة .

فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة ، أو في معصية ، أو في مباح .

فراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات .

(١) - حديث - قال عيسى الأمور ثلاثة ... الحديث - أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

(٢) - حديث - اللهم إني أعوذ بك أن أفل في الدين بغير علم . لم أجده . (٣) - حديث - ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ... الحديث - أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٤) - حديث - من حسن إسلام المرء تركه ما لا يمينه . تقدم . (٥) - حديث - خير المجالس ما مستقبل به القبلة - أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم .

وإن كان في معصية فراقت به بالتوبة والندم والإفلاخ والحياة والاشتغال بالتفكير .

وإن كان في مباح فراقت به براعة الأدب ثم يسهو للتمتع في التمتع وبالشكر عليها .

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لابد له من الصبر عليها ولنعمة لابد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة . بل لا ينفك العبد في كل حال من فرضه تعالى عليه إما قبل يلزمه مباشرة أو يحظره يلزمه تركه أو نذبه حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته . ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتزم أفضل الأعمال ليشغل بها قلبه من فاته مزيد ربح وهو قادر على حركته فهو مغنٍ ، والأرباح حال مجراها الفضائل فذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى (ولا تنس نصيبك من الدنيا) .

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة . فلو الساعات ثلاث : ساعة مضت فيها على العبد كيفما مضت في مشقة أو راحة . وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدرى العبد أين يعيش إليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها ؟ وساعة راحة فينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه . فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتسرع على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمله تحسین سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدرى ، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة ، وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضى الله تعالى عنه من قوله عليه السلام « لا يكون المؤمن ظاعنا إلا في ثلاث : تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم ^(١) » ، وما روى عنه أيضا في معناه ، وعلى العاقل أن تكون له أربعة ساعات ساعة يتأجج فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يحظر فيها الطعام والمشرب ^(٢) ، فإن في هذه الساعة حونا له على بقية الساعات . ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول بالجوارح بالطعام والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذي يتناوله مثلا فيه من المعجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح . والناس فيه أقسام :

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون في عجائب صنعه وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباطنة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه . كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر - وهذا مقام ذوي الألباب .

وقسم ينظرون فيه بعين الفتى والكراهة ولا يحظرون وجه الاضطراب إليه ويردوه لو استغفروا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين .

وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق ، فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أجواب من الفكر تفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين ، إذ الحب إذا رأى صنعة حيية وكتابه وتصنيفه لمسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع ، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظرته إلى

(١) حديث أبي ذر « لا يكون المؤمن ظاعنا إلا في ثلاث : تزود لمعاد ... الحديث » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه من الله عليه وسلم قال إنه في صف موسى وله هم . (٢) حديث « وعلى العاقل أن يكون ثلاث ساعات : ساعة يتأجج فيها ربه ... الحديث » وهي بنية حديث أبي ذر رضي الله عنه .

الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملوك وذلك عزيز جدا .
وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرس ، فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرم من جلته ،
ويذمون منه ما لا يوافق هوام ويمسيونه ويذمون فاعله فيذمون الطيبخ والطباخ ، ولا يملون أن الفاعل للطيبخ
والطباخ ولقد رته ولبله هو الله تعالى ، وأن من ذم شيئا من خلق الله بنير إذن فقد ذم الله ، ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر »^(١) ، فهذه المراقبة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام
والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على النهج لمن أحكم الأصول .

المراقبة الثالثة

محاسبة النفس بعد العمل . ولندكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقةها

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لند ﴾ وهذه إشارة إلى
المحاسبة على ما مضى من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل
أن توزنوا ، وفي الخبر : أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصنى فقال « أمتوص أنت ؟ » فقال
نعم ، قال « إذا هممت بأمر فتدبر حقيقته فإن كان رشدا فامعه وإن كان غيا فانتبه عنه ، وفي الخبر ويبنى العاقل أن
يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾
والتوبة لنظر في الفعل بعد الفراغ منه بالتدبر عليه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب
إليه في اليوم مائة مرة »^(٢) وقال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾
وعن عمر رضى الله عنه « أنه كان يضرب قدماه بالدرة إذا جته الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم ؟ وعن ميمون
ابن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، والشريك يتحاسبان بعد
العمل . وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن أبكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس
أحب إلى من عمر ، ثم قال لها كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قال فقال لا أحد أعز على من عمر . فانظر كيف
نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها ! وحديث أبي طلحة حين شفه الطائر في صلاته - فتدبر
ذلك - لجل حاله صدقة لله تعالى ، ولما ووجه العوض مما فاته »^(٣) .

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب ففيل له يا أبا يوسف قد كان في بئيك وغلانك ما يكفونك هذا ،
فقال أردت أن اجزب نفسى هل تتكره ؟ وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله ، وإنما خف الحساب
على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .
ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه الشيء فيجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيات
حيل بيني وبينك ! وهذا حساب قبل العمل ، ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا ؟
والله لأعذر بهذا والله لأعود لهذا أبدا إن شاء الله ! وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى
عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائط فسمعت يقول - وبين وبينه جدار - وهو في الحائط ؟ عمر

(١) حديث « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « إني لأستغفر الله
وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » تقدم فيه مره . (٣) حديث أبي طلحة : حين شفه الطائر عن صلاته لجل حديثه صدقة -
تقدم فيه مره .

ابن الخطاب أمير المؤمنين يخبرنا : والله لتتقين الله أو ليملكنكم . وقال الحسن في قوله تعالى (ولا أقسم بالفسح الزامة) قال : لا يلقى المؤمن إلا بآيات نفسه ؛ ماذا أردت بكملي ؟ ماذا أردت بأكتفي ؟ ماذا أردت بشريقي ؟ والفاجر بمعنى قدما لا بآيات نفسه . وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : رحم الله عبدا قال لنفسه : ألسنت صاحبة كذا ، ألسنت صاحبة كذا ؟ ثم ذهبا ثم خطيها ، ثم ألزمتها كتاب الله تعالى فكان له ثلثا . وهذا من مآثر النفس كآياتي في موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك ضيق . وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعاقق أبنائها ، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من حديد ما وأطال سلسلها وأغلها ، فقلت لنفسي يانفس أي شيء تريدن ؟ فقلت : أريد أن أورد إلى الدنيا فأعمل صالحا ! قلت : فأنت في الأمانة فاعمل . وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حسب نفسه قبل أن يصير الحسب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بثمان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكياله ، رحم الله امرأ نظر في ميزانه ، فما زال يقول حتى أبكأن . وحكي صاحب للأخف ابن قيس قال : كنت أحببه فكان عامة صلاته بالليل ، الدعاء ، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه : يا حنيف ما حلك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حلك على ما صنعت يوم كذا ؟ .

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يفارط فيه نفسه على سبيل التوعية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها - كما يفعل التجار في الدنيا مع الشراك في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا ، وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخسارة لهم في فواته ! ولو حصل ذلك لهم فلا يفلحوا إلا أيا ما فلافل ، فكيف لا يحاسب الداخل نفسه فيها يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ؟ ماهذه المسألة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نموذ باقة من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسارة ليتبين له الزيادة من نقصان ، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمائه وكلفه تداركه في المستقبل . فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض ، ورجعه الثواب والفضائل ، وخسرانه المآص . وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعامله نفسه الأمانة بالسوء ، فيحاسبها على الفرائض أولا فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورضعها في مثله ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداما نافذة كلها الجبران بالثواب ، وإن ارتكب معصية اشتغل بفقرتها وتذنبها ومما تبتلي لستوفى منها ما يترك . كما يصنع التاجر بشريكه - وكذا أنه يفتش في حساب الدنيا عن الخيبة والقياس فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يبين في شيء منها فينبغي أن يبقى غيبته النفس ومكرها فإياها عداة مليئة مكاره ، فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليستكمل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وهكذا ينظر بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده أكله وشربه ونومه ، حتى عن سكوته أنه لم سكت ؟ وعن سكوته لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس . وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبت عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حساب .

ثم النفس غريم يمكن أن يهتوني منه (الديون) . أما بعضها : فبالترامة والضيان ، وبعضها : برد عينه . وبعضها

بالعقوبة لما على ذلك . ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء . ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعيان الظاهرة والباطنة - كما نقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقه وكان محاسباً لنفسه ؛ لحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة ، لحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال ياويلتي أتقي الملك بأحد وعشرين ألف ذنب ! فكيف وعلى كل يوم عشرة آلاف ذنب ؟ ثم غرّ مغشياً عليه فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلًا يقول بالك ركعة إلى الفردوس الأعلى ! فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الانفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ؛ ولوروى المبد بكل معصية حجرا في داره لامتلات داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والمساكن يحفظان عليه ذلك (أحصاه الله ونسوه) .

للمرابطة الرابعة

في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارنة معصية وارتيكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهدأ فإنه إن أهملها سهل عليه مقارنة المعاصي وأنتسب بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغي أن يعاقبها ، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته . هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن إبراهيم : أن رجلا من العباد كأم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذهما ثم ندم فوضع يده على الثار حتى يبست . وروى أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فسكت كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال : ما هذا الذي أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فتدم ، فلما أراد أن يبيد رجله إلى الصومعة قال : مهيات مهيات ! رجل خرجت تريد أن لمعي الله ثمود في صومعتي لا يكون والله ذلك أبدا ! فتركها معلقة في الصومعة نصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى قطعت فسقطت ؛ فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره . ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريب يقول : أصابني ليلة جنابة فاحتجت أن اغتسل وكانت ليلة باردة ، فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا لحدقتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسفن للماء وأدخل الحمام ولا أعني على نفسي فقلت : وإجبا أنا أطعم الله في طول عمري فيجب له على حق فلا أجد في المسارعة وأجد الوقوف والتأخر ! آليت أن لا اغتسل إلا في مرقتي هذه ! وآليت أن لا أزعجها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس ، ويحكى أن غروان وأبا موسى كانا في بعض منازلهما فتكشفت جارية فنظر إليها غروان ، فرفع يده فطمع عينه حتى بقرت وقال : إنك للحائلة إلى ما يضرك . ونظر بعضهم نظرة واحدة امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينقص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي ستان مر بفرقة فقال : من بيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عماليتك ؟ لأعاطيك بعصم سنة فصامها . وقال مالك بن فضيل : جاء رباح التميمي يسأل عن أبي بعد العصر فقالت : إنه نائم ، فقال : أوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ؟ ثم ولى متصرفا فأبتمناه رسولنا وقلناه ؛ ألا نوظفه لك ! فجاء الرسول وقال : هو أشغل من أن يفهم عن شيئا ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول : أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أنسكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء ! وما يدريك أن هذا ليس وقت

يوم ؟ تسكمن بالآملين ؟ أما إن لله على عهده لا أنقضه أبدا ! لا أوسدك الأرض نوم حولا إلا لمرض حائل أو لقتل زائل ، سرأة لك أما تستحين ؟ أم توبخين ؟ وعن غيبك لانتقنين ؟ قال : وجعل يبكي وهو لا يسمع بكاءي ، فلما رأيت ذلك الصرفت وتركته . ويحك عن تيم الهادي أنه نام ليلة لم يتم فيها تهجد ؛ فقام سنة لم يتم فيها ، عقوبة للذي صنع . وعن طلحة رضي الله تعالى عنه قال : انطلق رجل ذات يوم فترع ثيابه وتمزغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه : ذوق ! ونار جهنم أشد حرا ! أجيفة بالليل بطالة بالنهار ؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأناه فقال : غلبني نفسي ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يكن لك بد من الذي صنعت ما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك للملائكة ، ثم قال لأصحابه : تزدومان أخيك ؟ لجعل الرجل يقول له : يا فلان ادع لي ! يا فلان ادع لي فقال : النبي صلى الله عليه وسلم وعهم ، فقال اللهم اجعل للتقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم . لجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم سدد ، فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مأجما !^(١) وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شروعاتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفس أبغض إلي منها فكيف أعطيها شروعاتها ؟ ودخل ابن السائك على داود الطائي حين مات - وهو في بيته على الفراش - فقال : داود أهدمت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تلعب ، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له . وهو وهب بن منبة : أن رجلا تعبد زماما ، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين مبتيا يأكل في كل بيت إحدى عشرة تمره ، ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه وقال : منك آيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك ! فنزل إليه ملك وقال : يا ابن آدم ؛ ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت . وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس : كنا في غزاة لنا لحضر العدو ، فصيح في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامي وهو يحاطب نفسه ويقول : أي نفسي ألم أشهد مشهد كذا فقلت لي ؛ أهلك وعيالك فأطعته ورجعت ! ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي ؛ أهلك وعيالك فأطعته ورجعت ! وانه لأعز منك اليوم على الله أشدك أو تركك ! فقلت لأمرته اليوم ، فرمته لحمل الناس على عدوم فكان في أوائهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فأنكسفوا فكان في موضعه ، حتى انكسفوا مرات وهو ثابت يتأمل ، فوالله ما زال ذلك دأبه حتى رأته صريحا ، فمددت به ويداته ستين أو أكثر من ستين طلعة . وقد ذكرنا حديث أبي طلحة : لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حاله فتصدق بالحائط كفارة لذلك . وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرية كل ليلة ويقول : ماذا علمت اليوم ؟ وعن مجمع : أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة لجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام في الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه الصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه : ما حملك على أن صنت يوم كذا كذا ؟ وأنكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه فتنت شمرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه : ويحك ! إنما أريد بك الخير . ورأى محمد بن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح ! فقال له : لو أكلته بلح ! فقال : إن نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داود ملحاً مادام في الدنيا .

فكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب أنك تماقبت عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وقصير في أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم خرج أرمهم من الاختيار وبغوا عليك ، ثم جعل

(١) حديث طلحة : انطلق رجل ذات يوم فترع ثيابه وتمزغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه : ونار جهنم أشد حرا . . . الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسن النفس من رواية ليث بن أبي سلم عنه وهذا منقطع أو مرسل ، ولا أدري من طلحة هنا .

نفسك وهي أعظم عدوك وأشد طغياناً عليك ، وضرك من طغيانها أعظم من ضرك من طغيان أملاك ، فإن غابهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنفس عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

المرابطة الخامسة : المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرأها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت ، وإن رآها تتواني بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤديها بقتيل الأوراد عليها ويلزمها فحونا من الوظائف جبراً لما فاتت منه وتداركاً لما فرط ؛ فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى ، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة ، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعققت رقتين . وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعققت ربة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشياً أو التصديق بجميع ماله . كل ذلك مرابطة للنفس ومواخذة لها بما فيه تهايتها .

فإن قلت : إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها ؟ فأقول : سبيلك في ذلك أن تسمعها ماورد في الأخبار من فضل المجتهدين ^(١) ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب محبة عبد من عباد الله يجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعتزقت فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتجاده فعملت على ذلك أسبوعاً . إلا أن هذا العلاج قد تندر إذ قد فقدت هذا الزمان من مجتهد في العبادة اجتهد الأولين ، فينبغي أن يعمل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجيد ، وقد انقضت نعمهم وبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، لا أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتنع نفسه أياماً قليلاً بشعوات مكذبة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهي أبد الآباد ؛ لمود بالله تعالى من ذلك .

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى ومأمى مرضى ^(٢) ، قال الحسن : أجهدتهم العبادة ؛ قال الله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقولهم وجملة) قال الحسن : يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجزهم ذلك من عذاب الله ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ^(٣) ، ويروى أن الله تعالى يقول للملائكة : ما بال عبادى مجتهدين ، فيقولون : لها خوفهم شيئاً يخافوه وشوقهم إلى ما شقوا شاقوا إليه ؛ فيقول الله تبارك وتعالى : فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهاداً ، وقال الحسن : أدركت أقواماً وصحبت

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أخرجهما أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص « من قام بمصر آيات لم يكتب من الثقلين ، ومن قام بمكة آية كتب من الثقاتين ، ومن قام بألف آية كتب من المنصورين » وله ولساني وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح « رحمه الله رجلاً ظم من الليل قسلاً وألفظ امرأته » وقرئ من حديث بلال « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين بليلكم ... الحديث » ، وقال هرب وإباصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك .
(٢) حديث « رحمه الله أقواماً يحسبهم مرضى وما مرضى » لم أجده أصلاً في حديث صفوان إلا سكن رواد أحد في الزهد مؤلفاً على كل كلام له قال فيه : ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بال قوم من مرضى . (٣) حديث « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله » أخرجه الطبراني من حديث جده الله بن بكر وفيه بقية رواد بسيفه « من » وهو مجلس وقرئ من حديث أبي بكر « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » وقال حسن صحيح وقد تقدم

طوائف منهم ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهم كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تفتشونه بأرجلكم ، إن كان أحدهم يعيش عمره كله ماطوياً له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط ، وأدركهم عاملين بكتاب ربهم وستة نعيم إذا جنهم الليل قيام على أطرافهم ، يفتشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم في فكك رباهم ، إذا علوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذا علوا السيئة أحزنهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم ، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك واهل ماسلوا من الذنوب . ولا نجوا إلا بالمغفرة . ويحك أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يمدونه في مرضه ، وإذا فيهم شاب نازل الجسم ، فقال عمر له : يا بني ما الذي بلغ بك ما أرى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أسقام وأمرض ، قال : سألتك بالله إلا صدقتني ؟ قال : يا أمير المؤمنين ذقت حلالة الدنيا فرجتها مرة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عند ذهبا وحجرها ، وكأنني انظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة وإثار فاطمات لذلك نهاري وأسهرت ليلي ، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال أبو نعيم : كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز قليل له في ذلك فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قرامة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوما فقال : إن في سقف بيتك جذعا مكسورا . فقال : يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف . وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن زرين من فدوة إلى العصر فالتفت بمئة ولا يسرة ؟ قيل له في ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العيين لينظر بهما البعد إلى عظمة الله تعالى ، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقه متفتحتان من طول الصلاة ! وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له . وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا : الظلمة لله بالهواجر ، والسجدة في جوف الليل ، وبجالة أقوام يلتفتون أطايب الكلام كما يلتفت أطايب الفم وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحز حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول : كراهتها أريد . وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك وأحسن فقالا له : إن الله عز وجل لم يأمر بك بكل هذا ؟ فقال : إنما أنا عبد علك لا أدع من الاستكابة شيئا إلا جئت به . وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة ، حتى أقعد من رجله فكان يصلي جالسا أو سائرا ، فإذا وصل العصر احتجى ثم قال : عجبت للخلق كيف أراد بك بدلا منك ! عجبت للخلق كيف أنست برك ! بل عجبت للخلق كيف استقارت قلوبها بذكر سواك ! وكان ثابت البناني قد حبيت إليه الصلاة فكان يقول : اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فأذن لي أن أصلي في قبري . وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السري ! أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رآه مضطجعا إلا في علة الموت . وقال الخارث بن سعد : مز قوما رهاب فرأوا ما يصنع نفسه من شدة اجتهاده ، فكلهم في ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقة الأموال وهم غافلون ، قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم ؟ فيسكن القوم عن آخرهم . وعن أبي محمد المنزلي قال : جاور أبو محمد الجري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى حود ولا إلى حائط ولم يمد رجله ، فبصر عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد يم فترت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطن فأعاني على ظاهري ، فأطرق الكتاني ومشي مفكرا . وعن بعضهم قال : دخلت على فتى الموصل فراءت قد قدته

يكنى - حتى رأيت الدموع تتحد من بين أصابعه - فدنوت منه فإذا دموعه قد غاطها صفرة ! فقلت : ولم بالله يا فتى بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنك أحلفتى بالله ما أخبرتكم ، نعم بكيت دما فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال : على تخلفى عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون صاحبتى لى الدموع ؟ قال : فإنيته بعد موته في المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : غفر لى ، فقلت له : فإذا صنع فى دمعك ؟ فقال : قزوين وبى عز وجل وقال لى : يا فتى الدمع على ماذا ؟ قلت : يارب على تخلفى عن واجب حقك ، فقال : والدم على ماذا ؟ فقلت على دموعى أن لا تصح لى ، فقال لى يا فتى ما أردت بهذا كله ، وعزى وجلالى لقد صعد حافلك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة . وقيل إن قوما أرادوا سفرا لحدادوا عن الطريق ، فأتوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومته ، فقالوا يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق ؟ فأومأ برأسه إلى السماء ، فلم القوم ما أراد ، فقالوا يا راهب إنا سألوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا فإن النهار لن يرجع والعمى لا يعود والطالب حثيث ، فمجب القوم من كلامه فقالوا يا راهب علام الخلق غذا عند مليككم ؟ فقال على نياهم ، فقالوا أوصنا ، فقال تروءوا . على قدر سركم فلن خير الزاد ما بلغ البنية . ثم أُرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من وهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبنى فناديته الثانية فلم يجبنى فناديته الثالثة فأشرف على وقال يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه . ورضى بقضائه وحده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذلل لزمته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته ، وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب ، وأما أنا فكلب عقور جيسن نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم ! فقلت يا راهب فما الذى قطع الخلق عن الله تعالى بعد أن عرفوه ؟ فقال يا أخى لم يقطع الخلق عن الله تعالى إلا حب الدنيا وزينتها لأنهما عمل الماضى والدنوب ، والعاقل من رى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يجزبه من ربه . وقيل لنادود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إنى إذن لغارغ . وكان أويس القرني يقول هذه ليلة الزكوع فيجي الليل كله في ركعة ، وإذا كانت الليلة الآتية قال هذم ليلة السجود فيجي الليل كله في سجدة . وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يشتهي بالطعام والشراب فقال له أمه لو رفقت بنفسك ! قال الرفق أطلب ادعنى أنى قليلا وأتسم طويلا . وخج مسروق لما نام قط إلا ساجدا . وكان سفيان الثوري يقول عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقي . وقال عبد الله بن دأود كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل . وكان كهيم بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قوى يا ماوى كل شر ! فلما ضف اقتصر على خمسين ، ثم كان يسكن ويقول ذهب نصف عملى ، وكانت ابنة الريح بن خثيم تقول له يا بنت مالى أرى الناس يتسامون وأنت لا تدام ؟ فيقول يا ابنتاه إن أباك يخاف البيات . ولما رأت أم الريح ما بالى الريح من البكاء والسهرة نادته يا بنى لعلك قتلت قتيلا ! قال نعم يا ماما ، قالت : فمن هو حتى لطلب أمه لم فيمض عنك ؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك ، فيقول : يا أماه هي نفسى . وعن عمر - ابن أخت بشر بن الحارث - قال سمعت عالى بن بشر بن الحارث يقول لأمى ، يا أختى جوفى وخواصرى تضرب على ، فضالت له أمى يا أختى أتناذنى لى حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عدى تتحساه يرم جوفك ! فقال لها وعيك ! أخاف أن يقول أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدري إيش

أقول له ، فيك أنت وبكى معها وبكى معهم . قال عمر : وراى ما يبشر من شدة الجوع وجعل يقنص نفسه ضعيفا فقالت له أوى : يا أباى ليت أملك لم تلتنى فقد والله تقطعت كبدى عما أرى بك ! فسمعتة يقول لها وأنا فليت أوى لم تلتنى وإذا ولدتنى لم يدر تديها على . قال عمر وكانت أوى تبكى عليه الليل والنهار . وقال الربيع . أتيت أويضا فوجدته جالسا حتى صلى الفجر ، ثم جلس جلست فقلت لأشغله عن التمسح فكنت مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فقلبتة حينئذ فقال اللهم إني أعوذ بك من عين تزامة ومن بطن لا تسبع ! فقلت حسبي هذا منه ، ثم رجعت . ونظر رجل إلى أويضا فقال يا أبا عبادة مال أراك كأنك مريض ؟ فقال وما لأويضا أن لا يكون مريضا يعلم المريض وأويضا غير طاعم وينام المريض وأويضا غير نائم . وقال أحد بن حرب يا عجبا لمن يعرف أن الجنة ترين فوقه وأن النار تسع تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم ابن آدم فوجدته قد صلى الشاء فعدت أرقبه فلف نفسه بمبائة ثم روى نفسه فلم يثقل من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا . فحلك ذلك في صدرى فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مصطجعا ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جاثلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم . وقال ثابت البناني أدركت رجلا كان أحدهم يصلى فيمجر عن أن يأتي فراشه إلا حبرا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضح جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عينيه فكنت عشرين سنة لا أعلم به أهله وقيل كان ورد سنون في كل يوم خصائنه ركعة . وعن أبي بكر اللطوعى قال كان ودى في شيبقى كل يوم ليلة أفرا فيه فل هو الله أحد ، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة - شك الراوى ، وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منك سر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذى تصنع بنفسك تبكى الليل عامته لانتكسك لملك يابنى أصبحت نفسا لملك فنتك قتيلا ؟ فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، وقيل لما مر ابن عبادة كيف صبرك على سهر الليل وظما المواجه فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبا ولا مثل النار نام هاربا وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم لما ينام حتى يصبح فلذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم لما ينام حتى يمسي فلذا جاء الليل قال من غاف أدبج وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فأرأيت نام ليل ولا نهار . وروى عن رجل من أصحاب علي بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال صليت خلف على رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انقزل عن بمنته وعليه كتابة فكنت حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا قد باتوا الله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوون بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر في يزم الرياح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين - يعنى من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يتخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قوى قوا الله لا رجف بك زحفا حتى يكون الكلل منك لافى فلذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به سافه ويقول أنت أولى بالضرب من دائق وكان يقول أينظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دون تاكل الله لزامهم عليه زحاما

حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . وكان صفوان بن ساهم قد تمعدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامه غدا ما وجد مزايدا . وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد ، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الخوف لا ينام ، وأنه مات وهو ساجد ، وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي . وقال القاسم بن محمد : غدوت يوما ، وكنت إذا غدوت بدأت بمعاينة رضى الله عنها . أسلم عليها ، فغدوت يوما إليها فإذا هي تصلى صلاة الضحى ، وهي تقرأ (لن الله علينا ووقانا عذاب السموم) وتبكي وتدعو وتردد الآية ، فقصت حتى ملكت وهي كاهي ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت : أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كاهي تردد الآية وتبكي وتدعو . وقال محمد بن إسحاق : لما ورد علينا عبد الرحمن ابن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء المشاء . وقال بعضهم : ما أعانف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : سبأ الصالحين صغرة الألوان من السهر وعشش العيون من البكاء وذبول الشفاء من الصوم ، عليهم غيرة الخاشعين ، وقيل للحنن : ما بال المتجدين أحسن الناس وجوها ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلى خلقتي ولم تؤامرنى ، وتميكنى ولا قلننى ، وخلقتمنى عذوقا وجعلتمنى مجرى من مجرى الدم وجعلتمنى يراؤلا وراءه ، ثم قلت : استمسك ، إلى كيف استمسك إن لم تمسكني ؟ إلى في الدنيا الهنوم والأحزان وفي الآخرة العقاب بالحساب فأين الراحة والفرح ؟ وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صبيحات ، كان إذا صلى التمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى لك الليل صاح صيحة ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الرابع صاح صيحة ، قال جعفر بن محمد : لحدثت به بعض البصريين فقال : لا تنتظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح ! وعن القاسم بن راشد الشيباني قال : كان زمعة نازلا عندنا بالحصب - وكان له أهل ونبات - وكان يقوم فيصلى ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المرسون أكل هذا الليل تردون ؟ أفلا تقومون فترجلون ؟ فيتوالون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داح ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوحش ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته : عند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعض الحكماء : إن الله عبادة أنهم عليهم فرفوه ، وشرح صدورهم وأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوت الحكمة وترايب العظمة وخزان القدرة ، فهم بين الخلق مقبولون ومدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بمحبوب الغيوم ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف القوائد وما لا يمكن واصفا أن يصفه فهم في باطن أمورهم كالديباج حسنا وهم الظاهر مناديل ، مبدولون لمن أرادهم تواضعا . وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالكثاف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينا أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ جعلت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تهيج لها دوى عال فأبكت الصوت فإذا أنا بروضة عليها حجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية (يوم تجد كل نفس نفسا معاتلت من خبير مخضرا) إلى قوله (ويذكركم الله نفسه) قال جلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خروفا شيا عليه ؛ فقلت : يا أسفا هذا لشقائي . ثم انتظرت لإفاته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال الجالين أعوذ بك من إعراس النافلين . ثم قال : لك خشمت قلوب الخائفين وإليك

فزع آمال المقصرين ولطمتلك ذات قلوب العارفين ، ثم نفخ يده فقال مالي والدنيا ومال الدنيا ومالي عليك بادنيا بأبناء جنسك والآلاف ليمتك إلى عبيك فأذهي ! وإياهم فأعدي ! ثم قال : أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة ، في التراب يلبون ، وعلى الزمان يقنون ، فادنيه : يا عبد الله أنا منذ اليوم خلقك أنتظر فراغك ! فقال : وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يتأف سيقها بالموت إلى نفسه ؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه ؟ وبقيت أيامه ؟ ثم قال : أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ، ثم لها غنى ساعة وقرأ ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴾ ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخز منشيا عليه ! فقلت : قد خرجت روحه فدوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم اتفق وهو يقول : من أنا ، ما خطري ؟ هب لي إسماع من فضلك ! وجلاني بسترِكَ واعف عن ذنوبي بحكرم وجهك إذا وقفت بين يديك ! فقلت له : بالذي ترجوه لنفسك ! وتيق به إلا كنتي ! فقال : عليك بكلام من فضلك كلامه ، ودع كلام من أوشقته ذنوبه ، إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ومجاهدي فلم يجد حونا على ليخرجني مما أنا فيه غيرك ؟ فأليك عني يا غدوق فقد عقلت حل لساني وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي ! وأنا أم ذباقة من شرك ، ثم أرجو أن يميزني من خطئه ويتفضل علي برحمته . قال : فقلت هذا ولي الله أعاف أن أشغله فأعاقب في موضعى هذا ! فالصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين : بيننا أنا وأسير في مسير ل إذ ملت إلى شجرة لاستريح تحتها ، فإذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لي : يا هذا قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه فانيتمته فسمعت وهو يقول ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ اللهم يارك لي في الموت ، فقلت : وبغيا بعد الموت ، فقال : من أين بما بعد الموت شر مژر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقر ، ثم قال : يا من لوجه ضمت الوجوه بيض وجهي بالنظر إليك وأمل قلبي من المحبة لك وأجرني من ذلك التوخيخ غدا عندك فقد آن لي الحياء منك وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك ، ثم قال : لولا حيلك لم يسقى أبلى ولولا عنوك لم ينسقط فيا عندك أمل ، ثم مضى وتركني ، وقد أُنشدوا في هذا المعنى :

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| تحيل الجسم مكثب الفؤاد | تراه بقمة أو بطن وادى |
| ينوح على معاص فاضطرب | يكندر ثقلها صفو الرقاد |
| فإن حاجت عتافه وزادت | فدعوته : أغنى يا عبادى |
| فأنت بما الآخيه علم | كثير الصنع عن زلال العباد |
| ألف من التلاذذ بالفؤادى | إذا أقبلن في حال حسان |
| منيب قو من أمل ومال | يسبح إلى مكان من مكان |
| لينعل ذكره ويميش فرحا | ويظهر في العباد بالامانى |
| تلاذه الثلاثة أين ولى | وذكر بالفؤاد وبالسان |
| وعند الموت يأتيه بشير | يبشر بالجنة من الموان |
| فبدرك ما أراد وما تحق | من الراحة في غرف الجنان |

وكان كرز بن وهبة يحتم القرآن في كل يوم ثلاث مرات ومجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة قليل له : قد أجهدت نفسك ! فقال : كم عمر الدنيا ؟ قليل سبعة آلاف سنة ، فقال : كم مقدار يوم القيامة ؟ قليل : خمسون ألف سنة ، فقال : كيف يعجز أحدهم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ؟ بئى أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت

سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان رجلك كثيرا وكتت بالرغبة فيه جدرا ، فكيف وعمرك قصير والآخرة لأغاية لها ؟ فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مراقبة النفس ومراقبتها . فهما تزدت نفسك عليك وامتنعت من المواقعة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فانه قد صغر الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعت على الاقتداء فليس الخبر كالمائة ، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إيل فمعزى ، وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زميرهم وغمارهم وهم العقلاء والحكياء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجهلة النافلين من أهل عصرك ، ولا ترض لها أن تتخرط في سلك الخلق وتفتن بالتلبه بالأغياض وتؤثر غفلة العقلاء .

فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطلق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها : يا نفس لا تستكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ! ولندكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات ؛ فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت التمتة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلع كل حبيب بحبيبه وهذا مقام بين يديك ، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت : إلهي هذا الليل قد أدر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأما لم رددتها على فأعزى ؟ وعزتك لهذا داني ودأبك ما أبقيني ، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لمساوق في نفسي من جودك وكرمك . ويروى عن عجرة أنها كانت تحي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها عزون : إلهيك قطع العابدون دجى الليال يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فيك يا إلهي سألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين وأن ترفقني لديك في عشرين في درجة المقربين وأن تلتحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الراحمين وأعظم العطاء وأكرم الكرماء يا كريم ، ثم تخرس ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء ، فقلت لصاحب لي : لو أيتها إذا غلخت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال : أنت وذاك ، قال فأيتها فقلت لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ما تريدن ؟ قال فيحك ثم قالت والله لو ددت أن أبكي حتى تغفد دعوى ثم أبكي دما حتى لا يبقى قطرة من دم في جارية من جوارحي وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء . فلم يزل تردد وأنى لي بالبكاء ، حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثني امرأة من المتعبات قالت رأيت في منامى كأنى أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم ، فقلت ما شأن أهل الجنة قيام ؟ فقال لي قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي خرغت الجنان لقدومها ! فقلت ومن هذه المرأة ؟ فقيل أمة سوداء من أهل الألبكة يقال لها شوانة . قالت فقلت أختي والله ، قالت فيينا أنا كذلك إذ أقبل بها على عجبة فغير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت : يا أختي أما ترين مكانى من مكانك فلم دعوت لي مولاي فألحقني بك ؟ قالت فتبسمت إلى وقالت لي بأن لقدومك ولكن احفظي عن اثنين ألوى الحزن قلبك وقدى محبة الله على هواك ولا يعرضك ممت . وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنيت بها معجبا فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي فالتفتت فالتفتها فلم أجدها ، فقلت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول بجهك لي إلا ما غفرت لي ذنوبي ، فقلت لها لا تقول بجهك لي ولكن قول بجهي لك ، فقلت : يا مولاي بجهي لي أخرجنى من الشرك إلى الإسلام وبجهي لي أبغض عيني وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشي : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سريفة فزلت في بعض

ديارنا ، قال : فكنت أصنع لها من الليل أنينا وشهنا ، فقلت يوما لخادم لي : أشرف على هذه المرأة ، ماذا تصنع قال : فأشرف عليها فإرها ما تصنع شيئا غير أنها لا تزد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول : خلقت سرية ثم غديتها بتمتلك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل ، وهي مع ذلك متعززة لسنطك بالتوب على معاصيك فقلت بمذلة أترها فظن أنك لا ترى فعلها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير وقال ذو النون المصري : خرجت ليلة من وادي كتمان فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل على وهو يقول :

(وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون) ويكي فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف ويدها ركوة ، فقالت لي : من أنت ؟ غير فرعة مني ، فقلت : رجل غريب ، فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال : فبكيت لتقولها فقالت : ما الذي أبكاك ؟ فقلت : قد وقع الدواء على داء قد فرح فأسرع في نجاها ، قالت : فإن كنت صادقا فلم بكيت ؟ قلت يرحمك الله والصادق لا يكي ؟ قالت لا ، قالت ولم ذاك ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب ، فسكت متمجبا من قولها . وقال أحمد بن علي استأذنا على عفيمة لحجبتنا فلزنا الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول اللهم إني أعوذ بك من جاء يشغلني عن ذكرك ، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعي لنا ، فقالت جعل الله قراءكم في بيتي المغفرة ، ثم قالت لنا مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء ، فحاز منه نظرة فخر منضيا عليه فأصابه فتق في بطنه ، فباليك عفيمة إذ أرغمت رأسها لم تعص ١ وباليها إذا عصمت لم تعد ٢ وقال بعض الصالحين خرجت يوما إلى السوق وسمي جارية حبشية^٣ فاحتسبتها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت لا تبرحني حتى أنصرف إليك ، قال فأنصرفت فلم أجدها في الموضع ، فأنصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأيته عرفت الغضب في وجهي فقالت يا مولاي لا تنجل على أنك أجلسني في موضع لم أرفيه ذاكرة الله تعالى تخلف أن يخلف بذلك الموضع ٤ فنجبت اقولها وقلت لها أنت حرة . فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران ، وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما . وقال ابن العلاء السعدي كانت له ابنة هم يقال لها بريرة ، تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصنف ، فكلما أنت على آية فيها ذكر النار بكى ، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عينها من البكاء فقال بريرة انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نلذها في كفرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت ؟ قالت أصبحت أضيافا منيخين بأرض غربة نلتظر متى تدعي فنجيب ، فقلنا لها ما هذا البكاء قد ذهبت عينك منه ؟ فقالت إن يكن لعيني عند الله خير فلا يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا ، وإن كان لها عند الله شر فسيذهبها بكاء أطول من هذا ؟ ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فهي والله في شيء غير مانحين فيه وكانت ممادة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه لها قسطم حتى تمسى ، فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح : وقال أبوسليمان الداراني بت ليلة عند رابطة فتقامت إلى حرا ب لها وقت أنا إلى ناحية من البيت ، فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قرأنا على قيام هذه الليلة ؟ قالت جزاؤه أن تصوم له غدا . وكانت شواءة تقول في دعائها إلهي ما أشوقني إلى لقاءك وأعظم رجائي لجوارحك وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين ، إلهي إن كان دنا أجل ولم يقربني منك عمل فقد جلت الاعتراف بالذنوب وسألت على ! فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن ظنك فالويل لها إن لم تسعدنا ، إلهي إنك لم تزل في برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي

ولقد رجوت من تولاقي في حياتي إلى حسنة أن يسعني عند معاتي بغفرانه ، إلى كيف أبأس من حسن نظرك بعد معاتي ولم تولى إلا الجليل في حياتي ، إلى إن كانت دنوبي قد أعاقني فإن عبي قد أجازتني فتول من أمري ما أنت أمه وعد فضلك على من غره جهله ، إلى لو أردت إهانتني لما هديتني ولو أردت فضيحتي لم تسترني فتعني بما له هديتي وأدم لي ما به سرتي ، إلى ما أظنك ردني في حاجة أقيت فيها عمري ، إلى لولا ما تارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك ، وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى أسودت وبكت حتى عمت وصلت حتى أقعدت - وكانت تصلي قاعدة فسلنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من المغفر ليهون عليها الأمر ، قال : فشبهت ثم قالت : على بنفسى قرع فوادى وكلم كبدي والله لو ددت أن الله لم يخلقني ولم أكن شيئاً مذكوراً ، ثم أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المراقبين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبثق نشاطك ويريد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنه إن قطع أكثر من في الأرض يضلوك على سبيل الله . وحكايات المجتهدين غير معصورة وفيها ذكرناه كناية للمعتبر . وإن أردت من بدأ فعليك بالمراقبة على مطالعة كتاب « حلية الأولياء » فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالقوف عليه يستبين لك بمدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين . فإن حدثاك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت : إنما يسير الخير في ذلك الزمان لكثرة الإخوان والآن فإن خالفت أهل زمانك وأوك بمنزلة وسعروا بك فوافقتهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك إلا ما يجري عليهم والمصيبة إذا عمت طابت - فإياك أن تتدلى بجبل غرورها وتخضع بزيورها ، وقل لما : رأيت لو هجم سيل جارف يفرق أهل البلد ويمتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال : وقد قدرت أنت على أن تغارقيهم وتركي في سفينة تتخلصين بها من الفرق فهل يتخلج في نفسك : أن للمصيبة إذا عمت طابت ؟ أم تركين موافقتهم وتستجعليهم في صميمهم وتأخذين حذرهم بمسأداك ، فإذا كنت تركين موافقتهم خوفاً من الفرق وعذاب الفرق لا ينأى إلا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت معرضة له في كل حال ؟ ومن أين تليق المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى الموم والموصوف ؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا (إنا وجدنا آباءنا على أمة وزنا على آثامهم مقتدون) فعليك إذا اشتغلت بمعاشرة نفسك وحلها على الاجتهاد فاستصمت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتعرفها سوء نظرها لنفسها فمساها ما تخرج عن طغيانها .

المراقبة السادسة : في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وقد خلقت أمانة بالسوء ميالة إلى الشر فزارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتوحيها وفردا بسلاسل النهر إلى عبادة ربها وعالقتها ومنعها عن شهواتها وقضاها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تقطر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعابة والمذلل والملازمة كانت نفسك هي النفس الزواني التي أقسم الله بها ووجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عبياد الله راضية مرضية ، فلا تنفلن ساعة عن تذكرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغلن أولاً بوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فإن أتمظت فظ الناس إلا فاستحي مني ، وقال تعالى (وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين) وسبيلك أن تعبل عليها فتقرر عندها جملها وغايتها أن لا تنمور بغيبتها ومدايتها ، ويشد أنها واستكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها : يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة

والإذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحقاً ! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنتك صائرة إلى إحداهما على القرب ؟ فإلك نفرحين ونفصحين ونشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسم وعساك اليوم تحتطفين أو غداً ، فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً ؟ أما تعلمين أن كل ما هوأت قريب وأن السعيد ما ليس بأت ؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواعدة وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يقضى إلى الموت فإلك لا تستدئين الموت وهو أقرب إليك من كل قريب ؟ أما تتدبرين قوله تعالى ﴿ اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكرهم يحدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية فليرجم ﴾ ويحك يا نفس إن كانت جرائك على مصمية الله لاعتقادي أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع حبلك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حيائك ، ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتمردين لمقت الله وغضبه وشديده عقابه أنتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ مهيات مهيات ! جزئي نفسك ! إن أهلك البطر عن ألم عذابه فاحتسبي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربي أصبعك من النار ليتبين قدر طاعتك ؟ أم تقترين بكرم الله وفضله واستدائه عن طاعتك وعبادتك فإلك لا تمولين على كرم الله تعالى في مهيات دنياك ، فإذا فصدك عدو فلم تستبطين الحيل في دفعه ولا تسكنينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقت حاجة إلى شوبة من شهوات الدنيا بما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فإلك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعلمين على كرم الله تعالى حتى يمتد بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيجعل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ؟ أفتحسبين أن الله كرم في الآخرة دون الدنيا ! وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ماسى . ويحك يا نفس ما أوجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإلك تمدعين الإيمان بلسانك وأثر الاتفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ وقال في أمر الآخرة ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ماسى ﴾ فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفمالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، وكل أمر الآخرة إلى سميعك فأعرضت عنها أعراض المغرور المستعصر ! ما هنا من علامات الإيمان ؟ لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؟ ويحك يا نفس كأنك لاثنتين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفكت وتخلصت ومهيات ! أعجبين أنك تتركين سدى ! ألم تكوني لطفة من متى ؟ ثم كنت علقه خلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أكره وأجهل ! أما تفكرين أنه بما عاذا خلقك ! من لطفه خلقك فقدرك ثم السيل يسرك ثم أمانك فأعبرك أنتكذبيته في قوله . ثم إذا شاء أنفرك ؟ فإن لم تكوني مكذبة فإلك لا تأخذين حذرَكَ ولو أن يهودياً أخبرك في ألد أطمعته بأنه يضررك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدته نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتب المنزلة أقل عندك تأمهاً من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم ؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك ضرباً لميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ! أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة

الآليات أقل عندك من قول صبي من جملة الأغنياء : أم صار حر جهنم وأغلغلا وأنكأها وزقومها ومقامها وصديدها وسومها وأقاعها وغاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسب بألمها إلا يوماً أو أقل منه ! ما هذه أفعال النمل ! بل لو انكشف الهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك ، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فإلك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يحتفظك من غير مهلة فإذا أمنت استجمال الأجل ؟ وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة أفنتظن أن من يطعم الدابة في حضيض العقة يفلح ويقدّر على قطع العقة بها ؟ إن ظننت ذلك فأعظم جهلك ! رأيت لرسافر رجل ليشفقه في القرية فأقام فيها سنتين متحطلا بطالا يد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند وجوهه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس بما يطعم فيه بمدة قرية أو حسيته أن مناصب الفقهاء تتال من غير تفقه اعتياداً على كرم الله سبحانه وأعمال ! ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلاء فلعل اليوم آخر عمرك فلم تشغلن فيه بذلك ؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شيطانك لما فيها من الثعب والمشفقة ؟ أفنتظرن يوماً يأتيك لا تأسر فيه بخالة الثروات ؟ هذا يوم لم يخلفه الله قط ولا يخلقه ؟ فلا تكون الجنة قط إلا عذوبة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهذا حال وجوده ، أما تأملين مذكم تمدن نفسك وتحولين : غداً ! فقد جاء الند وصار يوماً فكيف وجدته ؟ أما علمت أن الله الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأرض لابل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غداً عجز وأعجز ! لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالع ضعفاً وهواناً ، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب ، بل من العناء وباحثة الحرمان التعذيب تهذيب الذيب . والقضيب الرطب يقبل الاخناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك ، فإذا كنت أيها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ .

ولعلك تقولين ما بمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات وفلة صبري على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأفجع اعتذارك ! إن كنت صادقة في ذلك فأطلي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات المأنة ! أبدأ الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فألظري لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكالات . وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك المساء البارد ثلاثة أيام ليصبح وجهها بشربة طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة ؟ أصبر ثلاثة أيام ليتقم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام ؟ حتى يلزمه ألم المخالفة لثلاثة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طال مدته . ولست شرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة وألم النار في دركات جهنم من لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟ ما أراك تتراين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحن جلي . أما الكفر الخفي : فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحق الجلي : فأعتادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مسكره واستدراج واستغفائه عن عبادته . مع أنك لا تعتمد على كرمه في لقمة من الخبز أوجهة من المال أو كلفة واحدة تسمعنيها

من الخلق ، بل تصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل - وهذا الجهل تستحق لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان .

وبك يا نفس لا ينبغي أن تفترق الحياة الدنيا ولا يفترق بالله الغرور فانظري لنفسك فما أمرك بهم لنترك ولا تنصبي أوقاتك فالأنفاس معدودة ؛ فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك ، فأغتنمي الصحة قبل السقم والغراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستمدي الآخرة على قدر بقائك فيها ، يا نفس أما تستعدين للشقاء بقدر طول مدته ؛ فتجتمعين له القوت والكسوة والمطبخ وجميع الأسباب ، ولا تتكلمي في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك ، أفنتظني أينما النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟ كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة ؟ أفنتظني أن العبد ينجو منها بغير سعي هيئات 1 كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والثار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبرد الماء إلا بعص التبريد وخنق الطاعات وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا في أن يدفع عنك العذاب دون حصنه ، كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق الثار وهذاك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تذهب بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالفك ومولاك وإنما تشتريه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعتك وبجاءماتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاةك فمن أحسن لنفسه ومن أساء فعلها والله غنى عن العالمين . وبك يا نفس اتري من جهلك وقيس آخرتك بدينك (فاخلقكم ولا يشكم إلا كفوس واحدة) و (كما بدأنا أول خلق نعيده) و (كما بدأكم تعودون) وسنة الله تعالى لا تجدن لها تبديلا ولا تحويلا . وبك يا نفس ما أراك إلا ألقت الدنيا وأنست بها فعرس عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مفارقتها وتؤكد في نفسك مؤدتها ، فأحس أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت للفرق بينك وبين عابك ، أفتري أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر قد بصره إلى وجه ماليب يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لاعانة إلى مفارقتها أو معدود من العقلاء أم من الحق ؟ أما تلبين أن الدنيا دار لملك الملوك وماك فيها لإبجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنك مفارقة واعل ماشئت فإنك مجزى به وعش ماشئت فإنك ميت ^(١) . وبك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه وإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم للهلاك وهو لا يدري ؟ أو ما تظنن إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلموا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أوردت الله أرضهم وديارهم أعلامهم أما تزيههم كيف يجمعون ما لا يكون ريبتون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون : ينبغي كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقبرة قبر مغفور تحت الأرض فهل في الدنيا حق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مترحل عنها يقينا ويغرب آخرته وهو صائر إليها قطعا . أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحق على حاققتهم ، واحسب أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تيملين بالطبع إلى التشبه والافتداء فقيسي عقل الانبياء والعلماء

(١) حديث « إن روح القدس نفث في روعي أحب من من أحببت فإنك مفارقة ... الحديث » تقدم في العلم وغيره .

والحكمة. بعقل هؤلاء المتكئين على الدنيا واقتدى من الفريقين بمن هو أعدل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء. يا نفس ما أعجب أمرك وأشدّ جَهْلَكَ وأظهر طغيانك، عجباً لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ! ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدمشك عن فهمها، أو ما تتفكرين أنجاه لامننى له لإلأميل القلوب من بعض الناس إليك، فأحسب أن كل من على وجه الأرض يحب لك وأطاعك. أفأ تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا أحد من على وجه الأرض من عبدك ومجدك، وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فـ (عجل تحص منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى ؟ هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف وبأى إديارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أسرارك فضلا عن محلتك ؟ فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فالك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها ونزها عن كدرة عتائبها وترقياً من سرعة فنائها ؟ أم مالك لا ترهدين في قليلها بعد أن زهدت فيك كبيرها وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويريدون عليك في تغميها وزينتها، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء ! فإ أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكونى في زمرة المفترين من التبيين والمصدقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكونى في صف الثعالب من جملة الحق الجاهلين أياماً قلائل فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ! فبادرى وبجلك يا نفس فقد أثمرت على الهلاك وأقربت للموت وورد النذير فمن ذا يصلح منك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يقرضك عنك بعد الموت . وبجلك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن أجمرت فيها وقد ضيعت أكثرها، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكننت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟ أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشه والودود أئيبك والفرع الأكبر بين يديك ؟ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالإيمان المخلطة أنهم لا يبرحون من مكائهم ما لم يأخذوك معهم ؟ أما تعلمين يا نفس أنهم يمتنون الرحمة إلى الدنيا يوماً ليستفلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بمذاخيرها لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضييعين أيامك في التفة والبطالة ؟ وبجلك يا نفس أما تستحيين زينتين ظاهرك الخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم أنتستحين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ وبجلك أمو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطفة بالذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فائزة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يا نفس أن المذنب أئمن من العذرة وأن العذرة لا تظهر غيرها فلم تطعمين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ؟ وبجلك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيهم بل لا إلا بشؤمك ! وبجلك يا نفس قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك، ومع هذا فتستحين بمملك وفيه من الآفات ما لو نجت منه وأسا برأس لكان الرجز في يديك، وكيف تستحين بمملك مع كثرة خطاياك وزلللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائى ألف سنة، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ؟ وبجلك يا نفس ما أعندرك وبجلك يا نفس ما أوقحك وبجلك يا نفس ما أجهلك وما أجراك على المماضى ! وبجلك كم تقدين فتفتنين وبجلك كم تمهدين فتفترين وبجلك يا نفس أنتستلين مع هذه الخطايا بجماعة دنياك كأنك غير

مرحلة عنها ؟ أما تتظنن إلى أهل القبور كيف كانوا جموا كثيرا وبنا مشيدا وأملوا بيدا فأصبح معهم يورا
وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا ؟ ويمك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أنظفهم أنهم دعوا إلى الآخرة
وأنت من المفلذين ؟ هيات هيات ساء ما تترهين ! أما أنت إلا في هدم عرك منذ سقطت من بطن أمك فاني على
وجه الأرض قصرك فإن بطنا عن قليل يكون قبرك ! أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقق أن تبدو رسل
ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالمناب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن
أو يرحم منك البكاء ؟ والعجب بكل العجب ذلك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفضيلة ومن فطنك أنك
تفرجين كل يوم بزيادة مالك ولا تخزين بقصص عرك ! وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ ويمك يا نفس تعرضين
عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ! فكمن من مستقبل يوما لا يشككه وحكم من
مؤمل لعد لا يبلغه فانت تشامدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحصرهم عند الموت ثم لا ترجمين
عن جهالتك ؟ فأحذري أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى
يسأله عن عمله دقيقة وجليته سره وعلايته فأنظري يا نفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدى
السؤال جوابا والجواب صوابا واعلمي بقية عرك في أيام قصار لا يام طوال وفي دار زوال لدار إقامة وفي دار
حزن ونفس لدار نعيم وخلود ، اعلمي قبل أن لا تعمل اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن
تخرجي منها على الإحطار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا قرب مسرور مغبور ورب مغبور
لا يشر ، فويل لمن له الزيل ثم لا يشر ، يضحك ويفرح ويلو ويهرج ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله
أنه من وقود النار ، فليكن لظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرازا ورفضك لها اختيارا وطلبك
للآخرة ابتدارا ، ولا تمكفي من يمس عن شكر مألوق ، ويبغى الزيادة فباقى ، وينهى الناس ولا يتبى ، واعلمي
يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت عطية الليل والنهار فإنه يسار به
وإن لم يسر . فأنظري يا نفس بهذه الموعظة وأقبل هذه النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار
وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة راضية ، فإن كانت التساوة تمتلك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام
التهجد والقيام ، فإن لم تزل في المواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فيقة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فيصلة الأرحام
والطيف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقبل عليه ، وأنه قد رآك ظلة الدروب على
ظاهره وباطنه ، فوطئ نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر
لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فأنظري من نفسك - والتوسط كبيرة من الكبائر فمؤذ باقة من ذلك -
فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع السداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء ،
فأنظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك
فإن سمحت - فستق الدمع من بحر الرحمة - فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على التياحة والبكاء واستعيني بأرحم
الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدنى الاستغاثة ولا تحلى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويفتشك ،
فإن مصيبتك قد عظمت وبيبتك قد تفافت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك الملل ،
فلا مذمب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولانا فاقضي إليه بالتضرع واخضعي في
تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيب الطالب المتلهف ويحيب دعوة

المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمة محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانفسدت عليك الطرق وانقطعت منك الخيل ولم تتجع فيك العظام ولم يكسر ك التوبخ ، فالمطلوب منه كريم والمشول جواد والمستغاث به يز رموى والرحمة واسعة والكرم فائض والمنع شامل وقول يا أرحم الراحمين يارحم يارحم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المضر أنا الجريء الذى لا أفلح أنا المتأذى الذى لا أستحق هذا مقام للمتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الخفير والمالهك الغريق فبجل لإغاثى وفرجى وأرى آثار رحمتك وأذقنى برد عفوكم ومغفرتكم وارزقنى قوة عظمتك يا أرحم الراحمين . اقتداء بأبيك آدم عليه السلام ؛ فقد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترفأ له دمة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ما هذا الجهد الذى أرى بك ؟ قال : يا رب عظمت مصيبتى وأحاطت بى خطيئى وأخرجت من ملكوت ربى فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة وفى دار الشقاء بعد السعادة وفى دار النصب بعد الراحة وفى دار البلاد بعد العافية وفى دار الزوال بعد القرار وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لا أبكى على خطيئى ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ألم أصف لك نفسك وأحلت لك عذارى وخصصتك بكبرامتى وحذرتك سخطى ، ألم أخلقك يدي وفنخت فيك من روحي وأجودت لك ملائكتى فقصيت أمرى ونسيت عهدي وتعرضت لسخطى فوعزنى وجلال لو ملأت الأرض رجلا كلهم مثلك يعبدونى ويسبحوننى ثم عصونى لأنزلهم منازل العاصين . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثة عام . وكان عيد الله الجلى كبر البكاء يقول فى بكائه طول ليله : إلهى أنا الذى كلما طال عمري زادت ذنوبى أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى وأعيداه خطيئة لم تبلى وصاحبها فى طلب أخرى وأعيداه إن كانت النار لك مقبلا وماوى ؛ وأعيداه إن كانت المقامع لأرأسك تيبأ ؛ وأعيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل ساجدك لا تقضى . وقال منصور بن عمار : سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابدا يناجى ربه وهو يقول يا رب وعزتك ما أريد بمصيبتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمسكانك جاهل ولا لعونتك متمرض ولا لنظرك مستخف ولكن سؤلت لى نفسى وأعانى على ذلك شفقى وغر فى سترك للرخى على فمصيبتك بجھلى وعالفتك بفعل ؛ فمن عذابك الآن من يستغنى أو يجبل من أعصم إن قطعت جيلك عنى ؟ واسألتهم من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للثقلين حلوا أمع المخفين أجوز أم مع الثقلين أحط ؟ وبلى كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى وبلى كلما طال عمري كثرت معاصى فإلى من أتوب وإلى من أعوذ ؟ أما أن لى أن أستحيى من ربى .

فهذه طرق التوبى فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاستعارة فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعىا ويوشك أن لا يكون ناكه تعالى عنه راضيا والسلام ثم كتاب المحاسبة والمراقبة . يتلوه كتاب التفسر إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

كتاب التفكير

وهو الكتاب التاسع من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يقدر لاتباه عزه تحولا ولا ظمرا ، ولم يجعل لمراف أقدام الأوهام ومرى سهام الإلهام إلى حمى عظمته مجزى ، بل ترك قلوب الطالبين في يدهاء كبريائه والهة حيرى ، كلما اهتوت لنيل مطلوبها وذهت بسجحات الجلال فسرا ، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ، ثم قيل لها أجيل في ذل العبودية منك فكرا لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدرى له قدرا ، وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك أمرا فانظري في نعم الله تعالى وأباديه كيف تواتت عليك تترى ، وجئدى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا ، وتأمل في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ، ونفعا وضرا ، وعسرا ويسرا ، وفوزا وخسرا ، وجبرا وكسرا ، وطيا ونفرا ، وإيمانا وكفرا ، وعرفانا ونكرا ، فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمرا إسمرا ، وغاظرت بنفسك بمادزة حد ظفافة البشر ظلما وجورا ، فقد انبهرت العقول دون مبادئ إشرافه وانتكصت على أعقابها اضطرابا وقهرا ، والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يمد سيادته ظمرا ، صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عذة وذخرا ، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة »^(١) ، وكثر الحديث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ، ولا ينبغي أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيد المعارف والفهوم ، وأكثر الناس قد عرفوا فضله وركبته لكن جهلوا حقيقته ونمته ومصدره ومورده وعجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لبيته أم ثمرة تستفاد منه ؟ فإن كان ثمرة فما تلك الثمرة أي من العلوم أو من الأحوال أو منهاجيمها ؟ وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكير . ثم حقيقة التفكير ونمته . ثم مجارى الفكر ومساوحه . إن شاء الله تعالى .

فضيلة التفكير

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا) وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « تفكروا في

كتاب الفكر

(١) حديث « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » أخرجه ابن حبان في كتاب القطعة من حديث أبي هريرة بلفظ ستين سنة بإسناد ضيف ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أسباط بلفظ « فمابين سنة » وإسناد ضيف جدا ورواه أبو العيص من قول ابن عباس بلفظ « خير من قيام ليلة » .

خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره ^(١) ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال : ما لكم لا تكلمون ؟ فقالوا : نتفكر في خلق الله عز وجل قال : فكذلك فاعملوا ، تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه فلأن هذا المغرب أرضا يضاء نورها ياضها ريارضها نورها ، مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يصعوا الله طرفة عين ، قالوا : يا رسول الله فإن الشيطان منهم ؟ قاله ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا : من ولد آدم ؟ قاله لا يدرون خلق آدم أم لا ^(٢) ، وعن عطاء قال : انطلقت يوما وأنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتا وبينتا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ما عندك من زيارتنا ؟ قال : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : زرغباً تزد جبا ، قال ابن عمير : فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبكيت وقالت كل أمره كان عجبا ، أنا في ليلى حتى مس جلده جلدي ثم قال : ذرني أتعبد لربي عز وجل ، فقام إلى القربة فترصا منها ثم قام يصلي فبسكى حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلوة الصبح ، فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : ويحك يا بلال وما يعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى على في هذه الليلة (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار) ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ^(٣) ، فقيل للأوزاعي ما غاية التفكر فبهن قال يقرؤون ويعملون . وعن عدي بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر - بعد موت أبي ذر - فسالها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال الفكر مرآة ترىك حسناتك وسيئاتك . وقيل لإبراهيم إنك تطيل الفكرة ، فقال الفكرة مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يمثل بقول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة فف كل شيء له عيرة

وعن طلوس قال قال الحواريون ليعيسى بن مريم : يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم ، من كان منطق ذكرا وصحته فكرا ونظرة عبدة فإنه مثلي . وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوتة تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لغو ، وفي قوله تعالى (سأصرفن آياتي الذين يشكرون في الأرض بغير الحق) قال أمنع قلوبهم التفكر في أمري . وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطوا أعينكم حظها من العبادة ، فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : النظر في المصنف والتفكير فيه والاعتبار عند مجاميعه ^(٤) ، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت لو قطعت قلوب التفتين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب النيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تتوهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده ، فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو

(١) حديث ابن عباس : أن نوما تفكروا في الله عز وجل فقال الله صلى الله عليه وسلم : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره . أخرجه أبو نعيم في الحلية بالرفوع عنه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في التزيين والترتيب من وجه أكثر أصح منه . ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الزيادة بن ثعلبة بن عمرو . (٢) حديث : خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال : ما ليكم لا تكلمون ؟ فقالوا : تفكروا في خلق الله ... الحديث . ورواه في جزء من حديث عبد الله بن سلام . (٣) حديث عطاء : انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث ... قال ابن عمير : فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث في نزول (لن في خلق السموات والأرض) وقال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، تهم في الصبر والفكر وأه في صبيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء . (٤) حديث أبي سعيد الخدري : أعطوا أعينكم حظها من العبادة ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الغنية بإسناد ضعيف .

جلس مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان : إن طول الوحدة أفهم الفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرئ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادات . وقال عبد الله بن المبارك يوما لسهل بن علي ووالده ساكنا متفكرا : أين بلغت ؟ قال : الصراط . وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله ما عضوا الله عز وجل . وعن ابن عباس : ركتان مقصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب . وينا أبو شريح يمشي إذ جلس فتفتت بكأسه لجليل يبي قليل له : ما يبيك ؟ قال : تفكرت في ذهاب حمري وقلة حملي واتقرب أجلي . وقال أبو سليمان : عزودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكير . وقال أبو سليمان : الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وصقبة لأهل الولاية ، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب ، وقال حاتم : من العبدة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكير في الخير يدعو إلى العمل به ، والتدبر على الشر يدعو إلى تركه . ويروي أن الله تعالى قال في بعض كتبه : إني لست أفيل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فإذا كان همه وهواه لي جعلت سمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن : إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنفقوا قلوبهم فنفقت بالحكمة . وقال إسحاق بن خلف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قراء ، فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبي حتى وقع في حماره ، قال فوب صاحب الدار من فراشه عريانا ويده سيف وظن أنه لص ، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال ، من ذا الذي ملحك من السطح ؟ قال ما شمرت بذلك . وقال الجنيذ أشرف المجالس وأعلامها المجلس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسيم بنفس المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بصن الظن في عز وجل ، ثم قال يا لها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذ طوي لمن رزقه . وقال الشافعي رحمه الله تعالى استنبوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالتفكير . وقال أيضا صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور ، والعزم في الرأي سلامة من التريبط والتدبر ، والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم . وقال أيضا الفضائل أربع (إحداها) الحكمة وقوامها الفكرة . (والثانية) العفة وقوامها في الشهوة . (والثالثة) القوة وقوامها في النضب ، (والرابعة) العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس . فهذه أفاويل الملاءم في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى الحاجة وآثر الحياة الدنيا وإراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإتيار من الحاجة فله طريقتان (أحدهما) أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإتيار من الدنيا ، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيقبل بصدقه إلى إتيار الآخرة اعتقادا على مجرد قوله ، وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة . (والطريق الثاني) أن يعرف أن الآخرة أولى بالإتيار ، ثم يعرف أن الآخرة أبقى . فيحصل له من مائتين للمعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإتيار ، ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإتيار إلا بالمعرفتين السابقتين .

فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للوصول به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا

وتأمل وتدبر . أما التدبر والتأمل والتفكير : فمباراة مترادفة على معنى واحد ليس بينها معان مختلفة . وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر : فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحد ؛ كما أن اسم : الصارم ، والمهند ، والسيف ؛ يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة . فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع ، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشاره بهذه الروايد .

فكذلك الاعتبار : ينطلق على إحصار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة ، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم : التذكر ، لا اسم : الاعتبار . وأما النظر والتفكير : فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة ، فن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا ، فكل متفكر فهو متذكر ، وليس كل متذكر متفكرا . وقائدة التذكار تكرر المعارف على القلب لترسخ ولا تسمى عن القلب . وقائدة التفكير : تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة . فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكير .

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت في القلب على ترتيب مخصوص أثرت معرفة أخرى ، فالمعرفة تناج المعرفة . فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتبادى النتاج ويتبادى العلوم ويتبادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تزداد طرق زيادة المعارف بالموت . أو بالعوائق وهذا من يقدر على استتار علومه ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فلمعما ممنوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم ، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح ، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا ، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استثمارها وتأييدها وإيقاع الازدواج المفيد إلى النتاج فيها .

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين - وذلك عزيز جدا - وقد تكون بالنظم والممارسة وهو الأكثر . ثم المتفكر قد تنحصر هذه المعارف وتحصل له الفكرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإرادة . فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإتيار علما حقيقيا ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إبداءه والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين : وهو أن الآتي أول بالإتيار وأن الآخرة آتية من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإتيار ، فرجع حاصل حقيقة التفكير إلى إحصار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة .

وأما ثمرة الفكر : فهي العلوم والأحوال والأعمال ، ولكن ثمرته الخاصة . العلم ، لا غير . نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح . فالعلم تابع الحال ، والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر . فالفكر إذن هو المبدأ والفتاح للخيرات كلها ، وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكير وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة . وذكر القلب غير من عمل الجوارح ، بل شرف العمل لما فيه من الذكر . فإذا ن التفكير أفضل من جملة الأعمال . ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، فقيل هو الذي ينقل من المسكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى ، ولذلك قال تعالى (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) ولئن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فأناله ما ذكرناه من أمر الآخرة ، فلئن الفكر ينقذنا من الآخرة أولى بالإتيار ، فإذا رخصت هذه المعرفة يقينا

في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا . وهذا ما عنيته بالحال ، إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة وللليل إليها ، والثفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها .

وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته . ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في اطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة . فهنا خمس درجات : (أولاها) التذكر وهو إحصار المرفعتين في القلب . (وثانيها) التفكير وهو طلب المعرفة المقصودة منهما . (والثالث) حصول المعرفة المطلوبة واستقارة القلب بها . (والرابعة) تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . (والخامسة) خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال .

فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستغنى بها الموضع قصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنهض الأعضاء للعمل ، فكذلك زاد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المرفعتين كما يجمع بين الحجر والحديد ، ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا ، فيلمت نور المعرفة كما تلمت النار من الحديد ، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه . ثم تنهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره . فإذن ثمرة الفكر : العلوم والأحوال ، والعلوم لا نهاية لها ، والأحوال التي تتصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها . ولهذا لو أراد مرشد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيأذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية . فم نحن نحسب في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ، ويكون ذلك ضبطا جليا فلن تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها ، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها ، فأنها مشتملة على علوم ، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة . فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

بيان مجارى الفكر

اعلم أن الفكر قد يجرى في أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين ، وإما غرضنا ما يتعلق بالدين فلتترك القسم الآخر . ولنفي بالدين للمعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى ؛ لجميع أفكار العبد ؛ إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبد وصفاته وأفعاله ؛ لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين . وما يتعلق بالعبد ؛ إما أن يكون نظرا فيها هو محبوب عند الرب تعالى ، أو فيها هو مكروه ، ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين . وما يتعلق بالرب تعالى ؛ إما أن يكون نظرا في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإما أن يكون في أفعاله وملكوته وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما .

ونكتشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال ، وهو أن حال السائر إلى الله تعالى وللشائقين إلى لقاءه يتعلق بمشوقه أو يتعلق بنفسه .

فلن تفكر في مشوقه ؛ فلما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليقوم بالفكر فيه وبمشاهدته ، وإما أن يتفكر في أفعاله الطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضغفا للذة ومقويا لمحبه .

وإن تفكر في نفسه ؛ فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتوزع عنها ، أو في الصفات التي تحزه منه وتعيه إليه حتى يتصف بها .

فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حدّ العشق ، وهو نقصان فيه ، لأن العشق التام الكامل ؛ ما يستغرق الماشق ويستغرق القلب حتى لا يترك فيه منفساً لغيره . فحب الله تعالى يبني أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره بحبوه . ومهما كان تفكره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مقتضى المحبة أصلاً . فليبدأ بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليعز المحبوب منها عن المكروه ، فإن هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو المقصود بهذا الكتاب ، وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكافحة .

ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر ، كالطاعات والمعاصي . وإلى باطن ، كالصفات النجيات والمهلكات التي عليها القلب - وذكرنا تفصيلها في ربيع المهلكات والنجيات .

والمعاصي : تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السيمة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن ، كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام . ويجب في كل واحد من المكروهات التفكير في ثلاثة أمور (الأول) التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فرب شيء لا يظهر كونه مكروهاً بل يدرك بدقيق النظر (والثاني) التفكير في أنه إن كان مكروهاً فما طريق الاحتراز عنه ؟ (والثالث) أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متموض له في الاستقبال فيحترز عنه ؟ أو قارنه فيما معنى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه ؟ وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر في الأقسام على مائة ، والعدد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها . وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع : الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات النجيات . فذكر في كل نوع مثالا ليقين به المراد سائرهما ويفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه .

(الترتيب الأول : المعاصي) يبني أن يغتنق الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السيمة تفصيلاً ، ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها ؟ أو لا يبسها بالأس فيتداركها بالنزك والندم ؟ أو هو متموض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها ؟

فينظر في اللسان ويقول إنه متموض للنبيه والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالفقر والمباراة والممازحة والخوض فيما لا يبيح ، إلى غير ذلك من المكروه ، فيقتر أولاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتموض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه . ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالمرة والانفراد ، أو بأن لا يجالس إلا صالحاً تقياً ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ، وإلا فيضج حجراً في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكراً له ؛ فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز .

ويتفكر في سمه يصنى به إلى التوبة والكذب وفضول الكلام وإلى القهر والبذعة ، وأن ذلك إنما يسممه من زيد وعمره ، وأنه يبني أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المتكبر .

فهما كان ذلك فيتنكر في بطنه ؛ أنه إنما ينص الله تعالى فيه بالأكل والشرب ، إما بكثرة الأكل من الحلال

فإن ذلك مكروه عند الله ومقوى الشريعة التي هي سلاح الشيطان عدو الله ، وإما بأكل الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه ؟ ويتفكر في طريق الحلال ومداخله . ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائفة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها ، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام^(١) كما ورد الخبر به . فهكذا يتفكر في أعضائه في هذا القدر كفاية عن الاستصاء . فهما حصل بالتفكير حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها .

وأما النوع الثاني : وهو الطاعات فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرصها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة التوافل ؟ ثم يرجع إلى عضو عضو ، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً :

إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنتظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لأفعله ؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لأفعله ؟

وكذلك يقول في سمعه : إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراة ذكر ، فأل أعطله وقد أنعم الله علي به وأودعني لأشكره ؟ فأل أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله ؟ وكذلك يتفكر في اللسان ويقول : إني قادر على أن أقرب إلى الله تعالى بالتعلم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمره العالم بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة .

وكذلك يتفكر في ماله فيقول : أنا قادر على أن أقصدق بالمال الغلاني فأني مستغن عنه ، ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجاً الآن فأما إلى ثواب الإيتار أحوج مني إلى ذلك المال . وهكذا يفكر عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله ، بل عن دوابه وغلبانه وأولاده ، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ، فيستليط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر فيما يرغب في البدار إلى تلك الطاعات ، ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يركو بها عمله وقسم على هذا سائر الطاعات .

(وأما النوع الثالث : فهي الصفات المملوكة التي عليها القلب) فيعرفها مما ذكرناه في ربيع المملكات : وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والمحب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والفروغ وغير ذلك ، ويتفقد من قلبه هذه الصفات : فإن ظن أن قلبه مزده عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستنباط بالعلامات عليه ، فإن النفس أبداً تعد بالخير من نفسها وتختلف ، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فيلبي أن تجرب بعمل حرمة طلب في السوق ، كما كان الأولون يجربون به أنفسهم . وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كل المنيظ وكذلك في سائر الصفات . وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ؟ ولذلك علامات ذكرناها

(١) حديث « إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثوبه درهم حرام » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم .

في ربح المهلكات، فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة ونحو ذلك.

كأول رأى في نفسه عجباً بالعمل، فيتفكر ويقول: إنما عمل يدي وبجرحي وقدرتي وإرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا إلى وإنما هو من خلق الله وفضله على، فهو الذي خلقني وخلق جرحي وخلق قدرتي وإرادتي، وهو الذي حرك أعصاني بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم انفسى بنفسى؟ فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماة ويقول لها: لم ترين نفسك أكبر؟ والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت، وكمن كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكمن مسلم يموت شقياً يثبتر حاله عند الموت بسوء الحماة؟

فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والرفاق كاللأن ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالمسلم والقادرة، ولما انصف به البهائم، ومهما كان الشرع عليه أغلب كان بالبهائم أعبه وعن الملائكة المتقين أبعد. وكذلك يقرر على نفسه في الغضب، ثم يتفكر في طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب. فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب.

(وأما النوع الرابع: وهو المشجيات) فهو التوبة، والتندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف، والرجاء، والإزهد في الدنيا، والإخلاص، والصدق في الطاعات، ومحبة الله وتظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له. وكل ذلك ذكرناه في هذا الريب وذكرنا أسبابه وعلاماته. فليتفكر البعيد كل يوم في قلبه ما الذي يعزوه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى؟ فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يشرها إلا علوم، وأن العلوم لا يشرها إلا أفكار. فإذا أراد أن يتكسب لنفسه أحوال التوبة والتندم: فليفتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظّمها في قلبه. ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى، حتى ينجس له حال التندم. وإذا أراد أن يستبشر من قلبه حال الشكر فليفتش في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه. على ما شرعنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك. وإذا أراد حال المحبة والشوق: فليتفكر في جلال الله وجهه وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكته وبدائع صنعه. كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر. وإذا أراد حال الخوف: فليفتش أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته، ثم فيها يهدم من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقابه ودينه، ثم في هول التداء عند نفخة الصور، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب في التقدير والتعظيم، ثم في الصراط ودفنه وحجته. ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشياطين فيكون من أصحاب النار، أو يصرف إلى الجن فينزل دار القرار، ثم ليحضر بعد أحوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركتها ومقامها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقوفها وصددها، وأنواع العذاب فيها ويحضر صور الزبانية للوكلين بها، وأنهم كلما نهضت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها. وأنهم كلما أرادوا أن ينجسوا منها أعيدها فيها، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تنغيظاً وزفيراً ولم يجروا، إلى جميع ما ورد في القرآن من مفرحها. وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء: فليفتش في الجنة ونعيمها وأشجارها وأهوارها وحورها وولائها ونعيمها والقيم وملكتها الدائم.

فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي ثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة . وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر ، أما يذكر مجاميعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالفكر ، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين ، وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة واليقين وسائر الأحوال ، وفيه ما يرجع عن سائر الصفات المذمومة ، فينبغي أن يقرأه العبد ويورد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولومائة مرة . لقراءة آية يتفكر وفهم خير من خشنة بغير تدبر وفهم ، فليتوقف في التأمل فيها ولولية واحدة ، فإن تحتم كل كلمة منها أسراراً لا تحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة . وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتي جوامع الكلم ^(١) وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم يتقطع فيها نظره طول عمره . وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فأنظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : إن روح القدس نفث في روعي : أجب من أحببت فإنك مغارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي به ^(٢) ، فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهي كافية للمؤمنين فيها طول العمر ، إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستخرجتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلذذ إلى الدنيا بالكلفة .

فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي مجربة عند الله تعالى أو مسكوة . والمبتدئ ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة ويترجم باطنه وظاهره عن المكره ، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر المبادات فليس هو له غاية المطلب ، بل المشغول به معجوب عن مطلب الصديقين وهو التتميم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يقين عن نفسه ، أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرقاً لهم بالخيوب ؛ كالماشوق المشتهر عندنا ، الجيب فإنه لا يتفزع للنظر في أحوال نفسه وأوصافها ، بل يبقى كالمهتوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة التشايق .

فأما ما ذكرناه فهو تفكير في عبارة الباطن ليصلح لقرب والوصال ، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فتنى يتنعم بالقرب ؟ ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقية الحسين بن منصور وقال : فم أنت ؟ قال : أدور في البوادي أصلح حال في التوكل ، فقال الحسين : أفريت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد ؟ فالنظام في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعم الصديقين . وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجزي مجرى الخروج عن العدة في النكاح . وأما الانصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجزي مجرى تهيئة المرأة وجهها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك لقاء زوجها ؛ فإن استغرقت جميع عمرها في تهيئة الرمح وزين الوجه كان ذلك حجاباً لها عن لقاء المحبوب .

فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة ، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفاً من الضرب وطعناً في الاجرة فتدبرك وإن تاب البدن بالأعمال الظاهرة ، فإن يترك وبين القلب حجاباً كثيفاً ، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل اللجنة ولكن للمجالسة أنوم آخرون . وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن يتخذ ذلك عادتك ودينتك صباحاً ومساءً ، فلا تنقل عن نفسك وعن صفاتك المبهمة من الله تعالى وأحوالك المتزينة إليه سبحانه وتعالى . بل كل مزيد فينبغي أن يكون له بمريدة يثبت فيها

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم . تقدم .

(٢) حديث : « لن روح القدس نفث في روعي : أجب من أحببت فإنك مغارقه ... الحديث » تقدم فيه مرة .

جدة الصفات المهلكات وجدة الصفات النجيات وجدة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم .

وبكيفية من المهلكات النظر في عشرة - فإنه إن سلم منها سلم من غيرها - وهي : البخل ، والكبر ، والمجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشدة الطعام ، وشدة الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن النجيات عشرة : التدم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف الرجاء ، والزهدي في الدنيا ، والإخلاص في الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له .

فهذه عشرون خصلة ؛ عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة فهما كفي من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ، وبدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على نحو أقل الرذائل عن نفسه ، فيقبل على التسعة الباقية ، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالانصاف بالنجيات ؛ فإذا انصف بواحدة منها كالتوب والتقدم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المرء المفسر .

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يشبوا في جرائمهم المعاصي الطاهرة ؛ كأكل الشبهة ، وإطلاق اللسان بالذم والفتنة والمراء ، والتناء على النفس ، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاتة الأولياء والمعاداة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه ، وما لم يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بمعارضة القلب وتطهيره . بل كل فريق من الناس ينسب عليهم نوع من المصيبة فينبغي أن يكون تقدم لها وتفكرهم فيها لا في معاصمهم بمزول عنها . مثاله : العالم الروع ، فإنه لا يغلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالمعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ ، ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون ، فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع ، وذلك من المهلكات . وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفه وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره ، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول : إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره ، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مفرور وجهك للشيطان ، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالتناء واستسكان من الرد أو الإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد ، حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين ، والشيطان قد يلبس عليه ويقول : إنه حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب لإعلاء الدين الله . فلن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بشناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع ، وإنما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ١ ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون للفرق له المعتدل لفضله أكثر احتراما ويكون بقلائه أشد فرحا واستنشارا من يغلو في موالاته غيره وإن كان ذلك التبرير مستحقا للموالاتة ، وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتنايروا فتاير النساء ، فيفتق على أحدم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه ينتفع بشيئه ومستفيد منه في دينه . وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكة في سر القلب التي قد يظن العالم الجاهة منها وهو مفرور فيها ، وإنما يتكشف ذلك بهذه الملامات ، فتنة العالم عظمية وهو إما مالك وإما هالك ، ولا مطيع له في سلامة العوام .

فن أحسن في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه المراجعة والانفراد وطلب الخير والمدافعة للفتاوى مهما سئل .

فقد كان المسجد يحوى في زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم جميعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتونون ، وكأوا يتدافعون القترى . وكل من كان يقضى كان يرد أن يكفيه غيره . وعندهذا ينبغي أن يتقن شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا ، فإن هذا الباب لو فتح لاندست العلوم من بين الحقائق ، وليلقى لهم : إن دين الإسلام مستغن عنى ، فإنه قد كان معمورا قبل وكذلك يكون الهدى ، ولومت لاتبهم أركان الإسلام فإن الدين مستغن عنى ، وأما أنا فليست مستغنيا عن إصلاح قلبى . وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم غيالى بدل على غاية الجهل ، فإن الناس لو حوسبوا في السجن وقيدوا بالقيود وترعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والموت يحلمهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم . قالتم لا يندرس مادام الشيطان يحجب إلى الحقائق الرياسة ، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة . بل ينتهض لنشر العلم أقوام لانصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ^(١) » ، و « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ^(٢) » ، فلا ينبغي أن يفتر العالم بهذه التليسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يقرب في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك يذر التفاف . قال صلى الله عليه وسلم : « حب الجاه والمال ينبت التفاف في القلب كما ينبت الساء البقل ^(٣) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ذبيان ضاربان أرسلتا في زريبة غنم بأكثر إفساد فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم ^(٤) » ، ولا يتقطع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والحرب من غائلتهم وترك كل ما يزيد جماعه في قلوبهم .

فليكن فكر العالم في التفتن لحفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتق . فأما أمثالا فينبغي أن يكون تفكيرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب ، إذ لو أننا السلف الصالحون لقاروا قطعا : إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب ، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار ؟ فإن من عاف شيئا حرب منه ومن رجا شيئا طلبه : وقد علمنا أن الحرب من النار بترك الشهوات والحرام وبرك المأص ، ونحن منهكون فيها ، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها . فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتسالك عليها ، ويقال : لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا . فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا . فما أعظم الفتنة التي نعرضنا لها لو تفكرنا . فسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ووفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا النعم علينا .

فهذه مجارى أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة ، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظمته والتعظيم بمشاهدته بعين القلب ، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات ، وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا منكورا مقطوعا ، وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ، ويكون كالماشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه - حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتقتصص عليه لذة المشاهدة ، ولا طريق له في كمال التمتع إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه . وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات ، وفي القبر يزيد ألم لدغها على

(١) حديث « لن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » تقدم . (٢) حديث « لن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »

تقدم أيضا في العلم . (٣) حديث « حب المال والجاه ينبت التفاف في القلب » . الحديث « تقدم .

(٤) حديث « ما ذبيان جائران أرسلتا في زريبة غنم ... الحديث » تقدم .

لبغ المقارب والحيات . فهذا القدر كاف في التنبيه على مجارى فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكرهه عنه وبه تعالى .

(القسم الثانى) الفكر في جلال الله وعظمته وكبرياته . وفيه مقامان : المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعانى أسمائه ، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله ، وذلك لأنَّ العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه - إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر . بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافه إلى جلال الله تعالى كحال بصر الحفائش بالإضافه إلى نور الشمس ، فإنه لا يطيقه ألبتة ، بل يقتضى نهارة وإنما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض . وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ، ويخشى على بصره لو أدام النظر ، وفطره المختطف إليها يورث المشى ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والذهش واضطراب العقل ، فالصواب إذن أن لا يتوهم مجارى الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته ، فإنَّ أكثر العقول لا تحتمله ، بل القدر اليسير الذى يرحم به بعض العلماء وهو : أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هم متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ؛ قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطبقوا سماعه ومعرفته . بل ضعف طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم : إنه يتماظم ويتماثل عن أن يكون له رأس ورجل ويدوعين وعضو ، وأن يكون جسماً مشخفاً له مقدار وحجم . وأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدس في عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحق من العوام : إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف للإله ! لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء . وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه ، فشكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه : نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره ، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله - تعالى وتقدس - حتى يفهم العظمة . بل لو كان للذهاب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال : كيف يكون خالق ناقص منى ؟ أفيمكن مقصود الجناح أو يكون زمناً لا يقدر على الطيران ؟ أو يكون لى آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالق ومصورى ؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وإن الإنسان لجهول ظلم كفار ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تغرب عبادى بصفاق فيفكرونى ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون .

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرح وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجارى الفكر فيه ، لكننا نمدل إلى المقام الثانى وهو النظر في أفعاله ومجارى قدره ومجائب صنمه وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل على جلالة وكبريائه وتقدس وتعالى ، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته . فينظر إلى صفاته من آثار صفاته ، فإننا لا نطبق النظر إلى صفاته كما أننا نطبق النظر إلى الأرض مهما استقارت بنور الشمس . ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافه إلى نور القمر وسائر الكواكب ، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس ، والنظر في الآثار يدل على المؤثر دالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر . وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته ، بل لا طلبة أشد من المدم والناور أظهر من الوجود . ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته - تعالى وتقدس - إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه ، كما أن قوام

نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى نرى الشمس فيه ويمكن النظر إليها ، فيكون الماء واسطة ينض قليلا من نور الشمس حتى يطلق النظر إليها . فكذلك الأفعال واسطة تساعد فيها صفات الفاعل ولا تهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال . فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى » .

بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى

اعلم أن كل مافي الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخطه ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته ، وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لنفذ البحر قبل أن ينفذ عشر عشره . ولكننا نشير إلى جبل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه .

فنقول : الموجودات المخلوقة منقسمة إلى (مالا يعرف أصلها) فلا يمكننا التفكير فيها وذكر الموجودات التي لا تملأها كما قال الله تعالى (ونخلق مالا نعلمون - سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون) وقال (وننشئكم فيها ما نعلمون) وإلى (ما يعرف أصلها وجملتها ، ولا يعرف تفصيلها) فيمكن أن نتفكر في تفصيلها ، وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى مالا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر . فكاللائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك . ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغضض . فلنعدل إلى الأقرب إلى الأنعام وهي المراكبات بحس البصر : وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكمواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طولها وعرضها ، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجوف مدرك بنعيمها وأعطارها ولؤلؤها ورعداء وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها .

فهذه هي الأجناس للمشاهدة من السموات والأرض وما بينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، وينشعب كل قسم إلى أصناف . ولا نهاية لانشعب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياتة ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر . فلا تتمركز ذرة في السموات والأرض من جماد ولاتبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهدة لله تعالى بالرحمانية ودال على جلالة وكبريائه ، وهي الآيات العالقة عليه .

وقد ورد القرآن بالحج على التفكير في هذه الآيات كما قال الله تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبصار) وكما قال تعالى (ومن آياته) من أول القرآن إلى آخره . فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات .

(من آياته) الإنسان المخلوق من الطينة - وأقرب شيء إليك نفسك - وفيك من العجائب العالقة على عظمة الله تعالى ما تنعش الأعمار في الوقوف على عشر عشره وأنت غافل عنه . فيامن هو غافل عن نفسه وجبالها كيف قطع في معرفة غيرك ؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وذكر أنك مخلوق من لطفة قدرة فقال (قتل الإنسان ما كره) من أي شيء خلقه ، من لطفة خلقه فقتره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره) وقال تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بعشر بقشرون) وقال تعالى

﴿ ألم بك لطفة من مني بني ثم كان علقه نطق فسوى ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم ﴾ وقال ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من لطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال ﴿ إنا خلقنا الإنسان من لطفة أمشاج ﴾ ثم ذكر : كيف جعل اللطفة علقه ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاما ، فقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه لطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا اللطفة علقه ﴾ الآية .

فتكرير ذكر اللطفة في الكتاب العزيز ليس ليعلم لفظه ويترك التفكير في معناه ، فانظر الآن إلى اللطفة - وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت - كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والبراب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الالفه والحبة في قلوبهم ، وكيف أقدم بسلسلة الحبة والبسورة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج اللطفة من الرجل بحركة الرقاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ؟ .

ثم كيف خلق المولود من اللطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل اللطفة وهي بيضاء مشرقة علقه حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء اللطفة وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار والدم ؟ ثم كيف ركب من اللحم والأعصاب والعروق : الأعضاء الظاهرة ، فذئور الرأس وشنق السمع والبصر والأنف والفم وسائر اللثاخذ ، ثم مذي اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ؟ ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ؟ ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخرى ؟ فركب العين من سبع طبقات ، لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها لتطعت العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من المعجائب والآيات لانقضى فيه الأعمار .

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلفها من لطفة سخيقة رقيقة ، ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ، ثم قدرها بقادير مختلفة وأشكال مختلفة فنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وحر يرض ودقيق . ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بحمة يده وبعض أعضائه ، فمفتقرا للتردد في حاجاته ، لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة ، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من يده لم يتبع عليه ، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمدها وركبها ، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس - كما تراه - فنها ستة تخص الصفح ، وأربعة عشر للحى الأعلى ، واثان للحى الأسفل ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطنين وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأمراض والتنايا : ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوّفات مستديرات ، فيها تحريكات

وزيادات وتقصّيات لينطبق بعضها على بعض - ويطول ذكر وجه الحكمة فيها .

ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى متنى عظم العجز من أربع وعشرين خُرْزَةً ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصص وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام المانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا تطول بذكر عدد ذلك . وبمجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وعمانية وأربعون عظماً ، سوى العظام الصغيرة التي حتى بها خلل للمفاصل . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نقطة سخيفة رقيقة .

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرّحون ، إنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وعالقتها أنه كيف قدّمها ودرّجها وخالف بين أشكالها وأقدارها ، وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلمه ، ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره ، فاطيب ينظر فيها ليدرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة عالقتها ومصوّرها ، فشتان بين التظنن .

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي المصنّلات تلتقي في بدن الإنسان بحساسة عضلة وتسما وعشرين عضلة - والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية - وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها . فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جعلتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو مصنّلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص . وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانضماماتها أعجب من هذا كله - وشرحه يطول - فلنفكر بحال في أحاد هذه الأجزاء ، ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب الماني والصفات التي لا تدرك بالمواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب ، وكل ذلك صنع الله في فطرة ماء قدرة ، فترى من هذا صنعه في فطرة ماء فما صنعه من ملكوت السموات وكواكبها وما حكته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفريق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تنذك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقاً وأتم صنفاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسوّاها وأغشى ليها وأخرج منها ما ﴾ .

فارجع الآن إلى الخلقة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً ، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للخلقة جميعاً أوبصر أروعاً وأقدره أوعلى أروعاً أو يخلقوا فيها عظماً أوعراً أو عصباً أو جلداً أو شراً أو صدرن على ذلك ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك ليجزوا عنه ما لعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط تأتق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها : كأنه إنسان ! عظم تسجلك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك عمله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصنم والقلم واليد وبالتدرة وبالعلم والإرادة ، وفيه من ذلك ليس من

فعل النفاش ولا خلفه بل هو من خلق غيره ، وإنما انتهى فعله الجمع بين الصبغ والخائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تمجيدك منه وتسمطه .

وأنت ترى النطفة القنطرة كانت معدومة خلقها خالقها في الأصلاب والتراتب ، ثم أخرجه منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها . وقسم أجزامها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم المظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورب عروقها وأعصابها وجعلها يجري لنفائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميمة بصيرة طائلة ناطقة . وخلق لها الظهر أساسا لبطنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ، ففتح العينين ورب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ، ثم حمأها بالأجنان لتسترها وتحفظها وتصفقها وتدفع الأذى عنها ، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكفافها وتباعد أظفارها فهو ينظر إليها . ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهواء عنها وحفظها بصدة الأذن لتجتمع الصوت فترده إلى صمخها ولحس بديب الهواء إليها ، وجعل فيها مخريقات وأعرجيات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتح مخبره وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطامحه وأغذيته ، وليستشقق بمنفذ المخبرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة بطنه . وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجما ومرعيا في القلب . وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر وأقطع فأحكم أصولها وحدد رموسها وبيض لونها ، ورب صفوها بمساوية الرموس متسافة الترتيب كأنها الدر المنظوم . وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتنفذ وليتم بها حروف الكلام وخلق الحجرية وهياها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتفطيمات لتقطع الصوت في عتارج مختلفة تختلف بها الحروف لينسج بها طريق النطق بكلماتها . ثم خلق الخناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسمة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوة الطول والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات ، فلا يشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة . ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ . وزين الوجه بالحمة والحاجبين ، وزين الحاجب بركة الشعر واستقراس الشكل . وزين العينين بالأهداب .

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص . فسخر المعدة لتضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكلى لخدمة الكبد . فالطحال يخدمها بمجذب السواد عنها . والمرارة تخدمها بمجذب الصفراء عنها . والكلى تخدمها بمجذب المائية عنها . وللثانة تخدم الكلى بقبول الماء عنها ، ثم تخرجها في طريق الإحليل ؛ والبروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن . ثم خلق اليدين ووظفهما لتفتت إلى المقاصد ، وعزز الكف ، وقسم الأصابع الخمس ، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع . ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستقبلوا بديق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه ؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد لقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمها خفا غير تام كانت مفرقة له ، وإن بسطها وحتم أصابعها كانت مجرفة له . ثم خلق الأظفار على رموسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليستقطبها الأشياء الدقيقة التي

لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذى هو آخر الأجزاء لو عدمه للإنسان وظهر به حكة لكان أجهز الخلق وأضعفهم ، ولم يبق أحد مقامه في حركته بدنه . ثم هدى اليد إلى موضع الحكة حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحكة إلا بعد تعب طويل . ثم خلق هذا كله من الطقة وهى في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء والنشاء وامتد إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى المصور ولا آتاه ! فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا يمس آتاه ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه ؟ فسيجانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه .

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمة فإتاه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبل حتى تكس وتحرك ، وخرج من ذلك الضيق وطلب اللطف كأنه غافل يصور بما يحتاج إليه .

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ؟ ثم لما كان بدنه سخيلاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الثورت والدم سائلاً خالصاً ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن ، وأنبث منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ، ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً ، فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك الحليب الكثير عند شدة الجوع ؟ .

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورافته كيف أخرج خلق الإنسان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن ، وإذا كبر لم يرافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبث له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسيجانه كيف أخرج تلك النظام الصلبة في تلك الأوقات البينة ! ثم حين قلوب الوالدين عليه القيام بتدبيره في الوقت الذى كان عاجزاً عن تدبير نفسه . فلو لم يسلط الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أجهز الخلق عن تدبير نفسه .

ثم انظر كيف وزقه القدرة والتمييز والعقل والمهذبة تدريجاً حتى بلغ التكامل ، فصار مقامهم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ؛ إما كفوراً أو شكوراً مطعماً أو عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبثليه لجملناه جميعاً بصيراً إنا هدناه السبل إما شاكراً وإما كفوراً) فالظفر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية .

والمعجب كل المعجب بمن يرى خطأ حسناً أو نقصاً حسناً على حائل فيستحسنه ، فيصرف جميع همه إلى التفكير في النقاش والمخاطات وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ! ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكل صنفته وأحسن قدرته ! ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يفطن عن صانعه ومصوره فلا تدعشه عظمت ولا يجمده جلاله وحكمته ؟ فهذه نبذة من عجائب بديع الخالق لا يمكن استقصاؤها ، فهو أقرب مجال لفكرك وأجمل شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول بطلبك وفرجك ولا تعرف من نفسك إلا أن تجرّع فتناً كل وتنبع فينام ، وتشتبى فتجائع ، وتقتضب فتتائل . والبهائم كلها تشترك في معرفة ذلك ، وإنما خاصة الإنسان التي حجب البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الأفاق والأنفس ؛ إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين ويمخر في زمرة النبيين والصديقين مقرباً من حضرة رب العالمين . وليست هذه الميزة البهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا ببهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير ،

إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطاها وكفر نعمة الله فيها ، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

وإذا عرفت طريق التفكير في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقوك ، ثم في أنهارها وجبالها ومعادنها ثم ارفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلًا لحاجبا وجعلها ذلولا لتشوا في منابها ، وجعلها قاذرة لا تتحرك ، وأرسي فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد . ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طاللت أعمارهم وكثر تقوافهم ، فقال تعالى ﴿ والسماء ببنيناها بأيدٍ وإنا لموسمون بالأرض فرشناها فمنهم الماعدون ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في منابها ﴾ وقال تعالى ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشا ﴾ وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبا فظهر ما مقز للأحياء ويطنها مرقدة للأموات قال الله تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض سكنا فانا أحياء وأموات ﴾ .

فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبثت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيرانات ، ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشواخ العسم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها فجهر الميون وأسأل الأنهار تجري على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء وليقا عذبا صافيا زلالا ، وجعل به كل شيء حيا ، فأخرج به فون الأشجار والنبات من حب وعنب وقصب وزيتون ونخل ورومان ، وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح ، بفضل بعضها على بعض في الأكل ، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة .

فإن قلت : إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها ؟ ففي كان في الثروة نخلة مطوقة لعنايد الرطب ؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة . ثم انظر إلى أرض البوادي وقش ظاهرها وباطنها قراها ترابا متشابهها ، فإذا أزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبثت من كل زوج جميع ألوانا مختلفة ونباتا متشابهها وغير متشابه ، لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع العنبرية ؟ فهذا النبات ينضو وهذا يقوى وهذا يحيي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يجمع البغم والسوداء وهذا يستحيل إليهما وهذا يصن الدم وهذا يستعمل دما وهذا يفرح وهذا ينوّم وهذا يقوى وهذا يضعف ؛ فلم تثبت من الأرض ورقة ولا تينة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كلها . وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص ؛ فالتخل تقرر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يستقبت ببث البذر في الأرض وبعضه يفرس الأعنان وبعضه يركب في الشجر . ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانتقضت الأيام في وصف ذلك ؛ فيكيفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات .

(ومن آياته) الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض : ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة ، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروز واللؤلؤ وغيرها ، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وبعضها لا ينطبع كالفيروز واللؤلؤ ؟

وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتثبيتها واتخاذ الآواني والآلات والتقود والحل منها . ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والفار وغيرها ، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطبيب الطعام ولو غلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ! فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجورها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر ، فيستحيل ملحا لما حارحقا لا يمكن تناول مثقال منه ، ليكون ذلك تطيبا للطعام إذا أكلته فيتنأ عيشك . وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس . ما خلق شيء منها عبثا ولا لعبا ولا هزلا ، بل خلق الكل بالحق كما يفيض على الوجه الذي يفيض وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى ﴿ وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما لالعين ما خلقتنا إلا بالحق ﴾ .

(ومن آياته) أصناف الحيوانات : وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشى . وانقسام ما يمشى : إلى ما يمشى على رجلين ، وإلى ما يمشى على أربع ، وعلى عشر ، وعلى مائة ، كما يشاهد في بعض الحشرات . ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع . فانظر إلى طيور الجوف وإلى وحوش البر والبهائم الأملية ترى فيها من العجائب ولا تشكك منه في عظمتها وقدرتها ومقدرتها وحكمة مصورها ، وكيف يمكن أن يستقيم ذلك ؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البق أو النحلة أو النملة أو النعكوت - وهي من صفات الحيوانات - في نباتها وحياتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي ادغارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك . فترى النعكوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أولًا موضعين متقاربين بينهما فرجة بقدر ذراع فما دونه حتى يتمكن أن يصل بالخط بين طرفيه ، ثم يبتدىء ويلقي العباب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ، ثم يندو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ، ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويكمل بعد ما بينهما متناسبا تناسبًا هندسيًا حتى إذا أحكم معاهد القمط وربع الخيوط كالسدى اشتغل بالحمية ، فيضع اللحم على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم القصد على موضع التواء اللحم بالسدى ، وزاوى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ، ويقعد في زاوية مرصدا لوقوع الصيد في الشبكة ، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن هجر عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ، ثم علق نفسه فيها بحيث آخر وبقى منكسا في الهواء ينتظر ذبابة تطير ؛ فإذا طارت رى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله . وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى . أقرئ أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه أدى أو علمه أو لا هادى له ولا علم ؟ أفليسك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز ؟ بل القليل العظيم شخصه ، الظاهرة قوته ، عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف ؟ أفلا يشهد هو بشكته وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعه لفاطره الحكيم وخاتمه القادر العليم . فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق للدبر وجلاله وكآل قدرته وحكمته ماتجهر فيه الأبواب والفقر فضلا عن سائر الحيوانات . وهذا الباب أيضا لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لانسائها بكثرة المساعدة . نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجتد تعجبه وقال : سبحان الله ما أعجبه ! والإلسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو انظر إلى الأعلام التي ألغها ونظر إلى أشكالها وصورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباسا لحفته وأكمانا لهم في ظنهم ولزادتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصورانا لأفئادهم وجعل

ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة البوادي والمغارات البعيدة لأكثر الناظر المتعجب من حكمة خالقها ومصورها ، فإنه ما خلقها إلا يعلم محيط بجميع منافها سابق على خلقه لإبائها فسبحان من الأمور مكتوفة في علمه من غير تفكير ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استئمان بوزير أو مشير فهو العالم الخبير الحكيم التقدير ، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ؛ فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه ، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته ففسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدياته بمنه وراحمته .

(ومن آياته) البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال والأرض بالإضافة إلى الماء بجزيرة صغيرة من بحر عظيم وبقيّة الأرض مستورة بالماء قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض »^(١) ، فأنسب اصطبلًا إلى جميع الأرض . واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله .

وقد شاهدت عجائب الأرض ومافيا فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب مافيه من الحيوان والجواهر أصناف عجائب ما تقاضاه على وجه الأرض ، كما أن سمته أضفاف سمّة الأرض ، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فيزل الركاب عليها فرمما تحس بالتيار إن إذا اشتعلت فتنتحرك ويدلم أنها حيوان . وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأصنافه ، وفيه أجناس لا يهد لها نظير في البر : وقد ذكرت أوصافها في مجلدات وجمعها أقوام هنا بركوب البحر وجمع عجائبه .

ثم انظر كيف خلق الله الأوّل ودوره في صدفه تحت الماء . وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وإنما هو نبات على هيئة حجر ينبت من الحجر . ثم تأمل ما عدها من المنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم ، ويحرم لهم الفلك لتحمل أمتهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عزف الملاحين موارد الرياح ومهايا ومواقيتهم . ولا يستقصي على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات . وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية فطره الماء : وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف ، متصل الاجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب سريع التبول للتقطع كأنه منفصل ، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ماعل وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها ، فالعجب من الأدبى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويفعل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربة أو الاستفراغ عنها لبذل جميع الدنيا فيها ، فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها منبع للتفكر وبجبال . وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متاصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمتها فيها ، منادية أرباب القلوب بشفايتها قائمة لكل ذي لب ؛ أما ترى وترى صوري وتركبي

(١) حديث : « الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض » تقدم ولم أجده .

وصفاتي ومنافعى واختلاف سالاتي وكثرة فرائضى ؟ أتظن أنى كوّنت نفسى وأولّختى أحد من جنسى ؟ أو ماتت حتى أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فقطع بأنها من صنعة آدمى عالم قادر مرید متكلم ثم تنظر إلى عجائب الحطاوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهى بالقلم الإلهى الذى لا تدرك الأبصار ذواته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط . ثم يفكك قلبك عن جلالة صالته .

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا الذين هم عن السمع معزولون : توهمنى فى ظلة الأحشاء مغموسة فى دم الحيض فى الوقت الذى يظهر التخطيط والتصوير على وجهى ، فينفش النقاش حدقتى وأجفانى وجهى وخذى وشفتى ، فترى التقويس يظهر شيئاً فشيئاً على التدرج ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا عارجها ، ولا داخل الرحم ولا عارجها ، ولا خبر منها للأب ولا للآب ولا للنطفة ولا للرحم ! فإس هذا النقاش بما أعجب بما نشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتسلته ، فهل تقدر على أن تتمم هذا المجلس من النقش والتصوير الذى يعم ظاهرها النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة النطفة ومن غير اتصال بها لامن داخل ولا من خارج ؟ فإن كنت لاتمتع من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذى صور ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور ، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع . فينبى الفاعلين من البائنة والتباعد ما بين الفاعلين . فإن كنت لاتمتع من هذا فتعجب من عدم تمجيدك فإنه أعجب من كل عجب ؟ فإن الذى أسمى بصيرتك مع هذا الرضوح وضحك من التئين مع هذا البيان جدير بأن تتمتع منه ، فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشوق وأسعد وفتح بصائر أحيائه ففما هذه فى جميع ذرات العلم وأجزائه ، وأسمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بزمه وعلائه ، فه الحق والأمر والامتنان والفضل والعلف والنهر لا واد لحسكه ولا معقب لنضائه .

(ومن آياته) الهواء اللطيف المحبوس بين مقر السماء ومعدب الأرض : يدرك بحس اللس عند هبوب الرياح جسمه ، ولا يرى بالعين شخصه ، وجلته مثل البحر الواحد والطير علقته فى جو السماء ومستقبة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر فى الماء ، وتضطرب جواربه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر ، فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابة فإن شاء جعله نضرا بين يدي رحمة كما قال سبحانه (وأرسلنا الرياح لواقح) فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فستمتع للياه ، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خلقته كما قال تعالى (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا فى يوم نحس مستمر نزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) ثم انظر إلى لطف الهواء ، ثم شدته وقوته مهما ضغط فى الماء ، فالق للفنوخ يتحمل عليه الرجل القوى لينفخه فى الماء فيمجر عنه ، والحديد الصلب يفضى على وجه الماء فيرسب فيه . فأنظر كيف يتفيض الهواء من الماء بقوته مع لطافته ؟ وبهذه الحكمة أسكك الله تعالى السفن على وجه الماء ، وكذلك كل بحرف فيه هوا لا يفرص فى الماء لأن الهواء يتقبض عن النوص فى الماء فلا يفصل عن السطح الماخل من السفينة ، فتبقى السفينة الثقلة مع قوتها وصلابتها معلقة فى الهواء اللطيف ، كالأذى يقع فى بحر فيتملق بذيل رجل قوى يتمتع عن الهوى فى البحر . فالسفينة بمقرها تنقبض بأذيال الهواء القوى حتى تتمتع من الهوى والنوص فى الماء ! فسبحان من خلق المركب التتيل فى الهواء اللطيف من غير علاقة لشاهد وعقدة تند .

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من النجوم والارعد والبرق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق ؛ فهى عجائب ما بين السماء والأرض ، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك فى قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض

وما بينهما لأعين) وهذا هو الذي بينهما . وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) بحيث ترمض الرعد والبرق والسحاب والمطر ، فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجلمة إلا أن ترى المطر بينك وتسمع الرعد بأذنيك فلهيئة تشاركك في هذه المرفة ! فارتفع من حضيض عالم البهايم إلى عالم الملائكة الأعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها ، فمضت عينك الظاهرة وانظر بصيرتك الباطنة ترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضا باب يطول التفكير فيه إذ لم تطمع في استقصائه . فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يتجمع في جوصاف لاكدورة فيه وكيف يتفكقه تعالى إذا شاء ومنى شاء ، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وعسكه في جو السماء إلى أن يأذن الله في إرسال الماء وتطبيع القشرات كل قطرة بالقدر الذي أَرَادَهُ اللهُ تعالى وعلى الشكل الذي شاءه فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا يدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لتندل عنه فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة . فلو اجتمع الآزول والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يرمفوا عددا ينزل منها ببلدة واحدة أو قرية واحدة لصغر حساب الجن والإنس عن ذلك ، فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدتها . ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب ، ومكتوب على تلك القطرة بخط لم يلدرك بالبصر الظاهر أنها رزق المودة الغلانية التي في ناحية الجبل الغلاني فصل إليها عند عطشها في الوقوف الغلاني ؛ هذا مع ما في المقادير الباردة الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لا تحصى . كل ذلك فعل من الجبار القادر وفهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل ، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلالة وعظمته ، ولا للعيان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ودهم الظنون بذكر سببه وعلة ، فيقول الجاهل المنزور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ، ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ، ولو قيل له : ما معنى الطبع وما الذي خلقه ؟ ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقيل ؟ وما الذي رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل مجاويف الانهار شيئا فشيئا بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق ، فيغذى كل جزء من كل ورقة ، ويجري إليها في مجاويف عروق شجرية صغار يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلك العرق الكثير المندوف في طول الورقة عروق صغار . فكان الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عسكبوية دقيقة تخرج من إدراك البصر حتى تتبسط في جميع عرض الورقة . فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينمها ويزنها ويبقى طراوتها ولصارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه . فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك يهذب جاذب لها الذي سحر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهي بالآخرة إلى عالق السموات والأرض وجبار الملك والملوك فلم لا يحال عليه من أول الأمر ؟ فنهاية الجاهل ببناء العاقل .

(ومن آياته) ملكوت السموات والأرض وما فيها من السكواكب : وهو الأمر كله ، ومن أدرك الكل وقائه عجائب السموات فقد قاته الكل تحميها . فالأرض والبحار والهوا وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر . ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه ، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع ، وكمن قسم في القرآن بها كقوله تعالى (والسماء ذات البروج - والسماء والطارق - والسماء

ذات الحيك - والسماء وما بناها) وكقوله تعالى (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها) وكقوله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس) وقوله تعالى (والنجم إذا هوى - فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسام لو تعلمون عظيم) فقد علمت أن عجائب النطفة القدرية عجز عن معرفتها الأولون والآخرون - وما أقسم الله بها - فأظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى (وفي السماء رزقكم وما توعدون) وأثنى على المفكرين فيه فقال (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سيئته ^(١) ، أى تجاوزها من غير فكر . وذم للمرضين عنها فقال (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهى متغيرات على القرب ، والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) وقال سبحانه (وبيننا فوقكم سبعة شدادا) وقال (أنتم أنشد خلقا أم السماء بناها رقع سمكها فسواها) فأنظر إلى الملكوت ترى عجائب البر والجبروت . ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقه السماء وضوء الكواكب وتفوقها فإن اليهائم تشاركك في هذا النظر . فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) لا يل كل ما يدرك بحاسة البصر فالتريان يبرعته بالملك والشهادة ، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالنسب والملكوت ، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشئ من علمه إلا بما شاء ، وهو (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) .

فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فمضى بفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أنظارها ما أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال : وأى قلبى ربى . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك ، ثم الأرض التى مفرق ، ثم الهواء المكتشف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ، ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسي ، ثم العرش ، ثم الملائكة الذين هم حلة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما . فبينك وبين هذه المغاور العظيمة والمسافات الشاسعة والمقبات الشاهقة ، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، وهى معرفة ظاهر نفسك ، ثم صرت تطلق اللسان برفاحتك : تدعى معرفة ربك وتقول : قد عرفته وعرفت خلقه فنبذا أنكسر إلى ماذا أنطلق ؟

فأرفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقتها ومنازرها ودورها فى الحركة على الدوام - من غير فتور فى حركتها ومن غير تغير فى سيرها ، بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة بحساب مقدّر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطوبها الله تعالى على السجل للكتاب - وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى . ثم انظر كيفية أشكالها : فبعضها على صورة المقرّب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان ، وما من صورة فى الأرض إلا ولها مثال فى السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس فى فللكها فى مدة ستة ، ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب

(١) حديث : « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سيئته » أنه قوله تعالى (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) هدم .

بسير آخر سفرها له غائتها لولا لاطوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولا طبق الظلام على الدوام أو النضياء على الدوام ، فكان لا يتميز وقت المداشر عن وقت الاستراحة ، فأنظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا ، وانظر إلى إبلاجه الليل في النهار والليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص . وانظر إلى إماتته سير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيها بينهما اعتدل الزمان . وعجائب السموات لا مقطع في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها ، وإتمامها تزييه على طريق الفكر ، واعتقد على طريق الجلة أنه مامن كوكب من الكواكب إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ، ثم في شكله ، ثم في لونه ثم في وضعه من السماء ، وقربه من وسط السماء وبعدة ، وقربه من الكواكب التي يحيطه وبعدة . وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضائه بذلك ، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة ، وأمر السماء أعظم ، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه . وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض ، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها ، وقد اتفق الناظرين على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، وفي الأخبار ما يدل على عظمتها ^(١) ثم الكواكب التي تراها أصغر ما مثل الأرض ثمان مرات ، وأكبرها ينقش إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض . وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدمها ؛ إذ البعد صارت ترى صغارا ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال (رفع سمكها فسواها) .

وفي الأخبار : أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام ^(٢) فإذا كان مقدرا كوكب واحد مثل الأرض أضعافا فانظر إلى كثرة الكواكب . ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمتها . ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلا أن تدرك سرعتها ، لكن لا تفك أنها في لحظة تسير بمقدار عرض كوكب ، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة ، فقد دار ذلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه . وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم « هل زالت الشمس ؟ » فقال : لا ... نعم ، فقال : كيف تقول لا ... نعم . فقال : من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام ^(٣) فانظر إلى عظم ضخمتها ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أبيت صورته مع اتساع أكتافها في حدة المعين مع صغرها حتى تهمل على الأرض وتفتح عينيك نحوها فتري جميعها . فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارتها كيف خلقها ، ثم أسكنها من غير عمد وتوينا ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم

(١) الحديث الدال على عظم الشمس رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال « في بارقة المانية لولا ما زعمنا من أمرها لأحلتك ما على الأرض » والطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة « وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالفلج كل يوم لولا ذلك ما أتت على شيء إلا أحرته » .

(٢) حديث « بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام » أخرجه الترمذي من رواية الحسن بن أبي هريرة وقال غريب ، قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبد الأعلى بن زيد قالوا ولم يسع الحسن بن أبي هريرة ، ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي بصرة عن أبي ذر ووجهات ثلاث ألا أن لا يعرف لأبي بصرة سمع من أبي ذر . (٣) حديث : أنه قال لجبريل « هل زالت الشمس ؟ » فقال : لا ... نعم . فقال : كيف تقول لا ... نعم ؟ فقال : من حين قلت لا ، إلى أن قلت : نعم . سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام ، لم أجده إلا أصلا .

كنت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غنى فقراء من وقتا بالصبح موزها بالذهب فلا يتقطع لمجلك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ! وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعه وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه إfachنا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التى هى أخص أجزاء هذا البيت ! ومع هذا فلا تنظر إليه ؛ ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذى أنفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت بطنك وفرجك ؟ ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك . وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات . وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أومائة من معارفك فيناقضونك بالسؤال بين يدك ، ويضمرون خبايا الاعتقادات عليك ، وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفسا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وإن يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جامه على جامك ، وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك . وما مثلك ومثل صفك إلا كمثل الخلة تخرج من جحرها الذى حفرت في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواهرى والقلبان وأتواع الذخائر والثغائى ، فلما إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تتحدث لو قدرت على التعلق إلا عن بيتها وغداها وكيفية ادخارها ، فأما حال القصر وللك الذى فى القصر فهى بملل عنه وعن التفكير فيه ، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغداها وبيتها إلى غيره . وكما غفلت الخلة عن القصر وعن أرضه وسفنه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن سكانه ، فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته ، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه الخلة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرف الخلة منك ومن سكان بيتك . نعم ليس لهذه طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه ، وأما أنت فكذلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف من عجائب ما الخلق غافلون عنه . ولتقبض عنان السلام عن هذا الخط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استقصينا أعمار أطول لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته ، وكل ما عرفناه قليل زبر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأولياء ، وما عرفوه قليل زبر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون ، وإسرائيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما ، بل هو إلى أن يسمى دمتا وحكمة وقصورا وجحرا أقرب . فنبحن من عزف عباده ما عزف ثم خاطب جميعهم فقال ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ .

فهذا بيان معاد الجمل التى تجول فيها فكر المتفكرين فى خلقه تعالى وليس فيها فكر فى ذاته تعالى ، ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لعمارة معرفة الخالق وعظمت وجلاله وقدرته ، وكما استكثرنا من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمت أتم . وهذا كما أنك تعلم علما بسبب معرفتك ببله ، فلا تزال تطلع على غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنة له توقيرا وتعظيما واحتراما ، حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيدك علما من قلبك يستدعى التعظيم له فى نفسك . فهكذا تأمل فى خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه ، وكل ما فى الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتأهى أبدا ، وإنما لكل عبد

منهما بقدر مازق . فله تقتصر على ما ذكرناه ونضيف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر ، فإننا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحصان إلينا وإنعام علينا . وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط ، وكل ما نظرنا فيه فلأن الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته ، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته . وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يصل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء ، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ، ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لآمن حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقي وارتدى فعوذ بالله من العنلال ، ونسأله أن يثبتنا منزلة أقدام الجبال بينه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

تم الكتاب التاسع من ربيع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه ، يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده ، وبه كل جميع البعوان بحمد الله تعالى وكرمه .

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربيع المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قسم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آمال القياصرة الذين لم يزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الخافرة ، ففعلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياع المهود إلى ظلمة القهود ، ومن ملاعبة الجوارى والتلبان إلى مفاساة الهوام والديدان ، ومن التمتع بالطعام والشراب إلى التفرغ في التراب ، ومن أفس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الرغيف إلى المصرع الرذيل ، فألفظ هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، واتخذوا من دونه حجبا وحرزا ، وانظر (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) فسيحان من انفرذ بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أحوال الخلق بما كتب عليهم من القناء ، ثم جعل الموت غلصا للأتقياء وموعدا في حقهم القناء ، وجعل القبر سجنا للأشقياء وحيسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإيمان بالتمتع المتظاهرة ، وله الانتقام بالتمتع القاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد . جدير بمن الموت مضرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقبره . وبطن الأرض مستقره والقيامة موعده ، واللجنة أو النار مورد أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا ترجع إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وترقب إلا له ، وحقيق بأن يمد نفسه من الموت ويرأها في أصحاب القبور ، فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل

لما بعد الموت^(١) ، ولن يتيسر الاستعداد الشيء إلا عند تجمّد ذكره على القلب ، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكّر بالإحشاء إلى المذكرات له والنظر في المنهات عليه . ونحن نذكر من أمر الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بدّ للمبدئ من تذكّره على التكرار وعلازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحثاً على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فابقى من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون ﴿ اقترب الناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين :

الشرط الأول

في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب

(الباب الأول) في فعل ذكر الموت والترغيب فيه . (الباب الثاني) في ذكر طول الأمل ونصره . (الباب الثالث) في سكرات الموت وشذّته وما يستحب من الأحوال عند الموت . (الباب الرابع) في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . (الباب الخامس) في كلام المختصين من الخلفاء والأمراء والصالحين . (الباب السادس) في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور . (الباب السابع) في حقيقة الموت وما يقاها لليت في القبر إلى نفخة الصور . (الباب الثامن) فيما عرف من أحوال الموق بالمكاشفة في المنام .

الباب الأول : في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشوائبها ينفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره . وإذا ذكر به كرهه وضرره من أولئك هم الذين قال الله فيهم ﴿ قل إن للموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم العذاب والنهابة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ثم الناس : إما منهك ، وإما تائب مبتدئ ، أو عارف منته . أما المنهك : فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فتأسف على دنياه ويستغل بخدمته ، وهذا يؤده ذكر الموت من الله بعداً . وأما التائب : فإنه يكثر من ذكر الموت لينبئ به من قلبه الخوف والحشية فينبئ بنهاية التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يمتلئه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد ، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم « من كره لقاء الله كره الله لقاءه »^(٢) ، فإن هذا ليس يكره الموت لقاءه الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لتصوره وتقصيره ، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد لقاؤه على وجه رضاه فلا يبدد كارها لقاؤه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهك في الدنيا ، وأما العارف : فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعده لقاؤه الحبيب ، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا في غالب الأمر يستبطن بحبه الموت ويحب عيته ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين . كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفزع من ندم ؛ اللهم إن كنت تعلم

كتاب ذكر الموت وما بعده

(١) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » هدم غير مرة .

الباب الأول : في ذكر الموت والترغيب فيه

(٢) حديث « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

أَنْ الْفَقْرَ أَحَبُّ إِلَى مِنَ الْغِنَى وَالسُّعْمَ أَحَبُّ إِلَى مِنَ الصَّحَّةِ وَالْمَوْتَ أَحَبُّ إِلَى مِنَ الْعَيْشِ فَسَبِّلْ عَلَى الْمَوْتِ حَتَّى أَلْقَاكَ فَإِذَا التَّائِبُ مَعْدُورٌ فِي كِرَامَةِ الْمَوْتِ ، وَهَذَا مَعْدُورٌ فِي حُبِّ الْمَوْتِ وَتَحْتِيهِ ، وَأَعْلَى مِنْهَا رُبَّةٌ مِنْ فَوْضِ أَمْرِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَصَارَ لَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً ، بَلْ يَكُونُ أَحَبُّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ أَجْنِبًا إِلَى مَوْلَاهُ ، فَهَذَا قَدْ اتَّبَعَ بِفِرَطِ الْحُبِّ وَالْوَلَاءِ إِلَى مَقَامِ التَّسْلِيمِ وَالرِّضَا وَهُوَ الْغَايَةُ وَالْمُنْتَهَى . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فِي ذِكْرِ الْمَوْتِ ثَوَابٌ وَفَضْلٌ ، فَوَيْلٌ مِنَ الْمَنَكِ أَيْضًا بِسْتِفِيدَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ التَّجَانُّقُ مِنَ الدُّنْيَا لِإِذْ يَنْقُصُ عَلَيْهِ نَعِيمُهُ وَيَكْدُرُ عَلَيْهِ صَفْوَانُهُ . وَكُلُّ مَا يَكْدُرُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْفَنَاءُ وَالشَّوَاهِدُ فَهُوَ مِنْ أَسْبَابِ النِّجَاةِ .

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَكْثَرُوا مِنْ ذَكَرِ هَازِمِ الْأَذَاتِ »^(١) ، وَمَعْنَاهُ نَفَسُوا بِذِكْرِهِ الْأَذَاتِ حَتَّى يَنْقَطِعَ وَكَوْنُكُمْ إِلَيْهَا قَبُولًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ تَعَلَّمَ الْبَهِائمُ مِنَ الْمَوْتِ مَا يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ مَا أَكْتَمَ مِنْهَا سِتِينًا »^(٢) ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : يَارَسُولَ اللَّهِ هَلْ يَحْصُرُ مَعَ الصِّدْقَاءِ أَحَدٌ ؟ قَالَ : « نَعَمْ مِنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَشْرِينَ مَرَّةً »^(٣) ، وَإِنَّمَا سَبَبُ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ كُلُّهَا أَنَّ ذِكْرَ الْمَوْتِ يُوجِبُ التَّجَانُّقَ عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَيَتَقاضَى الْاسْتِدَادُ لِلْآخِرَةِ ، وَالْفَنَاءُ عَنِ الْمَوْتِ تَدْعُو إِلَى الْإِنْتِهَافِ فِي شُرُوطِ الدُّنْيَا . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَحْفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتَ »^(٤) ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّ الدُّنْيَا يَمُنُّ الْمُؤْمِنُ إِذْ لَا يَزَالُ فِيهَا فِي عَنَاءٍ مِنْ مَقَاسَاةِ نَفْسِهِ وَرِيَاةِ شُرُوطِهِ وَمَدَامَةِ شَيْطَانِهِ ، فَأَمَّا ذِكْرُ الْمَوْتِ فَهُوَ مِنْ هَذَا الْمَذَابِ ، وَالْإِطْلَاقُ نَحْفَةً فِي حَقِّهِ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْمَوْتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ »^(٥) ، وَأَرَادَ بِهَذَا : لِلْمُسْلِمِ حَقُّ الْمُؤْمِنِ صَدَقًا الَّذِي يَسْلِمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ يَرِيدُهُ وَيَسْتَحِقُّ فِيهِ أَخْلَاقَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يَتَدَلَّسْ مِنَ الْمَاضِي إِلَّا بِاللَّهِمِّ وَالصَّفَاتِ ، فَأَمَّا ذِكْرُ الْمَوْتِ فَيُطَهِّرُ مِنْهَا وَيَكْفُرُ بِهَا بَعْدَ اجْتِنَابِهَا الْكِبَارِ وَإِقَامَةِ الْفَر_ضِ ، قَالَ عطاء الخراساني : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعمل فيه الضحك فقال : « شَوْبُوا بِمَجْلِسِكُمْ بِذِكْرِ مَكْدَرِ الْأَذَاتِ » قَالُوا : وَمَا مَكْدَرُ الْأَذَاتِ ؟ قَالَ : الْمَوْتُ »^(٦) ، وَقَالَ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ يَمْحُصُ الذَّنُوبَ وَيَرْفِدُ فِي الدُّنْيَا »^(٧) ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كُنْ بِالْمَوْتِ مَفْرَقًا »^(٨) ، وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « كُنْ بِالْمَوْتِ وَاعِظًا »^(٩) ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا قَوْمٌ يَتَحَدَّثُونَ وَيُضْحِكُونَ ، فَقَالَ : « أَذْكُرُوا الْمَوْتَ أَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ

(١) حديث : « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ الْأَذَاتِ » أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ وَالسَّائِي وَابْنُ مَاجَةٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَفَدَّ تَقْدِيمُ . (٢) حديث : « لَوْ تَعَلَّمَ الْبَهِائمُ مِنَ الْمَوْتِ مَا يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ مَا أَكْتَمَ مِنْهَا سِتِينًا » أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ حَبِيبَةَ الْجُهَنِيَّةِ وَفَدَّ تَقْدِيمُ . (٣) حديث : « قَالَتْ عَائِشَةُ هَلْ يَحْصُرُ مَعَ الصِّدْقَاءِ أَحَدٌ ؟ قَالَ : « نَعَمْ مِنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَشْرِينَ مَرَّةً » تَقْدِيمُ . (٤) حديث : « نَحْفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتَ » أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْمَوْتِ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ « دَاؤُ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو سَهْلًا بِسُنْدٍ حَسَنٍ »

(٥) حديث : « الْمَوْتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ » أَخْرَجَهُ أَبُو يَسِيرٍ فِي الْحَلِيقَةِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ وَالْمُطَهِّبِيُّ فِي التَّارِيخِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ ابْنُ التِّرْمِذِيِّ فِي سِرَاجِ الْمُرِيدِينَ أَنَّهُ تَحْسَنَ صَحِيحٌ وَضَعَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ وَفَدَّ جَمْعُ طَرَفَيْهِ جُزْءٌ . (٦) حديث عطاء الخراساني : « مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَجْلِسٍ قَدْ اسْتَلْهَمَ الضَّحْكَ فَقَالَ : « شَوْبُوا بِمَجْلِسِكُمْ بِذِكْرِ مَكْدَرِ الْأَذَاتِ ... الْحَدِيثُ » أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي الْمَوْتِ هَكَذَا سَهْلًا وَرَوَاهُ فِي أَسَالِ الْجَلَالِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَلَا يَصِحُّ . (٧) حديث أَنَسٍ : « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ يَمْحُصُ الذَّنُوبَ وَيَرْفِدُ فِي الدُّنْيَا » أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي الْمَوْتِ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ جَدًّا . (٨) حديث : « كُنْ بِالْمَوْتِ مَفْرَقًا » أَخْرَجَهُ الْحَاكِمِيُّ ابْنُ أَبِي إِسَافَةَ فِي مَسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَهَرَاكُ بْنُ مَالِكٍ بِسُنْدٍ ضَعِيفٍ ، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي الْمَوْتِ وَالصَّلَاةِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَلِّيِّ مَرْسَلًا . (٩) حديث : « كُنْ بِالْمَوْتِ وَاعِظًا » أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ مِنْ حَدِيثِ عَمَارِ ابْنِ يَاسِرٍ بِسُنْدٍ ضَعِيفٍ وَهُوَ مَقْهُورٌ مِنْ قَوْلِهِ النَّضْبِيُّ ابْنُ هَيْثَمٍ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الزَّهَدِ .

ما أعلم لضعفكم قليلا ولبيكم كثيرا^(١) ، وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال : كيف ذكر صاحبكم للموت ؟ قالوا : ما كنا نكاد نسميه بذكر الموت ! قال : فإن صاحبكم ليس هنالك^(٢) ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال : أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استمدا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة^(٣) .

أما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضع الموت الدنيا فلم يترك لدى لب فرحا . وقال الربيع بن خثيم . ما غالب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت . وكان يقول : لا تشعروا في أحدا وسلوني إلى وبى سلا . وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت في هذه الدارة بل أن تصير إلى دار تمني فيها الموت فلا تجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه . وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقالوا رابعهم التبيى : شيطان قطعنا عنى لذة الدنيا ؛ ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا ومهموها . وقال مطرف : رأيت فيها يرى القائم كأن قائلا يقول - في وسط مسجد البصرة - قطع ذكر الموت لقلب الخائفين فوالة ما ترام إلا والهمين . وقال أشعث : كما تدخل على الحسن فلأما هو النار وأما الآخرة وذكر الموت . وقالت صفية رضي الله تعالى عنها : إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها فسأوة قلبها فقالت : أكثرى ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت فرق قلبها فجلدت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تتخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن : ما رأيت طفلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حريتا . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظمي ؟ فقال : لست أول خليفة تموت ؟ قال : زدى ، قال : ليس من يأثلك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك ، فبكي عمر لذلك . وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبراً في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول : لو فارقت ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن النخعي : لأن هذا الموت قد فنص على أهل النعم نعيمهم فاطلبوا لنميا لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لمنسية : أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيق عليك وإن كنت ضيق العيش وسه عليك . وقال أبو سليمان الماراني : قلت لأمهرون ، أنجبين الموت ؟ قالت : لا ، قلت : لم ؟ قالت : لو عصيت آدميا ما اشتيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته .

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لثة ففكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجم ذكر الموت في قلبه . فالطريق فيه أن يفرغ القلب من كل

(١) حديث : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا قوم يمتدحون ويضجون فقال : اذكروا الموت ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف . (٢) حديث : ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال : كيف كان ذكر صاحبكم للموت ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أسد بن حنيفة وابن المبارك في الزهد قال أخبرنا مالك بن نويرة فذكره بإسناد زيادة فيه . (٣) حديث ابن عمر : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس ... الحديث . أخرجه ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكامله بإسناد جيد .

شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه ، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه . وأنعم طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأثراته الذين مضوا قبله فيذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف عا التراب الآن حسن صورهم . وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرموا لنادم وأيتوا أولادهم وضيروا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم ، فهما تذكر رجل رجلا وفصل في قلبه حاله ، وكيفيته وموته وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت وانخداعه بمرااة الأسباب ، وركونه إلى القوة والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع . وأنه كيف كان يتردد الآن قد تبددت رجلاه ومفاصله . وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الفود لسانه . وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه . وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه - إلى عشر سنين - في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به ، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه ، فأنكشف له صورة الملك وقرع صمعه النداء إما بالجنة أو بالنار ، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كنفلتهم وستكون عاقبتهم كما فيتهم .

قال أبو الرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموت فخذ نفسك كأحدم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو راعيا إلى الله عز وجل تضمنونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب .

فلأزمة هذه الأفكار وأمانها مع دخول المقابر ومشاهدة للرضى هو الذي يحمّد ذكر الموت في القلب حتى يفلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستبدله ويتجافى عن دار النور ، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال ، أنه لا بد له من مفارقتها . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسناتها ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لفرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى بكاء شديدا حتى أوقف صوته .

الباب الثاني

في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل ، وسبب طوله وكيفيته معالجته

فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر : إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحبتك لسمك فإنك يا عبد الله لا تدري ما بينك غدا^(١) ، ودروى على كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن أشد ما أعاف عليكم خصلتان . اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ، ثم قال : إلا أن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب وينقص ، وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ، ألا إن الدين أينا وللدين أيشاء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا

الباب الثاني في طول الأمل

(١) حديث : قال لعبد الله بن عمر : إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ... الحديث « أخرجه ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث « كن في الدنيا كأنك غريب » .

من أبناء الدنيا ، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل ^(١) ، وقالت أم المنذر : أطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : أيها الناس أما تستحون من الله ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : تهجمون مالا تأكلون وتأملون مالا تدركون وتبنون مالا تكسبون ^(٢) ، وقال أبو سعيد الخدري : اشترى أسامة بن زيد من زيد ابن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ألا تعجبون من أسامة المشرقي إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسى بيده ما طرفت عيناى إلا غفلت أن شغرى لا يلتقيان حتى يقبض الله وحي ولا رفعت طرفى فغفلت أنى واضعه حتى أقبض ، ولا لغمت لقمة إلا غللت أنى لا أسينها حتى أغص بها من الموت ، ثم قال : يا بني آدم إن كنتم تعلمون فمقدوا أنفسكم من اللزق والذي نفسى بيده (إن ما تعدون آت وما أنتم بمعجزين) ^(٣) ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج بهريق الماء فيتمسح بالتراب ، فأقول له : يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول : ما يدري لى لا أبليه ^(٤) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد ففرز عوداً بين يديه ، والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبده ، فقال : هل تدرون ما هذا ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا الإنسان وهذا الأجل وذلك الأمل يتماطأ ابن آدم ويمتلحه الأجل دون الأمل ^(٥) ، وقال عليه السلام ، مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون مئة إن أخطأه الناياء وقع في الهرم ^(٦) ، قال ابن مسعود : هذا الهرم وهذه الختوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الختوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الختوف شوارع إليه فأبها أمر به أخذه فإن أخطأه الختوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل . قال عبيدة خطب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مريباً ، وخط وسطه خطاً ، وخط خطوطاً إلى جنب الخط ، وخط خطاً خارجاً وقال : أتدرون ما هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : هذا الإنسان - للخط الذى فى الوسط - وهذا الأجل محيط به ، وهذه الأعراس - للخطوط التى حوله - تنهشه إن أخطأه هذا نهشه هذا ، وذلك الأمل - يعنى الخط الحجاز ^(٧) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم ابن آدم وبقى معه اثنتان الحرص والأمل ^(٨) ، وفى رواية : ونسب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث على « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل ... الحديث » بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتاب قصر الأمل ورواه أيضاً من حديث جابر بن عبد الله وكلاماً ضعيف . (٢) حديث أم المنذر « أيها الناس أما تستحون من الله تعالى ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : تهجمون مالا تأكلون ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي فى الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم . (٣) حديث أبي سعيد : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ألا تعجبون من أسامة ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فى قصر الأمل والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو داود فى الحديث فى الشعب بنسب ضعيف . (٤) حديث ابن عباس : كان يخرج بهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول الماء منك قريب فيقول : ما يدري لى لا أبليه » أخرجه ابن المبارك فى الزهد وابن أبي الدنيا فى قصر الأمل والترمذى بنسب ضعيف .

(٥) حديث : أنه أخذ ثلاثة أعواد ففرز عوداً بين يديه ... الحديث . أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له والرامهرمزي فى الأئمان من رواية أبي التوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبي الدنيا أيضاً من رواية أبي التوكل مرسل . (٦) حديث : مثل ابن آدم والمجنبة تسعون مئة ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن العنبر وقال حسن . (٧) حديث ابن مسعود : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مريباً وخط وسطه خطاً ... الحديث » رواه البخارى . (٨) حديث أنس : يوم ابن آدم وبقية معه اثنتان : الحرص والأمل . وفى رواية : ونسب معه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر . ورواه مسلم بن عبد الله فى الحديث فى قصر الأمل واللفظ الأول بإسناد صحيح .

«نجا أول هذه الأمة باليقين والزمه وبذلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل»^(١) ، وقيل بينا عيسى عليه السلام جالس ، وشيخ يعمل بمساحة يدير بها الأرض ، فقال عيسى : اللهم ارفع منه الأمل ، فوضع الشيخ المساحة واضطجع فلبث ساعة ، فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل ، فقام ليجل يعمل فسأه عيسى عن ذلك فقال : بينا أنا أعمل إذ قالت لي نفسى : إلی من تعمل وأنت شيخ كبير ! فألفت المساحة واضطجعت ثم قالت لى نفسى : والله لا بد لك من عيش ما يقيت ، فعدت إلى مسجاني . وقال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ألكم يجب أن يدخل الجنة ؟» ، قالوا : نعم يا رسول الله قال : قصروا من الأمل وابتوا أجالكم بين أبصاركم واستحيروا من الله حق الحياء^(٢) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير المآلات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل»^(٣)

الآثار : قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجيئ للخصيت على ذهاب عقلي ؟ ولكن الله تعالى من على عباده بالغرفة عن الموت ولولا النغمة لما نأوا بعيش ولا قامت بينهم الأسواق . وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مضى المسلمون في الطرق وقال الثوري يفتنى أن الإنسان خلق أحق ولولا ذلك لم يبتأه العيش : وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن : إنما حمرت الدنيا بقلة عقول أهلها ، وقال سليمان الفارسي رضي الله عنه . ثلاث أجمعتي حتى أمتحكتي ، مؤمل الدنيا والموت يطبله وغافل وليس يغفل عنه وضاحك مل فيه ولا يدرى أساخط رب العالمين عليه أم راض ، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني ، فرأيا لأحبة - محمد وحزبه - وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر في أو إلى النار . وقال بعضهم : رأيت زيارة بن أبي أوفى بعد مرته في المنام فقلت : أي الأعمال أبلغ عندك ؟ قال : التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل التلطيظ ولا لبس العيافة . وسأل الفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عن شهوة الطعام والشراب ، ثم دعا به فرد عليه الأمل ، فرجع إلى الطعام والشراب ، وقيل للحسن : يا أبا سعيد ألا تنسل قبيصك ؟ فقال الأمر أجمل من ذلك . وقال الحسن : الموت معقود بنواصيك والدنيا تطوى من وراءك . وقال بعضهم أنا كرجل ماد عنه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنه . وقال داود الطائي : لو أعلمت أن أعيش شمرا لأبقي قد أتيت عظيما ، وكيف أوئل ذلك وأرى الفجائع تنشي الخلائق في ساعات الليل والنهار ؟ وحكي أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذه يقال له أبو هاشم الرماني - وفي طرف كسائه شيء مصرور - فقال له أستاذه ؟ إيش هذا معك ؟ فقال : لوزات فدعها إلى أخ لي وقال : أحب أن تقطر عليها ، فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلتلك أبدا ، قال : فأغلق في وجهي الباب ودخل . وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن لكل سفر زادا إلا حالة فتوودوا لسفرهم من الدنيا إلى الآخرة التتوى ، وكونوا كمن عاين ما عاهد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يطلون عليكم إلا دم تقسروا قلوبكم وتتقادوا لمدومكم ، فإنه والله ما يبط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مساء ولا يمسى بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات النايما ، وكما رأيتم من كان بالدنيا مقترا ، وإنما تقو عين من

(١) حديث «نجا أول هذه الأمة باليقين والزمه وبذلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) حديث الحسن «ألكم يجب أن يدخل الجنة ؟» قالوا : نعم يا رسول الله قال «نصروا من الأمل ... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مسرلا . (٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير المآلات وأعوذ بك من أمل يمنع خير النسل » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن أبيه صلى الله عليه وسلم وفي إسناده ضعف وجهاله ولا أدري من حوشب .

وثق التجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يبادى كلها إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله من أن آمرم بما لا ينهى عنه نفسى فتخسر صفقى وتظهر عيقتى وتبدو مسكتى فى يوم يبدو فيه الفنى والفقر والموازن فيه منصوبة ، لقد عظيم بأمر لو عيت به التجوم لانكدرت ولو عيت به الجبال لثابت ولو عيت به الأرض لتشققت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صارتون إلى إحداهما . وكتب رجل إلى أخ له : أما بعد ؛ فإن الدنيا حلم والآخرة بقطة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أحضان أحلام والسلام . وكتب آخر إلى أخ له : إن الحزن على الدنيا طويل والموت من الإلباس قريب ولتقص فى كل يوم منه نصيب ، وللبلاء فى جسمه ديب ، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن : كان آدم عليه السلام - قبل أن يخطئ - أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حوّل لجل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن سميح : سمعت أبى يقول ، أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير قسم ، أيها المغتر بطول الملة أما رأيت مأخوذاً قط من غير عتة ، إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك بالصحة تفترون أم بطول العافية ترحسون ، أم الموت تأمنون أم على ملك للموت تجمتون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك ، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ، ثم يقال رحم الله عبداً عمل لما بعد الموت ، ورحم الله عبداً نظر لنفسه قبل زول الموت ، وقال أبو زكريا التيمي : بيننا سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام إذا أتى بحجر مغرور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه فلذا فيه : ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لوهدت فى طول أمك ولربغت فى الزيادة من عملك وانصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلك أهالك وحشملك وفارقك الوالد والقرىب ورفقذك الوالد والنيب ، فلا أنت إلى دنياك قائم ولا فى حسناك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والتدامة ، فبكى سليمان بكاء شديداً ، وقال بعضهم : رأيت كتاباً من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف ، سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو أما بعد فإني أحذرك متحولك من دار مهلكك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير فى قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكرك وتكبر فيقعدانك ويثبيرانك فإن يكن الله ملك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذنى الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ، ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلاق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الأسرار وأسمرت النار ووضعت الموازين وجرى بالثقلين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ، فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم ، فبالت شعري ما حالى وحالك يومئذ فمذا ما هدم اللذات وأسل عن الله ، وابت وقصر عن الأمل وأبقت الثابتين وحذر الغافلين ، أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبى وقلبك موقعهما من قلوب التقيين ، فلما نحن به وله والسلام وخطب عمر بن عبد العزيز ، حمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى ، وإن لكم مادداً يجمعكم الله فيه الحكم والفصل فيما بينكم ، غلب وشقى غداً عبد أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شيء وجته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف واتقى وباع قليلاً بكثير وثانياً يباق وشقة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أسلاب المالكين وسيفك بدمك الباقون ألا ترون أنكم فى كل يوم تفسعون غداً ودرأنا إلى الله عز وجل قد قضى نحبنا وانقطع أمله فتضمونه فى بطن صدع من الأرض غير موسى ولا هادى ،

قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب ، وإيم الله أني لأقول مقاتلي هذه ولأعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر بما أعلم من نفسي ، ولكننا سنمن من الله عاقلة أمر فيها بطاعته وأنبي فيها عن معصيته واستغفر الله . ووضع كفه على وجهه وجعل يديه حتى بات دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات . وقال التقطاع بن حكيم : قد استبدت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أناني ما أحببت : أخير شيء عن شيء . وقال الثوري : رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول : أناني هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل في ، ولو أناني ما أمرته بشيء ولا نهيتني عن شيء ، ولألى على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء . وقال عبد الله بن ثعلبة : تضطك ولعل أكفائك قد خرجت من عند القصار . وقال أبو محمد بن علي الزاهد : خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فالتبذ فتمد ناحية وهي تدفن ، جثت فقدمت قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ، ومن طال أمه ضعف عمله وكل ما هزأت قريب واعلم بأخى أن كل شيء يبتغى عن ربك فهو عليك مشغوم ، واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور لأنما يندمون على ما غفلون ويفرحون بما يقدمون ، فإندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتقاسمون وعليه عند القضاة يختصمون ، وروى أن مروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة ، قال عبد بن أبي توبة فقال تقدم ، فقلت : إني إن صليت بك هذه الصلاة لم أصل بك غيرها ، فقال معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصل صلاة أخرى لئلا يفتن بك من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل . وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظمن عنها ، فكمن من عاصر موثق عما قليل يغرب وكم من مقم مشتبط عما قليل يظمن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضركم من الثقة وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، إنما الدنيا كفي غلال قلص فذهب ، بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرر العين إذ دعا الله بقدره ورواه يوم حنقه قبله آثاره ودنياه ، وصير لقوم آخرين مصالفة ومغناه ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر إنما تسر قليلا وتمرح طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول في خطبته : أين الوضاء الحسنة وجوههم للمحبين بشبابهم ؟ أين الملوك الذين ينوا المدائن وحسنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب ؟ قد تضمتهم بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الوجا الوجا ثم التها التجا !

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلم أن طول الأمل له سببان ، أحدهما : الجهل ، والآخر : حب الدنيا .

أما حب الدنيا : فهو أنه إذا أنس بها وبشهراتها وذلاتها وعلاقتها فقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من التفكير في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه . والإنسان مشغوف بالأمان الباطلة فينسى نفسه أبدا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر تروابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقترق به ، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعده نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتديبر مسكنه ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك . فلا يزال يسرف ويؤخر ، ولا يحوض في شغل إلا ويبتلعن بإتمام ذلك الشغل ضرة أشغال أخر ، وهكذا على التدرج

يؤخر يوما بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تحتطفه المنية في وقت لا يحسب ، فتطول عند ذلك حسرته . وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون : واحزننا من سوف . والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا ، وإنما يرداد بطول المنة قوة ورسوخا ، ويظن أنه يتصور أن يكون الخائف في الدنيا والحافظ لما فراغ قط ومعاتا فبا يفرغ منها إلا من طرحها .

لما قضى أحد منها لباتته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والآنس بها والنفقة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم : أحب من أحببت فإنك مفارقة (١) .

وأما الجهل : فهو أن الإنسان قد يعزل على شيا به فيستبدد قلب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لسكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ظلي أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب . وقد يستبدد الموت لصحته ويستبدد الموت لجأه ، ولا يدري أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيدا فأمرض لجأه غير بعيد ، وكل مرض فلنما يقع لجأه ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا ، ولو تفكر هذا الناقل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار أعظم استشهاده واشتغل بالاستعداد له ، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى النفقة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر زوله به وقوعه فيه ، وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدر أن تفسح جنازه ، لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه فإنه لم يقع ، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد هذه ، فهو الأول وهو الآخر . وسيله أن يقيس نفسه بنبيه ويعلم أنه لابد وأن يحمل جنازه ويدفن في قبره ، ولعل الذين ينطلي به لحدده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويله جهل محض .

وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه .

(أما الجهل) فيدفع بالفكر الصافي من القلب المحاصر وبسبب الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة .

(وأما حب الدنيا) فالعلاج في إخراجها من القلب شديد وهو الداء المضال الذي أعيا الأتولين والآخرين علاجه ، ولعلاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطير هو الذي يحو عن القلب حب الخير . فلذا رأى حفارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب ، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكتر متعصر ، فكيف يفرح بها أديرة سخر في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ؟ فسل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراما الصالحين من عباده . ولعلاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جامهم الموت في وقت لم يحسبوا . أما من كان مستعظا فقد طر فوزا عظيما ، وأما من كان مفرورا بطول الأمل فقد خسر خسرا مبيتا . فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لاحتاجة ؟ وكيف تنفتت عظامها ؟ وليتفكر أن الدود يبدأ بجدته الجني أولا أو اليسرى ؟ لما على يده شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى

(١) حديث « أحب من أحببت فإنك مفارقة ... الحديث » تقدم غير مرة .

وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأحوال القيامة وفرع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هي التي تجتهد ذكر الموت على قلبه وتدعو إلى الاستعداد له .

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون ؛ فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدا قال الله تعالى ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ ومنهم من يأمل البقاء إلى المهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترقواته من الكبر إلا الذين اتقوا وقيل مام^(١) ، ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل ، ولكن هذا يستعمل في الصيف لشتاء وفي الشتاء للصيف ، فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة . ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمه إلى يوم وليلة ، فلا يستعمل إلا لنهاره وأما اللذ فلا . قال عيسى عليه السلام : لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فسأتى فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم . ومنهم من لا يحاوز أمه ساعة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله إذا أصبحت فلا تبحث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تبحث نفسك بالصباح ، ومنهم من لا يقدر البقاء أبداً ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيم مع القدره على المساء قبل مضي ساعة ويقول : لعل لا أبلغه ، ومنهم من يكون للموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره ، وهذا الإنسان هو الذي يصل صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال : ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أبلغها أخرى^(٢) وكما نقل عن الأسود وهو حبشي أن كان أنه يصل ليلا ويبتلع يميناً وشمالاً فقال له قائل : ما هذا ؟ قال : أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني .

فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمه مقصور على شهر كن أمه شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله ، ف (إن الله لا ينظر مثقال ذرة - ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل ، وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب ، إنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يمتنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة ، فيدل ذلك على طول أمه . وإنما علامة التوفيق أن يكون للموت نصب العين لا ينفل عنه ساعة ، فليست للموت الذي يرد عليه في الوقت ، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنهم يضيئ نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ، ثم يستأنف مثله إلى الصباح ؛ وهكذا إذا أصبح . ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن اللذ وما يكون فيه . فقل هذا إذا مات سعد وغم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة ؛ فلو لم له سعادة والحياة له مزيد ، فليكن الموت على بالك يمسك إن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قربت للمزل وتقطعت للمسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناماً لكل نفس أمهلت فيه .

(١) حديث : الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقواته من الكبر إلا الذين اتقوا ولا الذين اتقوا وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترقواته من الكبر إلا الذين اتقوا وقيل مام^(١) ، ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل ، ولكن هذا يستعمل في الصيف لشتاء وفي الشتاء للصيف ، فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة . ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمه إلى يوم وليلة ، فلا يستعمل إلا لنهاره وأما اللذ فلا . قال عيسى عليه السلام : لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فسأتى فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم . ومنهم من لا يحاوز أمه ساعة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله إذا أصبحت فلا تبحث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تبحث نفسك بالصباح ، ومنهم من لا يقدر البقاء أبداً ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيم مع القدره على المساء قبل مضي ساعة ويقول : لعل لا أبلغه ، ومنهم من يكون للموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره ، وهذا الإنسان هو الذي يصل صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال : ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أبلغها أخرى^(٢) وكما نقل عن الأسود وهو حبشي أن كان أنه يصل ليلا ويبتلع يميناً وشمالاً فقال له قائل : ما هذا ؟ قال : أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني .

بيان للمبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان ويقتظر قدوم أحدهما في غد ويقتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستمد الذي يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستمد الذي ينتظر قدومه غد . فالاستمداد نتيجة قرب الانتظار . فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر السنة بكاملها لا ينقص منها اليوم الذي مضى ، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً يرى نفسه مقسماً في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغياً أو فقراً منسياً أو مرضاً مفسداً أو هرمًا مقيداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال ، فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر »^(١) ، وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يخطه : اغترب خمسا قبل خمس شبائك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لعمتان مغبوران فيما كثير من الناس : الصحة والفراغ^(٣) . أى أنه لا يفتقهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما ، وقال صلى الله عليه وسلم : من خاف أدج من أدج بلغ المنزل . إلا أن سلمة الله غالية ألا أن سلمة الله الجنة^(٤) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاءت الراجفة تتبعها وجاء الموت بما فيه^(٥) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتستمك النية رابطة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة^(٦) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا النذير ، والموت المغير ، والساعة الموعد^(٧) ، وقال ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السف فقال : « ما بقى من الدنيا إلا كما بقى من يومنا هذا في مثل ما مضى منه »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : مثل الدنيا كتل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقى متملقاً يخطئ في آخره فيوشك ذلك الحيط أن يقطع^(٩) ، وقال جابر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجهته كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومسيكم . نبئت أنا والساعة كهاتين . - وقرن بين أصبعيه^(١٠) ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فمن يرد أن يهديه يشرح صدره للإسلام) فقال : إن الثور إذا دخل الصدر انفسح ، فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟

(١) حديث « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغياً أو فقراً منسياً .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة بلط « هل ينتظرون إلا غنى ... الحديث » وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في مصير الأمل بلط المصنف وفيه من لم يسم . (٢) حديث ابن عباس « اغترب خمسا قبل خمس شبائك قبل هرمك .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في إسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميسون الأزدي مرسل . (٣) حديث « لعمتان مغبوران فيما كثير من الناس : الصحة والفراغ » أخرجه البخارى من حديث ابن عباس وقد تقدم . (٤) حديث « من خاف أدج من أدج بلغ المنزل » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقاله حسن . (٥) حديث « جاءت الراجفة تتبعها وجاء الموت بما فيه » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث أبي بن كعب . (٦) حديث « كان إذا أس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتستمك النية ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في مصير الأمل من حديث زيد السلسي مرسل . (٧) حديث أبي هريرة « أنا النذير ، والموت المغير ، والساعة الموعد » أخرجه ابن أبي الدنيا في مصير الأمل وأبو التمام البنى بإسناده فيه لين .

(٨) حديث ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السف فقال : « ما بقى من الدنيا إلا مثل ما بقى من يومنا هذا في مثل ما مضى منه » أخرجه ابن أبي الدنيا في إسناده حسن والترمذى نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه (٩) حديث « مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في حديث أس ولا يصح (١٠) حديث جابر : كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجهته ... الحديث » أخرجه مسلم وابن أبي الدنيا في مصير الأمل والمقنط لـ .

قال : نعم التجاني عن دار النور والإجابة إلى دار الخلود والاستعداد للوث قبل نزوله ^(١) ، وقال السدي (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أي أيكم أكثر للوث ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفاً وحذرا . وقال حذيفة : ما من صباح ولا مساء إلا ومنادى ينادى : أيها الناس الرجل الرجل . وتصديق ذلك قوله تعالى (إنما لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) في الموت . وقال سحيم - مولى بني تميم - جلس إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل على فقال : أرحنى بحاجتك فلأن أبادر ، قلت : وما أبادر ؟ قال : ملك الموت رحلك الله ، قال : فمقت عنه وقام إلى صلاته . ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال : دعني ! إنما أبادر خروج نفسي : قال عمر رضي الله عنه : التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للأخرة . وقال المنذر : سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ! ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ! ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ! حتى كرر ذلك ستين مرة اسمه ولا يراني . وكان الحسن يقول في موعظته : المبادرة المبادرة فلأنما هي الانفاس لو حيث انقطعت عنكم أعمالكم التي تقرّبون بها إلى الله عز وجل ، ورحم الله امرأ ! نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ! ثم قرأ هذه الآية (إنما نمت لم عملا) يعني الانفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أملاك ، آخر العدد دخولك في قبرك . واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهدا شديدا ، فقيل له : لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق ؟ قال : إن الخيل إذا أرسلت فقاربت عرسا مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجل أقل من ذلك ! قال : فلم يزل على ذلك حتى مات . وكان يقول لامرأته : شدي رحلك فليس على جهنم معيرة . وقال بعض الحكماء على منبره : عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صريح بهم فاقبوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، واستمقوا للوث فقد أطلقكم وترحلوا فقد جدّ بكم ، وإن غاية تنقصها اللطف وتمهيد الساحة لجديرة بقصر المدة ، وإن غايها جمده به الجديان الليل والنهار لخرى بسرعة الآوبة ، وإن قائما يعمل بالنور أو الشقوة لمستحق لأفضل المدة ، فالتق عند ربك من ناصح نفسه وقم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له ، والشيطان موكل به يئنه التوبة ليسوقها ويؤين إليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون منها ، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيألفا حسرة على ذى غفلة أو يكون حمرة عليه حجة وأن تزيه أيامه إلى شقوة ، جعلنا الله ولزيناكم بمن لا يبطره لعمه ولا يقصره عن طاعة الله معصية ولا يعمل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء وإنه بيده الخير دائما فاعمال لما يشاء .

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى (فتنن أنفسكم) قال بالشهوات والذات (وتربصن) قال بالتوبة (وارتمن) قال شككنم (حتى جاء أمر الله) قال الموت (وغرکم بالله النور) قال الشيطان . وقال الحسن : نصبوا وتعدّدوا فلأنما هي أيام فلائلك وإنما أتم ركب ووقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم . وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد أصبح (لا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرقرعل والمارة مؤداة . وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال رجلا بكم وأملأ حياكم الله بالسلام وأحلتنا ولزيناكم دار المقام ، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتفقتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخير وحكم الله أن تسموه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن ، فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رأى غايبا

(١) حديث ابن مسعود : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) فقال له ابن النور إذا دخل القلب انفسح ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والملاح في المستدرک وقد تقدم .

ورأى ما لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبه على قصبه ولكن رفع له تلم فشر إليه الرضا التبا التبا علام ثم جردن أبيض ورب الكعبة كأنهم والأمر معا ، رحم الله عبدا جعل العيش عيشاً واحداً فأكل كسرة وليس خلفاً ولوق بالأرض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك^(١) . وقال عاصم الأول : قال لي فضيل الرامى - وأنا سائله - يا هذا لا يشغلك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر ينحصر إليك دونهم ولا تقل أذهب مهتماً وهماً فيقطع عنك الهارب في لاشئ ، فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئاً قط أحسن طلباً ولا أسرع إذراً كما من حسنة حديثة لذنوب قديم .

الباب الثالث : في سكرات الموت وشده وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أن لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بهجرهما ، لكان جديراً بأن ينقش عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفله ، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده ، لاسيما وهو في كل نفس يصده كما قال بعض الحكماء : كرب يد سواك لا تدري متى ينشاك . وقال لقمان لابنه : يا بني أمر لا تدري متى يلفاك استمد له قبل أن يفجأك . والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس الفهم فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه ، وهو في كل نفس يصعد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزوع ووضعه خافل ، فالحل هنا سبب إلا الجهل والغرور واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذوقها فلانما يعرفها إلا بالتأيس إلى الآلام التي أدركها وإما بالاستدلال بأحوال الناس في شدة ما هم فيه . فاما التأيس الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم ، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح ، فهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم ، ولولم ينفرد على اللحم والدم وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم ، فإن كان في الآلام ما يبائر نفس الروح ولا يلاق غيره لما أعظم ذلك الألم وما أشده !

والنوع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم . فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاق ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تنفص في سائر أجزاء البدن ، فلا يبق جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحته الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم .

وأما الجراحة : فلانما تصيب الموضع الذي منه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار ، فألم النزوع بهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فله المنزوع المجذوب من كل عرق من المروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء مفصل من المفصل ومن أصل كل شجرة وبشرة من الفرق إلى القدم ، فلا تسأل عن كربته وألمه ؛ حتى قالوا : إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالناشير وقرض بالمقاريض لأن نزع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتألم المباشر نفس الروح ؟ وإنما يستغيث المضروب ويصبح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه ونصاعده على قلبه ، ويبلغ كل

(١) حدثني أبي عبيدة بن الجراح : حدثنا علي بن الحسن عن أبيه قال : قال عليه السلام : من لم يذوق الموت لم يعرف الحياة . أخرجه ابن أبي الدنيا في نصر الأئمة وابن جرير في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

موضع منه فهذه كل قوة وضعف كل جراحة فلم يترك له قوة الاستئانة .

أما العقل فقد غشيه وشوشه . وأما اللسان فقد أبكه ، وأما الأطراف فقد ضعفها . ويرد لو قدر على الاستراحة بالآتين والصياح والاستئانة ولكنه لا يقدر على ذلك ، فإن بقيت فيه قوة صمتت له عند نزع الروح وجذبها خوارة وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه وارتد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي أوصل فطرته ، وقد جذبته كل عرق على حياله ، فالألم منتشر في داخله وخارجته ، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أبلغانه ، وتقلص الشفتان ، ويتقلص اللسان إلى أصله ، وترتفع الألتان إلى أعالي موضعيهما ، وتختصر أنامله .

فلا تسأل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ! ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان الله عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم غمده ، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها وينلق دونه باب التوبة ويحيط به الحسرة والدماة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقبل توبة العبد ما لم يغرغر »^(١) ، وقال مجاهد في قوله تعالى (« وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ») قال : « إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدوا له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ! ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم هون على محمد سكرات الموت »^(٢) ، والناس إنما لا يستعينون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الخواريين ادعوا الله تعالى أن يهون على هذه السكرة - يعني الموت - فقد خفت الموت مخافة أوقفتي خوفا من الموت على الموت ، وروى أن نفرا من إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض : لودعوتكم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا نسألونه ؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم رجل قد قام وبين عينيه أثر السجود فقد خرج من قبر من القبور فقال : يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكت مرارة الموت من قلبي . وقالت عائشة رضي الله عنها : لا أغبط أحد يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أنه عليه السلام كان يقول : اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل . اللهم فأعني على الموت وموته على^(٣) ، وعن الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغشته وأله فقال : هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف^(٤) ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدة فقال : إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعهما صوف^(٥) ، ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال : « إني أعلم ما يلقي مامته عرق إلا رأيت الموت على حده »^(٦) ، وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول :

- (١) حديث « أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر .
- (٢) حديث كان يقول « اللهم هون على محمد سكرات الموت » تقدم . (٣) حديث كان يقول « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث سمعة بن شيران الجني وهو معضل سقط منه السطحي والناثبي . (٤) حديث الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغشته وأله فقال : هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف » أخرجه ابن أبي الدنيا فيمكننا مرسلنا ورجاله ثلاث . (٥) حديث : يسأل عن الموت وشدة فقال : « إن أهون الموت بمنزلة حسكة .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في رواية شوبر بن حوشب مرسل . (٦) حديث : دخل على مريض فقال : « إني أعلم ما يلقي مامته عرق إلا رأيت الموت على حده » أخرجه ابن أبي الدنيا في حديث سلمان بنسند ضيف ورواه في المرض والسكرات من رواية عبيد بن حمير مرسل مع اختلاف ورجاله ثلاث .

إن لم تقتلوا تموتوا والذي قضى يده لآلف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش . وقال الأزرعى :
 بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يصب من قبره . وقال شقاذ بن أوس : الموت أضع هول في الدنيا والآخرة على
 المؤمن ، وهو أشد من نشر المناشير وقرض بالمنايرض وغل في القصور . ولو أن للميت نشر فأخبر أهل الدنيا
 بالموت ما انتفعوا بعيش ولا دنوا بنوم . وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم
 يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكرهه درجة في الجنة ، وإذا كان للكافر معزوف لم يجر به
 مؤن عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار . وعن بعضهم : أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف
 يجدون الموت ؟ فلما مرض قيل له : فأنت كيف تجده ؟ فقال : كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسي
 يخرج من قنب إبرة . وقال صلى الله عليه وسلم : موت النجاة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر ^(١) ، وروى عن
 مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لو أن شجرة من شجر الميت وضعت على أهل السموات والأرض
 لما تروا بإذن الله تعالى لأن في كل شجرة الموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات ^(٢) ، وروى : لو أن قطرة من ألم
 الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت ^(٣) ، وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له : كيف
 وجدت الموت يا إبراهيم ؟ قال : كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب . فقال : أما إذا قد مؤنا عليك . وروى عن
 موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : يا موسى كيف وجدت الموت ؟ قال : وجدت
 نفسي كالمصفور حين يقلى على الخيل لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير ، وروى عنه أنه قال : وجدت نفسي كشاة
 حية تسلك بيد القصاب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده فصح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل
 يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول : اللهم مؤن على سكرات الموت ^(٤) ، وفاطمة رضي الله عنها تقول :
 واكرهه لكرهك يا ابتاه وهو يقول : لا كرب على أبيك بعد اليوم ^(٥) ، وقال عمر رضي الله عنه لكعب
 الأحبار يا كعب حدثنا عن الموت ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كفص كثير الشوك أدخل في جوف
 رجل وأخذت كل شوكه بهرق ، ثم جذبه رجل شديد الجلب فأخذ ما أخذ وأبقي ما أبقي وقال النبي صلى الله عليه
 وسلم : إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : عليك السلام
 تفارقت وأفرقتك إلى يوم القيامة ^(٦) .

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأصحابه . فاحالنا ونحن المنهكون في المعاصي وتوالى علينا مع سكرات الموت
 بقية الدواهي فإن دواهي الموت ثلاث :

(الاول) شدة الذرع كاذكرناه .

(١) حديث « موت النجاة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر » أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناده صحيح قال : وأخذت أسف
 ولأبي داود من حديث خالد السلي « موت النجاة أخذت أسف » (٢) حديث مكحول « لو أن شجرة من شجر الميت وضعت
 على أهل السموات والأرض لما تروا بإذن الله تعالى » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رضي الله عنه . ولو أن ألم
 شجرة وزاد « وإن في يوم القيامة لتسعين حولا أذنا حولا يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف » وأبو ميسرة هو
 عمرو بن شرحبيل والمحدث مرسل حسن الإسناد (٣) حديث « لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت »
 لم أجده أسلا ولا قبل المستف لم يورده حديثنا فإنه قال : وروى : (٤) حديث : « أنه كان عنده فصح من ماء عند الموت ،
 فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول : اللهم مؤن على سكرات الموت » متفق عليه من حديث عائشة .
 (٥) حديث : « إن فاطمة قالت واكرهه لكرهك يا ابتاه » أخرجه البخاري من حديث أس بن بلط : واكرهه
 أبتاه « وفي رواية لابن خزيمة : واكرهه . (٦) حديث « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم
 بعضها على بعض . الحديث » رويته في الأربعين لأبي هديرة إبراهيم بن هديرة من أس وأبو هديرة عاله .

(الدمية الثانية) مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القلب ؛ فلما رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته . فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن ترى صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لا تطيق ذلك ، قال : بلى ، قال : فأعرض عني فأعرض عنه . ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر ، مثني الرخ ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لميب النار والدخان ؛ فغشى على إبراهيم عليه السلام . ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حبه ؛ وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب ، فأغلق ذات يوم وخرج فأعترف امرأته فإذا هي برجل في النار فقال : من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناه ؟ فجاء داود فرأه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أماب للوكة ولا ينفع مني الحجاب ، فقال : فأنت والله إذن ملك الموت وزمّل داود عليه السلام مكانه ^(١) ، وروى أن عيسى عليه السلام مر بمجمعة فضر بها رجلاه فقال : تكلمني يا ذناب فقال : يا روح الله أنا ملك زمان كلنا وكذا ، بينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحول جنودي وحشي على سرير ملكي ، إذ بدا لي ملك الموت فوالى من كل عضو على حياله ، ثم خرجت نفسي إليه ، فبالت ما كان من تلك المجموع كان فرقة ؛ وبالت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ؛ فهذه داهية يلقاها العصاة ويكتفاهما المطيعون ، فقد حكى الأنبياء بحمد سكرة النوع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ، ولو رأها في منامه ليله لتنص عليه بقية عمره ؛ فكيف برؤيته في مثل تلك الحال ؟ .

وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتبذ فيه ، فإذا خرج أغلقه ، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال : من أدخلك داري ؟ فقال : أدخلتها ربها ؛ فقال : أنا ربها ، فقال : أدخلتها من هو أملاكها بها ؟ فقال : منك ، فقال : من أنت من اللامكة ؟ قال : أنا ملك الموت ، قال : هل تستطيع أن ترى الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم ، فأعرض عني ، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن لباسه وطيب ريحه ، فقال : يا ملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورته كان حبه .

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يقرأ له ملكاه الكتابان عمله ، فإن كان مطيعا قال له : جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح أحضرنا ، وإن كان فاجرا قال له : لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح أحضرنا وكلام فيجح أسعنا فلا جزاك الله عنا خيرا . فذلك شخص بهر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا .

(الداهية الثالثة) مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة ؛ فلو أنهم في حال السكرات قد تجاوزت قواهم واستسلمت للعروج أرواحهم ، ولن يخرج أرواحهم مالم يسموا نعمة ملك الموت بأحد البشريين ؛ إما أبشر يا عدو الله بالنار ، أو أبشر يا أولي الله بالجنة . ومن هذا كان خوف أرباب الآليات ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي هريرة : أن داود كان رجلا غيورا ... الحديث « أخرجه أحمد بإسناد صحيح نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بالفظه (٢) حديث « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي بن موقوف « لا يخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أو إلى النار » وفي

« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » فقالوا : كلنا نكره الموت قال : ليس ذاك بهذا إن المؤمن إذا فرج له عما هو قائم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ^(١) » وروى أن حذيفة بن اليمان قال لأن مسعود - وهو لحابه من آخر الليل : قم فانظر أى ساعة هي ؟ فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال : قد طلعت الخراف فقال حذيفة : أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على أبي هريرة ، فقال مروان : اللهم خفف عنه ، فقال أبو هريرة : اللهم اشد له ثم بكى أبو هريرة وقال : والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي الجنة أم النار ، وروى في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله إذا رضى عن عبد قال : يا مالك الموت اذهب إلى فلان فأنتي بروحه لأرجمه ، حسبى من عمله ، قد بلوته فوجدته حيث أحب ؛ فينزل ملك الموت ومعه خمسائة من الملائكة ومهمهم قضان الریحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه ، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه ، مهمهم الریحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ ، قال فيقول له جنوده : مالك ياسيدنا فيقول : أما تزون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا ؟ قالوا : قد جئنا به فكان معصوما ^(٢) » وقال الحسن : لراحة اللؤم إن لقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله لعل في يوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه . وقيل لجابر بن زيد - عند الموت : ما تشتهي ؟ قال : غفلة إلى الحسن ، فلما دخل عليه الحسن قيل له : هذا الحسن ارفع طرفه إليه ثم قال : يا إخواناه الساعة والله أنظركم إلى النار أو إلى الجنة . وقال محمد بن واسع - عند الموت : يا إخواناه عليكم السلام إلى النار أو يعمو الله وتغنى بعضهم أن بيتي في الزرع أبدا ولا يبعث ثراب ولا عتاب ، تخوف سوء الحاتمة قطع قلوب المارقين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت . وقد ذكرنا معنى سوء الحاتمة وشدة خوف المارقين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع . ولكننا لا نقول بذكره وإعادته .

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المخير عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ؛ ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى .

(أما الصورة) فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ارفعوا الميت عند ثلاث : إذا رشح جبينه ودمعت عيناه وبهت شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به ، وإذا غط غطيته الخنوق واجزأ لونه وأربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به ^(١) » .

(وأما الظن لسانه بكلمة الشهادة) فهي علامة الخير . قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه

« رواية : حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار » وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يهبط ذلك « إن المؤمن إذا حضره الموت يمر برضوان الله وكرامته وإن السكابر إذا حضر يمر ببذاب الله وعقوبته ... الحديث » . (١) حديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ... الحديث » متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت . (٢) حديث « إن الله إذا رضى عن عبد قال : يا مالك الموت اذهب إلى فلان فأنتي بروحه لأرجمه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الفارسي بإسناد ضعيف زيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برحمته وفي آخره مادل على أنه ممنوع ولقناني من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح « إذا حضر الميت آتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أخرجني راضية عنك إلى روح الله ورحمانه ورب راض غير غضبان .. الحديث » . (٣) حديث « ارفعوا الميت عند ثلاث : إذا رشح جبينه وفترت عيناه ... الحديث » أخرجه الترمذي المحكم في نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح .

وسلم . لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله ^(١) ، وفي رواية حذيفة : فإنها تهم ما قبلها من الخطايا ^(٢) ، وقال عثمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ^(٣) ، وقال عبيد الله : وهو يشهد ، وقال عثمان : إذا احتضر الميت فلقنوه : لا إله إلا الله ، فإنه ما من عبد يحتم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضي الله عنه : احضروا موتاكم وذكروهم فليهم برون ما لا ترون واقتنوم : لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حضر ملك الموت رجلا يموت فظفر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ، ففلك لحية فوجد طرف أسنانه لا ما ما بمنحه يقول : لا إله إلا الله ، فففر له بكلمة الإخلاص ^(٤) .

ويبنى للفقن أن لا يلح في التلقين ولكن يتلطف ، فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدى إلى استغفاله التلقين وكرهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الحاجة .

ولها معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله ، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على عبوه غاية النعيم في حق . وإن كان القلب مشغولاً بالدينا ملتفتاً إليها متأسفاً على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطق القلب على تحقيقها ، وقع الأمر في خطر المشيمة ، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يفضل الله تعالى بالقبول .

(وأما حسن الظن) فهو مستحب في هذا الوقت - وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء - وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله ، دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ؟ قال : أغرقتني ذنوب في رأشرت على ملكي ولكن أرجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال : الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يقول الله تعالى أما سند ظن عبدى في ليلظن في ما شاء ، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال : كيف تجدك ؟ قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما اجتماعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وأمنه من الذي يخاف ^(١) ، وقال ثابت البناني : كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له : يا بني إن لك يوما فاذكر يومك ، فلما نزل به أمر الله تعالى أكيته عليه أمه وجعلت تقول له : يا بني قد كنت أحذرك مصرك هذا وأقول إن لك يوما ، فقال : يا أمه إن لي ربا كثير المعروف وإنى لأرجو أن لا يمدني اليوم بعض مروه ، قال ثابت : فرحه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة : كان شاب به رفق فاحتضر ، فقال له أمه : يا بني توهى بشيء ؟ قال : نعم ، خائى لا تسليبيه فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني ، فلما دفن روى في المنام فقال : أخبروا أمي أن الكلمة قد نغمت وأزادته قد غفر لي . ومرض أعرابي فقيل له إنك تموت ، فقال : أين يذهب في ؟ قالوا : إلى الله ، قال : فما كرامتي أن أذهب إلى من لا يرى الخلد إلا لاهته . وقال أبو المصنم بن سليمان : قال أبي لما حضرته الوفاة : يا معتبر حدثني بالرخص ليلي ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به وكانوا يستحجون أن يذكر اللبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه .

- (١) حديث : لنا موتاكم : لا إله إلا الله . تقدم . (٢) حديث حذيفة : فإنها تهم ما قبلها : تقدم . (٣) حديث : من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة . تقدم . (٤) حديث أبي هريرة : حضر ملك الموت رجلا يموت فظفر في قلبه فلم يجد فيه شيئا . الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والعلبان واليهيق في القصب وأسناده جيد إلا أن في رواية اليهيق رجلا لم يسم وسمي في رواية الطبراني إسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف . (٥) حديث : دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ؟ وفيه : يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء . أخرجه ابن جبان بالرواية منه وقد تقدم وأحد واليهيق في القصب به جيبا . (٦) حديث : دخل على شاب وهو يموت فقال : كيف تجدك ؟ قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي . الحديث . تقدم .

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بمحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن سلم : سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت - واسمه عزرائيل وله عتبان عين في وجهه وعين في قفاه - فقال : يا ملك الموت ما تنصع . إذا كان نفس بالشرق ونفس بالمغرب ووقع الزوال بأرض والتي الزحفان كيف تنصع ؟ قال : أدعوا الأرواح يا ذن الله فتكون بين أصبى هاتين ، وقال : قد دحيت له الأرض فتركه مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء ، قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالي لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا ؟ قال ما أنا بذلك بأعلم منك ! إنما هي صحف أو كتب تلقى إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بتياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه - بعد مرات - وكذلك طلب دابة فأقبحها فلم تعجبه ، حتى أتى بدواب فركب أحسنها ؛ فجاء إبليس فنفض في منخره نفخة فلأه كبرا . ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام ، فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تماطيت أمر عظيم ! قال إن لي إليك حاجة قال أصبر حتى أنزل قال لا الآن ، فقهره على لجام دابته فقال أذكرها ! قال ، هو سر ، فأذن له رأسه فسار ، وقال ، أنا ملك الموت افتقر لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهل وأرضي حاجتي وأودعهم ، قال لا والله لا ترى أهلك وتلك أبداً أقبض روحه غلظ كانه خشبة ، ثم مضى فلقي عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال مات فساروه وقال أنا ملك الموت ! فقال أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته على فؤاده ما كان في الأرض غائب أحب إلي أن ألقاه منك ! فقال ملك الموت أقبض حاجتك التي خرجت لها ، فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى ! قال فأختر على أي حال شئت أن أقبض روحك ؟ فقال تقدر على ذلك ؟ قال نعم إن أمرت بذلك ، قال فدعني حتى أتوضأ وأصل ثم أقبض روحي وأنا ساجد ، فقبض روحه وهو ساجد وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبني أروني أعتاف أموالى ؟ فأتى بشئ كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسراً عليه ، فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك ؟ فوالذي خولك ما أباحناج من منزلك حتى أفوق بين روحك وبدنك ! قال فأمهلته حتى أمزقه قال هبناج انقضمت عنك المهلة ! فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك ؟ فقبض روحه . وروى أن رجلاً جمع مالا فأدعى ولم يدع صفاً من المال إلا اتخذه ، وأبقي قصراً وجعل عليه بابين وثيقين وجع عليه حراساً من غلمان ، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون فلما فرغوا قال يا نفس ألمسى لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك ؟ فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عاتقه حذاة يتشبّه بالمساكين ، ففرج الباب بشدة عظيمة فرأى أفرع وهو على فراشه ، فزوب إليه الثمان وقالوا ما شأنك ؟ فقال ادعوا إلى مولاكم فقالوا وإلى ذلك بخرج مولانا ؟ قال نعم فأخبروه بذلك فقال ملام فسلمتم به وفعلتم ، ففرج الباب قرعة أشد من الأولى ، فزوب إليه الحرس فقال أخبروه أني ملك الموت ، فلما سمعوه أتى عليهم العرب ووقع على مولاكم الذل والنتعش ، فقال قولوا له قولاً ليلاً وقولوا له تأخذ به أحداً ؟ فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما أنت صانع ، فأتى لست بخارج منها حتى أخرج روحك ، فأمر بآله حتى وضع بين يديه فقال حين رأته لك الله من مال ! أنت شغلتي عن عبادة ربى ومنعتني أن أنقل لربى ، فألق

الله المال فقال لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين في ويرد المتني عن بابهم وكنت تتسكع المتسكعات في ،
وتجلس مجالس الملوك في وتتفتني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفتحت في سبيل الخير نعمتك ؟ خلقت يا بن آدم
من تراب فلتطيق ببر ومنطلق يا أيم ، ثم قبض ملك الموت وروحه فسقط . وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت
روح جبار من الجبارة ما في الأرض مثله اثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة لمن كنت أشد رجوة ممن قبضت
روحه ؟ قال أمرت قبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأبيتها وقد ولدت مولودا فرحمتها لغيرها ورحمت ولدها
لصغره وكونه في فلاة لا مشاهد له بها . فقالت الملائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته
فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء ! قال عطاه بن يسار إذا كانت ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت
صحيفة فيقال أقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فلان العبد ليرس التراس وينسكع الأزواج ويبنى البنيان
ولن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري . وقال الحسن ما من يوم إلا وملك اليوم يتصفح كل بيت ثلاث مرات
فن وجده منهم قد استوفى رزقه وانهض أجله قبض روحه ، فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء ، فيأخذ ملك
الموت بمضادتي الباب فيقول والله ما أكلت له رزقا ولا أفنيت له عمرا ولا انتقصت له أجلا ، وإن لي فيكم
لمودة بعد عردة حتى لا أبقى منكم أحدا . قال الحسن فواقه لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم
ولبكوا على أنفسهم ، وقال يزيد الرقائبي يبيتا جبار من الجبارة من بني إسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض
أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فرعا مغضبا فقال له من أنت ومن أدخلك على داري ؟
فقال أما الذي أدخلني الدار فرها ، وأما أنا فوالذي لا يمنع من الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة
المتسلطين ولا يمتنع من كل جبار عنيد ولا شيطان مريد ؟ قال فسقط في يد الجبار وارتمد حتى سقط منكبا على
وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له فقال له أنت إذن ملك الموت ؟ قال أنا هو ، قال فهل أنت محمل
حتى أحدث عهدا ؟ قال هيبتا ! انقضت مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعته فليس إلى تأخيرك سبيل !
قال فوالى أين تذهب ؟ قال إلى عهلك الذي قدّمته وإلى بيتك الذي مهدته ، قال فوالى لم أقدم عملا صالحا ولم
أمهّد بيتا حسنا ، قال فوالى لظى نزاعة للشوى ، ثم قبض وروحه فسقط ميتا بين أهله ، فن بين صارخ وبكاء . قال
يزيد الرقائبي لو يعلمون سوء المقلب كان العويل على ذلك أكثر . وعن الأعمش قال دخل ملك الموت
على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فلما خرج قال الرجل من
هذا ؟ قال هذا ملك الموت ، قال لقد رأيته ينظر إلى كأنه يريدني قال فإذا تريد ؟ قال أريد أن تخلفني منه
فتأسر الريح حتى تخملي إلى أقصى الهند ! ففعلت الريح ذلك ، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا رأيتك
تديم النظر إلى واحد من جلسائي ، قال نعم كنت أنعجب منه لأنني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة
قريبة وكان عندك فجعبت من ذلك ! .

الباب الرابع

في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرة حسنة - حيا وميتا وفلا وقولا - وجميع أحواله عبرة للناظرين

وبصيرة المستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحيه ونبيه ، وكان صفه ورسوله ونبيه فأنظر هل أمهه ساعة عند انقضاء مدته وهل أخرى لحظة بعد حضور منيته ؟ لا بل أرسل إليه الملك الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، لجذوه بروحه الزكية الكريمة ليقتلوا ، وعالجوا ليرحلوا عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان ، بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك النزاع كرب وظهر أبنه ، وترادف قلته وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت في الانقباض والانبساط شالوه وبيته ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره ، فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا ؟ وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا ؟ وهل ساعه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا ؟ هيات ! بل امتثل ما كان به مأمورا واتبع ما وجده في اللوح مسطورا . فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوض المورود ، وهو أول من تلتقى عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض ، فالمعجب أنا لانتعجب به وللسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الدهوات وقرناء المعاصي والسيئات ! فإنا لا نتعجب بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحيب رب العالمين ، لعلنا نلظ أننا غفرون ، أو نتوهم أننا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيات ! بل نيقن أنا جميعا على النار فإرودون ، ثم لا ينبجو منها إلا المتقون ، فتحن للورود مستيقنون ، وللصدور عنها متوهمون ، لا بل ظننا أنفسنا إن كنا كذلك لنأب الظن منتظرين ، فإنحن والله من المتقين ، وقد قال الله رب العالمين : ﴿ وإن منكم إلا واردة كما على ربك حتما مقضيا ۖ ثم تجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فلينظر كل عبد إلى نفسه أه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين ؟ فأنظر إلى نفسه بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين ، فلتد كما نراهم ما وقعوا له من الخائفين . ثم أنظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيدالدين وقائدالمتقين ، واعتبر كيف كان كرب عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى ، قال ابن مسعود رضى الله عنه :

دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضى الله عنها حين دنا الفراق ، فظفر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال : مرحبا بكم حياكم الله ، أراكم الله ، فصركم الله ، وأوصيكم بتقوى الله ، وأوصي بكم الله ، إنى لكم منه نذير مبين ، ألا تعملوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل ، وانقلب إلى الله وإلى سدة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الآخرة ، فأرموا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بدى مني السلام ورحمة الله (١)

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته : « من لأمني بدى » فأوحى الله تعالى إلى جبريل : أن بشر حبيبي أنى لأأخذله في أمته ، وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض إذا بشرنا ، وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته . فقال : الآن قرت عينى (٢) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : أمرنا

الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ابن مسعود : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق ... الحديث « ورواه الجزر وقال : هذا السلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متفرقة ، قال : وعبد الرحمن الأبهاني لم يسمع ههنا من مرة وإنما هو من أخيره عن مرة ، قال : ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت : وقد روى من غير ماوجه . رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود . وروياه في «دقيقة التفاضل» أبى بكر الأمانى من رواية الحسن الرضى عن ابن مسعود ولكنهما مقطعان وضيقان ، والحسن الرضى إنما يروي عن مرة كأرواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط . (٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته « من لأمني بدى » فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أنى لأأخذله في أمته ... الحديث « أخرجه الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه « من لأمني المصطفاة من بدى » قال : أبشر بأحبيب الله فإن الله عزوجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال : « بل أن طابت نفسى ، وأستأفدهم ضيف »

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نفسه بسبع قرب من سبعة آبار ، ففعلنا ذلك فوجد راحة ، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ودعا لهم وأوصى بالانصار فقال : أما بعد : يا معشر المهاجرين فلا تزدون وأصبحت الانصار لا تزيد على التي هي عليها اليوم ، وإن الانصار عيتي التي أدت إليها فأكرموا كريمهم - يعني محسنهم - وتجارزوا عن سيئهم ، ثم قال : إن عبادا خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله ، فبكر أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا أبا بكر ستوا هذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فإن لا أعلم امرأ أفضل عندى في الصحبة من أبي بكر ^(١) ، قالت عائشة رضي الله عنها : فقبض صلى الله عليه وسلم في بيتي وفي بوي ويمنى ونحري وجمع الله بين ربي وربيته عند الموت ، فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك جلجل ينظر إليه فمرفت أنه يصيحه ذلك ، فقلت له : أخذه لك ، فأومأ برأسه أن : نعم ، فنارته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت : أليته لك ؟ فأومأ برأسه أن نعم ، فليته وكان بين يديه زكرة ماء لمجل يدخل فيها يده ويقول : لا إله إلا الله إن للوت لسكرات ، ثم نصب يده يقول : الرفيق الأعلى .. الرفيق الأعلى ، فقلت : إذن والله لا يجتازونا ^(٢) . روى - عبيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الانصار أن النبي صلى الله عليه وسلم يرداد فثلا أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضي الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه علي رضي الله عنه فأعلمه بمثل ، فذبه وقال : ما ، فتناولوه ، فقال : ماتقولون ، قالوا : نقول : نخشى أن تموت ، وتصابح نساؤم لاجتماع رجالم إلى النبي ﷺ ، فزار رسول الله ﷺ فخرج متوكئا على علي والفضل ، والعباس أمامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مصرب الرأس ينظ برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه حمد الله وأثنى عليه وقال : أباها الناس إله يلغني أنكم تخافون على الموت كأنه استسكار منكم للوت ، وما تسكرون من موت نبيكم لم أنع إليكم وتمنى إليكم أنفسكم ؟ هل خلدتني قبلي فيمن يموت فأخذه فيكم ؟ ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون به ، وإنني أوصيكم بالمهاجرين الأتولين خيرا وأوصي المهاجرين فيها بينهم فإن الله عز وجل قال : (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا) - إلى آخرها - وإن الأمور تجري بإذن الله فلا يعملنكم استطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يجعل لمصلحة أحد ومن غالب الله غلبه ومن غادع الله خدعه (فهل عيتم إن توليت أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) . وأبيكم بالانصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ألم يسطروكم الكتاب ألم يوهوا إليكم في الدار ألم يؤزركم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم ولي تجاوز عن سيئهم ، ألاولا تستأثروا عليهم ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بي ، ألا وإن موعدكم الحوض ، حوضي أعرض مما بين بصري الشام وصنماء اليمن ، يصب فيه ميزاب الكوثر ، ماؤه أشد بياضا من اللبن وألبن من الزبد وأحلى من الشهد ، من شرب منه لم يظأ أبدا ، حصاؤه القزأ ويطعأوه المسك ، من سحره في الموقف غدا حرم الجهر كله ، ألا فمن أحب أن يردّه على غدا فليكتف لسانه ويده إلا بما يبنى ، فقال العباس : يا نبي الله أوصي بقريش ، فقال : إنما أوصي بهذا الأمر قریشا والناس تبع لقریش برم لبرم وقاجرهم لقاجرهم ، فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا ، يا أيها الناس إن الذنوب تقير النعم وتبدل القسم ، فإذا بر الناس برهم أتمهم وإذا جر الناس عقومهم قال الله تعالى (وكذلك نولي

(١) حديث طائفة : أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد .
المحدث : أخرجه الدارقطني في مسنده وفيه إبراهيم بن المختار يختلف فيه من محمد بن إسحق وهو مدلس وقد رواه بإسناد .

(٢) حديث طائفة : قبس في بيتي وفي بوي ويمنى ونحري وجمع الله بين ربي وربيته عند الموت .. الحديث ، متفق عليه

بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون^(١) ، وروى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه ، سل يا أبا بكر ، فقال يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال : قد دنا الأجل وتدل ، فقال ليحك يا بني الله ما عندك ؟ فقلت شعري عن متعلقتي ، فقال : إلى الله وإلى سدة النبي ثم إلى الجنة المسأرى والفرودس الأعلى والكناس الأدنى والرفيق الأعلى والحط والدش المنها ، فقال يا بني الله من يلي غداك ؟ قال : رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى ، قال فقم تكفك ؟ فقال : في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي يابض مصر ، فقال كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكينا وبكي ثم قال : مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا ، إذا غسلتموني وكفتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ، ثم أخرجوا عني ساعة ، فإن أول من يصلي على الله عز وجل (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) ثم يأذن للملائكة في الصلاة على ، فأول من يدخل على من خلق الله ويصلي على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ، ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين ، ثم أنهم فادخلوا على أفواجا ففصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلبوا تسليبا ، ولا تؤذوني بتركة ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ، ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان ، قال فلن يدخل القبر ؟ قال : زمر من أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فأدوا عني إلى من بعدى^(٢) ، وقال عبد الله بن زمة جاء بلال في أول شهر ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مروا بأبي بكر يصلي بالناس ، فخرجت فلم أربح حجرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر ، فقلت قم يا عمر فصل بالناس ، فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صريحا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال : أين أبو بكر ؟ يأتي الله ذلك والمسلمون ، فالحسنا ثلاث مرات ، مروا بأبي بكر فليصل بالناس ، فقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام في مقامك عليه البكاء ، فقال : إنك صويحبات يوسف مروا بأبي بكر فليصل بالناس ، قال فصل أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر ، فكان عمر يقول لعبد الله بن زمة - بعد ذلك - ويحك ماذا صنعت في ! والله لو لا أنني ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت . فيقول عبد الله إن لم أر أحدا أولى بذلك منك ، قالت عائشة رضي الله عنها وما قلت ذاك ولا صرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا ، ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله ، وخشيت أيضا أن لا يكون الناس بحيون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبدا إلا أن يشاء الله ، فيحسدونه ويبغضونه عليه وينشامون به فإذا الأمر أمر الله والقضاء قضاءه ، وحصله الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين^(٣) ، وقالت عائشة رضي الله عنها فلما

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبي قال : لما رأنا أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يزدادون تغلا أطالوا بالمسجد ، فدخل الناس فأطعمهم بكتاهم وأشفاهم فذكر ... الحديث في خروجه متوكئا مصوبا الرأس يحيط رجليه حتى جلس على أسفل رفاعة من المنبر . فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضيف وفيه تكرار ولم أجده أسلا وأبوه عبد الله بن خنيس ابن الأزور قال : روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم : في أبيه سعيد ليس بالقوي . (٢) حديث ابن مسعود : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر : سل يا أبا بكر ، فقال : يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال : قد دنا الأجل ... الحديث ، في سؤاله له : من يلي غداك وفيه تكفك ؟ وكيفية الصلاة عليه ، رواد ابن سعد في الطبقات من محمد بن عمر وهو الواقدي بإسناد ضيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضيف كما تقدم .

(٣) حديث عبد الله بن زمة : جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مروا بأبي بكر فليصل بالناس ، فخرجت فلم أربح حجرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر ... الحديث ، أخرجه أبو داود بإسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله ، فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق ... إلى آخره . ولم يقل : في أول ربيع الأول ، وقال : مروا من يصلي بالناس . وقال : يأتي الله ذلك والمؤمنون . ومين وفي روايته قال : لا ، لا ، لا ، ليصل الناس إن أبي ضيف ، يقول ذلك ...

كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوا منه خفة في أول النهار ، ففترق عنه الرجال إلى منازلهم وحوادثهم مستبشرين ، وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء ، فبينما نحن على ذلك لم تكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اخرجن عني ! هذا الملك يستأذن علي ، فخرج من في البيت غيرة ورأسه في حجرى جلوس وتحيت في جانب البيت فنادى الملك طويلا ، ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجرى وقال للنسوة : ادخلن ، فقلت : ما هذا بحس جبريل عليه السلام ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال : إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بإذن ، فإن لم تأذن لي أوجع وإن أذنت لي دخلت ، وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فإذا أمرك ؟ فقلت : اكف عني حتى يأبيني جبريل عليه السلام ، فهذه ساعة جبريل ، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى ، فوجنا وكأنا ضربنا بصاحه ما نغير إليه شيئا وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا ، قالت ، وجاء جبريل في ساعته فلم يعرف حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : كيف تهجدك وهو أعلم بالذي تهجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة في أمته فقال : أجدن وجعا ، فقال : أبشر فإن الله تعالى أراد أن يملكك ما عد لك فقال : يا جبريل إن ملك الموت استأذن علي ، وأخبره الخبر فقال جبريل : يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يملكك الذي يريد بك ؟ لا والله تعالى ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا ، إلا أن ربك مقيم شرفك وهو إليك مشتاق ، قال : فلا تبرح إذن حتى يحى . وأذن للنساء فقال : يا عائشة ادني ، فأكبت عليه فنادى فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ، فكان الذي رأينا منها عجبا ، فسألنا بعد ذلك فقالت : أخبرني وقال : « إني ميت اليوم ، فبكيت ثم قال : « إني دعوت الله أن يملكك في في أول أجلي وأن يحبسك معي ، فضحك ، وأدنت ابنتها منه فشبهها قالت : وجاء ملك الموت واستأذن فأذن له فقال الملك : ما تأمر يا محمد ؟ قال : الحق بربى لأن ، فقال لي من يرمك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عليك ولم ينف عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما نزل فيه إلى الأرض أبدا ، وطوى الوحي وطوى الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ، وما لي فيها حاجة إلا حضورك ، ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمدا بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يغير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله ، لعظم ما يسع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا ، قالت : ففقت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أضمر رأسه بين ثديي وأمسكت بصدري ، وجعل يغمى عليه حتى ينال وجهه ترشح ربحا مارأته من إنسان قط ، فجعلت أسكت ذلك العرق وما وجدت راحة شيء أطيب منه فكنت أقول له - إذا أفق - بأبي أنت وأمي ونفسي وأهل ما تلقى جهتك من الرشح ؟ فقال : يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شقيقه كنفس الحمار ، فمئذ ذلك ارتعنا وبشنا إلى أهلكنا ، فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخى ، بعثه إلى أبي ، فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يحى أحد ، ولما صدم الله عنه لأنه ولاد جبريل وميكائيل ، وجعل إذا غشى عليه قال : بل الرفيق الأعلى ، كأن الخيرة تعاد عليه ، فإذا أطاق الكلام قال : الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متباسكين ما صليتم جميعا ، الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو

= منضبا ، وأما ما آخره من قول عائشة في الصحيحين من حديثها فقالت عائشة : يا رسول الله إن أبأك رجل رقيق لذا قام بمالك لم يسع الناس من البكاء ! فقال : « إنكم سوايحيات يوسف مروا أبأك رقيقا فليس بالناس » .

يقول « الصلاة الصلاة »^(١) ، قالت عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين^(٢) ، قالت فاطمة رضي الله عنها : ما لقيت من يوم الاثنين ، والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم - يوم أصيب على كرم الله وجهه بالكوفة - مثلها : ما لقيت من يوم الاثنين ، مات فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه قتل علي ؛ وفيه قتل أبي ؛ فالفيت من يوم الاثنين . وقالت عائشة رضي الله عنها : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس - حين ارتفعت الزنة وصحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الملائكة بشوبه - فاختطفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخطب آخرون فلأثروا الكلام بغير بيان ، وبقي آخرون معهم صفوفهم ، وأقعد آخرون . فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت ، وليرجئته الله عز وجل ، وليطمئن أبدي وأرجل رجال من المنافقين يشتمون لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموت ، إنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيتكم^(٣) وفي رواية أنه قال : يا أيها الناس كفوا لسننكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يميت ، والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسبني هذا . وأما على فإنه أقعد فلا يبرح البيت . وأما عثمان لجعل لا يكلم أحدا - يؤخذ يده فيجابه به ويذهب به - ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فأن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد ، وإن كان الناس لم يروهوا إلا يقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال : والله لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون .

ويبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه

(١) حديث عائشة : لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار فاتفقوا عنه الرجال إلى منازلهم وجراهم مستبشرين وأخفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فنبأنا نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قيل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجني عن ، هذا لما يتأذن على ... الحديث » بطله في مجيء ملك الموت ثم دعاه ثم مجيء جبريل ثم مجيء ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم « أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه : فلما كان يوم الاثنين اشتد الأسر وأوحى الله إلى ملك الموت أن ابطأ إلى جبريل وصني محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وأرقى به في قبض روحه . وفي دخول ملك الموت واستئذانه في قبض فقال « يا ملك الموت أين خلقت جبريل » قال خلقت في سماء الدنيا والملائكة يمزونه فيك ، فما كان بأسرع أرواؤه جبريل فقدم عند رأسه وذكر بشارة جبريل « بما أعد الله له ، وفيه ابن يملك الموت فاته لك ما مررت به ... الحديث . وفي : فذا ملك الموت بالقبض قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربة فقام ، إلى أن قال : فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو حديث طويل في وديتين كبار وهو منكر ، وفيه عبد المطلب بن أدریس بن سنان من أبيه من وهب بن منبه قال أحد : كان يكذب على وهب بن منبه ، وأبوهم أدریس أيضا مفروق قاله الفارابي ، ورواه الطبراني أيضا من حديث أبي بن كعب : أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربك كيف تمجد ثم جاءه جبريل اليوم الثالث معه ، ملك الموت وملك المواد فاستمعا وأن جبريل دخل أولا فساء ثم استأذن ملك الموت وقوله « انشأ لما أمرت به » وهو منكر أيضا فيه عبد الله بن مبيد المداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس في مجيء ملك الموت أولا واستئذانه وقوله « لربك بقرتك السلام قال « أن جبريل » فقال هو قريب من الآن يأتي عرج ملك الموت حتى تزل عليه جبريل . الحديث وفي المختار بن نافع منكر الحديث .

(٢) حديث عائشة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين . ورواه ابن عبد البر (٣) حديث عائشة : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس - حين ارتفعت الزنة وصحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الملائكة بشوبه - فاختطفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخطب آخرون معهم صفوفهم وأقعد آخرون . وكان عمر بن الخطاب من كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت ... الحديث المفرد (عند ربكم تختصمون) ثم أيد له أصلا وهو منكر ، (٦٠ - إحياء علوم الدين -)

ثم أكب عليه فقيل ثم قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله تعالى ليذيقك الموت مرتين ، فقد واثقه توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس من كان يمد يده فإني محمد قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإني لا يموت قال الله تعالى (وما عبد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . . الآية) ^(١) ، فكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ . وفي رواية : أن أبابكر رضي الله تعالى عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يصلي على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وعيانه تهللان وغصه ترتفع كقصع الجزة ، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال - فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ونفسي وأهل طيبت حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ، فغطت عن الصفة وجللت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت صلاة وعمت حتى صرنا فيك سواء ، ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجلدنا لحزنك بالنفوس ، ولولا أنك نهيتم عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون ، فأما ما لا نستطيع فيه عنا فكمداؤا كارعمالمان لا يبرهان ، اللهم فأبلغنا عنا ، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ، ولتكن من بآله ، فلو لا ما خلفت من السكينة لم يبق أحد لا خلف . من الوحة ، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا ^(٢) . وعن ابن عمر : أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأتى مع أهل البيت عجيجا سمعه أمم للمصلي ، كلما ذكر شيئا ازدادوا ، فما سكن عجيجهم إلا تسلم رجل على الباب صيت جلد قال : السلام عليكم بأهل البيت (كل نفس ذائقة الموت) الآية إن في الله خلفنا من كل أحد . وتذكرنا لكل رغبة ونجاة من كل عذبة ، فآله تعالى طرجوا وبه فتقوا . فاستمعوا له وأنكروه وافتعوا البكاء ، فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطع أحدهم فلم ير أحدا ، ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يرفون صوته : بأهل البيت اذكروا الله تعالى واحذروا على كل حال تكونوا من المخلصين ، إن في الله عزاء من كل مصيبة وموضوع من كل رغبة ، فآله فاطموا وبأمره فاعملوا . فقال أبو بكر : هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) واستوفى التقيا عن عمرو حكاية خطبة أبو بكر رضي الله عنه فقال : قام أبو بكر في الناس

(١) حديث : بلغ أبابكر الخبر وهو في بني المارث بن الخزرج لما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فظفر إليه ثم أكب عليه فقيل وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين . . . الحديث . إلى آخر قوله : وكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ . أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة : أن أبابكر أبل على فرس من مسكنه بالسج حتى نزل ودخل المسجد ، ثم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مندي بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقيل وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي ، والله لا يجمع الله عليك موتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها . فلما من حديث ابن عباس : أن أبابكر خرج ومعه يكلم الناس . . . الحديث . وفي : وفقه لكان الناس لم يسموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر . فقط البخاري فيها .

(٢) حديث : أن أبابكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيانه تهللان وغصه ترتفع كقصع الجزة ، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال - فأكب عليه فكشف عن وجهه . . . الحديث ، إلى قوله : واحفظه فينا . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الزراء من حديث ابن عمر بإسناد ضيف : جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجرا فكشف الثوب عن وجهه . . . الحديث إلى آخره . (٣) حديث ابن عمر في سماع التبرية به صلى الله عليه وسلم : أن في الله خلفنا من كل أحد وتذكرنا لكل رغبة ونجاة من كل عذبة فآله طرجوا وبه فتقوا . ثم صدوا آخر بيده : لأن في الله عزاء من كل مصيبة وموضوع من كل رغبة فآله فاطموا وبأمره فاعملوا . فقال أبو بكر : هذا الخضر واليسع . لم أجد فيه ذكره « اليسع » وأما ذكره « الخضر » في التبرية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال : إنما ذكره أصحاب . قلت : بل قد روى الحاكم في المستدرک حديث أنس ولم يصح ولا يصح ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الزراء من حديث أنس أيضا قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يكون فدخل عليهم رجل طويل شمر المسكين في لازل وردا ، فتنظروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذوا من باب البيت فبكي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل =

خطيباً حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم حمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فحمد الله وحده وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وغاثم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كاشع وأن الدين كاشع وأن الحديث كاشع وأن القول كاشع وأن الله هو الحق المبين ، اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وامينك وخيرتك وصفتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك ، اللهم واجعل صلواتك ومعاذك ورحمتك على سيد المرسلين وغاثم النبيين وإمام المؤمنين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة . اللهم قرب زلفته وعظم رعاياه وكرم مقامه وابثمه مقاماً محموداً ينطبق به الأولون والآخرون وانفثنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلته الدرجة والوسيلة في الجنة ، اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنا لله حميد مجيد ، أيها الناس إله من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يموت ، وإن الله قد تقدم إليكم في أسره فلا تدعوه جرعاً ، فإن الله عز وجل قد اختار نبيه صلى الله عليه وسلم ما عاهدكم عليه ما عاهدكم وقبضه إلى نوابه وخلف فيكم كتابه وستة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر (يا أيها الذين آمنوا آمنوا كونوا قوامين بالقسط) ولا يشنكنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يشنكنكم من دينكم وما جالوا الشيطان بالخير تمجروه ولا تستنظروا فيلحق بكم ويفتنكم .

وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم ؟ أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا : كذا وكذا ويوم كذا : كذا وكذا وقال تعالى في كتابه (إنك ميت وإنهم ميتون) فقال : والله لكأنني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لمازل بنا ، أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت (وإنا لله وإنا إليه راجعون) وصلوات الله على رسوله وعند الله تحسب رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم جلس إلى أبي بكر .

وقالت عائشة رضي الله عنها : لما اجتمعوا لنفسه قالوا : والله ما ندرى كيف نفصل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنجرده عن ثيابه كما نضع بموتنا أو نفسه في ثيابه ؟ قالت : فأرسل الله عليهم اليوم حتى ما بين منهم رجل إلا وضع لحيته على صدره فأمساهم قال قائل : لا يدرى من هو - غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم - لم في ثيابه ، فأتهموا ففعلوا ذلك فنسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه . حتى إذا فرغوا من غسله كفوا . وقال علي كرم الله وجهه : أردنا خلق قميصه فنودينا لنتخلصوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه . فأقرؤناه فنسلناه في قميصه كما نسل مورثاً مستلقياً لما شاء أن يقلب لنا منه عضو لم يالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرع منه ، وإن معنا لحفيفاً في البيت كالرجل الرخاء ويصوت بنا أرقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم ستكفون . فهكنا كانت وقفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك

== على أصحابه فقال : إن في الله مراء من كل مبيعة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فبذل الله تعالى فأثيرا ونظرة إليكم في البلاد فانظروا فإن المصاب من لم يجبره الثواب . ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر : هل الرجل ، فظفروا بيننا ونمنا فلم يروا أحداً ، فقال أبو بكر : لعل هذا الخضر أخرقنا عليه السلام جاءه بزيتنا . ورواه الطبراني في الأوسط ولستاده ضيف جداً ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث علي بن أبي طالب : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت لسع حسه ولا ترى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته لأن في الله عوضا من كل مبيعة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت ، فبأه فتقوا ولما فارجوا فإن المحرم من حرم الثواب والسلام عليكم . فقال علي : تدرؤن من هذا ؟ هو الخضر . وفيه محمد بن جابر الصادق تسكمني وفيه اشعاع بين علي بن الحسين وبين جسد علي والمعروف من علي بن الحسين مهملان غير ذكر علي كرم الله وجهه في الأم وليس فيه ذكر الخضر .

سبدا ولابدا لإلا دفن معه . قال أبو جعفر : فرش لحده بفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس بقطان على القطيفة والمنفرش ، ثم وضع عليها في أكمامه فلم يترك بدو وقائه مالا ولا بلى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة ^(١) ففي وقائه عربة تامة وللسدين به أسوة حسنة .

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لمسبك ما يعني الثراء عن الفنى إذا حشرجت يروا وضاق بها الصدر

فكتف عن وجهه وقال : ليس كذلك ولكن قول (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) انظروا هؤلاء مدين فأغسلوها وكننوا فيها فإن الحى إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضي الله عنها - عند موته :

وأبيض يستقى الغمام بوجهه ويسع اليساى عصمة الأروام

فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخلوا عليه فقالوا : ألا ندعوك لطينا بنظر إليك؟ قال قد أنظر إلى طبيي وقال : إني فعال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه بموده فقال : يا أبا بكر أوصنا فقال : إن الله فالح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلائكم ، وأدلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تحزنن الله في ذمته فيسبك في النار على وجهك .

ولما نقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر رضي الله عنه ، فقال الناس له : استخلفت علينا ظنا غليظا فإذا تقول لربك ؟ فقال : أقول استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه فجاء فقال : إني موصلك برصية : أعلم أن الله حقا في النهار لا يقبله في الليل وأن الله حقا في الليل لا يقبله في النهار ، وأنه لا يقبل الثالثة حتى تؤدي الفريضة ، وإنما تممت موازين من تممت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وقوله عليهم ، وحق ليدان لا يوضع فيه إلا الحق أن ينقل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفت عليهم ، وحق ليدان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف ، وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فيقول القائل : أنا أفضل من هؤلاء ، وإن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا ، فيقول القائل : أنا أفضل من هؤلاء ، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا وراهبا ولا يلقى بيديه إلى التهلكة ولا يتعن على الله غير الحق . فلن حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بذلك منه ، وإن صيت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بذلك منه ، ولست بمعجوه .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فلما نراك لما بك . فقالوا أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الآفاق المئين ، قالوا : وما الآفاق المئين ؟ قال : قاع بين بطن العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار ، يغشاها كل يوم مائة

(١) حديث أبي جعفر : فرش لحده بفرشه وقطيفته ، وفيه : فلم يترك بدو وقائه مالا ولا بلى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة . أما وضع المنفرشة والقطيفة فأدى وضع القطيفة شقرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا ، وأما كونه لم يترك مالا فقد جرد من حديث عائشة وغيرها وأما كونه مائى في حياته فتقدم أيضا .

عمر يقرأ عليك السلام، ولا تغفل أمير المؤمنين فإنني لست اليوم للمؤمنين أميرا، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فذهب عبد الله فلم يستأذن ثم دخل عليها، فوجد ما قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لبغى ولا ورثته اليوم على نفسي! فلما أقبل قيل فلما عبد الله بن عمر جاء فقال: ارفقوني، فأستند رجل إليه فقال: ماله بك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إلى من ذلك! فلذا أنا قبضت فأحلقوني ثم سلم وقل يستأذن عمر! فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتي وردوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها، فلما رأيناها قتنا فوجت عليه فيكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فوجت داخلا فسمعتا بكاء ما من داخل. فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين واستخلف، فقال: ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء الثفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمي عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء، كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمارة سعدا فذاك وإلا فليستمن به أيكم أمر، فإنني لم أعزله من حجر ولا خيانة. وقال أوصي الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأتولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرماتهم، وأوصيه بالانصار خيرا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من عسهم وأن يعفو عن مسيئتهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فإنهم رده الإسلام وجاة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم، وأوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من ورائهم ولا يكلفهم إلا طاقاتهم. قال فلما قبض خرجنا به فاعطفتنا بغشى، فلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب، فقالت أدخلوه، فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه... الحديث.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال لي جبريل عليه السلام لييك الإسلام على موت عمر^(١)، وعن ابن عباس قال وضع عمر على سريره فتكفاه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم، فلم يرعنى إلا رجلا قد أخذ بمنكبي فالتفت فلذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال ما خلفت أحد أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك! وإيم الله إن كنت لأظن لي بيمينك الله مع صاحبيك وذلك أني كنت كثيرا اسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر^(٢)، فإنني كنت - لأرجو أن لأظن - أن يملك الله ممهما.

وفاة عثمان رضي الله عنه

الحديث في قتله مشهور. وقد قال عبد الله بن سلام: أثبت أخى عثمان لإسلام عليه وهو محصور، فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخى! وأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة - وهي خوخة في البيت - فقال: يا عثمان حصروا؟ قلت نعم، قال: عطفوك، قلت نعم، فأدخل إلى دوا فيه ماء فشربت حتى رويت - حتى

(١) حديث: قال لي جبريل عليه السلام لييك الإسلام على موت عمر. أخرجه أبو بكر الأبري في كتاب المعركة من حديث أبي بن كعب بسند ضيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

(٢) حديث ابن عباس قال: وضع عمر على سريره فتكفاه الناس يدعون ويصلون. فذكر قوله عن أبي طالب كنت كثيرا اسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر. الحديث: معنى عليه.

إني لأجد رده بين يدي وبين كفي - وقال لي : إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أظفرت عندنا ، فأخبرت أن أظفر عنده ، فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تصبط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتنشط ؟ قالوا نعمناه يقول ، اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم - ثلاثا - قال والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة . وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الفار حين أدرى عليهم عثمان رضى الله عنه فقال اتقوا بصاحبيكم الذين ألباكم على أن قال لي ، هما كأنهما هما حلان أو حاران ، فأشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستنذب غير بئر رومة فقال من يشتري رومة ، يجعل دلوه مع دلاء المسلمين ، يخير له منها في الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالي ، فأنتم اليوم تمنعون أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم ، قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي ؟ قالوا نعم ، أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد كان ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشتري بقعة آل فلان فيزدها في المسجد بخير منها في الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعون أن أصلي فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم ، قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على بئر بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فتحرك الجبل حتى تساقط حجارته بالحضير قال فركضه برجله وقال : أسكن بئر فاس عليك إلا بني وصديق وشهيدان ؟ قالوا اللهم نعم ، قال الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد ^(١) .

وروي عن شيخ من صفة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) اللهم إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على ما ابتليتي .

وفاة على كرم الله وجهه

قال الأصمغاني لما كانت الليلة التي أصيب فيها على كرم الله وجهه ، أناه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متناقل ، فماد الثانية وهو كذلك ، ثم ماد الثالثة فقام على شيء وهو يقول

أشدد حيازيمك للموت فإن الموت لا يفيكا
ولا تجزع من الموت إذا حصل يواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شدّ عليه ابن ملجم فضربه . فخرجت أم كلثوم ابنة علي رضى الله عنه لجهلت تقول مالي وأصلاة النداء أقتل زوجي أمير المؤمنين صلاة النداء ؛ وقتل أبي صلاة للنداء . وعن شيخ من قريش أن عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال : فزت ورب الكعبة . وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله ، حتى قبض .

ولما قتل الحسن بن علي رضى الله عنهما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال يا أخى لأى شيء تجزع ؟ تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب وهما أبوكا وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك ، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك ، قال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله .

وعن محمد بن الحسن رضى الله عنهما قال لما زل القوم بالحسين رضى الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيبا الحمد لله وأثنى عليه ثم قال : قد زل من الأمر ما ترون وإن الدنيا قد تغيرت وتكررت وأدبر

(١) حديث ثمامة بن حزن القشيري : شهدت الفار حين أدرى عليهم عثمان رضى الله عنه ، الحديث أخرجه الترمذى وقال حسن والسنن

معروفها ، وانضمرت حتى لم يبق منها إلا كصباة الإياه ، الأحصي من عيش كالمرعى الويل ، الأترونا الحق لا يعمل به والباطل لا ينتهي عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى ، وإن لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جحما .

الباب الخامس : في كلام المختصين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لمحاضرة معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال : أقعدوني ، فأقعد لجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال : تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والاعطاش ! ألا كان هذا وغصن الشباب فضر ربان ، وبكى حتى علا بكأوه وقال : يا رب أرحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بملكك على من لا يرجو غيرك ولم يبق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش : أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه فقرأوا في جلدته غصونا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فهل الدنيا أجمع إلا ما جرينا ورأينا ، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بمجدتنا وباستلذاذنا بميشنا ، فما لبثنا الدنيا أن تقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة ، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلثمت إلينا أف للدنيا من دار ، ثم أتى لها من دار . وروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إن من زرع قد استحصدوا وإن وليكم أحد من يهدى إلا هو شر مني ، كما كان من قبلي خيرا مني ! ويا يزيد إذا وفي أجل فول غسل رجلا ليلى ، فإن الليب من الله بمكان ، فليمن الغسل وليجهز بالتكبير ، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم وفرأه من شعره وأظفاره فأستودع الفرائضة أني وفي وأذن وعين ، واجعل الثوب على جلستى دون أكفاني ، ويا يزيد احفظ وصية الله في الرالدين ، فإذا أدرجتموني في جديدي ووضعتوني في حفرة غلوا معاوية وأرحم الراحمين ؛ وقال محمد بن عقبة : لما نزل بمعاوية الموت قال بالتي كنت رجلا من قريش بذى طوى وإن لم آل من هذا الأمر شيئا .

ولما حضرته عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال مجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المنسلة ، فقال عبد الملك : ليتني كنت غسالا آكل من كسب يدي يوما بيوم . لم آل من أمر الدنيا شيئا ، فبلغ ذلك أبا الحزم فقال : الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتننون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم تتمم مامم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه : كيف تمجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أجدني كما قال الله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) الآية ومات .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان - امرأة عمر بن عبد العزيز - كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار . فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلسات في بيت آخر - بين وبينه باب وهو في قبة له - فسمعت يقول (تلك النار الآخر تجلسها الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) ثم هذا لجملت لا أسمع حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له : انظر أنا هم هو ؟ فلما دخل صاح ، فزويء فلذا هو ميت . وقيل له لمحضره الموت : أعهد يا أمير المؤمنين ! قال : أحذركم مثل مصرعي هذا فلما به لذكمته . وروى أنه لما نقل عمر بن عبد العزيز دعى له طيب فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم ! قال الطيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال : فتعال يا أمير المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك ، قال : ربي خير مذهوب إليه ، والله لو علت أن شفاني عنده شدة أدنى

مارفت يدى إلى أذن فتناوتك . اللهم خرامر في لثائك ؛ فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقيل : لما حضرته الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيأ الله بك سننا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال : أليس أوقف فاستل عن أمر هذا الخلق ، فوالله لو عدلت فيهم لحقت على نفسى أن لا تقوم بمجتها بين يدى الله إلا أن يلقنها الله حاجتها ؛ فكيف بكثير مما ضيئا ؟ وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات : ولما قرب موته قال : اجلسونى فأجلسوه فقال : أنا الذى أمرتنى فقهرت ونهيتنى فعمصيت - ثلاث مرأت - ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأخذ النظر فقيل له فى ذلك فقال : إني لأرى خضرة ؛ مامم يأنس ولا جن ثم قبض رحمه الله .

وحكى عن مروان الرشيد أنه اتقى أكفاه يده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول (ما أغنى عنى ماله ملك عنى سلطانيه) .

وفرش السامون رماذا واضطجع عليه وكان يقول : يا من لا يروى ملكه أرحم من قد زال ملكه .
وكان للتعمص يقول عند موته : لو علمت أن عمرى هكذا قصير ما فعلت
وكان المتعصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له : لا بأس عليك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ليس إلا هذا ؛ لقد ذهب الدنيا وأقبلت الآخرة .

وقال عمر بن الخطاب عنده الوفاة - وقد نظر إلى صناديق لبيه : من يأخذها بما فيها ليته كان يبرا .
وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفرلى فإن الناس يقولون إنك لا تغفرلى . فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه وينبطع عليها ، ولما حكى ذلك الحسن قال : أقالها ؟ قيل : نعم ، قال : عسى .

بيان أقوال جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين

ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين

لما حضرت معاذ رضى الله عنه الوفاة قال : اللهم إني قد كنت أعافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الانتار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظما الهواجر ومكاداة الساعات ومزاحمة النساء بالركب عند خلق الذكر . ولما اشتد به الذرع وزرع نزعاً لم يزع أحد كان أفاق من غرفة فتح طرفه ثم قال رب ما أخشى خلقك فوقك إنك تعلم أن قلبى يحبك .

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال : ما أبكى جزعا على الدنيا ، ولكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بلفة أحدنا من الدنيا كراد الراكب ^(١) فلما مات سلمان نظر فى جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهما .

ولما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته : واحزناته فقال : بل واطرباه غلبا تلقى الآخرة محمدا وحزبه .
وقيل . فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة ومخلك وقال (لئلا هذا فليعمل الماملون) .
ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال : أنتظر من الله رسولا يبشرونى بالجنة أوبالنار
ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : والله ما أبكى لذنوب أعلم أنى آيته ؛ ولكن

(١) حديث : لما حضرت سلمان الوفاة بكى ، وي عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يكون بلفة أحدنا من الدنيا كراد الراكب ؛ أخرجه أحمد والحاكم وصححه ، وقد تقدم .

أخاف أن أتيت شيئا حسبه هينا وهو عند الله عظيم .

ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال ما أبكي جزوا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء .

ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ، ثم فتح عينيه وقال : وابعد سفراء وافلة زاده

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال نصر مولاة . اجعل رأسي على التراب ، فبكى نصر فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت ما كنت فيه من التعم وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا ! قال : اسكت ! فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغياء وأن يمتني موت الفقراء ، ثم قال له لفتي ولا تعد على ما لم أتكلم بكلام ثان .

وقال عطاء بن يسار : تبدي إبليس لرجل عند الموت فقال له : تموت ! فقال : ما أملك بمد . وبكى بعضهم عند الموت فقيل له : ما يبكيك ؟ . آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يموت بنفسه فقال : إن أمرا هذا أوله لجدير أن يفتي آخره ، وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يرهق في أوله . وقال الجري : كنت عند الجنيد في حال نوحه . وكان يوم الجمعة ويوم التيروز . وهو يقرأ القرآن ظم ، فقلت له : في هذه الحالة يا أبا القاسم ؟ فقال : ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صفيقي ؟ وقال روم حضرت وفاة أبي سعيد الخزاز وهو يقول :

| | |
|----------------------------|----------------------------------|
| حين قلب السارفين إلى الذكر | وتذكارهم وقت المناجاة السر |
| أدبرت كؤوس للنساياعلهم | فأغفوا عن الدنيا كل غفامذي العكر |
| مومهم جسالة بمعسكر | به أهل ود الله كالأنجم الزهر |
| فأجسامهم في الأرض قتل بحبه | وأرواحهم في الحجب نحو العلائسر |
| فما عرسوا إلا بقرب حبيهم | وما عرجوا من مس يؤس ولاضر |

وقيل للجنيد : إن أبا سعيد الخزاز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال : لم يكن يجب أن تطير روحه اشتياقا . وقيل لذي النون - عند موته ، ما تشتهي ؟ قال : أن أعرفه قبل موتى بلحظة . وقيل لبعضهم وهو في النزاع : قل الله فقال : إلى متى تقولون الله وأما عترتي بالله . وقال بعضهم : كنت عند عمشاد الدينوري فقدم فقيرا وقال : السلام عليكم ؟ هل هنا موضع أنظف يمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ قال : فأشاروا إليه بمكان . وكان ثم عين ماء - لجند الفقير الرضوء وركع ماشاء الله ، ومضى إلى ذلك المكان ومد رجله ومات . وكان أبو عباس الدينوري يتكلم في مجلسه ، فصاحت امرأة تواجدا فقال لها : موتى ، فقامت المرأة ، فلما بلغت الدار التفتت إليه وقالت : قد مت ووقعت ميتة . ويحك عن فاطمة - أخت أبي علي الروذباري - قالت : لما قرب أجل أبي علي الروذباري - وكان رأسه في حجرى - فتش عينييه وقال : هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا بأعلى قد بلغتاك الرتبة القصوى وإن لم تزدها ثم أنشأ يقول :

وحقك لا نظرت إلى سواكا بعين مودة حتى أراكا
أراك معدن بفتور لخط وبالحند المورود من حياكا

وقيل للجنيد : قل لا إله إلا الله ، فقال : مانسته فأذكره . وسأل جعفر بن نصير بكرن الدينوري - خادم السبل - ما الذي رأيت منه ؟ فقال : قال علي درهم مظلة ، وتصدقت عن صاحبه بألوف فما على قلبي شغل أعظم منه ! ثم

قال : وثنى الصلاة ، ففعلت فسئلت تحليل لحية - وقد أمسك على لسانه - فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال : ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة ؟ وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر - وكان يشق عليه - كأنك تحب الحياة ؟ قل : التذوم على الله شديد . وقيل لصالح بن مسيار : ألا توصي بابنك وعيالك ؟ فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره ! ولما احتضر أبو سليمان 'لماراني' أنه أصحابه فقالوا أبشر فانك تقدم على رب غفور رحيم ، فقال لهم ألا تقولون احذر فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير وبما قبلك بالكبير ؟ ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له أوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم واحتضروا بمعصيتهم فبكى أمراءه فقال لها ما يبكيك ؟ فقالت عليك أبكي ! فقال إن كنت باكية فأبكي على نفسك ! فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة . وقال الجنيد دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت كيف تهمدك ؟ فألنا يقول :

كيف أشكو إلى طيبي ما بي والذي بي أصابني من طيبي
فأخذت المروحة لأروحه فقال ، كيف يمد ريع المروحة من جوفه يحرق ؟ ثم أنشأ يقول :

القلب محرق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مغترق
كيف القرار على من لا قرار له بما جناه الهوى والشوق والقلق
يارب إن بك شيء في له فرج قامن على به ما دام بي رفق

وحكى أن قوما من أصحاب السبيل دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا إله إلا الله ، فأشأ يقول :

إن بيننا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالهيج
لا أناح الله لفسرجا يوم أدعو منك بالفرج

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت زحاه فلم عليه فلم يجبه ، ثم أجاب بعد ساعة وقال اعطوني فلاني كنت في وردي ثم ولى وجهه إلى القبة وكبر ومات . وقيل للكناني لما حضرته الوفاة ما كان عملك ؟ فقال لو لم يقرب أجلي ما أخبرتكم به ! وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حببته عنه . وحكى عن المعتز قال : كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت اللهم وزن عليه سكرات اللوت فإنه كان وكان - فذكرت عاصته - فأفاق فقال من التسلّم ؟ فقلت أنا ! فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لي : إني بكل شيء رفيق ، ثم طغى . ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده خذيفة فرجده قلنا فقال : يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع ؟ فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي ! فقال خذيفة واجبأه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله . وعن المنازلي قال دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة - وهو عليل - وهو يقول يمينك أن تعمل ما تريد فارفق بي ، ودخل بعض المشايخ على بشاد الديبوري في وقت وفاته فقال له فعد الله تعالى وضع - من باب النساء - فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتني طرني . وقيل لروم عند الموت : قل لا إله إلا الله ، فقال : لا أحسن غيره . ولما حضرت الثوري الوفاة قيل له : قل لا إله إلا الله ، فقال ليس ثم أسر ؟ ودخل المرنى على الشافعي رحمه الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له كيف أصبحت

يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدنيا واحلا والإخوان مفارقا ولسوء على ملائيا ونكأس المنية شاربا وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيأ أم إلى النار فأعزها ؟ ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضقت مذاهبي جعلت وجهي نحو عفوك سلبا
تعاظمني ذنبي فلما قرئت به عفوك وبني كان عفوك أعظما
فأزلت ذا عفوك عن الذنب لم تزل تهجد وتغفو منة وتكفرا
ولولاك لم يغوى إبليس عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدماء

ولما حضرت أحمد بن خضروية الوفاة سئل عن مسألة فدمعت عيناه وقال يابني باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لي ، لأدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة ؟ فأن لي أوران الجواب .

فهذه أقوالهم ، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فنلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب ، فتكم كل واحد منهم على مقتضى حاله ، والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم .

الباب السادس : في أقوال العارفين على الجنائز والمقابر ، وحكم زيارة القبور

اعلم أن الجنائز عبرة البصير وفيها تذكير لاهل الغفلة ، فإنها لا تزيدكم مشاهدتها إلا قساوة ، لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون ، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يتدرون ، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسابهم والله يشعل على القرب زمانهم ، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها ، على القرب وكان قد ، ولله في غد أو بعد غد . ويرى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال امضوا فإنا على الأثر . وكان مكحول الدمع إذا رأى جنازة قال اغدوا فإنا وأنحون . موعظة بليغة وغظة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل له . وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة لحدثني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صادر إليه .

ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول والله لا تمر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ، ولا أعلم مادمت حيا . وقال الأعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نمرى ؟ لحزن الجميع . وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنا باكيا .

فهكذا كان خوفهم من اللوت . والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأنهم يضحكون ويلهون ، ولا يتكلمون إلا في مبراه وما خلفه لورثته ، ولا يتفكر أفرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ، ولا يتفكر واحد منهم - إلا ماشاء الله - في جنازة نفسه وفي حاله إذا حل عليها . ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بآفة المصاحي والظن ، حتى نسيت الله تعالى واليوم الآخر والأموال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يهيننا . فنبال الله تعالى البقطة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاذم على الميت ، ولو عقلا لبيكوا على أنفسهم لاعلى الميت . نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم ، إنه نجا من أموال ثلاثة وجه ملك اللوت وقد رأى ، ومرارة اللوت وقد ذاق ، وخوف الخاتمة وقد آمن . وقال أبو عمرو بن العلاء جلست إلى جرير وهو يلى على كتابه شعرا فأطلعت جنازة فأمسك وقال شيتني والله هذه الجنائز . وأنشأ يقول :

تروحنا الجنائز مقبلات وتلهو حين تذهب مديرات

كروعة ثلثة لشمار ذئب فلما غاب عادت واقبات

فن آداب حضور الجنائز: التفكير والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع - كما ذكرنا آدابها وسنته في حق الفقه - ومن آدابها حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها صلاح ، فإن الحاتمة عظمة لاتندري حقيقتها . ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، فحضرها هو وصلى عليها ، فلما دلى في قبره وقف على قبره ، وقال : يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عركم بالتوحيد وعرفت وجهك بالسجود ، وإن قالوا مذهب وذوخطايا ؟ فن منا غير مذهب وغير ذى خطايا ؟ ويحك أن رجلا من المنمكين في الفساد ، اتفق بعض نواحي البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه ، فلما تاجر حواشي رحلتها إلى المصل فاصلى عليه - أحد ، فحملتها إلى الصحراء للدفن ؛ فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمنظر للجنائز ثم قصد أن يصلى عليها ، فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان ، فخرج أهل البلد فاصلى الزاهد وصلوا عليه ، وتمجّب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال : قيل لي في المنام انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصل عليه فإنه مغفوره ، فوادى تعجب الناس ؛ فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته ؟ قالت : كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولا بشرب الخمر ؛ فقال : انظري هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير ؟ قالت : نعم ؛ فثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يدل يديه ويثوذا ويصلى الصبح في جماعة ثم يهود إلى الماخور ويشغل بالنسق (والثاني) أنه كان أبدا لا يخلو بيته من يقيم أو يقيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده ، وكان شديد التفقدهم . (والثالث) أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول : يارب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تغلها بهذا الخبيث ؟ يبنى نفسه . فأنصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره . وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فإن تبع منها تبع من ذى عظمة وإلا فاني لا إخالك ناجيا

بيان حال القبر وأقاولهم عند القبور

قال الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهّد الناس ؟ قال : من لم ينس القبر والى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما بقى على ما مضى ولم يعدغدا من أيامه وعنه نفسه من أهل القبور ^(١) ، وقيل لى كرم الله وجهه : ما شأناك جاورت المقبرة ؟ قال : إنى أجدهم خير جيران أجدهم جيران صدق يكفون الالسفة ويذكرون الآخرة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت منظرا إلا والقبر أفضل منه ^(٢) ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه . فيبكى ويكوى ويكوا فله ما ييكىكم ؟ قلنا : بكينا لبكائك ؛ قال : هذا قبر أبى آمنة بنت وهب استأذنت ربى في زيارتها فأذن لي ، فاستأذنت أنا فاستقرها فأبى على ، فأدركنى ما يدرك الولد من الرقة ^(٣) . وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ،

(١) حديث الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهّد الناس ؟ قال : من لم ينس القبور والى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما بقى على ما مضى ولم يعدغدا من أيامه وعنه نفسه من أهل القبور ^(١) ، وقيل لى كرم الله وجهه : ما شأناك جاورت المقبرة ؟ قال : إنى أجدهم خير جيران أجدهم جيران صدق يكفون الالسفة ويذكرون الآخرة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت منظرا إلا والقبر أفضل منه ^(٢) ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه . فيبكى ويكوى ويكوا فله ما ييكىكم ؟ قلنا : بكينا لبكائك ؛ قال : هذا قبر أبى آمنة بنت وهب استأذنت ربى في زيارتها فأذن لي ، فاستأذنت أنا فاستقرها فأبى على ، فأدركنى ما يدرك الولد من الرقة ^(٣) . وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ،

(٢) حديث : ما رأيت منظرا إلا والقبر أفضل منه ، وعنه فى الباب الثالث من آداب الصعبة .

(٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم ... الحديث ، وفيه : هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى في زيارتها فأذن لي ... ، وعنه فى آداب الصعبة أيضا ، ورواه ابن أبي الدنيا فى كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لسمر بن الخطاب ، وأخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه أيوب بن هانئ ضعه ابن معين وقال أبو حاتم صالح .

فمثل عن ذلك وقيل له : تذكر الجنة والتار فلا تبكي ! وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد !^(١) وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فزل وصلى ركعتين ، فقيل له هذا شيء لم تكن تفعله ؟ فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أقرب إلى الله بهما . وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الفردوس وبيت الوحدة وبيت الأثرة وبيت الفللة ، هذا ما أعددت لك فما أعددت لي ؟ وقال أبو ذؤال أخبركم بيوم فقرى ، يوم أوضع في قبرى . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له في ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكرون معادى وإذا قت لم يفتابوني . وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول : يا أهل القبور مالي إذا دعوتكم لأتجيبوني ! ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوانى وكأنى بي أكون مثلوم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يا فلان لقد أرتقت الليلة أنفكر في القبر وساكه ، وإنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قرب بهد طول الألى منك به ! ولرايت يبتاهقول فيه الموام ويجرى فيه الصديد وتخزفه الديدان مع تثير الريح ويلي الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب ، قال : ثم شق شقة خزء هشيا عليه . وكان يزيد الرقاشي يقول : أيها القبور في حفرته وللتنخل في القبر برحمة المستأنس في بطن الأرض بأعماله ليت شمرى بأى أعمالك استشرت وبأى إخوانك اغتبطت ؟ ثم يبكي حتى يبل عمامته ثم يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة واغضب والله بإخوانه المتماورين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خارا كبحور الثور . وقال سائر الأصم من مر بالمقابر فلم يفكر لنفسه ولم يدع لهم ففقدان نفسه وغايم . وكان بكر السائد يقول يا أماء ليتك كنت بي عنيا لأن بك في القبر حسبا طويلا ومن بعد ذلك منه رحيل . وقال يحيى بن من ماذ : يا ابن آدم طائر بك إلى دار السلام فانظر من أن يجيه ؟ إن أجبت من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها ، وإن أجبت من قبرك منعتها . وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول ما أحسن ظواهرك إنما الدعاء في براطنك ! وكان عطاء السلى إذا بين عليه القليل خرج إلى المقبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فوامتوا ! وما ينتم أعمالكم فراعلاء ! ثم يقول غدا صلاه في القبور غدا صلاه في القبر ، فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجدده ووضعه من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجدده حفرة من حفر النار . وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبرا ، فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ثم يقول (رب ارجعون لى أعمل صالحا فإيا تركت) يردداه ، ثم يرد على نفسه ياربيع قد رجعتك فاعمل . وقال أحمد بن حرب تنجب للأرض من رجل يهد مضجعه ويسوى فراشه النوم ، فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شيء ! وقال عيمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال يا عيمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم ! أما زام صرعى قد حلت بهم اللثلاث واستحكف فهم البلى وأصاب الموام مقبلا في أبدانهم ؟ ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنتم عن صار إلى هذه القبور . وقد آمن من عذاب الله وقال ثابت البناني دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا أبايت لا ينرنك صوت أهلها فك من نفس مغنومة فيها . ويروى أن عاتمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فدفعت وجهها وقالت :

(١) حدث ثمان : كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته . وفيه : إن القبر أول منازل الآخرة . أخرجه الترمذى وحده وابن ماجه والحاكم وصححه وهدم في آداب الصلوة .

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلوا الفسطاط ودخلت المدينة ، فسمعوا
صوتا من جانب القيصح : هل وجدوا ما فقدوا ؟ فسمعوا من الجانب الآخر : بل يتسوا فاقبلوا . وقال أبرموس
القيمي : توفيت امرأة الفرزدق بفرج في جنازتها وجوه البصرة - وفيمع الحسن - فقال له الحسن : يا أبا فراس
ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :
أعاف وراء القبر إن لم تعافني أشد من القبر التهابا وأحيفا
إذا جاني يوم القيامة قائد عفيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزوقا
وقد أنشدوا في أهل القيور :

قف بالقيور وقل على ساحاتها من منكم للغمر في ظلماتها
ومن المكثم منكم في قصرها قد ذاق برد الأمن من روحاتها
أما السكون لذى العيون فواحد لا يستبين الفضل في درجاتها
لو جادوك لأخبروك بالسن نصف الحقائق بعد من حالها
أما المطيع فنازل في روضة يفيض إلى ما شاء من دوحاتها
والجرم الطاغى بها متقلب في حفرة يأوى إلى حياتها
وعقارب تسمى إليه فروحه في شدة التعذيب من لدناتها

وسر داود الطائي على امرأة تبكى على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت في القبر قد المذوكا
فكيف أذوق لطم الكرى وأنت يمينك قد وسدوكا

ثم قالت : يا ابنه بأى خديك بدأ الدود ؟ فصنع داود مكانه ونحو منقش عليه . وقال مالك بن دينار : مررت
بالمقبرة فأنفست أقول :

أتيت القبر فناديتها فأين المظم والمختبر
وأين المدل بسلطانه وأين المركز إذا ما اقتصر

قال : فوديت من بينها ، أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

فناونا جميعا فما غدير وماتوا جميعا ومات الخير
تروح وتندو بنات الأثرى فتنحو محسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما ترى معتبر

قال : فرجعت وأنا باك

آيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تأجيك أجدات ومن صمرت وسكانها نحت التراب خفوت

يا جامع الدنيا لنير بلاغه لمن تجمع الدنيا وأنت تموت
وجود على قبر آخر مكتوبا :

يا غاتم أما ذراك فواسع . وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفخ المقيتور عمران قبره إذا كان فيه جسمه يتهم
وقال ابن السماك : مزرت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمز أقاربى جنات قبرى كأن أقاربى لم يعرفوى
ذو الميراث يقتسمون مالى وما يألون أن يجدوا دينى
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيناه أسرع ما نسيوى

وجود على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحياء محتلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولانتهيا يا من يعد عليه القفط والنفس
أصبحت يا غافلا في النقص منقسما وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لتزيمه ولا الذى كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به عن الجواب لسانا ما به خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم في الأجداث مندوس

وجود على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحبة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعى رأيت عينائى بينهم مسكان

وجود على قبر طيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لى قائل صار لقمان إلى رسمه
فأين ما يوصف من طيبه وحذقه في الماء مع جبه
مهات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه

وجود على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لى أذل قصري عن بلوغه الأجل
فلتلق الله ربى رجل أمكنته في حياته العمل
ما أنا وحدى نقلت حيث ترى كل إلى مثقه سينقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت . والبصير هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستند الحق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم مالم يلحق بهم ، وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو متصيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بخلافها ، لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشف لهم حقائق الأمور ، فأنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب ، وليستزيد الموقف به ربته فيتضاعف له الثواب ، فأنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه لحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت

قادر على تلك الساعة ، ولعلك تحذر على أمثالها ثم أنت مضجع لها ، فوطن نفسك على التحسر على نصيبهما عند خروج الأمر من الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار . فقد قال بعض الصالحين : رأيت أعالى في الله - فبما يرى التائب - فقلت : يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين ، قال : لأن أقدر على أن أقولها - يعني الحمد لله رب العالمين - أحب إلى من الدنيا وما فيها ، ثم قال ألم تر حيث كانوا يفتنوني فإن فلانا قد قام فبلى ركبتين لأن أكون أقدر - على أن أصليهما أحب إلى من الدنيا وما فيها

بيان أقاولهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن يزوره في تقدمه عليه في الموت - منزلة ما لو كانا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه ، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعله أنه لاحق به على أقرب ، وليس بينهما إلا تقدم وتأخر . وهكذا الموت فلأن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر ، وإذا اعتقد هذا قل جرحه وجرته ، لاسيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله ^(١) ، وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى ولأن الثواب على قدر عمل الولد ، والقلب . وقال زيد بن أ. لم . توفي ابن لداود عليك السلام لحزن عليه حزنا شديدا فقيل له : ما تان عدله عندك ؟ قال ملء الأرض ذبا . قيل له : فإن لك من الاجر في الآخرة مثل ذلك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيجتسمهم إلا كانوا له الجنة من النار . فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو اثنان ؟ قال : أو اثنان ^(٢) ، وليخلص الوالد البسماء لولده عند الموت فإنه أرجى دهاء وأقرب إلى الإجابة . وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال : اللهم إني أصبحت أرجوك له وأعانك عليه لحق رجائي وآمن خوفي . ووقف أبو سنان على قبر ولده فقال : اللهم إني قد غفرت له ماوجب لي عليه فأغفر له ماوجب لك عليه فإنك أجود وأكرم . ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال : اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك . ولما مات ذر بن عمر بن ذر ثم أبوه عمر بن ذر - بعد ما وضعه في لحد - فقال : يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شمرى ماذا قلت وماذا قيل لك ؟ ثم قال : اللهم إن هذا ذر متعتني به مامتتني ووفيته أجله ووزقه ولم تظليه ، اللهم وقد كنت أزمته طاعتك وطاعتني ، اللهم ما وعدتني عليه من الاجر في مصيبتى فقد وهبت له ذلك فهب له عذابه ولا تعذب . فأبكى الناس ثم قال عند المصرفة : ما علينا بذك من خصاصة يا ذر وما بنال إنسان مع الله حاجة ، فلقد مضينا وتركناك ولو أقنما فنعناك ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : ما رأيت مثل هذه التضاورة وما ذاك إلا من فلة الحزن ! وقالت : يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد ، قال : فكيف ؟ قالت : إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الاضحى وكان لي صبيان مليحان بلبيان فقال أكبرهما للاخر : أريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة ؟ قال : نعم ، فأخذه وذبحه وما شرنا به إلا متسحطا في دمه ، فلما ارتفع الصراخ حرب الغلام فلجأ إلى جبل فرمقه ذئب فأكله ، فخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر ، قالت : فأرداني الله ركارتى . فأمثال هذه المصائب يلبنني أن تذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجرع ، فما من مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

(١) حديث « لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله » لم أجد فيه ذكر « مائة فارس » وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة : سقط أئمنه بين يدي أحب إلى من فارس أخفه خلق .

(٢) حديث « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيجتسمهم ... الحديث » تقدم في التشكاح .

بيان زيارة القبور والنساء الميت وما يتعلق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار ، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد ^(١) .

روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كنت نهيتم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا ^(٢) ، وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ ^(٣) ، وفي هذا اليوم قال : أذن لي في الزيارة دون الاستنفار ^(٤) ، كما أوردنا من قبل . وقال ابن أبي مليكة : أقبلك عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت : يأم المؤمنين من أين أقبلك ؟ قالت : من قبر أبي عبد الرحمن ، فقلت : أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عنها ؟ قالت نعم ، ثم أمر بها ^(٥) ، ولا ينبغي أن يتسلسل بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر ، فإنهن يكثرن المجر على رموس المقابر فلا يخير زيارتهن بشرها ، ولا يخلون في الطريق عن كشف وتبرج وهذه عظامهم ، والزيارة سنة فكيف يحتدل ذلك لأجلها . نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاختصار على النساء وترك الحديث على رأس القبر . وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : زر القبور تذكركم بها الآخرة ، واغسل الموتى فإن معالجة جسد غار موعظة بليغة ، وصل على الجنازة لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين في ظل الله ^(٦) ، وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : زروا موتاكم وسلوا عليهم فإن لكم فيهم عبرة ^(٧) ، وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه . وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن قاطمة بنت أبي صلي الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام ، فتصلي وتبكي عنده . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من زار قبر والده أو أجدانه في كل جمعة غفر له وكتب برا ^(٨) ، وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل ليوت والده وهو على ما فيدعو الله له من بعدهما فيكتبه الله من البارزين ^(٩) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم من زار قبري فقد

- (١) حديث : نهي عن زيارة القبور ثم أذنه في ذلك . أخرجه مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .
- (٢) حديث علي : كنت نهيتم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا . رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحد وأبو يعلى : غير أن لا تقولوا هجرا . وفي علي بن زيد بن جهمان عن بريدة بن الحارث قال البخاري لم يصح رواية ذكره ابن حبان في المنتقى (٣) حديث : زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم يربكيا أكثر من يومئذ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن محمد عن الأعمش متروك ورواه شعيب بن وجه آخر كذا منه قريبا من ألف راكب وفيه : أمه لم يأخذ له في الاستنفار لها
- (٤) حديث : وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستنفار . تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستنفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة : استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنت أمي أن أزور قبرها فأذن لي .
- (٥) حديث ابن أبي مليكة : أقبلك عائشة يوما من المقابر فقلت : يأم المؤمنين من أين أقبلك ؟ قالت : من قبر أبي عبد الرحمن قلت : أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عنها ؟ قالت : نعم ثم أمر بها . أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد
- (٦) حديث أبي ذر : زر القبور تذكركم بها الآخرة ، واغسل الموتى ، فإن معالجة جسد غار موعظة بليغة . . الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد
- (٧) حديث ابن أبي مليكة : زوروا موتاكم وسلوا عليهم وسلموا عليهم . . الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في مسنده ورواه مسلم من حديث أبي هريرة : استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنت أمي أن أزور قبرها فأذن لي . أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن الحبان رحمه وهو متصل
- ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن البلاد الجليل متروك (٩) حديث ابن سيرين : إن الرجل ليوت والده وهو على ما فيدعو الله له من بعدهما فيكتبه الله من البارزين . أخرجه ابن أبي الدنيا في مسنده وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عتبة أبي العزيز عن محمد بن جندب عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جندب عن قتادة عن أنس وربعين بن عتبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف .

وجبت له شفاعتي^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من زارني بالمدينة عقيب ما كنت له شفيها وشهيدا يوم القيامة^(٢) ، وقال كذب الأخبار : ما من بحر يطلع إلا أنزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج سبعين ألفا من الملائكة يقرؤنه .

والمستحب في زيارة القبر أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجه الميت ، وأن يسم ولا يمسح القبر ولا يمسحه ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى . قال نافع : كان ابن عمر رأته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول : السلام على النبي ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي ، وينصرف . وعن أبي أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرقع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به وود عليه حتى يقوم^(٣) ، وقال سليمان بن يحيى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أفنقذ سلامهم ؟ قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر لرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام . وقال رجل من آل عاصم الجعدي رأيت عاصبا في منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت ؟ قال بلى ، فقلت أين أنت ؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا وفرد من أصحابي يجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى أبي بكر ابن عبد الله المزني فتتلاق أخباركم ، قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيات ألبت الأجسام وإنما تتلاق الأرواح قال فقلت فهل تملكون بزيارتها أيام قال نعم نعم بما غشيت الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس فقلت وكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال لفضل يوم الجمعة وعظمه وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة ف قيل له لو أخرت إلى يوم الاثنين ؟ قال بلغني أن المرقى يعملون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده . وقال الضحاك من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته ، قيل وكيف ذلك ؟ قال لمكان يوم الجمعة . وقال بشر ابن منصور لما كان زمن الطاهون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أسمى وقف على باب المقابر فقال ألس الله وحشتكم ورحم غريبتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأصبت ذات ليلة فأنصرفت إلى أهل ولم آت إلى المقابر فأدھر كما كنت أدھر ، فبينما أنا نائم إذا بمخلق كبير قد جادوني فقلت ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم ؟ قالوا إنك قد عددتنا منك هدية عند انصرافك إلى أمك ، قلت وما هي ؟ قالوا الدعوات التي كنت تدھر لنا بها ، قلت فإني أعدد لذلك ، فما تركتها بذلك وقال يشار بن غالب التبراني رأيت رابعة العدوية العابدني منامى وكنت كثير الدعاء لما تقال لي يا بشر بن غالب هداياك تأتينا على طبق من نور بخمرة بتناديل الحرير قلت وكيف ذلك ؟ قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للوحي فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق من نور وخرمناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الميت في قبره إلا كالنريق المتخوف ينتظر دعوة تلحقه

(١) حديث من زار قبري قد وجبت له شفاعتي . تقدم في أسرار الحج (٢) حديث من زارني بالمدينة عقيب ما كنت له شفيها وشهيدا يوم القيامة . تقدم في (٣) حديث عائشة : ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به وود عليه حتى يقوم . أخرجه ابن أبي الدنيا في البرور وفيه عبد الله بن سنان ولم ألق على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصحه عبد الحق الأشيلي .

من أبيه أو أخيه أو صديق له ، فلما لحقته كان أحب إليه من الدنيا وما فيها ، وإن هدانا الأحياء للأموال البقاء والاستقرار^(١) وقال بعضهم مات أخ لي فرأيت في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك ؟ قال أتاني آت بشهاب من نار فزلا أن داعيا دعاني لرأيت أنه سيظهرني به

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والبقاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في الزرع فقال يا سعيد إذا مت فاصنعوا في كافرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقيم أحدكم على رأس قبره ، ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعدا ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له أذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنتك رضىت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن إماماً ، فلئن منكرا ونكيرا ابتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقصدنا عند ، هذا وقد لقن حجتك ، ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما ، فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال : فليسبه إلى حواء^(٢) .

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور . روى عن علي بن موسى الحداد قال كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل خريير يقرأ عند القبر فقال له أحديهما إن القراءة عند القبر بدعة ، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر بن إسماعيل الحلبي ؟ قال ثقة : قال هل كتبت عنه شيئا ؟ قال نعم . قال أخبرني مبشر بن إسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن الجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وعاشتها ، وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك ، فقال له أحد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ . وقال محمد بن أحمد المروزي سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فأفروا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد ، واجعلوا أبواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم . وقال أبو قلابة : أقبلت من الشام إلى البصرة فزالت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسي على قبر فتمت ثم نهضت فلما صاحب القبر يستكني يقول لند أذيتي منذ الليلة ، ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا أقرتهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نورا مثل الجبال

فالتقصود من زيارة القبور الوارث الاعتبار بها ، وللزور الانتفاع ببقائه . فلا ينبغي أن يغفل الراجع عن البقاء لنفسه وللبيت ولا عن الاعتبار به . وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاءه . وكيف يبعث من قبره ؟ وأنه على القبر سيلحق به كما روى عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى الخراب ، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فليفتن أنها عويت ، في كثرة إيلائها المقابر فقالت إن القلب القاسي إذا جفا لم يلبثه إلا رسوم البلى ، وإلى آت القبر فكأنى

(١) حديث « عائلتي في قبره إلا الكافريق المنتوث ينتظر دعوة تلهفه من أبيه أو من أخيه أو صديق له .. الحديث » أخرجه أبو منصور البرقي في مسند القردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن عبد الواحد قال الله في حد من حدان من حمار بحديث باطل (٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي قال : شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في الزرع فقال : يا سعيد إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقيم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة ... الحديث » في تلقين الميت في قبره أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف .

ويستحب التناء على الميت ولا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات ساجد فمعه ولا تقعوا فيه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تنسوا الأموات فإنهم قد انصروا إلى ما قدموا ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تذكروا موتاكم إلا بخير فإنهم إن يكونوا من أهل الجنة تأمنوا وإن يكونوا من أهل النار تحسبهم ما هم فيه ^(٣) ، وقال أنس بن مالك : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثأوا عليها شرا فقال عليه السلام : وجبت ، ومروا بأخري فأثأوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وجبت ، فسأله عمر عن ذلك فقال : إن هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار ، وأنتم شهداء الله في الأرض ^(٤) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المبدل ليجوز فيثني عليه القوم التناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى للملائكة أشهدكم أني قد قبلت شهادة عبيدي على عبدی وتجاوزت عن علي في عدي ^(٥) .

بيان حقيقة الموت

فقلن بعضهم: أن الموت هو العدم، وأنه لا حشر ولا نقر ولا عقاب للغير والنشر، وأن موت الإنسان كوت الحيوانات وجفاف النبات. وهذا رأى الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

ولئن قوم: أنه يتمد بالموت ولا يتألم بمقاب ولا يتقم شراب ما دام في التبر إلى أن يعاد في وقت الحشر. وقال آخرون: إن الروح باقية لا تتمد بالموت، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد، وإن الأجساد لا تمتص ولا تحترق أصلاً.

وكل هذه ظنون قاسية ومائلة عن الحق . بل الذي نشهد له طرق الاعتبار وتعلق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ومعنى مفارقة الجسد

(۱) حدیث : « إذا مات صاحبكم فدموه ولا تغربوا فيه » أخرجه أبو داود من حديث عائدة بن أساد بن جندب

(٧) حديث « لا تنسوا الأموات فإنهم قد أُنْصُوا إلى ما قدموا » أخرجه البخاري من حديث عائشة أيضاً

(٣) حديث « لا تذكروا موتكم الا بخير .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عن النخعي من حديث عائشة بإسناد جيد متصراً على ما ذكره من هنا بلفظ « ملككم » وذكر الزيادة صاحب مسند القردوس وعلق عليه العلامة الشافعي والفريابي (١) حديث أنس : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاها عليها ثم قال « وبيت » الحديث متفق عليه (٢) حديث أنس بن حذيفة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أتى قبره من غير طيب » أخرجه أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بزيادة « من أتى قبره من غير طيب » من غير مسلم يحوت فيه له ثلاث آيات من جبراه الأديني بخير إلا قاله فتركه من غير دليل شاهد عادي على ما نقله وخرجه في المسألة

انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات الروح تستعملها حتى إنها لتبطل باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأزواج الحزن والنم والكمد ويتمم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء . فكل ما هو وصف الروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيستعمل بمرت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعجز إلى يوم البعث . والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده . وإنما تستعمل الجسد بالموت بضاهى تستعمل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح العالة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استمعى عليها بعضها ، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها ، وأغنى بالروح : المعنى الذى يترك من الإنسان العلوم والآم والنعوم ولذات الأفراح . ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل عنها العلوم والإدراكات ، ولا بطل منها الأفراح والنعوم ، ولا بطل منها قولها للآلام واللذات . والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللذات وذلك لا يموت . أى لا يندم . ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كأن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة . فالمرت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهي باقية .

نعم فقير حاله من جهتين : (إحداهما) أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه ، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ، وسلب منه غيظه ودواؤه وغلباه ودوره وعقاره وسائر أملاكه . ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن المولم هو الفراق ، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمسال والآم واحد في الحالتين . وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله يلزماجه إلى عالم آخر لا يتناسب هذا العالم ، فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ويمتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقتها ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجهاده وعقاره حتى إلى قبص كان يلبسه مثلا ويرجس به ، وإن لم يكن يفرح إلا بالذكراة ولم يأنس إلا به عظم فنيمة وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة .

(والثاني) أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكتشفا له في الحياة ، كما قد ينكشف للمتفكر ما لم يكن مكتشفا له في النوم . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسنه وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطورا في كتاب مطوى في سر قلبه وكان يشغل عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئه إلا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وبعد ذلك يقال له (كن بنفسك اليوم عليك حسيا) وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن ، وتفتش فيه نيران الفراق أغنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الثانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة ، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بفراقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لبعثه . وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تقطع ضرورته ليستغنى عنه ، فقد حصل ما كان يوده

واستغنى عنه . وهذه أنواع من العذاب والآلام عطيته تهجم عليه قبل الدفن .

ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقديمتى عنه ، ويكون حال المتعم بالدفن المظلم إلى ما كان من نعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحرمة اعتياده على أن الملك يتعامل في أمره ، أو على أن الملك ليس يدري ما يشاهده من قبيح أفعاله ، فأخذ الملك بنته وعرض عليه جريدة قد دوت فيها جميع فواحشه وجناباته ذرة ذرة وخطوة خطوة ، والملك قاهر مقلط وغيره على حرمة ومنتهى من الجناة على ملكه وغير ملته إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الحرق والحجلة والحياة والنحس والتدم . فهذا حال الميت الفاجر المتمر بالدفن المظلم إلى ما قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته ثمود بالله منه ، فإن الحزى والافتضاح وهتك السر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما . فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدا أول البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين ، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة .

لعمري لا يمكن كشف الغطاء عن حقيقته الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعركة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها ، ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ، ولا أن يزيد على أن يقول « الروح من أمر ربي »^(١) ، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن أطلع عليه ، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ،

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة (أما الآيات) فأورد في الشهداء إذ نال (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين) ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربي حقا » فقيل يا رسول الله أتأديهم وهم أموات ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرُونَ على الجواب »^(٢) ، فهذا نص في روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفة الآيات نص أرواح في الشهداء . ولا يتخلو الميت عن سعادة أو شقاوة . وقال صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة أو حفر النار أو روضة من رياض الجنة »^(٣) ، وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتجلى عند الموت من غير تأخير ، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله .

وروي أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وحشية إن كان من أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال هذا مقعدك حتى تبحث إليه يوم القيامة »^(٥) ، وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال وعن أبي قيس قال : كنا مع علفقة في جنازة فقال : أما هذا فقد قامت قيامته وقال على كرم الله وجهه :

(١) حديث : إنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح ونزول فوله نسال (واطلوناك عن الروح) وقد تقدم . (٢) حديث : ناله من قتل من صناديد قريش يوم بدر « يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا » ... أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب . (٣) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرءاء والحرف .

(٤) حديث أنس : الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته . أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف وقد تقدم

(٥) حديث « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده للجنة والنار » الحديث . متفق عليه من حديث ابن عمر .

حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانات القبر وغدى ورجع عليه برزقه من الجنة»^(١) وقال مسروق: «ما غبط مؤمنا في الصدق قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى. وقال يعلى بن الوائيد: كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب؟ قال: الموت، قلت: فإن لم يموت؟ قال: يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يوجب إلا المؤمن، وللموت إطلاق للمؤمن من السجن. وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأمن بالدنيا، والأمن بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء. فكل مأسوى الله وذكره والأمن به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة. ولهذا قال عبد الله بن عمرو: «إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في جهنم فأخرج منه فهو يتنفس في الأرض ويتقلب فيها. وهذا الذي ذكره حال من تهاون عن الدنيا ويهمل بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوه ومقاساة المشوات تؤذيه؛ فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراذه بمحبوه الذي كان به ألسه من غير مائق ولا دافع.

وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى التعم واللذات وأكل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله! لأنهم ما أقدموا على القتال إلا فاطمين بالتعظيم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طاعة مرضاه، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع، وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها ونشوق إليها، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه! ويجوز القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدرك الموت عليه فيتنفخ. والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة. فلماذا عظم التعم، إذ معنى التعم أن ينال الإنسان ما يريد قال الله تعالى: ﴿ولهم ما يشتهون﴾ فكان هذا أجمع عبارة للمعاني التي الجنة وأعظم المذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم. وهذا التعم يدرك الشهيد - كما انقطع نفسه - من غير تأخير. وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين. وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع لجميع أحاديث الشهداء تدل عليه، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى، فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر: «ألا أبشرك يا جابر؟» وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال: بلى بشارك الله بالجحيم فقال: «إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعد بين يديه وقال تمن على يا عبدي ما شئت أعطيك فقال: يارب ما بعد لك حق عبادتك أتني عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقول فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع»^(٢) وقال كعب: يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له: لم تبكي وأنت في الجنة؟ قال: أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتل واحدة! فكنت أشتي أن أرد فأقتل فيه قتلات.

واعلم أن المؤمن يتكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق،

(١) حديث أبي هريرة «من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتان القبر» أخرجه ابن ماجه بسند ضيف وقال الفتنه القبر وقال ابن أبي الدنيا «فتان» (٢) حديث معلق «ألا أبشرك يا جابر... الحديث» وفيه «إن الله أحيا أباك وأقعد بين يديه... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت يستاد فيه ضيف وقدمى وحسنه وابن ماجه من حديث جابر «ألا أبشرك بما أن الله به أبأك» قال: «ط يارسول الله... الحديث» وفيه فقال «يا عبدي تمن على أعطاك قال يارب تخيلى فأقول فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون».

ويكون مثاله كالحبوس في بيت مثالم فتح له باب إلى بستان واسع الاكتاف لا يبلغ طرفة أنفاه فيه أنواع الانفجار والأزهار والنثار والطيور فلا يشتهي البود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا فقال لرجل مات ، أصبح هذا مرحلا عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه ^(١) ، فمرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلة الرحم ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على غرضه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ^(٢) ، وكذلك المؤمن يخرج من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه ، وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانا قد مات فقال مستريح أو مستراح منه ^(٣) ، أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه ، وقال أبو عمر صاحب السقيا : مر بنا ابن عمر ونحن صنيان ففطر إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلا فواراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئا وإنما الأرواح التي تعاقب رثائب إلى يوم القيامة ، وعن عمرو بن دينار قال : ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما سيكون في أهله بعده وإنهم ينسلونه ويسكنونه وإنه لينظر إليهم ، وقال مالك بن أنس : بلغني أن أرواح المؤمنين مرسة تذهب حيث شامت ، وقال الثعلبي ابن بشر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول : ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوفها فأنه الله في إخوانكم من أهل الله ور فإن أعمالكم تعرض عليهم ^(٤) ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تفضحوا موتاكم ببشائ أعمالكم فلأنما تعرض على أوليائكم من أهل القبور ^(٥) ، ولذلك قال أبو البرداء : اللهم إني أخوذ بك أن أعمل عملا أخرى به عند عبد الله من راحة - وكان قد مات وهو خاله - وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي ؟ قال : في حواصل طير يبض في ظل العرش ، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة ، وقال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الميت يرف من يفسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره ^(٦) وقال صالح المري بلغني أن الأرواح ثلاث في عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم : كيف كان ماؤك ربي أي الجسد كنت في طيب أو خبيث ؟ وقال حبيب بن عمير : أهل القبور يترقبون الأخبار ، فإذا أذهم الميت قالوا : ما فعل فلان ؟ فيقول : ألم ياتكم ... أو

(١) «يث : قال لرجل مات ، أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسل ووجه لغات .

(٢) «حديث : أن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها كى على غرضه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يرجع إلى بطن أمه » أخرجه ابن أبي الدنيا في رواية بقية عن جابر بن عامر الذي عن سلمة بن عامر الجنازي مرسل هكذا

(٣) «حديث : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلانا قد مات فقال «مستريح أو مستراح» ، فثنى عليه من حديث أبي كنانة بلفظ : مر عليه بمجازة فقال ذلك وهو عند أن أب الدنيا في الموت باللفظ لقي أورده المصنف

(٤) «حديث الثعلبي بن بشر : ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوفها فأنه الله في إخوانكم من أهل القبور ، فإن أعمالكم تعرض عليهم » أخرجه ابن أبي الدنيا أو يمكن بزال من رواية مالك بن أدى عن الثعلبي من قوله «الله» ورواه بكة الأزدي في الضعاف ، وقال لأصبح لستاده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكتابه في ترجمة أبي إسماعيل البكري في رواية عن مالك بن أدى ونقل عن أبيه أن كلامها مجهول ، قال الأزدي لأصبح لستاده وذكر ابن جابر في التلخيص : مالك بن أدى

(٥) «حديث أبي هريرة ، لا تفضحوا موتاكم ببشائ أعمالكم فأنما تعرض على أوليائكم من أهل القبور » أخرجه ابن أبي الدنيا والمطاللي بإسناد ضعيف ولأحمد مزروية من مسلم السان عن أنس «لأن أعمالكم تعرض على أئمتكم وعشاركم من الأدوات ... الحديث»

(٦) «حديث أبي سعيد الخدري : إن الميت يرف من يفسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره » رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه ماوية أو ابن ماوية عنه عبد الملك بن حسن .

ما قدم عليكم؟ فيقولون (إنا لله وإنا إليه راجعون) سلك به غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال : إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . وقال مجاهد : إن الرجل ليشر بصلاح ولده في قبره . وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون انظروا أحاكم حتى يستريح ، فإنه كان في كرب شديد فيسألونه : ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة ؟ وهل تزوجت فلانة فإذا سأله عن رجل مات قبله وقال : مات قبل قالوا (إنا لله وإنا إليه راجعون) ذهب به إلى أمه المحاربة (١) .

يسأل كلام القبر للبيت

وكلام الموقر إما بلسان المقال أو بلسان الحال ، التي هي أفصح في فهم الموقر من لسان المقال في فهم الأحياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول القبر للبيت حين يوضع فيه ويحلك يا ابن آدم ما غوك في العلم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت البؤس ما غوك في إذ كنت تمزج في فلان ؟ فإن كان مصلحاً أحاب عنه بحسب القبر فيقول أرايت أن كان بأس بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر : إني إذا انحول عليه خضرنا ويعود جسده نوراً وتصعد روحه إلى الله تعالى (٢) ، والنفذ هو الذي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوى . وقال عبيد بن عمير اللبي : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها : أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فإن كنت في حياتك لله مطيعاً كنت عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصياً فأنا اليوم عليك نقمة ، أنا الذي من دخلني مطيعاً خرج مسروراً ، ومن دخلني عاصياً خرج مثيراً . وقال محمد بن صبيح : بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فمذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموقر : أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك في متقدمنا إياك فكرة ، أما أرايت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهلا استدركت ما فات إخوانك وتناديه بفاع الأرض : أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض من غزوه الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محملاً بتأده أحبه إلى المنزل الذي لا بد له منه ؟ وقال يزيد الرقاشي : بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم ألقها الله فقال : أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الإخلاص والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا . وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة ، قال : فتجىء ملائكة المذاب من قبل رجله فتقول الصلاة إليك عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال في القيام لله عليها فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أضرِبَ نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه . قال : فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقفت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه . قال فيقال له : هنيئاً طيبت حياً وطيبت ميتاً . قال : وتأنيبه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشاً من الجنة ودفناً من الجنة ويفسح له في قبره مدًّ بصره ويؤتى بتقديله من الجنة

(١) حديث أبي أيوب : إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا أحاكم حتى يستريح . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف عوراه ابن المبارك في الزهد ، وقال في أبي أيوب بإسناد جيد ، ورواه ابن ماجة في زوائده على الزهد وفيه سلام الطول ضعيف ورواه النسائي وابن حبان نحوه . حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٢) حديث : يقول القبر للبيت حين يوضع فيه : وعكس وابن آدم ما غوك في العلم أني بيت الفتنة ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في السكاني من حديث أبي المجاني في المجال بإسناد ضعيف .

بیان عذاب القبر وسؤال منکر ونکیر

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأن الميت بقدم وهو خسر خسر عليه » فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك فإن آدم الحديث ... أخرجه ابن أبي الدنيا الثوري هكذا مرسلًا ورواه تميم بن مرزوق ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم يرفعه . (٢) حديث البراء : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره فمسك رأسه ثم قال « اللهم اني أعوذ بك من عذاب القبر .. الحديث » فجلوه =

عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة فإن في شخص إلى حسنة ويطلق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن إذا احتضرت الملائكة بحمزة فيها مسك وضرب الریحان فقل روحه كما تسل الشجرة من العجين ويقال : أيتها النفس المطمئنة اخرجي وراضية ومرحبا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة ويكب بها إلى عيلى . وإن الكافر إذا احتضر أته الملائكة بمسح فيه حمزة فتزع روحه انتزاعا شديدا ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوط عليك إلى هو ان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجرة وأن لها نقيشا يطوى عليها المسح ويذهب بها إلى جهنم ^(١) . وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت قال رب ارجعوني لعمل صالحا فما تركت) قال أى شيء تريد فى أى شيء ترغب أن ترجع لتجمع المال وتفرس الفراس وتبنى البنايا وتعتقد الأنهار ؟ قال : لا ، لعل أعمل صالحا فما تركت ، قال : فيقول الجبار (كلا إنها كلمة هو قائلها) أى ليقرئها عند الموت . وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، هل تدرون فيما إذا أنزلت (فإن له معيشة ضنكا) قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : عذاب الكافر فى قبره يسقط عليه تسعة وتسعون تلبغا هل تدرون ما التبن ، تسعة وتسعون حبة لكل حبة تسعة رهوس يمدشونه ويلبسونه وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون ^(٢) ، ولا يلبس أن يتعجب من هذا العدد على الحصر ، فإن أعداد هذه الحيات والمقارب بعدد الأخلاق الذمومة من الكبر والرياء والحسد والغفل والحد وسائر الصفات ، فإن لها أصولا معدودة ، ثم تنشعب منها فروع معدودة ، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام ، وتلك الصفات بأعيانها هى المهلكات وهى أعيانها تقلب عقارب وحيات ، فالقوى منها يلدغ تلدغ التبن والضعيف يلدغ تلدغ المقرب ، وما بينهما يؤذى إلباء الحية . وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وأنساب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور الثقة . فأمثال هذه الأخبار لما طواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة ، فمن لم تكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها ، بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسلم .

فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر فى قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟ فأعلم أن لك ثلاث مقامات فى التصديق بأمثال هذا

(أحدهما) وهو الأظهر والأسرع والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهى تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك ، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملتكرية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت . أما رأى الصحابة ورضى الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه . ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحى أم عليك ، وإن كنت أمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا يجوز هذا فى الميت ؟ وكأن الملك لا يشبه الأديمين والحيوانات فالحيات والمقارب التى تلدغ فى القبر ليست من جنس حيات العالم بل هى جنس آخر وتدرج بحاسة أخرى .

= أخرجه أبو داود والمالك بكاه وقال صحيح على شرط الشيخين وضعه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا .

(١) حدث أبو هريرة أن المؤمن إذا حضرته الملائكة بحمزة فيها مسك وضرب الریحان .. الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبرزاق بلفظ المصنف . (٢) حديث أبو هريرة : المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا .. الحديث . ورواه ابن حبان .

(المقام الثاني) أن تتذكر أمر النائم وأنه قد برى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصبح في نومه ويمرق جبينه وقد يزعج من مكانه ، كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى البقطان ، وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواله حية ، والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقه غير مشاهد . وإذا كان العذاب في ألم اللغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد .

(المقام الثالث) أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلفك منها وهو السم ، ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم ، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد تفرغ وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة ، فإنه لو خلق في الإنسان لمدة الواقع مثلا من غير مباشرة صورة الواقع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون بالإضافة لتعريف السبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب ، والسبب يراد ثمرة لا لثاته .

وهذه الصفات الملهكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات . وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب المشق مؤذيا عند موت المشوق ، فإنه كان لا يذيا فطأت حالة صار اللذيق بنفسه مؤلما ، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يمتحن منه أن لم يكن قد تنعم بالمشق والرمال . بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط المشق في الدنيا على نفس فصار يشق ما هو معتاده وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ، ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فلماذا ترى يكون حاله ؟ أليس يعظم شقاؤه ويشد عذابه ويتمنى يقول ليت لم يكن لي مال قط ولا جاء قط فكنت لا تأذى بفراقه ؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة :

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فاحال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ؟ ثم يضاف إلى هذا العذاب تنحصر على مفاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فإن حب غير الله يحبه عن إلقاء الله والتعم به فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرت مفاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى ، وذلك هو العذاب الذي يذنب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ ثم لهم أصالوا الجميع) وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوه وانقطعت عنه الموانع والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ومثل ذلك فليعمل العاملون .

والمقصود أن الرجل قد يحب نفسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب . فإذا لم فراق القرس عنده أعظم من العقرب ، وحب القرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه . فليستعذ لهذه اللغات ؛ فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وخفاره وأهله ولده وأحبابه ومعارفه ، ويأخذ منه جامه وقبوله ، بل يأخذ منه سمه وبصره وأعضاءه ويأس من رجوع جميع ذلك إليه . فإذا لم يحب سواه فقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من المقارب والحيات ، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه فكذلك إذا مات ، لأننا قد بينا أن المعنى الذي هو المدرك للآلام واللغات لم يمت بل عذابا بعد الموت أخذ . لأنه في الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من جمالية ومحاذاة ويتسلى برجاء الود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة

بعد الموت ، إذ قد أنشد عليه طرق القتل وحصل اليأس . فإذن كل قيصر له ومندبل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يتي متأسفا عليه ومعذبا به ، فإن كان عذبا في الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم : نجوا المخفون ، وإن كان متقلا عظم عذابه . وكذا أن حال من يشرق منه دينار أخف من حال من يشرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم : صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين ^(١) ، وما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حجرة عليك بعد الموت ، فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقل ، فإن استكثر فلست بمستكثر إلا من الحسرة ، وإن استقلت فلست تخفف إلا عن ظهرك .

ولما تكثر الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها . فهذه مقامات الإيمان في حيات القبر وعقابه وفي سائر أنواع عذابه .

رأى أبو سعيد الخدري أبنا له قد مات في المنام فقال له : يا بني عظمي ، قال : لا تخالف الله تعالى فيما يريد ، قال : يا بني زدي ، قال : يا أبتي لا تطيق ! قال : قل : قال : لا تجعل بينك وبين الله قيصا . فما لبس قصيا ثلاثين سنة .

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث ؟ فأعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الآزل وأنكر ما بعده . ومنهم من أنكر الآزل وأثبت الثاني . ومنهم من لم يثبت إلا الثالث . وإنما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك في حيز الإمكان . وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله بالساح قدرة الله سبحانه ومجائب تدييره ، فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور . بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب . ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع ، ورب عبد يجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة ، لئلا يلهو من عذاب الله قليلا وكثيره .

هذا هو الحق فصدق به تقليدا فيمن على بسط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا ، والذي أوصيك به أن لا تنكر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشغل بمرغمته ، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيما كان . فإن أملت العمل والعبادة واشغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كمن أخذ سلطانا وحسبه ليقطع يده ويمدح أنفه ، فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطع بسكين أو بسيف أو بموسى ؟ وأمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل ، فقد علم على القطع أن العبد لا يغفل بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقبٍ فينبغي أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

بيان سؤال منكرو ونكير وصورتها وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر

قال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكرو وللآخر نكير ، فيقولان له ما كنت تقول في النبي ، فإن كان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك . ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا ويؤثر له في قبره . ثم يقال له نعم فيقول دعوني أرجع إلى أملي فأخبرهم ، فيقال له نعم فيمنم كومة العروس الذي لا يوظفه إلا أحب أهل إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقا قال لأدري

(١) حديث « صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين » لم أجده أصلا .

كذلك سمع الناس يقولون شيئاً وكنت أقوله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التثني عليه فتلتزم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال مذبذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ^(١) ، وعن عطاء بن يسار قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا عمر كيف بك إذا أتت مت فاطلق بك قومك فناسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، ثم رجعوا إليك ففسدوك وكفونك وحظرك ، ثم احتملوك حتى بضءوك فيه ، ثم جيلوا عليك التراب ويدفونك ، فإذا انصرفوا عنك أنك فنانا القبر منكر وتكير أصواتهما كالرعد الفاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يحتران أشعارهما ويبحثان القبر بأنبياهما فتتلاك وترتراك ، كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ ، فقال عمر : ويكون معي مثل عقي الآن ؟ قال : نعم ، قال : إذن كفيكهما ^(٢) ، وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء . فيكون الميت عاقلاً مدركاً عالمياً بالآلام واللذات كما كان ، لا يتغير من عقله شيء . وليس العقل للمدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء . ولو تأثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الإنسان الدافل بكافة قائماً بآفيا وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك الجزء لأجله الموت ولا يطرأ عليه الندم . وقال محمد بن المنكدر : يلتقي أن الكافر يسقط عليه في قبره دابة حمياء صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة ، لارتاء فتقبه ولتسمع صوته فترحه . وقال أبو هريرة : إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته ، فإن أتاه من قبل رأسه جاء قرأه القرآن . وإن أتاه من قبل رجله جاء قيامه ، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان : والله لقد كان يمسلي الصدقة والصداء لأسبيل لكم عليه ، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تنف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خلا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان : فباحش عنه أعماله الصالحة كما يحباحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ، ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك في مضجعتك فتمم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك . وعن حذيفة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة جلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال : يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد منه حاله ^(٣) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن القبر ضغطة ولو سلم أدنيا منها أحد لنجا سعد بن معاذ ^(٤) ، وعن أنس قال : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ، فتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسادنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتفع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا : يا رسول الله رأينا منك شأننا فم ذلك ؟ قال : ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر ، فأبليت فأخبرت أن الله قد خفف عنها وقد منضخت ضغطة سمع صوتها ما بين الحافقين ^(٥) .

- (١) حديث أبي هريرة : إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يمال أحدهما منكر والآخر تكبير ... الحديث . أخرجه الترمذي وصححه وابن حبان مع اختلاف . (٢) حديث عطاء بن يسار : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : يا عمر كيف بك إذا أتت مت فاطلق بك قومك فناسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب البرور هكذا مرسلًا ورواه ثقات قال البيهقي في الاستعداد . ورواه ابن عباس ، ورواه البيهقي في الاستعداد من حديث عمرو بن قنبر عن هذا الإسناد ثمرد به بفضل ولأحد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر : قال عمر : أريد الياء هؤلاء ؟ فقال : نعم كهيئةكم اليوم ؟ فقال عمر : بئس الحشر . (٣) حديث حذيفة : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة جلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ... الحديث . رواه أحمد بسند ضعيف . (٤) حديث عائشة : أن القبر ضغطة لو سلم أدنيا منها أحد لنجا سعد بن معاذ . رواه أحمد بسند جيد . (٥) حديث أنس : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ... الحديث . وفيه : لقد منضخت ضغطة سمع صوتها ما بين الحافقين ، أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه .

الباب الثامن : فيما عرف من أحوال الموقى بالمكاشفة في المنام

اعلم أن أحوال البصائر - المستفادة من كتاب الله تعالى وستة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار - نعرفنا أحوال الموقى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء . ولكن حال زيد وعمرو وبينه فلا يتكشف أصلاً ، فلما إن عرّنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له ؟ وإن عرّنا على صلاحه الظاهر فالتقوى عمله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره ؟ فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه ، وإذا مات فقد تحوّل من عالم الملك والشهادة إلى عالم النيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاة كشيء من شوائبه وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ، ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تتشعب تلك الغشاة عن عين قلبه .

ولما كانت الغشاة منقشة عن آئين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه ، والموقى في عالم الملكوت فشاهدهم وأخبروا . ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطعة القبر في حق سعد ابن معاذ وفي حق زينب ابنته ^(١) وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقامه بين يديه ليس بينهما ستر . ومثل هذه للمشاهدة لاطمّح فيها لعلم الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجاتهم منهم .

إنما الممكن من أمثاله مشاهدة أخرى ضئيلة إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعلى بها للمشاهدة في المنام وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ^(٢) ، وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاة عن القلب ، فذلك لا يوفق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذب لم تصفّق رؤياه ، ومن كثر فساده ومما يمه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً ^(٣) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو أصل وطهارة الظاهر : بزالة النشوة والتكسلة لها . وبهما سقا الباطن انكشاف في حدة القلب ما سيكون في المستقبل ، كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، سلم في النوم حتى نزل قوله تعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ ^(٤) فقلنا يتلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدناها صحيحة ، والرؤيا ومعرفة الغيب في اليوم من عجائب صنع الله تعالى وبذلك فطرة الآدمي وهو موضح الأدلة على عالم الملكوت ، والحلّ في غافلون عنه كفلتهم من سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة .

ولكن التقدير الذي يمكن ذكره هنا مثال ينهكك المقصود ، وهو أن تعلم أنّ القلب مثاله مثال امرأة تراه في المنام والمرور وحقائق الأمور ، وإن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى بهم . عنه تارة بالروح ، وتارة بالكتاب للذين ، وتارة بإمام مبين ؛ كما ورد في القرآن . فجميع

(١) حديث : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطعة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته . وكذلك حال أبي جابر لما استشهد فشهدت الثلاثة أحاديث في الباب الذي ذكرنا . (٢) حديث : الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . تقدم . (٣) حديث : أمره بالطهارة عند النوم . متفق عليه . من حديث البراء . لذا أتيت مضطجعاً فوضأ وضوءه . (٤) حديث : انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم . أخرجه ابن أبي حاتم في صحيحه من رواية جهماد مرسلاً .

ما جرى في العالم وما يسيرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين . ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم ، وأن الكتاب من كاغذ أو ورق ، بل ينبغي أن تفهم قطعاً أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق ، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم . بل إن كنت تطلب مثلاً ، يتوزع إلى فهمك فأعلم أن إثبات القادر في اللوح ينضاه إثبات كلمات القرآن وخروفيه في دماغ حافظ القرآن وتقليه ، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو قشقت دماغه جوماً جوماً لم تضاه من ذلك الخطب حرفاً . وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فن هذا الخط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشاً بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه . واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع في مقابلة المرآة امرأة أخرى لكانت صورة تلك المرأة تراه في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب . فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها مرسومة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت ، فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته تلالاً في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، وقد ينبت ويدوم ، وقد لا يدوم وهو الغائب . وما دام متيقظاً فهو مشغول بما تورد الحواس عليه من عالم الملك والشهادة ، وهو حجاب عن عالم الملكوت .

ومعنى الترم أن تركد الحواس عليه فلا تورد على القلب ، فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافياً في جوهرة ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، فوقع في قلبه شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما ، إلا أن الترم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحركه ، لما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه ، ويكون التخيلات أثبت في الحفظ من غير ما يفتق الخيال في الحفظ ، فإذا انقلب لم يتذكر إلا الخيال ، فيحتاج المبرر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني المناسبة التي بين المختل والمعاني . وأمثله ذلك ظاهرة عند من فطر في علم التمييز . ويكتفيك مثال واحد وهو أن رجلاً قال لابن سيرين : رأيت كأن يدي عاتمة أختي به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال : أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان ، قال : صدقت ! فانظر أن روح الحتم هو المنع والأجله يراد الحتم . وإنما يتكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه ، وهو كونه مانعاً لقاس من الأكل والشرب ، ولكن الخيال أئف المنع عند الحتم بالخاصة فتشمله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية .

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تحصر بحسابه وكيف لا وهو أحوال الموت ، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب ، حتى صار التألم يعرف ما سيكون في المستقبل فإذا ترى في الموت الذي يفرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية : حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخاض والتضائق - نفوذ بالله من ذلك - وإنما مكتوبة بنعيم مقبم وملاك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء (لقد كنت في غفلة من ههنا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) ويقال (أسحر هذا أم أنت لا تبصرون أصوله فاعبروا وأولاً تنصروا سواء عليكم إنا نجبرون ما كنتم تعملون) وإليه الإشارة بقوله تعالى (وبدا لهم من أمهاتهم يكونوا يحسبون) فأعلم العلماء وأحكم الحكماء يتكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم ينظر قط بآله ولا اختلج به خيمه . فلو لم يكن للعالم م وعلم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب مماذا يرتفع وما الذي يكشف عنه الغطاء من

شفاوة لازمة لم سعادة دائمة ؟ لكن ذلك كافيا في استغراق جميع العمر .

والصحب من غفلتنا وهذه العظام بين أيدينا ! وأجيب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا بل بأصغتنا وسمننا وبصرنا ! مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك بقينا ، ولكن أين من ينث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد الثيبين « أحب من أحببت فأناك مفارقة وعش ماشئت فأناك ميت واعمل ماشئت فأناك مجرى به ^(١) ، فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بعين اليقين كان في الدنيا كبار سليل لم يضع لينة على لينة ولا قصبة على قصبة ^(٢) ولم يخلف ديناراً ولا درهما ^(٣) ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا فعم قال : لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أباً بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن ^(٤) ، فين أن خلة الرحمن تخلت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبه قلبه فلم يترك فيه متسماً لخليل ولا حبيب ! وقد قال لأمته (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فأما أمته من اتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإيه ما -ع- إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ الماجلة ، ففقد ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلك سبيله الذي سلكه ويقدر ما سلك سبيله فقد اتبعته ، ويقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته ، ويقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابته والتحق بالذين قال الله تعالى فيهم (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى) فلو خرجت من ممكن القبر وألصقت نفسك يارجل - وكذا ذلك الرجل - لعلت أنك من حين تصبغ إلى حين تسمى لأسمى إلا في الحظوظ الماجلة ، ولا تتحرك ولا تسكن إلا لما جل الدنيا ثم قطع أن تكون غدا من أمته وأبناؤه ! وما أبعد ظنك وما أبعد طمعك (أنجعل المسلمين كالنجارين ما لم كيف تحمكون) .

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصده فقد امتد شأن الكلام إلى غير مقصده ، ولندكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به إذ ذهب التوبة وبقيت المبهترات وليس ذلك إلا المنامات .

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافذة في الآخرة

فإن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام « من رأى في المنام فقد رأى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي ^(١) » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فأتته لا ينظر إلى قفلي : يارسل الله ما شأني ؟ فالتفت إلى وقال « ألسنت المقبل وأنت صائم ؟ » قال : والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدا . وقال العباس رضي الله عنه : كنت ودا لعمر فاشتبهت أن أراه في المنام ، فسا رأيت إلا عند رأس المحول فأرأيت يحس الحلق عن جيبته وهو يقول : هذا أوان فراغي إن كان عرش ليده لولا أني لقيتهم رموه رجيا . وقال الحسن بن علي : قال لي علي رضي الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنع لي الليلة في منامي فقلت : يارسل الله ما لقيت من أمثلك ؟ قال : ادع عليهم ، فقلت : اللهم ابذلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني ؟ فخرج فضر به ابن ملجم . وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسل الله استغفر لي ، فأعرض عني فقلت : يارسل الله إن سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر

(١) حديث « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فأناك مفارقة ... الحديث » تقدم . (٢) حديث : لم يضع لينة على لينة ولا قصبة على قصبة . تقدم أيضا . (٣) حديث : لم يخلف ديناراً ولا درهما . تقدم أيضا . (٤) حديث : لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أباً بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن » تقدم أيضا . (٥) حديث « من رأى في المنام فقد رأى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

عن جابر بن عبد الله : أنك لم تسأل شيئا قط فقلت : لا ، فأقبل على فقال : غفر الله لك^(١) ، وروى عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مواخيا لأبي لب مصاحبا له ، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزن عليه وأمني أمره فسألت الله تعالى حولا أن يريني إياه في المنام قال : فرأيت يلهب ناراً فسألته عن حاله فقال : صرت إلى النار في المذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام واليالي ؛ قلت : وكيف ذلك ؟ قال : تولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني أميمة فبشرتنني بولادة أمته إياه ففرحت به واعتقت وليدة لي فرحاً به ، فأباني الله بذلك أن رفع عني المذاب في كل ليلة اثنين .

وقال عبد الواحد بن زيد : خرجت حاجاً فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن ذلك فقال : أخبرك عن ذلك ؛ خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبي ، فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل ؛ فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه ؛ قال : قممت مذعورا فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه ، فداخلى من ذلك رعب ، فبينما أنا في ذلك النعم إذ غلبتني عيني فتمت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين مؤبين أخضرين فقال لهم : تسحوا ، فسح وجهه بيده ثم أتاني فقال : قم فقد بعث الله وجهه إليك ؛ فقلت له : من أنت بأبي أنت وأمي ؟ فقال : أبا محمد ، قال : قممت فكشفت الثوب عن وجهه أبى فإذا هو أبيض ؛ فلما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما جالسا عنده - فسلمت وجلس ، فبينما أنا جالس إذ أتى بهلى ومأوية فأدخلا بيتنا وأجيب عليهما الباب وأنا الظفر ، لما كان بأسرع من أن يخرج حل رضى الله عنه وهو يقول : قضى لي ورب الكعبة ، وما كان بأسرع من أن يخرج مأوية على أثره وهو يقول : غفر لي ورب الكعبة .

واسيقظ ابن عباس رضى الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله ! - وكان ذلك قبل قتله - فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زوجة من دم فقال : ألا تعلم ما صنعت أمي ببدى ؟ قتلوا بني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى . - فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله في اليوم الذي رآه .

وروى الصديق رضى الله عنه فقيل له : إنك كنت تقول أبدا في لسانك : هذا أوردني الموارد ، فإذا فعل الله بك ؟ قال : قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

يسان منامات للمشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ : رأيت متما النورق في المنام فقلت : ياسيدي ما فعل الله بك ؟ فقال : دبري في الجنان فقيل لي : ياتمم حل استحسنيت فيها شيئا ؟ قلت : لا ياسيدي ، فقال : لو استحسنيت منها شيئا لو كنتك إليه ولم أوصلك إلى . وروى يوسف بن الحسين في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ؛ قيل : بماذا ؟ قال : ما خلطت جدا بهزل . وعن منصور بن إسماعيل قال : رأيت عبد الله الزيار في النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أنرت به إلا ذنبا واحدا فلما استحييت أن أقر به ، فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقلت .

(١) حديث ابن عبيدة عن محمد بن النضر عن جابر : ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال ٧ . رواه مسلم وقد تقدم .

ما كان ذلك الذنب ؟ قال : نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره . وقال أبو جعفر الصيدلاني : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحواله جماعة من الفقراء ، فينبأ نبحن كذلك إذ انفتحت السماء فنزل ملكان أحدهما بيده طشت ، ويد الآخر : ليريق ، فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا ، ثم وضع الطشت بين يدي فقال أحدهما للآخر : لا تصب على يده فإنه ليس منهم ! فقلت : يا رسول الله أليس قد روي منك أنك قلت : المرء مع من أحب ؟ قال : بلى ، قلت : يا رسول الله فإني أحبه وأحب هؤلاء الفقراء ! فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فإنه منهم . رأيت في المنام كأنني أتكلم على الناس فوقف على ذلك فقال : أقرب ما تقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت : عمل خفي بجزان وفيه قول الملك وهو يقول : كلام موفق والله . وروى في النوم فقيل له : كيف رأيت الأمر ؟ فقال : رأيت الزاهد في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام للعلماء بن زياد : رأيتك في النوم كأنك في الجنة فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال : لعل الشيطان أراد أمراً فقصصت منه فأهضم رجلاً يقتلني ! وقال محمد بن واسع : الرؤيا أسر المؤمن ولا تنفره . وقال صالح بن بشير : رأيت عطاء السلي في النوم فقلت له : رحمة الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا ، قال : أما والله لقد أعطيني ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً ، فقلت : في أي المراتجات أنت ؟ فقال (مع التبيين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) وسئل زبارة بن أبي أوفى في المنام : أي الأعمال أفضل عندك ؟ فقال : الرضا ونصر الأمل . وقال يزيد بن مذكور : رأيت الأوزاعي في المنام فقلت : يا أبا عمر دلت على عمل أحقر به إلى الله تعالى ! قال : ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحرومين . قال : وكان يزيد شيخاً كبيراً ، فلم يزل يبيكي حتى أظلمت عيناه . وقال ابن عيينة : رأيت أخى في المنام فقلت : يا أخى ما فعل الله بك ؟ فقال : كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي . وقال الحلبي : رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت : من أنت ؟ فقلت : حواء ، فقلت زوجيني نفسك ، قالت : اخطئني إلى سيدي وأمهري ، قلت : وما مهرك ؟ قالت : حبس نفسك عن آفاتهما . وقال إبراهيم بن إسحق الحرابي : رأيت زبيدة في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لي ، فقلت لها : بما أنفقت في طريق مكة ؟ قالت : أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها ، وغفر لي بئتي . ولما مات سفيان الثوري روى في المنام فقيل له : ما فعل بك ؟ قال : وضعت أول قدسي على الصراط والثاني في الجنة . وقال أحمد بن أبي الخوارى : رأيت فيأبى التائم جارية - ما رأيت أحسن منها وكان يتلألا وجهها نوراً - فقلت لها : ماذا ضو وجهك ؟ قالت : تذكر تلك القيلة التي بكيت فيها ؟ قلت : نعم ، قالت : أخذت دمهك فمسح به وجهي ، فن ثم ضو وجهي كما ترى . وقال الكتاني : رأيت الجنيد في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك المبارات وما حصلنا إلا على ركبتين كنا فصلبهما في الليل . ورويت زبيدة في المنام فقيل لها : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لي هذه الكلمات الأربع : لا إله إلا الله أفنى بها عمري ، لا إله إلا الله أدخل بها قبرى ، لا إله إلا الله أغلر بها وحدي ، لا إله إلا الله ألقى بها ربي . وروى بشر في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمني ربي عز وجل وقال يابشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف . وروى أبو سليمان في النوم فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال رحمني وما كان فيه أضر علي من إشارات النوم إلى . وقال أبو بكر الكتاني : رأيت في النوم شاباً لم أر أحسن منه فقلت له : من أنت ؟ قال : التتوي ! قلت : فأين تسكن ؟ قال : كل قلب حزين ! ثم التفت فلذا امرأة سوداء فقلت : من أنت ؟ قالت : أنا السقم ! قلت : فأين

تسكين؟ قالت: كل قلب فرح مرح! قال: فأنهت وتنامدت أن لا أضحك إلا غلبة. وقال أبو سعيد الخزاز: رأيت في المنام كأن إبليس ورف على، فأخذت العصا لأضربه فلم يفرج منها، فهتف في هاتف: إن هذا لا يخاف من هذه، وإنما يخاف من نور يكون في القلب. وقال المسوحى: رأيت إبليس في النوم يمشى عريانا فقلت: ألا تستحي من الناس! فقال: بانه هؤلاء ناس! لو كانوا من الناس ما كنت ألبس بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة! بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي، وأشار بيده إلى أحياننا الصوفية. وقال أبو سعيد الخزاز: كنت في حلم فرأيت في المنام كأن النبي صلى الله عليه وسلم جاني متكئا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فجاء فوقف على وأما أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدري، فقال: شر هذا أكثر من خير. وعن ابن عينة قال: رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول (مثل هذا فليعمل العاملون) فقلت له: أوصني، قال: أقلل من معرفة الناس، وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال: رأيت سفيان الثوري فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال:

فطرت إلى ربى كفاسا فقال لي
هنيئا ورضائي هنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما إذا أظلم الدجى
بعرة مشتاق وقلب عيمد
فدولك فخر أى قصر أردته
وزرني فلن منك غير عيمد

وروى الشبل بعد موته بثلاثة أيام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: ناقض حتى أيس، فذا رأى يأسي تغدنى برحتي. وروى مجنون بن عامر بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وجعلني حجة على المحبين. وروى الثوري في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمتي، فقيل له: ما حال عبد الله بن المبارك؟ فقال: هو بمن يلج على ربه في كل يوم مريمين. وروى بعضهم فسل عن حاله فقال: حاسبونا فدفقوا ثم منوا فأعتقوا. وروى مالك بن أنس فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنابة سبحان الحى الذى لا يموت. وروى في الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن أبواب السماء مفتحة، وكان مناديا ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عت راض. وروى الجاحظ فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال:

ولا تكتب بظلك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عريانا فقال ألا تستحي من الناس؟ فقال هؤلاء ناس! الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى! قال الجنيد فلما انتهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا دهموسهم على ركبهم يتفكرون، فذا رأوني قالوا لا يتوكل بك حديث الخثيث. وروى التصراهاذى بمكة - بعد وفاته - في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أريد الاتصال انفصال؟ فقلت لا ياذا الجلال، فما وضعت في اللحد حتى لحقت برى. ورأى عتبة السلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقاتل يا عتبة أيا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيجال بيني وبينك، فقال عتبة طلعت الدنيا ظلاما لا رجعة لي عليها حتى ألتاك. وقيل رأى أيوب السختياني جنازة عاص، فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها. فرأى الميت بعضهم في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي وقال قل لأيووب (قل لو أنتم تعلمون خوائ رحمة ربى إذا لمسيكم خشية الإفتاق) وقال بعضهم رأيت في الليلة التى مات فيها

داود الطائي نورا ، وملاكك نزولا وملاكك صعودا ، فقلت : أى ليلة هذه ؟ فقالوا : ليلة مات فيها داود الطائي وقد زخرفت الجنة بقدم روحه . وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلا الصلوكي في المنام فقلت : أيها الشيخ ! قال : دع الشيخ ، قلت : تلك الأحوال التي شاهدها ، فقال : لم تكن عنا ! فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجز . وقال أبو بكر الرشيدي : رأيت عمدا الطوسي المعلم - في النوم - فقال لي : قل لأبي سعيد الصفار المذنب :

وكنّا على أن لا نحول عن الهوى فقد - وحيا قلب - حلم وما حلنا

قال : فأنهت فذكرت ذلك له فقال : كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة . وقال ابن واهد : رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت : أليس قد مات ؟ قال : بلى ، قلت : فما صنع الله بك ؟ قال : غفر لي مغفرة أساحت بكل ذنب ، قلت : فسفيان الثوري ؟ قال : خرج ذاك (من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين) الآية وقال الربيع بن سليمان : رأيت الشافعي رحمه الله عليه بعد وفاته في المنام فقلت : يا أبا عبد الله ما صنع الله بك ؟ قال : أجلسني على كرسي من ذهب وشر على القلوك الرطب . ورأي رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كأن مناديا ينادي - إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه . وقال أبو يعقوب القاري النخعي : رأيت في منامي رجلا آدم طويلا والناس يتبعونه فقلت : من هذا ؟ قالوا : أويس القرني ، فأنيته فقلت أوصني رحمة الله فكلح في وجهي فقلت مسترشد فأرشدني أرشدك الله ، فأقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند عبته واحذر نعمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ، ثم ول وتركني . وقال أبو بكر بن أبي هريرة : رأيت ورقة بن بشر المحض فقلت ما فعلت يا ورقة ؟ قال البكاء من خشية الله . وقال يزيد بن لعملة هلكت جارية في الطاعون الجارف فرأى أبوها في المنام فقال لها يا بنية أخبريني عن الآخرة ؟ قالت يا أبت قدما على أمر عظيم ، فلم لا تعمل وتعملون ولا تعلمون ، والله لتسيحبه أو تسيحبتان أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب إل من الدنيا وما فيها . وقال بعض أصحاب عبدة الغلام : رأيت عبته في المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك ! قال فلما أصبحت جئت إلى بيتي فإذا خط عبته الغلام في حائط البيت (يا هادي المضلين يا راحم المذنبين يا مقبل عثرات المائرين أرحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين) وقال موسى بن حماد : رأيت سفيان الثوري في الجنة يطعم من نخلة إلى نخلة ومن نخلة إلى نخلة فقلت : يا أبا عبد الله بم نلت هذا ؟ فقال بالورع ، قلت فما بال علي بن عاصم ؟ قال ذلك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب . ورأي رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال يا رسول الله صفني ، قال نعم من لم يتفقد نقصان فهو في نقصان ومن كان في نقصان قالوت خير له . وقال الشافعي رحمه الله عليه ذهني في هذه الأيام أمر أعني وألني ولم يبلغ عليه غير الله عز وجل ، فلما كان البارحة أتاني آت في منامي فقال لي يا عبد بن إدريس قل اللهم إني لا أطع نفسي نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن أخذ إلا ما أعطيتني ولا أتني إلا ما وقيتني اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية : فلما أصبحت أحدث ذلك فلما رحل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتي وسهّل لي الخلاص عما كنت فيه ، فعليك بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها . فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقربة إلى

الله زلني ، فلتذكر بعدها ما بين يدي الموق من ابتداء نفخة الصور إلى آخر الترار إما في الجنة أو في النار والحد
 لله حمد الشاكرين .

الشرط الثاني

من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل
 ما بين يديه من الأحوال والأخطار .

وفيه بيان نفخة الصور . وصفة أرض المحشر وأهلها . وصفة طول يوم القيامة . وصفة يوم القيامة ودواهيها
 وأساليبها . وصفة المسألة عن القنوب . وصفة اللذان . وصفة الحصاد ورد الظالم ، وصفة الصراط . وصفة
 الشفاعة . وصفة الخوض . وصفة جهنم وأهلها وأنكالها وحياتها وعقاربها . وصفة الجنة وأصناف لعبتها
 وعدد الجنان وأربابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسرهم ، وصفة طعابهم .
 وصفة الحور العين والولدان . وصفة النظر إلى وجه الله تعالى . وباب في سمة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب
 إن شاء الله تعالى .

صفة نفخة الصور

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت في سكرات الموت وخطره في خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ،
 ثم لشكر وتكدير رسوألها ، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه . وأظم من ذلك كله الأخطار التي بين
 يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة
 المقادير ، ثم جواز الصراط مع دقة وحدته ، ثم انتظار التداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء . فهذه
 أحوال وأحوال لا بد لك من معرفتها ، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث
 من قلبك دواعي الاستعداد لها ، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صحيح قلوبهم ولم يتمكن من سويدها . اقتدتهم
 ويدل على ذلك شدة قسمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بمن جهنم وزمهريرها مع ما كتبتهم من
 المصاعب والأحوال ، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقوا به السفه ثم غفلت عنه قلوبهم ، ومن أخبر بأن ما بين
 يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه - الذي أخبر - صدقت ، ثم مد يديه لتناوله ؛ كان صدقاً بلسانه ومكذباً بعمله
 وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي
 له أن يشتمني ، وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني ، أما شتمه لإي يقول إن لي ولها وأما تكذيبه فقوله لن يبعثني
 كما بدأتني ، وإني أثور البراطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لفة الفهم في هذا العالم لأمثال
 تلك الآمور ؛ ولولم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له : إن صانها يصنع من الطلقة القدرة مثل هذا الآدمي
 الصور المائل المتكلم المتصرف لاشتد غفوره بطلته عن التصديق به ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ أولم ير الإنسان
 أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ أحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يكن نطفة من مئذني
 ثم كان علقة خلق فسوى لجل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ في خلق الآدمي - مع كثرة مجابهة واختلاف تركيب
 أعضائه - أعاجيب يزيد على الأعاجيب في بته وإعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد

(١) حديث : قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني ... الحديث ، أخرجه
 البخاري من حديث أبي هريرة .

ذلك في صمته وقدره ؟ فإن كان في إيمانك ضعف فقد الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثالا وأسهل منها ، وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر فليك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكير والاعتبار ، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار ، فتشتغل بالتشمر للمرض على الجبار ، وتفكر أولا فيا يقرع مع سكان القبور من شدة نفخ الصور ، فلها صيحة واحدة تفرج بها القبور عن رموس المرق فيثرون دفعة واحدة . تقوم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بذلك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصفة شاخص العين نحو النداء ، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم ؛ وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من المعلوم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر ، كما قال تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وقال تعالى (فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) وقال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجدات إلى ربهم يفسلون قالوا يا ويلنا من بشرنا من سرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) فلم يكن بين يدي الموق إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جدرا بأن يتقى فلها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض - يعني يوتون بها - إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف ألهم وصاحب الصور قد التقم القرن وحش الجبهة وأصنى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ ^(١) .

قال مقاتل : الصور هو القرن ؛ وذلك أن إسماعيل عليه السلام واضع قاهل القرن كهيئة البوق ، ودائر رأس القرن كمرص السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى ، فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله ، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملاك الموت . ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ، ثم روح إسرافيل ، ثم يأمر ملك الموت فيموت . ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ، ثم يبعث الله تعالى إسماعيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حين يبعث الله يبعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاقفوا النفخة ^(٢) . فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصفة ، وانتظارا لما يقضي عليهم من سعادة أو شقاوة ، وأنت فيها بينهم تنكسر كأنكسارهم متحير كتحيرهم . بل إن كنت في الدنيا من المتفرجين والانعياض المتسمعين فلوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقهم يوطنون بالانقدام مثل النزة ، وعند ذلك قبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رؤوسها مختلطة بالخلائق بعد تحوشها ذليلة ليوم

(١) حديث « كيف ألهم وصاحب الصور قد التقم القرن وحش الجبهة .. الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وعلى بن وهب وابن ماجه بنظير ، لأن صاحب القرن يأبديها أو في أيديها قرنان بلا حيطان النظر متى يؤمر ، وقراءة ابن ماجه الحديث بن أرملة مختلف فيه . (٢) حديث « حين يبعث الله يبعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى » أخرجه ابن ماجه ، لم أجد هكلا بل قد ورد : أن إسماعيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كأرواء البخاري في التاريخ وأبو الفيض في كتاب الظلة من حديث أبي هريرة : أن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاهم إسماعيل فهو واضع على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر ، قال البخاري ولم يصح في رواية أبي الفيض ، ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستند ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرد إليه طرفه كان عليه كوكبان دريان ، وإسنادهما جيد ،

النشور من غير خطيئة تدنس بها ، ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الحرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمزدها وعثرها وأذهنت عاشقة من هيئة المرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى ﴿ فوريك لحضرتهم والشياطين ثم لخصرتهم حول جهنم نجيا ﴾ فتفكر في حاله وحال قلبك هناك .

صفة أرض المحشر وأهل

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر ، أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عرجا ولا أمنا ، ولا ترى عليها روبة يمتطي الإنسان وراها ، ولا وحدة ينخفض عن الأعلى فيها . بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرا ، فصباحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجلة تتبعها الرادقة ، والراجلة هي النفخة الأولى والرادقة هي النفخة الثانية ، وحقيق تلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة وتلك الأبصار أن تكون عاشقة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص التقي ليس فيها معلم لأحد ^(١) . قال الراوي : والعفراء : بياض ليس بالتامع ، والتقي : هو التقي عن القشر والتخالة . ومعلم : أى لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر .

ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لاتساويها إلا في الاسم قال تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتبدل الأرض القديم المكافئ ، أرض بيضاء مثل الفضة لم يفسك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة ، والسماوات تذهب شمسها وقمرها ونجومها . فالظن بامسكين في هول ذلك اليوم وشدة ، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تماثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض لخمود سراجها . فينأى كذا ذلك إذ دارت السماء من فوق ردهم مع غلظتها وشفتها نجاسة عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيباهل صوت انشغالها في سمعك وباهية ليوم تفتق فيه السماء مع صلابتها وشفتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صغرة فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كالهلل وصارت الجبال كالدهن ، واشتد على الناس كالفرش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الأذن ، قالت سودة - زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث - قلت يا رسول الله واسوأته ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : شغل الناس عن ذلك بهم ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن بنيي ﴾ ^(٢) ، فأعظم يوم تنكشف فيه البورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على بطونهم وجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يمشى الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ، فقال رجل : يا رسول الله وكيف يمشون على

(١) حديث « يمشى الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص التقي ليس فيها معلم لأحد » متفق عليه من حديث سهل ابن سعد وفصل البخاري قوله « ليس فيها معلم لأحد » لجلها من قول سهل أو غيره وأدرجه مسلم فيه .

(٢) حديث « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الأذن » قال سودة راوية الحديث : واسوأته ... الحديث « أخرجه الترمذي والبخاري وهو في الصحيحين بن حديث طائفة وهي الثالثة » واسوأته . ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة وهي الثالثة » واسوأته .

وجوههم ؟ قال : الذي أشام على أقدامهم قادر على أن يحشمهم على وجوههم ^(١) ، في طبع الآدمي إنكار كل مالم يأش به ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لا يترك تصور المشي على غير رجل ، والمشى بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك ، فإياك أن تكرر شيئا من عجائب يوم القيامة تخالفته قياس ما في الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها ، فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف طويلا مكتشفا ذليلا مدحورا متحيرا مهوتا منتظرا لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة .

صفة العرق

ثم تفكر في ازدحام الخلاق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وحين وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدببت من رموس العالمين كقواب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل رب العالمين . ولم يمكن من الاستقلال به إلا المزيون ، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضطج لحز الشمس قد صبرته بحرهما واشتد كربيه وغمه من وهجا ، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الحجلة والحياة من الافتضاض والاختناء عند العرض على جبار السماء ، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياة والحرق ففاض العرق من أصل كل شجرة حتى سال على صعيد القيامة . ثم ارتفع على ألبانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شعبة أذنيه ، وبعضهم كاد ينسب فيه . قال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم يقوم الناس لرب العالمين - حتى ينسب أحدهم من رشفه إلى أنصاف أذنيه ^(٢) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعا ويلجهم ويبلغ أذنه » ^(٣) ، وكذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح . وفي حديث آخر : قياما شاخته أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجهم العرق من شدة الكرب ^(٤) ، وقال عتبة بن عامر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس ، فإن الناس من يبلغ عرقه عنقه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ نخله ومنهم من يبلغ غاصرته ومنهم من يبلغ قاه - وأشار بيده فألجها قاه - ومنهم من ينطلي العرق - وضرب بيده على رأسه هكذا ^(٥) ، فتمثال يامسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادى فيقول وب أرختي من هذا الكرب والانتظار ولو إلى التار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فإنك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق ؟

(١) حديث أبي هريرة : يحمر الناس يوم القيامة ركانا وسفاهة وعلى وجوههم ... الحديث ، رواه الترمذي وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس : أن رجلا قال : يا أيها الله ، كيف يحمر الكافر على وجهه ؟ قال : « ليس الذي أمعاء على الرجليين في الدنيا قادرا على أن يحشم على وجهه يوم القيامة » . (٢) حديث ابن عمر : يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى ينسب أحدهم من رشفه إلى أنصاف أذنيه ، يثنى عليه . (٣) حديث أبي هريرة : يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا ... الحديث ، أخرجه في الصحيحين كما ذكره المصنف . (٤) حديث : قياما شاخته أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجهم العرق من شدة الكرب ، أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجاني نحوه ابن معين وقال ابن عدى لا لأن كان يشبه الكذب لكن له شبهة عليه . (٥) حديث عتبة بن عامر : تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عنقه ... الحديث ، رواه أحمد وفيه أبيه .

واعلم أن كل عرق لم يخرججه التعب في سبيل الله - من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر معروف ونهى عن منكر - فيمخرجه الحياة والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته طوية مدته .

صفة طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاحصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم ، يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يمشون فيه روح نسيم . قال كعب وقتادة (يوم يقوم الناس لرب العالمين) قال : يقومون مقدار ثلثمائة عام . بل قال عبادة بن عمرو ، تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال : كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع التبل في الكثافة خمسين ألف سنة ولا ينظر إليكم ^(١) ، وقال الحسن : ما ظنكم بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آية قد آن حرها واشتد لغمها ، فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يكتم على مولاه ليشفع في حقهم ، فلم يتفلقوا بئس لإلافهم وقال : دعوني ! نفسى نفسى ؟ شغلنى أصرى عن أمر غبرى . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال : قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه (لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المصاعب في عرك المختصر .

واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للوت لشدة مقاساته الصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال : والذي نفسى بيده إنه يخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا ^(٢) ، فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فإدام يبق لك نفس من عرك فالأمر إليك والاستعداد بيدك ، فاعمل في أيام قصار لأيام طوال ترجع بها لامتنى لسروره ، واستعقر عرك بل عر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة ، فإذنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكانت بحبك كثيرا وتليك يسيرا .

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه

فاستعد باسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المدين زمانه ، القاهرة سلطانه ، القريب أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هولاء قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكسرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد

(١) حديث ابن عمر . تلا هذه الآية (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ثم قال : كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع التبل في الكثافة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم ، قلت : إنما هو عبد الله بن عمر ورواه البخاري في الكبير وفيه عبد الرحمن بن مسرة ولم يذكره ابن أبي حاتم ورواه غير ابن وهب ولم يغير عبد الرحمن بن مسرة الحديث أربعة أمم مصرية والثلاثة الآخرون شاميون . (٢) حديث : سئل عن طول ذلك اليوم فقال : والذي نفسى بيده أنه يخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا . أخرجه أبو بلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة وحماد بن عمار عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي بلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد . يهون ذلك على المؤمن كتحمل الشمس القروب لئلا أن تغرب ورواه البيهقي في الشعب لما أن قال أنه رضى بهفظ . إن الله يخفف على من يهواه من جهاده طوله كوقت صلاة مفروضة .

سيرت ، والمشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد مجرت ، والنفوس إلى الأبدان قد رزجت ، والجحيم قد سمرت ، والجنة قد أزلقت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدت ، يوم ترى الأرض قدزلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أنفاسها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليردوا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض الجبال فذلكنا ذكرا واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة وانفثعت السياه فيئومئذ واهية ، والمالك على أرجائها يحمل عرش ربك فوفهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسمى الجبال وترى الأرض بارزة : يوم توج الأرض فيه رجا وتيس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفرش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كل مرصعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال لنفا فتترك نارا حصفصا لا ترى فيها عرجا ولا أمنا ، يوم ترى الجبال تحصبها جامدة وهي تمومر السحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ، ولا يسئل فيه عن الأجرام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما فذمت وأخرت يوم تخمس فيه الألسن وتطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضى الله عنه : أدراك قد شبت يا رسول الله قال : شيبني هود وأخواتها ^(١١) ، وهى الواقعة والمرسلات وعم يساءلون وإذا الشمس كورت ، فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءتك أن تجميع القرآن وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكرا فيها تفرقه لكنت جذيرا بأن تنشق مرارتك عاشاب منه شعر سيد المرسلين ، وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن ، فالقيامه أحدا ما ذكر فيه . وقد وصف الله بعض دواحيه وأكثر من أسماها لتقف بكثرة أسماها على كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الاسامى تكرير الاسامى والالقاء بل الغرض تلبية أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعتيها معنى ، فاحرص على معرفة معانيها .

ونحن الآن نجمع لك أسماها . وهى : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المناصاة ويوم الزلزلة ويوم البعثة ويوم الساعة ويوم الواقعة ويوم التارعة ويوم الراجفة ويوم الرادقة ويوم الناشئة ويوم الداهية ويوم الألفة ويوم الحافة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم التفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التباد ويوم الحساب ويوم المسآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم اللقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكا . ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الحزى ويوم عظيم ويوم عظيم ويوم عبيد ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الوجزة ويوم السكرة ويوم الفرع ويوم المتنى ويوم الجزع ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميصاد ويوم المصادق ويوم العرق ويوم الانتصار ويوم الانتكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الزقوف ويوم الخروج ويوم الخلود و : م التناين ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم الساعة ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى فيه السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم

(١١) حديث « شيبني هود والواقعة والمرسلات وعم يساءلون وإذا الشمس كورت » أخرجه الترمذى وصححه والمالك وصححه وقد تقدم .

لا ينفذ مولى عن مولى شيئا ويوم لا تمك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دحا ويوم يسحبون في النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم في النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتدون يوم لا مرد له من آفة يوم هم بارزون ويوم هم على النار يقتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولم اللغة ولم سوء الدار . يوم ترد فيه المآذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأسرار . يوم تنحس فيه الأبصار ، وتكن الأصوات ويقل فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات وتظهر الحطيات ، يوم يساق العباد معهم الأشهاد ، ويشيب الصغير ويكبر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين ، وبرزت الجحيم وأغلج الحميم ، وزفرت النار ويكس الكفار ، وسمرت الثيران وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ولفقت جوارح الإنسان .

فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب وأرخت الستور ، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور ، فإذا فعلت وقد شهدت عليك جوارحك ؟ قالليل كل الليل لنا معشر النافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعمت يوم الدين ، ثم يموتنا بغفلتنا ويقول (اقرب الناس حساسهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلبهم) ثم يموتنا قرب القيامة فيقول (اقربت الساعة وانفق القصر - لأنهم يرون بعيدا ونراه قريبا - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا تتدبر معانيه ولا تنظر في ككرة أوساف هذا اليوم وأساميه ولا تستمد لتخلص من دواهي . فنمود بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله براسع رحمته .

صفة المسألة

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان ، فتسل عن القليل والكثير والفقير والغني . فيينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عذابها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأفخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواحي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام ^(١) ، فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثلا هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض ، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستكسرين عما بدا من غضب الجبار على عباده . وعند رؤيتهم لا يبق في ولا حديق ولا صالح إلا يبتزون لأذنانهم خوفا من أن يكونوا هم للأخوذ . فهذا حال المقربين لما ظنك بالمصاة المجرمين ؟ وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفرع الملائكة من سؤالهم إجلالا لحاقهم من أن يكون فيهم ، فتأدوا بأصواتهم مزهين لليكهم عما توهه أهل الأرض وقالوا : سبحان ربنا ما هو قينا ولكنه أت من بعد . وعند ذلك يحرم الملائكة صفا عديدين بالخلائق من الجوانب على جميعهم شعارا للذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم .

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله (فلنسلن الذين أرسل إليهم ولنسلن المرسلين فلهنصن عليهم بعلم وما كنا غافلين) وقوله (فوردك لنسألتهم أجمعين عما كانوا يعملون) فيبدأ سبحانه بالأنبياء (يوم يجمع الله الرسل فيقول

(١) حديث « إن لله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام » لم أره بهذا اللفظ .

ماذا أجبتهم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴿ فإنا لشدة يوم تدخل فيه عقول الأنبياء وتنهى علومهم من شدة الحمية : إذ يقال لهم : ما أجبتهم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا قدامهم عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدة الحمية - لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب . وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانجحت العلوم إلى أن يقومهم الله تعالى ، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له : هل بلغت ، فيقول نعم ، فيقال لأمته : هل بلغتكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . ويؤذى يمسى عليه السلام فيقول الله تعالى له (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) فيسحق متسحقاً تحت هيئة هذا السؤال ستين ، فيالعلم يوم تمام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال . ثم قيل للملائكة فينادون واحدا واحدا بإفلاق بن فلاة هل علم إلى موقف العرش . وعند ذلك ترعد الفرائس وتضطرب الجوارح وتبث العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار . ولا يكشف سترهم على ملا الخلائق .

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ وأيقن كل عبد بإقبال الجبار لمسالة العباد ، وظن كل واحد أنه مراءه أحد سواء وأنه الماخوذ بالأخذ والسؤال دون من عده ، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : يا جبريل اتقي بالنار ، فيجىء بها جبريل ويقول : يا جهنم أجبى غافلته ومليكك ، فيصاهاها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد نفاثا أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمعت الخلائق نفيظها وزفيرها ، وانتهدت خربت متوتبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وعافى أمره ، فأخطريالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزاعورا عبا فقتاظوا جنيا على الركب ، وولوا مديري يوم ﴿ ترى كل أمة جاثية ﴾ وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادي المعصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادي الصديقون نفسى . فبينما هم كذلك إذ زفرت الناس زفرتها الثانية فصاغف غفهم وتخاذلت قوام وظفوا أنهم مأخوذون ، ثم زفرت الثالثة فقتاظ الخلائق على وجوههم وضغوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع ، وانتهضت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاطمين ، وذهلت العقول من السمداء والأشقياء أجمعين .

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتهم ، فإذا وأما ما قد أنعم من السياسة على الأنبياء اشتد القزع على المعصاة ، ففرز الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته ، وبقي كل واحد منتظرا لأمره . ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلايته وعن جميع جوارحه وأعضائه ، قال أبو هريرة قالوا يا رسول الله هل ترى ربنا يوم القيامة ؟ فقال « هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحب ، قالوا لا ، قال « فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحب ، قالوا لا ، قال « فهل الذى نفسى يده لا تضارون في رؤيتكم ؟ فيلقى البديف يقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجه وأعز لك الخليل والإيل وأذكرك رأس وترجم ، فيقول البديف بلى ، فيقول أظننت أنك ملاق فيقول لا فيقول فأنا أنساك كما نسيتك ^(١) ، فتوم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعصديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها ، فيقول لك . ألم أنعم عليك بالتياب ففيناذا ألبيت ، ألم أمهل لك في العمر ففيناذا أنتيت ، ألم أرزقك المال فن أين اكتسبت وفيناذا أنفقت ، ألم أكرمك بالعلم فإذا علمت فيها علمت . فكيف ترى حيائك وخجلتك وهو يمد عليك إنعامه ومعاصيك ويأديه ومساويك ، فإذن أنكرت شهدت عليك جوارحك قال أنس رضى الله عنه كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي هريرة : هل ترى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحب ... الحديث » معنى عليه دون تراه « فيلقى البديف ... الخ » فأمره بها سلم .

فصحك ثم قال : أتدرون مم أضحك ، قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تهجرني من الظلم ، قال : يقول بلى ، قال : فيقول قلبي لأجيز على نفسي إلا شاعدا مني فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكائين شيوذا ، قال : فيفتح على فيه ويقال لأركانه انطلق ، قال : فتشغل أعماله ثم يخلى بين وبين الكلام فيقول لأعضائه بندا لكن وسحقا فسكن كنت أناضل ^(١) ، فتعوذ بالله من الافتضاح على ملا الخلق بشهادة الأعضاء ، إلا أن الله تعالى وعد المؤمنين بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في التجوى ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بدنو أحدكم من ربه حتى يضع كفه عليه فيقول علمت كذا وكذا فيقول نعم فيقول علمت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول (إني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم) ^(٢) . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ستر لي مؤمنا عورته ستر الله عورته يوم القيامة ^(٣) ، فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لسمعوه ، فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة ، وهب أنه قد ستره عن غيره أليس قد قرع سمكه النداء إلى المرض ؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفر الصلح مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والمالم عليك من شدة الهول مظلم ، فقدت نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخفر الصفوف فتقاد كاتقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم ، فترهم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه : يا ابن آدم اذن مني ، فدنوت منه بقلب خافق بحزون وجل وطرف عاشع ذليل وفؤاد متكسر ، وأعطيت كتابك الذي لا ينادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فكمن فاحدة لسيئتي فتذكرتها ؟ وكمن من طاعة غفلت عن آفاتنا فأنكسفت لك عن مساوئنا ؟ فكمن لك من خجل وجبن ؟ وكمن لك من حصر وعجز ؟ فليت شعري بأى قدم تقف بين يديه وبأى لسان تهيب وبأى قلب تعقل ما تقول ؟ ثم تفكر في ظلم حياك إذا ذكرك ذنوبك شفاها إذ يقول : يا عبيدي ؟ أما استحييت مني فبالزينة بالقبيح واستحييت من خلقى فأظهرت لهم الجليل ، أكت أهون عليك من سائر عيادي ، استخففت بنظري إليك فلم تكثر واستعظمت لنظر غيري ، ألم أعلم عليك : فإذا غزوك في أظننت أني لا أراك وأنتك لا تلتقاني . قال رسول الله صلى الله عليه تعالى عليه وسلم : ما منكم من أحد إلا وسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان ^(٤) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أعلم عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليقت أحدكم النار ولو بشرق ثمرة فإن لم يجد فيكلمه طيبة ^(٥) ، وقاله ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا سيخول الله عز وجل به كما يخول أحدكم بالتمر ليله البدر ، ثم يقول يا ابن آدم ما غزوك في يا ابن آدم ما علمت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أحببت المرسلين يا ابن آدم أكن رقبيا له عينك وأنت تنظر بما لا مال لاجل

- (١) حديث أبي : أتدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه ... الحديث . رواه مسلم .
 (٢) حديث : سأل ابن عمر رجل فقال : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في التجوى ... الحديث . رواه مسلم .
 (٣) حديث : من ستر على مؤمنا عورته ستر الله عورته يوم القيامة . تقدم .
 (٤) حديث : ما منكم من أحد إلا وسأله رب العالمين ... الحديث . متفق عليه من حديث ابن عمر عن أبي حاتم فقط .
 (٥) حديث : ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس به وجهه ترجمان ... الحديث . أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم .

لك ألم أكن رقيقاً على أذنك ، وهكذا حتى عذ سائر أعضائه ، وقال بجاهد : لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال : من عمره فيما أفناه ، وعن عمله ما عمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه ؟ فأعظم ما مسكن بحياتك عند ذلك بنظر فك فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم - فتعد ذلك بعظم سرورك وفرحك وببطنك الأولين والآخرين - وإما أن يقال لللائكة خذوا هذا العبد السوء فقلوه ثم الجحيم صلوه - وعند ذلك لو بكست السموات والأرض عليك لكان ذلك جدراً بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق مملك .

صفة للميزان

ثم لا تنفل عن الفكر في الميزان وتطائر الكتب إلى الأيمان والشياكل ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق (فرقة) ليس لهم حصة فيخرج من النار عتق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويقلمهم في النار ، فتبتلهم النار وينادي عليهم شقاوة لاسعادة بعد ما (وقسم آخر) لاسيت لهم فينادى متاد ليقم الحمد لله على كل حال ، فيقومون ويمسحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغلهم تجارة الدنيا ولا يبعها عن ذكر الله تعالى . وينادي عليهم سعادة لاشقاوة بعدها (ويبقى قسم ثالث) وهم الأكثرون خطيئوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يغنى عنهم ولا يغنى عن الله تعالى أن الغالب حسنتهم أو سيئاتهم ، ولكن يأتي الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند المقو وعده عند العقاب ، فتطائر الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتخصص الأبصار إلى الكتب أتقع في الجبين أو في الشال ؟ ثم إلى لسان الميزان أيعمل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ؟ وهذه حالة هائلة تليش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فمضى ، فذكرت الآخرة فبككت حتى سال دمعا فقطع على غد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنته فقال : ما يبكيك يا عائشة ؟ قالت : ذكرت الآخرة هل تذكرون أمليكم يوم القيامة ؟ قال : والذي نفسي بيده في ثلاث مواطن فإن أحدا لا يذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أينقف ميزانه أم يثقل . وعند الصحف حتى ينظر أيمينه يأخذ كتابه أو بشياله ، وعند الصراط ^(١) ، وعن أنس ، يؤق بأن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك . فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لايثقي بعدها أبدا ، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لايسد بعدها أبدا . وعند خفة كفة الحسنات قبل الزانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم فيأبمن نار فيأخذون نصيب النار إلى النار ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة : إله يوم ينادي الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فأبست بمت النار فيقولون كم بمت النار ؟ فيقول من كل ألف تسعة وتسعون ، فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى مالوا وضاحكة ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال : اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إن مكم خليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتهما مع من ملك من بني آدم وبني إبليس ، قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال : بأجوج وأماجوج ، قال : فسر عن القوم فقال : اعملوا وأبشروا فوالذي نفس

(١) حديث الحسن : أن عائشة ذكرت الآخرة فبككت ... الحديث « وفيه : قال « ما يبكيك يا عائشة » قالت : ذكرت الآخرة هل تذكرون أمليكم يوم القيامة ... الحديث « أخرجه أبو داود من رواية الحسن : أنها ذكرت النار فبككت فقال « ما يبكيك » دون كون رأسه على الله عليه وسلم في خبرها وأنه لم يستدع جدي .

محمد بن عبد الله ما أنتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الدابة^(١) .

صفة الحصة ورد للظالم

قد عرفت هول اللباز وخطره وأن الآعين شاخصة إلى لسان اللباز (فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية) واعلم أنه لا ينجون من خطر اللباز إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولخطاها كما قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تموتوا ووزنوها قبل توزنوا . وإنما حاسب نفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة تصحها ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ، ويرد للظالم حية بعد حية ، ويستحل كل من لم ير من له بلسانه ويده وسوء خلقه بقلبه ، ويطيّب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة . فهذا يدخل الجنة بغير حساب ، وإن مات قبل ردّ الظالم أحاط به خصمه ، فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض على نصيبه ، وهذا يتعلق بلبه ، هذا يقول ظلمتني ، وهذا يقول شتمتني ، وهذا يقول استهزأت بي ، وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني ، وهذا يقول جاورتني فأسأت جوارى ، وهذا يقول طامنتني ففتشتني ، وهذا يقول بايعتني فبيلتني وأخفيت عني صيب سلمتك ، وهذا يقول كذبت في سرّ متاعك ، وهذا يقول رأيتني محتاجا وكنت غنيا فأطامعتني ، وهذا يقول وجدتني مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عني فداعنت الظالم ومارعيتني . فينا أنت كذلك وقد انقلب الحصة عليك غلظهم وأحسوا في تلاييك أيديهم وأنت مهزول متحير من كثرتهم - حتى لم يبق في حرك أحد عامله على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلة بنية أو خيانة أو نظر معينا ستخار ، وقد ضعف عن مقاومتهم ومددت عن الرجاء إلى سيده ومولاك لعله يخلصك من أيديهم - إذ قرع عملك نداء الجبار جل جلاله (اليوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم) ففند ذلك بتخلع قلبك من الهيبة وتوقف نفسك بالبر ، وتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهملين مقصين وروسهم لا يرثهم ألبهم طرفهم وأقدتهم هواه وأنذر الناس) الآية

فما أشدّ فرحك اليوم بتقصصك بأعراض الناس وتناولك أموالهم ! وما أشدّ حسراتك على ذلك اليوم إذا وقب ربك على بساط العدل وشوفت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تظهر عدرا ؟ ففند ذلك لو أخذ حسنتك التي تعبت فيها حرك وتمقل إلى خصمك عرضا عن حقوقهم . قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تدرون من المفلس ؟ قلنا : المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع ، قال : المفلس من آمن من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسنة هذا ومن حسنة هذا فلا يجزي حسنة قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطر حصصه ثم طرح في النار^(٢) ، فأنظر إلى معيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكابد الشيطان ، فإن سلبت حسنة واحدة في كل مدة طويلا ابتدعها خصمك وأخذوها ، ولعلك لو ساهبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل ، لعلت أنه لا يتبقى منك يوم إلا ويجزي

(١) حديث : يقول الله يا آدم قم فابت بئ النار فيقول : وبئ بئ النار ؟ فيقول من كل ألف تسمة وتسعون ... الحديث . متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم .

(٢) حديث أبي هريرة : هل تدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع ... الحديث .

على أسنانك من غيبة المسلمين ما يتوفى جميع حسناك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشهوات والتقصير في الطاعات ؟ وكيف ترجو الخلاص من الظالمين يوم يقتص فيه الجهاد من القراء ؟ فقد روى أبو ذر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاهين يتطاحنان فقال : يا أبا ذر أتدري فيم يتطاحنان ؟ قلت : لا ، قال : ولكن الله يدري وسيقتضى بينهما يوم القيامة ^(١) .

وقال أبو هريرة في قوله عز وجل (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) أنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة - البهائم والدواب والطير وكل شيء - فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ الجاهل من القراء ، ثم يقول كوني ترابا ، فذلك حين يقول الكافر باليقين كنت ترابا . فكنت أنت بامسكين في يوم ترى صحيفة خالية عن حسنات طال فيها لعبك فتقول : أين حسناتي ؟ فيقال : نقلت إلى صحيفة خصائك . وترى صحيفة مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصيبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول : يارب هذه سيئات ما قارفها قط ؟ فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبنهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في الباطنة والمجاورة والمحاطة والمناظر والمذاكر والمدرسة وسائر أصناف للعامة .

قال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منك بما هو دون ذلك بالحقرات وهي اللوبقات ، فآخروا الظالم ما استطعتم فإن العبد ليجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أمته سينجيته فأيرال عبد مجيء . فيقول رب إن فلانا ظلمي بمظلة فيقول إياك من حسنة فأيرال كذلك حتى لا يبقى له من حسنة شيء ، وإن مثل ذلك مثل سفر زلوا بإفلا من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم فحظيرا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنموا ما أرادوا ^(٢) ، وكذلك الذنوب ولما نزل قوله تعالى (إنك ميت ولهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) قال الزبير : يارسول الله أيسكر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : نعم أيسكرون عليك حتى تؤدوا إلى كل ذي حق حقه ^(٣) ، قال الزبير : والله إن الأمر لشديد ، فأعظم بشدة يوم لا يساع فيه بنظرة ولا يتجاوز فيه عن لحظة ولا عن كلمة حتى ينتقم للظالم من الظالم ؟ قال أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يحشر الله العباد عراة غيرا جها ، قال : قلنا : ما جها ؟ قال ليس معهم شيء ، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان لا يذنب لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلة حتى أقصه منه ، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عند مظلة حتى أقصه منه ؛ حتى الظلمة قلنا : وكيف وإنما نأتى الله عز وجل عراة غيرا جها ؟ فقال : بالحسنات والسيئات ^(٤) ، فآخروا الله عباد الله ، ومظالم العباد بأخذ أموالهم

(١) حديث : يا أبا ذر أتدري فيم يتطاحنان ؟ قلت : لا ، قال : ولكن ربك يدري وسيقتضى بينهما ، أخرجه أحمد من رواية الشيخ لم يسوا عن أبي ذر .

(٢) حديث ابن مسعود : إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منك بما هو دون ذلك بالحقرات وهي اللوبقات ... الحديث ، وفي آخره : وإن مثل ذلك مثل سفر زلوا بإفلا ... الحديث ، رواه أحمد والبيهقي في الشعب مختصرا على آخره ، وإياكم وعشرات القنوب فإنهم يجتنب على الرجل حتى يهلكه ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لمن مثلا ... الحديث . ولما صدق جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر ، إن الفيضان قد أيس أن يهده المصون في جزيرة العرب ولكن في الصحراء بينهم . (٣) حديث : لما نزل قوله تعالى (إنك ميتون ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) قال الزبير : يارسول الله أيسكر علينا ما كان بيننا ... الحديث . أخرجه أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح . (٤) حديث أنس : يحشر الله العباد عراة غيرا جها ، قلنا : ما جها ؟ قال : ليس معهم شيء ... الحديث ، قلت : ليس من حديث أنس وإنما هو عيب الله بن أبيه رواه أحمد بإسناد حسن وقوله « غرا » مكان « غيرا » .

والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم ، فإن ما بين المبد وبين الله خاصة فالخبرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعصر عليه استحلال أبواب اللطام فليكثر من حسنة ليوم التقصص وليس يبيض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يبلغ عليه إلا الله ، فمما يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذي ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم ، كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيتاه يضحك حتى بدت عظامه فقال غرا ما يضحك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ قال : وجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما : يارب خذل مطلق من أخى ، فقال الله تعالى : أعط أعاك فظلمته قال : يارب لم يبق من حسنة شيء فقال الله تعالى الطالب : كيف تصنع ولم يبق من حسنة شيء قال : يارب يتحمل عني من أوزاري ، قال : وأعطت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يعمل عنهم من أوزارهم ، قال : فقال الله الطالب ارفع رأسك فانظر في الجان فرفع رأسه فقال : يارب أرى مدائن من فضة ثمرة وقصورا من ذهب مملكة بالولول لا ي في هذا أو لا ي صديق هذا ؟ أو لا ي شهيد هذا ؟ قال لمن أعطاني الثمن ، قال : يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت تملكه ، قال : وما هو ؟ قال عفوك عن أخيك ، قال : يارب إن قد ضوت عنه ، قال الله تعالى : خذ بيد أخيك فادخلها الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإنها يصلح بين المؤمنين ^(١) ، وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق .

فتفكر الآن في نفسك إن خلعت محيبتك عن المظالم أو تطف لك حتى عفا عنك وأقنت بسعادة الأبد ؛ كيف يكون سرورك في متصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبسبب لا يدور بحواسيه الفناء ؟ وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وبيض وجهك واستثار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، تقوم بتخبرك بين الخلائق وأما رأسك خاليا عن الأوزار ظهرك ، ونفذة نسيم التيم وبرد الرضا يتلا من جبينك ، وخلق الأتولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك وينظرونك في حسنك وجمالك ، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رموس الأشهاد : هذا فلان بن فلان رضي الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشق بعدها أبدا أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المسكنة التي تملكها في قلوب الخلق في الدنيا وبرائك ومدامتك وتمنيتك وتزينك ؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لانتبه له إليه فتوصل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فإن تدرك ذلك إلا به .

وإن تكن الأخرى والبياء بالله بأن خرج من محيبتك جريمة كنت تحسبها هيبة وهي عند الله عظيمة ففتلك لأجلها فقال : عليك لعنتي باعد السوء لا أتقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسرد وجهك ، ثم تخضب للملائكة لغضب الله تعالى فيقولون : وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين ، وعند ذلك تنفث إليك الوبانية وقد غضبت لغضب عاقبا فأقدمت عليك بفظاظها وزعارتها وصورها الفكرة ، فأخذوا بناصيتك بسحبك على وجهك على ملا الخلق وهم ينظرون إلى أسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك ، وأنت تتأدى بالويل والتبور ، وهم يقولون لك : لا تبع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادى للملائكة ويقولون : هذا فلان بن فلان

(١) - حدث أنس : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيتاه يضحك حتى بدت عظامه فقال أحدهما : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ قال : وجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العالمين ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والملك في المستمرة ولد تقدم .

كشف الله عن فضائحه وعظايمه بقلوبهم فسحق شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ، وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة في قلوبهم أو خوفا من الافتضاح عنهم ، فإعظم جهلك إذ تمترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المتفرقة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملأ العظيم مع التوضيح لسلطان الله وعبابه الآليم والسياق بأيدى الزبانية إلى سواء الجحيم ، فهذه أحوالك وأنت لم تسمع بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الأحوال في قول الله تعالى ﴿ يوم نحشر المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ فاعلموا أن الصراط المستقيم صراط الذي لا نارا أحد من السيف وأحد من الشر - فمن استقام في هذا العالم يساقون إلى الصراط - وهو جسر يمدود على متن النار أحد من السيف وأحد من الشر - فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا أو قل ظهره بالأوزار وعصى نعمته في أول قدم من الصراط وتردى . فتفكر الآن فيما يجل من الفزع بفؤادك إذا رايت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحتها ، ثم قرع سمك شهيقي النار وتنيطها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وتقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته ، واضطرت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلايق بين يديك يزلون ويشعرون ، وتتنازلم زبانية النار بالخطاطيف والكلايب ، وأنت تنظر إليهم كيف يتكسبون فتفسد إلى جهة النار وموسمهم وتلوا أرجلهم ، فيأله من منظر ما أظفقه ومرهق ما أصعبه ومجاز ما أضيقه . فانظر إلى حالك وأنت ترخف عليه وتصد إليه وأنت مثل الظهر بأوزارك ، لتلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق وهم يتهاوتون في النار والرسول عليه السلام يقول : يا رب مسلم سلم ، والرحمات بالويل والعبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم الكثرة من زل عن الصراط من الخلايق ، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك قدمك ؟ فنأديت بالويل والعبور وقلت : هذا ما كنت أعافه فياليتني قدمت لحياقي يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا يا ليتني كنت زابا يا ليتني كنت نسيا فاني لآليت أي لم تلتدني أو عند ذلك تتخطفك التيران - والعباد بالله - وينادي المنادي ﴿ اخشوا فيها ولا تكلون ﴾ فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستئانة ، فكيف ترى الآن عظمك وهذه الأخطار بين يديك ؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم ، وإن كنت به مؤمنا وعنه غافلا وبالأستعداد له متهاونا فما أعظم خسارتك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يملك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه أقولم يكن بين يديك إلا هول الصراط وأرتياح قلبك من خطر الجواز عليه - وإن سلمت - فأنهيك به هولا وفزعا وربما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز بأمرته من الرسل ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم اللهم سلم ، وفي جهنم كلايب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : فلأنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يلم قدر عظمتها إلا الله تعالى تتخطف الناس بأعمالهم فمن من يوقن بعمله ومنهم من يزدل ثم ينجو ^(١) ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله

(١) حديث « ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز » حقه عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث طويل

صلى الله عليه وسلم، يمر الناس على جسر جهنم وعليه حلك وكلايب وخطاطيف تحتلف الناس بينا وشمالا وعل جنتيه ملائكة يقولون : اللهم سلم اللهم سلم فن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس الجرى ومنهم من يسمى سميا ومنهم من يسمى مشيا ومنهم من يجوحوا ومنهم من يرفح زحفا ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يجوتون ولا يبعون ، وأما ناس فيؤخذون بنوب وخطايا فيفترقون فيكونون لها ثم يؤذن في الشفاعة ^(١) ، وذكر إلى آخر الحديث : وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : يجمع الله الأولين والآخرين ليقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخته إصهارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال : ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رءوسكم فيرفعون رءوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسمى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضى مرة ويضو مرة فإذا أضاء قدمه فشى وإذا أظلم ظلم ، ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم ، فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كالمقصاض الكواكب ومنهم من يمر كشدة الفرس ومنهم من يمر كشدة الرجل حتى يزل الذى أعطى نوره على إبهام قدمه يجر على وجهه ويديه ورجليه يجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل ويجر أخرى وتصيب جوانبه النار ، قال : فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله مالم يعط أحدا إذا نجا منها بعد إذ رأيتها فيطلق به إلى غير عند باب الجنة فيقتل ^(٢) وقال أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الصراط كحد السيف أو كحد الشفرة وإن لللائكة ينجون للؤمنين وللؤمات وإن جبريل عليه السلام لأخذ بهجرتي وإنى لأقول يا رب سلم سلم فاللون والزلات يومئذ كبير ^(٣) .

فهذه أهوال الصراط وعظائمه ، فظنل فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال يوم التيامن من طال فيها فكره في الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة . ولست أعنى بالخوف رقة كرفة النساء تدع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنسأ على التقرب وتعود إلى فوك ولعبك ؟ فإذا من الخوف في شيء ؟ بل من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طابه . فلانجيك إلا خوف يملك عن معاصي الله تعالى ويملك على طاعته . وابد من رقة النساء خوف الحق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى السنتهم الاستاذة فقال أحدهم : استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم . وهم مع ذلك مصررون للعادي التي هي سبب هلاكهم . كالشيطان يضلك من استمادتهم . كما يضلك على من قصده سبع منار في صحراء ورواء حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصوله من بعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين بأشدة بغيانه وإحكام أركانه ؟ فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى ينز عنه ذلك من السبع . وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حسن إلا قول ولا إله إلا الله ، صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا مبرود غيره . ومن اتخذ إلهه هواه فهو

(١) حديث أبي سعيد : يمر الناس على جسر جهنم وعليه حلك وكلايب وخطاطيف . . الحديث متفق عليه مع اختلاف ألفاظ
(٢) حديث ابن مسعود : يجمع الله الأولين والآخرين ليقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخته إصهارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، قال : وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدى والحاكم وقد تقدم به مختصرا .
(٣) حديث أنس : الصراط كحد السيف . . أو كحد الشفرة . . الحديث : أخرجه البيهقي في الشعب وقال هذا إسناد ضعيف قال وروى من زياد بن جهمي عن أنس من رواية الصراط كحد الشفرة . أو كحد السيف ، قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه إن لمية .

يعيد من الصدق في توحيدِه وأمره مخطئ في نفسه ، فإن عجزت عن ذلك كله فكُن عبداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على تعظيم سننه ومتشوّقاً إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركاً بأدعيتهم فمساك أن تنال من شفاعة أو شفاعتهم فتشجر بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

صفة الشفاعة

أعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصلّيين ، بل شفاعة العلماء والصالحين ، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه ، فكُن حريصاً على أن تكتسب لنفسك عند رتبة الشفاعة ، وذلك بأن لاتخسر آدمياً أصلاً فإن الله تعالى خبأ ولايته في عباده فلعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله ، ولاتستعمر معصية أصلاً فإن الله تعالى خبأ غضبه في مآصيه فلعل مقت الله فيه ، ولاتستعثر أصلاً طاعة فإن الله تعالى خبأ رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه . ولو الكلمة الطيبة أو الثانية الحسنة أو ما يجري مجراه .

وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى (ولست يعطيك ربك فترضى) روى عمرو ابن العاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام (رب إنني أضل كثيراً من الناس فمن تبني فأني من ومن عصاني فإنك غفور رحيم) وقول عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك) ثم رفع يديه وقال « أمي أمي » ثم بكى فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك ، فأناه جبريل فساله فأخبره - واهة أعلم به - فقال : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إناسرنيك في أمتهك ولا تسوك ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحللت لي القتائم ولم تحمل لأحد قبل وجعلت لي الأرض مسجداً وترباً مطهراً فأبى رجل من أمي أن أدركته الصلاة فليصل وأعطيت الشفاعة ، وكل نبى بهت إلى قومه خاصه وبعثت إلى الناس عامة ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة كنت إمام التبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غر ، وقال صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم ولا غر وأنا أول من تفتش الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدي لواء الحمد تحت آدم فمن دونه ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوى شفاعة لأمتي يوم القيامة ^(٤) ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ، ويتبع منبرى لا اجلس عليه فأبى بين يدي ربي متصفاً بخاتمة أن يسكن بي إلى الجنة ويتبع أمتي بعدى ، فأقول : يارب أمتي فيقول الله عز وجل : يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول : يارب عمل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صكاً كبرجال قد بعث بهم

(١) حديث عمرو بن العاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم (رب إنني أضل كثيراً من الناس فمن تبني فأني من ومن عصاني فإنك غفور رحيم) وقول عيسى صلى الله عليه وسلم (إن تعذبهم فإنهم عبادك) ثم رفع يديه ، ثم قال « أمي أمي » ثم بكى ... الحديث . وفيه : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : أنا سريخك وولدك في أمتهك ، قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم وله سقط من الإحياء ذكر عبد الله بن مسعود النخاش . (٢) حديث « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ... الحديث » وفيه « وأعطيت القيامة » متفق عليه من حديث جابر . « إذا كان يوم القيامة كنت إمام التبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غر » أخرجه الترمذى وابن ماجة من حديث أبي بن كعب قال الترمذى حسن صحيح . (٣) حديث « أنا سيد ولد آدم ولا غر ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجة من حديث أبي سعيد الخدري . (٤) حديث « لكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوى شفاعة لأمتي يوم القيامة » متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة .

إلى النار وحتى إن مالكا غازن النار يقول : يا محمد ما تركت النار لنعذب ربك في أمثلك من شية ^(١) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدبر ^(٢) ، وقال أبو هريرة أني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يلحم فرغ إليه الذراع وكانت تسجبه فبش منها نهضة ثم قال : أنا سيد للمرسلين يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسبهم الناس وينفذهم البصر وتدنو الشمس فبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس لبعضهم لبعض : ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بأدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله تعالى بيده وتنفخ فيه من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك أشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم أدم عليه السلام : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نفث عن الشجرة فصمتي ! نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا أشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قوى ! نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله . فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون : أنت نبى الله وخليه من أهل الأرض أشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنى كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها ! نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى . فيأتون موسى عليه السلام فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضلك رسالته وبكلامه على الناس أشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفسا أوسر بقتلها ! نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى عليه السلام . فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلت الناس في المهد أشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول عيسى عليه السلام : إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ! نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم . فيأتون فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وعاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر أشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فأنطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى ، ثم يفتح الله لي من عباده وحسن النساء عليه شيئا لم يفتح على أحد قبل ، ثم قال : يا محمد ارفع رأسك سل قطعا واشفع لنفسك ، فأرفع رأسى فأقول : أمتى أخى يارب ! فقال : يا محمد ادخل من أمثلك من لأحساب طيهم من الباب الآمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذى نفسى بيده إن بين المصرعين من مصاريع الجنة كابين مكة وحبر أو كابين مكة وبصرى ^(٣) ، وفى حديث آخر . هذا السباق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم ، وهو قوله في الكواكب هذا ربى ، وقوله لأشفعهم بل فضله كبير هذا ، وقوله

(١) حديث ابن عباس : يغضب الأنبياء من ذنب يجلدون عليها ويوق منى لأجل على لأما بين يدي ربى مقبلا . . . الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط لمسانده محمد بن ثابت والبخاري ضعيف . (٢) حديث : إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدبر . أخرجه أحمد والطبراني من حديث يزيد بن حسن . (٣) حديث أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى يامم فرفع إليه الذراع وكان يجب أن يمش منها نهضة ثم قال : وأما سيد الناس . . . الحديث بطوله في الشفاعة ، قال وفى حديث آخر هذا السباق مع ذكر خطايا إبراهيم ، وفى هذه الرواية الثانية أخرجهما مسلم .

نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا عليه وفي الآخرة ذوقه ، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظأ أبدا . قال أنس :
 أغنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإغفائه فرفع رأسه متبها فقالوا له : يا رسول الله لم تضحكت ؟ فقال : آية
 أنزلت على أنفاسه . وقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أصطيناك الكوثر) حتى خشيتهما ثم قال : هل تدرون
 ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنه نهر وعذنيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير عليه حوض
 ترد عليه أمي يوم القيامة آتيت عدد نجوم السماء ^(١) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 « بيننا أنا وأسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب القوثر المجوف قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك
 ربك فعزب الملك يده فإذا طينته مسك أذفر ^(٢) ، وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما بين لائتي
 حوضي مثل ما بين المدينة ومثناه - أو مثل ما بين المدينة ومكان - ^(٣) ، وروى ابن عمر : أنه لما نزل قوله تعالى
 (إنا أصطيناك الكوثر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب ، شرابه أشد بياضا
 من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجرى على جنادل القوثر والمرجان ^(٤) ، وقال ثوبان : مولى
 رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البقان مأؤه
 أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظأ بعدها أبدا ، أزل
 الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين ، فقال عمر بن الخطاب : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : هم السعد رموسا
 الدهن يسابا الذين لا يتكحون المتتمات ولا تفتح لهم أبواب السدد ^(٥) ، فقال عمر بن عبد العزيز : والله لقد
 نكحت المتتمات فأطعمت بنت عبد الملك وفتحت لي أبواب السدد إلا أن يرحمني الله ، لا جرم ولا أدمن رأسى حتى
 يشمت ولا أغسل ثوبي الذي على جسدى حتى يتسخ . وعن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ما آتية الحوض ؟ قال
 : والذى نفس محمد بيده لا تيتيه أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المضحية ، من شرب منه لم يظأ
 آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طولها ما بين عمان وأبلة ، مأؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من
 العسل ^(٦) ، وعن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون بهم أكثر
 واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة ^(٧) ، فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وآله تعالى عليه وسلم فليرجع كل عبد أن
 يكون في جملة الواردين ، وليحذر أن يكون متعينا ومعترا وهو يظن أنه راج ، فإن الراجى للحصاد من بشايلذر
 ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإتيان ودفع الصواعق إلى أران الحصاد ، فاما من ترك
 الحراثة أو الزراعة وتقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن

- (١) حديث أنس . أغنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإغفائه فرفع رأسه متبها فقالوا له يا رسول الله لم تضحكت ؟ فقال
 « آية أنزلت على أنفاسه » وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم (إنا أصطيناك الكوثر) رواه مسلم . (٢) حديث أنس : بينا أنا أسير
 في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب القوثر المجوف ... الحديث . أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى من قول أنس :
 لما خرج إلي على الله عليه وسلم إلى الله . الحديث . وهو مرفوع وإن لم يكس مرص . من التبي على الله عليه وسلم .
 (٣) حديث أنس « ما بين لائتي حوضي مثل ما بين المدينة ومثناه - أو مثل ما بين المدينة ما بين المدينة ومكان » رواه مسلم .
 (٤) حديث ابن عمر : لما نزل قوله تعالى (إنا أصطيناك الكوثر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو نهر في الجنة
 حافتاه من ذهب ... الحديث . أخرجه الترمذى مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه البخارى في مسنده وهو أقرب إلى لفظ
 المصنف . (٥) حديث ثوبان « إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البقان ... الحديث أخرجه الترمذى وقال قريب وابن ماجة .
 (٦) حديث أبي ذر : قلت يا رسول الله ما آتية الحوض ؟ قال : والله نفسى بيده لا تيتيه أكثر من عدد نجوم السماء ...
 الحديث » رواه مسلم . (٧) حديث سمرة « أن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون بهم أكثر واردة ... الحديث » أخرجه
 الترمذى وقال قريب . قال روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن من النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه
 عن سمرة وهو أصح .

وليس من الراجح في شيء، وهكذا رجاه أكثر الخلق وهو غرور الحق لنور ذهابه من الغرور والغفلة فإن لا اغترار بالله أعظم من الاغترار بالديناء قال الله تعالى (فلا تزنكم الحياة الدنيا ولا يزنكم بالله الغرور) .

القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

يا أيها الناقل عن نفسه للفرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرقة على الاقضاء والزوال ؛ دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد الجميع إذ قيل : (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) فأتت من الورد على يقين ومن النجاة في شكله ، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فمساك تستعد للنجاة منه ، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا ، فينبأهم في كربها وأهوالها وقروفاً يلمظرون حقيقة أنبيائها وتلغيب شفاعتها إذ أحاطت بالجرميين ظلمات ذات شعب ، وأظلم عليهم نار ذات لب ، وسموا لها زفيراً وجرجرة تنفص عن شدة النيفظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالمطب وجئت الأمم على الركب حتى أشفق البراء من سوء المقلب . وخرج المنادي من الزبانية قائلاً : أين فلان بن فلان الموقف نفسه في الدنيا بطول الأمل للضياع عمره في سوء العمل ؟ فيبادرته بمقام حديد ويستقبلونه بعظام التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجميع ويقولون له (ذق ذلك أنت العزيز الكريم) فأسكروا داراً خبيثة الأرواح مظلمة المسالك مهيمة للمهلك ، يخلد فيها الأسير ويرقد فيها السعير ، شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجميع ، الزبانية تضمهم والهاوية تجهمهم ، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك ، قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المصاعى ، ينادون من أكسافها ويمسحون في نواحيها وأطرافها ؛ يا مالك قد حق علينا الوعيد يا مالك قد أفتقنا الحديد يا مالك فدلضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فإنا لآلئود . فتقول الزبانية : هيات لاتي حين أمان ! ولا خروج لكم من دار الهوان فاختسوا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكتمت إلى ما نهيت عنه قومودون . فعند ذلك يقطنون وحلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا ينتهم الأسف ، بل يكونون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أعينهم والنار عن شمائلهم ، فهم غرق في النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات التيران وسراييل القطران وضرب المقصاع ومقل السلاسل ، فهم يتجلبسون في مضايقها ويتحلمون في دركاتنا ويضطربون بين غواشينا ، تنلى بهم النار كغلي التدور ويهتفون بأويل والويل . ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصير به ماني بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد تشم بها جباههم فيتعجر الصديد من أفواههم وتقطع من البطش أكبادهم ، وتسيل على الحدود أحداقهم ويسقط من الرجات لحومها ويتمتع من الأطراف شعورها بل جلودها ، وكلما لضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ، وقد عزيت من العجم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالروق وعلائق العصب وهي تنش في لغيم تلك التيران ، وممع ذلك يتنحون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سواد من الحميم ، وأعييت أبصارهم ، وابكت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، وجذعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلت أيديهم إلى أعناقهم ، وجه بين نواصيهم وأقدامهم . وهم يمشون على النار برجوههم ويظاؤون حسك الحديد بأحداقهم ، فلهيب النار سار في بواطن أجزائها وحيات الهاوية وعقاربها متشعبة بظواهر أعضائهم . هذا بعض جملة أحوالهم . وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم

« إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعين ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثمان وسبعون ألف عرق لا ينتهي الكافر والمتنافق حتى يوقع ذلك كله ^(١) ، وقال على كرم الله وجهه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تمردوا بالله من جب الحزن - أو وادى الحزن - قبل يارسول الله وما وادى - أو جب - الحزن قاله واد في جهنم تمرد منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء المرائين ^(٢) ، فهذه سعة جهنم وانشعابها وديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها . وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعضى العبد بعضها فوق بعض ، الأكل : جهنم ثم سفر ثم لظى ثم الحطمة ثم السير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن في عرق الهاوية فإنه لا حد لمعها كما لا حد لمعق شهوات الدنيا ، فكما لا ينتهى أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهى هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعظم منها . قال أبو هريرة : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا رجلاً يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين عاماً الآن انتهى إلى قعرها ^(٣) » .

ثم انظر إلى تفاوت الدرجات وأكبر تفضيلاً ، فكأن أن لكباب الناس على الدنيا يتفاوت فن منهمك مستكثر كالفرق فيها ، ومن غافل فيها إلى حد محدود ، فكذلك تتفاوت النار لم تتفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة . فلا تترافد أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان ، بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه ، إلا أن أظلم عذاباً لو عرضت عليه الدنيا بمخافير لا تقدر بها من شدة ما هو فيه ما هو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتمل بطنين من نار يغلى دماغه من حرارة لعليه ^(٤) ، فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر بين شدة عليه . ومهما تشككت في شدة عذاب النار فرب أصفه من النار وقس ذلك به . ثم اعلم أنك أخطأت في اقتباس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهياتها لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لحاضاها طامعين هرباً عما هم فيه . وعن هذا خبر في بعض الأخبار حيث قيل : « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطافها أهل الدنيا ^(٥) » بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال : « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احتوت ثم أوقد عليه ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليه ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم : « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضاً فأذن لها فسألت في نفسي في الشتاء ونفسي في الصيف فأشد ما تجدوني في الصيف من حرها وأشد ما تجدوني في الشتاء من زهرها ^(٧) » ،

(١) حديث « إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعين ألف عرق في كل شعب سبعون ألف ثمان وسبعون ألف عرق لا ينتهى السكان والمتنافق حتى يوقع ذلك كله » لم أجده هكذا مجتمعة وسيأتي بيده ماورد في ذكر الميقات والغارب .

(٢) حديث على : « تمردوا بالله من جب الحزن - أو وادى الحزن - قبل يارسول الله وما وادى - أو جب - الحزن » وقال بلال وأبو نعيم والأسهباني بسند ضعيف ورواه الترمذى وقال قريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « جب الحزن » ووضعه ابن عدى وتقدم في ذم الجلاء والرياء . (٣) حديث أبي هريرة : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا رجلاً يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر أرسل في جهنم ... الحديث » رواه مسلم . (٤) حديث « إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة من ينتمل بطنين من نار ... الحديث » متفق عليه من حديث الترمذيين به . (٥) حديث « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطافها أهل الدنيا » ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس . وهذه النار قد ضربت بناءً ليجر سبب حرارتها ولولا ذلك ما اتهم بها أحد . ولما برز من حديث أس وهو ضعيف وما وصلت إليك « حتى أحبها قال » انصرفت بإحدى تفضي عليك . (٦) حديث « أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى ابيضت ... الحديث » مقدم . (٧) حديث « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضاً ، فأذن لها فسألت في الصيف من حرها وأشد ما تجدوني في الشتاء من زهرها »

وقال أنس بن مالك : يؤى بأنهم الناس في الدنيا من الكفار فيقال اغسوه في النار غسلة ثم يقال له هل رأيت نسيا قط فيقال : لا ، ويؤى بأشد الناس حرًا في الدنيا فيقال اغسوه في الجنة غسلة ثم يقال له : هل رأيت حرًا قط فيقول : لا . وقال أبو هريرة : لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تمس رجل من أهل النار لمساها . وقد قال بعض العلماء في قوله (تلفح وجوههم النار) إنها لفتحهم لقمة واحدة لها أجهت لها عسل عظم إلا أفته عند أعقابهم .

ثم انظر بعد هذا في متن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يفرقون فيه وهو النساك : قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن دلوًا من غساق جهنم ألقى في الدنيا لأنتن أمتل الأرض ^(١) . فلو أن شراهم إذا استغاثوا من العطش فيسقي أحرم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه وبأية الموت من كل مكان وما هو يبيت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالملح يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعًا .

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى (ثم إنكم إليها العائلون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فالثون منها البطون فصاربون عليه من الحميم فصاربون شرب الحميم) وقال تعالى (إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم طلعها كأنه رموس الشياطين فلنأكلون منها فالثون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) وقال تعالى (تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية) وقال تعالى (إن لدينا أنكالا وجحيا وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحر الدنيا أفسدت على أهل الدنيا ما يشبههم ^(٢) ، فكيف من يكون طعامه ذلك ؟ قال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرغبوا فيما رغبكم الله واحذروا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم ، فإنه لو كانت قطرة من الجنة ممك في الدنيا لم يأت فيها طيبها لكم ، ولو كانت قطرة من النار ممك في الدنيا لم يأت فيها خبيثها عليكم ^(٣) . وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأتي على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيأثون بطعام من طريع لا يسم ولا يئى من جوع ويستغيثون بالطعام فيأثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون كما كانوا يجيرون النقص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا خوتة جهنم ، قال : فيدعون خوتة جهنم (أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون ولم تكن تأييسكم ورسلكم بالينيات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) قال : فيقولون ادعوا مال الكافدين . فيقولون يا مالك ليقتض علينا وبلك ، قال : فيجيهم إنكم ما تكون ^(٤) ، قال الأعشى : أنبت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال : فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) قال : فيجيهم (اخشوا فيها ولا تكمولون) قال :

(١) حديث أبي سعيد الخدري : لو أن دلوًا من غساق ألقى في الدنيا لأنتن أهل الأرض : أخرجه الترمذي وقال إنما مره من حديث رعد بن سعد وفيه ضعف . (٢) حديث ابن عباس : لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض ما يشبههم ... الحديث : أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه . (٣) حديث أنس : أرغبوا فيما رغبكم الله واحذروا ما خوفكم الله به من عذاب الله وعقابه من جهنم ... الحديث : لم أجده إلا مستادا . (٤) حديث أبي الدرداء : يأتي على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام . الحديث : أخرجه الترمذي من رواية سمرة بن جعلة عن شهر بن حوشب عن أم البراءة عن أبي الدرداء ، قال الدارقي : والناس لا يعرفون هذا الحديث ، وإنما روى من الأعشى عن سمرة بن جعلة عن شهر عن أم البراءة عن أبي الدرداء قوله .

فمنذ ذلك ينسوا من كل خير ، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل . وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ قال : يقرب إليه فيسكره فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقت فروة رأسه . فإذا شربه قطع أمعاء حتى يخرج من دبره ، يقول الله تعالى ﴿ وسقوا ماء حيا قطع أمعاءهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ فلهذه طعامهم وشربهم عند جمعهم وعظمتهم ^(١)

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة مسمومها وعظم أخطأها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغربت بهم ، فهي لا تغتر عن النش والدغ ساعة واحدة قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أفرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بهما رأسه فيطرحه في النار . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : إن في النار لحيات مثل السباع يلسن السعة فيجد حوتها أربعين خريفا ، وإن فيها لمقارب كالنعال الموكفة يلسن السعة فيجد حوتها أربعين خريفا وهذه الحيات والمقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإبداء الناس ومن وق ذلك وق هذه الحيات فلم تمثل له ^(٢) ، ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فإن الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عندهم يسبه ، فيحسون بلقح النار ولذغ المقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي ، قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : شفتي السفلى سافطة على صدره والعلوية قد غلظت وجهه ^(٤) ، وقال عليه السلام : إن الكافر ليحرق لسانه في سبعين يوم القيامة يتراطوه الناس ^(٥) ، ومع عذاب الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتتجد جلودهم ولحومهم . قال الحسن في قوله تعالى ﴿ كلما نصبت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ﴾ قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم قيل لهم عردوا فيودون كالكواكب .

ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشبهتهم ودعائهم بالويل والتبور ، فإن ذلك يسلط عليهم في أول إلقتهم . في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بهم يومئذ لما سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ^(٦) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تتقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت وما دام يؤذن لهم في البكاء والشقيق والزفير والدعوة بالويل والتبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يتنمون أيضا من ذلك ^(٧) ، قال محمد بن

(١) حديث أبي أمامة في قوله تعالى ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ قال يرب إليه ... الحديث أخرجه الترمذي وقال غريب . (٢) حديث أبي هريرة : من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ما يوم القيامة شجاعا أفرع ... الحديث . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وسلم من حديث جابر بن محمد . (٣) حديث : إن في النار لحيات مثل السباع يلسن السعة .. الحديث . أخرجه أحمد من رواية ابن أبي ليثة عن جابر عن عبد الله بن الحارث بن جزء . (٤) حديث أبي هريرة : حرس للكافر في النار مثل أحد ... الحديث . رواه مسلم . (٥) حديث : شفتي السفلى سافطة على صدره والعلوية قد غلظت وجهه . أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب . (٦) حديث : إن الكافر ليحرق لسانه في سبعين يوم القيامة يتراطوه الناس . أخرجه الترمذي من رواية أبي الحارث عن ابن عمر وقال غريب وأبو الحارث لا يعرف . (٧) حديث : يؤتى بهم يومئذ لما سبعون ألف زمام ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود . (٨) حديث أنس : يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تتقطع الدموع ... الحديث . أخرجه ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف .

كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلّا خروج من سبيل) فيقول الله تعالى مجيبا لهم (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به قوموا فالجحيم) ثم يقولون (ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجيب دعوتك وتبغ الرسل) فيجيبهم الله تعالى (أو لم تكونوا أنفسكم من قبل ما لكم من زوال) فيقولون (ربنا أخرنا لنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل به) فيجيبهم الله تعالى (أولم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم التذير فتذوقوا فما للظالمين من نصير) ثم يقولون (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) فيجيبهم الله تعالى (اخشوا فيها ولا تكلمون) فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس رضي الله عنه : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محص) قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم قالوا (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) وقال صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال بأهل الجنة خلود بلا موت وبأهل النار خلود بلا موت ^(١) ، وعن الحسن قال : يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتقى كبت ذلك الرجل . وروى الحسن رضي الله عنه جالسا في زاوية وهو يبكي فقيل له : لم يبكي ؟ فقال : أخشى أن يطرحني في النار ولا يزال . فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة ، وتفصيل عمومها وأجزائها ومغنا وحسرتها لانهاية له ، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حمرة قوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه ، مع عليهم بأنهم بأعراكل ذلك بشئ بض درهم معدود ؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات خفية في الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية ، بل كانت مكشورة منقصة فيقولون في أنفسهم واحسراته كيف أمكننا أنفسنا بهميان ربنا ؟ وكيف لم نكف أنفسنا الصبر أياما فلا نل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين مطمئنين بالرضا والرضوان ؟ فيالحسرة هؤلاء وقد فاتهم بلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها ، ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتها لكنهم لم يرض عنهم . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستشفقوا راحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة مارجع الأولون والآخرين بمثله ، فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن نرينا ما أريقنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أمون علينا ، فيقول الله تعالى ذاك أردت بهم كتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظام وإذا لقيتم الناس لقيتمهم عنيتين تراءون الناس بخلاف ما تعطون من قلوبكم ميتة الناس ولم تهابوني وأجلتني الناس ولم تعجلوني وتركتم الناس ولم تتركوا لي فاليرم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمكم من الثواب القيم ^(٢) ، وقال أحمد بن حنبل : إن أحدا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح ووجه صحيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود : إلى لا صبر لي على حرّ شمسك فكيف صبري على حر ناراك ؟ ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك ؟ .

فأنظر بإمكانك في هذه الأموال وأعلم أن الله تعالى خلق النار بأهلها وخلق أهلها لا يريدون ولا يتقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون)

(١) حديث « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح يذبح » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم . (٢) حديث « يؤرم يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستشفقوا راحتها ... الحديث » ورواه في الأربعين لأبي حنيفة عن أنس وأبو هذيل لإبراهيم بن هذيل حاكم .

ولعمري الإشارة به يوم القيامة ، بل في أزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء ، فالعجب منك حيث تفحصك وتلوه وتشتغل بمحضرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في خلقك ؟

فإن قلت : فليت شمرى ماذا مودى وإلى ماذا مآلى ومرجمى وما الذى سبق به القضاء في حق ؟ فذاك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كان ليس لما خلق له ، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبدع عن النار ، وإن كنت لاتقصد خيرا إلا وتحيط بك المراتق فتدفعه ولا تقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه فأعلم أنك مقضى عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على الثبات ودلالة الدخان على النار . فقد قال الله تعالى (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) فأعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم .

القول في صفة الجنة وأصناف لعيمها

اعلم أن تلك الدار التي عرفت ممرها وغورها تقابلها دار أخرى ، فتأمل لعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى . فاستشر الخوف من قلبك بطول الفكر في أحوال الجحيم واستشر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لاهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها برمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تال الملك العظيم وتسلم من المذابح الأليم ، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم لضرة النعيم يسقون من رحيق عنتوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من المثلوث الرطب الأبيض فيها يسقط من العبقري الأخضر ، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخر والسسل ، محفوفة بالفلان والولدان ، مرتبة بالخور الدين من الخيرات الحسن كآئين الياقوت والمرجان لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان ، يشين في درجات الجنان إذا اختلت إحداها في مشيا حل أعطافها سبعون ألفا من الولدان ، عليها من طرائف الحزير الأرض ما تحير فيه الأبصار ، مكلمات بالتيجان المرصعة بالثلوث والمرجان ، شكلات فنجيات عطرآت آبنات من الحرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط ووضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهم بأكواب وأباريق وكأس من معين يصفاء لذة للشاربين ، ويطوف عليهم خيام وولدان كأثال الثلوث المكنون جراز بما كانوا يعملون ، في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم لضرة النعيم ، لا يرفعهم قدر ولا ذلة بل عباد مكرمون وأنواع التحف من وجه يباهدون ، فهم فيها اشتيت أنفسهم خالدين ، لا يملكون فيها ولا ينجون ، وهم من ريب المتون آمنون ، فهم فيها يتعمنون ويأكلون من أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أراضيها من فضة وحصباء ومرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذقر وثيابها زعفران ، ويمطرون من مصاب فيها من ماء النسرين على كشبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الحريق المختوم مزوج به السليل المذب ، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يمدو الشراب من ورائه برقة وحره ، لم يصنعه آدمي فيقصر في نسوية صنعته وتحسين صناعته ، في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها ، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحه أحداته . فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحمل التجماع بمن نزل بفتنتها ولا تنظر الأحداث بعين التنبير إلى أهلها كيف يأمن بدار قد أذن الله في خرابها وبنيتها بعيش دونها ؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن

من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدائق لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها ! وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتقص من ضرورته ! كيف وأهلها مفوك آمنون وفي أنواع السرير عمتون لم فيها كل ما يشتهون ، وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون منه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون ، وهم على الدعاء بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينادى مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تموتوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تغربوا فلا تغربوا أبداً وإن لكم أن تسعدوا فلا تسعدوا أبداً فذلك قوله عز وجل (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) (١) .

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فأقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان ، وأقرأ من قوله تعالى (ولن يخاف مقام رب جنتان) إلى آخر سورة الرحمن ، وأقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور . وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلمت على جلتها ، وتأمل أولاً عدد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (ولن يخاف مقام رب جنتان) قال « جنتان من فضة آيتهما وما فيها وجنتان من ذهب آيتهما وما فيها ، وما بين التوم وبين أن ينظروا إلى جهم لإلراء الكبرياء على وجهه في جنة عدن (٢) » ، ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي . قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها والجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد » فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال « نعم ، وأرجو أن تكون منهم (٣) » ، وعن عاصم بن خنزة عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر النار فظم أمرها ذكراً لا يحفظه ثم قال (وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمناً) حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عيان تجريان فعدوا إلى إحداهما كما أمروا به فشريوا منها فأذهبت مائتي بطونهم من أذى أو بأس ، ثم عدوا إلى الأخرى فطهروا منها فخرجت عليهم نضرة النعم فلم تتغير أعضارهم بعدها أبداً ولا تشمت بهم موسم كأنما دهنوا بالدهان ، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خواتمها (سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين) ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تلطف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة ، يقولون له : أبشرك الله لك من الكرامة كذا ، قال : فينطق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الجن فيقول : قد جاء فلان - باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا - فتقول : أنت رأيته ؟ فيقول أنا رأيته وهو بائس ، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكته بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جدد له اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لأم أن يذهب بصره ، ثم يطأ طي - رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزواجر مبثورة (٤) ثم اتكأ فقال (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي

(١) حديث أبي هريرة « ينادى مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد . (٢) حديث « جنتان من فضة آيتهما وما فيها وجنتان من ذهب آيتهما وما فيها ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي موسى . (٣) حديث أبي هريرة « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة ... الحديث » متفق عليه .

لولا أن هدانا الله (ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبداً وتحيون فلا تظنون أبداً وأنصحن فلا تمرضون أبداً وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أقنع لاحد قبلك ") .

ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، وكان بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحسودة متفاوتاً ظاهراً فكذلك فيها يمتازون به تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمناصفة فيها فقال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم) وقال تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بملء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك ونقص بسبب الحسد عيشك ، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بطائف لا توازيها الدنيا بمذاخيرها ، فقد قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أهل الجنة ليرامون أهل الغرف فرفعهم كما ترامون الكوكب الغائر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بل والذي نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين " ، وقال أيضاً : (إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنها ") ، وقال جابر : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أحدثكم بنف الجنة ؟ قال : قلت بل يا رسول الله صلى الله عليه ، بأيتها أنت وأمتا قال : (إن في الجنة غرفاً من أصناف الجواهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من التعميم والقدوات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) قال : قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف ؟ قال : (لمن أفضى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام) قال : قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال : (أمتي تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك ، من لقي أماء فسلم عليه أو رد عليه فقد أفضى السلام ، ومن أطعم أمه وعباه من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ، ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ، ومن صلى المشاء الآخرة وصلى القداء في جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام ") ، يعني اليهود والنصارى والمجوس . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (ومساكن طيبة في جنات عدن) قال : (قصور من لؤلؤ ، في كل قصر سبعون داراً من ياقوت أحمر ، في كل دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر ، في كل بيت سرير ، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة . على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن في كل غداة - يعني من القوة - ما يأتي على ذلك أجمع ") .

(١) حديث : (أتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد ... الحديث) أخرجه مسلم من حديث أبي .

(٢) حديث أبي سعيد : (إن أهل الجنة ليرامون أهل الغرف فرفعهم كما ترون الكوكب ... الحديث) متفق عليه وهذه بهم . (٣) حديث : (إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كما ترون النجم الطالع ... قوله اللؤلؤ وحسن وإن مناجيه من حديث أبي سعيد . (٤) حديث جابر : (ألا أحدثكم بنف الجنة ؟ قلت : بل يا رسول الله بأيتها أنت وأمتا قال : (إن في الجنة غرفاً من أصناف الجواهر ... الحديث) أخرجه أبو نعيم من رواية الحسن بن جابر . (٥) حديث : (من لقي أماء فسلم عليه أو رد عليه فقد أفضى السلام) ومساكن طيبة في جنات عدن) قال : (قصور من لؤلؤ ... الحديث) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب النظم والأجري في كتاب التسمية من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال : سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن ابن خليفة لم يرفعه ابن أبي حاتم ، والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة عن قول الجمهور .

صفة حائل الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لثقتاته بالدنيا عوضا عنها فقد قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن حائل الجنة ابنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك^(١) ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال : دومة بيضاء مسك خالص^(٢) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ، ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا^(٣) ، وقال : أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال - أو تحت جبال - المسك^(٤) ، ولو كان أدنى أهل الجنة خلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها^(٥) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها أحدهما إن شتم^(٦) (وظل عود)^(٧) ، وقال أبو أمامة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن الله عز وجل يغضنا بالأعراب ومسالهم ؛ أقبل أعرابي فقال : يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هي ؟ قال : السدر فإن لها شوكا ، فقال : قد قال الله تعالى (في سدر مخضود) يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكه ثمرة ثم تنفتح الثمرة منها عن التين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر^(٨) ، وقال جرير بن عبد الله : نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن يلبسه ، فقلت للبلاد : اطلق بهذا الصلع فأظله فأطلق فأظله فإذا استيقظ فإذا هو سلمان فأبشيت أسلم عليه فقال : يا جرير تواضع لله فإن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت : لا أدري ! قال : ظلم الناس بعضهم بعضا ، ثم أخذ عودا لا أكاد أراه من صفه فقال : يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده ، قلت : يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر ؟ قال : أصولها الثور والذهب والأدهب وأعلاما النحر .

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسروهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله (يحلون فيها من أساور من ذهب واولوا لباسهم فيها حرير) والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار ؛ فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تلبس

(١) حديث أبي هريرة : إن حائل الجنة ابنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك ، أخرجه الترمذي بإسناد صحيح ، وقال ليس استاده بذلك للثوري وليس عندي يتصل ورواه الزبلي من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه مؤلفا عليه بإسناد صحيح . (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال : دومة بيضاء مسك خالص ، أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن مسعود سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره . (٣) حديث أبي هريرة : من سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركها في الدنيا ، ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركها في الدنيا ، أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن واللساني بإسناد صحيح . من ليس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يصبها في الآخرة . (٤) حديث : أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال - أو تحت جبال - المسك ، أخرجه البجلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة . (٥) حديث : لو كان أدنى أهل الجنة خلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها ، أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن . (٦) حديث : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، الحديث ، متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث أبي أمامة : أقبل أعرابي فقال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال : ما هي ؟ قال : السدر . الحديث ، أخرجه ابن المبارك في الزهد عن سفوان بن عمرو عن سليمان بن عامر مرسلا من غير ذكر لأبي أمامة .

ثيابه ولا يفتى شبابه ، في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر عن قلب بشر ^(١) ، وقال رجل : يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم تسج تنسج ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضكه بعض القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم تضحكون ؟ من جاهل سأل علما ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل يفتق عنها ثمر الجنة مرتين ^(٢) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يصقون فيها ولا يمتشطون ولا يمتنظون آيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ووشمهم المسك ، لكل واحد منهم زوجتان يرى رخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية ، وفي رواية : على كل زوجة سبعون حلة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (يحلون فيها من أساور من ذهب) قال : إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تفضي ما بين الشرق والغرب ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الحجمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للؤلؤ من أهل إبراهيم الآخرون ^(٥) ، رواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس : الحجمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (وفرش مرفوعة) قال : ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض ^(٦) .

صفة طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من الفواكه والطيور والسنن والنباتات والمسل والخبز وأصناف كثيرة لا تحصى ، قال الله تعالى (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها) وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة ، وقد قال ثوبان - مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه جبر من أجبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال : فن أول إجازة - يعني على الصراط - ؟ فقال : فقراء المهاجرين ، قال اليهودي : فما تحتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : زيادة كبد الحوت ، قال : فما غذاءهم على أثرها ؟ قال : ينح لهم ثور الجنة الذي كان يأكل في أطرافها ، قال : فما شراهم عليه ؟ قال : من عين فيها تسمى سلسيلا ، فقال : صدقت ^(١) ، وقال زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا أبا القاسم ألمست ترحم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ؟ وقال لأصحابه : إن أقول جاء خصمته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى والذي نفسي بيده إن أجدم ليمطى قوة مائة رجل في الطعام

- (١) حديث أبي هريرة « من يدخل الجنة يتم ولا يأس لأدنى ثيابه .. الحديث » رواه مسلم دون قوله « في الجنة ملايين رأت .. الخ » ، وافق عليه الترمذي من حديث آخر لأبي هريرة « قال الله تعالى أمددت يداي العالين الملائكة ترأت .. الحديث » .
- (٢) حديث : قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق خالفا أم تلج لبجا ... الحديث أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو .
- (٣) حديث أبي هريرة « أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ... الحديث » ، وافق عليه .
- (٤) حديث : في قوله تعالى (يحلون فيها من أساور من ذهب) قال : إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تفضي ما بين الشرق والغرب » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا يعرف إلا من حديث ورشد بن سعد .
- (٥) حديث « الحجمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا ... الحديث » عزاه المصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري .
- (٦) حديث أبي سعيد في قوله تعالى (وفرش مرفوعة) قاله : ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض » أخرجه الترمذي بلفظ « ارتفعها أسكا بين السماء والأرض » وقال غريب لا يعرف إلا من حديث ورشد بن سعد .
- (٧) حديث ثوبان : جاء جبر من أجبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال : فن أول الناس إجازة ؟ يعني على الصراط فقال : فقراء المهاجرين ، قال اليهودي : فما تحتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : زيادة كبد النون ... الحديث » رواه مسلم بزيادة أوله وآخره .

والمغرب والجماع ، فقال اليهودي : فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فإذا البطن قد ضمير ^(١) ، وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وإنك لتنتظر إلى الطير في الجنة فتقتنيه فيخز بين يديك مشويا ^(٢) ، وقال حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة طيرا مثل البخاقى . قال أبو بكر رضى الله عنه : إنها ثائمة يا رسول الله ؟ قال : نعم منها من يأكلها وأنت بمن يأكلها يا أبا بكر ^(٣) ، وقال عبد الله بن عمر في قوله تعالى (يطاف عليهم بصماف) قال : يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى مثله . وقال عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه (ومزاجه من تسليم) قال : يخرج لأصحاب العين ويشربه للقريون صرفا . وقال لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبا .

صفة الحور العين والرجدان

قد تكرر في القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه . وروى انس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : غداة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ولغاب قوس أحكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاعت ولذات ما بينهما راحة وتصفيتها على رأسها خير من الدنيا بما فيها ^(١) ، يبنى الحمار ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) قال : تنظر إلى وجهها في خدورها أصنى من المرأة وإن أدنى إبرة عليها لنقض ما بين الشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى خ سافهما وراء ذلك ^(٢) ، وقال انس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أسرى في دخلت في الجنة موضعا يسمى البديخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن : السلام عليك يا رسول الله ! فقلت : يا جبريل ما هذا النداء قال : هؤلاء المقصورات في الخيام استأذنن ربهن في السلام عليك فأذن لهن ، فلفطن بقلن عن الراضيات فلا تسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نلفطن أبدا ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (حور مقصورات في الخيام ^(٣)) ،

- (١) حديث زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود فقال : يا أبا القاسم أنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ... الحديث . وفيه : حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك . أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد صحيح .
- (٢) حديث ابن مسعود : أنك لتنتظر إلى الطير في الجنة فتقتنيه فيخز بين يديك مشويا . أخرجه البزار بإسناد صحيح .
- (٣) حديث حذيفة : أن في الجنة طيرا مثل البخاقى ... الحديث . هريب من حديث حذيفة والأحد من حديث انس بإسناد صحيح . أن طير الجنة كأشكال البخت ترعى في شجر الجنة . قال أبو بكر : يا رسول الله أن هذه الطير ثائمة قال : أكلمها اسم منها : هالها ثلاثا . ولأن أرجو أن تكون ممن يأكل منها . وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه نهر الكسوت وقال : فيه طير أعنتها كاعتاق الجوز . قال عمر : أن هذه ثائمة ... الحديث . وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن .
- (٤) حديث « غداة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث انس .
- (٥) حديث أبي سعيد الخدري في قوله تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) قال : تنظر إلى وجهها في خدورها أدنى من المرأة ... الحديث . أخرجه أبو بعل من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن قتيبة ورواه ابن المبارك في الزعم والرفاعي من رواية أبي الهيثم عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلون ذكر أن سعيد وقترمزي من حديث ابن مسعود : أن المرأة من نساء أهل الجنة تبرى يابن خ سافها من وراء سبعين حة ... الحديث . ورواه عنه موقوف قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى خ سوقهما من وراء الهم .
- (٦) حديث انس : لما أسرى في دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر ... الحديث . وفيه : أن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام . وفيه : فلفطن بقلن عن الراضيات فلا تسخط . لم أجدهم مذكرا

وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ قال : من الحيض والنفاث والبول والباطق والخامئة ولأن والورود. وقال الأزرعي ﴿ في شغل فاكهون ﴾ قال : شغلهم افتراض الأبتكار . وقال رجل : يا رسول الله أياض أهل الجنة ؟ قال : يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من مبيعين منك ^(١) . وقال عبد الله بن عمر : إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسمى له ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وعثمانة آلاف ثيب يعاق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا ^(٢) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا اشتى الرجل صورة دخل فيها ، وإن فيها يجتمع الحور الذين يرقن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلهما يلقن نغم الحفلات فلا تيد ونغم الثامعات فلا نبأس ونغم الراضيات فلا تسخط فطوى لمن كان لنا وكنا له ^(٣) . وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الحور العين في الجنة ينتن : نحب الحور الحسان خبثا لأزواج كرام ^(٤) . وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى ﴿ في روضة يبرح ﴾ قال السباع في الجنة . وقال أبو أمامة الباهلي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله لثنان من الحور العين يمتياها بأحسن صوت سمعه الإنسان والجن وليس يزار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه ^(٥) .

بيان جل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : ألا هل من مشعر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب السمكة نوريت لا نورجانة تهزوقصر مشيدونهم مطرد ولا كلمة كثيرة نصيحة وزوجة وزوجة حسناء جملة في حبرة ونعمة في مقام أبدا ونضرة في دار عالية هبة سليمة . قالوا : نحن المشعرون لها يا رسول الله قال : قولوا : إن شاء الله تعالى . ثم ذكر الجهاد وحض عليه ^(٦) . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هل في الجنة خيل فلما تعجب ؟ قال : إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حراء فتطير بك في الجنة حيث شئت ، وقال له رجل : إن الإبل تعجبني فهل في الجنة من إبل ؟ فقال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتئت نفسك ولذت

بنيامه ولقد منى من حديث علي . أن في الجنة لجنسا الحور الذين أسوا لهم اسم الخلائق مثلهما يلقن نغم الحفلات فلا تيد ونغم الثامعات فلا نبأس ونغم الراضيات فلا تسخط فطوى لمن كان لنا وكنا له . وقال غريب ولأن الفبيخ في كتاب النظامة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف . فيجتمعن في كل سبعة أيام فيلقن بأصوات ... الحديث . (١) حديث : قال رجل يا رسول الله أياض أهل الجنة ؟ قال : يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من مبيعين منك . أخرجه الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أنس . يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع . فليل أو بلي ذلك ؟ قال : يعطى ثوبان . (٢) حديث : إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وعثمانة آلاف ثيب يعاق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا . أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب النظامة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال : ما من حوراء . ولم يذكر فيه قتاله لمن ، وأسناده ضعيف . وهضم قبله حديث . (٣) حديث : أن في الجنة سورا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء . . . الحديث . أخرجه الترمذي فركه في موضعين من حديث علي وقد تقدم بسنه قبل هذا حديثين .

(٤) حديث أنس : أن الحور في الجنة ينتن فيلقن : نحب الحور الحسان خبثا لأزواج كرام . أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود بن المنكسر قال البخاري يشككون فيه وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به . (٥) حديث أبي أمامة : ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله لثنان من الحور العين يمتياها بأحسن صوت سمعه الإنسان والجن وليس يزار الشيطان ولكن بتحميد الله وهديسه . أخرجه الطبراني بإسناد حسن . (٦) حديث أسامة بن زيد : ألا هل من مشعر للجنة إن الجنة لا خطر لها . . . الحديث . أخرجه ابن ماجه وابن حبان .

غيثاك^(١) ، وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ، يكون حله وفصاه وشبابه في ساعة واحدة^(٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلقين ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول بالآخرى تذكر يوم كذا في مجلس كذا فذكرنا فذكرنا الله عز وجل فغفر لنا^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أهل الجنة جرد مرد جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع^(٤) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم وثلثان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كآيين الجبابية إلى صنماه وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتعنى ما بين المشرق والمغرب^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : نظرت إلى الجنة فإذا الرمانه من رمانها بكلك البعير القتب وإذا طيرها كالبعث ، وإذا فيها جارية قفلت يا جارية لمن أنت ؟ فقالت لرب بن حارثة ، وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر^(٦) ، وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكملي فقالت (قد أفلح المؤمنون) فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم قلنا تفصيلا .

وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جعلتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء ، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنها من نخل لينة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الرموس ، وإن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر : ملوك نامحور أبناء ثلاث وثلاثون في سن واحد طولهم ستون ذراعاً في السماء ، كل جرد مرد قد أمنوا المذاب وأطاعتهم بهم الدار ، وإن أنهارها لتجري على مضراض من ياقوت وزبرجد ، وإن عروقها ومخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يمل عليها إلا الله تعالى ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة ، وإن لهم فيها خيلا وإبلًا حفاقة رسالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاوون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون ، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى

(١) حديث جامع رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فلما تضيبي ... الحديث أخرجه الترمذي من حديث جريرة مع اختلاف لفظه في المسمود مختلف في ورواها ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف رواية عبد الرحمن بن سابط عن حماد بن عمار وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى المديني عبد الرحمن بن سابط في قوله هل ابن منته في الصحاح ولا يصحبه حصة . (٢) حديث أبي سعيد « أن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ، ويكون حله وفصاه وشبابه في ساعة واحدة » أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب ، قال : وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم : في الجنة جامع ولا يكون ولد ، انتهى . ولأحد من حديث أبي رزين « بله ويل مثل قداسك في الدنيا ويتلفذن بك غير أن لا تولد » ، (٣) حديث « إذا استقر أهل الجنة مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري من حديث ما ذكره وحسنه دود قوله « يجرى جماد » وهو قوله « هل خلق آدم » هل آخره ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا « أهل الجنة جرد مرد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين » الحديث ، (٤) حديث « أهل الجنة جرد مرد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين » الحديث ، (٥) حديث « أدنى أهل الجنة مائة ألف له ثمانون ألف خادم ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد متعلما من أوله إلى قوله « ولهم عليهم التيجان » ومن هنا يستأد أيضا وقال لا لمره إلا من حديث رشيد بن سعد : (٦) حديث « نظرت إلى الجنة فإذا الرمانه من رمانها بكلك البعير القتب وإذا طيرها كالبعث ... الحديث » ورواه الطبري في تفسيره من رواية أبي هريرة البدي عن أبي سعيد وأبو مروان اسمه حمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « يقول الله أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

خسانها من وراء تلك السنين حلة ، قد ظهر أفة الأخلاق من سوء والأجساد من الموت ، لا يمتثلون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك ، لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، أما أنه ليس ليل يكثر التدق على الرواح والرواح على التدق ، وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليلته في بصره وملكه مسيرة ما تقوم في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ، ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه ، يتدى عليهم بسبعين ألف صحيفة من ذهب ويراح عليهم بثلاثها ، في كل صحيفة لون ليس في الأخرى مثله ، ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوله ، وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب . وقال مجاهد : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكة ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ؛ وأرفعهم الذي ينظر إلى ربه بالغداة والعشي . وقال سعيد ابن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة ؛ سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إن في الجنة حوراء يقال لها العيئة إذا مشيت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف صحيفة وهي تقول : أين الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟ وقال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا مهر الآخرة . وقال أيضا في طلب الدنيا ذل النفوس ، وفي طلب الآخرة عز النفوس ، فيأجبا لمن يختار المذلة في طلب ما يبنى ويترك المرفى في طلب ما يبنى !

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك تعالى

قال الله تعالى ﴿ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةً ﴾ وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى ، وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة - وقد ذكرناه حقيقة في كتاب المحبة - وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما ينتقده أهل البدعة . قال جرير بن عبد الله البجلي : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال « إنكم ترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ ^(١) وهو يخرج في الصحيحين وروى مسلم في الصحيحين عن صيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةً ﴾ قال : وإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عندنا موعدا وموعدا يريد أن ينجز كونه قالوا : ما هذا الموعد ؟ ألم يقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجزنا من النار ؟ قال : فرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه ^(٢) ، وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة ، وهذه هي غاية الحسن ونهاية النعمى ، وكل ما فصلناه من التمتع عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند معادة اللقاء منتهى ، بل لانسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء : وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همه العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى . وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المرسحة في المرعى .

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال « إنكم ترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ وهو يخرج في الصحيحين كما ذكره المصنف . (٢) حديث صيب في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةً ﴾ رواه مسلم كما ذكره المصنف .

نظم الكتاب يباب في سمة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يحب الفأل ^(١) ، وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة
فنفقدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في التفاؤل ، ونرجو أن ينجم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كاختتمنا الكتاب
بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال الله تعالى (إن لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال تعالى
(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تنفخوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم)
وقال تعالى (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيا) .

ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازات به التقدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا ، ولستغفره من
أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ، ولستغفره عما ادعينا به وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه
ولستغفره من كل علم وعمل قصدا به وجهه الكريم ثم غاظه غيره ، ولستغفره من كل وعد وعدها به من
أنفسنا ثم قصرا في الوفاء به ، ولستغفره من كل لمة ألهم بها علينا فاستمنا لها في مصيئته ، ولستغفره من كل قصر
وتمرير بقصرنا ناقص وقصير مقصر كنا متصفين به ، ولستغفره من كل خطرة دعوتنا إلى تصنع وتكلف
تزيينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام لفظناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا
ولن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا
فإن الكرم هيم والرحمة واسمه والجلود على أصناف الخلاق فاقض . ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة
لنا إليه إلا فضله وكرمه . فقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين
الجن والإنس والطير والبهائم والوحام فيها يتعاطفون وبها يتراحون وآخر تسما وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم
القيامة ^(٢) ، ويروى أنه كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي
وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يتجلى الله عز
وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول ابشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في التراب يوديا
أو نصرايا ^(٤) ، وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذنوبه في مائة ألف ألف
وعشرة آلاف ألف ^(٥) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للؤمنين هل أحببت لثاني
فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم ؟ فيقولون رجونا غفوك ومغفرتك فيقول قد أوجب لك مغفرتي ^(٦) ، وقال

(١) حديث : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحب التفاؤل . متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث « ويعجبني الفأل
الصالح والسكامة الحسنه » ولما من حديث أبي هريرة « وغيرها أقال « قال « السكامة الصالحة يسعها أحبك » .

(٢) حديث « أن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة
وسلم ، (٣) حديث « إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه أن رحمتي سبقت غضبي ... الحديث » متفق

عليه من حديث أبي هريرة « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي » فقط البخاري وقال مسلم « كتب
في كتابه على نفسه أن رحمتي تلعب غضبي » . (٤) حديث « يتجلى الله تعالى ليوم القيامة ضاحكا فيقول ابشروا معشر المسلمين فإنه

ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يوديا أو نصرايا » أخرجه مسلم من حديث أبي موسى « إذا كان يوم القيامة
دفع الله تعالى إلى كل مسلم يهوديا أو نصرايا فيقول هذا لثاؤك من النار » ولأن داود « أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة

... الحديث » وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضا « يتجلى الله تعالى لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا إلى
وجهه فيقولون سبحنا فيقول لهموا به وسكن فليس هذا يوم عباد » وفيه على بن يزيد بن جعدان . (٥) حديث « يشفع الله

آدم يوم القيامة من ذنوبه في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف » أخرجه الطبراني من حديث أبي إسحاق ضعيف .
(٦) حديث « أن الله تعالى يقول يوم القيامة للؤمنين هل أحببت لثاني فيقولون نعم ... الحديث » أخرجه أحمد والطبراني من

حديث ماذا يسند ضعيف .

رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو عافني في مقام ^(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للسلين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بإخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون فلذا رأى ذلك الكفار قالوا ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ ^(٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشقية بولدها ^(٣) ، وقال جابر بن عبد الله : من زادت حسنته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسنته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوتى نفسه وأقل ظميره .

ويروي أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام : يا موسى استغاث بك قارون فلم أنفه وعزني وجلالي لو استغاث لي لأغنته وهفوت عنه . وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار ، يقول الله تبارك وتعالى : ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردهما إلى النار ، فيعدو أحدهما في سلسله حتى يقتحمها ويتلصقا الآخر ويأمر بردهما ويسألها عن فعلهما ، فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال المصيبة فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية ويقول الذي تلتصقا حسن علي بك كان يسمعي أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها ، فيأمر بهما إلى الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوا وادخلوا الجنة برحمتي ^(٤) ، ويروي أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ ﴿ وكنت على شفا حفرة من النار فأخذكم منها ﴾ فقال الأعرابي : فو الله ما أفتكم منها وهو يريد أن يؤمكم فيها ، فقال ابن عباس : خذوها من غير فني . وقال الصنابحي : دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فيسكت فقال : مهلا ... لم يكني ؟ فو الله ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم فيه خير إلا حدثتكم به إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكم به اليوم وقد أحبط بنفسى ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حزم الله الله عليه ^(٥) ، وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل يحمل منها مثل مقلبصر ، ثم يقول أشكر من هذا شيء ؛ أظنلتك كنييت الحافظون فيقول لا يارب . فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك

(١) حديث « يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو عافني في مقام » أخرجه الترمذي من حديث أس وقال حسن غريب . (٢) حديث « إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للسلين ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار... الحديث » في إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ أخرجه السنن في الكبير من حديث جابر بن عمر . (٣) حديث « الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشقية بولدها » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي رواية : لعل المراد من النبي إذ وجدت سبييا في السبي فأخذته يتيما فأرضته . (٤) حديث « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوا بكنكم وادخلوا الجنة برحمتي » . ورواه في مساجيات أبي الأسود القهري من حديث أس وفيه الحسين بن داود البجلي قال الخطيب ليس بصفة . (٥) حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت : من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حزم الله الله عليه . أخرجه مسلم من هذا الوجه وأخفا عليه من غير رواية الصنابحي بإفظ آخر .

اليوم ، فيخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول إنك لا تعلم ، قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وتحلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء ^(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط : إن الله يقول لللائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذرفها أحدا من أمرتاه ، ثم يقول أرجعوا فنوجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذرفها أحدا من أمرتاه ، يقول أرجعوا فنوجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذرفها أحدا من أمرتاه ، فكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدقوني هذا الحديث فاقروا إن شئتم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) قال فيقول الله تعالى شغمت الملائكة وشغمت النيران وشغمت المؤمنين ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة فيخرج منها قرما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حما فيلقبهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحية في حيل السيل ألا ترونها تكون مما على الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر ، وما يكون منها إلى الظل أبيض ، قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترى بالبادية قال : فيخرجون كالثلث في وقاهم الخوازم يمر بهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتاة الرحمن الذين أدخلهم الجنة بنير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول أدخلوا الجنة فإرايتهم فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم نعط أحدا من الملائكة ، فيقول الله تعالى إن لكم عندى ما هو أفضل من هذا فيقولون ياربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رزاقى عنكم فلا يحيط عليكم ببده أبدا ^(٢) ، رواه البخارى ومسلم في صحيحهما . وروى البخارى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : عرضت على الأمم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط ، فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمتى فقبل هذا موسى وقومه ، ثم قيل لى انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق ، فقبل لى انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا ، فقبل لى هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سمعون ألفا يدخلون الجنة بنير حساب ، فتفرق الناس ولم يبق لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنذاكر ذلك الصحابة فقالوا : أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آتانا الله ورواه هؤلاء هم أبناؤنا ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضب فقال : ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال : أنت منهم ، ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سبقك بها عكاشة ^(٣) ، وعن عمر بن حزم الأنصارى قال : تنيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع ، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا : يا رسول الله اجتهدت عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال : لم يحدث إلا خير إن ربى عز وجل وعدي أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا لا حساب عليهم وإنى سألت ربى في هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربى ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من

(١) حدث عبد الله بن عمرو : أن الله يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينظر له لمة ولعمرون سجلا ، فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب . (٢) حديث : أن الله يقول لللائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ... الحديث ، في إخراج المومنين وقوله تعالى لأهل الجنة : فلا استعط عليكم ببده أبدا ، أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد . (٣) حديث ابن عباس : عرضت على الأمم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط ، فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمتى فقبل هذا موسى وقومه ، ثم قيل لى انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق ، فقبل لى انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا ، فقبل لى هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سمعون ألفا يدخلون الجنة بنير حساب ، فتفرق الناس ولم يبق لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنذاكر ذلك الصحابة فقالوا : أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آتانا الله ورواه هؤلاء هم أبناؤنا ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضب فقال : ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال : أنت منهم ، ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سبقك بها عكاشة ، رواه البخارى .

السبعين ألفا سبعين ألفا ، قال ، قلت يا رب وتبلغ أمي هذا ؟ قال أكل لك العدد من الأعراب ^(١) ، وقال أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عرض لي جبريل في جانت الحرة فقال : بشر أمتك أنه من مات لا يترك بالله شيئا دخل الجنة ، فقلت يا جبريل وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم وإن سرق وإن زنى ، قلت وإن سرق وإن زنى ؟ قال وإن سرق وإن زنى قلت وإن سرق وإن زنى ؟ قال وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر ^(٢) ، وقال أبو الدرداء : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولئن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ فقال ﴿ ولئن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ قال « وإن رغب أنف أبي الدرداء ^(٣) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا نذائك من النار ^(٤) » وروى مسلم في الصحيح عن أبي بردة : أنه حدث عن ابن عبد العزيز عن أبيه أن موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله تعالى مسكانه النار يهوديا أو نصرانيا ، فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو - ثلاث مرات - أن أباه حذته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لحلف له ^(٥) وروى أنه وقف صبي في بعض المغازي يتنادى عليه فيمن يريده - في يوم صائف شديد الحر - فبصرته به امرأة في خباء القوم فأقبلت تشتم وأقبل أصحابها خلفها ، حتى أخذت العصب وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلت على بطنها تقيبه الحر ، وقالت : ابني ابني فيسكن الناس وتركوا ما هم فيه ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال « أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ قالوا : نعم ، قال صلى الله عليه وسلم « فإن الله تبارك وتعالى أرحم بكم جميعا من هذه بابنها ^(٦) » فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة . فهذه الأحاديث وما أوردنا في كتاب الرجاء يبشرنا بصفة رحمة الله تعالى ، فخرجوا من الله تعالى أن لا يعلمنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهل به منته وسمة جوده ورحمته .

(١) حديث عمرو بن حزم الأمامي : تيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلانا لا يخرج إلا لملة مكتوبة ثم يرجع وفيه « إن ربي وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لأحباب طيبين » وفيه « أمطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا » أخرجه البيهقي في البيث والثلثون والأحد وأبي يعلى من حديث أبي بكر « تزادني مع كل واحد سبعين ألفا » وفيه رجل لم يسم ولأحد والبطراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر : فهلا استزده ؟ فقال « قد استزده فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا » قال عمر : فهلا استزده ؟ قال « قد استزده فأعطاني مسكنا » وفرج عبد الله بن أبي بكر يديه قال عبد الله وسط يديه وحى عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضعيف . (٢) حديث أبي ذر « عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال : بشر أمتك بأنه من مات لا يترك بالله شيئا دخل الجنة ... الحديث » متفق عليه يلفظ « أفاني جبريل لبشرني » وفي رواية لها « أفاني لك من ربي » . (٣) حديث أبي الدرداء : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولئن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت « وإن زنى وإن سرق ... الحديث » رواه أحمد بإسناد صحيح . (٤) حديث « إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا نذائك من النار » رواه مسلم من حديث أبي موسى نحوه وقد تقدم . (٥) حديث أبي بردة . (٦) حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أن موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مسكانه النار يهوديا أو نصرانيا » مراه المنصف لرواية مسلم وهو كذلك . (٧) حديث : توقف صبي في بعض المغازي ، يتنادى عليه فيمن يريده ، في يوم صائف شديد الحر ، فبصرته به امرأة ... الحديث وفيه « الله أرحم بكم جميعا من هذه بابنها » متفق عليه متصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يبي لإذا امرأة من النسي تسمى اذ وجدت سبيها في النسي ، أخذته فألصقته بطنها وأرضعت ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « آمروا هذه المرأة طارحة ولها في النار ؟ قلنا : لا والله وهي تهدى على أن لا تطرحه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أرحم بعباده من هذه بولها » لفظ مسلم وقال البخاري : فإذا امرأة من النسي قد تحلب بها نسي اذ وجدت سبيها ... الحديث .

والحمد لله تعالى عودا على يده والصلوة والسلام على سيدنا محمد في كل حركة ومهدة .
يقول مؤلفه عبد الرحمن بن الحمين الرافعي : اني أكلت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٦٦ هـ ، وأكلت ببيض هذا المختصر منها في يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ هـ انتهى

فهرس الجزء الرابع

من إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي

| صفحة | صفحة |
|---|---|
| ٦٩ بيان مظان الحاجة إلى الصبر ... الخ | ٢ كتاب التوبة |
| ٧٥ بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه | ٣ الركن الأول في نفس التوبة ... الخ |
| ٨٠ الشطر الثاني من الكتاب في الشكر | ٤ بيان حقيقة التوبة وحدها |
| الركن الأول في نفس الشكر | ٥ بيان وجوب التوبة وفصلها |
| بيان فضيلة الشكر | ٧ بيان أن وجوب التوبة على الفور |
| ٨١ بيان حد الشكر وحقيقته | ٩ بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص |
| ٨٥ بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى | والأحوال فلا يتفك عنه أحد البتة |
| ٩٠ بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه | ١٣ بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها |
| الركن الثاني من أركان الشكر ... الخ | فهو مقبولة لا معاة |
| بيان حقيقة النعمة وأقسامها | ١٦ الركن الثاني فيها عنه التوبة وهي الذنوب |
| ١٠٩ بيان وجه الانتماء في كثرة نعم الله تعالى | بياد أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات |
| وتسلسلها وخروجها عن الحصر | العبد |
| الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق | ٢٣ بيان كيفية توزع الدرجات والممرات |
| أسباب الإدراك | في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا |
| ١١١ الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق | ٢٤ بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب |
| الإرادات | ٣٤ الركن الثالث في تمام التوبة ... الخ |
| ١١٢ الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق | ٤٣ بيان أقسام العباد في دوام التوبة |
| القدرة وآلات الحركة | ٤٦ بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب ... الخ |
| ١١٦ الطرف الرابع في نعم الله تعالى في | ٤٩ الركن الرابع في دواء التوبة ... الخ |
| الأصول التي يحصل فيها الأظعمة ... الخ | ٩٠ كتاب الصبر والفكر |
| ١١٨ الطرف الخامس في نعم الله تعالى في | الشطر الأول في الصبر |
| الأسباب الموصلة للأظعمة لإليك | ٩١ بيان فضيلة الصبر |
| الطرف السادس في إصلاح الأظعمة | ٩٢ بيان حقيقة الصبر ومعناه |
| ١١٩ الطرف السابع في إصلاح المصلحين | ٩٦ بيان كون الصبر نصف الإيمان |
| ١٢٠ الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في | بيان الأسماء التي تتجدد للصبر ... الخ |
| خلق الملائكة عليهم السلام | ٩٧ بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة |
| ١٢٣ بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر | والضعف |

| صيفة | صيفة |
|---|--|
| ١٢٧ الركن الثالث من كتاب الصبر | ١٩٩ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقائمين والصادقين |
| بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد | ٢٠١ بيان فضيلة الفقر على الغنى |
| ١٢٤ بيان فضل النعمة على البلاء | ٢٠٦ بيان آداب الفقير في فقره |
| ١٣٥ بيان الأفضل من الصبر والفكر | ٢٠٧ بيان آداب الفقير في قبول العطاء الخ |
| ١٤٢ كتاب الخوف والرجاء | ٢١٠ بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه |
| ويشتمل على شطرين | ٢١٤ بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال |
| الشطرا الأول | ٢١٥ بيان أحوال السائلين |
| بيان حقيقة الرجاء | ٢١٦ الشطر الثاني من الكتاب في الزهد |
| ١٤٤ بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه | بيان حقيقة الزهد |
| ١٤٦ بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويقلب | ٢١٩ بيان فضيلة الزهد |
| ١٥٥ الشطر الثاني من الكتاب | ٢٢٥ بيان درجات الزهد وأقسامه الخ |
| بيان حقيقة الخوف | ٢٣٠ بيان تفصيل الزهد فيها من هروريات الحياة |
| ١٥٧ بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف | ٢٤١ بيان علامات الزهد |
| ١٥٨ بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه | ٢٤٣ كتاب التوحيد والتوكل |
| ١٦٠ بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه | بيان فضيلة التوكل |
| ١٦٤ بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما | ٢٤٥ بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل وهو الشطر الأول من الكتاب |
| ١٦٧ بيان الدواء الذي يستجاب حال الخوف | ٢٥٩ الشطر الثاني من الكتاب |
| ١٧٣ بيان معنى سوء الخاتمة | بيان حال التوكل |
| ١٨٠ بيان أحوال الأتقياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف | ٢٦٤ بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل |
| ١٨٣ بيان أحوال الصالحين والتائبين والسلف والصالحين في شدة الخوف | ٢٦٥ بيان أعمال المتوكلين |
| ١٨٩ كتاب الفقر والزهد | ٢٧٢ بيان توكل المعيل |
| ١٩٠ الشطر الأول من الكتاب في الفقر | ٢٧٥ بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأجباب يعزب مثال |
| بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه | ٢٨١ بيان آداب المتوكلين إذا عرق متاعهم |
| ١٩٣ بيان فضيلة الفقر مطلقا | ٢٨٦ بيان أن ترك التداوى قد يصعد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل الخ |
| | ٢٩٠ بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال |

| صحيفة | صحيفة |
|--|--|
| ٢٩٦ بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض | ٢٩٦ بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض |
| وكتابه | وكتابه |
| ٢٩٣ كتاب المحبة والشوق | ٢٩٣ كتاب المحبة والشوق |
| والأنس والرضا | والأنس والرضا |
| ٢٩٦ بيان شواهد الشرع في حب المبدقة تعالى | ٢٩٦ بيان شواهد الشرع في حب المبدقة تعالى |
| ٢٩٦ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق | ٢٩٦ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق |
| معنى محبة المبدقة تعالى | معنى محبة المبدقة تعالى |
| ٣٠٠ بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده | ٣٠٠ بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده |
| ٣٠٧ بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة | ٣٠٧ بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة |
| الله تعالى الخ | الله تعالى الخ |
| ٣١٢ بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة | ٣١٢ بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة |
| على المعرفة في الدنيا | على المعرفة في الدنيا |
| ٣١٥ بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى | ٣١٥ بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى |
| ٣١٩ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب | ٣١٩ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب |
| ٣٢٠ بيان السبب في تصور أنهم الخالق من | ٣٢٠ بيان السبب في تصور أنهم الخالق من |
| معرفة الله سبحانه وتعالى | معرفة الله سبحانه وتعالى |
| ٣٢٢ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى | ٣٢٢ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى |
| ٣٢٧ بيان محبة الله للمبدق ومعناها | ٣٢٧ بيان محبة الله للمبدق ومعناها |
| ٣٢٩ القول في علامات محبة المبدق تعالى | ٣٢٩ القول في علامات محبة المبدق تعالى |
| بيان معنى الأنس بالله تعالى | بيان معنى الأنس بالله تعالى |
| ٣٤١ بيان معنى الانبساط والإدلال الذي | ٣٤١ بيان معنى الانبساط والإدلال الذي |
| تشره غلبة الأنس | تشره غلبة الأنس |
| ٣٤٣ القول في معنى الرضا بقضاء الله الخ | ٣٤٣ القول في معنى الرضا بقضاء الله الخ |
| ٣٤٤ بيان فضيلة الرضا | ٣٤٤ بيان فضيلة الرضا |
| ٣٤٧ بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف | ٣٤٧ بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف |
| الموى | الموى |
| ٣٥١ بيان أن الدعاء غير مناقض الرضا | ٣٥١ بيان أن الدعاء غير مناقض الرضا |
| ٣٥٤ بيان أن الفراق من البلاد التي هي مظان | ٣٥٤ بيان أن الفراق من البلاد التي هي مظان |
| الماضي ومشتها لا يقتض في الرضا | الماضي ومشتها لا يقتض في الرضا |
| ٣٥٥ بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم | ٣٥٥ بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم |
| ومكاشفتهم | ومكاشفتهم |
| ٣٦٠ عاتمة الكتاب بكمالات متفرقة تتعلق | ٣٦٠ عاتمة الكتاب بكمالات متفرقة تتعلق |
| بالمحبة يلتزم بها | بالمحبة يلتزم بها |
| صحيفة | |
| ٣٦١ كتاب التوبة والإخلاص والصدق | ٣٦١ كتاب التوبة والإخلاص والصدق |
| ٣٦٢ الباب الأول في التوبة | ٣٦٢ الباب الأول في التوبة |
| بيان فضيلة التوبة | بيان فضيلة التوبة |
| ٣٦٥ بيان حقيقة التوبة | ٣٦٥ بيان حقيقة التوبة |
| ٣٦٦ بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم توبة | ٣٦٦ بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم توبة |
| المؤمن خير من عمله | المؤمن خير من عمله |
| ٣٦٨ بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالتوبة | ٣٦٨ بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالتوبة |
| ٣٧٣ بيان أن التوبة غير داخلة تحت الاختيار | ٣٧٣ بيان أن التوبة غير داخلة تحت الاختيار |
| ٣٧٦ الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته | ٣٧٦ الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته |
| ودرجاته وحقيقته | ودرجاته وحقيقته |
| فضيلة الإخلاص | فضيلة الإخلاص |
| ٣٧٩ بيان حقيقة الإخلاص | ٣٧٩ بيان حقيقة الإخلاص |
| ٣٨١ بيان أقاويل المشيخ في الإخلاص | ٣٨١ بيان أقاويل المشيخ في الإخلاص |
| ٣٨٢ بيان درجات القواب والآفات المكسرة | ٣٨٢ بيان درجات القواب والآفات المكسرة |
| الإخلاص | الإخلاص |
| ٣٨٤ بيان حكم العمل المشوب واستحقاق | ٣٨٤ بيان حكم العمل المشوب واستحقاق |
| الثواب به | الثواب به |
| ٣٧٦ الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته | ٣٧٦ الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته |
| فضيلة الصدق | فضيلة الصدق |
| ٣٨٧ بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه | ٣٨٧ بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه |
| ٣٩٣ كتاب المراقبة والمحاسبة | ٣٩٣ كتاب المراقبة والمحاسبة |
| المقام الأول من المراقبة المباشرة | المقام الأول من المراقبة المباشرة |
| ٣٩٦ المراقبة الثانية المراقبة | ٣٩٦ المراقبة الثانية المراقبة |
| ٣٩٨ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها | ٣٩٨ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها |
| ٤٠٤ المراقبة الثالثة محاسبة النفس الخ | ٤٠٤ المراقبة الثالثة محاسبة النفس الخ |
| فضيلة المحاسبة | فضيلة المحاسبة |
| ٤٠٥ بيان حقيقة المحاسبة بمبدأ العمل | ٤٠٥ بيان حقيقة المحاسبة بمبدأ العمل |
| ٤٠٦ المراقبة الرابعة في محاسبة النفس على تقصيرها | ٤٠٦ المراقبة الرابعة في محاسبة النفس على تقصيرها |
| ٤٠٨ المراقبة الخامسة المجاهدة | ٤٠٨ المراقبة الخامسة المجاهدة |
| ٤١٦ المراقبة السادسة في توبيخ النفس ومعاذتها | ٤١٦ المراقبة السادسة في توبيخ النفس ومعاذتها |
| كتاب الفكر | ٤٢٣ كتاب الفكر |
| فضيلة التفكير | فضيلة التفكير |

صحيفة

صحيفة

- ٤٢٥ بيان حقيقة الفكر وعمره
 ٤٢٧ بيان مجرى الفكر
 ٤٣٥ بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى
 ٤٤٨ كتاب ذكر الموت وما بعده
 ٤٤٩ الشطر الأول في مقدماته وتوابه الخ
 الباب الأول في ذكر الموت الخ
 بيان فضل ذكر الموت كيفما كان
 ٤٥١ بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب
 ٤٥٢ الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر
 الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته
 فضيلة قصر الأمل
 ٤٥٦ بيان السبب في طول الأمل وعلاجه
 ٤٥٨ بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره
 ٤٥٩ بيان المبادأة إلى العمل وحذرة الآخير
 ٤٦١ الباب الثالث في سيكرات الموت وشده
 وما يستحب من الأحوال عنده
 ٤٦٥ بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند
 الموت
 ٤٦٧ بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت
 بحكايات يعرب لسان الحال عنها
 ٤٦٨ (الباب الرابع) في وفاة رسول الله
 صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من
 بعده وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ٤٧٦ وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
 ٤٧٧ وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
 ٤٧٨ وفاة عثمان رضي الله تعالى عنه
 ٤٧٩ وفاة علي كرم الله وجهه
 ٤٨٠ (الباب الخامس) في كلام المحتضرين
 من الخلفاء والأمراء والصالحين
 ٤٨١ بيان أقاويل جماعة من خصوص أهل الحين
 من الصعابة والتأبين ومن يعدم من
 أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين
- ٤٨٤ (الباب السادس) في أقاويل العارفين
 على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور
 ٤٨٥ بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور
 ٤٨٩ بيان أقاويلهم عند موت الولد
 ٤٩٠ بيان زيارة القبور والدعاء لليت... الخ
 ٤٩٣ (الباب السابع) في حقيقة الموت وما يلقاه
 الميت في القبر إلى نفخة الصور
 بيان حقيقة الموت
 ٤٩٨ بيان كلام القبر للميت وكلام المرق إنا
 بلسان المغال أو بلسان الحال
 ٤٩٩ بيان عذاب القبر وسؤال منكر وكبير
 ٥٠٢ بيان سؤال منكر وكبير وصورتهما
 وضغطه القبر وبقيته القول في عذاب القبر
 ٥٠٤ (الباب الثامن) فيما عرف من أحوال
 الموق بالمسكافة في المنام
 ٥٠٦ بيان منامات تكشف عن أحوال المرق
 والأعمال النافعة في الآخرة
 ٥٠٧ بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم
 أجمعين
 ٥١١ (الشطر الثاني) من كتاب ذكر الموت
 في أحوال الميت من وقت نفخة الصور
 إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار
 وتفصيل ما بين يديه من الأحوال
 والاختطاف وفيه بيان نفخة الصور... الخ
 صفة نفخة الصور
 ٥١٣ صفة أرض المحشر وأهل
 ٥١٤ صفة المرق
 ٥١٥ صفة طول يوم القيامة
 صفة يوم القيامة ودواعيه وأساميه
 ٥١٧ صفة المسألة
 ٥٢٠ صفة الميزان
 ٥٢١ صفة الحساب

| صفحة | صفحة |
|---|---|
| ٥٣٨ صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسرورهم وأرائكهم وخيامهم | ٥٣٤ صفة الصراط |
| ٥٣٩ صفة طعام أهل الجنة | ٥٣٦ صفة الشفاعة |
| ٥٤٠ صفة الخور العين والولدان | ٥٣٨ صفة الخوض |
| ٥٤١ بيان جبل مفرقة من أوصاف أهل الجنة ووردت بها الأخبار | ٥٣٠ القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكأها |
| ٥٤٣ صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تعالى | ٥٣٥ القول في صفة الجنة وأوصاف نعيمها |
| ٥٤٤ نختم الكتاب بباب في مدحة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك | ٥٣٨ صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأثمارها |

تم الفهرس وبه تم الكتاب

